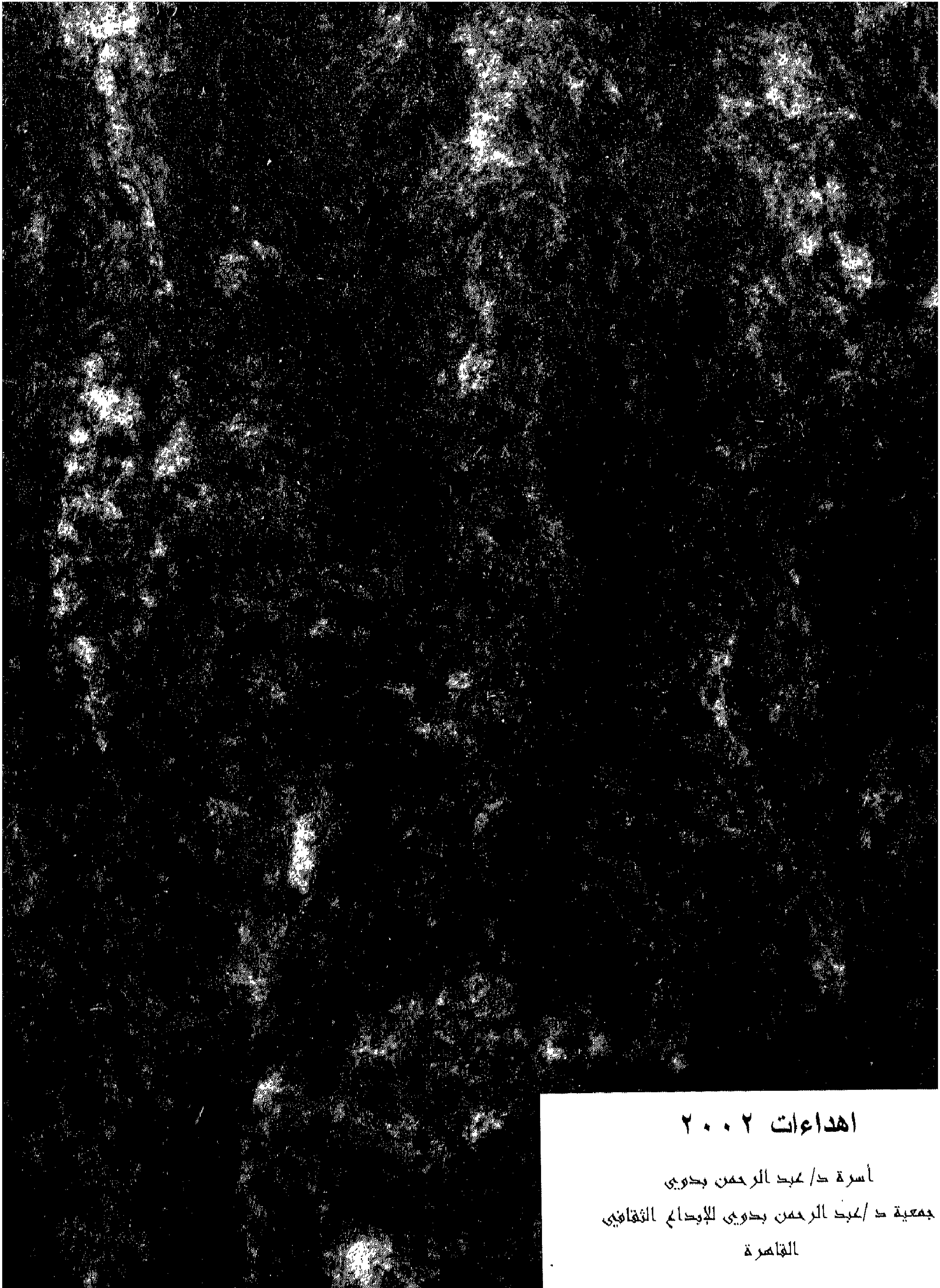
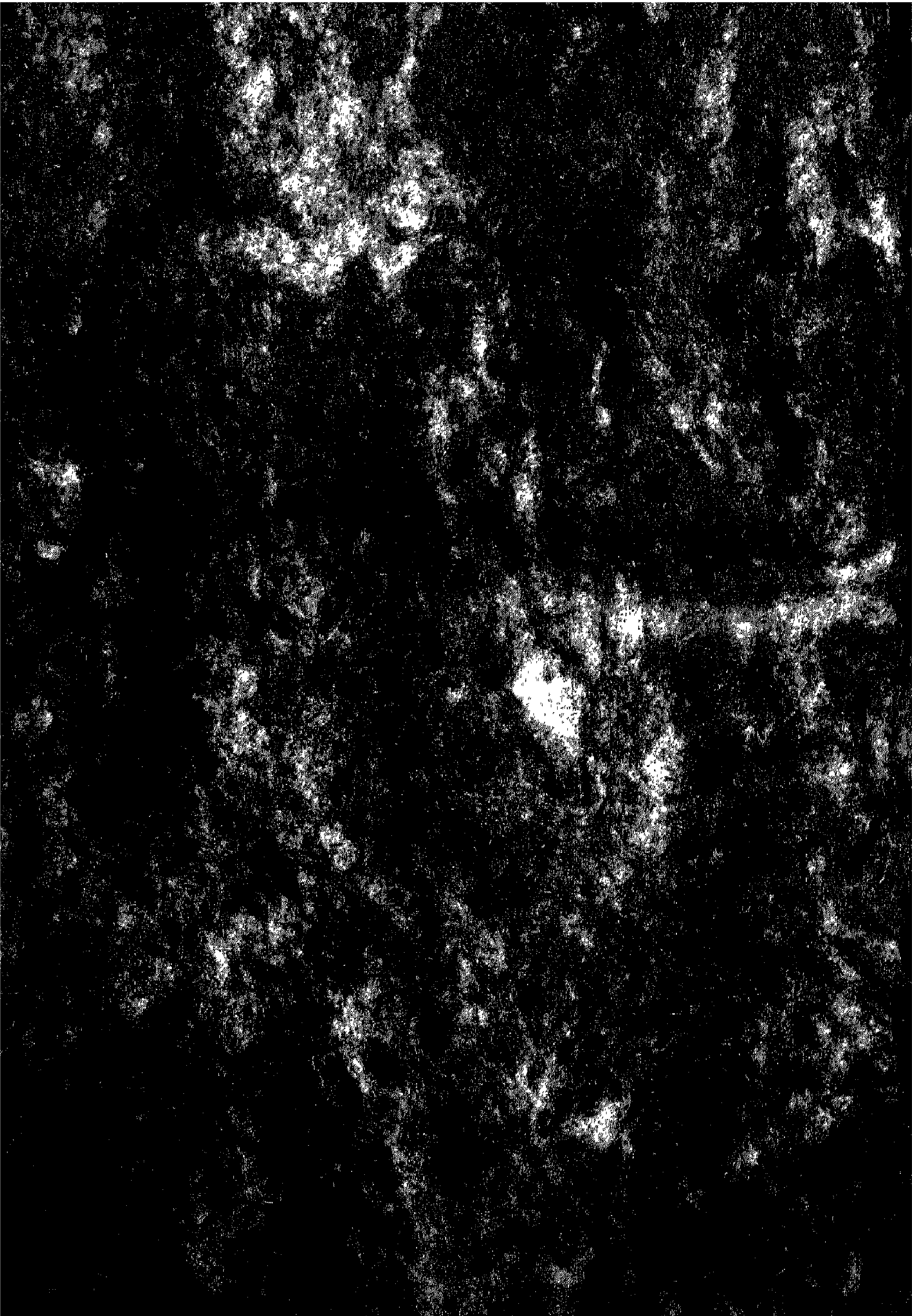



**اهداءات ٢٠٠٢**

أسرة د/ عبد الرحمن بدوي
جمعية د /عبد الرحمن بدوي للإبداع الثقافي
القاهرة





تراثنا

# نهاية الأرب

في

## فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

٦٧٧ هـ - ٧٣٢ هـ

## السفر الخامس

---

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع قرقول الزبوطلي بالظاهر ت ٩٠-١١٨
القاهرة

# فهرس

## السفر الخامس

## من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

### للنويرى

(تابع) أخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية ومن أخذ عنهم ومن آشتهر بالغناء

## الباب الرابع :

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيق

---

# ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ، وقد تقدّم نسبه فى أخبار أبيه . وكان الرشيد يولَع به فيكنيه أبا صَفْوان . قال أبو الفرج الأصفهانى فى ترجمة إسحاق : وموضعه من العلم، ومكانه من الأدب، ومحلّه من الرواية ، وتقدّمه فى الشعر، ومنزلته فى سائر المحاسن[(١)] أشهر من أن يُدَلّ عليها بوصف . قال : فأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالبَ عليه وعلى ما كان يحسنه ، فإنه كان له فى سائر أدواته نظراء وأكفاء ولم يكن له فى هذا نظير . لَحِق بمن مضى فيه وسبق من قد بقى، وسهّل طريق الغناء وأنارها، فهو إمام أهل صناعته جميعا وقُدوتهم ورأسهم ومعلّمهم؛ يعرف ذلك منه الخاصّ والعامّ ، ويشهد له به الموافق والمفارق . على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدّهم بغضا له لئلا يدعَى اليه ويسمّى به[(٢)] . وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لولّيته القضاء بحضرتى ، فإنه أولى به وأعفّ وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاة . وقد روى الحديث ولقى أهله مثل مالك بن أنس وسفيان بن عُيَينةَ [وهشيم بن بشير][(٣)] وإبراهيم بن سعد وأبى معاوية الضرير ورَوْح

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «المجالس» .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «لولا ما سبق إسحاق على ألسنة الناس وشهرته ... الخ» .

(٣) زيادة عن الأغانى .

ابن عُبَادة وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز . وكان مع كراهته للغناء أضنّ خلق الله به وأشدّهم بخلا على كل أحد حتى على جواريه وغلمانه ومن يأخذ عنه منتسبا إليه ومتعصّبا له فضـلا عن غيرهم . قال : وهو صحّح أجناس الغناء وطرائقـه وميزها تمييزا لم يقدِر عليه أحد قبله .

وقال محمد بن عمران الجُرْجاني : كان والله إسحاق غُرّةً في زمانه، وواحدا في عصره علمـا وفهما وأدبا ووقارا وجَوْدةَ رأى وصحّةَ مودّة . وكان والله يُخرس الناطق إذا نطق، ويُحيّر السامع إذا تحدّث، لا يَمَـلّ جليسُه مجلسَه، ولا تَمُجّ الآذان حديثَه، ولا تنبو النفس عن مُطاولته. إن حدّثك ألهاك ، وإن ناظرك أفادك، وإن غنّاك أطربك. وما كانت خَصْلةٌ من الأدب، ولا جنس من العلم يتكلم فيه إسحاق فيُقدِم أحد على مساجلته أو مناوأته فيه .

حكى أبو الفرج عن إسحاق قال : دعاني المأمون وعنده إبراهيم بن المهديّ وفي مجلسه عشرون جارية قد أجْلس عشرا عن يمينه وعشرا عن شماله. فلما دخلتُ سمعتُ من الناحية اليسرى خطأً فأنكرتُه . فقال المأمون : أسمعت خطأ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين. فقال لإبراهيم بن المهديّ : هـل تسمع خطأ ؟ قال لا . قال : فأعاد عليّ السؤال، فقلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وإنه لفي الجانب الأيسر. فأعاد إبراهيم سَمْعه إلى الناحية اليسرى ثم قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما في هذه الناحيـة خطأ . فقلت : يا أمير المؤمنين، مُر الجواريَ اللاتي على اليمين يُمْسِكْنَ ، فأمرهنّ فأمسَكن، ثم قلت لإبراهيم : هل تسمع خطأ؟ فتسمّعَ ثم قال : ما هاهنا خطأ . فقلت : ياأمير المؤمنين، يُمسكن وتضرب الثانية (١)، فأمسكن وضربت الثانية (١)، فعرف إبراهيم الخطأ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، هاهنا خطأ. فقال المأمون عند ذلك

(١) في الأغاني : «الثامنة» .

لإبراهيم بن المهدى : لا تُمـارِ إسحاق بعدها ، فإن رجلا عرف الخطأ بين ثمـانين وترا وعشرين حَلْقا لجدير ألّا تمـارِيَه ؛ قال : صدقت .

وقال آبن حمدون : سمعتُ الواثق يقول : ما غنّانى إسحاق قطّ إلا ظننتُ أنه قد زِيد فى مُلْكى ، ولا سمعتـه قط يغنّى غناء آبن سُرَيج إلا ظننتُ أنّ آبن سريج قد نُشِر ، و إنى ليحضُرنى غيرُه إذا لم يكن حاضرا ، فيتقدّمه عندى بطيب الصوت ، حتى إذا آجتمعا عندى رأيت إسحاق يعلو ورأيت من ظننتُ أنه يتقدّمه ينقص . و إن إسحاق لنعمةٌ من نعم الملوك التى لم يُحْظَ أحد بمثلها . ولو أن العمر والشـباب والنشاط ممـا يُشْتَرَى لآشتريتهنّ له بشطر مُلْكى .

وحكى عن أحمـد بن المكّى عن أبيه قال : كان المغنُّون يجتمعون مع إسحاق وكلهم أحسن صـوتا منه ولم يكن فيه عيب إلا صـوته فيطمعون فيه ، ولا يزال بلُطفه وحِذقه ومعرفته حتى يغلبهم جميعا ويفضُلَهم ويتقدّم عليهم . قال : وهو أوّل (٣)
من أحدث المجَتَّ ليوافق صوته ويشاكله فجاء معه عجبا من العجب ، وكان فى حلقه نُبُوٌّ عن الوتر .

وحكى قال : سأل إسحاق الموصلىّ المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرُّواة لا مع المُغنّين ، فإذا أراد الغناء غنّاه ، فأجابه إلى ذلك . ثم سأله بعـد مدّة طويلة أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء فأذن له ؛ قال : فكان يدخل ويده فى يد قاضى القضاة يحيى بن أكثم . ثم سأل إسحاق المأمون فى لُبس السواد يوم الجمعـة والصلاة معه فى المقصورة ؛ قال : فضحك المأمون وقال : ولا كلّ هذا يا إسحاق! وقد آشتريت منك هذه المسئلة بمـائة ألف دينار[1] وأمر له بها .

(١) فى الأغانى : «درهم» .

وكان لإسحاق مع إبراهيم بن المهـدى مخاطبات ومنازعات ومحاورات بسبب الغناء، وكان الرشيد ينصر إسحاق على إبراهيم أخيه. من ذلك ما حكاه إسحاق قال: كنت عند الرشيد يوما، وعنده ندماؤه وخاصّته وفيهم إبراهيم بن المهدى؛ فقال لى الرشيد: غنّ:

شربتُ مُدامةً وسُقيتُ أُخرى * وراح المُنْتشون وما ٱنتَشَيْتُ

فغنيته. فأقبـل علىّ إبراهيم بن المهـدى فقـال لى: ما أصبتَ يا إسحـاق ولا أحسنت. فقلت له: ليس هذا مما تعرفه ولا تُحسـنه، وإن شئت فغنّـه فإن لم أجدك أنك تخطئ فيه منذُ ٱبتدائك إلى ٱنتهائك فدَمِي حلال. ثم أقبلت على الرشيد فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه صناعتى وصناعة أبى، وهى التى قرّبتْنا منك وٱستخدمتْنا لك فأوطأتْنا بساطَك، فإذا نازَعَنا أحدٌ بغير علم لم نجد بُدّا من الإفصاح والذبّ؛ فقال: لا غَرْوَ ولا لوم عليك. وقام الرشيد ليبول؛ فأقبل إبراهيم بن المهدى علىّ وقال: ويحك يا إسحاق! أتجترئ علىّ وتقول لى ما قلتَ يا ٱبن الفاعلة! لا يَكْنِى. فداخلنى ما لم أملك نفسى معه، فقلت له: أنت تشتُمنى ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة وأخو الخليفة، ولولا ذلك لقلت لك: يا ٱبن الزانية كما قلت لى يا ٱبن الزانيـة. أوَ ترانى كنت لا أحسن أن أقول: يا ٱبن الزانية! ولكن قولى فى ذمّك ينصرف كله إلى خالك الأعلَم (1)، ولولاك لذكرتُ صناعته ومذهبه — قال إسحاق: وكان بَيْطارا — قال: ثم سكتّ، وعلمتُ أن إبراهيم سوف يشكونى إلى الرشيد، وسوف يسأل مَنْ حضر عما جرى فيخبرونه، فتلافيتُ ذلك بأن قلت: إنك تظن أن الخلافة تصير اليك (2)، فلا تزال تتهدّدنى بذلك وتُعاديني كما تُعادى سائرَ أولياء أخيك حسدا

(1) الأعلم: الذى بشفته العليا أو فى جانبيها شق. (2) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «أن الخلافة لك ...»

له ولولده على الأمر! وأنت تضعُف عنه وعنهم، وتستخِفّ بأوليائهم تشفّيًا، وأرجو ألا يُخرجها الله من الرشيد وولده، وأن يقتلك دونها . فإن صارت إليك — والعياذ بالله تعالى من ذلك — فحرامٌ علىّ حينئذ العيش! والموت أطيب من الحياة معك، فآصنع حينئذ مابدالك! قال: فلما خرج الرشيد وثب إبراهيم فجلس بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين، شتمنى إسحاق وذكر أمّى وآستخفّ بى . فغضب وقال لى: ويلك! ماتقول؟ قلت: لاأعلم، فسَلْ من حضر. فأقبل على مسرورٍ وحسين فسألهما عن القصة فجعلا يُخبرانه ووجهه يَرْبَدّ الى أن انتهيا إلى ذكر الخلافة فسُرِّى عنه ورجع لونه، وقال لإبراهيم: لا ذنب له، شتمته فعرّفك أنه لايقدر على جوابك، ارجع إلى موضعك وأمسك عن هذا . فلما آنفضّ المجلس وآنصرف الناس أمر الرشيد بألّا أبرح . وخرج كل من حضر حتى لم يبق غيرى، فساء ظنّى وهمّتنى نفسى . فأقبـل علىّ وقال: يا إسحاق، أترانى لم أفهم قولك ومرادك! قد والله زَنَّيته ثلاث مرات! أترانى لاأعرف وقائعَك وأقدامَك وأين ذهبت ! ويلك لا تَعُـدْ ! حدِّثنى عنك لو ضربك إبراهيم أكنتَ أقتصّ لك منه فأضربه وهو أخى يا جاهل ! أتُرَاه لو أمر غلمـانه فقتلوك أكنتُ أقتله بك! فقلت : والله يا أمير المؤمنين، قد قتلنى هذا الكلام، وإن بلغه ليقتلنّى، وما أشك أنه قد بلغه الآن . فصاح بمسرور وقال له: علىّ بإبراهيم فأُحضر، وقال لى : قم فانصرف . فقلت لجماعة من الخَدَم — وكلهم كان لى محبّا وإلىّ مائلا ولى مطيعا — : أخبرونى بمـا يجرى؛ فأخبرونى من غد أنه لمّـا دخل عليه وبّخه وجهّـله وقال له : أتستخفّ بخادمى وصنيعتى وآبن خادمى وصنيعتى وصنيعة أبى فى مجلسى ! وتُقدِم علىّ وتستخِفّ بمجلسى وحضرتى ! هاه هاه هاه! وتُقْدِم على هذا وأمثاله ! وأنت مالك وللغناء! وما يدريك ماهو! ومن أخذك به وطارحك إياه حتى تتوهّم أنك تبلغ منه مبلغ إسحاق الذى غُذِّى به وعلّمه وهو من صناعته! ثم تظن أنك

تُخَطِّئه فيما لا تدريه، ويدعوك إلى إقامة الحجة عليه فلا تثبُت[(١)] لذلك وتعتصم بشتمه! هذا مما يدلّ على السقوط وضعف العقل وسوء الأدب من دخولك فيما لا يشبهك، وغلبةِ لذّتك على مروءتك وشرفك[(٢)]، ثم إظهارك إياه ولم تُحكمه، وادّعائك ما لا تعلمه حتى ينسبك إلى إفراط الجهل. ألا تعلم، ويحك، أن هذا سوء أدب وقلّة معرفة وقلّة مُبَالاة بالخطأ والتكذيب والردّ القبيح! ثم قال: والله العظيم وحق رسوله وإلا فأنا بريءٌ من المهدي إن أصابه أحد بسوء أو سقط عليه حجر من السماء أو سقط من دابّته أو سقط عليه سقفه أو مات فجأة لأقتلنك به. والله! والله! والله! فلا تعرض له وأنت أعلم[(٣)]! قم الآن فاخرجْ؛ فخرج وقد كاد يموت. فلما كان بعد ذلك دخلت على الرشيد وإبراهيم عنده [فأعرضت عن إبراهيم][(٤)] فجعل ينظر إليّ مرة وإليه مرة ويضحك؛ ثم قال: إني لأعلم محبّتك لإسحاق وميلك إليه وإلى الأخذ عنه، وإن هذا لا يجيئك من جهته كما تريد إلا بعد أن يرضى، والرضا لا يكون بمكروه، ولكن أحسنْ إليه وأكرمه واعرف حقّه وبِرّه وصِلْه، فإذا فعلتَ ذلك ثم خالف ماتهواه عاقبتَه بيد مستطيلة منبسطة ولسانٍ منطلق. ثم قال لي: قم إلى مولاك وابن مولاك فقبّل رأسه؛ فقمت إليه وقام إليّ وأصلح الرشيدُ بيننا.

قال أبو الفرج: وكان إسحاق جيّد الشعر، كان يقول الشعر وينسُبه للعرب. فمن ذلك قوله:

لقَطَ الخدورُ إليك حُوراً عِيناً * أنسَيْنَ ما جمع الكأسُ قَطِينَا
فإذا بسَمْنَ فعَنْ كَثل غَمَامة * أو أُقْحُوان الرمل بات مَعِينا
وأصحّ ما رأت العيونُ محاجراً[(٥)] * ولَهنّ أمراضُ ما رأيت عيونا

(١) في الأغاني: عليك. (٢) كذا في الأغاني. وفي الأصل: «من دخولك فيما لا يشبهك ثم إظهارك إياه وغلبت لذتك الخ». (٣) كذا في الأغاني. وفي الأصل: «وأنت أعلم ولا تعرض له». (٤) زيادة عن الأغاني. (٥) كذا بالأغاني، وفي الأصل: «جوارحا». ٢

فكأنما تلك الوجوهُ أهِــلَّةٌ * أَقْمرْنَ بين العشر والعشرينا
وكأنهن إذا نهضْنَ لحـاجةٍ * ينهضْنَ بالعَقَدات من يَبْرِينـا

وأشعاره فى هذا النوع كثيرة .

روى عن الأصمعىّ قال : دخلت أنا و إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ يوما على الرشيد فوأيناه لَقِسَ النفس[1]، فأنشده إسحاق :

وآمرةٍ بالبخل قلتُ لها اقْصِرى * فذلك شىءٌ ما إليــه سـبيلُ
أرى الناس خُلّان الكرامِ ولا أرى * بخيلا له حتى الممـاتِ خليــل
و إنى رأيتُ البخل يُزْرِى بأهـله * فأكرمتُ نفسى أن يقال بخيـل
ومن خيرِ حالاتِ التى لو علمته[2] * إذا نال خيرًا أن يكون يُنيـــل
فعـالِى فعالُ المكثرين تجمُّـلًا * ومالى كما قد تعلمين قليـــل
وكيف أخافُ الفقر أو أُحرَمُ الغِنَى * ورأىُ أمير المؤمنين جميل!

قال : فقال الرشيد : لاتخف[3] إن شاء الله ؛ ثم قال : لله درّ أبياتٍ تأتينا بها ما أشدّ أصولَها، وأحسنَ فصولَها، وأقلّ فُضُولَها ! وأمر له بخمسين ألف درهم . فقال له إسحاق : وصفُك والله يا أمير المؤمنين لشـعرى أحسنُ منه، فعلامَ آخذ الجائزة ! فضحك الرشيد وقال : اجعلوها مائة ألف درهم . قال الأصمعىّ : فعلمت يومئذ أن إسحاق أحذقُ بصيد الدراهم منّى .

قال أبو عبد الله بن حمدون : سأل المتوكل عن إسحاق، فعُرِّف أنه كُفّ وأنه بمنزله ببغداد، فكتب فى إحضاره . فلما دخل عليه رفعه حتى أجلسه قُدّام السرير وأعطاه

(١) لقست نفسه (من باب فرح) : غثت وخبثت . (٢) كذا فى الأغانى وكتب الأدب . وفى الأصل :

ومن خير خلات الفتى قد علمته * إذا نال خيرا أن يقال نبيل

(٣) كذا فى الأغانى : وفى الأصل : «لا كيف ان شاء الله» .

مخـدّة وقال : بلغنى أن المعتصم دفع إليـك فى أوّل يوم جلست بين يديه مِخَدّة ، وقال : إنه لا يستجلب ما عند حرّ مثلُ إكرامه. ثم سأله : هل أكل ؟ فقال نعم؛ فأمر أن يُسـقَى . فلما شرب أقداحا قال : هاتوا لأبى محمد عُودا ؛ فجىء به فاندفع يغنّى بشعره :

ما علّة الشيخ عيناه بأربعةٍ * تَغرورِقانِ بدمع ثم ينسكب

قال ابن حَمدون : فمـا بقى غلامٌ من الغِلمان الوقوف [ على الجَير ](1) إلا وجدتُه يرقُص طرباً وهو لايعلم بمـا يفعل؛ فأمر له بمائة ألف دينار(2) . ثم انحـدر المتوكل الى الرّقة وكان تستطيبها لكثرة تغريد الطير فيها؛ فغنّاه إسحاق :

أأن هَتَفت وَرقاءُ فى رَونق الضُّحَى * على فنَنٍ غضّ النبات من الرَّنْد

بكيتَ كما يبـكى الوليــدُ ولم تزل * جليـدًا وأبديت الذى لم تكن تُبْدِى

فضحك المتـوكل ثم قال : يا إسحاق ، هــذه أخت فَعلتك بالواثق لمّـا غنيّته بالصالحيّـــة :

طَرِبتُ إلى أُصَيْبِيَة صِـغارِ * وذكّرنى الهوى قربُ المزارِ

فكم أعطاك لمّـا أذِن لك فى الانصراف ؟ قال : مائـة ألف دينـار(2) ؛ فأمر له بمـائة ألف دينار وأذن له بالانصراف(3) . وكان آخر عهده بإسحاق . توفى بعد ذلك بشهرين . وكانت وفاته فى شهر رمضان ســنة خمس وثلاثين ومائتـين . وكان يسأل الله تعـالى ألا يبتليه بالقُولَنج(4) لِمـا رأى من صعوبته على أبيـه ، فرأى فى منامه كأنّ قائلا يقول له : قد أُجيبت دعوتُك ولست تمـوت بالقُولَنج ولكنّك

(1) زيادة عن الأغانى . والجير : اسم قصر بسرّ من رأى بناه المتوكل وأنفق على عمارته أربعة آلاف ألف درهم .

(2) فى الأغانى : "درهم" .

(3) عبارة الأغانى : «وأذن له بالانصراف الى بغداد . وكان هذا آخر عهدنا به لأن إسحاق الخ»

(4) مرض يصيب المعدة يعسر معه خروج الثفل والريح .

تموت بغصّته ، فأصابه ذَرَب فى شهر رمضان ، فكان يتصدّق فى كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم، ثم ضعُف عن الصوم فلم يُطِقه ومات فى الشهر . ولما نُعِى إلى المتوكل غمّه وحزِن عليه وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته . رحمه الله تعالى .

## ذكر أخبار عَلُّويَه

هو أبو الحسن على بن عبد الله بن سيف . وجدّه سيف من الصُّغْد الذين سباهم الوليد بن عثمان بن عفّان وٱسترقّ منهم جماعة ٱختصهم لخدمته وأعتق بعضهم ولم يُعتِق الباقين فقتلوه . قال أبو الفرج الأصفهانى : وكان علىٌّ هذا مغنّيا حاذقا ، ومؤدّبا مُحسِنا ، وصانعا متقنا ، وضاربا متقدّما ، مع خفّة رُوح وطيب مجالسة وملاحة نوادر . وكان إبراهيم الموصلىّ علّمه وخرّجه وعُنى بتحذيقه جدّا ، فبرع وغنّى لمحمد الأمين وعاش إلى أيام المتوكّل ومات بعد إسحاق الموصلى بيسير . وكان سبب وفاته أنه خرج عليه جَرَبٌ ، فشكاه إلى يحيى بن ماسَوَيْه ، فبعث إليه بدواء مُسهِل وطِلاء ، فشرب الطلاء وٱطّلى بالدواء ، فقتله ذلك . قال : وكان عَلُّويَه أعسر ، فكان عوده مقلوب الأوتار : البمّ أسفل الأوتار كلها ثم المثلث فوقه ثم المثنى ثم الزير ؛ فكان عوده إذا كان فى يد غيره يكون مقلوبا ، وإذا أخذه كان فى يده اليمنى وضرب باليسرى فيكون مستويا . وكان إسحاق يتعصّب له فى أكثر أوقاته على مُخَارِق . وقال حماد ٱبن إسحاق : قلت لأبى : أيّما[1] أفضل عندك مُخَارِق أم عَلُّويه ؟ فقال : يا بنىّ ، عَلُّويه أعرفهما فهمًا بما يخرج من رأسه ، وأعلمهما بما يغنّيه ويؤدّيه ، ولو خُيِّرتُ[2] بينهما من يطارح جوارىّ ، أو شاورنى من يستنصحنى لما أشرت إلا بعَلُّويه ؛ لأنه يؤدّى

(١) فى الأصل : «أى» . (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « خيرنى » .

الغناء، [و](١) إذا صنع شيئا صنعه صَنعةً مُحكَمة، ومخارق لتمكُّنه من حَلقه وكثرة نَغَمه لا يُقْنَع بالأخذ منـه، لأنه لا يؤدّى صـوتا واحدا كما أخذه ولا يغنّيه مرّتين غناءً واحدا لكثرة زوائده فيه، ولكنهما إذا آجتمعا عند خليفة أو سُـوقة غلب مُخارق على المجلس والجائزةِ بطيب صوته وكثرة نغمه .

وقال أبو عبـد الله بن حمدون : حدّثنى أبى قال : اجتمعت مع إسحاق يوما فى بعض دُور بنى هاشم، وحضر علُّويه فغنّى أصواتا ثم غنّى من صنعته :

وَنُبِّئْتُ ليلى أرسلتْ بشفاعةٍ * إلىّ فهلّا نفسُ ليلى شفيعُها!

فقال له إسحاق : أحسنت أحسنت والله يا أبا الحسن ! أحسنت ما شئت ! فقام علُّويه من مجلِسه فقبّل رأس إسحاق وعينيه وجلس بين يديه(٢) وسُرّ بقوله سرورا كثيرا؛ ثم قال : أنت سيدى وآبن سيدى [وأستاذى](٣) وآبن أستاذى، ولى إليك حاجة . قال : قل، فوالله إنى أبلُغ فيها ما تُحبّ . قال : أيّمـا أفضلُ أنا عندك أم مُخارق ؟ فإنى أُحبّ أن أسمع منك فى هذا المعنى قولا يُؤثَر و يحكيه عنك من حضر، فشرّفنى به . فقال إسحاق : ما منكما إلا مُحسِنٌ مُجمِل، فلا تُرِد أن يجرى فى هذا شىء . قال : سألتك بحقّى عليك و بتُرْبة أبيك و بكل حقّ تُعظّمه إلا حكمت! فقال : ويحك! والله لو كنت أستجيز أن أقول غير الحق لقلته فيما تحب، فأمّا إذ أبيتَ إلا ذكر ما عندى، فلو خُيّرت أنا من يطارح جـوارىّ ويُغنّينى لـمـا آخترت غيرك، ولكنكما إذا غنّيتما بين يدى خليفـةٍ أو أمير غلبك على إطـرابه وآستبدّ عليك بجائزته . فغضب علُّويه وقام وقال : أُفّ من رضاك وغضبك !

وكان الواثق بالله يقول : علُّويه أصحّ الناس صنعة بعد إسحاق، وأطيب الناس صوتا بعد مُخارق، وأضربُ الناس بعد زَلْزَل وملاحظ، فهو مُصَلّىَ كلِّ سابق نادر

(١) زيادة نراها لازمة. (٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: "وصلى". (٣) زيادة من الأغانى.

وثانى كل أوّل، وأصل كل متقدّم . وكان يقول : [غناء](١) علُّويه مثل نقر الطست يبقى ساعة فى السمع بعد سكوته .

وقال عبد الله بن طاهر: لو آقتصرت على رجل واحد يغنّيني لمـا آخترت سوى علُّويه؛ لأنه إن حدّثنى ألهانى، وإن غنّانى أشجانى، وإن رجعت إلى رأيه كفانى.

وقال محمد بن عبد الله بن مالك: كان علُّويه يغنّى بين يدى الأمين، فغنّى فى بعض غنـائه :

ليتَ هندًا أنجزَتْنا ما تعِـدْ * وشفَت أنفسَنا ممـا تجِـدْ

وكان الفضل بن الربيع يضطغن عليه شيئا، فقال للأمين : إنما يعرّض بك ويستبطئ المأمون فى محاربته إياك؛ فأمر به فضُرِب خمسين سوطا وجُرّ برجله حتى أُخرِج، وجفاه مدّة؛ حتى سأل كوثرا أن يترضّاه له فترضّاه له وردّه إلى الخدمة وأمر له بخمسة آلاف درهم(٢) . فلما قدِم المأمون تقرّب إليه بذلك فلم يقع له بحيث يحبّ، وقال : إن الملك بمنزلة الأسد أو النار فلا تتعرّض لمـا يُغضبه، فإنه ربما جرى منه ما يُتلفك ثم لا يَقدِر بعد ذلك على تلافى ما فَرَط منه؛ ثم قرُب من المـأمون بعد ذلك.

قال علّويه : أمرنا المأمون أن نباكره لنصطبح، فلقينى عبدالله بن إسماعيل المراكبى مولى عَريب فقال: أيها الظالم المعتدى، أمَا ترحم ولا ترِقّ ! عَرِيب هائمة من الشوق إليك تدعو الله وتستحكمه عليك وتحلُم بك فى نومها فى كل ليلة ثلاث مرات . قال [علّويه : فقلت أمّ الخلافة زانية](١) ومضيت معه . فحين دخلت قلت : أستوثق من الباب فإنى أعرَفُ الناس بفضول الحُجّاب؛ وإذا عَريب جالسة على كرسىّ تطبخ ثلاث قدور من دَجاج . فلما رأتنى قامت فعانقتنى وقبّلتنى وقالت: أىَّ شىء تشتهى؟

---

(١) زيادة عن الأغانى . (٢) فى الأغانى : « دينار» .

فقلت : قِدْرا من هذه القدور، فأفرغت قِدْرا بيني و بينها فأكلنا ، ودعت بالنبيذ فصبّت رِطلا فشربتُ نصفه وسقتني نصفه، فما زلتُ أشرب حتى كدت أن أسكر. ثم قالت : يا أبا الحسن ، غنّيتُ البارحة فى شعر لأبى العتاهية أعجبنى، أفتسمعه (١) وتُصلحه ؟ فغنّت :

عَذِيرى من الإنسان لا إن جَفَوتُه * صفا لى ولا إن صرتُ طوْعَ يديه
وإنّى لمشتاقٌ إلى ظِلّ صاحبٍ * يروقُ و يصفُو إن كَدِرت عليه

فصيّرناه مجلسنا . وقالت : قد بقى فيه شىء ، فلم أزل أنا وهى حتى أصلحناه . ثم قالت : أُحبّ أن تغنّى أنت أيضا فيه لحنًا ففعلتُ، وجعلنا نشرب على اللحنين ثلاثا . ثم جاء الحُجّاب فكسروا الباب وآستخرجونى، فدخلت على المأمون فأقبلت (٢) أرقُص من أقصى الإيوان وأُصفّق وأُغنّى بالصوت ؛ فسمع المأمون والمغنّون ما لم يعرفوه فآستطرفوه، وقال المأمون : آدنُ ياعلُّويه وردّده، فردّدته عليه سبع مرات . فقال لى فى آخرها عند قولى : "يروق و يصفو إن كدرت عليه" : ياعلويه خذ الخلافة وأعطنى هذا الصاحب .

وقال علُّويه : قال إبراهيم الموصلىّ يوما : إنى قد صنعت صوتا وما سمعه منى أحد بعدُ، وقد أحببت أن أنفعك به وأرفع منك بأن أُلقيه عليك وأَهَبَه لك، ووالله ما فعلت هذا بإسحاق قطّ ، وقد خصَصْتك به ، فآنتحله وآدّعِه ، فلست أنسبه إلى نفسى، وستكسِب به مالا . فألقى علىّ :

إذا كان لى شيئان يا أمّ مالكٍ * فإنّ لجارى منهما ما تخيّرا

فأخذتُه عنه وآدّعيته ، وسترته طول أيام الرشيد خوفا من أن أُتّهم فيه وطولَ أيام الأمين ، حتى حدث عليه ماحدث وقدِم المأمون من خُراسان ، وكان يخرج

(١) كذا بالأغانى؛ وليس فى الأصل همزة الاستفهام . (٢) فى الأغانى : « مليا » .

(٦) إلى الشّمّاسيّة فيتنزّه، فركبت يوما فى زُلَالِى[1] وجئت أتبعه، فرأيت حَرّاقة علىّ بن هشام، فقلت للّاح: أطرح زُلَالى على الحرّاقة ففعل، وآستؤذن لى فدخلت وهو يشرب مع الجوارى، وما كانوا يحجبون جواريهم، فغنّيته الصوت فآستحسنه جدًّا وطرِب عليه، وقال: لمن هذا؟ فقلت: هذا صوت صنعته وأهديته لك ولم يسمعه أحد قبلك؛ فآزداد به عجبًا وطربًا، وقال للجارية: خُذِيه عنه، فألقيته عليها حتى أخذته، فسُرّ بذلك وطرِب، وقال لى: ما أجد لك مكافأة على هذه الهديّة إلا أن أتحوّل عن هذه الحرّاقة بما فيها وأسلمه إليك؛ فتحوّل إلى أخرى وسُلِّمت لى بخزانتها وجميع آلاتها وكل شىء فيها؛ فبعت ذلك بمائة ألف وخمسين ألف درهم، وآشتريت ضيعتى الصالحيّة.

وقال علّويه: خرج المأمون يوما ومعه أبيات قد قالها وكتبها فى رُقعة بخطّه وهى:

خرجتُ إلى صيد الظّباء فصادنى * هنالك غزالٌ أدعج العَيْن أحورُ
غزالٌ كأنّ البدرَ حلّ جبينَه * وفى خدّه الشِّعْرى المنيرة تَزْهَرُ
فصاد فُؤادى إذ رمانى بسهمه * وسهم غزالِ الإنس طرف ومحجَرُ
فيامن رأى ظبيًا يصيد، ومن رأى * أخا قَنَص يُصطادُ قهرًا ويُقْسَرُ

قال: فغنّيته فأمر لى بعشرين ألف درهم[2].

## ذكر أخبار معبَد اليَقْطينى

قال أبو الفرج: كان معبد هذا غلاما مولَّدا من مولّدى المدينة، أخذ الغناء عن جماعة من أهلها، وآشتراه بعض ولد علىّ بن يَقْطين. وأخذ الغناء بالعراق عن إسحاق وآبن جامع وطبقتهما، وخدم الرشيدَ ولم يخدم غيره من الخلفاء، ومات فى أيامه.

(١) زلال (على وزن غراب مضاف الى ياء المتكلم): ضرب من سفن دجلة كالحراقة والطيار.
(٢) فى الأغانى: «عشرة آلاف».

وكان أكثر انقطاعه إلى البرامكة . وروى أبو الفرج الأصفهانى حكاية عنه أحببت أن أذكرها فى هـذا الموضع ، وهى ما رواه بسنده إلى محمد بن عبد الله بن مالك الخُزَاعىّ، قال حدّثنى معبَد الصغير المغنّى مولى على بن يَقْطِين قال : كنت منقطعا إلى البرامكة أُحدّثهم وأُلازمهم . فبينا أنا ذات يوم فى منزلى إذ أتانى آت فدقّ بابى، فخرج غلامى ثم رجع إلىّ فقال لى : على الباب فتى ظاهر المُروءة يستأذن عليك؛ فأذنت له ، فدخل شابّ ما رأيت أحسنَ وجهًا منه ولا أنظف ثوبا ولا أجمل زِيًّا منه من رجل دَنِف عليه آثار السّقم [ظاهرة](١) . فقال لى : إنى أُحاول لقاءك منذ مدّة ولا أجد إلى ذلك سبيلا، وإن لى حاجة . فقلت : وما هى؟ فأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدىّ فقال : أسألك أن تقبلها وتصنع فى بيتين قلتُهما لحنا تغنّينى به . فقلت : هاتِهما؛ فأنشدنى :

والله يا طَرْفِىَ الجانى على بَدنِى * لتُطفئَنّ بدمعى لوعَةَ الحَزَنِ
أو لأبوحنّ(٢) حتى يحجُبوا سَكَنِى * فلا أراه وقد أُدرِجتُ فى كَفَنِى

قال : فصنعت فيه لحنًا ثم غنّيته إياه، وأُغمِى عليه حتى ظننته قدمات، ثم أفاق فقال : أعِدْ، فديتُك! فناشدته الله فى نفسه وقلت : أخشى أن تموت؛ فقال : هيهات! أنا أشقى من ذلك . وما زال يخضع لى ويتضرّع حتى أعدته، فصعِق صعقة أشدّ من الأولى حتى ظننت أن نفسه قد فاضت . فلما أفاق رددت عليه الدنانير فوضعتها بين يديه، وقلت : يا هذا، خذ دنانيرك وآنصرف عنى، قد قضيت حاجتك وبلغت وطرًا مما أردته، ولست أُحبّ أن أُشرك فى دمك . فقال : [يا](١) هذا، لا حاجة لى فى الدنانير، وهذه مثلها لك، ثم أخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدىّ وقال : أعِد الصوت علىّ مرةً أُخرى وحلٌّ لك دمى ! فشرِهَتْ نفسى فى الدنانير،

(١) زيادة عن الأغانى . (٢) كذا فى الاغانى، وفى الأصل : «أو لا توحن» ولا معنى له .

وقلت : لا والله ولا بعشرة أضعافها إلا على ثلاث شرائط . قال : وما هي؟ قلت : أُولاهن أن تقيم عندي وتحتزم بطعامي . والثانية أن تشرب أقداحا من النبيذ تُطَيِّب(١) قلبك وتسكِّن ما بك . والثالثة أن تحدّثني بقصّتك . قال : أفعلُ ما تريد . فأخذت الدنانير ودعوتُ بطعامٍ فأصاب منه إصابة مُعَذَّر، ثم دعوت بالنبيذ فشرب أقداحا، وغنّيته بشعر غيره في معناه وهو يشرب ويبكي، ثم قال : الشرطَ أعزّك الله! فغنّيته صوته فجعل يبكي أحرّ بُكاءٍ ويَنْشِج أشدّ نَشيج وينتحب . فلما رأيت ما به قد خفّ عما كان يلحقه ورأيت النبيذ قد شدّ قلبه، كررت عليه صوته مرارا . ثم قلت : حدّثني (٧) حديثك، فقال : أنا رجل من أهل المدينة خرجت متنزّها في ظاهرها وقد سال العقيق في فتية من أقراني وأخداني، فبصُرنا بفَتَيات قد خرجن لمثل ما خرجنا له ، فجلسن حِجْرة(٢) منا، وبصُرت منهن بفتاة كأنها قضيب قد طلّه الندى، تنظر بعينين ما آرتد طرفهما إلا بنفس من يلاحظهما . فأطلنا وأطلن حتى تفرّق الناس، وآنصرفن وآنصرفنا وقد أبقت بقلبي جُرحًا بطيئا آندماله ؛ فعدت إلى منزلي وأنا وَقيذ، وخرجت من الغد إلى العقيق وليس به أحدٌ فلم أر لها ولا لصواحبها أثرا، ثم جعلت أتتبّعها في طرق المدينة(٣) وأسواقها، وكأنّ الأرض أضمرتها فلم أحسّ لها بعين ولا أثر، وسقمت حتى أيِس مني أهلي . وخَلَتْ بي ظِئْري فآستعلمتني حالي وضمنت لي كتمانَها والسعي فيما أحبّه منها، فأخبرتها بقصتي؛ فقالت : لا بأس عليك، هذه أيام الربيع وهي سنة خِصْب وأنواء وليس يبعد عنك المطر، ثم هذا العقيق فتخرج حينئذ وأخرج معك فإن النسوة سيجئن ؛ فإذا فعلن ورأيتَها أتبعُها حتى أعرف موضعها ثم أصل بينك وبينها وأسعى لك في تزويجها . فكأنّ نفسي آطمأنت إلى ذلك ووثقت به وسكنت إليه، فقويتُ وطمعت وتراجعتْ إليّ نفسي . وجاء مطر بعقب ذلك وسال العقيق

(١) في الأغاني : «تشد» . (٢) ناحية . (٣) كذا بالأغاني . وفي الأصل : «طريق المدينة» .

وخرج الناس وخرجت مع إخوانى اليه، فجلسنا مجلسنا الأوّل بعينه، فما كنا والنسوةَ إلا كفَرَسَىْ رِهان؛ فأومأتُ إلى ظِئرى فجلستْ، وأقبلتُ على إخوانى فقلت: لقد أحسن القائل:

رمتنى بسهم أقصدَ القلبَ وٱنثنَتْ * وقــد غادرتْ جُرْحًا به ونُدُوبا

فأقبلتْ على صواحباتها وقالت: أحسن والله القــائل، وأحسن من أجابه حيث يقــول:

بنــا مثلُ ما تشكو فصبرًا لعلّنا * نرى فَرَجًا يَشفِى السَّقامَ قَرِيبًا

فسكتُّ عن الجواب خوفًا من أن يظهـر منى ما يفضحنى وإياها، وعرفت ما أرادت. ثم تفرّق الناس وٱنصرفنا، وتبِعتْها ظئرى حتى عرفت منزلها، وصارت إلىّ فأخذت بيدى ومضينا إليها، فلم نزل نتلطّف حتى وصلتُ إليها، فتلاقينا وتزاورنا على حال مجالسةٍ ومُراقبة، حتى شاع حديثى وحديثُها وظهر ما بينى وبينها، فحجبها أهلها وسدّوا أبوابها؛ فما زلت أجهد فى لقائها فلا أقدِر عليه، وشكوت ذلك إلى أبى لشدّة ما نالنى وسألته خِطْبتَها لى. فمضى أبى ومَشْيَخة أهلى إلى أبيها فخطبوها؛ فقال: لو كان بدأ بهذا قبل أن يفضَحها ويشهَرها لأسعفته بما ٱلتمس، ولكنه قد فضحها فلم أكن لأحقّق قول الناس فيها بتزويجه إياها؛ فٱنصرفتُ على يأس منها ومن نفسى. قال معبد: فسألته أن ينزل بجوارى، وصارت بيننا عِشرة. ثم جلس جعفر بن يحيى ليشرب فأتيته، فكان أوّل صوت غنّيته صوتى فى شعر الفتى، فشرِب وطرِب عليه طربًا شديدا، وقال: ويحك! إن لهذا الصوت حديثا فما هو؟ فحدّثته، فأمر بإحضار الفتى فأُحضر من وقتـه، وٱستعاده الحديث فأعاده؛ فقال: هى فى ذمتى حتى أزوّجك إياها؛ فطابت نفسه وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح، وغدا جعفر إلى الرشيد فحدّثه الحديث، فعجب منه وأمر بإحضارنا جميعا فأُحضِرنا، وأمر بأن أغنّيه الصوت

فغنيته إياه وشرب عليه وسمع حديث الفتى؛ فأمر من وقته بكتاب الى عامل الحجاز بإشخاص الرجل وآبنته و جميع أهله إلى حضرته؛ فلم تمض إلا مسافة الطريق حتى أحضروا . فأمر الرشيد بإحضار أبي الجارية إليه فأحضر، وخطب إليه الجارية للفتى وأقسم عليه ألّا يخالف أمره ؛ فأجابه وزوّجها إياه؛ وحمل الرشيد إليه ألف دينار لجهازها وألف دينار لنفقة طريقه ، وأمر للفتى بألف دينار ولى بألف دينار، وأمر جعفرٌ لى وللفتى بألف دينار . وكان المدينيّ بعد ذلك من نُدماء جعفر بن يحيى .

## ذكر أخبار محمد الرف

هو محمد بن عمرو مولى بنى تميم، كوفيّ المولد والمنشأ . والرفّ[1] لقب غلب عليه . وكان مُغنّيًا ضاربا صالح الصّنعة مليح النادرة . وكان أسرع خلق الله أخذًا للغناء وأصحّهم أداءً له وأذكاهم . وكان اذا سمع الصوت مرتين أو ثلاثا أدّاه لا يكون بينه وبين من أخذه عنه فرقٌ فيه . وكان متعصّبًا على آبن جامع مائلًا إلى إبراهيم الموصلىّ (٨) وآبنه إسحاق، وكانا يرفعان منه ويقدّمانه ويأخذان له الصّلات من الخلفاء. وكانت فيه عربدة إذا سكِر . فعربد بحضرة الرشيد مرةً، فأمر بإخراجه ومنعه من الدخول إليه وجفاه وتناساه . قال أبو الفرج : وأحسبه مات فى خلافته أو خلافة الأمين .

ومن أخباره فى جودة الأخذ وسرعة الحفظ ما رواه حماد بن إسحاق عن أبيه قال : غنّى آبن جامع يوما بحضرة الرشيد :

جَسورٌ على هجرى جبانٌ عن الوصلِ * كذوبُ عِدَاتٍ يُتبِعُ الوعدَ بالمَطْلِ
مُقَــدَّم رِجلٍ فى الوصـال مؤخّرٌ * لأُخرى يشوب الجدّ فى ذاك بالهَزْلِ

(١) ورد فى أكثر أصول الأغانى المخطوطة والمطبوعة «الرف» بالراء المهملة، وورد فى بعض المواضع من أصول الأغانى « الزف » بالزاى المعجمة .

يهـم بنـا حتى إذا قلت قـد دنا * وجاذبنى عطفـاه مال إلى البُخْلِ
يزيد آمتناعًا كلمـا زدتُ صـبوةً * وأزداد حرصًا كلمـا ضَنّ بالبَــذْلِ

فأحسن فيه ما شاء وأجمـل ، فغمزت عليـه محمد الرق وفطن لمـا أردت ، وآستحسنه الرشـيد وشرب عليه وآستعاده مرتين أو ثلاثا . ثم قمتُ إلى الصـلاة وغمزت الرف بجاءنى، وأومأت إلى مُخارق وعلويه وعقيد بجاءونى؛ فأمرته بإعادة الصوت فأعاده وأداه كأنه لم يزل يرويه ؛ ولم يزل يكرره على الجماعة حتى غنوه . ثم عدت إلى المجلس؛ فلما آنتهى الدور إلىّ آبتدأت فغنيته قبل كل شىء غنيته . فنظر إلى آبن جامع محددا طَرْفه ؛ وأقبل علىّ الرشيد وقال : أكنت تَرْوِى هذا الصوت؟ قلت : نعم ياسيدى . فقال آبن جامع : كذب والله ما أخذه إلا منى الساعة . فقلت : هذا صوت أرويه قديما ، وما فيمن حضر [أحد](١) إلا وقد أخذه منّى . وأقبلت عليهم فقلت لهم : غنُّوه ؛ فغنّاه علّويه ثم عقيد ثم مُخارق . فوثب آبن جامع بجلس بين يديه لحلف بحياته وبطلاق آمرأته أنّ اللحن صنعه منذ ثلاث ليال وما سُمِـع به قبل ذلك الوقت . فأقبل الرشيد علىّ وقال : بحياتى آصدُقنى عن القصّة ، فصدَقته ، بجعل يضحك ويصفّق ويقول : لكل شىء آفة ، وآفة آبن جامع الرقُّ .

قال إسحاق بن إبراهيم : كان محمد الرقّ أروَى خلقِ الله تعالى للغناء وأسرعَهم أخذًا لمـا سمعه ، ليست عليه فى ذلك كُلْفة ، إنما يسمع الصوت مرة واحدة وقد أخذه . وكنّا معه فى بلاء إذا حضر، فكان كل من غنّى منّا(٢) صوتا فسأله عدو له أو صديق بأن يُلقيه عليه فبخل ومنعه إياه وسأل محمد الرقّ أن يأخذه فما هو إلا أن يسمعه مرّةً واحدةً حتى أخذه وألقاه على من سأله . قال : وكان أبى يبَرّه ويصله ويُجْديه من

---

(١) زيادة من الأغانى .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « وكل من غنى الخ » .

كل جائزة وفائدة تصل إليه . وكان محمد الرفّ مُغْرًى بآبن جامع خاصّةً من بين المغنّين لبخله ، وكان لا يفتح آبن جامع فاه بصوت إلا وضع عينَه عليه وصغَى بسمعه إليه حتى يحكيَه . وكان فى آبن جامع بخلٌ شديد لا يقدر معه على أن يُسْعِفه ببرّ و رِفْد . وساق نحو ما تقدّم إلا أنه قال : إن الرّفّ أخذ الصوت لأوّل مرة وألقاه على إسحاق فأخذه عنه فى ثلاث مرار . قال حماد : وللرفّ صَنعة يسيرة ، وذكر منها أصواتا .

---

## ذكر أخبار محمد بن الأشعث

قال أبو الفرج : كان محمد بن الأشعث القرشيّ ثم الزُّهْرِىّ كاتبا ، وكان من فِتيان أهل الكوفة وظُرفائهم ، وكان يقول الشعر ويُغنّى فيه . فمن ذلك قوله فى سَلّامة زرقاء آبن رامين :

أمسَى لسلّامةَ الزرقاءِ فى كَبِدِى * صَدْعٌ يُقيم طوَالَ الدهرِ والأبَدِ
لا يستطيع صَناعُ القومِ يَشْعَبُه * وكيفَ يُشْعَب صدعُ الحبِّ فى الكَبِدِ
إلّا بوصل التى من حبّها آنصدعتْ * تلك الصدوعُ من الأسقام والكَمَدِ

وكان ملازمًا لآبن رامين و لجاريته سلّامة الزرقاء ، فشُهِر بذلك ، فلامه قومه فى فعله فلم يَحْفِل بمقالتهم ، وطال ذلك منه ومنهم ، حتى رأى بعضَ ما يكره فى منزل آبن رامين ، فمال الى سحيقة جارية زُرَيق آبن مَنيح مولى عيسى بن موسى ، وكان زُرَيْق شيخا كريما نبيلا ، يجتمع إليه أشراف أهل الكوفة من كل حىّ ، وكان الغالبُ على منزله رجلًا من ولد القاسم بن عبد الغفار العِجْلىّ كغلبة محمد بن الأشعث على منزل آبن رامين ، فتلازما على ملازمة زُرَيق . وفى ذلك يقول محمد بن الأشعث :

يا بنَ رامينَ بحتُ بالتصريح * فى هواى سحيقةَ ابنِ منيـــح
قينةٌ عفّـــةٌ ومولًى كريمٌ * ونديمٌ من اللُّبـاب الصريح
رَبَعِىٌّ مهـــذَّبٌ أرْيَحِىٌّ * يشترى الحمدَ بالفَعَـالِ الرَّبيح
نحن منه فى كل ما تشتهى الأنـ * ـفُسُ من لَذّةٍ وعيشٍ نجيح
عنـد قومٍ من هاشم فى ذُرَاهـا * وغِنـاءٍ من الغزال المليـــح
فى سُرورٍ وفى نعيـمٍ مُقيـمٍ * قـد أمِنّـا من كل أمرٍ قبيـح
فاسـلُ عنّـا كما سلوناك إنّى * غير سالٍ عن ذاتِ نفسى وروحى
حافظٌ منك كل ما كنت قد ضيـ * ـعت مما عَصَيتُ فيه نَصيحى
فالقِلَى ما حيِيتُ منى لك الدهـ * ـرَ بـودٍّ لمنيَّـتى ممنـــوح
يابن رامين فالزَمَنْ مَسْجِدَ الحـىّ بطـــول الصـــلاة والتسـبيح .

قال عمر بن نوفل وهو راوى هذه الأبيات: فلم يَدع ابنُ رامين شريفا بالكوفة إلا تحمّل به على ابن الأشعث وهو يأبى أن يرضَى عنه وأن يعاود زيارته، حتى تحمّل عليه بالجَحْوانىّ، وهو محمد بن بشر بن جَحْوَان الأسدىّ وكان يومئذ على الكوفة، فكلّمه فرضِى عنه وعاد إلى زيارته، ولم يقطع منزل زُرَيق . وقال فى سحيقة :

سحيقـةُ أنتِ واحدة القِيانِ * فما لكِ مُشْـبِهٌ فيهن ثانى
فَضَلْتِ على القِيان بفضلِ حِذْقٍ * فَحُزْتِ على المَدَى قَصَبَ الرِّهانِ
سجدْنَ لكِ القِيـانُ مُكَفِّراتٍ * كما سجـد المجوس لمرزُبانِ
ولا سيّما إذا غنّتْ بصـوتٍ * وحرّكتِ المَثَالثَ والمثانى .
شَرِبتُ الخمــرَ حتى خِلْتُ أنى * أبو قابوسَ أو عبـدُ المَدَانِ
فإعمـال اليسار على الملاوى * ومن يمنـاكِ ترجمـةُ البيانِ

ولمحمد بن الأشعث أصوات له فيها غناء . منها :

رَحُبتْ بلادُك يا أُمامَهْ * وسَلِمتِ ما سجعتْ حمامَهْ
وسقى دِيارَكِ كلما * حَنَّتْ الى السُّقيا غمامه
انّى وإن أقصيتِنى * شَفِقٌ[1] أُحِبّ لكِ الكرامه
وأرى أمورَكِ طاعةً * مفروضة حتى القيامه

وله غير ذلك من الأصوات .

## ذكر أخبار عمرو بن بانة

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو عمرو بن محمد بن سليمان بن راشد مولى ثقيف . وكان أبوه صاحب ديوان ووجها من وجوه الكتّاب ، ونُسب إلى أمه . وكان مغنّيا محسنا ، وشاعرا صالح الشعر ، وصنعته صنعة متوسّطة ، وكان مرتجلا . قال : وكتابه فى الأغانى أصل من الأصول . وكان يذهب مذهبَ إبراهيم بن المهدىّ فى الغناء ، ويخالف إسحاق ويتعصّب عليه تعصّبا شديدا ويواجهه بنفسه . وهو معدود فى ندماء الخلفاء ومغنّيهم ، على ما كان به من الوَضَح . وفيه يقول الشاعر :

أقول لعمرٍو وقد مرّ بى * فسلَّمَ تسليمةً جافيَهْ
لئن فَضَّلوك بفضلِ الغنا * ءِ فقد فضّل الله بالعافيه

وقال أحمد بن حمدون : كان عمرو حسن الحكاية لمن أخذ عنه الغناء ، حتى كان من يسمعه لو توارى عن عينه [عمرو][2] لم يشكّ فى أنه هو الذى أخذ عنه ، لحسن حكايته . وكان محظوظا ممن يعلّمه ، ما علّم أحدا قطّ إلا خرج نادرا مبرّزا . وله أخبار مع الخلفاء وإنعام منهم عليه ، منهم المتوكل على الله . رحمه الله .

(١) فى الأغانى : "سفها" . (٢) زيادة عن الأغانى .

# ذكر أخبار عبد الله بن العباس الربيعىّ

هو أبو العباس عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع. والربيع، على ما يدّعيه أهله، آبن يونس بن أبى فروة. وآل أبى فروة يدفعون ذلك و يزعمون أنه لَقيط وجد منبوذًا كَفَلَه يونس، فلما خدَم المنصور آدّعى إليه. قال أبو الفرج الأصفهانى: (١٠) وكان شاعرا مطبوعا ومغنّيا مُحسنا جيِّـدَ الصنعة نادرَها. قال: وهو أوّل مَنْ غَنّى بالكنكلة فى الإسلام.

وكان سبب دخوله فى الغناء على ما رواه أبو الفرج بسنده إليه قال: كان سبب دخولى فى الغنـاء وتعلّمى إياه أنّى كنت أهوَى جارية لعمّتى رُقَيّـة بنت الفضـل آبن الربيع، وكنت لا أقدِر على مُلازمتهـا والجلوس معها خوفاً من أن يظهـر ما لهـا عندى، فيكون ذلك سببَ منعى منهـا؛ فأظهرت لعمّتى أنى أشتهى أن أتعلّم الغناء و يكون ذلك فى سِترٍ عن جدّى — وكان جدّى وعمّتى على حال من الرقّة علىّ والمحبّة لى لا نهايةَ وراءها، لأن أبى تُوُفّى فى حياة جَدّى الفضل — فقالت: يا بُنَىّ، وما دعاك إلى ذلك؟ فقلت: شهوةٌ غَلبتْ على قلبى، إن مُنِعتُ منها مِتّ غمًّا — قال: وكان لى فى الغناء طبع قوىّ — فقالت لى: أنت أعلم وما تختاره، والله ما أحبّ منعك من شىء، و إنى كارهةٌ أن تحذِق فى ذلك وتشتهر فتسقُط و يفتضح أبوك وجدّك. فقلت: لا تخافى من ذلك، فإنما آخذ منه مقدار ما ألهو به. ولازمت الجارية لمحبتى إياها بعلّة الغِناء، فكنتُ آخذ عنهـا وعن صواحباتها حتى تقدّمتُ الجماعةَ حذقًا وأقرّت لى بذلك، وبلغت ما كنت أريد من الجارية، وصرت ألازم مجلس جدّى. ثم لم يكن يمرّ لإسحاق ولا لآبن جامع ولا للزُّبير بن دَحْمان ولا لغيرهم صوت إلا أخذته، وكنت سريع الأخذ، إنما كنت أسمعه مرّتين أو ثلاثا

وقد صحّ لى . وأحسست فى نفسى قوّة فى الصناعة، فصنعت أوّل صوت صنعته فى شعر العَرْجىّ :

أماطتْ كساءَ الخزِّ عن حُرِّ وجهِها * وأدنتْ على الخدّينِ بُرْداً مُهلْهَلا

ثم صنعتُ :

أَقفَرَ من بعد خَلّةٍ سَرِفُ * فالمُنْحَنَى فالعَقِيقُ فالجُرُف

وعرضتهما على الجارية التى كنت أهواها وسألتها عما عندها فيهما ؛ فقالت : لا يجوز أن يكون فى الصنعة فوق هذا . وكان جوارى الحارث بن بُسْخُنَّر وجوارى أبيه يدخلن إلى دارنا فيَطْرَحْنَ على جوارى عمّى وجوارى جدّى و يأخذن أيضا ماليس عندهن، فأخذْنَهما منّى، وسألن الجارية عنهما فأخبرتهن أنهما من صَنعتى. ثم آشتهرا حتى غُنِّى الرشيدُ بهما يوماً فآستظرفهما، وسأل إسحاق : هل تعرفهما؟ فقال : لا ، و إنهما لمن أحسن الصنعة وجيِّدها ومُتْقَنها . ثم سأل الجارية عنهما فوقفت خوفاً من عمّى وحَذَراً أن يبلُغ جدّى أنها ذكرتنى ؛ فآنتهرها الرشيد فأخبرته القصّة؛ فوجّه من وقته فدعا بجدّى فقال له : يا فضل، أيكون لك آبن يغنِّى ثم يبلُغ فى الغناء المبلغ الذى يمكنه أن يصنع صوتين يستحسنهما إسحاق وسائر المغنين ويتداولها جوارى القِيان فلا تُعْلِمنى بذلك، كأنك رفعت قدره عن خِدمتى فى هذا الشأن ! فقال له جدّى : وحقِّ ولائك يا أمير المؤمنين ونعمتك و إلا فأنا برئ من بيعتك وعلىّ العهد والميثاق[(1)] والعِتْق والطلاق إن كنت علمت بشىء من هذا قط إلا منك الساعة . [فمن هذا من ولدى ؟ قال : عبد الله بن العباس هو، فأحضِرْنيه[(2)] الساعة[(3)]] . فجاء جدّى وهو يكاد أن ينشق غيظاً، فدعانى؛ فلما خرجت إليه شتمنى

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : "والبيان" . (٢) لعل العبارة : « هو عبد الله ابن العباس » . (٣) زيادة عن الأغانى .

وقال : [يا كلب](١) بلغ من أمرك أنك تجسُر على أن تتعلّم الغناء بغــير إذنى! ثم زاد ذلك حتى صنعت ، ولم تقنَع بهــذا حتى ألقيت صنعتك على الجوارى فى دارى ، ثم تجاوزهن إلى جوارى الحارث بن بُسْخُنَّر، فاشتُهرتَ ، و بلغ أميرَ المؤمنين فتنكّر لى ولامنى ، وفضحت آباءك فى قبورهم وسقطت للأبد إلا من المغنِّين! فبكيت مما جرى علىّ وعلمت أنه صدَقنى ؛ فرحِمنى وضمّنى إليه وقال : قد صارت الآن مصيبتى فى أبيك مصيبتين ، إحداهمــا به وقد مضى وفات ، والأخرى بك وهى موصولة بحياتى ، ومصيبة باقية العار علىّ وعلى أهلى بعدى ، و بكى وقال : عزّ علىّ يا بُنَىّ(٢) أنى أراك أبدًا ما بقيت على غير ما أُحبّ ؛ وليست لى فى هذا الأمر حيلة لإنه أمر قد خرج عن يدى . وقال : جئنى بعود حتى أسمعك وأنظــر كيف أنت ، فإن كنت تصلُح للخدمة فى هــذه الفضيحة و إلا جئتُ بك منفردًا وعرّفتــه خبرك وآستعفيته لك . فأتيتُ بعود وغنّيته غناءً قديمــا ، فقال : لا ، بل صوتيك اللذين صنعتَهما ، فغنّيته إياهما ، فاستحسنهما و بكى ، ثم قال : بطَلتَ والله يا بنىّ وخاب أملى فيك . فواحزنا (١١)
عليك وعلى أبيك ! فقلت : ليتنى مِتّ قبــل ما أنكرته أو أُخرست ! ومالى حيلة ! لكنى وحياتك يا سيّدى — و إلا فعلىّ عهد الله وميثاقه والعتق والطلاق وكل يمين يحلف بها [حالف](٣) لازمة [لى](٣) — لا غنّيتُ أبدًا إلا الخليفة أو ولىّ عهد . فقال : قد أحسنتَ فيما نَبِهتَ(٤) عليه من هذا . فركب وأمر بى فأُحضرتُ ، ووقفتُ بين يدى الرشيد وأنا أُرْعَد ؛ فآستدعانى وآستدنانى حتى صرتُ أقربَ الجماعة إليه ، ومازحنى

(١) زيادة عن الأغانى .

(٢) فى الأغانى : مصيبته ، ولعلها : مصيبتك .

(٣) زيادة عن الأغانى .

(٤) الذى فى أساس البلاغة : «نَبِهت على الأمر : تفطنت له» .

وأقبل علىّ وسكّن منى[(١)]، وأمر جدّى بالأنصراف ؛ وأومأ إلى الجماعة فحدّثونى وسُقيت أقداحا[(٢)] وغنّى المغنون جميعا ؛ وأومأ إلىّ إسحاق بعينه أن آبدأ فغنّ إذا بلغت النوبة إليك قبل أن تؤمر بذلك ليكون ذلك أملح وأجمل بك . فلما جاءت النّوبة إلىّ أخذتُ عودا ممن كان إلى جنبي وقمتُ قائما وآستأذنت فى الغناء ؛ فضحك الرشيد وقال : غنّ جالسا ؛ فغنّيت لحنى الأوّل ، فطرب واستعاده ثلاث مرّات وشرب عليه ثلاثة أنصاف . ثم غنّيت الثانى فكانت هذه حاله ، فسكر ودعا بمسرور وقال : آحمل الساعة مع عبد الله عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوبا من فاخر ثيابى وعيبةً مملوءة طيبا ، فحُمل ذلك كله معى . قال عبد الله : ولم أزل كلما أراد ولىّ عهد أن يعلم مَن الخليفةُ بعد الخليفة هو أم غيره دعانى وأمرنى أن أغنّى ، فأُعرّفه يمينى فيستأذن الخليفة فى ذلك ، فإن أذن لى فى الغناء علم أنه ولىّ عهد وإلا عرَف أنه غيره ، حتى كان آخرهم الواثق فدعانى فى أيام المعتصم وسأله أن يأذن لى فى الغناء ، فأذن لى ثم دعانى من الغد فقال : ما كان غناؤك إلا سببًا لظهور سرّى وأسرار الخلفاء قبلى ! والله لقد هَمَمتُ أن آمر بضرب رقبتك ! لا يبلُغنى أنك آمتنعت من الغناء عند أحد ، فوالله لئن آمتنعت لأضربن عنقك ! فأعتِق من كنت تملكه يوم حلفت ، وطلّق من كان عندك يومئذ ، وأرِحنا من يمينك هذه المشئومة . فقمت وأنا لا أعقل جزَعًا منه ؛ فأعتقت جميع ما كان بقى عندى من مماليكى الذين حلفت يومئذ وهم فى ملكى ثم تصدّقت بجملة ، وآستفتيت فى يمينى أبا يوسف القاضى حتى خرجت منها ؛ وغنّيت بعد ذلك إخوانى جميعا حتى آشتُهر أمرى ، وبلغ المعتصم خبرى فتخلّصت منه .

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وأقبل على الجماعة وشكر منى الخ» .

(٢) فى الأغانى : «وسقيت الجماعة وغنى الخ» .

وروى أبو الفرج أيضا عن الصُّولىّ عن الحسين بن يحيى قال : قلت لعبد الله ابن العباس : إنه بلغنى لك خبرٌ مع الرشيد أوّل ماشُهِرتَ بالغناء فحدّثنى به؛ فقال : نعم! أوّل صوت صنعته :

أتانى يُؤامِرنى فى الصَّبُو * حِ ليلًا فقلتُ له غَادِها

فلما دار لى وضربت عليه بالكنكلة[1]، عرضْته على جاريةٍ[2] لنا يقال لها راحة، فاستحسنته، وأخذته عنى. وكانت تختلف إلى إبراهيم الموصلى، فسمعها يوما تغنّيه وتناغى[3] به جارية من جواريه، فاستعادها إياه فأعادته؛ فقال : لمن هذا الصوت؟ قالت : صوت قديم. قال : كذبتِ، لو كان قديما لعرفته. وما زال يداريها ويتغاضب عليها حتى اعترفت له أنه من صنعتى، فعجب من ذلك. ثم غناه يومًا بحضرة الرشيد ليُغْرِب به على المغنّين؛ فاستحسنه الرشيد، فقال له : لمن هذا يا إبراهيم؟ فأمسك عن الجواب وخشى أن يكذبه فينمى إليه الخبر من غيره، وخاف من جدّى إن يصدُقْه؛ فقال له : مالك لاتجيبنى؟ قال : ما يمكننى يا أمير المؤمنين. فاستراب بالقصّة، فأقسم الرشيدُ أنه إن لم يعرّفه عاقبَه عقوبةً تُوجعه، وتوهّم أنه لعُلَيّة بنت المهدىّ أو لبعض حُرَمه فاستطير غضبًا. فلما رأى إبراهيم الجدّ منه صدَقه فيما بينه وبينه سرًّا. فدعا لوقته بالفضل بن الربيع وقال له : أيصنع ولدك غناءً يرويه الناس ولا تعرّفنى! فجزِع وحلف بحياته وبيعته أنه ما عرَف ذلك قط ولا سمع به إلا فى وقته ذلك. وساق باقى الخبر نحو ما تقدّم.

قال عبد الله بن العباس : دخل محمد بن عبد الملك الزيات على الواثق وأنا بين يديه أُغنّيه وقد استعادنى صوتًا فأعدته، فاستحسنه محمد بن عبد الملك [وقال :][4] هذا والله

(١) فى الأغانى : «تأتى لى». (٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل : «على جارة».
(٣) كذا فى الأغانى. وفى الأصل : «تتغانى». (٤) زيادة نراها لازمة.

يا أمير المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه وإصغائك إليه؛ فقال : أجل ! هذا والله مولاى وأين موالىّ لا يعرفون غير ذلك . فقال : ليس كل مولى يا أمير المؤمنين مولى لمواليه ، ولا كل مولى يُتَجَمَّل بولائه يجمع ما جمعه عبد الله من ظَرْف وأدب وصحّةِ عقل وفضل علم وجودة شعر . فقال له : صدَقت يا محمد . فلما كان من الغد جئت محمد بن عبد الملك شاكرًا لحسن مَحْضَره، فقلت فى أضعاف كلامى : وأفرط الوزير، أعزّه الله تعالى، فى وصفى وتقريظى بكل شىء حتى وصفنى بجودة الشعر، (١٢) وليس ذلك عندى، وإنما أعبث بالبيتين والثلاثة . ولو كان عندى أيضا شىء من ذلك لصَغُر عن أن يصفه الوزير ويحكيه فى هذا المجلس الرفيع المشهور(١) . فقال : والله يا أخى لو عرفتَ مقدار قولك :

يا شادنًا رام إذ مـ * ـرّ فى الشّعانينِ(٢) قتلى
يقول لى : كيف أصبحـ * ـت؟ كيف يُصبِح مثلِى

لمّا قلت هذا القول . والله لو لم يكن لك شعر فى عمرك إلا قولك : «كيف يصبح مثلى» لكنت شاعرا مُجيدا . وهذا الشعر قاله عبد الله بن العباس فى نصرانية كان يهواها ولا يصل إليها إلا إذا خرجت إلى البِيعة . وله معها أخبار وأشعار له فيها أصوات . منها قوله :

إنّ فى القلبِ من الظّبْيِ كُلومْ * فدَعِ اللّومَ فإنّ اللّوْمَ لوم
حبّذا يومُ الشّعانِينِ وما * نِلتُ فيه من نعيم لو يدوم
إن أكن أعظمتُ أنْ هِمتُ به * فالذى تَركب من عَذْلِى عظيم
لم أكن أوّل من سنّ الهوى * فدَعِ العذل فذا داء قديم

(١) لعله «المشهود» .

(٢) الشعانين : عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

وروى أبو الفرج بسنده إلى محمد بن جُبَيْر قال : كنا عند أبي عيسى بن الرشيد في زمن ربيع وعنـدنا مُخارق وعلّويه وعبد الله بن العباس الربيعي وعبـد الله بن الحارث بن بُسْخُنَّر ونحن مصطبحون في طارمة مضروبة على بسـتانه وقد تَفَتَّح فيه ورد وياسَمين وشـقائق والسماء متغيّمة غيماً مطبقاً وقـد بدأت تَرُش رشاً ساكنا ، فنحن في أكمل نشاط وأحسن يوم ، إذ خرجت قيّمة دار أبي عيسى فقالت : ياسيّدى ، قد جاءت عَسَاليج ؛ قال : تخرجُ إلينا فليس بحضرتنا من تحتشمه . قال : فخرجت إلينا جارية شَكِلة حُلْوة حسنةَ العقل والهيئة والأدب في يدها عود فسلّمت ، وأمرها أبو عيسى بالجلوس فجلست . وغنّى القوم حتى انتهى الدّور إليها ، وظننا أنها لا تصنع شيئا وخِفْنا أن تهابنا فتحصَر ، فغنّت غناءً حسنا مُطرِباً مُتْقَنا ، لم تدع أحدًا ممن حضر إلا غنّت صـوتا من صَـنْعته فأدّته على غاية الإحكام ؛ فطربنا واستحسنّا غناءها وخاطبناها بالاستحسان ؛ وألح عبـد الله بن العباس من بيننا بالاقتراح عليها والمِزاح معها والنظر اليها . فقال أبو عيسى : عَشِقْتَها وحياتي يا عبد الله ! فقال : لا والله يا سيّدى وحياتك ما عشِقتُها ، ولكن استملحت كل ما شاهدته منها من مَنْظَر وشَكْل وعقل وعشرة وغناء . فقال له : ويحك ! فهذا والله هو العشق وسببه . ورب جِدّ جرّه اللعب . قال : وشربنا ؛ فلما غلب النبيـذ على عبـد الله غنّى أهزاجاً قديمة وحديثة ، وغنّى فيما بينها هزجاً في شعر قاله فيها لوقته ، فما فطِن له إلا أبو عيسى ، وهو :

نَطَق المكتومُ مـنّى فبَـدَا * كم ترى المكتومَ منّى لا يَضِحْ
سحـرُ عينيـك إذا ما رَنَتَـا * لم يدع ذا صَبْوة أو يفتضح
ملكتْ قلبـاً فأمسى غَلِقـا[1] * عنـدها صَباً بهـا لم يسترح

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل :
ملكت نفسي وأمسي علقا * عنـدنا صبابها لم يسـترح

بجمالٍ وغناءٍ حَسَنٍ * جلَّ عن أن ينتقيه(١) المقترح
أورث القلب هموماً ولقد * كنتُ مسروراً بمرآه فَرِح
ولكم مُغْتَبِقٍ همّاً وقد * باكر اللهوَ بكُوَرِ المُصْطَبِح

فقال له أبو عيسى : فعلتَها والله يا عبد الله، صح والله قولى لك فى عساليج وأنت تُكابِر حتى فضحك السُّكْر . فجحد وقال : هذا غناءٌ كنت أرويه . فحلف أبو عيسى أنه ما قاله وما غنّاه إلا فى يومه، وقال له : آحلف بحياتى أنّ الأمر ليس هو كذلك! فلم يفعل . فقال أبو عيسى : والله لو كانت لى لوهبتُها لك ، ولكنها لآل يحيى آبن معاذ، ووالله إن باعوها لأُمَلِّكَنَّك إياها ولو بكل ما أملك! ووحياتى لَتَنْصَرِفَنّ قبلك إلى منزلك . ثم دعا بمحافظتها وخادماً من خدمه فوجّه بها معهما إلى منزله . وآلتوى عبد الله قليلًا وتجلّد ثم آنصرف . وآتصل الأمر بينهما بعد ذلك فآشترتها (١٣)
عمته رُقَيّة بنت الفضل بن الربيع من آل يحيى بن معاذ، وكانت عندهم حتى ماتت . قال : وقالت بذل الكبيرة لعبد الله بن العباس : قد بلغنى أنك عشقتَ جارية آسمها عساليج، فآعرِضها علىّ، فإما أن عذرتُك أو عذَلْتُك؛ فوجّه إليها فحضرتَ، وقال لبذل : هذه هى يا سيدّتى، فآسمعى وآنظرى ثم مُرِينى بما شئتِ أُطِعْك . فأقبلت عليه عساليج وقالت : يا عبد الله، أتشاور فىّ! فوالله ما شاورت فيك لمّا حببتك . فقالت بذل : أحسنتِ والله ياصبيّة! ولو لم تُحسنى شيئا و[لا](٢) كانت فيك خصلة تُحمد لوجب أن تُعْشَقَ لهذه الكلمة . ثم قالت لعبد الله : ما ضيعت، احتفظ بصاحبتك هذه .

وقال حمدون بن إسماعيل : دخلت يوما على عبد الله بن العباس الربيعى وخادم له يسقيه، و بيده عودٌ وهو يغنّى :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «أن يقتفيه» . (٢) التكلة عن الأغانى .

إذا أصطبحتُ ثــلاثًا * وكانــ عــودى نَدِيمى
والكأس تضحك ضِحكًا[١] * من كفّ ظبيٍ رخــيمِ
فمــا عــلىّ طـــريقٌ * لطــارقاتِ الهـــمومِ

فما رأيت أحسن ممــا حكى حالَهُ فى غنائه ولا سمعت أحسن ممــا غنّى . ومن صنعته وشعره قوله :

صَــدَع البينُ الفــؤادا * إذ به الصــائحُ نادَى
بينما الأحبــابُ مجمــو * عون إذ صاروا فُرَادَى
فأتى بعـــضٌ بـــلادًا * وأتى بعـــضٌ بِـــلادا
كلمــا قلت تَنَــاهَى * حَدَثانُ[٢] الدّهرِ زادا

## ذكر أخبــار وجه القَرْعة

هو أبو جعفر محمد بن حمزة بن نصــير الوصيف مولى المنصور ، ويُلَقَّب وجهَ القَرْعة ، أحد المغنِّين الحُذّاق الضُّرّاب الرواة . أخذ الغناء عن إبراهيم الموصلىّ وطبقته . وكان حسن الأداء طيِّب الصوت لا علّة فيه ، إلا أنه كان إذا غنّى الهزج خاصّة خرج لا لسبب يُعْرَف ، إلا أنه [إن][٣] تعرّض للحنين فى جِنس من الأجناس فلا يصح له البتة .

وروى أبو الفرج بســنده عن محمد الهاشمىّ أنه شهد إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ عند عمه هارون بن عيسى وعنده محمد بن الحسن بن مصعب ، قال : فأتانا محمد بن

(١) فى الأغانى : « تقرب » .

(٢) هذه رواية الأغانى . وفى الأصل :

كلمــا قلت تنــاهت * حادثات الدهر زادا

(٣) زيادة عن الاغانى .

حمزة وجه القَرْعة، وكان شرِس الأخلاق أبىّ النفس، وكان إذا سئل الغناء أباه، فإذا أُمسِك عنه كان هو المبتدئ به؛ فأمسكنا عنه حتى طلب العود فأُتِى به فغنّى :

مَرّ بى سِربُ ظِباءٍ * رائحـاتٍ من قُبَـاء
زُمَرًا نحو المُصَـلّى * يتمشّين حِـذَائى
فتجاسـرتُ وألقيـ * ـتُ سرابيلَ الحيـاءِ
وقديمًـا كان لَهْوِى * وفنـــونى بالنسـاءِ

قال : وكان يُحسـنه ويُجيده ، فجعل إسحاق يشرب ويستعيده حتى شرب ثلاثة أرطال، ثم قال : أحسنت يا غلام ! هذا الغناء لى وأنت تتقدّمنى فيه ! ولا يَخْلُقُ الغناء ما دام مثلك ينشأ فيه .

وقال أيضا : كنا فى البستان المعروف ببستان خالص النصرانىّ ببغداد، ومعنا محمد ابن حمزة وجه القَرْعة وهو يغنينا :

يا دارُ أقفـرَ رَسْمُهـا * بين المُحَصَّب والحَجُونِ
يا بِشْرُ إنى فآعلَمِى * والله مجتهِـدًا يمينى
ما إن صرمتُ حبالَكم * فصِلِى حِبالِى أو ذَرِينى

فإذا برجل راكب على حمـار يؤُمّنا وهو يصيح : أحسنت والله ! فقلنا : آصعَدْ إلينا كائنا من كنت؛ فصعِد وقال: لو منعتمونى من الصعود لما آمتنعت؛ ثم سَفَر اللثام عن وجهه فإذا هو مُخارق. فقال : يا أبا جعفر، أعِدْ علىّ صوتك فأعاده، وشرب رطلًا من شرابنا وقال : لولا أنى مدعوّ الخليفة لأقمت عندكم وآستمعت هذا الغناء الذى هو أحسن من النزْهة غِبَّ المطر .

وله مع إسحاق بن إبراهيم ومخارق أخبار شهدا له فيها بحسن الصنعة ، وكفاه ذلك فضلا فى صناعته .

# ذكر أخبار محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر (١)

(١٤) قال أبو الفرج الأصفهانى : هو من أهل الرَّىّ ، مولى المنصور ، من ولد بَهْرام شوبين مَرْزُبان الرىّ . قال : وهو مرتجل قليل الصَّـنعة حسن الغناء والنغم بقوّة وشجًا واقتدار شديد على الغناء ، وكان فى زمانه أحد المعدودين فى حسن الأدب وتمام المروءة وحسن الزِّىّ والآلة ، وكان عظيم التِّيـه رفيع الهمة ، وكانت له منزلة عنـد المأمون . قال محمد بن الحارث : كنت مع المأمون وهو يريد بلاد الروم ومعه عدّة من المغنِّين ، فجلس يومًا والمعتصم والعباس معه من حيث لا نراهم وهم يسمعون غناءنا ، فغنَّى المغنُّون جميعا وغنَّيت هَزَجًا لإسماعيل بن جامع ، فبعث إلىّ المـأمون بأصل شاهشفرم (٢) وقد لُفّ أصله بمنـديل حرير ، فجاءنى به الغلام وقال : أعِد الصوت ؛ فأخذته وشممته ووثبت فأعدته قائمـا ، ووضعت الأصـل بين يدى وشربت رطلا وقلت للمغنّين : حكم لى أمير المؤمنين بالحِذْق والغناء . فقالوا : وكيف؟ قلت : دفع إلىّ لواء الغناء من بينكم . فقالوا : ليس كما ذكرت ، ولكن حيّـاك إذ أطربته ؛ والرسول قائم فانصرف بالخبر ، فما لبث أن رجع إلىّ فقال : هو كما ذكرت .

قال أبو العَنْبَس بن حمـدون : كان محمد بن الحارث أحسن خلق الله شمائل وإشارةً إذا غنّى . وقال أحمد بن حمدون : صنع محمد بن الحارث [هزجًا فى هذا الشعـــر] (٣) :

أمسَيْتُ عبـــدًا مُســتَرَقا * أبكِى الأُلى سكنوا دِمَشْــقا
أعطيتُهـــم قلبى فمَنْ * يبـــقَ بلا قلبٍ فأبـــقَ!

---

(١) كذا فى تصحيح كتاب الأغانى للأستاذ الشنقيطى المطبوع بمصر سنة ١٣٣٤ هـ . وبسختر هو أحد الأعاجم من مرازبة الرى موالى المنصور الخليفة العباسىّ الثانى . وفى الأصل : «بشخير» وهو تحريف .

(٢) فى مفردات ابن البيطار : «شاهسفرم» وهو ضرب من النبات عطر الرائحة .

(٣) التكملة من الأغانى .

وطرحه على المسدود الطُّنبورى فوقع له موقعا حسنا، وآستحسنه محمد منه فقال : أتحب أن أهبه لك ؟ قال : نعم ؛ قال : قد فعلت . فكان المسدود يغنّيه و يدّعيه، و إنما هو لمحمد بن الحارث .

قال محمد : لمّا قدم المأمون من خُراسان لم يَشتَق مغنّيا بمدينة السلام غيرى . فبعث إلىّ فكنت أُنادمه سرّا ، ولم يظهر للندماء حتى ظفِر بإبراهيم بن المهدىّ ؛ فلما عفا عنه ظهر للندماء .

ولمحمد بن الحارث شعر، منه قوله :

ومن ظنّ أنّ التِّيهَ من فضلِ قَدْرِه[1] * فإنى رأيتَ التيهَ من صِغَر القَـدْرِ
ولو كان ذَا عزٍّ ونفسٍ أبيّةٍ * لغَضَّ الغِنى منـه وعزّ عن الفقرِ
رأى نفسَـه لا تَسْـتقِلُّ بحقّها * فتَـاهَ لنقص النفس أو قلّةِ الشكر

## ذكر أخبار أحمد بن صَدَقة

قال أبو الفرج الأصفهانى : هو أحمد بن صدقة بن أبى صدقة . كان أبوه حجازيّا مغنّيا، قدِم على الرشيد وغنّى له . وقد ذكرنا أخباره فى النوادر من كتابنا هذا، فلا حاجة بنا إلى إعادتها . وكان أحمد طُنبوريّا مُحسِنا مُقـدَّما حاذِقا حسَنَ الغِناء مُحكَم الصَّنعة . قال : وله غناء كثير فى الأرمال والأهزاج وما يجرى مجراها من غناء الطُّنبوريّين . وكان ينزل الشأم . ووُصِف للمتوكل فأمر بإحضاره ، فقدم عليه فغنّاه، فآستحسن غناءه وأجزل صِلته . وآشتهاه الناس وكثُر من يدعوه؛ فكسب بذلك أكثر مما كسبه مع المتوكل أضعافا .

وروى أبو الفرج عن أحمد بن صدقة قال : اجتزت بخالد بن يزيد الكاتب، فقلت له : أنشِدْنى بيتين من شعرك حتى أغنّى فيهما . فقال : وأىّ حظٍّ لى فى ذلك!

(١) فى الأصل : « من فضل قدرة » .

تأخذ أنت الجائزة وأحصــل أنا على الإثم ! فحلفت أنى إن أخذت بشــعره فائدة جعلت له فيها حظّا، وأذكرت به الخليفة وسألته فيه. فقال: أمّا الحظّ من جهتك فأنت أنذل من ذلك، ولكن عسى أن تُفلِح فى مسئلة الخليفة؛ وأنشدنى :

تقــول سَلَا، فَمِنِ المُدَنَّفُ * ومَنْ عينُــه أبدًا تَذْرِف!
ومَــنْ قلبُــه قَلِقٌ خافقٌ * عليــك وأحشاؤه تَرْجُف!

فلمــا جلس المأمون للشرب دعانى ، وكان قد غضِب على حظِيّة له، فحضرتُ مع المغنّين. فلما طابت نفسه وجّهتْ إليه بتُفّاحةٍ من عَنْبَرٍ عليها مكتوبٌ بالذهب : « يا سيِّدى سلوت » ، وما علِم الله أنى عرفت شــيئا مِن خبرهما . وآنتهى الدّور إلىّ فغنّيت البيتين؛ فآحمرّ وجه المأمون وآنقلبت عيناه وقال: يآبن الفاعلة، لك علىّ (١٥) وعلى حُرَمى صاحب خبر! فوثبت وقلت : يا سيّدى ، ما السبب؟ قال : من أين عرفتَ قِصّتى مع جاريتى حتى غنّيت فى معنى ما بيننا ؟ فحلفت أنى لم أعرف شيئا من ذلك، وحدّثته بحديثى مع خالد، فلما آنتهيت إلى قوله : «أنت أنذل من ذلك» ضحك وقال : صدَق، وعجِب من هذا الاتّفاق؛ وأمر لى بخمسة آلاف درهم ولخالد بمثلهــا .

وروى عنه أيضا قال: دخلت على المأمون فى يوم الشعانين[(١)] وبين يديه عشرون وصيفةً جَلَبٌ روميّات مُزَنَّرات قد تزيّنّ بالديباج الرومىّ، وعلّقن فى أعناقهن صُلبانا من الذهب، وفى أيديهن الخوص والزيتون . فقال لى المأمون : ويلك يا أحمد ! قد قلتُ فى هؤلاء أبياتا فغَنِّ بها، ثم أنشدنى :

---

(١) الشعانين : عيد من أعياد النصارى ويسمى : «الزيتونة» يعملونه فى سابع أحد من صومهم . ومعنى الشعانين : التسبيح .

ظباءٌ كالدّنانيرِ * مِلاحٌ فى المقاصيرِ
جلاهنّ الشّعانينُ * علينا فى الزّنانيرِ
وقد زَرْفَنّ[(١)] أصداغًا * كأذنابِ الزرازيرِ
وأقبلْنَ بأوساطٍ * كأوساطِ الزّنابيرِ

فحفظته وغنّيته ؛ فلم يزل يشرب والوصائف يرقُصن بين يديه بأنواع الرقص من الدّستبندا[(٢)] إلى الإيلىّ حتى سكر، وأمر لى بألف دينار، وأمر بأن ينثر على الجوارى ثلاثة آلاف دينار ، فقبضت الألف ونُثِرتْ ثلاثةُ آلاف الدينار فآنتهبتها معهنّ .

قال : ولم يزل أحمد بالعراق حتى بلغه موت بُنَيَّةٍ له بالشأم، فشخص نحو منزله ، وخرج عليه الأعراب فأخذوا ما معه وقتلوه .

---

## ذكر أخبار أبى حَشيشة

قال أبو الفرج : أبو حشيشة لَقَب غلب عليه، وهو محمد بن أبى أميّة، ويكنى أبا جعفر . وكان أهله جميعا متّصلين بإبراهيم بن المهدىّ ، وكان هو من بينهم يغنّى بالطُّنبور أحسن الناس غناء . وخدم جماعة من الخلفاء، أوّلهم المأمون ومن بعده إلى المعتمد . قال : وكان أكثر آنقطاعه إلى أبى أحمد بن الرشيد أيام حياته . وكان أبوه وجدّه وأخواله كُتّابا .

قال أحمد بن جعفر جحظة فى ترجمة أبى حشيشة : وكان له صنعةٌ تقدّم فيها كلَّ طُنْبورىٍّ لا أحاشى أحدًا فى ذلك . قال : فنها :

---

(١) زرفن صدغيه : جعلهما كالزرفين، وهو حلقة الباب .

(٢) الدستبندا : نوع من أنواع رقص المجوس يأخذ بعضهم بيد بعض ويدورون ويرقصون .

كأنّ همومَ الناسِ فى الأرض كلِّها * علىّ وقلــبى بينهــم قلبُ واحدِ
ولى شاهــدَا عــدلٍ سُهادٌ وعَبْرةٌ * وكم مُدَّعٍ للحبّ من غــير شاهــدِ

قال جحظة : ورأيته بين يدى المعتمد على الله وقد غنّاه من شعر علىّ بن محمد ابن نصر :

حُرِمتُ بَذْلَ نوالِكْ * واسَوْءتَا من فِعالكْ!
لمّـا ملكتَ وِصالى * آيستنى من وِصالِكْ

فوهب له مائتى دينار . قال : وغنّى يومًا عنــد آبن المدبّر بحضرة عَريب ؛ فقالت له : أحسنت يا أبا جعفر! ولو عاش الشيخان ما قلتُ لها هذا (تعنى علّويه ومُخارقا) .

وقال أبو الفرج: إنّ أبا حشيشة ألّف كتابًا جمع فيه أخباره مع من عاشر وخدم من الخلفاء؛ قال : وهو كتاب مشهور . قال : أوّل من سمعنى من الخلفاء المأمون، وصَفَنى له مُخارق، فأمر بإشخاصى إليه، وأمر لى بألف درهم أتجهّز بها . فلما وصلت إليه أدنانى وأُعجِب بى ؛ وقال للعتصم : هــذا أثر خَدَمك وخَدَم آبائك وأجدادك يا أبا إسحاق . وذكر ما كان يشتهيه عليه كلُّ خليفــة، فقال : كان المأمون يشتهى من غِنــائى :

كان يَنْهَى فَنُهِى حتى [سلا] (١) * وآنجلتْ عنــه غَيَاياتُ الصِّبا
خَلَع اللهوَ وأضحى مُسْــبِلًا * للنُّهَى فضــلَ قميصٍ ورِدَا

قال : وكان المعتصم يشتهى علىّ :

أسرفتَ فى سوء الصَّنيعِ * وفتكتَ بى فتْــكَ الخَليعِ

---

(١) آخر الشطر الأوّل من البيت مفقود من الأصل، ولم نوفق اليه حين التصحيح . فلعل الكلمة التى وضعناها تكون قريبة من الأصل .

وولِعتَ بى متمـــرِّدًا * والعُذْرُ فى طـرق الوَلُوعِ
صَـيَّرتُ حبَّـك شافعًـا * فأُبِيتُ من قِبَـلِ الشَّفِيعِ

قال : وكان الواثق يختار من غنائى :

يا تاركى مُتَـــلَدِّدَ الـ * ـعُذَّالِ جَذْلانَ العُداةِ
أُنْظُـرْ إلىّ بعـينِ را * ضٍ نظرةً قبل المـاتِ (١٦)
خَلَّيتَنى بين الوعيـ * ـدِ وبين ألسنَةِ الوُشاةِ !
ماذا يُرَجّى بالحيـا * ةِ مُنغَّصٌ رُوحَ الحياةِ !

قال : وكان المتوكل يحبّنى ويستخفّنى، وكانت أغانيه التى يشتهيها علىّ كثيرة. منهـا :

أطعتَ الهوى وخَلَعتَ العِذَارَا * وبا كرتَ بعـد المراح العُقَارَا
ونازعـك الكأسَ من هاشمٍ * كـريمٌ يُحَبُّ عليهـا الوَقارا
فتًى فـرّق الحمـــدُ أمـــوالَه * يُجُـرُّ القميصَ ويُرْخِى الإزارا
رأى اللهُ جعفـــرَ خـيرَ الأنامِ * فملّكـه ووَقاهُ الحـــذارا

قال : وكان المستعين يشتهى علىّ :

وما أنسَ لا أنسَ منها الخُشوعَ * وفَيْضَ الدّموع وغَمْزَ اليـــدِ
وخَدّى مُضـافٌ إلى خَـدِّها * قيامًا الى الصــبحِ لم نَرْقُـــدِ

قال : وآشتهى علىّ المعتمد :

قلـــبى يُحِبُّـــكِ يا مُـــنَى * قلـــبى ويُبْغِضُ مَن يُحِبُّـــكْ
لأكونَ فــردًا فى هـوا * كِ، فليت شعرى كيفَ قلبُكْ؟

قال جحظة : وكانت وفاة أبي حشيشة بسُرَّ مَن رأى . وسببها أنه آصطبح عند قَلَم غلام الفضـل بن كَاوُش فى يوم بارد ؛ فقال له : أنا لا آكل إلا طعاما حارّا ، فأتاه بفُجْلية باردة وقال : تُساعدنى وتأكل معى ، فأكل منها فخمِد قلبه فمات .

---

## ذكر أخبار القيان

### وأوّل من غنّى من النساء ومن آشتهر بالغناء منهنّ فى الإسـلام

قالوا : أوّل من غنّى الغناء العربىّ جَرَادَتا آبن جُدْعان . قال أبو الفرج الأصفهانىّ : قال آبن الكلبىّ : كان لآبن جُدْعان أمتان يُسَـمَّيان الجرادتين يُغنِّيان فى الجاهليّة ، وسمّاهما جرادتى عباد (١) ؛ ووهبهما عبدُ الله بن جُدْعان لأُمَيّـة بن أبى الصَّلْت الثقفىّ وكان قد آمتدحه . وآبن جُدْعان هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مُرّة بن كعب بن لُؤَىّ بن غالب . كان سيّدا جوادا ؛ فرأى أُمَيّة ينظر الى الجرادتين وهو عنـده فأعطاه إياهما . وقد قيل فى سبب إعطائه إياهما : إن أُمَيّة بن أبى الصَّلْت قدم عليه ؛ فقال له عبد الله : أمرٌ ما أتى بك ! فقال أُمَيّة : كلاب غرماء قد نبحتنى ونهشتنى . فقال له عبد الله : قَدِمتَ علىّ وأنا عليل وحقوقٌ لحقتنى ولزمتنى ، فأَنْظِرْنى قليلًا وقد ضَمِنتُ قضاءَ دينك فلا أسألك عن مبلغه ، قال : فأقام أميّة أياما ثم أتاه فقال :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى * حياؤك إنّ شِيمتَـك الحياءُ
وعلمُك بالأمور وأنت قَرْمٌ * لك الحسبُ المهذّب والسَّناءُ
كريمٌ لا يُغيّـره صباحٌ * عن الخُلُق الكريم ولا مَساءُ
تُبارِى الريحَ مَكْرُمةً ومجـدًا * إذا ما الكلب أجحره الشتاءُ

---

(١) فى الأغانى : « جرادتى عاد » .

إذا أثنى عليـك المـرءُ يومًا * كفاه من تَعَـرُّضه الثناءُ[(١)]
إذا خَلَفَتْ عبـدَ الله فأعلمْ * بأنّ القـومَ ليس لهم جزاءُ
فأَرْضُـك كلّ مَكْرُمـةٍ بنتها * بنو تيم وأنت لهـم سمـاءُ
وهل تخفَى السماءُ على بصيرٍ! * وهل بالشمسِ طالعةً خفاءُ!

فلمّا أنشده أُمَيّة هذا الشعر كانت عنده قينتان، فقال لأميّـة : خذ أيّتهما شئت، فأخذ إحداهما وآنصرف؛[(٢)] فمرّ بمجلس من مجالس قريش فلاموه على أخذها، وقالوا له : لقد ألفيتَه عليلًا، فلو رَدَدْتَها عليه، فإن الشيخ محتاج إلى خدمتها، كان[(٣)] ذلك أقرب لك عنده وأكثر من كل حقّ ضمِنه. فوقع الكلام من أميّة موقعًا ونَدِم؛ فرجع إليه ليردّها عليه . فلما أتاه بها، قال آبن جُدْعان : لعلك إنما رددتها لأن قريشا لاموك على أخذها؛ وذكر لأميّة ما قال القوم . فقال أميّة : والله ما أخطأتَ يا أبا زهير. قال : فما الذى قلتَ فى ذلك؟ فقال :

عطاؤكَ زَيْنٌ لآمرئٍ إن حَبَوْتَه * بِبَـذْلٍ وما كلُّ العطاءِ يَزِينُ (١٧)
وليس بشَيْنٍ لآمرئٍ بذلُ وجهِهِ * إليكَ كما بعضُ السؤالِ يَشِينُ

فقال عبد الله لأميّةَ : خذ الأخرى؛ فأخذهما جميعا وخرج . فلما أن صار إلى القوم بهما أنشأ يقول :

ومالى لا أُحَيِّيـه وعنـدى * مَوَاهِبُ قد طلعنَ من النِّجادِ
لأبيضَ من بنى عَمْرِو بنِ تَيْمٍ * وهم كالمَشْرَفيّـاتِ الحِـدَادِ
لِكلّ قبيـلةٍ هادٍ ورأْسٌ * وأنت الرأسُ تقدُم كلَّ هادِ

(١) فى الأصل : «تعرّضه» .
(٢) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «وقال لأمية : خذ إحداهما أيهما شئت فأخذها وآنصرف الخ» .
(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «فكان ...» بزيادة الفاء .

عِمادُ الخَيْفِ قد علمت مَعَدٌّ * وإنّ البيتَ يُرْفَع بالعِماد
له داعٍ بمكّةَ مُشْـمَعِلٌّ * وآخرُ فوق دارته يُنـادِى
إلى رُدُحٍ من الشِّـيزَى مِلاءٍ * لُبـابَ البُرِّ يُلْبَـكُ بالشِّهادِ

وكان سبب قول أمَيّةَ بن أبى الصلت هذا الشعر أنّ عبد الله بن جُدْعان وفد على كِسْرَى فأكل عنده الفالُوذَ، فسأل عنه فقيل له : هذا الفالوذ . قال : وبم يصنع؟ قيل : لُبابُ البُرِّ يُلبك مع عسل النحل . قال : أبغونى غلامًا يصنعه، فأتوه بغلام يصنعه فابتاعه، ثم قدم به مكة، فأمره أن يصنع الفالُوذ ففعل، ثم وضع الموائد من الأبطح إلى باب المسجد، ثم نادى مناديه : ألَا من أراد الفالُوذَ فليحضُرْ، فحضره الناس . وكان فيمن حضر أمَيّة بن أبى الصلت فقال الأبيات . وقال فيه أيضا :

ذُكِرَ ٱبنُ جُدْعانَ بخيـ * ـرٍ كلّما ذُكِـرَ الكِرامُ
من لا يخونُ ولا يعقُّ ولا يُبَخِّـلُه الأنامُ
يَهَبُ النجيبـةَ والنجيـ * ـبَ له الرِّحالةَ والزِّمامُ

وٱبن جُدْعان ممن ترك شربَ الخمر فى الجاهلية . وقد تقدّم ذكره . وهجاه دُرَيْد ابن الصِّمَّة بشعر، فلقيه بعد ذلك عبدُ الله بسُوق عُكَاظ، فحيّاه وقال : هل تعرفنى يا دُرَيد ؟ قال لا . قال : فلِمَ هجـوتَنى ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : عبـدُ الله بن جُدْعان . قال : هجوتُك لأنك كنت أمْرأً كريما فأحببتُ أن أضع شعرى موضعه . فقال له عبد الله : لئن كنتَ هجوتَ لقد مدحتَ ؛ وكساه وحمله على ناقة برحلها ، فقال دُرَيد :

إليـك ٱبنَ جُدْعانَ أعملتُهـا * مُخَفَّفَـةً للسُّرَى والنَّصَبْ
فلا خفضَ حتى تلاقى ٱمرأً * جوادَ الرِّضا وحليمَ الغَضَبْ
وجلْدًا إذا الحربُ مَرَّتْ به * يُعين عليها بجَـزْلِ الحطبْ

وجُلْتُ البِـــلادَ فمـــا إن أرى * شبيهَ ابنِ جُدْعان وَسْطَ العرب
ســــوى ملِكٍ شامخٍ مُلْكهُ * له البحرُ يجرى وعَيْنُ الذهب

وأخبار آبن جُدعان كثيرة وسيادته فى الجاهليّة مشهورة ، ليس هذا موضع إيرادها ، وإنما أوردنا ما أوردنا منها فى هذا الموضع على سبيل الآستطراد ، فالشىء بالشىء يذكر . فلنرجع إلى أخبار القِيان .

---

## ذكر أخبـار جميـــلة

هى جميلة مولاة بنى سُلَيم ، ثم مولاة بطن منهم يقال لهم بنو بَهْز ، وكان لها زوج من موالى بنى الحــارث بن الخزرج ، وكان ينزل فيهم ، فغلب عليها ولاء زوجها فقيل لها : مولاة الأنصار . وقد قيل : إنها كانت لرجل من الأنصار ينزل بالسُّنْح . وقيل : كانت مولاة الحجّاج بن عِلَاط السُّلَمىّ . قال أبو الفرج الأصفهانىّ : وهى أصل من أصول الغنــاء ، أخذ عنها مَعْبَد وابن عائشــة وحَبَابة وســلّامة وعقيلة والعتيقة وغيرهم . وفيها يقول عبد الرحمن بن أرْطاة :

إنّ الدّلالَ وحسنَ الغنــا * ءِ وَسْطَ بيوتِ بنى الخزرَجِ
وتِلكم جميــلةُ زَينُ النســاء * إذا هى تَزدانُ للمَخْرَجِ
إذا جئتَهــا بذلَتْ وُدَّهــا * بوجـــهٍ منـــيرٍ لهــا أبلجِ

قال : وكانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء . وكان معبد يقول : أصل الغناء جميلة وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنّين . قال : وسئلت جميلة : أنّى لك هذا الغناء؟ قالت : والله ما هو إلهام ولا تعليم ، ولكنّ أبا جعفر سائب خاثر كان جارنا ، وكنت (١٨) أسمعه يغنّى ويضرب بالعود فلا أفهمه ، فأخذت تلك النغمات وبنيت عليها غنائى ، فجاءت أجود من تأليف ذلك الغناء ، فعلِمتُ وألقيت ؛ فسمعنى مَوْلَيَاتى يومًا وأنا

أُغَنِّى سرًّا ، ففهمنني ودخلن علىّ وقلن : قـد علمنا ما تكتمين وأقسمن علىّ ؛ فرفعت صوتى وغنيتهن بشعر زُهَيْر بن أبى سُلْمَى :

وما ذكرتُك إلا هِجْتِ لى طَرَبًا * إنّ المحبَّ ببعض الأمرِ معذورُ
ليس المحبُّ كمن إن شَطّ غيرُه * هجرُ الحبيب، وفى الهِجرانِ تغييرُ

فحينئذ شاع أمرى وظهر ذكرى وقصدنى الناس وجلست للتعليم ؛ فكان الجوارى يكثُرْنَ عندى ، وربما آنصرف أكثرهن (١) ولم يأخذن شيئا سـوى ما سمعنى أُطارح غيرهن ، وقد كسَبت لموالىّ ما لم يَخْطُر لهم ببال (٢)، وأهل ذلك كانوا وكنت . وقد أقرّ لجميلة كلُّ مكىّ ومدنىّ من المغنّين . قال : ولما قدم آبن سريج والغَرِيض وآبن مِسْجَح وسَلْم بن مُحْرِز المدينةَ وآجتمعوا هم ومَعْبَد وآبن عائشة حكّموها بينهم ؛ وآجتمعوا عندها ، وصنع كل منهم صوتا وغناه بحضرتها — وقد ذكر الأصـفهانىّ الأصوات — فلما سمعت الأصوات قالت : كلّكم مُحسِنٌ مُجِيـدٌ فى غِنائه ومذهبه . قال ابن عائشة : ليس هذا بمُقْنِـع . قالت : أمّا أنت يا أبا يحيى فتُضْحِك الثَّكلى بحسن صوتك ومشاكلته النفوسَ . وأمّا أنت يا أبا عبّاد فنسيجُ وَحْدِه بتأليفك (٣) وحسن نظمك وعذوبة غنائك . وأمّا أنت يا أبا عثمان فلك أوّليّةُ هذا الأمر وفضلُه . وأمّا أنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلُح . وأمّا أنت يا أبا الخطّاب فلو قدّمتُ أحدًا على نفسى لقدّمتك . وأمّا أنت يا مولى العَبَلات فلو ابتدأتَ قدّمتُك عليهم . ثم سألوها جميعا أن تغنّيهم لحنًا كما غنّوا ، فغنّتهم ، فكلهم أقرّوا لها وفضّلوها .

وكانت جميلة قد آلت أنها لا تغنّى أحدًا إلا فى منزلها . فكان عبد الله بن جعفر

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ولم يأخذن شيئا مما سمعنى» .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وأصل» .

(٣) فى الأغانى : «بجودة تأليفك» .

يأتيها فى مجلسها فيجلس عنـدها وتغنّيه . فأرادت أن تكفّر عن يمينها وتأتيه فتغنّيه فى بيته؛ فقال : لا أكلّفك ذلك .

وروى الأصفهانىّ أنّ ابن أبى عَتِيق وآبنَ أبى ربيعة والأحوص بن محمد الأنصارىّ أتوا منزلَ جميلة واستأذنوا عليها فأذِنت لهم . فلما جلسوا سألت عن عمر، فقال لهـا : إنى قصـدتُك من مكة للسلام عليك؛ فقالت : أهلُ الفضل أنت . قال : وقد أحببتُ أن تُفَرِّغى لنا نفسَك اليوم وتُخْلِى مجلسَك؛ قالت : أفعل . فقال لها الأحوص : أحبّ ألّا تغنّى إلا بما نسألك ؛ فقالت : ليس المجلس لك، القوم شركاؤك ؛ فقال : أجل . قال عمر : فإنى أرى أن نجعل الخيـار إليها . قال ابن أبى عتيق : وفّقك الله . فدعت بعود فغنّت :

تَمشى الهُوَيْنَى إذا مشتْ فُضُلًا * مَشْىَ التَّزِيفِ[1] المخمورِ فى الصُّعُدِ
تَظَلُّ من بعـدِ بيتِ جارتهـا * واضـعةً كفَّها على الكَبِدِ
يا مَنْ لِقلبٍ مُتَيَّمٍ سَـدِمٍ * عانٍ رهينٍ مُكَلَّمٍ كَمِـدِ
أزجُرُه وهـو غـيرُ مُزْدَجِرٍ * عنهـا بطَرْفٍ مُكَحَّلِ السَّهَـدِ

قال راوى هذه الحكاية : فلقد سمعتُ للبيت زَلزلةً وللدار هَمْهمةً . فقال عمر : لله دَرُّكِ يا جميلة ! ماذا أُعطيتِ ! أنت أوّل الغناء وآخره ! ثم سكتت ساعةً وأخذت العود فغنّت، فطرب القوم وصفّقوا بأيديهم وفحصوا بأرجلهم وحرّكوا رءوسهم، وقالوا : نحن فِداؤك من المكروه، ما أحسنَ ما غنّيتِ وأجملَ ما قلتِ ! . وأُحضِر الغداء فتغدّى القوم بأنواع من الأطعمة ومن الفواكه، ثم دعتْ بأنواع الأشربة؛ فقال عمر : لا أشرب ، وقال آبن أبى عَتِيق مثل ذلك ؛ فقال الأحوص : لكنّى

---

(١) التزيف : السكران .

أشْرَب، وما جزاء جميلة أن يُمتنَع من شرابها ! فقال عمر : ليس ذاك كما ظننت . فقالت جميلة : من شاء أن يحملني بنفسه ويخلط رُوحه بروحي فعل، ومن أبى ذلك عذَرناه ، ولم يمنعه ذلك عندنا ما يريد من قضـاء حوائجه والأُنْس بمحادثته . قال آبن أبي عتيق : ما يَحسُنُ بنا إلا مساعدتُك . فقال عمـر : إني لا أكون أخسّكم ، افعلوا ما شئتم تجدوني سامعًا مطيعا . فشرب القوم أجمع ؛ فغنّت بشعر آبن أبي ربيعة :

ولقد قالت لجـارات لها * كالمهَـا يلعبْن في حُجْرتِهـا
خُذْنَ عني الظلَّ لا يتبَعني * ومضتْ تسعَى إلى قُبّتِها
لم تُعلّق رَجُلًا فيما مَضى * طَفْلةٌ غيـداءُ في حُلّتِهـا
لم يَطِشْ قطُّ لها سهمٌ ومَنْ * تَرْمِهِ لا ينجُ من رَمْيتِها

فصاح عمر ثم شقّ جيبَ قميصه إلى أسفله ، ثم ثاب اليه عقلُه فنـدم واعتذر وقال : لم أملك من نفسي شيئا . وقال القوم : قد أصابنا الذي أصابك وأُغمِيَ علينا (١٩) غير أننا قد فارقناك في تخريق الثياب . فدعتْ جميلة بثياب فجعلتها على عمر فقبِلها ولبِسها ، وآنصرف القوم إلى منازلهم . وكان عمر نازلًا على آبن أبي عتيق ، فوجّه إلى جميلة بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب كانت معـه فقبِلتها جميلة ، وآنصرف عمر إلى مكة جذلانَ مسرورا .

وروى أبو الفرج بأسانيد رفعها إلى يونس الكاتب والزبير بن بكّار عن عمـه مُصْعَب قالا : حجّتْ جميلة فخرج معها من الرجال المغنّين والنساء والأشراف وغيرهم جماعةٌ ذكرهم أبو الفرج ، منهم من المغنّين هِنْب وطُوَيْس والدّلال ومَعْبَد ومالك بن أبي السّمْح وآبن عائشة ونافع الخير ونافع بن طُنْبورة وغير هؤلاء ممن ذكرهم ؛ ومن النساء المغنّيات جمـاعة ذكرهنّ : منهن الفَرِهة وعزّة الميلاء وحَبَابة وسلّامة وخُلَيْدة وعَقيلة والشّمَاسيّة وفَرعة ونَبِيلة ولذّة العيش وسعِيدة والزّرْقاء ؛ ومن غير المغنّين من

الأشراف ابن أبى عتيق والأحوص وكُثَيِّر عَزّة ونُصَيْب، وجماعة من الأشراف الرجال والنساء . وحج معها من القِيان مُشيِّعات لها ومعظِّمات لقدرها خمسون قينة وجه بهنّ مواليهنّ معها وأعطوهنّ النفقات وحملوهنّ على الإبل فى الهوادج والقِباب وغيرذلك ؛ فأبت جميلة أن تنفق واحدةٌ منهنّ درهما فما فوقه حتى يرجعن . قال : وتخاير من خرج معها فى آتخاذ أنواع اللِّباس العجيب والهوادج والقِباب . قال : ولما قاربوا مكة تلقاهم سَعيد بن مِسْجَح وابن سُرَيج والغَرِيض وآبن مُحْرِز والهُذَلِيّون وجماعة من المغنّين من أهل مكة وفتيانٌ كثير(١)؛ ومَن غير المغنّين عمر بن أبى ربيعة والحارث ابن خالد المخزومىّ والعَرْجىّ وجماعة من الأشراف . فدخلت جميلة مكة وما بالحجاز مغنٍّ حاذق ولا مغنِّية إلا وهو معها وجماعة من الأشراف [ ممن سَمّينا وغيرهم من الرجال والنساء، وخرج أبناء أهل مكة من(٢) ] الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسنِ هيئتهم . فلما قضت حجها سألها المكيّون أن تجعل لهم مَجْلِسا ؛ فقالت : للغناء أم للحديث ؟ فقالوا : لهما جميعا . قالت : ما كنت لأخلِط جِدًّا بهَزْل، وأبتْ أن تجلس للغناء . فقال عمر بن أبى ربيعة : أقسمتُ على من كان فى قلبه حبٌّ لسماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة، فإنى خارج معها . فخرجتْ فى جمع كثير من الأشراف وغيرهم أكثر من جمعها بالمدينة . فلما قدِمت المدينة تلقّاها الناس والأشرافُ من الرجال والنساء، فدخلت بأحسنَ مما خرجت منها، وخرج الرجال والنساء فوقفوا على أبواب دُورهم ينظرون إلى جمعها وإلى القادمين معها . فلما دخلت إلى منزلها وتفرّق الناس إلى منازلهم ونزل أهلُ مكة على أقاربهم وإخوانهم، أتاها الناس مسلِّمين، وما آستنكف من ذلك صغير ولا كبير. فلما مضى لَقْدَمِها عشرة أيام جلست للغناء، وقالت لعمر بن أبى ربيعة : إنى جالسة لك ولأصحابك، فإذا شئتَ فعِد الناس .

(١) فى الأغانى : «وقيان كثيرة لم يسمين» . (٢) زيادة عن «الأغانى» .

فغَصّت الدار بالأشراف من الرجال والنساء، وآبتدأت جميلةُ فغنّت بشعر لعمر بن أبي ربيعة :

هيهـاتَ من أَمَةِ الرّحمنِ منزِلُنـا(١) * إذا حَلَلنا بسِيفِ البَحْرِ من عَدَنِ
وآحتـلّ أهلُكِ أجياداً فليس لنا(٢) * إلا التّذَكُّرُ أو حظٌّ(٣) من الحَزَنِ
لو أنهـا أبصرتْ بالجِزْعِ عَبْرتَه * وقـد تغَـرّد قُمْـرِيٌّ على فَنَنِ
إذًا رأتْ غيرَ ما ظنّتْ بصاحبها * وأيقنَتْ أنّ لَجّاً ليس من وطني
ما أنسَ لاأنسَ يومالخَيْفِ موْقِفَها * وموقفي وكِلانا ثَمّ ذو شَجَنِ
وقولَهـا للـثُّرَيّا وهي باكيــةٌ * والدمعُ منها على الخَدّينِ ذو سُـنَنِ
بآلله قـولي له من غيرِ مَعْتَبَــةٍ * ماذا أردتَ بطول المُكْثِ في اليمنِ
إن كنتَ حاولتَ دنيا أوظفِرتَ بها(٤) * فمـا أصبتَ بترك الحج من ثمنِ

فكلهم آستحسن الغنـاء ، وضجّ القوم لحسن ما سمعوا، وبكى عمر حتى جرت دموعه على ثيابه ولحيته. ثم أقبلت على آبن سريج فقـالت : هاتِ، فغنّى صـوته بشعر لعمر :

(٣٠)
أليستْ بالّتي قالت * لمولاةٍ لهـا ظُهُــرَا
أشيرِي بالسّـلامِ له * إذا ما نحـوَنا نَظَـرا
وقُولِي في مُلاطَفَــةٍ * لزينبَ نوّلِي عُمَــرا
وهذا سِحرُكَ النِّسوا * نَ قد خَبّرنني الخبرَا

---

(١) كذا في الأغاني وديوان عمر بن أبي ربيعة . وفي الأصل : «منزلها» .
(٢) كذا في الأغاني والديوان . وفي الأصل : «فليس لهم» . (٣) كذا في الأغاني والديوان . وفي الأصل : «هم» . (٤) في الأصل :
* إن كنت حاولت دينا أو نعمت به *

ثم قالت لسعيد بن مِسجح : هاتِ ياأبا عثمان، فاندفع فغنّى. ثم قالت : يامعبد هات، فآندفع فغنّى فآستحسنته . ثم قالت: هاتِ يأبنَ مُحرِز، فإنى لم أُؤَخِّرْكِ لخَساسةٍ بك ولا جهلاً بالذى يجب فى الصناعة(١)، ولكنى رأيتُك تحبّ من الأمورِ كلِّها أوسطَها وأعدَلَها . فجعلتك حيث تحب واسطةً بين المَكيّين والمدنيّين ، فغنّى . ثم قالت للغرِيض: هاتِ يامولى العبَلات ،فغنّى بشعر عمرو بن شأس الأبياتَ، وفى آخرها :

أرادتْ عِرَاراً بالهَوَانِ ومَنْ يُرِدْ * عِرَاراً لَعَمْرِى بالهَوانِ فقد ظَلَمْ

فقالت : أحسن عمرو بن شأس ولم تُحسِن ، إذ أفسدتَ غناءك بالتعريض، ووالله ما وضعناك إلا موضعَك ولا نقصناك من حظّك، فماذا أهنّاك! ثم أقبلت على الجماعة فقالت : ياهؤلاء اصدُقوه وعَرِّفوه نفسَه ليقنَع(٢) بمكانه . فأقبل القوم عليه وقالوا: ياأبا زيد، قد أخطأتَ إن كنتَ عرّضت. فقال: قد كان ذلك، ولست بعائد؛ وقام إلى جميلة فقبّل طَرَف ثوبها وآعتذر، فقبِلتْ عذره وقالت : لاتعد، وأقبلت على آبن عائشة فقالت: ياأبا جعفر، هات، فَغنّى، فقالت: حَسَنٌ ماقلت. ثم أقبلت على نافع و بُدَيْح فقالت : أُحِبّ أن تغنّيا جميعا بصوت ولحنٍ واحد ، فغنيا . ثم أقبلت على الهُذَليّين الثلاثة فقالت : غَنُّوا صوتًا واحدا ، فآندفعوا فغنّوْا. ثم أقبلت على نافع بن طُنْبورة فقالت : هاتِ يانَقْش الغَضَارة و ياحَسَنَ اللسان ؛ فآندفع فغنّى ، فقالت : حَسَنٌ والله. ثم قالت : يامالك هاتِ، فإنى لم أُؤخِّرك لأنك فى طبقة آخرهم ،ولكن أردتُ أن أختِمَ بك، يومَنا تبرُّكًا بك،وكى يكون أوّلُ مجلسنا كآخرِهِ و وسطُه كطَرَفه ؛ فإنك عندى ومَعْبَدًا فى طريقة واحدة ومَذْهب واحد ،

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «من الصناعة» .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ليقع» .

لا يدفع ذلك إلا ظالمٌ ولا ينكره إلا عاضلٌ للحق، والحقّ أقول، فمن شاء أن ينكر؛ فسكت القوم كلهم إقرارًا بما قالت. فآندفع فغنّى:

عَدُوٌّ لمن عادتْ وسَـلْمٌ لِسِلْمِها * ومَنْ قرّبت سلمى أَحبَّ وقرّبا
هَبِينِى آمرأً إمّا بريئًا ظَلَمتِـهِ * وإمّا مُسيئًا تاب بعـدُ وأَعْتَبا
أقولُ ٱلتماسَ العُذْرِ لمّـا ظَلَمَتِني * وحَمَّلتِـنى ذنبًا وما كنتُ مُذْنبا
لِيَهْنِكِ إشماتُ العـدوِّ بهَجْرِنا * وقَطْعُكِ حبلَ الودّ حتى تَقَضّبا

فقالت جميلة: يا مالك، ليت صوتك قد دام لنا ودُمنا له! وقطعت المجلس، وآنصرف عامّة الناس وبقى خواصّهم. قال: ولمـا كان فى اليوم الثانى حضر القوم جميعا. فقالت لطُوَيْس: هاتِ يا أبا عبد النعيم، فغنّى:

قد طال ليـلِى وعادنى طَرَبِى * من حُبِّ خَوْدٍ كريمةِ الحَسَبِ
غَرّاء مثـل الهـلالِ آنسـةٍ * أو مثـل تِمثالِ صُورةِ الذّهَبِ
صادتْ فؤادِى بجِيـدِ مُغْزِلَةٍ * ترعَى رِياضا مُلتفّـةَ العُشُبِ

فقالت جميلة: حسنٌ والله يا أبا عبد النعيم. ثم قالت للدّلال: هاتِ يا أبا يزيد، فغنّى، فآستحسنت غنـاءه. ثم قالت لِهَنْب: إنا نُجِلّك اليـوم لِكِبَرِ سِـنّك ورِقّة عظمك؛ فقال: أجل. ثم قالت لبَرْد الفؤاد ونَوْمة الضُّحَى: هاتيا جميعًا لحنًا واحدا، فغنّيا، فقالت: أحسنتما. ثم قالت لِفند وزجة وهبة الله(١): هاتوا جميعا صوتًا واحدا، إنكم متفقون فى الأصوات؛ فاندفعوا فغنّوا. ثم غنّت جميلة بشعر الأعشى:

بانت سـعادُ وأمسى حبلُها آنقطعا * وآحتلّت الغَوْرَ فآلجُـدَّيْنِ فآلفَرَعا
وآستنكرتنى وما كان الذى نَكِرتْ * من الحوادث إلا الشَّيبَ والصَّلَعا

(١) فى الأغانى: «رحمة».

تقولُ بنتى وقد قرّبتُ مُرتحِلًا * ياربِّ جنِّبْ أبى الأوصابَ والوجَعا
وكان شئٌ إلى شئٍ فغيَّره * دهرٌ مُلِحٌّ على تفريقِ ما جمعا

قال: فلم يُسْمَع شئٌ أحسنُ من ٱبتدائها بالأمس وختْمِها فى اليوم، وقطعت المجلس وٱنصرف قوم وأقام آخرون. فلما كان فى اليوم الثالث ٱجتمع الناس فضربت سِتارة (٣١) وأجلست الجوارى، فضربْنَ كلُّهنّ، وضربت هى فضربت على خمسين وترًا فزُلزِلت الدار. ثم غنّت على عودها وهنّ يضرِبن على ضربها:

فإن خَفِيتْ كانت لعينِك قُرّةً * وإن تَبْدُ يومًا لم يَعُمَّكْ عارُها
من الخَفِراتِ البِيضِ لم تَرَ غِلْظةً * وفى الحَسَبِ الضَّخْمِ الرفيعِ نِجارُها
فما رَوْضةٌ بالحَزْنِ طيِّبةُ الثَّرَى * يمُجّ النَّدَى جَثْجاثُها وعَرارُها
بأطيبَ مِنْ فِيها إذا جئتَ مَوْهِنًا * وقد أُوقِدتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها

فدمَعتْ أعينُ كثيرٍ منهم حتى بلّوا ثيابهم وتنفّسوا الصُّعَداء، وقالوا: بأنفسنا أنتِ يا جميلة! ثم قالت للجوارى: اكففن فكففْن؛ وقالت: ياعزّ غنِّى، فغنّت بشعر لعمر:

تذكّرتَ هِندًا وأعصارَها * ولم تَقْضِ نفسُك أوطارَها
تذكّرتِ النفسُ ما قد مضى * وهاجتْ على العينِ عُوّارَها
لتَمنحَ رامةَ مِنّا الهوى * وترْعَى لرامةَ أسرارَها
إذا لم نَزُرْها حِذارَ العِدَا * حسَدنا على الزَّوْرِ زُوّارَها

فقالت جميلة: يا عزّ، إنك لباقية على الدهر، فهنيئا لك حسنُ هذا الصوت مع جودة هذا الغناء. ثم قالت لحَبابة وسلّامة: هاتِيا لحنًا واحدا، فغنّتا فٱستُحسِن غناؤهما. ثم أقبلت على خُلَيْدة فقالت: بنفسى أنت! غنِّى فغنّت، فٱستُحسِن منها

ما غنّت . ثم قالت لعقيلة والشَّماسيّة : هاتيا، فغنّتا . ثم قالت لفرعة ونَبِيلة ونديمة ولذة العيش هَاتِينَ، فغنّين، فقالت : أحسنْتُنَّ . وقالت لسعيدة والزّرقاء : غنيا، فغنّتا . ثم قالت للجماعة فغَنّوا ؛ وانقضى المجلس وعاد كل إنسان إلى وطنه . فما رُئِى مجلسٌ ولا جمعٌ أحسنُ من هذه الأيام الثلاثة . وقد ذكر أبو الفرج ما غَنّى به كل واحد منهم فأوردنا بعضــه وتركنا بعضه اختصارا . وأخبار جميلة كثيرة ، قد ذكر منها أبو الفرج الأصفهانى جملةً تدلّ على أنها كانت مُبَجّلة عند الأشراف معظّمة عند المغنّين، يأخذون عنها و يأتمرون بأمرها، و يسمَوْن إليها، و ينطقون إذا استنطقتْهم، و يكُفّون إذا استكفّتْهم ؛ وفيما قدّمناه دلالة على ذلك والله أعلم .

---

## ذكر أخبار عَزَّةَ المَيْلاء

قال أبو الفرج الأصفهانى : كانت عَزّة مولاةً للأنصار، ومسكنها المدينة، وهى أقدم من غَنّى الغِناء المُوقَعَ من نساء الحجاز، وماتت قبــل جميلة . قال : وقد أخذ عنها مَعْبَدٌ ومالك بن أبى السَّمْح وابن مُحْرِز وغيرُهم من المكّيين والمدنيّين . وكانت من أجمل النساء وجها وأحسنهنّ جسما . وسُمِّيت المَيلاء لتمايُلها فى مِشْيتها .

وقال معبد : كانت من أحسن النساء ضَرْبًا[(1)] بعود، مطبوعةً على الغناء، لا يُعْيِيها أداؤه ولا صنعته ولا تأليفه، وكانت تُغَنِّى أغانىَ القِيَانِ القُدَماء[(2)] مثل شِيرين وزِرْياب وخَوْلَة والرَّباب وسلمى ورائقة[(3)]؛ وكانت رائقة أستاذتها . فلما قَدِم نَشِيط وسائب ؛

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «صوتا بعود» .

(٢) فى الأغانى : «من القدائم» .

(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ورائعة» بالعين المهملة .

خاثر المدينة غَنيًا أغانى بالفارسيّة[1]، فأخذت عَزّة عنهما نَغمًا وألّفتْ[2] عليها ألحانًا عجيبة؛ فهى أوّل مَنْ فتَنَ أهل المدينة بالغناء وحرّض رجالَهم ونساءهم عليه .

وقال الزُّبَيْرى . وجدتُ مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا عَزّة قالوا : لله دَرُّها! ما كان أحسن غناءها، وأطَلّ صوتَها ، وأندَى حَلْقَها، وأحسنَ ضَرْبَها بالمزاهر والمعازف وسائر الملاهى، وأجملَ وجهَها، وأظرفَ لسانَها، وأقربَ مَجلِسَها، وأكرَمَ خُلُقَها، وأسخى نفسَها، وأحسنَ مُساعدتَها ! . وكانت جميلة تقول مثل ذلك فيها .

وكان ٱبن سُرَيج فى حَداثة سنّه يأتى المدينةَ فيأخذ عنها ويتعلّم منها ؛ وكان بها مُعْجَبا، وكان إذا سئل : مَنْ أحسنُ الناس غناء ؟ قال : مولاة الأنصار المُتَفَضِّلة على كل مَنْ غَنّى وضرب بالمعازف والعِيدان من الرجال والنساء .

وكان ٱبنُ مُحْرِز يُقيم بمكة ثلاثة أشهر ثم يأتى المدينة فيقيم بها ثلاثة أشهر من أجل عَزّة، وكان يأخذ عنها . وقد تقدّم ذلك فى أخباره .

وكان طُوَيْس أكثر ما يأوى إلى منزل عَزّة ، وكان فى جِوارها ، وكان إذا (٢٣) ذكرها يقول : هى سيّدة من غَنّى من النساء، مع جمالٍ بارع، وخُلُقٍ فاضل ، وإسلامٍ لا يشوبه دَنَس؛ تأمر بالخير وهى من أهله ، وتنهى عن الشرّ وهى تُجانبه، فناهيك بها ! ما كان أنبلَها وأنبل مَجْلِسَها ! . ثم قال : كانت إذا جلست جلوسا عامًّا فكأنّ الطيرَ على رءوس أهل مجلسها، فمن تكلّم أو تحرّك نقر رأسه .

وقال صالح بن حسّان الأنصارى : كانت عَزّة مولاةً لنا، وكانت عفيفة جميلة. وكان عبد الله بن جعفر وٱبن أبى عتيق وعمر بن عبد الله بن أبى ربيعة يَغْشَوْنها

(١) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «وأغانى الفارسية» .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وألقت عليها» الخ .

فى منزلها فتغنيهم . وغنّت عمر بن أبى ربيعة لحنًا لها فى شىء من شعره ، فشقّ ثيابه وصاح صيحة عظيمةً صَعِق معها . فلما أفاق قال له القوم : لغـيرِك الجهلُ يا أبا الخطّاب؛ قال : إنى سمعت والله مالم أملِك معه نفسى ولا عقلى .

وكان حسّان بن ثابت مُعْجَبا بها، وكان يقدّمها على سائر قِيان المدينـة . وقد ذكرنا خبرها مع النعمان بن بشير وحسّان بن ثابت، وأن كلّ واحد منهما سمع غناءها، فبكى حسّان بن ثابت وآستعاد النعمان بن بشير صوتها مرارا ؛ وتقدّم أيضـا من أخبارها فى خبر عائشة بنت طلحة وأخبار جميلة ما يُسْتغنَى عن إعادته فى هـذا الموضع . فلنذكر مَنْ سواها .

## ذكر أخبـار سَلّامة القَسّ

كانت سلّامة القَسّ هذه مولَّدة من مولَّدات المدينة، وبها نشأت، وأخذت الغناء عن معبَد وآبن عائشة وجميلة ومالك بن أبى السَّمْح ومن دونهم، فمهرت فيه . وإنما سُمّيت سَلّامة القَسّ لأنّ رجلا يُعرف بعبد الرحمن بن أبى عَمّـار بن جُشَم بن معاوية — وكان منزله بمكة، وهو من قُرّاء أهل المدينة، كان يُلَقَّب بالقَسّ لعبادته — شُغِف بها وشُهِر بحبها . وكان سبب ذلك أنه سمع غناءها على غير تَعَمُّدٍ منه فبلغ منه كلّ مبلغ . فرآه مولاها فقال : هل لك أن تدخل فتسمع؟ فأبى . فقال له مولاها : أنا أُقعِـدها حيث تسمع غناءها ولا تراها . فلم يزل به حتى دخل ، فأسمعه غناءها فأعجبــه . فقال : هــل لك أن أخرجها إليك؟ قال لا . فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه، فغنّت فشُغِف بها وشُغِفت به وعرَف ذلك أهلُ مكة . فقالت له يوما : أنا والله أحبُّك . فقال : وأنا والله الذى لا إله إلا هو أُحبّك . فقالت : والله أشتهى أن أُعانقك وأقبّلك . فقال : والله وأنا أشتهى مثــل ذلك . قالت :

وأشتهى والله أن أُضاجعك وأضع بطنى على بطنك وصدرى على صدرك قال : وأنا والله كذلك . قالت : فما يمنعك من ذلك ؟ والله إنّ المكان لخال . قال : يمنعنى منه قول الله عزّ وجل: ﴿ الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾، فأنا أكره أن تحول مودّتى إياكِ عداوةً يوم القيامة . ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النُّسك، ولم يعد إليها بعد ذلك . وكان يُشَبَّه بعطاء بن أبى رَباح.

وله فيها أشعار كثيرة، منها قوله :

إنّ التى طرقَتْكَ بين ركائبٍ * تَمْشِى بِمِزْهَرِها وأنت حَرامُ
لِتَصِيدُ قلبَك أو جزاءَ مودّةٍ * إنّ الرفيق له عليك ذِمامُ
باتت تُعَلِّلُنا وتحسَب أنّنا * فى ذاك أيقاظٌ ونحن نيامُ
حتى إذا سطَع الضياء لناظرٍ * فإذا وذلك (1) بيننا أحلامُ
قد كنتُ أعذُل فى السَّفاهةِ أهلَها * فاْعجَبْ لما تأتى به الأيامُ
فاليوم أعذُرهم وأعلَمُ أنما * سُبُلُ الضَّلالةِ والهدَى أقسامُ

وقوله أيضا فيها :

ألم ترها — لا يُبعِدُ اللهُ دارَها — * إذا رَجَّعتْ فى صوتِها كيف تَصْنَعُ!
تَمُدّ نِظامَ القولِ ثم تَرُدّه * إلى صَلْصَلٍ من صوتها يَترَجَّعُ

وقوله فيها :

ألَا قُلْ لهذا القلبِ هل أنت مبصرُ * وهل أنت عن سَلّامة اليومَ مُقْصِرُ
ألَا ليتَ أنّى حيث صارتْ بِيَ النَّوَى * جليسٌ لسَلْمَى كلّما عَجّ مِزْهَرُ

---

(1) كذا فى الأصل . ولعلها : «فإذا بذلك» .

وله من قصيدة طويلة أولها : (٣٣)

سَـــلَّام هل لى منكمُ ناصِرُ * أم هـــل لقلبى عنـكمُ زاجر
قد سَمِــع الناسُ بوجدِى بكم * فمنهــمُ اللائم والعــاذرُ

فى أشـعار كثيرة يطول الشرح بذكرها . ومدحها الأحوص أيضا بشـعر كثير . وقال فيها أيضا آبن قيس الرُّقَيَّات .

وروى أبو الفرج الأصفهانى قال : كانت سَلَّامة وريَّا أُختين ، وكانتا من أجملِ النساء وأحسنِهنّ غناءً؛ فاجتمع الأحوص وآبن قيس الرقيّات عندهما . فقال لهما آبن قيس الرقيّات : إنى أريد أن أمدحكما بأبيات فأصدُقَ فيها و[لا](١) أكذِب . فإن أنتما غنّيتمانى بذلك وإلّا هجوتُكما ولم أقرَبْكما أبدًا . قالتا : فما قلت؟ قال : قلت :

لقــد فَتَنتْ رَيَّا وسَلَّامةُ القَسَّا * فلم يتركا لِلقسّ عقــلًا ولا نَفْسا
فتاتانِ أمّا منهما فشبيهةُ الـ * ـهِلالِ وأخرى منهما تُشْبِه الشمسَا
تَكُنّانِ أبشـارًا رِقاقًا وأوجُهًا * عِتاقًا وأطـــرافًا مُخَضَّبةً مُلْسا

فغنّته سـلّامة فاستحسنه . وقال آبن قيس الرقيّـات للأحوص : يا أخا الأنصار، ما قلت ؟ قال قلت :

سَـــلَّامُ هل لِمُتَيَّمٍ تَنْــوِيلُ * أم قد صَرَمتِ وغال وُدَّكِ غُولُ
لا تَصْـرِمِى عــنِّى ولاءكِ إنه * حَسَنٌ لدىّ وإن بَخِلتِ جميلُ
أزَعمتِ أنّ مودّتى وصبابتى * كَذِبٌ وأنّ زيارتى تقليل(٢)

فغنّت الأبيات . فقال آبن قيس الرقيّات : أحسنتِ والله ! ما أظنك إلا عاشـقةً لهذا الحلف . فقال له الأحوص : وما الذى أخرجك إلى هذا؟ قال : حُسْنُ غِنائها

(١) التكملة عن الأغانى .
(٢) فى الأغانى : «تعليل» .

بشعرك، فلولا أنّ لك فى قلبها مَحَبّة مُفْرِطةً ما جاء هكذا حسنًا على هــذه البديهة[(١)]. فقال الأحوص : على قدر حُسْنِ شعرى على شعرك هكذا حَسُن الغناء به . وما هذا [منك] إلا الحسدُ[(٢)]، وليس ذلك إلا ما حسدت عليه. فقالت سلّامة: لولا أنّ الدخول بينكما يُوجِب بِغْضةً لحكمتُ بينكما حكومةً لا يَرُدُّها أحد . قال الأحوص : فأنتِ [من ذلك][(٢)] آمنــة . قال آبن قيس الرقيّات : كلّا ! قد أمِنتَ أن تكون الحكومة عليك، فلذلك سبقتَ بالأمان لها. فتفرّقا على ذلك . ثم مشى آبن قيس الرقيّات إلى الأحوص فاعتذر إليه فقبِل عُذْرَه . ومن شعر الأحوص فيها :

سَلّام إنّكِ قد مَلَكتِ فأَسْجِحى * قد يملكُ الحُرُّ الكريمُ فيُسْجِحُ
مُنّى على عانٍ أطلْتِ عناءَه * فى الغُـلِّ عندكِ والعُناةُ تُسرَّحُ
إنّى لأنْصَحُكُمْ وأعلَم أنه * سِيّانِ عندكِ من يَغُشّ ويَنْصَحُ
وإذا شكوتُ إلى سَلّامةَ حُبَّها * قالت أجِدٌّ منــك ذا أم تَمْزَحُ

وحكى أبو الفرج قال: لمّا قدم عثمان بن حَيّان المُرّى المدينة واليا عليها، قال له قوم من وجوه الناس : إنك قد وَلِيت المدينة على كثرة من الفساد، فإن كنت تريد أن تُصلح فطَهِّرْها من الغناء والرِّثاء[(٣)]. فصاح فى ذلك وأجّل أهلَه ثلاثًا يخرجون فيها من المدينة، وكان آبن أبى عتيق غائبا، وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح. فلما كان آخر ليلة من الأجل قدِم فقال: لا أدخل منزلى حتى أدخل على سَلّامة القَسّ. فدخل عليها فقال : ما دخلتُ منزلى حتى جئتكم لأُسَلِّم عليكم. فقالوا : ما أغفلك عن أمرنا ! وأخبروه الخبر. فقال: اصبروا علىّ الليلة . فقالوا : نخاف ألّا يُمْكِنَك شىء.

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل: « ما جاء هذا ... » .
(٢) زيادة عن الأغانى .
(٣) فى الأغانى : «والزنا» .

قال : إن خفتم شـيئا فأخرجوا فى السـحر . ثم خرج فآستأذن على عثمان بن حيّان فأذن له ، فسلّم عليه وذكر غيبته وأنه جاء ليقضى حقّه ، ثم جزّاه خيراً على ما فعل من إخراج أهل الغناء والزّناء ، وقال : أرجو ألّا تكون [ عَمِلت ](١) عمـلًا هو خير لك من ذلك . قال عثمان : قد فعلتُ ذلك وأشار علىّ به أصحابك . فقال : قد أصبتَ ، ولكن ما تقول فى آمرأة كانت هذه صِناعتها وكانت تُكْرَه على ذلك ، ثم تركته وأقبلت (٢٤) على الصلاة والصيام والخير ، وأنا رسولها إليك تقول : أتوجه إليك وأعوذُ بك أن تُخرِجنى من جِوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده ؛ قال قال : فإنى أدَعُها لك ولكلامك . فقال آبن أبى عتيق : لا يدعك الناس ، ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر إليها ، فإن رأيت أن مثلها ينبغى أن يُترك تركتَها ؛ قال نعم فجاءه بها . وقال : احملى معك سُبْحةً وتَخَشَّعى ففعلت . فلمـا دخلت على عثمان سلّمت عليه وجلست وحدّثته ، فإذا هى من أعلم الناس بأمور الناس ، فأُعْجِب بها ؛ وحدّثته عن آبائه وأمورهم ففَكِهَ لذلك فقال ابن أبى عتيق : اقرئى للأمير . فقرأت ؛ فقال لها : احدى ففعلت . وكثُر عَجَبُه منها . فقال : كيف لو سمعتها فى صناعتها ! فلم يزل يُنْزِله شيئا فشيئا حتى أمرها بالغناء فغنّته . فقام عثمان من مجلسه وقعد بين يديها ، ثم قال : لا والله ما مثل هذه تخرج . فقال آبن أبى عتيق : لا يدعك الناس تُقِرّ سلّامة وتُخرِج غيرها . قال : فدعوهم جميعا . فتركهم جميعا وأصبح الناس يتحدّثون بذلك .

ثم آشترى يزيد بن عبـد الملك سلّامة ، وكانت لمُصْعَب بن سُهَيل الزُّهرىّ ، وقيل : لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف . وكانت حَبَابة جارية آل لاحِق ؛ فاشتراهما جميعا ؛ فاشترى سلّامة بعشرين ألف درهم ، وتسلّمها رُسُل يزيد فخرجوا بها وشيّعها

---

(١) زيادة عن الأغانى .

الناس . فلما نزلتْ سِقايةَ سليمان بن عبد الملك قالت للرّسل : إنّ لى قوماً كانوا يَغْشَوْنَنى ويُسَلِّمون علىّ، ولا بدّ لى من وَدَاعهم والسلام عليهم؛ فأذِن للناس عليها، فأتوا حتى ملئوا رَحبة القصر والفِناء، ووقفت هى بينهم بارزةً ومعها العودُ فغنّت :

فارَقُونى وقــد علمتُ يقينـًا * ما لمن ذاق ميتةً من إيابِ
إنّ أهلَ الحِصَابِ قد تركونى * مُوزَعاً مُولَعــا بأهلِ الحِصَابِ
أهــلِ بيتٍ تَتَـايعوا[(١)] للمنـايا * ما على الدّهرِ بعدهم من عِتابِ
كم بذاك الحَجُونِ من حَىِّ صِدْقٍ * من كُهُولٍ أعِفّــةٍ وشَبَابِ
سكنوا الجِزْعَ جِزْعَ بيت أبى مو * سى إلى النخل من صُفَىِّ السِّبابِ
فلِىَ الويلُ بعــدَهم وعليهم * صرتُ فردًا ومَلّــنى أصحابى

قال : فلم تزل تردّد هذا الصوت حتى راحت ، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها؛ فما شئتَ أن ترى باكيًا نبيلاً إلا رأيته .

قالوا : وكانت حَبَابة عند يزيد متقــدّمة على سلّامة ، وكانت حبابة تنظر الى سلّامة بتلك العين الجليلة المتقدّمة وتعرف فضلَها عليها ؛ فلما رأت أثرةَ يزيد لها ومحبّته إيّاها استخفّت بها . فقالت لها سلّامة : أى أُخَيّة ، نَسِيتِ فضلى عليك ! ويلك ! أين تأديب الغناء! أين حق التعليم ! أنسيتِ قولى جميلة لك وهى تطارحنا : خُذى إحكام ما أُطارحك من أُختك سلّامة ، فلا تزالين بخــيرٍ ما بَقِيتْ لك وكان أمرُكما مؤتلفا ! . فقالت : صَدَقْتِ والله لا عدتُ لشىء تكرهينه أبدا . وماتت حَبَابة وعاشت سلّامة بعدها دهرا .

---

(١) كذا فى ديوانه والأغانى ج ١ ص ٣٢١ طبع دار الكتب المصرية . وفى الأصول : «تتابعوا» بالباء الموحدة .

ولما مات يزيد أحضرها ٱبنُه الوليد وأمرها بالغناء، فتنغّصتْ من ذلك وبكت، ثم غنّته . فقال : رحم الله أبي وأطال عمرى وأمتعنى بحُسْنِ غنائك ! . ياسلّامة، بِمَ كان أبي يُقَدِّم حَبَابة عليك؟ قالت : لا أدرى والله . قال : لكننى أدرى ذلك، بما قسم الله عزّ وجلّ لها . قالت : يا سيِّدى أجَلْ . وهى إحدى من ٱتُّهِمَ بِهِنَّ الوليد من جوارى أبيه .

---

# ذكر أخبار حَبَابة

كانت حَبَابة جارية مولَّدة من مولَّدات المدينة لرجل من أهلها يعرف بٱبن دبابة[1]، وقيـل : بل كانت لآل لاحق المكّيين، وقيل : كانت لرجل يعرف بابن مينا . وكانت تسمّى العالية[2]، فسماها يزيدُ بن عبد الملك لما ٱشتراها حَبَابة . وكانت حُلوةً جميلةَ الوجه ظريفةً حسنةَ الغناء طيِّبةَ الصوت ضاربةً بالعود . أخذت الغناء عن ابن سُرَيج وابن مُحْرِز ومالك بن أبي السَّمْح ومَعْبَد وعن جميلة وعَزّة الميلاء .

وكان يزيد بن عبـد الملك يقول : ما تَقَرّ عيني بما أُوتيتُ[3] من الخلافة حتى أشتريَ سلّامة جارية مُصْعَب بن سُلَيم وحبَابة جارية ٱبن لاحق المكيّة . فأرسل فٱشتُريتا له . فلما ٱجتمعتا عنده قال : أنا الآنَ كما قال الأوّل :

فألقت عصاها وٱستقرّ بها النّوَى * كما قَرّ عينًا بالإيابِ المسافرُ

(٢٥)

وكان يزيد بن عبد الملك فى خلافة أخيه سليمان قد قَدِم المدينـة فتزوج سَعْدةَ بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار، ورُبَيْحَةَ بنت محمد بن على ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على مثل ذلك، وٱشترى العاليةَ[2] بأربعة آلاف

---

(١) فى الأغانى : « يعرف بابن رمانة وقيل : ابن مينا وهو خرجها وأدبها » .

(٢) كذا فى الأغانى طبع بولاق والطبرى طبع أوربا . وفى الأصل : «الغالية» بالغين المعجمة .

(٣) كذا فى الأغانى، وفى الأصل : «لم يقر عيني ما أوتيت الخ» .

دينار . فبلغ ذلك سليمان فقال : لأحجُرَنّ عليه . فبلغ يزيد ذلك فاستقال مولى حَبَابة ؛ ثم آشتراها بعد ذلك رجل من أهل إفريقية . فلما وَلِى يزيد آشترتها سَعْدة آمرأته وعلمت أنه لا بدّ طالبها ومشتريها . فلما حصلت عندها قالت له : هل بقى عليك شيء من الدنيا لم تنله ؟ قال : نعم ، العالية . قالت : أوَرأيتها ؟ قال نعم . قالت : أفتعرفها ؟ قال نعم . فرفعت الستر فرآها ، فقالت : هذه هى ؟ قال نعم ؛ قالت : هى لك ، وخرجت عنهما . فسمّاها حبابة وعظُم قدرُ سَعْدة عنده . ويقال : إنها أخذت عليها قبل أن تَهَبها له أن تُوَطِّئ لآبنها عنده فى ولاية العهد .

قال : وآرتفع قدر حَبَابة عند يزيد وتمكّن حبُّها فى قلبه تمكنا عظيما . وكان أوّل ذلك أنه أقبل يوما الى البيت الذى هى فيه فقام من وراء الستر فسمعها تترنّم وتغنّى :

كان لى يا يزيدُ حُبّك حَيْنا * كاد يَقْضِى علىّ لمّا آلتقينا

فرفع الستر فوجدها مضطجعةً مقبلةً على الجدار ، فعلم أنها لم تعلَم به ولم يكن ذلك لمكانه ؛ فألقى نفسه عليها وحرّكت منه .

قال : وأراد يزيد بن عبد الملك أن يتشبّه بعُمر بن عبد العزيز ، وقال : بماذا صار عمر أرْجَى لربه منى ! . وقيل : بل لاَمَه مَسْلَمَة بن عبد الملك على الإلحاح على الغناء والشرب ، وقال له : إنك وَلِيتَ بعقب عمر بن عبد العزيز وعدْله ، وقد تشاغلتَ بهذه الإماء عن النظر فى الأمور ، والوفودُ ببابك وأصحابُ الظُّلَامات يصيحون وأنت غافل ! قال : صدقتَ والله ، وهمّ أن يترك الشرب ، ولم يدخل على حبابة أياما ، فشقّ ذلك عليها فأرسلت الى الأحْوَص أن يقول أبياتا فى ذلك ، فقال :

أَلَا لا تَلُمْهُ اليوم أن يَتَبَلَّدا * فقد غُلِبَ المحزونُ أن يتجلّدا
بَكَيْتُ الصِّبَا جُهْدِى فمن شاء لَامَنِى * ومن شاء آسَى فى البكاء وأَسْعَدَا

وإنّى وإن فُنِّدتُ فى طلب الصِّبا * لأعلمُ أنّى لستُ فى الحبِّ أوحدا
إذا أنت لم تَعشَقْ ولم تدرِ ما الهوى * فكن حجرًا من يابس الصَّخرِ جَلْمَدا
فما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتَشْتَهِى * وإن لامَ فيه ذو الشَّنانِ وفنّدا

قال : فلما كان فى يوم الجمعة تعرضتْ له حَبابة عند خروجه الى الصلاة، فلقيته والعودُ فى يدها، فغنّت البيت الأوّل، فغطى وجهه وقال : مَهْ لا تفعلى. ثم غنّت « وما العيش إلا ما تَلَذّ وتشتهى » فعدل إليها وقال : صَدَقتِ، قبح الله من لَامنى فيكِ ! يا غلام، مُرْ مَسْلَمة فَلْيُصَلِّ بالناس . وأقام معها يشرب وهى تغنّيه وعاد الى حاله، وقال لها : من يقول هذا الشعر؟ قالت : الأحوص . فاستدعاه وآستنشده الشعر فأنشده الأبيات . ثم أنشده قصيدتَه التى أوّلها :

يا مُوقِدَ النّارِ بالعَلْياءِ من إضَمِ * أَوْقِدْ فقد هِجتَ شوقًا غيرَ مُنْصَرِمِ

وهى قصيدة طويلة ، فقال له يزيد : آرفع حوائجك ؛ فكتب إليه فى نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره فأمر له بها . وقد قيل فى أمر هذه الأبيات : إن حَبابة لمّا بعثتْ الى الأحوص فى عمل الشعر قالت له : إن رددتَ أميرَ المؤمنين عن رأيه فلك ألفُ دينار، فدخل الأحوص عليه وآستأذنه فى الإنشاد ؛ فقال : ليس هذا وقتك . فلم يزل به حتى أذن له فأنشده الأبيات . فلما سمعها وثب حتى دخل على حَبابة وهو يتمثّل :

وما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتشتَهِى * وإن لام فيه ذو الشَّنانِ وفنّدا

قالت : ما ذاك(١) يا أمير المؤمنين؟ فقال : أبيات أنشدنيها الأحوص ، فسَلِى ما شئتِ . قالت : ألف دينار تعطيها الأحوص؛ فأعطاه ألف دينار .

(١) فى الأغانى : « فقالت ماردّك يا أمير المؤمنين » .

قال : وقال يزيد يوماً لسلّامة وحَبابة : أيُّكما غنّتني ما في نفسي فلها حُكمها . فغنّت سلّامة فلم تُصب ما في نفسه، وغنّت حَبابة بشعر ابن قيس الرُّقيّات :

حلَقٌ من بني كِنانة حَولي * بفِلَسْطِين يُسرِعون الرُّكوبا
جَزِعتْ أنْ رأتْ مَشِيبي عِرسي[(١)] * لا تلُومي ذوائبي أنْ تَشِيبا (٣٦)

فأصابت ما في نفسه، فقال : احتكمي . قالت : تَهَبُ لي سلّامة ومالها . قال : اطلُبي غيرها، فأبت غيرها، فقال : أنت أولى بها ومالها، فلقِيتْ سلّامة من ذلك أمراً عظيما . فقالت حَبابة : لا ترَيْن إلا خيرا . فجاءها يزيدُ فسألها أن تَبيعه إيّاها بحكمها . فقالت : أُشهِدك الآن أنها حُرّة، فاخْطُبْها الآن أُزَوِّجْك مولاتي .

قال : وغنّت حَبابة يوماً يزيد :

ما أحسنَ الجِيدَ من مُلَيْكةَ والـ * ـلبّاتِ إذ زانها ترائبُها
يا ليتني ليلةً إذا هجَع النا * سُ ونام الكلابُ صاحبُها
في ليلةٍ لا يُرى بها أحدٌ * يسعَى علينا إلّا كواكبُها

فطرِب يزيد، وقال : هل رأيتِ قطُّ أطربَ منّي؟ قالت : نعم، ابن الطيار مُعاوية ابن عبد الرحمن بن جعفر . فكتب يزيد الى عبد الرحمن بن الضحّاك فحمله إليه . فلما قدِم أرسلت إليه حَبابة : إنما بعث إليك لكذا وكذا وأخبرته بالقصة، فإذا أُدخِلتَ عليه وتغنّيتُ فلا تُظهِرنّ طَرَباً حتى أُغنّي الصوت الذي غنّيتُه، فقال : سوْءةٌ على كِبَر السنّ! فدعاه يزيد وهو على طنفسة خَزٍّ، ووضع لمعاوية مثلَها، وجاءوا بجامَين فيهما مِسْكٌ، فوُضِع أحدُهما بين يدي يزيد والآخرُ بين يدي مُعاوية . قال معاوية : فلم أدرِ كيف أصنَع، فقلتُ : أنظُرُ كيف يصنع فأصنع مثلَه ؛ فكان يُقلّبه فتفوح

(١) في الأغاني : «هزئت» .

ريحه وأفعل مثـلَ ذلك . فلما جيءَ بحَبَابة وغنّت، فلما غنّت ذلك الصوت أخذ معاوية الوِسادةَ فوضَعها على رأسه وقام يدور ويقول : الدُّخْنُ بالنَّوَى يعنى اللُّوبيا! وأمر له يزيد بصِلَاتٍ فى دَفَعات مبلغُها ثمانيةُ آلاف دينار .

وحكى أيضا أنها غنّتْ يومًا يزيدَ فطرِب، ثم قال : هل رأيتِ أطـرَبَ منّى؟ قالت : نعم، مولاى الذى باعنى . فغاظه ذلك، فكتب فى حَمْله مُقَيَّدا. فلما وصل أمر يزيد بإدخاله عليه فأُدخل يرسُفُ فى قيوده، وأمر يزيدُ حَبَابةَ أن تغنّى فغنّت:

تَشُـطُّ بنا دارُ جِيرانِنا * ولَلدَّار بعـدَ غدٍ أبعدُ

فوثب حتى ألقَى نفسَه على الشمعة فاحترقتْ لِحيته، وجعل يصيح: الحريق ياأولاد الزنا ! فضحِك يزيد وقال : لَعَمْـرى إن هذا لأطـرب(١) الناس ! وأمر بحلّ قيوده ووصله بألف دينار ووصلته حَبَابة، وردّه الى المدينة .

وروى أبو الفـرج الأصفهانى بسـنده الى غانم الأزدى قال : نزل يزيد بن عبد الملك ببيت رأس بالشأم ومعه حَبَابة، فقال : زعموا أنه لايصـفو لأحدٍ يومًا عيشُه الى الليل لا يُكَدِّره شيء عليه، وسأُجرِّب ذلك ؛ ثم قال لمن معه: إذا كان غدٌ لا تُخْبِرونى بشيء ولا تأتونى بكتاب. وخلا هو وحَبَابة، فأُتيا بما يأكلان، فأكلت رُمّانة فشَرِقتْ بحَبّة منها فماتت، فأقام لايدفنها ثلاثًا حتى تغيّرت وأنتنت وهو يَشَمُّها ويرشُفها. فعاتبه على ذلك ذووه وأقرباؤه وصَدِيقُه وعابوا عليه ما يصنع، وقالوا : قد صارت جيفةً بين يديك، فأذِن لهم فى غَسْلها ودفنها، فأُخرِجتْ فى نِطْع، وخرج معها لا يتكلّم حتى جلس على قـبرها . فلمـا دُفِنت قال : أصبحتُ والله كما قال كُثَيِّر :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «إن مثل هذا يطرب الناس» .

فإنْ تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تَدَعِ الهَوَى * فباليأسِ تســـلُو عنكِ لا بالتَّجَـــلُّدِ
وكـلُّ خليـــلٍ راءنِى فهـو قائلٌ * مِنَ آجْلِكِ هـذا هامةُ اليـومِ أو غدِ

فما بقى إلا خمسَ عشرة ليلة ومات، فدُفِن الى جنبها .

وروى أيضا عن مَسْلَمة بن عبد الملك قال: لمـّا ماتت حَبَابة جزع عليها يزيد، فجعلتُ أُسَكِّنه وأُعَزِّيه وهو ضاربٌ بذَقَنه على صدره ما يكلّمنى حتى دفنها . فلمّـا بلغ إلى بابه التفتَ إلىّ وقال : فإن تَسْـلُ عنـك النفس ... البيت ، ثم دخل بيتـه فمكث أربعين يومًا ثم هَلَك .

قال : وروى المدائنىّ أنه آشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إيّاها ؛ فقال : لا بُدّ أن تُنْبَش حتى أنظر إليها ، فنُبِشت وكُشِف له عن وجهها وقد تغيّرت تغيّرا قبيحا ، فقيل له : يا أمـير المؤمنين، آتّقِ الله تعـالى ! ألَا تراها كيف صارت ! فقال : ما رأيتُ قطّ أحسنَ منها اليوم ،أَخرِجوها . فجاء مَسْلَمة ووجوهُ أهله[(١)]، فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك ودفنوها، وآنصرف ، وكمِد كَمَدًا شديدًا حتى مات، فدُفِن إلى جانبها .

وروى عن عبد الله بن عُرْوة بن الزُّبير قال : خرجتُ مع أبى إلى الشأم زمن يزيد بن عبد الملك . فلما ماتت حَبَابةَ وأُخرِجتْ، لم يستطع يزيد الركوبَ من الجَزَع ولا المشيَ، فحُمِل على منبر على رِقاب الرجال . فلمّا دُفنت قال : لم أُصَلِّ عليها، انبشوا عنها . فقال له مَسْلَمة : نَنْشُدك اللهَ يا أمير المؤمنين، إنما هى أَمَةٌ من الإماء وقد واراها الثرى . فلم يأذَنْ للناس بعـد حَبَابةَ إلا مرّةً واحدة؛ قال : فوالله ما آستتمّ دخول الناس حتى قال الحاجب : اخرجوا رحمكم الله . ولم يَنْشَبْ يزيدُ أن مات كَمَدا . (٣٧)

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وركبه أهله» .

# ذكر أخبار خُلَيْدة المكّيّة

قال أبو الفرج : هى مولاة لآبن شمّاس، كانت هى وعَقِيلة ورُبَيحة يُعرفن بالشّماسيّات . وقد أخذت الغناء عن آبن سُرَيْج ومالك ومَعْبَد .

وروى أبو الفرج بسنده إلى الفضل بن الربيع أنه قال : مارأيتُ آبنَ جامع يطرَب لغناء كما يطرَب لغناء خُلَيْدة المكّيّة . وكانت سوداء، وفيها يقول الشاعر :

فتنتْ كاتبَ الأمير رَباحٍ * يا لَقومى خُلَيْدةُ المكّيّه

وغنّت هشام بن عُرْوة يومًا، فلما سمعها قال : اكتُبى على صَدْرِك ( قُلْ هُوَ آللهُ أَحَدٌ ) وبين يديك المُعوِّذتين لا تُصيبُك العين .

وقال عُمَر بن شَبّة : بلغنى أنّ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان أرسل إلى خُلَيْدة المكّيّة أبا عَوْنٍ مولاه يخطُبها عليه . فآستأذن فأذنتْ له وعليها ثيابٌ رِقاق لا تسترُها ، ثم وثبتْ فقالت : إنما ظننتُك بعضَ سُفَهائنا ، ولكنّى ألبَس لك ثيابَ مثلك ففعلت . وقال : قد أرسلنى إليك مولاى، وهو من تعلمين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عثمان بن عفّان ومن علىّ وهو ابن عمّ أمير المؤمنين، يخطُبك . قالت : قد نَسَبتَ فأبلغتَ، فآسمع نسبى أنا بأبى [أنت][1] ! إن أبى بِيعَ على غير عَقْد الإسلام ولا عَهْده، فعاش عبدًا ومات فى رجله قيدٌ وفى عُنقه سِلْسِلةٌ على الإباق والسَّرِقة ، وولدتنى أمى على غير رِشْدة وماتت وهى آبقة ، فأنا مَنْ تعلَم . فإن أراد صاحبُك نكاحًا مباحًا أو زِنًا صُرَاحا فهَلُمّ إلينا فنحن له . فقال : إنه لا يدخل فى الحرام . فقالت : لا ينبغى أن يستحيى من الحلال ، فأمّا نكاح السرّ فلا والله لا فعلتُه ولا كنتُ عارًا على القِيان . قال : فأتيتُ محمدا فأخبرته ؛ فقال :

(١) التكملة عن الأغانى .

ويحك ! أتزوّجها مغنّية وعندى بنتُ طلحة بن عبيد الله ! لا ! ولكن آرجع إليها فقل لها : تختلف إلىّ أُرَدّد بَصَرى فيها لعلّى أسلو، فرجعتُ إليها فأبلغتها الرسالة فضحكت وقالت : أمّا هذا فنعمْ، لسنا نمنعه .

---

## ذكر أخبار مُتَيَّم الهشاميّة

قال أبو الفرج : كانت متيّم مولّدة صفراء من مولّدات البَصْرة، وبها نشأتْ وتدرّبت وغنّت[(1)] . وأخذت عن إسحاق وأبيه قبله وعن طبقتهما من المغنّين . وكانت من تخريج بَذْل وتعليمها . وآشتراها علىّ بن هشام بعد ذلك فآزدادت أخذًا ممن كان يغشاه من أكابر المغنّين . وكانت من أحسن الناس وجهًا وغناءً وأدبا . وكانت تقول : الشعر ليس ممّا يُستجاد ولكنه يُستحْسَن من مثلها . وحَظِيتْ عند علىّ بن هشام حُظوةً شديدةً، وتقدّمت جواريَه جُمَعَ عنده، وهى أمّ ولده كلهم .

حكى أبو الفرج قال : كان عند علىّ بن هشام بِرْذَوْنٌ أشهب قِرْطاسىّ فى نهاية الحسن والفَرَاهة وكان به مُعْجَبا، وكان إسحاق بن إبراهيم يَشتهيه شهوةً شديدةً ويُعرِّض لعلىّ مرارًا فى طلبه فلم يَسمَحْ به . فسار إسحاق إلى علىّ يومًا وقد صنعتْ متيم :

فلا زِلْنَ حَسْرَى ظُلَّعًا، لِمْ حَمَلْنها * إلى بَلَدٍ ناءٍ قليلِ الأصادقِ

فاحتبسه علىٌّ وبعث إلى متيّم يأمرها أن تجعل صوتَها فى صدر غنائها ففعلت، فأطربت إسحاقَ إطراباً شديدا، وجعل يستعيده ويستوفيه ليزيدَ فى طَرَبه[(2)] وهو يُصغِى إليه ويتفهّمه حتى صحّ له . ثم قال لعلىّ : ما فعل البِرْذَوْنُ الأشهب ؟ قال : على ما عهدتَ من حُسْنه وفَرَاهته . قال : آختر الآن منّى خَلّةً من آثنتين : إمّا أن

---

(1) فى الأغانى : «وتأدّبت» .

(2) عبارة الأغانى : « وجعل يستردّه فتردده وتستوفيه ليزيد فى إطرابه إسحاق وهو يصغى ... » .

طِبْتَ لى نفسًا [به][1] وحملتَنى عليه ، وإمّا أن أبيت فأدّعى والله هذا الصوت [لى][1] وقد أخذته، أفتراك تقول : إنه لمتيّم وأقول : إنه لى، فيؤخذ قولُك ويُترك قولى؟ فقال: لا والله ما أظنّ هذا ولا أراه، ياغلام، قُدِ البرذونَ إلى منزل إسحاق، لا بارك الله لك فيه ! . (٧٨)

وحكى أن علىّ بن هشام مولاها كلّمها بشىء فأجابته جوابًا لم يُرضه، فدفع [يده] فى صدرها، فغضِبتْ ونهضت وتثاقلت عن الخروج إليه . فكتب إليها :

فليتَ يدى بانتْ غداةَ مددتُها * إليكِ ولم تَرجِعْ بكَفٍّ وساعدِ
فإن يرجِعِ الرحمنُ ما كان بيننا * فلستُ إلى يوم التَّنادى بعائد

قال: وعتَبت عليه مرّةً فتمادَى عتبُها، فترضّاها فلم ترضَ، فكتب إليها: الإدلال يدعو إلى الملال، وربّ هجرٍ دعا إلى صبر، وإنما سُمّى القلبُ قلبًا لتقلّبه؛ وقد صدق عندى العباس بن الأحنف حيث يقول :

ما أُرانى إلا سأهجُـــرُ مَنْ ليـــس يرانى أقوى على الهجْرانِ
ملّنى واثقًا بحسن وفائى[2] * ما أضرَّ الوفاءَ بالإنسان

قال : فخرجتْ إليه من وقتها ورضيت .

وروى عن يحيى المكىّ قال : قال لى علىّ بن هشام : لمّا قَدِمتْ جَدّتى شاهك من خُراسان، قالت: اعرِض جواريَك علىّ؛ فعرضتهن عليها. ثم جلسنا على الشراب وغنّتنا مُتيَّم، فأطالت جَدّتى الجلوسَ، فلم أنبسط إلى جوارى كما كنت أفعل، فقلت هذين البيتين :

أنبقَى على هذا وأنتِ قريبةٌ * وقد منَع الزُّوّارُ بعضَ التكلُّمِ
سلامٌ عليكم لا سلامَ مُودِّعٍ * ولكن سلامٌ من حبيب متيَّمِ

(١) زيادة عن الأغانى . (٢) فى الأغانى : * قد حدا بى إلى الجفاء وفائى *

وكتبت بهما فى رقعة ورميتها إلى متيّم؛ فأخذتها ونهضت لصلاة الظهر، ثم عادت وقد صنعت فيه لحناً فغنّته . فقالت شاهك : ما أراها إلا قد ثقّلنا عليكم اليوم؛ وأمرت الجوارى فحملوا محفّتها، وأمرت للجوارى بجوائز ساوت بينهن، وأمرت لمتيّم بمائة ألف درهم .

قال : ومرّت متيّم فى نسوةٍ وهى متخفّية بقصر على بن هشام بعد أن قتله المأمون . فلما رأت بابه مغلقاً لا أنيس به وقد علاه التراب والغبْرة وطُرِحت فى أفنيته المزابلُ وقفتْ عليه وتمثّلت :

يا منزلاً لم تبلَ أطلالُه * حاشى لأطلالك أن تبلَى
لم أبك أطلالك لكنّنى * بكيتُ عيشى فيك إذ ولّى
قد كان لى فيك هوًى مرّةً * غيّبه الترب وما مُلّا
فصرتُ أبكى بعده جاهداً(١) * عند ادّكارى حيث قد حلّا
والعيشُ أولَى مابكاه الفتى * لا بُدّ للمحزونِ أن يَسْلَى

قال : ثم بكت حتى سقطت من قامتها ، وجعل النسوة يناشدنها [ ويقلن ](٢) : اللهَ اللهَ فى نفسك! فإنك الآن تؤخَذين . فبعد لأىٍ ما احتُملَتْ تهادى بين امرأتين حتى جاوزت الموضع .

وحُكِى عنها قالت : بعث إلىّ المعتصم بعد قدومه بغداد؛ فلما دخلتُ أمر بالعُود فوُضع فى حجرى، وأمرنى بالغناء فغنّيتُ :

هل مُسْعِدٌ لبكائى * بعَبْرةٍ أو دِماءِ
وذاك شىءٌ قليلٌ * لسادتى النُّجباءِ

(١) فى الأغانى : « فصرت أبكى جاهدا فقده » .
(٢) زيادة عن «الأغانى» .

—وهذا الشعر لمراد جارية علىّ بن هشام ترثيه— فقال : اعدِلى عن هذا الصوت، فغنّيتُ :

* ذهبتُ عن الدنيا وقد ذهبتْ عنّى *

فدَمَعتْ عيناه وقال : غَنِّى غيرَ هذا، فغنّيت :

أولئك قومى بعــد عِزٍّ وثَروةٍ(١) * تَفَانَوْا فإلّا تَذْرِفِ العينُ أكْمَدِ

فبكى بكاء شديدا، ثم قال : ويحك! لا تُغَنِّى فى هذا المعنى شيئا . فغنّيتُه :

لا تأمَنِ الموتَ فى حِــلٍّ وفى حَرَمٍ * إنّ المنايا بجَنْبَىْ(٢) كلِّ إنسـانِ

وٱسلُكْ طريقَك هَوْنًا غيرَمُكتَرِثٍ * فسوف يأتيك ما يَمْنِى لك ٱلمـانِى

فقال : والله إنى لأعلم أنكِ إنمــا أردتِ بمــا غنّيتِ ما فى قلبــك لصاحبك [وأنّكِ] لم تريدينى، ولو أعلم أنك تُريدينى لقتلتُك، ولكن خذوها! فأخذوا بيدى فأُخرِجتُ .

(٣٩) وهذه متيّم هى التى كان يهواها عبــد الصمد بن المُعَذّل، وأظنّ ذلك قبل ٱتصالها بعلىّ بن هشام، وهى إذ ذاك عند رجل من وجوه البصرة .

قال : وكانت لا تخرُج إلا متنقّبة. فحكى المبرّد وغيره : أنها قَدِمتْ يومًا إلى ٱبن عبيد الله بن الحسين العنبرىّ القــاضى ، فٱحتاج إلى أن يُشْهِد عليها، فأمَر بها أن تَسْفِر ففعلت . فقيل لعبد الصمد : لو رأيتَ متيّم وقــد أسفرها القاضى لرأيت شيئا عجيبا ! فقال :

ولمّـا سَرَتْ عنهـا القِناعَ مُتيَّمٌ * تروّح منهـا العَنْــبرِىُّ متيّما

رأى ٱبنُ عُبَيــدِ الله وهو مُحَكَّمٌ * عليها لهـا طَرْفًا عليــه محكّما

(١) فى الأغانى : «ومنعة» .

(٢) فى الأغانى : « تغشى » .

وكان قَدِيمًا كالحَ الوجهِ عابسًا * فلما رأى منها السفورَ تبسّما
فإن يَصْبُ قلبُ العنبرىّ فقبله * صبا باليتامى قلبُ يحيى بنِ أكثما

فبلغ قولُه يحيى بن أكثم ، فكتب إليه : عليك لعنة الله ! أىّ شىء أردتَ منّى حتى أتانى شَرُّكِ من البَصْرة ! فقال لرسوله : قل له : متيّم أقْعَدتْك على طريق القافية .

## ذكر أخبار ساجى جارية عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر

قال أبو الفرج : كانت ساجى إحدى المُحسنات المبرّزات المتقدّمات ، وهى تخريج مولاها عبيد الله . وكان مهما صنع من الغناء نسبه إليها ، وكان قد بلغ من ذلك الغاية ، ولكنه كان يترفّع عن ذكره ويكره أن يُنْسَب إليه .

حكى أبو الفرج عن أحمد بن جعفر جحظة قال : كتب المعتضدُ إلى عُبَيد الله ابن عبد الله بقُمّ(١) أن يأمر جاريتَه ساجى بزيارته ففعل . قال جحظة : فحدّثنى من حضر ذلك المجلس من المغنّيات قالت : دخلتْ علينا وما فينا إلا من تَرْفُلُ فى الحُلِيّ والحُلَل وهى فى أثواب ليست كأثوابنا فآحتقرناها ؛ فلما غنّت آحتقرنا أنفسنا ، ولم تزل تلك حالنا حتى صارت فى أعيننا كالجبل وصِرنا كلا شىء . ولمّا آنصرفت أمر لها المعتضِد بمال وكُسوة . ودخلت إلى مولاها فجعل يسألها عن خبرها وما رأت مما آستظرفت وسمعت وآستغربت ؛ فقالت : ما آستحسنتُ هناك شيئا ولا آستغربته من غناء ولا غيره إلّا عُودًا من عود محفورًا فإنى آستظرفته . قال جحظة : فما قولُك فيمن تدخل إلى دار الخليفة ولا تُمدّ عينَها إلى شىء تستظرفه وتستحسنه إلّا عودا !

(١) قم : مدينة كبيرة بين أصبهان وساوة .

قالوا : وكان المعتَضد إذا ٱستحسن شيئًا بعث به إلى ساجى فتُغَنِّى فيه. وكانت صنعتها فى عصره تُسَــمَّى غناءَ الدار . وماتت ساجى فى حياة مولاها وكان عليلًا، فرثاها ببيتين فقال :

يَمِينًـا يقينًا لو بُلِيتُ بفَقْـدِها * وبى نَبْضُ عِرْقٍ للحياةِ وللنُّكْسِ
لأوشكتُ قتْلَ النفسِ قبل فِراقِها * ولكنها ماتت وقد ذهبَتْ نَفْسِى

---

## ذكر أخبار دُقَاق

قال أبو الفرج: كانت دقاق مغنِّيةً محسِنةً مُتْقِنةَ الأداء والصنعة جميلةَ الوجه. أخذت الغناء عن أكابر مغنِّى الدَّولةِ العبَّاسية. وكانت ليحيى بن الربيع، فولدت له ٱبنه أحمد. ومات يحيى فتزوجت بعــده بِعدَّة من القوّاد والكُتَّاب فماتوا وورِثتهم، ثم ٱنقطعت إلى حَمْدونةَ بنت الرشــيد ثم إلى غَضِيض. وكانت مشهورةً بالظُّرْف والمُجُون.

قال هِبَةَ الله بن إبراهيم بن المهـدىّ : وكانت تُواصِل جماعةً كانوا يميلون إليها وتُرِى كلَّ واحد منهم أنهـا تهواه. وكانت أحسنَ أهل عصرها وجهًا وأشأمهم على من تزوّجها أو رابطها . فقال فيها إبراهيم بن المهدىّ :

عَدِمتُكِ يا صَدِيقةَ كلِّ خَلْقٍ * أكُلَّ الناسِ وَيْحَكِ تَعْشَقِينا
وكيف إذا خَلَطتِ الغَثَّ منهم * بِلَحْـمِ سَمِينِهــم لا تَبْشَمِينا

قال أبو هفّان : خرج يحيى بن الربيع إلى بعض النواحى وترك جاريتــه دُقاق فى داره؛ فعمِلت [بعده](١) الأوابد. فقال موسى(٢) الأعمى [فيه](١) :

---

(١) زيادة عن الأغانى.

(٢) فى الأغانى : «أبو موسى».

قل لِيحيي نعـمْ صَبَرْتَ على المو * ت ولم تخشَ ريبَ سَهـمِ المَنُونِ
كيف قل لى أطَقْتَ ويحكَ يا يحـ * ـيَي على الضّعْف منك حَمْلَ القُرون

يشير بقوله : « سهم ريب المنون » إلى شُؤْمها .

---

## ذكر أخبار قَلَم الصالحيّة

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : كانت قَلَم الصالحيّة مُوَلَّدة صفراء حُلْوةً حَسَنةَ الغِناء والضَّرْبِ حاذقةً ، قد أخذت عن إبراهيم وآبنه إسحاق ويحيي المكىّ وزُبَير بن دحمان . وكانت لصالح بن عبد الوهاب [ أخى أحمد بن عبد الوهاب ](١) كاتب صالح بن الرشيد ، وقيل : بل كانت لآبنه(٢) . قال : وكانت لها صَنْعةٌ يسيرة نحو عشرين صوتا ، فاشتراها الواثق بعشرة آلاف دينار .

قال أحمد بن الحسين بن هشام : كانت قَلَم إحدى المغنّيات المُحسنات المتقدّمات ، فغُنِّىَ بين يدى الواثق لحنٌ لها فى شعر محمد بن كناسة ، وهو :

فىّ آنقباضٌ وحِشْمةٌ فإذا * صادفتُ أهل الوفاءِ والكرمِ
أرسلتُ نفسى على سَجِيّتِها * وقلتُ ما قلتُ غيرَ مُحْتَشِمِ

فسأل : لمن الصنعة ؟ فقيل : لقلم الصالحيّة جارية صالح بن عبد الوهاب . فبعث إلى محمد بن عبد الملك الزّيات فأحضره وسأله : مَنْ صالحُ بن عبد الوهاب؟ فأخبره . قال : وأين هو ؟ قال : ببغداد . قال : ابعث وأشخِصه وليُحْضِرْ معه جاريته قَلَم . فكتب فى إشخاصهما ، فقدِما على الواثق ، فدخلت عليه ، فأمرها بالجلوس والغناء ، فغنّت فاستحسن غناءها وأمر بآبتياعها . فقال صالح : أبيعها بمائة ألف دينار وولاية مصر . فغَضِب الواثق من ذلك وردّها اليه . ثم غنّى بعد ذلك زرزر الكبير فى مجلس

---

(١) زيادة عن الأغانى . (٢) فى الأغانى «لأبيه» .

الواثق بشعرِ الغِناءُ فيه لها ؛ فقال الواثق : لمن هذا الغناء ؟ فقال : لقلم الصالحيّة؛ فبعث إلى آبن الزيّات بإشخاصها ففعل ، فدخلتْ على الواثق فأمرها بالغناء، فغنّته من صنعتها فأعجبه غناؤها ، وبعث الى صالح فأحضره وقال له : إنّى قد رَغِبتُ فى هذه الجارية فآستَمْ فى ثمنها سَوْماً يجوز أن تُعْطاه . فقال : أمّا إذ وقعت الرغبة فيها من أمير المؤمنين فما يجوز أن أملك شيئاً له فيه رغبة، وقد أهديتُها الى أمير المؤمنين، فإنّ من حقها علىّ إذا تَناهَيْتُ فى قَضَائه أن أُصَيِّرها ملكه ، فبارك الله له فيها . فقال الواثق : قدقَبِلتُها، وأمر آبن الزيّات أن يدفع إليه خمسة آلاف دينار، وسمّاها آعتباطا. فلم يُعْطِه آبن الزيّات المـال ومَطَله به؛ فوجّه إلى قلم مَنْ أعلمها بذلك ، فغنّت الواثقَ صــوتًا وقد آصطبح؛ فقال لها : بارك الله فيك وفيمن ربّاك . فقالت : يا سيّدى وما نَفَعُ مَنْ ربّانى منّى إلّا التعب والغُرْم والخروج منّى صِفْرا! فقال : أوَلم نأمر له بخمسة آلاف دينار؟ قالت : بلى! ولكنّ آبنَ الزيّات لم يعْطِه شيئا . فدعا بخادم من خاصّــة الخدم ووقّع إلى آبن الزيّات بحمل خمسة آلاف الدينار إليه وبخمسة آلاف أخرى معها . قال صالح : فصِرْتُ مع الخادم إليه فقرّبنى وقال : أمّا خمسةُ الالاف الأولى فقد حضرتْ ، وخمسةُ الآلاف الأخرى أنا أدفعها اليك بعد جمعة . قال : فقمت، ثم تناسانى كأنه لم يعرفنى . فكتبت إليه أقتضيه؛ فبعث إلىّ : أُكتُبْ لى قبضًا بها وخذها بعد جمعة . فكرِهتُ أن أكتب إليه قبضًا فلا يحصُل لى شيء . (٣١) قال : فاســتترت فى منزل صديق لى . فلمـا بلغه آستتارى خاف أن أشكوه إلى الواثق، فبعث إلىّ بالمـال وأخذ كتابى بالقبض . قال : فابتعتُ بالمـال ضَيْعةً وتعلّقت بهـا وجعلتها معاشى ، وقَعَدتُ عن عمــل السلطان، فمـا تعرضْت لشىء بعــــدها .

---

# ذكر أخبار بَصْبَص جارية آبن نَفِيس

قال أبو الفرج : كانت جاريةً من مولَّدات المدينة حُلوة الوجه حسنة الغِناء، قد أخذت عن الطبقــة الأولى من المغنّين . وكان يحيى بن نَفِيس مولاها صاحب قِيان، يغشاه الأشراف ويسمعون غناء جواريه . ثم آشتُرِيت للمهدىّ، وهو ولىّ عهد، بسبعة عشر ألف دينار . وقيل : إنها ولدت له عليّة بنت المهدىّ وقيل : أمّ عليّة غيرها . قال : وكان عبد الله بن مُصْعَب بن ثابت بن عبد الله بن الزُّبَير يأتيها فيسمع منها، وكان يأتيها فتيان قريش فيسمعون منها . فقال عبد الله بن مُصْعَب حين قدِم المنصور مُنْصرِفًا إلى الحجّ ومرّ بالمدينة يذكر بَصْبَص :

أَرَاحِــلٌ أنت أبا جَعْفَــرٍ * من قبلِ أن تسمعَ من بَصْبَصَا
هيهاتَ أن تسمع منها إذا * جاوزتِ العِيسُ بك الأعْوَصا
خُــذْ عليهـا مَجْلِسَىْ لَذّةٍ * ومَجلِسًا من قبــلِ أن تَشْخَصا
أحلِفُ بالله يمينًـا ومَنْ * يَحلِفُ بالله فقــد أخلصـا
لو أنهـا تدعـو إلى بَيْعَــةٍ * بايعتُهـا ثم شَــقَقْتُ العصا

فبلغ الشــعرُ أبا جعفر المنصور، فغضب ودعاه، ثم قال : أمَا إنكم يا آل الزبير قديمًـا ما قادتكم(١) النساء وشققتم معهنّ العصا ، حتى صرت أنت آخر الحَمْــقَى تُبايع المغنّيات ! فدونكم يا آل الزبير هذا المرتَع الوخيم .

وقال هارون بن محمد بن عبد الملك وهو آبن ذى الزوائد فيها :

بَصْبَصُ أنتِ الشمسُ مُزْدانةً * فإنْ تبدّلْتِ فأنتِ الهلالُ
ســبحانَك اللّهــمّ ما هكذا * فيما مضَى كان يكون الجَمَـالُ

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « كادتكم » .

إذا دعتْ بالعـــودِ فى مَشْهَدٍ * وعاونتْ يُمْنَى يديهـا الشِّمالُ
غنّتْ غنـاءً يَسـتفِزُّ الفـتى * حِذْقًا وزان الحذقَ منها الدَّلالُ

قال : وهَوِىَ محمـد بن عيسى الجعفرىّ بصبص فهام بها وطال ذلك عليه ؛ فقـال لصديق له : قد شغلتني هـذه عن صَنْعتى وكلِّ أمرى ، وقد وجدتُ مَسّ السُّلُوّ عنها ، فآذهب بنا إليها حتى أُكاشفها ذلك وأسـتريح . فأتياها ؛ فلما غنّتهما قال لها محمد بن عيسى : أتغنّين :

وكنتُ أُحِبُّكُمْ فسلَوْتُ عنكمْ * عليكم فى ديارِكُمُ السَّـــلامُ

فقالت : لا ، ولكنى أُغَنِّى :

تَحَمَّــلَ أهلُها عنها فبانوا * على آثارِ مَنْ ذهب العَفَـاءُ

قال : فآستحيا وآزداد بها كَلَفًا ولها عِشقا ؛ فأطرق ساعة ثم قال لها : أتغنّين :

وأخضَعُ بالعُتْبَى إذا كنتُ مُذْنِبًا * وإن أذنبتْ كنتُ الذى أتنصَّلُ

قالت : نعم ، وأغنِّى أحسن منه :

فإن تُقبِلوا بالوُدّ نُقْبِلْ بمثله * ونُنْزِلكم منّا بأقرب منزلِ

فتقاطعا فى بيتين وتواصلا فى بيتين ، وما شعر بهما أحد .

قال : وحضر أبو السائب المخزومىّ مجلِسًا فيه بَصْبَص ، فغنّت : (٣٢)

قلبي حبيسٌ عليـــك موقوفُ * والعينُ عَبْرَى والدمعُ مذروفُ
والنفسُ فى حَسْرةٍ بغُصّتهـا * قد شَـفَّ أرجاءَها التساويفُ
إن كنتِ بالحُسْنِ قد وُصِفْتِ لنا * فإنّنى بالهــوى لَموصـــوفُ
يا حَسْرتَا حسرةً أموتُ بهـا * إنْ لم يكن لى إليـك معروفُ

قال : فطَرِب أبو السائب ونَعَـر وقال : لا عَرّف الله من لا يعرِف لك معروفَك ، ثم أخذ قِنَاعها عن رأسها ووضـعه على رأسه وجعل يبكى ويَلطِم ويقول

لها : بأبى أنت ! والله إنى لأرجو أن تكونى عند الله أفضلَ من الشُّهداء لِمـا تُولِيناه من السرور، وجعل يصيح : وا غَوْثاه! يالله ما يلقَ العاشقون ! .

وقال عثمان بن محمد الليثيّ : كنت يوماً فى منزل آبن نَفيس، فخرجتْ إلينا جاريته بَصْبَص، وكان فى القوم فتًى يحبها ، فسألتْه حاجةً فقام ليأتِيَها بها ، فنسِى أن يلبس نعله ومضى حافيا . فقالت له : يافلان، نسيتَ نعلك؛ فرجع فلبِسها وقال : أنا والله كما قال الأوّل :

وحُبُّكِ يُنْسِينِى عن الشىء فى يَدِى * ويَشْغَلُنِى عن كلّ شىءٍ أُحاوِلُهْ

فأجابته فقالت :

وبى مثلُ ما تشكوه مِنّى وإنّنى * لأُشْفِق من حبٍّ لذاك تُزايِلُهْ

## ذكر أخبار جوارى آبن رامين

### وهنّ سَلّامة الزَّرْقاء ، وربيحة ، وسَعْدَة

قال أبو الفرج : وآبن رامين هو عبد الملك بن رامين مولى عبد الملك بن بِشْر آبن مروان . وكان له جوارٍ مُغَنِّيات مُجيدات ، وهنّ سلّامة الزرقاء ، وربيحة ، وسَعْدَة . وفيهنّ يقول إسماعيل بن عمّار قصيدته التى أوّلها :

هل من شِفاءٍ لقلبٍ لَجّ مَحْزُونِ * صَبَا وصَبّ إلى رِئْم آبن رامين
إلى ربيحة إن الله فَضّلها * بحُسْنها وسماعٍ ذى أفانين
نَعَمْ شِفاؤكَ منها أن تقولَ لها * قَتَلْتِنِى يومَ دَيْرِ اللُّجِّ(1) فَأحيِينى
أنتِ الطبيبُ لداء قد تلبَّس بى * من الجَوَى فَانْفُثِى فى فِىّ وآرقِينى
نَفْسِى تأبَى لكم إلّا طَواعِيةً * وأنتِ تَحْمِينَ أنفًا أن تُطيعينى

(1) دير اللج : هو بالحيرة مما بناه النعمان بن المنذر .

ومنهـا :

لم أنس سَعْدةَ والزَّرقاءَ يومَهما * باللُّجِّ شَرْقيَّـــه فوق الدكاكين
يُغَنِّيان ابنَ رامينٍ ضُحَاءَهما * بالمَسْـــجَحِيِّ وتشبيب المحبِّين
فما دعوت به فى عيش مملكةٍ * ولم تَعِش يومَنا عيشَ المساكين

وهى أبيات طويلة، وله فيهنّ غيرها .

قال : وآشترى جعفر بن سليمان بن علىّ سلّامة الزرقاء بثمانين ألف درهم ؛ وقيل : إنه اشترى ربيحة بمائة ألف درهم، والأول أصح . وقيل : إنّ الذى آشترى ربيحة محمد بن سليمان، وآشترى صالح بن علىّ سَعْدة بتسعين ألف درهم . وقيل : آشترى مَعْن بن زائدة إحداهنّ . قال : وكانت سلّامة الزرقاء عاقلة شَكِلة . قال : ولمـا آشتراها جعفر ومضتْ لها مدّة عنده، سألها يومًا : هل ظَفِر منك أحَدٌ قطُّ ممن كان يهواكِ بخَلْوة أو قُبْـلة ؟ فخشيتْ أن يبلغه شىء كانت فعلتْه بحضرة جماعة أو يكون قد بلغه شىء، فقالت : لا والله إلا يزيد بن عَوْن العبادىّ الصيرفى ، فإنه قَبَّلنى قُبْـلة وقذف فى فىّ لؤلؤةً بعتُها بثلاثين ألف درهم . فـلم يزل جعفر بن سليمان يحتال له حتى وقع به فضربه بالسِّياط حتى مات .

وقد روى أبو الفرج الأصفهانىّ فى خبر يزيد بن عون هذا بسند رفعه إلى ٣٣ عبد الرحمن بن مقرون أنه آجتمع هو ورَوْح بن حاتم عند آبن رامين، وأن الزرقاء خرجتْ عليهم فى إزارٍ ورداء [قُوهِيَّين](١) مُوَرَّدَين ، كأنّ الشمس طالعةٌ بين رأسها وكعبها . قال : فغنّتنا ساعة ؛ ثم جاء الخادم الذى كان يأذَن لها — وكان الإذنُ عليها دون مولاها — فقام على الباب وهى تغنّى، حتى إذا قطعت الغناءَ نظرتْ إليه فقالت : مَه ! قال : يزيد بن عَوْن العبادىّ الصيرفىّ الملقّب بالماجن على الباب . قالت :

(١) زيادة عن الأغانى .

ائذن له . فلما آستقبلها طَفَر ثم أقعَى بين يديها، فوَجدتْ والله له، ورأيتُ أثرذلك، وتنوقتْ تَنوُّقًا (١) خلافَ ما كانت تفعل بنا . فأدخل يده فى ثوبه فأخرج لؤلؤتين فقال: انظرى يازرقاء، جُعلتُ فداكِ! ثم حلف أنه نَقَد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم . قالت : فما أصنع بك؟ قال : أردتُ أن تعلَمى . فغنّت صوتًا ثم قالت : ياماجن هَبْهما لى! قال : إن شئتِ والله فعلتُ . قالت : قـد شئتُ . قال : فاليمينُ التى حلفتُ بها لازمةٌ [لى] (٢) إن أخذتِهما إلا بشَفَتَيْكِ من شَفَتَىّ . فقال آبن رامين للغلام: ضَع لى ماءً ثم خرج عنا؛ فقالت : هاتِهما . فمشى على رُكبتيه وكفَّيه وهما بين شفتيه وقال: هاكِ؛ فلما ذهبتْ تتناولها جعل يَصُدّ عنها يمينًا وشمالًا ليستكثر منها؛ فغمزتْ جاريةً على رأسها، فخرجت كأنها تريد حاجةً ثم عطفت عليـه؛ فلمـا دنا وذهب ليروغ دفعتْ مَنْكِبيه وأمسكتهما حتى أخذت الزرقاء اللؤلؤتين بشفتيها من فمه ورَشَح جبينها عرَقًا حياءً منا، ثم تجلّدتْ علينا (٣) فأقبلت عليه وقالت: المغبونُ فى آسته عود . فقال : فأمّا أنا فلا أُبالى، والله لا يزال طيبُ هذه الرائحة فى أنفى وفمى ما حَيِيت .

قال : وآجتمع عند آبن رامين مَعْن بن زائدة ورَوْح بن حاتم وآبن المُقَفَّع . فلما تغنّت الزّرقاء وسَـعْدة بعث مَعْن فجىء ببَـدْرةٍ فصبّها بين يديها، وبعث رَوْح فجىء ببَدْرة فصبّها بين يديها، ولم تكن عند آبن المقفّع دراهم، فبعث فجاء بصَكّ ضيعةٍ، وقال : هذه عُهْدَةُ ضَيْعتى خذيها، فأمّا الدراهم فما عندى منها شىء. وشربت زَرْقاء دواءً فأهدى لهـا آبن المقفع ألفَ دُرّاجة (٤) .

وعن إسحاق بن إبراهيم قال : كان رَوْح بن حاتم بن المُهَلّب كثيرَ الغشيان لمنزل ابن رامين، وكان يختلف إلى الزّرقاء، وكان محمد بن جميل يهواها وتهواه؛ فقال لها :

(١) تنوق فى الأمر : تأنق فيه . (٢) زيادة عن الأغانى .
(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « عليا » . (٤) نوع من الطيور .

إنّ رَوْح بن حاتم قد ثَقُل علينا . قالت : فما أصنع وقد غَمَر مولاى بِرُّه ! قال : احتالِى له . فبات عندهم رَوْح ليلةً ، فأخذت سراويلَه وهو نائم فغسلته . فلما أصبح سأل عنه ، فقالت : غسلناه . فظنّ أنه أحدَث فيه فآحتِيج إلى غَسْله فآستحيا من ذلك فانقطع عنهم ، وخلا وجهُها لآبن جميل .

---

## ذكر أخبار عِنَان جارية الناطفىّ

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : كانت عِنَانُ مولَّدة من مولَّدات اليمامة ، وبها نشأت وتأدبت ، وآشتراها الناطفىّ ورباها . وكانت صفراءَ جميلةَ الوجه شَكِلةً مليحةَ الأدبِ والشعرِ سريعة البَدِيهة ، وكان فحول الشعراء يُساجلونها ويُعارضونها فتنتصف منهم . ولها مع أبى نُوَاس الحسن بن هانئ وغيره من الشعراء والفضلاء مُعاياةٌ ومُرَاجعات ، نذكر منها طَرَفا .

قال أبو حَبَش : قال لى النّاطِفىّ : لو جئتَ إلى عِنَان فطارحتَها ! فعزمتُ على الغُدُوّ إليها ، وبِتُّ ليلتى أحوك بيتين ، ثم غدوتُ عليها فأنشدتُها :

أَحَبّ المِلَاحَ البِيضَ قلبي ورُبّما * أَحَبّ المِلاحَ الصُّفْرَ من وَلَدِ الحَبَش
بَكَيتُ على صفراءَ منهنّ مَرّةً * بكاءً أصابَ العينَ منّىَ بالعَمَش

فقالت عِنان :

بكيتُ عليها إنّ قلبي يُحِبُّها * وإنّ فؤادى كالجَنَاحَيْن ذو رَعَش
تَعَنَّيْتَنا بالشعرِ لمّا أتَيْتَنا * فدونَك خذه مُحْكَمًا يا أبا حَبَش

وقال مَرْوَان بن أبى حَفْصَة : لقينى الناطفىّ فدعانى إلى عِنَان ، فآنطلقت معه . فدخل إليها قبلى فقال : جئتُك بأشعر الناس مروان بن أبى حفصة ؛ فوجدها

عليلة فقالت : إنى عن مروان لفى شغل . فأهوى إليها بسوط فضربها، وقال لى: أُدخل؛ فدخلت وهى تبكى، فرأيت الدموع تحدّر من عينيها؛ فقلت :

بكتْ عنانُ فجرى دمعُها * كالدّرّ إذ يَسْبِق من خَيْطِهِ

فقالت مُسرعة :

فليتَ مَنْ يضربها ظالمًا * تيبَسُ يُمْناهُ على سَوْطِهِ

قال مروان : فقلت : أُعتِق ما أملك إن كان فى الجنّ والإنس أشعرُ منها .

وقال أحمد بن مُعَاوية قال لى رجل : تَصَفّحتُ كُتُبًا فوجدتُ فيها بيتًا جَهَدت جهدى أن أجد من يُجيزه فلم أجِد . فقال لى صديق لى : عليك بِعنَان جارية الناطفىّ؛ فأتيتها فأنشدتها البيت وهو :

وما زال يشكو الحبَّ حتى رأيتُه * تَنَفّس من أحشائه وتكلّما

فلم تلبث أن قالت :

ويَبْكى فأبكى رحمةً لبكائه؛ * إذا ما بَكَى دمعًا بكيتُ له دما

وقال موسى بن عبد الله التميمىّ : دخل أبو نُوَاس على الناطفىّ وعِنان جالسةٌ تبكى ، وقد كان الناطفىّ ضربها، فأومأ إلى أبى نُوَاس أن حَرّكها بشىء؛ فقال أبو نُوَاس :

عِنَانُ لو جُدتِ لى فإنّىَ مِنْ * عُمْرِىَ فى (آمن الرَّسُولُ بِمَا)[(1)]

فقالت :

فإن تمادى ولا تمَاديتَ فى * قَطْعِكَ حَبْلى أكُنْ كمن خَتَما

فقال أبو نواس :

عُلِّقتُ مَنْ لو أتى على أنفُس الـ * ـماضين والغابرين ما نَدِما

(١) لعله يريد من اقتباس هذه الآية ، وهى قبيل آخر سورة البقرة ، أن يدل على أنه فى آخر مرحلة من حياته وأنه لم يبق من عمره إلا بمقدار ما تقع هذه الآية من السورة المذكورة .

فقالت :

لو نَظَرتْ عينُهـا إلى حَجَـرٍ * وَلَّدَ فيــه فُتورُها سَــقَما

وقال أبو جعفر النَّخَعِىّ : كان العبَّاس بن الأحْنَف يهوَى عِنان جارية الناطفىّ . فجاءنى يوماً فقال لى : امضِ بنا إلى عِنان . فصرنا إليها، فرأيتها كالمُهَاجِرة له ؛ فجلسنا قليلا ؛ ثم ٱبتدأ العبّاس فقال :

قال عبّاسٌ وقــد أُجْ * ـهِدَ من وجْدٍ شَــدِيدِ
ليس لى صَبْرٌ على الهَجْ * ـرِ ولا لَذْعِ الصُّــدودِ
لَا ولَا يَصْــبِر للهَجْ * ـرِ فؤادٌ من حَدِيدِ

فقالت عِنان :

مَنْ تَراه كان أغــنَى * منكَ عن هذا الصُّدودِ
بعدَ وَصْــلٍ لك مِنِّى * فيـه إرغامُ الحَسُودِ!
فٱتَّخِذْ للهَجْرِ إن شئْ * ـتَ فـؤاداً من حَدِيدِ
ما رأينــاك على ما * كنتَ تَجْنِى بجَليــدِ

فقال عبّاس :

لو تجُودِينَ لصَبٍّ * راحَ ذا وَجْدٍ شَــدِيدِ
وأخِى جَهْلٍ بمـا قد * كان يجنى بالصُّــدودِ
ليس مَنْ أحدث هجراً * لِصَــدِيقٍ بِســدِيدِ
ليس منه الموتُ إن لم * تَصِلِيــهِ ببَعِيــدِ

قال : فقلت للعبّاس : ويحك ! ما هذا الأمر ؟ قال : أنا جَنَيتُ على نفسى بتتايُهِى عليها . فلم أبرَحْ حتى تَرَضَّيتها له .

وقال الأصمعىّ : بعثَ الىّ أمّ جعفـر أنّ امير المؤمنين قد لَهِج بذكر هــذه الجارية عِنان، فإنْ صَرفتَه عنها فلك حكمُك . قال : فكنت أَرْبَعُ لأنْ أجِد للقول

فيها موضِعًا فلا أجده ولا أُقدِم عليه هيبةً له ؛ إذ دخلتُ يومًا فرأيتُ فى وجهه أثرَ الغَضَبِ فٱنخزلتُ . فقال : مالك يا أصمعىّ؟ قلت : رأيتُ فى وجه أمير المؤمنين أثر الغضب، فلعن الله من أغضبه ! فقال : هـذا الناطفىّ، والله لولا أنّى لم أجُرْ فى حكمٍ قطّ متعمِّدا لجعلتُ على كل جبل منه قِطعة ! ومالى فى جاريته من أرب غيرَ الشعر . قال الأصمعىّ : فذكرتُ رسالةَ أمّ جعفر فقلت : أجَلْ، والله ما فيها غيرُ الشعر، أفيَسُرّ أميرَ المؤمنين أن يُجامع الفرزدق! فضحِك حتى استلقى . وٱتّصل قولى بأمّ جعفر فأجزلتْ لى الجائزة .

وقال يعقوب بن إبراهيم : طلب الرشيدُ من الناطفىّ جاريته، فأبى أن يَبيعها بأقلّ من مائة ألف دينار . فقال الرشيد : أعطيك مائة ألف دينار على أن تأخذ الدينار بسبعة دراهم، فٱمتنع عليه، فأمر أن تحمل إليه . فذكروا أنها دخلتْ مَجْلِسَه فى هيئتها ؛ فقال لها الرشيد ويلك ! إن هذا قد ٱعتاص علىّ فى أمرك . فقالت : ما مَنَعك أن تُوفِيه وتُرْضِيه؟ فقال : ليس يقنَع بمـا أُعطيه، وأمرها بالانصراف . فتصدّق الناطفىّ حين رجعت إليه بثلاثين ألف درهم . فلم تزل فى قلب الرشيد حتى مات مولاها . فلما مات بعث الرشيد مسرورًا الخادم، فأخرجها الى باب الكَرْخ وأقامها على سرير وعليها رداءٌ سِنْدِىّ قد جَلّلها، فنُودى عليها فيمن يزيد بعد أن شاور الفقهاءَ فيها، فقالوا : هذه كَبِدٌ رَطْبَة وعلى الرجل دَين، فأشاروا ببيعها . وكانت تقول وهى على المصطبة : أهان الله من أهاننى وأرذل من أرذلنى ! فوكَزَها مسرور بيده . وبلغ بهـا مسرورٌ مائتى ألف درهم ؛ فجاء رجل فقال : علىّ زيادة خمسة وعشرين ألف درهم ؛ فوكزه مسرور وقال : أتَزيد على أمير المؤمنين ! فبلَغ بهـا مائتين وخمسين ألف درهم وأخذ مالها . قال : ولم يكن فيها عيبٌ يعاب، فطلبوا

لها عيبا لا تُصيبها العينُ، فأوقعوا بخِنْصَر رِجْلها فى ظُفره شيئا. قال: وأولدها الرجل الذى آشتراها ولدين، ثم خرج بها الى خُرَاسان فمات هناك وماتت بعده .

---

## ذكر أخبار شارية جارية إبراهيم بن المهدىّ

قال أبو الفــرج : كانت شارية مولَّدة من مولّدات البَصْرة . يقال : إنّ أباها كان من بنى سامة بن لُؤَىّ المعروفين ببنى ناجية، وإنه جحدها . وكانت أمّها أمَة، فدخلت فى الرقّ . وقيل : إن أمّها كانت تدّعى أنها بنت محمد بن زيد من بنى سامة ابن لؤىّ، وقيل: إنها كانت تدّعى أنها من بنى زُهْرة، وقيل : بل سُرِقت فبيعت، فآشترتها آمرأة من بنى هاشم فأدّبتها وعلّمتها الغناء ، ثم اشتراها إبراهيم بن المهدىّ، فأخذت عنه غناءه كلّه أو أكثره . وبذلك يحتجّ من يُقَدّمها على عَرِيب ويقول : إنّ إبراهيم خرّجهــا ، وكان يأخذها بصحة الأداء لنفسه وبمعــرفة ما يأخذها به ؛ ولم تلق عَرِيب ذلك، لأن المراكبىّ لم يكن يُقارب إبراهيم فى العــلم ولا يقاس به فى بعضه فضــلًا عن سائره .

قال : ولمـا عَرَضتها مولاتها الهاشميّة للبيع ببغــداد عُرِضت على إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ فأعطى فيها ثلثمائة دينار، ثم آستغلاها بذلك ولم يُردها . فجىء بها الى ابراهيم بن المهدىّ فساوم بها ؛ فقالت له مولاتها : إن إسحاق بن إبراهيم أعطى بها ثلثمائة دينار وأنت أحقّ بها . فقال : زنوا لها ما قالت فوُزن لهـا . ثم دعا بقيّمته فقال : خُذى هذه الجاريةَ ولا تُرَيّنيها سنةً، وقولى للجوارى يطرحن عليها . فلما كان بعد سنة أُخرِجَتْ إليه، فنظر إليها وسمع منها؛ فأرسل إلى إسحاق بن إبراهيم ؛ فلما أتاه أراه إيّاها وأسمعه غناءها، وقال : هــذه جارية تباع، فبكم تأخذها لنفسك ؟ قال إسحاق: آخذها بثلاثة آلاف دينار وهى رخيصة بها . فقال له إبراهيم: أتعرفها؟

قال لا . قال : هذه الجارية التى عرضتها الهاشمية بثلثمائة دينار فلم تقبلها . فعجب إسحاقُ من حالها وما صارت إليه .

وقد حُكى عن هبة الله بن إبراهيم بن المهدىّ أنها عُرِضت ببغداد على إبراهيم فأُعجِبَ بها إعجابا كبيرا ، [فلم يزل يُعطِى بها حتى](١) بلغت ثمانية آلاف درهم. قال : ولم يكن عند أبى درهم ولا دانق ؛ فقال لى : ويحك ! قد والله أعجبتنى هذه الجارية إعجاباً شديدا، وليس عندنا شىء . فقلت له : بِع ماتملكه حتى الخزف وتجمع ثمنها . فقال لى : [قد تذكّرتُ فى شىء](١)، اذهب إلى علىّ بن هشام فأقرئه منّى السلام، وقل له : قد عُرِضتْ علىّ جاريةٌ وقد أخذتْ بمجامع قلبى، وليس عندى شىء ، فأُحبّ أن تُقرِضَنى عشرة آلاف درهم . فقلت : إن ثمنها ثمانية آلاف درهم، فلِمَ نُكثِر على الرجل بعشرة آلاف درهم! فقال : إذا آشتريتها بثمانية آلاف درهم فليس لنا بدٌّ من أن نكسوها ونقيم لها ما تحتاج إليه . قال : فصِرتُ إلى علىّ بن هشام وأبلغته الرسالة ؛ فدعا بوكيل له وقال : ادفع إلى خادمه عشرين ألف درهم ، وقل له : أنا لا أصلك ، ولكن هى لك حلال فى الدنيا والآخرة . قال : فصرتُ إلى أبى بالدراهم ، فلو طلعتُ عليه بالخلافة لم تكن تَعدِل عنده تلك الدراهم . قال : وكانت أمّها خبيثة، وكانت كلما لم يُعْطِ إبراهيم آبنتها ما تشتهى ذهبتْ إلى عبد الوهاب بن علىّ ، ودفعت إليه رُقعةً يُوصِلها إلى المعتصم تسأله أن تأخذ آبنتها من إبراهيم .

وحُكى عن يوسف بن إبراهيم المِصرىّ صاحب إبراهيم بن المهدىّ أنّ إبراهيم وجّه به إلى عبد الوهاب بن علىّ فى حاجة كانتْ له . قال : فلقيته وانصرفت من عنده؛ فلم أخرج من دِهليز عبدِ الوهاب حتى آستقبلتنى آمرأة؛ فلما نظرتُ فى وجهى

(١) زيادة عن الأغانى . وفى الأصل : «إعجابا كبيرا فبلغت» .

سترتْ وجهها ، فأخبرنى شاكرٌ أن المرأة أمُّ شارية جارية إبراهيم . فبادرت إلى إبراهيم وقلت له : إنى رأيت أمَّ شارية فى دار عبد الوهاب ، وهى من تعلم ، وما يفجؤك إلا حيلةٌ قد أوقعتها . فقال لى : اشهدك أن جاريتى شارية صَدَقةٌ على ميمونة بنت إبراهيم بن المهدىّ ، ثم أشهد ٱبنه هبة الله على مثل ما أشهدنى ، وأمرنى بالركوب إلى ٱبن أبى دواد وإحضار من قَدَر عليه من الشهود المعدّلين عنده ؛ فأحضر أكثر من عشرين شاهدا . وأمر بإخراج شارية فأخرجت . فقال لها : ٱسترِى وجهك ؛ فجزعتْ من ذلك ، فأعلمها أنمـا أمرها بذلك لخير يريده لها ففعلت . فقال لها : تَسَمَّىْ ؛ فقالت : أنا أَمَتُك . فقـال لهم : تأمّلوا وجهها ففعـلوا . ثم قال : فإنى أُشهِدكم أنها حرّة لوجه الله تعالى ، وأنى قد تزوّجتها وأصـدقتُها عشرة آلاف درهم ؛ ياشارية أرضيتِ ؟ قالت : نعم ياسيّدى ، قد رضيت ، والحمد لله تعالى على ما أنعم به علىّ . فأمرها بالدخول ، وأطعم الشهود وطيّبهم وٱنصرفوا . قال : فـا أحسبهم تجاوزوا دار ٱبن أبى دواد حتى دخل علينا عبـد الوهاب بن علىّ ، فاقرأ عمّـه سـلامَ المعتصم ، ثم قال له : يقول لك أمير المؤمنين : مِنَ المفـتَرض علىّ طاعتُك وصيانتُك عن كلّ ما يسـوءك ، إذ كنت عمّى وصِـنو أبى . وقد رفعت [ٱمرأة](١) إلىّ قصّـة ذكَرت فيها أن شارية ٱبنتها ، وأنهـا ٱمرأة من قريش من بنى زُهْرة ، وٱحتجّت بأنه لا تكون بنت ٱمرأة من قريش أَمة . فإن كانت هـذه المرأة صادقة فى أنّ شارية بنتها ، وأنها من بنى زهرة ، فمن المحال أن تكون شارية أمَة . والأشبهُ بك والأصلح إخراج شارية من دارك وتُصـيِّرها عند من تثق به من أهلك ، حتى يُكْشَف عما قالته هـذه المرأة . فإن ثبت ذلك أمرتَ مَنْ جعلتَهـا عنده بإطلاقها ، وكان فى ذلك الحظ لك فى دينك ومروءتك . وإن لم يصح ذلك

(١) التكملة عن الأغانى (ج ١٤ ص ١١٠ طبع بولاق) .

أعيدت الجارية إليك وقد زال عنك القول الذى لا يليق بك ولا يحسن . فقال إبراهيم : فديتك ، هَبْ شارِيةَ بنت زهرة بن كلاب ، أَيُنْكَرُ على [ آبن ](١) العباس بن عبدالمطلب أن يكون بعلا لها؟! فقال عبدالوهاب لا . فقال : أبْلِغْ أمير المؤمنين — أبقاه الله — السلام ، وأخبره أنّ شارية حرّة ، وأنى قد تزوجتها بشهادة جماعة من العدول . وقد كان الشهود أعلموا آبن أبى دواد بالقصة ، فركب إلى المعتصم وحدّثه بالحديث معجبا له منه ؛ فقال : ضَلّ سَعْيُ عبد الوهاب . ثم دخل عبد الوهاب على المعتصم . فلما رآه يمشى فى صحن الدار سدّ المعتصم أنفه وقال : ياعبدالوهاب ، ٣٧
أنا أَشُمّ رائحة صُوف مُحْرَق ، وأحسب عمّى لم يُقْنِعه ردُّك على أُذنك صوفةٌ حتى أحرقها ، فشممتُ رائحتها منك . فقال : الأمر على ما ظنّ أمير المؤمنين وأسمج .
قال : ثم آبتاع إبراهيم من بنته ميمونة شارية بعشرة آلاف درهم وستر ذلك عنها ؛ فكان عتقه إياها وهى فى ملك غيره ، ثم آبتاعها من ميمونة فخلّت له ، فكان يطؤها بملك اليمين وهى تتوهّم أنها زوجته . فلما تُوُفِّى طلبت شاريةُ مشاركةَ أمّ محمد بنت خالد زوجة إبراهيم فى الثُّمن ، فأظهرت خبرها ؛ فأمر المعتصم بآبتياعها من ميمونة بخمسة آلاف وخمسمائة دينار فحُوِّلت الى داره ، وكانت فى مِلْكه حتى تُوُفِّى . وقال ابن المعتز : وقد قيل : إنّ المعتصم آبتاعها بثلثمائة دينار ؛ وملكها إبراهيم ولها سبع سنين وربّاها تربية الولد .

قال : وحدّثت شارية أنها كانت مع إبراهيم فى حرّاقة قد توسّط بها دجلة فى ليلة مُقْمِرة ، فآندفعتْ فغنّت :

لقد حَثُّوا الجمالَ لِيهـ * ـرُبُوا منّا فلم يَئلُوا

(١) زيادة عن الأغانى .

فوثب إليها فأمسك فاها فقال : أنتِ والله أحسنُ من الغَرِيض وجهًا وغناءً ، فما يُؤْمِنُنِي عليك ! أمسكى .

ويقال : إنها لم تضرب بالعود إلا فى أيام المتوكل لـمّـا آتّصل الشرُّ بينها وبين عَرِيب، فصارت تقعد بها عند الضرب، فضربتْ بعد ذلك .

قال آبن المعتز : وحدّث محمد بن سهل بن عبد الكريم المعروف بسهل الأحول، وكان قاضى الكُتّاب فى زمانه، كان يكتب لإبراهيم وكان ثقةً، قال : أعطى المعتصم إبراهيم بشارية سبعين ألف دينار، فآمتنع من بيعها . قال : فعاتبتُه على ذلك ، فلم يجبنى بشىء . ثم دعانى بعد أيام وبين يديه مائدة لطيفة، فأحضر الغلام سَفُّودًا فيه ثلاثة فَرَاريج ، فرمى إلىّ بواحدة فأكلتها وأكل آثنتين ، ثم شرب رطلًا وسقانى؛ ثم أُتِى بسَفُّود آخر ففعل كما فعل وشرب [ كما شرب ](١) وسقانى ؛ ثم ضُرِب سِتْرٌ إلى جانبه فسمعتُ حركةَ العيدان، ثم قال : يا شارية تغنَّى، فسمعتُ شيئا ذهب بعقلى . فقال : يا سهل، هى التى عاتبتَنى فى أن أبيعها بسبعين ألف دينار ، لا والله ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار !

وحُكى عن عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : أمرنى المعتز بالله ذات يوم بالمُقام عنده فأقمت، ومُدّت الستارة وخرج من كان يغنّى وراءها وفيهنّ شاريةُ، ولم أكن سمعتها قبل ذلك فآستحسنتُ ما سمعتُ منها، وقال لى المعتز : يا عبيد الله، كيف ما تسمع منها عندك ؟ فقلت : حظُّ العَجَب من هذا الغناء أكثر من حظ الطرَب، فآستحسن ذلك، وأخبرها به فآستحسنته .

قالوا : وكانت شارية أحسن الناس غناءً منذ تُوُفّى المعتصم إلى آخر خلافة الواثق . وقيل : إن إبراهيم بن المهدىّ لم يطأ شارية، وإن الذى آفتضّها المعتصم . وكان إبراهيم يُسمّى شاريةَ بنتى .

(١) زيادة عن الأغانى .

وقال يعقوب بن بيان : كانت شارية لصالح بن وصيف . فلما بلغه رحيل موسى بن بُغا من الجبل يريده بسبب قتل المعتزّ، أودع شارية جوهره، فظهر لها جوهر كثير بعد ذلك . فلما أوقع موسى بصالح آستترت شارية عند هارون بن شعيب العُكْبَرِىّ، وكان أنظف خلق الله طعاماً وأسراهم مائدة، وأوسخهم كلّ شىء بعد ذلك، وكان له بسُرَّ مَنْ رأى منزل وفيه بستان كبير ، وكانت شارية تُسمّيه أبى ، وتزوره فى منزله فتحمل معها كل شىء تحتاج إليه حتى الحصير تقعد عليه . وكانت من أكرم الناس . عاشرها أبو الحسن علىّ بن الحسين عند هارون هذا ، ثم أضاق(١) فى وقت فآقترض منها على غير رهن عشرة آلاف دينار فأقرضته، ومكثت أكثر من سنة ما أذكرته بها ولا طالبته بردّها .

قال يعقوب بن بيان : وكان الناس بسُرَّ مَنْ رَأى متحازبين، فقوم مع شاريةَ، وقوم مع عَرِيب ، لا يدخل أصحاب هذه فى هؤلاء ، ولا أصحاب هذه فى هؤلاء . وكان [ أبو الصقر ](٢) إسماعيل بن بلبل عَرِيبيّا ؛ فدعا علىّ بن الحسين يوم جمعة أبا الصقر وعنده عريب وجواريها . فآتصل الخبر بشارية فبعثت بجواريها إلى علىّ آبن الحسين بعد يوم أو يومين، وأمرت إحداهنّ — قال : وما أدرى [من](٢) هى : مهرجان أو مطرِب أو قمرية، إلا أنها إحدى الثلاث — أن تُغنّيه :

لا تعودَنّ بعدَها * فترى كيف أَصْنَعُ

فلما سمع الغناء ضحِك وقال : لستُ أعود . (٣٨)

قال : وكان المعتمد قد وَثِق بشاريةَ فلم يكن يأكل إلا طعامَها؛ فمكثت دهرًا تُعِدّ له كلّ يوم جَوْنَتَين، فكان طعامه منهما فى أيام المتوكل .

(١) يقال : أضاق الرجل اذا ذهب ماله وافتقر .
(٢) زيادة عن الأغانى .

وقال أبو الفرج : حدّثني جحظة قال : كنت عنـد المعتمد يوماً فغنّتْ شاريةُ بشعر مولاها إبراهيم بن المهديّ ولحنه :

يا طـــولَ عِلّةِ قلبيَ المعتادِ * إلْفَ الكِرامِ وصُحْبَةَ الأمجادِ
ما زِلتُ آلَفُ كلَّ قَرْمٍ ماجدٍ * متقـــدِّم الآباء والأجداد

فقال لها : أحسنت والله! فقالت : هذا غنائي وأنا عارية ، فكيف لو كنتُ كاسيةً! فأمَرَ لها بألف ثوب من جميع أصناف الثياب الخاصّة، فحُمِل ذلك إليها. فقال لي عليّ بن الحسين بن يحيى المنجم : اِجعل آنصرافك معي، ففعلتُ. فقال لي: هل بلغك أنّ خليفة أمر لمغنّية بمثـل ما أمر به أمير المؤمنين اليوم لشارية ؟ قلت لا . فأمر بإخراج سِيَر الخلفاء، فأقبل بها الغلمان في دَفاتِرَ عِظام، فتصفّحناها كلها فــا وجدنا أحدًا قبله فعَل مثل ذلك . اِنقضت أخبار شارية .

---

# ذكر أخبار بَذْل

قال أبو الفرج : كانت بذل صفراء مولّدة من مولّدات المدينة ورُبِّيتْ بالبصرة، وهي إحدى المحسنات المتقدّمات الموصوفات بكثرة الرواية . يقال : إنها كانت تغنّي ثلاثين ألف صوت . قال : ولها كتاب في الأغاني منسوب الأصوات [غير مجنّس](١) يشتمل على آثني عشر ألف صـوت ، يقال : إنهــا عملته لعليّ بن هشام . قال : وكانت حُلْوةَ الوجه ظريفـةً ضاربةً متقدّمة . وابتاعها جعفر بن موسى الهــادي؛ فأخذها منه محمــد الأمين وأعطاه مالًا جزيلا . وأخذت بذل عن أبي سعيد مولى فائد ودحمان وفليح وآبن جامع وإبراهيم وطبقتهم .

---

(١) زيادة عن الأغاني .

وقال جحظة عن أبي حشيشة : وكانت أحسن الناس غناءً في دهرها، وكانت أستاذة كل مُحْسِنٍ ومحسنة، وكانت أرْوَى خلق الله للغناء. وكانت لجعفر بن موسى الهادي؛ فوُصِفت لمحمد الأمين، فبعث إلى جعفر فسأله أن يُزيره إياها فأبى؛ فأتاه الأمين إلى منزله فسمع ما لم يسمع مثلَه قطّ؛ فقال لجعفر: يا أخي، بِعْنِي هذه الجارية. فقال له : يا سيِّدي، مثلي لا يبيع جارية . قال : هَبْها لي. قال : هي مُدَبَّرة.[1] فآحتال الأمين عليه حتى أسكره وأمر بحمل بَذْل إلى الحَرّاقة وآنصرف بها . فلما أفاق جعفر سأل عنها ، فأُخبر بالخبر، فسكت . فبعث إليه محمد من الغد، فجاء وبَذْل جالسةٌ فلم يقل شيئا. فلما أراد جعفر أن ينصرف قال الأمين : أَوْقِروا حَرَّاقةَ آبن عمّي دراهم فأُوقرتْ، فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم . وبقيت بذل عند الأمين إلى أن قُتِل؛ ثم خرجت فكان ولد جعفر وولد الأمين يدّعون ولاءها ؛ فلما ماتت ورثها ولد الأمين .

وقال محمد بن الحسن الكاتب : إن الأمين وَهَبها من الجوهر ما لم يملك أحدٌ مثلَه ، فسُلِّم لها بعد مقتل الأمين، فكانت تبيع منه الشيء بعد الشيء بالمال العظيم؛ فكانت على ذلك مع ما يصل إليها من الخلفاء إلى أن ماتت وعندها منه بقية عظيمة. قال : ورغب إليها وجوه القُوّاد والكُتّاب والهاشميّين في التزويج فأبَتْه، وأقامت على حالها حتى ماتت .

وحكى أبو حشيشة قال: كنت يومًا عند بَذْل وأنا غلام، وذلك في أيّام المأمون وهو ببغداد، وهي في طارمة[2] لها تمتشط؛ فخرجتُ إلى الباب فرأيتُ الموكِبَ فظننتُ أنّ الخليفة يمرّ على ذلك الموضع؛ فرجعتُ إليها فقلت : يا سيّدتي، الخليفةُ يمرّ على

(١) دبر العبد اذا قال له : أنت حر بعد موتي .

(٢) الطارمة : بناء من خشب كالقبة . معرب .

بابك . فقالت : انظُروا أىّ شىء هذا ، إذ دخل بوّابها فقال : علىّ بن هشام بالباب . فقالت : وما أصنع به ! فقامت إليها جاريتها وشــيك(١) ، وكانت ترسلها إلى الخليفة وغيره فى حوائجها ، فأكبّت على رجلها وقالت : اللهَ ! اللهَ ! أتحتجبين على علىّ بن هشام ! فدعتْ بمنديل فطرَحته على رأسها ولم تقم إليه . فقال : إنى جئتك بأمر سيّدى أمير المؤمنين ، وذلك أنه سألنى عنك فقلت له : لم أرها منذ أيام ؛ فقال : هى عليك غَضْبى ، فبحياتى لا تدخلُ منزلك حتى تدخلَ إليها فتسترضيها ! . فقالت : إن كنتَ جئتنا بأمر الخليفة فأنا أقوم ، فقامت فقبّلَت رأسه ويديه ؛ وقعد ساعة وآنصرف. (٣٩) فقالت : يا وَشِيك ، هاتى الدواةَ وقرطاسًا ففعلت ، فجعلتْ تكتب فيه يومها وليلتها حتى كتبت آثنى عشر ألف صوت — وقيل : سبعة آلاف صوت — ثم كتبت إليه : يا علىّ بن هشام ، تقول : استغنيتُ عن بَذْل بأربعة آلاف صوت أخذناها منها ! وقد كتبتُ هذا وأنا ضَجِرة ، فكيف لو فرّغتُ لك قلبى كلَّه ! . وختمت الكتاب وقالت لها : امضِى به إليه . فما كان أسرَعَ من أن جاء رسوله (خادم أسود يقال له مُخَارق) بالجواب يقول فيــه : يا سيّدتى ، لا والله ما قلتُ الذى بلَغك ، ولقد كُذِب علىّ عندك ، إنمــا قلتُ : لا ينبغى أن يكون فى الدنيا أكثر من أربعة آلاف صوت ، وقد بعثتِ إلىّ بديوان لا أؤدّى شكرك عليه أبدا ؛ وبعث إليها بعشرة آلاف درهم وتخوت فيها بزّ ووَشْى ومُلَح وتختا(٢) مطبقا فيه أنواع الطيب .

وقيل : إن إبراهيم بن المهدىّ كان يعظّمها ، ثم يرى أنه يستغنى عنها بنفسه . فصارت إليه ، فدعت بعود فغنّت فى طريقة واحدة وآنقطاع واحد وإصبع واحدة مائة صوت لم يعرف إبراهيم منهــا صوتًا واحدا ، ثم وضعت العود وآنصرفت ، ولم تدخل دارَه حتى طال طلبه لها وتضرُّعه إليها فى الرجوع إليه .

(١) فى الأغانى (ج ١٥ ص ١٤٥ طبع بلاق) : «وشكة» . (٢) فى الأغانى : تخت .

وقال أحمد بن سعيد المالكيّ : إن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ خالف بَذْلًا في نسبة صوت غنّته بحضرة المأمون؛ فأمسكت عنه ساعةً ثم غنّت ثلاثة أصوات في الثقيل الثاني واحدًا بعد واحد، وسألت إسحاق عن صانعها فلم يعرفه. فقالت للمأمون: هي والله لأبيه أخذتُها من فيه، فإذا كان لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره ! فآشتدّ ذلك على إسحاق حتى رُئي ذلك فيه .

وقال حمادُ بن إسحاق : غنّت بذلُ بين يدى أبي :

إن تَرَيْنِي ناحلَ البَدَنِ * فلِطُولِ الهمّ والحَزَنِ
كان ماأخشَى بواحدَتِي * ليتَه واللهِ لم يَكُنِ

قال : فطرِب أبي طرباً شديدا وشرِب رِطلًا وقال لها : أحسنتِ يابنتي، والله لأتُغنّين صوتًا إلا شربتُ عليه رطلا .

انتهت أخبار بذل .

---

## ذكر أخبار ذَات الخال

قال أبو الفرج الأصبهانيّ : وآسم ذات الخال خِشْف، وكانت لأبي الخطّاب النحاس المعروف بقرين مولى العبّاسة بنت المهديّ . وكانت ذات الخال من أجمل النساء وأكملهنّ، وكان لها خال فوق شفتها العُليا، وقيل : على خدّها . وكان إبراهيم الموصليّ يتعشّقها ، وله فيها أشعار كثيرة كان يقولها و يغنّي فيها حتى شهّرها بشعره وغنائه . وآتصل خبرها بالرشيد، فآشتراها بسبعين ألف درهم. فقال لها ذات يوم: أسألك عن شيء، فإن صَدَقتِني و إلا صَدَقني غيرُك وكَذّبتُك . قالت : أصدُقك . قال : هل كان بينك و بين إبراهيم الموصليّ شيءٌ قطّ ؟ وأنا أحلّفه أن يَصْدُقَني . قال: فسكتت ساعة ثم قالت : نعم! مرّةً واحدة؛ فأبغضها. وقال يومًا في مجلسه:



أيكم لا يبالى أن يكون كَشْخَانًا(١) حتى أهَبَه ذات الخال؟ فبدر حَمَويه الوصيف فقال: أنا، فوهبها له. ثم آشتاقها الرشيد يومًا فقال: ويلك ياحَمَويه! وَهبْنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك! فقال: يا أمير المؤمنين، مُرْ فيها بأمرك. قال: نحن عندك غدا. فمضى فآستعدّ لذلك وآستعار لهـا من بعض الجوهريين بَدَنَةً(٢) وعقودًا ثمنُها آثنا عشر ألف دينار، فأخرجها إلى الرشيد وهى عليها. فلما رآه أنكره وقال: ويلك يا حمويه! من أين لك هذا؟! ما وَلّيتك عملًا تكسب فيه مثلَه ولا وَصَل إليك منّى هذا القــدر! فصدَقه عن أمره، فبعث الرشيدُ إلى أصحاب الجوهر، فأحضرهم وآشترى الجوهر منهم ووهبه لها، وحلف ألّا تسأله فى يومه ذلك حاجةً إلّا قضاها، فسألته أن يُوَلِّىَ حمَوْيهِ الحرب والخراج بفارس سبع سنين، ففعل ذلك وكتب له عهده بذلك، وشرط على ولىّ العهد أن يتمّها له إن لم تتمّ فى حياته.

قال الأصفهانىّ: ولإبراهيم الموصلىّ فى ذات الخـال شعر كثير غنّى فيـه. فمنه قوله:

أذاتَ الخالِ قــد طالَ * بمن أسْقَمْتِه الوَجَــعُ
وليس إلى سواكُمْ فى الـ * ـذى يلــقَى له فَــزَعُ
أمَا يمنعُـكِ الإســلا * مُ من قتـلِى ولا الورَعُ
وما ينفـكّ لى فِيــكِ * هــوًى تَغْـتَرّه خُدَعُ

ومنهـا:

جزى الله خيرًا من كَلِفْتُ بحبّــه * وليس به إلا التَّمَــوُّهُ(١) من حُــبِّى
وقالوا قلوبُ الغانياتِ رقيقــةٌ * فما بالُ ذاتِ الخال قاسيةَ القلبِ

(١) الكشخان: الديوث. (٢) البدنة: قميص لا كمين له تلبسه النساء.

(١) فى الأغانى (ج ١٥ ص ٨٣ طبع بولاق): «المتوه».

وقالوا لهـا هذا حبيبُك مُعْـرِضًا * فقالت لهم إعراضُه أيسرُ الخَطْبِ
فمـا هى إلا نظـرةٌ بتَبَسُّمٍ * فتنشَبُ رجلاه ويسـقُطُ للجَنْبِ

وله فيها أشعارٌ كثيرة غير ما أوردناه .

---

## ذكر أخبار دنانير البرمكيّة

قال أبو الفرج : كانت دَنَانيرُ مولاة يحيى بن خالد البرمكىّ ، وكانت صفراء مولّدة ، من أحسن الناس وجها ، وأظرفهـم وأكملهم أدبًا ، وأكثرهم روايةً للغناء والشعر ، ولها كتاب مجرّد فى الأغانى مشهور . وكان آعتمادها فى غنائها على ما أخذته من بَذْل ، وهى خرّجتها ؛ وقد أخذتْ أيضا عن الأكابر الذين أخذت بَذْل عنهم مثـل فُلَيْح وإبراهيم وآبن جامع و إسحاق ونُظَرائهم . وكانت تغنّى غناء إبراهيم فتحْكيه فيه حتى لا يكون بينهما فرق ؛ فكان يقول ليحيى : متى فقدتَنى ودنانيرُ باقيةٌ فما فقدتنى .

وقال أحمد بن المكىّ : كانت دنانير لرجل من أهل المدينـة ، كان قد خرّجها وأدّبها ، وكانت أروَى الناس للغناء القديم ، وكانت صفراءَ صادقة الملاحة . فلما رآها يحيى وقعت من قلبه مَوْقعاً فآشتراها . وشُغِف بها الرشيدُ حتى كان يصير إلى منزل مولاها فيسمعها ، فألِفها وآشتدّ إعجابُه بها ، ووهَب لها هِبَاتٍ سنِيّة . منها أنه وهب لهـا فى ليلةٍ عِقدًا قيمتُه ثلاثون ألف دينار ، فردّته عليه فى مصادرة البرامكة بعـد ذلك . وعرفت أمُّ جعفر الخبر فشكته إلى عُمومته وأهله ، فصاروا جميعا اليه فعاتبوه ؛ فقال : مالى فى هذه الجارية أَرَبٌ فى نفسها ، و إنما أَرَبى فى غِنائها ؛ فآسْمعوها ، فإن آستحقّت أن تُؤْلَف لغنائها و إلّا فقولوا ما شئتم . فلمّا سمعوها عَذَروه ؛ وعادوا إلى أمّ جعفر وأشاروا عليها ألّا تُلِحّ فى أمرها ؛ فقبلت ذلك ، وأهدت إلى الرشيد عشر جوارٍ منهنّ أُمُّ المأمون وأمّ المعتصم وأمّ صالح .

وقال عمر بن شبّة : إنّ دنانير أصابتها العلّة الكلبية فكانت لا تصبر عن الطعام ساعةً واحدة ، وكان يحيي يتصدّق عنها فى كل يوم من شهر رمضان بألف دينـار لأنها كانت لا تصومه . وبقيت عند البرامكة مدّة طويلة .

وقال إسحاق وأحمد بن الطيّب : إنّ الرشيد دعا بدنانير بعد البرامكة ، فأمرها أن تغنّي . فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنى آليتُ ألّا أغنّي بعـد سيّدى أبدا . فغضب وأمر بصَفْعها فصُفعت ، وأُقيمت على رجليها وأُعطيت العودَ ، فأخذته وهى تبكى أحرّ بكاء ، وآندفعت فغنّت :

يا دارَ سَـلْمَى بنازح السَّنَدِ * مِن الثَّنايا ومَسْـقَط اللَّبَدِ
لمّـا رأيتُ الديارَ قد دَرَستْ * أيقنتُ أنّ النعيمَ لم يَعُـــدِ

قال : فَرَقَّ لها الرشيد ، وأمر بإطلاقها ، فانصرفت .

وقال أبو عبـد الله بن حمدون : إنّ عَقِيدًا مولى صالح بن الرشيد خطَب دنانير وشُغِف بها فردّته ؛ فآستشفع إليها بمولاه صالح بن الرشيد وبِبَذْل والحسن بن مُحْرِز فلم تُجب ، وأقامت على الوفاء لمولاها . فكتب اليها عَقِيد :

يا دنانيرُ قـــد تنكَّر عقـلى * وتحيّرتُ بين وَعْدٍ ومَطْـلِ
شَفَقِي شافِعي إليـك وإلّا * فآقتُليِني إن كنتِ تَهْوَيْنَ قتلِي
أنا بالله والأمـــيرِ وما آ * مُلُ من مَوْعِدِ الحسين وبَذْلِ
ما أُحِبُّ الحياةَ ياحِبُّ إن لم * يجمـع الله عاجلًا بكِ شملِي

فلم يَعْطِفها ذلك عليـه ، ولم تزل على حالهـا حتى ماتت . ولعَقِيدٍ هـذا فيها أشعار فيها غناء . وكان عقيد حسن الغناء ، وله فيها أصوات ، منها قوله :

هـذى دنانـــيرُ تنسانى وأذكُرُها * وكيف تنسَى مُحِبًّـا ليس ينساهـا
أعـوذُ بالله من هِجْـرانِ جاريةٍ * أصبحتُ مِنْ حُبّها أهذِى بذِكراها

قد أكمل الحُسْنُ فى تركيب صُورتِها * فارتجّ أسفَلُها واهتزّ أعلاها
قامتْ لتمشِى فليت الله صوّرنى * ذاكَ الترابَ الذى مَسّته رِجلاها
والله والله لو كانت ، إذا برزت، * نفسُ المتيَّم فى كَفَّيْهِ ألقاها

## ذكر أخبار عَرِيبَ المأمونيّة (١)

قال أبو الفرج الأصفهانى: كانت عَريب مغنِّيَة مُحسنة، وشاعرة صالحة الشعر، وكانت مليحة الخطّ والمذهبِ فى الكلام، ونهايةً فى الحسن والجمال والظَّرْف وحُسْن الصوت وجودة الضَّرْب و إتقان الصَّنْعة والمعرفة بالنَّغَم والأوتار والرواية للشعر: لم يتعلّق بها أحد من نُظَرائها ، ولا رُئِى فى النساء — بعد القِيان الحجازيّات مثل جميلة وعزّة الميلاء وسلّامة الزرقاء ومن جرى مجراهنّ على قِلّة عددهنّ — نظيرٌ لها.

قال : وكان فيها من الفضائل التى وصفناها ما ليس لهنّ ممّا يكون فى مثلها من جوارى الخلفاء ومن نشأ فى قصور الخلفاء وغُذِى برقيق العيش الذى لا يُدانيه عيش الحجاز والمَنْشأ بين العامّة والعرب الجُفَاة . قال : وقد شهد لها من لا تحتاج مع شهادته الى غيره ؛ فرُوِى عن حمّاد بن إسحاق قال قال أبى : ما رأيتُ آمرأةً أضربَ من عريب، ولا أحسنَ صنعةً ووجهًا ، ولا أخفَّ روحًا ، ولا أحسنَ خطابًا بارعا، ولا أسرعَ جوابًا ، ولا ألعبَ بالشِّطْرَنْج والنَّرْد، ولا أجمعَ لخصْلةٍ (٤٣)

(١) ورد هذا الاسم مضبوطا فى الأغانى ج ٢١ ص ١٨٤ طبع ليدن والمحاسن والأضداد للجاحظ ص ١٩٩ طبع ليدن (بضم أوّله وفتح ثانيه) . ولكن رأينا فى الأغانى من الشعر ما يؤيد أن ضبطه بفتح أوّله وكسر ثانيه ؛ ومن هذا الشعر :

لقد ظلموك يا مظلوم لما * أقاموك الرقيب على عريب
ولو أولوك إنصافا وعدلا * لما أخلوك أنت من الرقيب

ومن هذا الشعر أيضا :

قاتل الله عريبا * فعلت فعلا عجيبا

حسنة لم أرها فى آمرأة غيرها قطّ . قال حماد : فذكرتُ ذلك ليحيى بن أكثم ، فقال : صدق أبو محمد، هى كذلك . قلت : أفسمعتَها ؟ قال : نعم، هناك (يعنى فى دار المأمون) . قلت : أفكانتْ كما ذكر أبو محمــد فى الحِذق؟ قال يحيى : هذه مســئلةٌ الجوابُ فيها على أبيك، هو أعلم منّى بهـا . فأخبرتُ أبى بذلك، فضحك ثم قال : أمَا آستحييتَ من قاضى القضاة أن تسأله عن مثل هذا !

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ : اِسـتدعانى المأمون يومًا فدخلت عليــه، فسألنى عن صوت وقال لى : أتدرى لمن هو؟ فقلت : أسمعه ثم أُخبر أمير المؤمنين إن شاء الله بذلك . فأمر جاريةً من وراء السّــتارة أن تغنّيــه ، فضربت فإذا هى قد شبّهته بالقديم؛ فقلت : زِدْنى معها عودًا آخر، فإنه أثبَتُ لى؛ فزادنى عودًا آخر . فقلت : يا أمير المؤمنين، هذا صوتٌ مُحْدَث لآمرأة ضاربة . قال : من أين قلت ذلك؟ فقلت : إنى لـمّا سمعتُ لِينَه عرفتُ أنه مُحْدَث من غناء النساء، ولـمّا رأيت جودة مَقاطعه علمتُ أنّ صاحبتــه ضاربة حفِظتْ مقاطعَــه وأجزاءه ، ثم طلبتُ عودًا آخر فلم أشكّ . قال : صدَقت، الغناءُ لِعَرِيبَ .

وقال آبن المعـتزّ : قال علىّ بن يحيى : أمرنى المعتمد على الله أن أجمــع غِناء عريب الذى صنعته، فأخذتُ منها دفاترَها وصُحُفَها التى كانت قد جمعتْ فيها غناءها، فكتبتُه فكان ألفَ صوت ، وقد قيــل أكثر من ذلك . وقد وصفها أبو الفرج الأصفهانىّ وأطنب فى وصفها وتفضيلها ، وآستدلّ على ذلك و بسط القولَ فيه .

وأمّا ما قيل فى نسبها وسنّها وكيف تنقّلت بها الحال إلى أن آتصلت بالمأمون، فقد رُوِى عن إسماعيل بن الحسين خال المعتصم أنها آبنة جعفر بن يحيى، وأنّ البرامكة لـمّا نُهبوا سُرقتْ وهى صغيرة فبيعتْ . قال أحمد بن عبد الله بن إسماعيل المَرَاكِبىّ :

إن أمّ عريب كانت تُسمّى فاطمة، وكانت يتيمة؛ فتزوّجها جعفر بن يحيى بن خالد؛ فأنكر عليه أبوه، وقال له : تتزوّج بمن لا يُعرف لها أمّ ولا أب ! اشترِ مكانها ألف جارية . فأخرجها جعفر وأسكنها فى دار فى ناحية باب الأنبار سرًّا من أبيه، ووكّل بهـا من يحفَظها، وكان يتردّد إليها؛ فولدت عريب فى سنة إحدى وثمانين ومائة . وكانت سِنُوها إلى أن ماتت ستًّا وتسعين سنة . قال : وماتت أمّ عريب فى حياة جعفر، فدفعها إلى آمرأة نصرانيّـة وجعلها دايةً(١) لهـا . فلما حدثت بالبرامكة تلك الحادثة باعتها من سنبس النخّاس، فباعها من المراكبيّ .

قال آبن المعتزّ : وأخبرنى يوسف بن يعقوب قال : كنت إذا نظـرتُ قَدَمَىْ عَرِيب شَبّهتُهما بقدمى جعفر بن يحيى . قال : وسمعت من يحكى أنّ بلاغتها فى كتبها ذُكرتْ لبعض الكتّاب، فقـال : وما يمنعها من ذلك وهى بنت جعفر بن يحيى! هذا ملخص ما حكاه أبو الفرج فى نسبها .

وأمّا أخبارها مع مَنْ مَلَكها وكيف تنقّلت بها الحال، فقد حكى آبن المعتزّ عن الهشامىّ أنّ مولاها خرج بها إلى البَصْرة فأدّبها وخرّجها وعلّمها الخطّ والنحو والشعر والغِناء، فبرَعت فى ذلك أجمع، وتزايدت حتى قالت الشعر . وكان لمولاها صديق يقال له حاتم بن عدىّ من قوّاد خُرَاسان، وقد قيل : إنه كان يكتب لعجيف على ديوان العرض؛ فكان مولاها يدعوه كثيرا ويُخالطه . فركبه دَيْن فآستتر عنده؛ فمدّ عينه الى عَرِيب وكاتبها فأجابته، ودامت المواصـلة بينهما وعشقته؛ ثم آنتقل من منزل مولاها . فلم تزل تحتال حتى آتخذت سُلّمًا من سِبٍ(٢)، وقيـل : من خيوط غِلاظ، وكان قد آتخذ لهـا موضعا، ثم لفّت ثيابها وجعلتها فى فراشها بالليل ودثّرتها

(١) الداية : الظئر المرضعة والمربية . (٢) السب : شقة كتان رقيقة . وفى الأصل : «سقب» . وفى الأغانى : «عقب» . فلعلهما محرفان عما أثبتناه .

بدثارها، ثم تسورت الحائط وهربت، وأتته فكثت عنده، ومولاها لا يتهمه بشىء من أمرها . فقال عيسى بن عبد الله بن إسماعيل المراكبى يهجو أباه ويعيره بها — وكان كثيرا ما يهجوه — : ٤٣

قاتل اللهُ عَريبًا * فعلتْ فعلًا عَجيبا
رَكبتْ والليلُ داجٍ * مَرْكَبًا صَعْبًا مَهيبا
فارتقتْ مُتَّصلًا * بالنَّجمِ أو منه قريبا
صَبَرتْ حتى إذا ما * أقصَدَ النومُ الرَّقيبا
مَثَّلتْ بين حَشَايا * ها، لِكَىْ لا تَسْتريبا
خَلَفًا منها إذا نُو * دِى لم يُلْفَ[(1)] مُجيبا
ومضتْ يَحملها الخَوْ * فُ قَضيبًا وكَثيبا
مُحّةً لو حُرِّكتْ خِفْ * تَ عليها أن تَذُوبا
فتدلَّتْ لِمُحِبٍّ * فتلقَّاها حَبيبا
جَذِلًا قد نال فى الدُّنْ * يا من الدُّنيا نَصيبا
أيُّها الظبيُ الذى تَسْ * حَرُ عيناه القلوبا
والذى يأكُلُ بعضًا * بعضُه حُسْنًا وطيبا
كنتَ نَهْبًا لِلذِّئابِ * فلقد أطعمتَ ذيبا
وكذا الشاةُ إذا لم * يَكُ راعيها لبيبا
لا يُبالِى وَبَأَ المَرْ * عَى إذا كان خَصيبا
ولقد أصبح عبد الـلّـ * ـه كَشْخانًا جَريبا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « لم تلق » .

قَـدْ لَعَمْرِى لَطَم الخَـدَّ وقد شَـقّ الجيوبا
وجرت منـه دموعٌ * بَلَّتِ الذَّقَنَ الخَضِيبا

قال ٱبن المعتزّ : وحدّثنى محمـد بن موسى بن يونس : أنها ملّته بعـد ذلك فهرَبت منه ، فكانت تغنّى عند أقوام عرفتهم ببغداد وهى مستترة متخفّية . فلمّا كان يومٌ من الأيام ٱجتاز ٱبن أخى المَرَاكِبىّ ببُسـتانٍ كانت فيه مع قوم تغنّى، فسمع غِناءها فعرفه؛ فبعث إلى عمّـه وأقام هو مكانه، فلم يبرَح حتى جاء عمّه وكَبَسها، فأخذها وضربها مائةَ مِقْرَعة وهى تصيح: يا هذا، لِمَ تقتلنى ! لست أصبِر عليك، أنا ٱمرأة حُرّة، فإن كنتُ مملوكةً فبِعْنى، لستُ أصبِر على الضّيق . فلما كان من الغد نَدِم على فعله وصار إليها فقبّل رأسها و يدها ورجلها ووَهَب لها عشرةَ آلاف درهم . ثم بلغ محمّدا الأمينَ خبرُها فأخذها . قال : وكان الأمينُ فى حياة أبيه طلبها منه فلم يُجِبه إلى ذلك . فلما أفضتْ إليه الخلافةُ جاء المراكبىّ ومحمّدٌ راكب ليقبّل يده؛ فأمر بمنعه ودفعه ، ففعل ذلك الشاكرى(١)؛ فضربه المراكبىّ وقال: أتمنعنى من تقبيل يد مولاى! فجاء الشاكرىّ لمّـا نزل محمد الأمين فشكاه؛ فأمر بإحضار المراكبىّ فأمر بضرب عنقه، فسئل فى أمره فعفا عنه وحبسه، وطالبه بخمسمائة ألف درهم مما ٱقتطعه من نفقات الكراع؛ و بعث فأخذ عريب من منزله مع خَدَم كانوا له . فلمّا قُتـل محمد الأمين هَربتْ عريب الى المراكبىّ فكانت عنده .

قال ٱبن المعتزّ: وأمّا رواية إسماعيل بن الحسن خال المعتصم فإنها تخالف هذا، وذكر أنها إنما هربت من دار مولاها المراكبىّ إلى محمد بن حامد الخاقانىّ المعروف بالخَشِن أحد قوّاد خُراسان، وكان أشقر أصهب أزرق العين . وفيه تقول عَرِيب ولها فيه غناء :

(١) الشاكرىّ : الأجير والمستخدم، وهو معرب جاكر . (عن القاموس) .

بأبي كلّ أصْهَبٍ * أزرقِ العينِ أشقرِ
جُنّ قلبي به وليد * س جُنُونِي بمُنكَرِ

وقال إسحاق بن إبراهيم : لمّـا نُمِي إلى الأمين خـبرُ عَرِيب بعث في إحضارها وإحضار مولاها فأحضرا، فغنّت بحضرة إبراهيم بن المهديّ، فطرِب الأمين وآستعادها، وقال لإبراهيم : كيف سمعت ؟ قال : سمعت يا سـيّدي حسنًا، و إن تطاولتْ بها الأيام وسَكَن رَوْعُها آزداد غِناؤها حُسْـنًا وطِيبا . فقال للفضل بن الربيع : خذها إليك وسَاوِمْ بهـا ففعل، فآشتطّ مولاها في السَّوْم ثم أوجبها له بمـائة ألف درهم. (٤٤) وآنتقض أمر الأمين وشُغِل عنها فلم يأمُرْ لمولاها بشيء حتى قُتل بعد أن آفتضّها؛ فرجعت إلى مولاها، ثم هَرَبت منه إلى آبن حامد؛ فلم تزل عنده حتى قدِم المأمون بغداد فتظلم المراكبيّ من محمد بن حامد، فأمر المأمون بإحضاره وسُئل عنها فأنكرها. فقال له المأمون : كذبتَ، وقد سقَط إليّ خبرُك، وأمر صاحبَ الشُّرَط أن يجرّده في مجلس الشُّرط ويضع عليه السِّياطَ حتى يردّها فأخذه. فبلغها الخبرُ، فركبت حمار مُكَارٍ وجاءت وقد جُرّد ليُضْرَب، وهي مكشوفة الوجه وهي تصـيح : إن كنتُ مملوكةً فليبِعْني ، و إن كنتُ حُرّةً فلا سبيلَ عليّ . فرُفِع خبرُها إلى المـأمون، فأمر بتعديلها عند قُتَيبة بن زياد القاضي فعُدِّلت عنده. وتقدّم إليه المرَاكبيّ مطالبًا بها، فسأله البيِّنة على ملكه إياها فعـاد متظلّما إلى المأمون وقال : قد طولبتُ بمـا لم يُطالَبْ به أحدٌ في رقيق . وتظلمت زُبَيدة بنـتُ جعفر إليه وقالت : مِنْ أغلظِ ماجَرَى عليّ، بعـد قتل آبني، هجومُ المرَاكبيّ على داري (١) وأخذُ عَرِيب منها. فقال المراكبيّ : إنما أخذتُ مِلْكي، لأنه لم يَنْقُدْني الثمن. فأمر المأمون بدفعها إلى محمد آبن عمر الواقديّ، وكان قد ولّاه القضاء بالجانب الشرقيّ، فأخذها من قُتَيبة بن زياد

(١) في الأصل : «داره» وهو تحريف .

وأمر ببيعها ساذَجةً؛ فآشتراها المأمون بخمسين ألف درهم، وقيل : آشتراها بخمسة آلاف درهم . ودعا عبد الله بن إسماعيل وقال له : لولا أنّى حلفت ألّا أشترى مملوكا بأكثر من هذا لزدتك، ولكنى سأُولّيك عملًا تَكسِب فيه أضعافَ هذا الثمن، و رمى إليه بخاتمين من ياقوت أحمر قيمتُهما ألف دينار، وخلع عليه خِلَعاً سنيّة . فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ينتفع بهذا الأحياء، وأمّا أنا فإنى لا محالة ميّت؛ لأن هذه الجارية كانت حياتى . وخرج فاختلط وتغيّر عقله ومات بعد أربعين يوما . وذهبت بالمأمون كلَّ مذهب ميلًا إليها ومحبّةً لها، حتى قيل : إن المأمون قبّل رجلها فى بعض الأيام وإنها قالت أثر ذلك : وآلله ياأمير المؤمنين، لولا ما شرّفها الله به من وضع فمك الكريم عليها لقطعتها! ولكن لله علىّ ألّا أغسِلها لغير وضوء أو طُهْر إلا بماء الورد ما عِشْتُ . فكانت تفعل ذلك إلى أن ماتت .

وحكى علىّ بن يحيى المنجّم أنّ المأمون لمّا مات بيعتْ فى ميراثه — ولم يُبَعْ له عبدٌ ولا أمةٌ غيرُها — فاشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهى مولاته . وقيل : إنه لمّا مات محمد الأمين تدلّت عَرِيب من قصر الخُلْد بحبل إلى الطريق وهَربت إلى حاتم بن عدىّ .

وحكى إبراهيم بن رَباح قال : كنت أتولّى نفقاتِ المأمون، فوَصَف له إسحاق آبن إبراهيم الموصلىّ عَرِيب، فأمره أن يشتريها له، فاشتراها بمائة ألف درهم؛ فأمرنى المأمون بحملها، وأن أحمل إلى إسحاق مائة ألف درهم، ففعلت ذلك؛ فلم أدر كيف أثبتها، فكتبتُ فى الدّيوان أنّ مائة الألف خرجتْ فى ثمن جوهرة، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها ودلّالها . فجاء الفضل بن مروان الى المأمون وقد رأى ذلك وأنكره، وسألنى عنه فقلت : نعم، هو ما رأيت . فسأل المأمونَ عن ذلك فقال : وهبتَ لدلّالٍ وصائغ مائةَ ألف درهم ! وغلّظ القِصّة؛ فأنكرها

المأمون، ودعانى فدنوتُ وأخبرته أنّ المـال الذى خرج فى ثمن عَريب وصلة إسحاق، وقلت : أيّما أصْوَبُ يا أمير المؤمنين : ما فعلتُ، أم أُثبت فى الديوان أنها خرجتْ ثمنَ مُغَنّية وصلةَ مُغَنٍّ . فضحك المأمون وقال : الذى فعلتَ أصوَبُ . ثم قال للفضل ابن مروان : يا نَبَطىّ، لا تعترض على كاتبى هذا فى شىء .

ولعَريب أخبار قد بسَط أبو الفـرج الأصبهانىّ القولَ بها فى كتابه الذى تَرْجَمَه "تحف الوسائد فى أخبـار الولائد"، وذكر أيضا نُتَفا من أخبارها فى كتابه المترجم "بالأغانى". منها خبرها مع محمد بن حامد المعـروف بابن الخَشِن، وأخبار لها مع المأمون، وأخبار مع صالح المنـذرىّ الخادم، وإبراهيم بن المـدبّر، وغير ذلك من أخبارها . وقد رأينا أن نُثْبت لُمَعا من ذلك .

* * *

أما أخبارها مع محمد بن حامد — وهو أحد من كانت تعشقه وتهواه وتخاطر بنفسها فى الاجتماع به — فمنها ما رُوى عن ابن عبد الملك الضرير أنها لمّا صارت فى دار (٤٥) المأمون احتالت حتى وصلت إليه، وكانت تلقاه فى الوقت بعد الوقت حتى حمَلَتْ منه وولَدتْ بنتا، فبلغ ذلك المأمون فزوّجه إياها . وقال محمد بن موسى : اصطبح المأمون يومًا ومعه نُدَماؤه وفيهم محمد بن حامد وجماعة من المغنّين وعَريب معه على مصلاة، فأومأ إليها محمد بن حامد بقُبْلة، فاندفعت فغنّت ابتداء :

رَمَى ضَرْعَ نابٍ فاستمرّ بطَعْنةٍ * كحاشـيةِ البُرْدِ اليمـانِى المُسَهّمِ

تريد بغنائها جوابَ محمد بن حامد بأن تقول له : طعنة . فقال المأمون للندماء : أيّكم أومأ إلى عَريب بقُبْلة؟ والله لئن لم يَصْدُقنى لأضربنّ عُنُقَه ! فقال محمد بن حامد : أنا يا أمير المؤمنين أومأتُ إليها، والعفوُ أقرب للتقوى . فقال : قد عفوتُ عنك .

ابتداء إلا لمعنًى ، فعلمتُ أنها لم تبتدئْ هذا الصوت إلا لشيء أُومِئَ إليها به ، ولم يكن من شرط هذا الموضع إلا إيماءٌ بقُبلة ، فعلمتُ أنها أجابته بطعنة . وقد حُكى أنّ المأمون قال فى هذه الواقعة عن محمد بن حامد : نُكَشْخِنه قبل أن يُكَشْخِننا(١)؛ فزوّجه إياها ، وآشترط عليه أن يُحْضِرها إلى مجلسه فى أوقات عيَّنها له المأمون .

وقال حمدون : كنت ليلةً فى مجلس المأمون ببلاد الروم بعد العشاء الآخرة فى ليلة ظلماء ذات رُعُود وبُروق ، فقال لى المأمون : اركَبِ الساعةَ فرسَ النَّوبة وسِرْ إلى عسكر أبى إسحاق ، (يعنى المعتصم) ، فأدِّ إليه رسالتى وهى كيت وكيت . فركبت فلم تَثْبُتْ معى شمعة ، وسمعتُ وقْع حافر دابّة فرَهِبتُ ذلك فجعلت أتوقّاه حتى صَكّ ركابى تلك الدابّة ، وبرقت بارقة فأبصرتُ وجه الراكب فإذا عَرِيب ، فقلت : عَرِيب؟ قالت : نعم ، حمدون ؟ قلت نعم . ثم قلت لها : مِنْ أين أقبلتِ فى هذا الوقت ؟ قالت : من عند محمد بن حامد . قلت : وما صنعتِ عنده ؟ قالت : يانِكْس ، عَرِيب تجىء فى هذا الوقت من عند محمد بن حامد خارجةً من مَضْرِب الخليفة راجعةً إليه تقول لها : أىّ شئ عملتِ معه ! صَلَّيتُ معه التراويح ، أو قرأتُ عليه أجزاء من القرآن ، أو دارسته شيئا من الفقه ! يا أحمق ، تحادثنا وتعاتبنا وآصطلحنا ولعبنا وشربنا وَغنّينا وآنصرفنا . قال : فأخجلتنى وغاظتنى وآفترقنا . ومضيتُ فأدّيت الرسالة ، ثم عدت إلى المأمون وأخذنا فى الحديث وتناشدنا الأشعار ، فهممتُ أن أُحدّثه بحديثها ثم هِبتُه ، فقلت : أُقَدّم قبل ذلك تعريضا بشىء من الشعر فأنشدته :

أَلَا حَىِّ أطلالًا لقاطعة الحَبْلِ * أَلُوفٍ تُساوِى صالحَ القوم بالرَّذْلِ
فلو أنّ من أمسَى بجانب تَلْعَةٍ * الى جَبَلَىْ طىٍّ فساقطة النعلِ

(١) كشخنه وكشخه : شتمه بالكشخنة وهى الدِّياثة وعدم الغيرة .

جُلُوسٌ إلى أنْ يَقْصُرَ الظِّلُّ عندها * لراحوا وكلّ القومِ منها على وَصْلِ

فقال لى المأمون : اخفِضْ صوتَك لا تسمع عريب فتغضَب وتظنّ أنّا فى حديثها؛ فأمسكت عما أردت أن أُخبره به، وخار الله لى فى ذلك .

وقال محمد بن عيسى الواثقىّ : قال لى محمد بن حامد ليلةً : أُحِبّ أن تُفَرِّغَ لى مَضْرِبك، فإنى أريد أن أجيئك فأُقيم عندك؛ ففعلت وأتانى . فلما جلس جاءت عَرِيب فدخلتْ وجلسنا، فجعل محمد يعاتبها ويقول : فعلتِ كذا وفعلتِ كذا ! فقالت لى : يا محمد، هذا عندك رأى ! ثم أقبلتْ عليه فقالت : يا عاجز، خُذْ بنا فيما نحن فيه، واَجعل سراويلى مِخْنَقَتِى وأَلْصِقْ خَلْخالِى بقُرْطِى، فإذا كان غدٌ فاكتب بعتابك فى طُومار حتى أكتب اليك بعُذْرى فى مثله، ودع عنك هذا الفضول؛ فقد قال الشاعر :

دَعِى عَدَّ الذنوبِ إذا اَلتقينا * تَعَالَىْ لا نَعُـدُّ ولا تَعُـدِّى

فأُقسِمُ لو هَمَمْتِ بمَدّ شَعْرِى * إلى بابِ(1) الجحيمِ لقلتُ مُدِّى

وقال أحمد بن حمدون : وقع بين عريب وبين محمد بن حامد شرٌّ حتى كادا يخرجان إلى القطيعة، وكان فى قلبها منه أكثر مما فى قلبه منها . فلقيته يومًا فقالت : كيف قلبك يا محمد ؟ قال : أشقَى ما كان وأقرحَه . فقالت : اسْتَبْدِلْ تَسْلُ . فقال لها : لو كانت البلوَى باختيار لفعلتُ ! فقالت : لقد طال إذًا تعبُك . فقال : وما يكون ! أصبِر مُكْرَهًا ! أمَا سمعتِ قول العبّاس بن الأحنف : (٤٦)

تَعَبٌ يطولُ مع الرَّجاء لذى الهوى * خيرٌ له من راحةٍ فى الياس

لولا كرامتكم لَمَا عاتبتُكم * ولكنتُمُ عندى كبعض النّاس

قال : فذرَفَت عيناها، واَعتذرت اليه واَعتنقته، واَصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه .

---

(1) فى الأغانى : « الى نار الجحيم » .

وحكى أحمد بن جعفر بن حامد قال: لمّا تُوُفِّى عمّى محمد بن حامد، صار جدّى إلى منزله، فنظر إلى تركته وجعل يقلّب ما خلّف، ويُخْرَج إليه منها الشىءُ بعد الشىء، إلى أن أُخرِج إليه سَفَطٌ مختوم؛ ففضّ الخاتمَ وفتحه، فاذا فيه رِقاع عَرِيب إليه؛ فجعل يتصفّحها ويبتسم، فوقعتْ فى يده رُقْعةٌ فقرأها ووضعها بين يديه، وقام لحاجته؛ فقرأتها فإذا فيها:

وَيْلِى عليكَ ومنكا! * أوقعتَ فى الحقّ شكّا
زعمتَ أنّى خَؤونٌ * جَوْرًا علىّ وإفكا
إن كان ماقلتَ حَقّا * أوكنتُ أزمعتُ تَرْكا
فأبدل الله ما بى * من ذِلّة الحُبّ نُسْكا

قال: وهذا الشعر لعَرِيب.

* * *

وأمّا أخبارها مع المأمون وإخوته وغير ذلك من أخبارها — قال صالح ابن علىّ بن الرشيد المعروف بزعفرانة: تمارَى خالى أبو علىّ والمأمون فى صوت، فقال المأمون: أين عَرِيب؟ فجاءت وهى محمومة، فسألها عن الصوت؛ فقالت فيه بعلمها. فقال لها: غَنّيه. فولّت لتجىء بالعود؛ فقال: غَنّيه بلا عُود. فاعتمدتْ من الحُمّى على الحائط وغنّت، وأقبلت عقربٌ فرأيتها وقد لَسَبَتْ يدها مرّتين أو ثلاثا، فما نحّتْ يدها ولا سكتت حتى فرغت من الصوت؛ ثم سقطت وقد غُشى عليها.

قال عثمان بن العَلَاء عن أبيه: عَتَب المأمون على عَرِيب فهجرها(1) أياما، ثم اعتلّت فعادها فقال: كيف وجدتِ طعمَ الهجر؟ فقالت: ياأمير المؤمنين، لولا مرارةُ

(1) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «فهجرته».

الهجر ما عُرِفتْ حلاوةُ الوصل، ومن ذمّ بدءَ الغضب حَمِد عاقبةَ الرضا . فخرج المأمون إلى جلسائه فحدّثهم بالقِصة؛ ثم قال : أتُرَى لو كان هذا من كلام النَّظّام لم يكن كثيرا !

وقال أحمد بن أبى دُواد : جرى بين المأمون وبين عريب كلام، فكلّمها المأمون بشىء غضِبت منه فهجرته أياما . فدخلتُ على المأمون، فقال : يا أحمد، اقضِ بيننا . فقالت عريب : لاحاجةَ لى فى قضائه ودخوله بيننا، وأنشأت تقول :

ونخلِط الهجرَ بالوصال ولا * يدخل[1] فى الصُّلْح بيننا أَحَـــدُ

وكانت قد تمكّنتْ من المأمون وأخذت بمجامع قلبه، وذهب به حبُّها كلَّ مَذْهَب؛ وقد قدّمنا أنه قبّل رجلها .

وكانت عريب تهوَى أبا عيسى بن الرشيد أخا المأمون، وكان المثلُ يُضرب بحسنه وحسن غِنائه، وكانت تزعم أنها ما عشِقتْ أحدًا من بنى هاشم وأَصْفَته من الخلفاء وأولادهم سواه . ولم تزل عَرِيب مبجّلة عند الخلفاء محبوبة اليهم مُكَرَّمة لديهم إلى أن غضب عليها المعتصم والواثق وآنحرفا عنها . وكان سبب ذلك أن المعتصم وجد لها كتابًا إلى العبّاس بن المأمون ببلد الروم تقول فيه : أُقتل أنت العِلْج حتى أقتل أنا الأعور الليلىّ هاهنا (تعنى الواثق، وكان المعتصم آستخلفه ببغداد) .
(٤٧) ولَعَمْرِى إنّ هـذا من الأمور العظيمة التى لا تُحْتَمَل من الأولاد والإخوة فكيف من أَمَة مغنّية ! ولو لم تكن لها عندهم المكانة العظمى والمحلّ الكبير لما أبقَوْها بعد الاطّلاع من باطن حالها على هذه الطَّوِيّة . وكانت عَرِيب تُكايد الواثق فيما يصوغه من الألحان، وتصوغ فى ذلك الشعر تغنّيه لحنًا فيكون أجود من لحنه .

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ولا يصلح» .

قال : وكانت عَريب تعشق صالحًا المنذرىّ الخادم، فتزوّجته سرًّا . فحُكى عنها أنّ بعض الجوارى دخلتْ عليها يومًا ؛ فقالت لها عريب : ويحك! تعالىْ إلىّ! فجاءت ؛ فقالت : قَبِّلى هذا الموضع منّى، فإنك تجدين ريح الجنّــة ، وأومأت إلى سالفتها ، ففعلت ثم قالت لها : ما السبب فى هذا؟ قالت : قبّلنى الساعةَ صالح المنذرىّ فى هذا الموضع . قال : ووجّهه المتوكل إلى مكان بعيد فى حاجة ؛ فقالت عريب فيه :

أمّا الحبيبُ فقد مَضَى * بالرَّغم مــنّى لا الرِّضـا
أخطأتُ فى تَرْكِى لِمَنْ * لم أَلْقَ(١) منـــه عِوَضا

وكانت عَريب تهوَى إبراهيم بن المدبّر ويهواها، ولهـا معه أخبار وحكايات، وبينهما أشعار وفكاهات . فمن مُكاتباتها إليه ما رُوِى عن ابن المعتز قال : كتبتْ إليه تدعو له فى شهر رمضان : أفديك بسمعى وبصرى، وأهلّ الله عليك هذا الشهر باليُمن والمغفرة، وأعانك على المُفْتَرَض منــه والمُتنفَّل، وبلّغك مثلَه أعواما، وفرّج عنك وعنّى فيه(٢) . وكتبتْ فى شىء بلغها عنه : وَهَب الله لنا بقاءك مُمَتّعا بالنِّعم . ما زلتُ أمسِ فى ذكرك، فترةً بمدحك، ومرّةً بأكلك وبذكرك بمــا فيك لَوْنًا لونا . اجْحَدْ ذنبَك الآن، وهاتِ حُجَج الكُتّاب ونفاقَهم . فأمّا خبرُنا أمسِ فإنا شَرِبنا من فضل نبيذك على تذكارك رِطْلا، وقد رفعنا حسابنا إليــك، فارفَعْ حسابك إلينا، وخبّرنا مَن زارك أمسِ وألهــاك، وأىّ شىء كانت القصّة على جهتها . [ ولا تُخَطْرِف(٣) فتُحْوِجَنا إلى كَشْفك والبحث عليك وعن حالك(٤) ]، وقل الحق، فمن صدق [ نجا ] . وما أحوجك إلى تأديب، فإنك لا تُحْسِن أن تودّ(٥) . [ والحقّ أقول إنه يعتريك كُزاز(٦)

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٨٤ طبع بلاق) . وفى الأصل * لم ألف عنه معرضا *
(٢) فى الأصل : «فيك» . (٣) تخطرف الشىء : جاوزه . (٤) التكملة عن الأغانى .
(٥) كذا فى الأغانى (ج ١٩ ص ١٢٢ طبع بلاق) . وعبارة الاصل : « وما أحوجك الى تأديب فانك لاتحسن أن تؤدبه » . (٦) الكزاز : تشنج يصيب الإنسان من البرد الشديد .

شـديد يجوز حدّ البَرْد . وكفاك بهذا من قولى عقوبةً . و إن عُدْتَ سمعتَ أكثر منه ] (١) . والسلام .

ولمـا نَكَب عبـد الله بن يحيي بن خاقان آبْنَ المدبّر وحبسه ، كتبتْ إليه كتاباً تتشوّقه وتُخبره آستيحاشها له وآهتمامها بأمره ، وأنها قد سألت الخليفة فى أمره فوعدها ما تحبّ . فأجابها عن كتابها ، وكتب فى آخر الجواب :

لَعَمْرُكَ ما صـوتٌ بديعٌ لمَعْبَدٍ * بأحسنَ عندى من كتاب عَرِيب
تأمّلتُ فى أثنـائه خطَّ كاتبٍ * و رِقّةَ مُشْـتاقٍ ولفظَ خَطِيب
وراجعنى من وَصْلها ما آستفزّنى * و زهّدنى فى وصل كلِّ حبيب
فصِرتُ لها عبـدًا مُقِرًّا بمِلْكها * ومُسْتَمْسِكًا من وُدّها بنصيب

وقال أبو عبد الله بن حمـدون : اجتمعتُ أنا و إبراهيم بن المدبّر وآبن مَيّادة والقـاسم بن زرزر فى بستان بالمَطِيرة فى يوم غَيْم ورَذَاذ يقطـر أحسن قَطْر ونحن فى أطيب عيش وأحسن يوم ، فلم نشعُر إلا بعَرِيب قد أقبلتْ من بعيـد ، فوثب إبراهيم من بيننا فخرج حافياً حتى تلقاها ، وأخذ بِركابها حتى نزلت ، وقبّل الأرض بين يديها . وكانت قد هجرته مدّةً لشيء أنكرته عليه . فجاءت وجلستْ وأقبلت عليه متبسمة ، ثم قالت : إنما جئتُ إلى مَنْ هاهنا لا إليك . فآعتذر وشفَعنا له فرضِيت . وأقامت عندنا يومئذ و باتت ، وآصطبحنا من غد وأقامت عندنا . فقال إبراهيم :

بِأبِى مَنْ حَقّق الظنّ به * وأتانا زائرًا مُبْتَـــديَا
كان كالغيث تَرَاخَى مُدّةً * وأتى بعد قُنُوط مُرْوِيَا
طاب يومانِ لنا فى قُرْبِه * بعد شهرينِ لهجرٍ مَضَيَا
فأقرّ الله عينِى وشـــفَى * سَقَمًا كان لجسمى مُبْلِيا

(١) التكملة عن الأغانى .

وقال فيها أيضا :

أَلَا يا عَرِيبُ وُقِيتِ الرَّدَى * وجَنَّبَكِ اللهُ صَرْفَ الزَّمَنْ
فإنّك أصبحتِ زَيْنَ النساء * وواحدةَ النّاس فى كلّ فَنّْ
فقُرْبُكِ يُدْنِى لذيذَ الحياةِ * وبُعْدُكِ يَنْفِى لذيذَ الوَسَنْ
فنِعْمَ الأنيسُ ونعم الجليسُ * ونعم السميرُ ونعم السَّكَنْ

وقال أيضا فيها وفى جاريتين بِدْعة وتُحْفة :

إنّ عَرِيبًا خُلِقتْ وَحْدَها * فى كلّ ما يَحْسُنُ من أمرِها
ونعمــةٌ لله فى خَلْقِــهِ * يُقَصِّرُ العَالَمُ فى شُكرِها
أشهدنى جاريتاها على * أنّهما مُحسِنتا دهرِها
فبِدْعةٌ تُبْــدِعُ فى شَجْوِها * وتُحْفَــةٌ تُتْحِف فى زَمْرِها
يارِبّ أَمْتِعْها بما خُوِّلَتْ * وآمْدُدْ لها يارَبِّ فى عمرِها

وقال علىّ بن العباس بن أبى طلحة الكاتب: كنت عند إبراهيم بن المدبّر، فزارته بِدْعة وتُحْفة، وأخرجتا رقعة من عَرِيبَ، فقرأها فإذا فيها : بنفسى أنت وسمعى و بصرى، وقلّ ذلك لك. أصبح يومنا هذا طيبا — طيّب الله عيشك — قد آحتجبت سماؤه، ورق هواؤه، وتكامل صفاؤه، وكأنه أنت فى رِقّة شمائلك وطيب مَحْضرك ومَخْبَرك، لا فقدت ذلك أبدًا منك! ولم يُصادِف حسنُه وطِيبُه منّا نشاطًا ولا طَرَبًا لأمور صدّتنى عن ذلك، أكره تنغيصَ ما أشتهيه لك من السرور بشرحها. وقد بعثتُ إليكَ ببِدْعة وتُحفة ليؤنساك وتُسَرّ بهما، سرّك الله وسرّنى بك! . فكتب إليها :

كيف السرورُ وأنتِ نازحةٌ * عنِّى! وكيف يسوغُ لى الطربُ!
إن غِبتِ غاب العيشُ وآنقطعتْ * أسبابُه وألحّت الكُرَبُ

وأنفذ الجواب [اليها] (١) . فلم تلبث أن جاءت على حمار مِصْرىّ ، فبادر إليها وتلقاها حافيًا حتى جاء بها إلى صدر المجلس ، يطأ الحمارُ بِساطَه وما عليه ، حتى أخذ بِرِكابها فأجلسها فى مَجْلِسه وجلس بين يديها . ثم قال :

أَلَا رُبَّ يومٍ قَصَّرَ اللهُ طُولَهُ * بِقُرْبِ عَرِيبٍ ، حَبَّذا هو من قُرْبِ
بها تَحْسُنُ الدُّنيا ويَنْعَمُ عيشُها * وتجتمع السَّرَّاء للعين والقلبِ

وقال إبراهيم بن اليزيدىّ : كنتُ مع المأمون فى بلد الروم . فبينما أنا أسير فى ليلة مظلمة شاتية ذات غَيْمٍ وريح وإلى جانبى قُبَّة ، إذ بَرَقتْ بَرْقةٌ فإذا فى القُبَّة عَرِيب . فقالت : يا إبراهيم بن اليزيدىّ . فقلت : لَبَّيك ! قالت : قل فى هذا البرق أبياتا مِلَاحًا لأُغَنِّى فيها . فقلت :

ماذا بقلبى من أليم الخَفَقِ * إذا رأيتُ لَمَعانَ البَرْقِ
من قِبَلِ الأُرْدُنِّ أو دِمَشْقِ * لأن مَنْ أهوَى بذاك الأُفْقِ
فارقتُــه وهو أعزُّ الخَلْقِ * علىّ والزُّورُ خِلافُ الحقّ
ذاك الذى يَمْلِكُ مِنّى رِقِّى * ولستُ أبغى ما حَيِيتُ عِتْقِى

فتنفَّستْ تَنَفُّسًا ظننتُــه قد قطع حَيَازِيمَها ، فقلت : وَيْحَــكِ ! على مَنْ هــذا التنفس ؟ فضحكت ثم قالت : على الوطن . فقلت : هيهات ! ليس هذا كله على الوطن . فقالت : ويلك ! أظننتَ أنك تَسْتَفِزّنى ! والله لقد نظرتُ نظرةً مُرِيبةً فى مجلسٍ فادّعاها أكثرُ من ثلاثين رئيسا ، والله ما علم أحدٌ منهم لمن كانت إلى هذا الوقت .

---

(١) فى الأصــل : « وابتــدأ الجواب فلم تلبث » . والتصويب والزيادة عن الأغانى ( ج ١٩ ص ١٢٥ طبع بلاق ) .

وقال أبو العُبَيْس بن حمدون: غضِبتْ عريب على بعض جواريها، فجئتُ إليها وسألتها أن تعفو عنها ؛ فقالتْ — فى بعض ماتقوله مما تمتدّ به عليها من ذنوبها — : يا أبا العباس ، إن كنتَ تشتهى أن ترى زِنَاىَ وصَفَاقَةَ وجهى وجُرْأتى على كلّ عظيمةٍ أيّام شبابى، فأنظُرْ إليها وأعرِفْ أخبارها. قال : وكانت فى شبابها يُقَدَّم إليها البرذونُ فتَطْفِر عليه بلا رِكاب .

وقال أبو العبّاس بن الفُرات : حدّثتنى بِذْعة جارية عريب : أنّ عريب كانت تجد فى رأسها بَرْدًا وكانت تُغَلِّف رأسها بستين مِثقالًا مِسكا وعنبرا ، وتغسله من جمعة إلى جمعة، فإذا غسلته جدّدت غيره، وتقتسم الجوارى غُسَالةَ رأسها .

وقال علىّ بن المنجّم: دخلت يومًا على عريب مُسَلِّما عليها، فلما جلستُ هطلت السماء بمطر عظيم . فقالت: أقِم عندى اليوم حتى أُغَنِّيَك أنا وجوارىّ، وابعثْ إلى من أحببتَ من إخوانك، فأمرتُ بدوابّى فرُدّت، وجلسنا نتحدّث . فسألتنى عن خبرنا (٤٩) بالأمس فى مجلس الخليفة ومن كان يُغَنِّينا، وأىّ شىء آستحسنّاه من الغناء. فأخبرتها أنّ صوت الخليفة كان لحنًا صنعه بنان من الماخورىّ . فقالت: وما هو؟ فقلت:

تَجَافَى ثم تَنْطبِقُ * جُفونٌ حَشْوُها الأرَقُ
وذِى كَلَفٍ بكى جَزَعًا * وسَفْرُ القومِ مُنْطلِقُ
به قَلَقٌ يُمَلْمِلُهُ * وكان وما به قَلَقُ
جوانحُه على خَطَرٍ * بنار الشّوقِ تَحْتَرِقُ

فوجّهت رسولًا إلى بنان ، فحضر وقد بلّته السماء، فأمرت بخِلَعٍ فاخرة فخُلِعتْ عليه، وقُدِّم له طعام فأكل، وجلس يشرب معنا . فسألته عن الصوت فغنّاها إيّاه. فأخذتْ دواةً ورُقْعةً وكتبت :

أجاب الوابلُ الغَـدِقُ * وصاح النَّرجِسُ الغَـرِقُ
وقـد غَنَّى بنانُ لنـا : * "جُفُونٌ حشوُها الأرَقُ"
فهـاكَ الكأسَ مُتْرَعةً * كأنّ خِتَـامَها حَـدَقُ

قال : فما شربنا بقيّة يومنا إلا على هذه الأبيات .

وأخبار عريب كثيرة، قد وضع عبد الله بن المعتز فيهـا ديواناً . وفيما أوردناه من أخبارها كفايةٌ لا تحتمل المختصرات أكثر منها . والله تعالى أعلم .

---

## ذكر أخبار محبـوبة

قال أبو الفرج : كانت مولَّدة من مولدات البَصْرة، شاعرة، سريعة الخاطر، مطبوعة، لا تكاد فَضْلُ الشاعرة اليمانية تتقدمها، وكانت أجمل من فضل وأعفّ، وكانت تغنّي غناءً غير فاخر .

وقال عليّ بن الجَهْم : كانت محبوبةُ لعبـد الله بن طاهر أهداها إلى المتوكّل في جمـلة أربعمائة جارية . وكانت بارعة الحسن والظَّرْف والأدب، مغنّيةً محسنة، فحَظِيتْ عند المتوكل حتى كان يُجلِسها خلف السِّتارة وراء ظهره إذا جلس للشُّرب، فيُدْخِل رأسَه إليها فيراها و يحدّثها في كل ساعة .

وقال عليّ بن يحيى المنجِّم : كان عليّ بن الجهم يقرب من أنس المتوكل جِدًّا، فلا يكتُمه شيئا من سِرّه مع حُرَمه وأحاديث خَلَواته . فقال له يوماً : إنّي دخلتُ على قبيحة فوجدتُها قد كتبت آسمي على خدّها بغالية، فلا والله ما رأيت شيئا أحسنَ من سواد تلك الغالية على بياض ذالك الخـدّ، فقل في هذا شيئا — قال : وكانت محبوبة حاضرة الكلام من وراء الستارة — فدعا عليّ بن الجَهْم بدواة، فإلى أن أُتِي بها وابتدأ يفكّر قالت محبوبة على البَدِيهة من غير فِكرة ولا رَوِيّة :

وكاتبةٍ فى الخدّ بالمِسْكِ جعفرًا * بنفسى مَخَطّ المسك من حيثُ أثّرا
لئن كتبتْ فى الخدّ سَطْرًا بكَفِّها * لقدأودعتْ قلبى من الحبّ أسطُرا
فيامَنْ لمملوكٍ لِملْكِ يمينِه * مُطيعٍ له فيما أسرّ وأظهرا!
ويا مَنْ هواها فى السريرة جعفرٌ * سَقَى اللهُ من سُقْيَا ثَنَايَاكِ جعفرا

قال : فبقى علىّ بن الجَهْم واجمًا لا ينطق بحرف ، وأمر المتوكّل بالأبيات فبُعِثتْ إلى عَرِيب وأمرها أن تغنّى فيها . قال علىّ بن الجهم : فتحيّرتُ والله وتقلّبت خواطرى، فوالله ما قَدَرتُ على حَرْف واحدٍ أقوله .

وقال أيضا : غاضب المتوكل يوما محبوبة وهجرها ومنع جواريها جميعا من كلامها؛ثم نازعته نفسُه إليها وأراد ذلك، ثم نازعته العِزّة منها وامتنع من ابتدائها، وامتنعت من ابتدائه دَلالًا عليه لمحلّها منه. قال علىّ: فبكّرت إليه يوماً؛ فقال لى : يا علىّ، إنى رأيت البارحةَ فى نومى كأنّى صالحتُ محبوبة. فقلت : أقرّ الله عينَك يا أمير المؤمنين وأنامك على خير وأيقظك على سرور ! أرجو أن يكون هذا الصلح فى اليقظة . فبينا هو يحدّثنى وأحدّثه إذا بوصيفة قد جاءت فأسرّت إليه شيئا ، فقال: أتدرى ما أسرّت إلىّ هذه؟ قلت لا . قال: حدّثتنى أنها اجتازت بمحبوبة الساعة وهى فى حجرتها تغنّى، أفلا تعجب من هذا ؟ أنا مُغاضِبها وهى متهاونةٌ بذلك، لا تبدؤنى بصلح ثم لا ترضى حتى تغنّى فى حُجرتها؛ فقُمْ بنا حتى نسمع ما تغنّى. ثم قام وتبعته حتى انتهى إلى حجرتها، وإذا هى تغنّى :

أدورُ فى القصر لا أرى أحدًا * أشكو إليه ولا يكلّمنى
حتى كأنّى أتيتُ مَعْصِيةً * ليست لها توبةٌ تُخلّصنى
فهل لنا شافعٌ إلى مَلِكٍ * قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصّباحُ لاح لنا * عاد إلى هجره فصارمنى

فعجب المتوكل ، وأحسّتْ بمكانه فأمرتْ بخدمها فخرجوا وتنحّينا ، وخرجت إليه فحدّثته أنها رأته في منامها فانتبهت وقالت هذه الأبيات وغنّت فيها ؛ فحدّثها هو أيضا رؤياه واصطلحا . فلما قُتل المتوكل سَلاه جميع جواريه غيرها؛ فإنها لم تزل حزينةً هاجرة لكل لذّة حتى ماتت . ولها فيه مَراثٍ .

حكى أبو الفرج : أنّ وَصيفًا بعد قتل المتوكل أحضرها يومًا وأحضر الجوارى، فجئن وعليهن الثياب الملونة المُذْهَبة والحُلِيّ وقد تزيّنّ وتعطّرن، وجاءت محبوبةُ وعليها ثيابٌ بِيض غير فاخرة حزنًا على المتوكل . فغنّى الجوارى جميعًا وشَرِبن، وطَرِب وصيف وشَرِب . ثم قال : يامحبوبة، غَنّى؛ فأخذت العود وغنّت وهى تبكى :

أىُّ عيشٍ يَطِيبُ لى * لا أرى فيــه جعفرا
ملِـكًا قــد رأته عيـ * ـنى قَتِيــلًا مُعفَّرا
كلُّ من كان ذا هُيا * مٍ وحُـــزن فقد برَا
غــير محبـــوبة التى * لو ترى الموتَ يُشتَرى
لاشـــترته بملكِها * كلّ هــذا لتُقبَرا
إنّ موتَ الكئيبِ أصـ * ـلحُ مِنْ أن يُعمَّرا

فاشــتدّ ذلك على وصيف وأمر بقتلها ؛ فاســتوهبها بُغَا منــه فوهبها له . فأعتقها وأمر بإخراجها وأن تكون حيث تختار من البلاد . فخرجت إلى بغــداد من سُرَّ مَنْ رأَى، وأخملت ذكرها طول عمرها؛ وما طمِع فيها أحد . رحمها الله تعالى .

---

## ذكر أخبــار عُبَيْدة الطُّنْبوريّة

قال أبو الفرج الأصفهانى : كانت عُبَيدة الطُّنْبوريّة من المحسنات المتقدّمات فى الصَّنْعة والأدب، شهد لهــا بذلك إسحاق بن إبراهيم الموصــلىّ؛ قال : وحسْبُها

بشهادته . قال : وكان أبو حشيشة يعظّمها و يعترف لهـا بالرياسة والأسـتاذيّة . وكانت من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم صوتا ، وكانت لا تخلو من عشق . قال : ولم يُعْرَف فى الدنيا آمرأةٌ أعظم صنعةً منها فى الطُّنبور . وكانت لها صنعة عجيبة . فمنها فى الرمل :

كُنْ لى شفيعًا إليكا * إن خَفّ ذاك عليكا
وأعفِنِى من سُـؤالى * سـواك ما فى يديكا
يا مَنْ أُعِزُّ وأهوَى * مالِى أهونُ لديكا

قال : وحضرت يومًا عند علىّ بن الهيثم اليزيدىّ وعنده عمرو بن مَسْعَدة وهارون بن أحمد بن هشام ؛ فجاءه إسحاق بن إبراهيم الموصلى فأخبره خبرهم . فقال له إسحاق : إنى كنتُ أشتهى أن أسمع عُبَيْدة ، ولكنها إن عرفَتْنى وسألتمونى أن أغنّى بحضرتها آنقطعتْ ولم تصنع شـيئا ، فدعوها على جِبِلّتها(١) ، فوافقوه على ذلك ، ودخل وكتموها أمره ، وكانت لا تعرف إسحاق . وقُدِّم النبيذ ، فغنّت لحنًا لها :

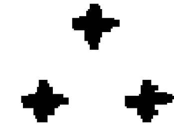
قَرِيبٌ غير مُقْتَرِبِ * ومُؤْتَلِفٌ كَمُجْتَنِبِ
له ودّى ولِى منـهُ * دَوَاعى الهَمّ والكرِبِ
أُواصِـلُه على سَبَبٍ * ويهجُرنِى بِلا سببِ (٥١)
ويظلمنى على ثقـةٍ * بأنّ إليه مُنْقَلَبى

قال : فطرِب إسحاق وشرب نِصْفا ، ثم تغنّت وشرب ، حتى وَالَى بين عشرة أنصاف ؛ قال علىّ بن الهيثم : وشربنا معه . وقام إسحاق ليصلّى ؛ فقال لها هارون : ويحك يا عُبَيدة ! ما تُبالين والله مَتَى مِتِّ ! قالت : ولم ؟ قال : أتدرين مَن المستحسِنُ غناءك والشاربُ عليه ما شرِب؟ قالت : لا والله . قال : إسحاق بن إبراهيم ، فلا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «فدعوها على حلتها» .

تُعَرِّفِيه أنك قد عَرَفتيه . فلما جاء إسحاق ابتدأت تغنّى فلحِقتها هيبةٌ له واختلاط، فنقصتْ نقصاناً بَيِّناً . قال: أعرَفتموها من أنا؟ فقلت: نعم، عرّفها هارون . فقال إسحاق : نقوم إذًا فننصرف؛ فإنه لا خير فى عِشرتكم الليلةَ ولا فائدةَ لى ولا لكم؛ وقام فانصرف .

وقال مُلَاحظ غلام أبى العبّاس : اِجتمع الطُّنْبوريّون عند أبى العباس بن الرشيد يومًا وفيهم المَسْدُود وعبيدة . فقالوا للمسدود : غَنّ؛ فقال : لا والله، لا تقدّمتُ على عبيدة وهى الأستاذ؛ فما غنّى حتى غنّت . وقال محمد بن عبد الله بن مالك الخُزَاعىّ : سمعت إسحاق يقول : الطنبور إذا تجاوز عُبَيدة هَذَيان .



هذا ما أمكن إيراده فى هذا الباب من أخبار مَن اشتهر بالغناء، وأخبار القيان، وهو مختصر مما أورده أبو الفرج الأصفهانى — رحمه الله تعالى — فى كتابه المترجم بالأغانى من أخبارهم . ولم نلتزم استيعابهم بل ذكرنا أكثرهم وأشهرهم بالغناء، وذكرنا من أخبارهم ما فيه كفاية . فلنذكر خلاف ذلك .

# الباب السابع

## من القسم الثالث من الفنّ الثانى

## فيما يحتاج إليه المغنّى ويُضطرّ إلى معرفته، وما قيل فى الغناء، وما وُصفت به القِيان، ووصف آلات الطّرَب

---

### ذكر ما يحتاج إليه المغنّى ويضطرّ إلى معرفته وما قيل فى الغناء والقيان من جيّد الشعر

قال مالك بن أبى السَّمْح : سألت ٱبن أبى إسرائيل عن المُحْسِن المصيب من المغنّين، فقال : هو الذى يُشبِع الألحان، ويملأ الأنفاس، ويُعدِّل الأوزان، ويفخّم الألفاظ، ويعرف الصواب، ويُقيم الإعراب، ويستوفى النَّغَم الطِّوال، ويُحسن مقاطع النَّغَم القصار، ويُصيب أجناس الإيقاع، ويختلس مواضع النَّبَرات، ويستوفى ما يشاكلها من النَّقَرات . فعرضتُ ما قال على مَعْبَد، فٱستحسنه وقال: ما يقال فيه أكثر من هذا . وقد رُويتْ هذه المقالة عن ابن سُرَيج. وقال إبراهيم الموصلىّ : الغناء على ثلاثة أضرب : فضربٌ مُلْهٍ مطوبٌ يحرِّك ويَستخِفّ، وضربٌ ثانٍ له شَجًى ورقّة، وضربٌ ثالث حكمة وإتقان صنعة . وقال : كان هذا كله مجموعا فى غناء ابن سُرَيج . وقال أبو عثمان الناجم : بُحُوحة الحَلْق الطيِّب تُشبه مَرَض الأجفان الفاترة .

* * *

وأمّا ما قيل فى الغناء وما وصفت به القِيان .

حكى أنّ بعض المُحْدَثين سمع غناءً بخُراسان بالفارسيّة، فلم يَدْرِ ما هو غير أنه شوقه لشجاه وحُسْنه؛ فقال فى ذلك، وقيل إنه لأبى تمّام :

حَمِدْتُكِ ليلةً شَرُفَتْ وطابت * أقام سُــهادُها ومضى كَرَاها
سمعتُ بها غِنـاءً كان أولَى * بأن يقتـادَ نفسى مِن عَنَاها
ومُسمِعةٍ يحـارُ السّمْعُ فيهـا * ولم تُصْمِمْهُ، لا يَصْمَمْ صَدَاها
مَرَتْ أوتارَها فشفَتْ وشاقتْ * فلو يَسـطِيع حاسـدُها فَدَاها
ولم أفهمْ مَعَانِيَها ولكنْ * ورتْ كَبِدى فلم أجهلْ شجاها (٥٢)
فكنتُ كأنّنى أعمَى مُعَنًّى * بحبّ الغـانياتِ وما رآهـا

وقال كُشَاجِم فى بُحّة حَلْق المغنّى :

أشتهى فى الغناء بُحّــةَ حَلْقٍ * ناعمِ الصوتِ مُتْعَبٍ مَكدودِ
كأنينِ المُحِبِّ أضعفه الشو * قُ فضاهَى به أنينَ العُــودِ
لا أُحِبُّ الأوتار تعلو كما لا * أشتهى الضربَ لازمًا للعمودِ
وأُحِبّ المخنّــبات (١) كحبّى * للبـادى موصولةً بالنّشـيدِ
كهُبوب الصَّبا توسّط حالًا * بين حالَينِ شِـــدّةٍ وركُود

وقال الناجم :

شَدْوٌ ألذُّ من ابتدا * ءِ العَـينِ فى إغفائها
أحلَى وأشهَى من مُنَى * نَفْسٍ وصِدْقِ رجائها

وقال محمد بن بشير :

وصوتٍ لبنى الأحرا * رِ أهلِ السِّيرةِ الحُسْنَى
شَجٍ يسـتغرق الأوتا * رَ حتى كلُّها تفنَى
فما أدرى اليدُ اليُسرَى * به أشقَى أم اليُمنَى؟

(١) فى ديوان كشاجم طبع بيروت وفى نسختين مخطوطتين منه أيضا محفوظتين بدار الكتب المصرية : « وأحب المجنبات » .

وقلنــا لمغنّيــه * وقــد غنّى على المثْنَى
ألَا يا ليتَ هذا الصو * تَ حتى الصُّبْحِ لا يفْنَى
فقــد أيقظَتِ اللذّا * تُ عينًا لم تزل وَسْنَى
وما أفهــم ما يعــنِي * مُغنّيــهِ إذا غــنّى
ولكنّى مِن حُبِّى * له أســتحسن المعنَى

وقال الثّعالبىّ :

غناؤك يهْزِم جيشَ الكُروبِ * وعيناك للناس عُذْرُ الذنوبِ
فويلُ القُلوبِ إذا ما رَنَوْت * وإمّا شَدَوْت فويلُ الجُيوب

وقال أيضا :

وسائلةٍ تسائل عنــك قلنــا * لها فى وصفك العَجَبَ العَجيبَا
رَنَا ظَبيًا وغَــنَّى عَنْــدَلِيبًا * ولاحَ شَــقَائقًا ومَشَى قَضِيبا

وقال عُكاشة يصف قَيْنة :

مِنْ كَفّ جاريةٍ كأنّ بَنانَهــا * من فِضّــةٍ قد طُــرِّفَتْ عُنّابا
وكأنّ يُمْنــاها إذا نطقتْ به * تُلْقِى على يدها الشِّمالِ حِسَابا

وقال ابن الرومىّ :

وقِيانٍ كأنهــا أمّهاتٌ * عاطفاتٌ على بَنِيهــا حَوَانِى
مُطْفِلات وما حَمَلن جَنِينًا * مُرْضِعات ولسن ذاتَ لِبَانِ
كلُّ طِفْلٍ يُدْعَى بأسماء شتّى * بين عُــودٍ ومِزْهَرٍ وكِرانِ (١)
أمّه دهرَها تُتَرجِــمُ عنــه * وهو بادى الغِنَى عن التَّرْجمانِ

(١) فى الأصل : « ذكران » وهو تحريف .

وقال أيضا :

كأنما رِقَّـةُ مسموعِها * رِقَّةُ شكوى سبقتْ دمْعَهْ

غنّتْ فلم تَحتجْ إلى زامرٍ * هل تُحْوِجُ الشمسُ إلى شَمْعَهْ

كأنما غنّت لشمسِ الضُّحَى * فألبستها حُسْنَها خِلْعَـه

وقال الناجم :

ما صدحتْ عاتِبٌ ومِزْهَرُها * إلّا وثِقنا باللّهْـو والفَـرَجِ

لها غِناءٌ كالبُرْءِ فى جَسَـدٍ * أضناه طولُ السَّقامِ والتَّرَجِ

تعبُدها الرّاحُ فهى ما صَدَحتْ * إبريقُنا ساجدٌ على القَـدَحِ

وقال أيضا :

ما تغنّت إلّا تكشّف همٌّ * عن فُؤادٍ وأقشعتْ أحـزانُ

تفضُلُ المُسْمِعين طِيبًا وحُسْنًا * مثلَ ما يفضُلُ السّماعَ العِيانُ

وقال أبو عُبادة البُحْتُرِىّ :

وأشارتْ على الغِناءِ بألحـا * ظِ مِراضٍ من التّصابِى، صِحاحِ

فطَرِبْنا لهنّ قبلَ المَثانِى * وسَكِرنا لهنّ قبلَ الراحِ

وقال كشاجم وهو أبو الفتح محمود :

أفدِى التى أهدتْ لنـا * شمسَ الضُّحَى والليلُ حالِكْ

مملوكةٌ جلّتْ فليـ * ـس تَفِى بقيمتِها المَمالِكْ

عرضتْ فأعطتْ عُودَها * ضَرْبًا يُعَرِّضُ للهالِكْ

وتَبِعتُها فتصرّفتْ * بالضَّرْبِ فى كلّ المسالِكْ

ويئستُ من إدراكِها * فجعلتُ صوتى عند ذلك :

قَصُرَتْ يدِى عنكَ الغدا * ةَ، فكيف لى بيدٍ تنالُكْ

وقال أيضا :

بدتْ فى نِسوةٍ مثـل آلـ * ـمَهَا أُدْمِجْنَ إدماجا
يُحَاذِبْنَ مِنَ الأردا * فِ كُثْبَاناً وأمواجا
ويسـترن من الأبشا * رِ فى الدّيبـاج دِيبـاجا
وقُضْباناً مِنَ الفِضّـ * ـةِ قـد أثمرت العاجا
وقـد لاثَتْ من الكور * على مَفْـرِقها تاجا
فلمـا طُفْنَ بالمجلـ * ـس أفرادًا وأزواجا
تجـاوَبْنَ فغنَّيْنـ * ـكَ أرمالًا وأهْزاجا
وحرّكن من الأوتا * رِ إمسـاكا وإدماجا
فـلا لومَ عـلى قلبـ * ـكَ إن هُيِّـجَ فاهتاجا

وقال علىّ بن عبد الرحمن بن يونس المنجّم فى عوّادة :

غنّتْ فأخفتْ صوتَها فى عُودِها * فكأنمـا الصوتانِ صوتُ العود
غيـداءُ تأمر عودَها فيُطيعُها * أبدا ويَتْبَعُها اتّبـاعَ وَدُود
أنْدَى من النُّوّارِ صُبْحًا صوتُها * وأرَقُّ من نَشْرِ الثّنَـا المعهـودِ
فكأنما الصوتانِ حينَ تمازَجا * ماءُ الغمامةِ وابنـةُ العنقـودِ

وقال أبو عَوْن الكاتب :

تشـدو فيرقُصُ بالرءو * سِ لها ويَزمُرُ بالكئوس

وقال الناجم :

طفِقتْ تُغَنِّينا فخِلْنا أنّها * لسرورنا بغنائهـا تَعْنِينا

وقال أبو هلال العسكرىّ :

وهيّجتْ لِىَ من شجْوٍ ومن فَرَحٍ * أيْدٍ نَقرْنَ على الأوتارِ عُنّابا
لاعيبَ فى العيش إلا خوفَ غَيْبتِكم * إنّ السرورَ إذا ما غِبتمو غابا

وقال هارون بن علىّ المنجّم :

غُصُنٌ على دِعْصٍ نَقًا مُنْهالِ * سعَى بكأسٍ مثـل لمَع الآل
وفاتنات الطَّـرْفِ والدَّلالِ * هِيفِ الخُصورِ رُجَّحِ الأكفالِ
يأخُذْنَ من طرائف الأرْمالِ * ومُحْكَم الخفافِ والثِّقالِ
تجرِى مع النّاس بلا آنفصالِ * مثلَ آختلاط الخمــر بالزُّلالِ
تدعو إلى الصَّـبْوةِ كلَّ سالِ * تَصْرَعُ كلَّ فاتِكٍ بَطّالِ
بين حَـــرَامِ اللّهوِ والحلالِ * أكرمُ من مَصارِعِ الأبطالِ

وقال شاعر يذمّ مُغَنِّيًا :

ومُغَنٍّ باردِ النَّغْـ * ـمةِ مُخْتَلِّ اليَـدَيْنِ
ما رآه أحــــدٌ فى * دار قــومٍ مرّتين
صــوتُه أقطع لِلـذّ * ـاتِ من سَطْوةِ بَيْنِ

وقال آبن الرومىّ :

فظلْتُ أشربُ بالأرطالِ لا طَرَبًا * عليـــه بل طَلَبًا للسُّكْرِ والنَّوْمِ

---

## ذكر ما قيل فى وصف آلات الطرب

فمن ذلك ما وُصِف به العود . نظم أبو الفتح محمود المعروف بكُشاجم قول الحكماء : إنّ العود مُرَكّب على الطبائع الأربع ، فقال :

شَدَتْ فخِلْتُ أسماعَنا بمُخَفَّفٍ * يُحَدِّثُها عن سرِّها وتُحَـدِّثُهْ
مُشاكِلةٌ أوتارُه فى طِبَـاعها * عَناصِرَ منها أحدثَ الخَلْقَ مُحْدِثُهْ(١)
فللنار منه الزِّيرُ والبَمّ أرضُـه * وللــريح مَثْناه وللماءِ مَثْلَثُـهْ

---

(١) فى ديوان كشاجم : « ألف الخلق » .

وكلُّ امرئٍ يرتاح منه لنغمةٍ * على حَسَب الطَّبْع الذى منه يبعثُهْ
شكا ضَرْبَ يُمْناها فظَلَّتْ يَسارُها * تُطَوِّقه طوراً وطوراً تُرَعِّثُهْ
فما بَرِحتْ حتى أرتْنا مُخارِقاً * يُجَاوِبُه فى أحسن النَّقْر عَثْعَثُهْ
وحتى حسبت البابِلِيَّيْنِ(١) ألقيا * على لفظها السِّحْرَ الذى فيه تَنفُثُهْ

وقال آخر :

جاءتْ بعُودٍ تُناغِيه فيُسْعِدُها * أُنظُرْ بدائعَ ما تأتى به الشَّجَرُ
غنّتْ على عُودِه الأطيارُ من طَرَبٍ * رَطْباً، فلما ذَوَى غنّت به البَشَرُ
فلا يزال عليه أو بِهِ طَرَبٌ * يَهِيجُه الأعجمان : الطيرُ والوتَرُ

وقال آخر :

سقى الله أرضاً أنبتت عودكَ الذى * ذكتْ منه أنفاسٌ وطابت مَغَارِسُ
تغنّت عليه الوُرْقُ والعُودُ أخضرٌ * وغنّت عليه الغِيدُ والعودُ يابِسُ

وقال آخر :

لا تحسِبِ العودَ إن غنّتك شادنةٌ * جاءتك بالطَّيْف فيه نَغْمةُ الوَتَرِ
وإنما الطيرُ ألقتْ عنده خَبَراً * فعذّبوه فنَمّ العودُ بالخبرِ

وقال آخر :

فكأنه فى حِجْرها ولدٌ لها * ضَمّته بين تَرائبٍ ولَبانِ
طَوْراً تُدَغْدِغُ بطنَه فإذا هفا * عَرَكتْ له أُذُناً من الآذانِ

وقال الناجم :

إذا احتضنت عودَها عابث * وناغته أحسنَ أن يُعْرِبا
تُدَغْدِغُ فى مَهَلٍ بطنَهُ * فيُسْمِعُنا مُضْحِكاً مُعْجِبا

(١) يريد هاروت وماروت اللذين ورد ذكرهما فى القرآن الكريم .

وقال الحمدونى :

وناطقٍ بلسانٍ لا ضميرَ له * كأنه فَخِذٌ نِيطتْ إلى قَدَم
يُبْدِى ضميرَ سواه فى الحديث كما * يُبْدِى ضمير سواه الخطُّ بالقلم

وقال كشاجم :

جاءت بعودٍ كأنَّ نغْمتَهُ * صوتُ فتاةٍ تشكو فِراقَ فتَى
مُخَفَّفٌ خَفّت النفوسُ به * كأنما الزَّهْرُ حولَه نَبَتا
دارتْ مَلَاوِيه فيه واختلفت * مثلَ اختلاف الكَفَّيْنِ شُبِّكا
لو حَرَّكتْه وراء مُنْهَزِمٍ * على بَرِيدٍ لَعَاجَ والتفتا
ياحسنَ صَوْتَيْهما كأنَّهما * أُختان فى صَنْعةٍ تَراسلتا
وهو على ذا ينوبُ إن سَكَتتْ * عنها، وعنه تنوب إن سكتا

وقال أيضا :

وجاريةٍ مثلِ شمسِ النهارِ * أو البَدْرِ بين النجوم الدَّرارى
أتتك تَميسُ بقَدِّ القَضيبِ * وترنو بعينِ مَهَاةِ القِفَار
وتَرْفُلُ فى مُصْمَتٍ أبيضٍ * تلوّن من خَدِّها الجُلَّنَارى
وتحمِلُ عودًا فصيحَ الجواب * يُشارِكُ أرواحَنا فى المَجَارى
له عُنُقٌ كذراع الفتاةِ * ودَستانةٌ بمكان السِّوَارِ
فجادتْ عليه وجادتْ له * بعَسْفِ اليمين ولُطْفِ اليَسَارِ
فما أمهلتْه ولا نَهْنَهَتْه * من الظُّهْر حتى تَقَضَّى النهار
ولمّا تغنّتْ غِناءَ الوَدَاع * بكيتُ وقلتُ لبعض الجوارى :
لئن عِشْتُ عند هزار اللِّقاء * لقد مُتُّ عند هزار الإزار

وقال أيضا :

وكثـــيرةِ النَّغَمات تحسَــبها * فى كلّ عُضْوٍ أوتيَتْ حلَقا
غنَتْ فظلتُ إخالُنى طَــرِبًا * أسمو إلى الأملاك أو أرقَى
وتكلّمتْ أوتارُهــا فأنـــا * فيهــا أُخَـــبِّرُ بالذى ألقى
تحكِى أنينى وهى شاكيـــةٌ * ممـا أُجِنّ وتشـــكى عِشقا
وترى لهـا عـــودًا تُعـانِقُهُ * وكلامـــه وكلامهـا وَفْقـا
لو لم تُحَـــرِّكْهُ أنامِــلُها * كان الهـــواء يُفيـــده نُطْقا
جَسّـــته عالمـــةً بحالتـــه * جَسَّ الطبيب لمُدْنَفٍ عِرْقا
فحسِبت يمناها تحـــرّكه * رَعْـــدًا، وخلتُ يسارَها بَرْقا

وقال أيضا :

تَمِيسُ من الوَشْى فى حُلّةٍ * تُجرّر من فضل أذيالهـا
وتحمل عـــودًا فصيحَ الجواب * يُضاهِى اللُّحُــونَ بأشـــكالها
له عُنُقٌ مثـــلُ ساق الفتـاةِ * ودَســـتانهٌ مثـــلُ خَلْخالها
فظلّتْ تُطـارِح أوتـــارَهُ * بأهـــزاجهـا وبأرمالهـا
وتعمَـــل جَسًّا لجَسّ العروق * وتَـــلوِى المَلاوِى بأمثالهـا

وقال آخر يصف الطُّنبور :

مُخْطَفُ الخَصْرِ أجـــوفُ * جِيـــدُه نصفُ سائِرهْ
أنطقتْـــه يَـــدَا فـــتًى * فاترِ اللّحـــظِ ساحـــرِهْ
فجَـــلا عن ضميـــره * ما حَـــوَى فى خواطـــرِهْ

وقال سيف الدين المشدّ فى دُفّ :

وطاريةٍ قَـرَعتْ طارَهـا * وغنّت عليه بصوتٍ عجيبِ
فعاينتُ شمسَ الضُّحَى أقبلتْ * وبَدْرٌ تقَـدّمها عن قريبِ

وقال أيضا يصف شبّابة :

وعاريةٍ من كلّ عيب ، حبيبةٍ * إلى كل قلب بات بالبين مجـروحا
لهـا جسـدٌ ميْتٌ يعيش بنفـخةٍ * متى داخلته الريحُ صارت به رُوحا
تُعيـــد الذى يُلْقَى عليهـا بـلذّةٍ * تَزِيد فـؤادَ الصّبّ وجدًا وتبريحا
وتنطق بالسحر الحلال عن الهوى * وتُوحى إلى الأسماع أطيَبَ ما يُوحَى

# القسم الرابع من الفنّ الثانى

## فى التهانى والبشائر والمراثى والنوادب والزهد والتوكل والأدعية

وفيـه أربعـة أبـواب

# البـاب الأوّل

## من هذا القسم فى التهانى والبشائر

والتهانى تنقسم إلى قسمين وتنحاز فى جهتين : خصوص وعموم . فالخصوص هو ما يتعلّق بالرجل من مَنْصِب يليه ، ونعمةٍ تواليـه ، وولد رُزِقه ، وشـفاء من مرض أقلقه وأرّقه ، وقدوم من سَفَر ، وزواج قضى به الأرَب والوَطَر . والعموم هو ما يتعلّق بالجمهور ، ويتساوى فيه الملك والمملوك والآمر والمأمور : من انصباب (٥٦) غيث عمّ الرُّبا والوِهاد ، وجَرَيانِ نيل شَمِل برِيِّه البلاد وآمن العباد ؛ وهزيمة عدوّ زاد فى عُدْوانه وتمادى فى طُغْيانه ، وفتوح حِصْن أمِن أهلُه بتشييد أركانه وإتقان بنيانه .

## ذكر شيء ممّا هُنِّئ به وُلاة المناصب

كتب بعض الفضلاء تهنئة بخلافة فقال :

أمّا بعد ، فإن أولى النعم بالدوام ، وأرجاها للبقاء والتمام ، وأجْدرها بالخلود ، وأقربها إلى المزيد ، وأحراها بالسلامة على نوب الأيام وتصاريف الأحداث ، نعمة نشأت بفِنائه ، وسكنت ذَرَاه فحمِدتْ مثواه ، وساسها أولياؤها بحسنِ المجاورةِ وكرم المصاحبة سياسةَ الحانى الشفيق ، وكَفَلوها كفالةَ الحَدِب الرفيق ؛ فنَمَتْ وتَمّتْ ، وخَصّتْ وعَمّتْ ؛ ثم اعترضها من ريب الزمان ما هاج سَوَاكِنَها ، وأزعج كَوَامنَها ؛

وأصارها إلى الوحشة بعد الأنس، والنُّفْرة بعد الإلف، تتقلقل تقلقلَ العوادِى، وتَشْرُد شرودَ الضوالّ، لافظةً لها الأقطار ونابيةً بها المحالّ؛ إلى أن أعادها الله تعالى بلُطفه إلى مَغْناها المعروف، ورَبْعها المألوف؛ وآستقرّت بعد الآضطراب، وفاءت بعد الآغتراب. وتلك نعمة الله عند سيِّدنا أمير المؤمنين، لما جدّد له من كرامته، وآصطفاه له من خلافته، وطوّقه إياه من إمامته؛ وردّه إليه من تدبير الملك، وآعتمد عليه من سياسة الأنام؛ فأحيا به السُّنَن القاصرة، وأزال به الرسوم الجائرة؛ ونَهج به سبيل العدل، وأقام به منار الفضل.

وقال طُرَيح بن إسماعيل الثَّقَفى فى المنصور لما أفضت الخلافة إليه:

لما أتى الناسَ أنّ مُلْكَهُمُ * إليك قد صار أمرُه سجدوا
وآستبشروا بالرضا تَبَاشُرَهم * بالخُلْد لو قيل إنهم خَلَدوا
كنتُ أرى أنّ ماوجدتُ من الفرْ * حة لم يلقَ مثلَه أحَدُ
حتى رأيتُ العبادَ كلَّهُمُ * قد وجدوا فيك مثلَ ما أجِد
قد طلب الناسُ ما بلغتَ فما * نالوا ولا قاربوا ولا جَهَدوا
يرفعك الله بالتَّكَرُّم والتق * وى فتعلو وأنت تقتصد

وقال زيد السِّنْدى يهنئ الوزير يعقوب بن كِلِّس بوزارة العزيز بمصر:

إنّ الوزارةَ لم تَزَلْ بك صَبَّةً * تهواك لم يخطُر سواك ببالها
خُطِبتْ فلم تُعْطِ القِيادَ لطالبٍ * وأبَتْ على طُلّابها بِوِصالها

وقال آبن بشر الصِّقِلّى الكاتب يهنئ الحسن بن إبراهيم التُّسْتَرى بوزارة مصر، وقد وَزَر للمستنصر فى سنة أربع وخمسين وأربعمائة:

بيومك طارتْ فى البلاد البشائرُ * وطابتْ بمرجوع الحديث المحاضرُ
وأصبحتِ الأمصارُ أمْنًا وغِبْطةً * أسِرّتُها مُهْتَزّةٌ والمنابرُ
وقام خطيبُ الحمدِ فى كل مَوْقِفٍ * يُعَدِّد ما تُمْلِى عليه المآثرُ

ومنهـا :

لقد عاشرتْ منك الوزارةُ ماجداً * له كَنَفٌ لا يَحتـويه المُعَاشِرُ
فسيحُ آمتـدادِ الظِّلِّ بين رِحَابه * وبين المعـالى آهـلُ الرَّبع عامرُ
"فألقتْ عصَاها وآستقرّ بها النَّوَى * كما قَـرّ عيْنًـا بالإياب المسـافرُ"
وما زلتَ ملحوظًا لهـا ومُؤَهَّـلًا * لِذا الأمرِ مذ شُدّتْ عليك المآزر (٥٧)

وقال آخر :

كُلّمـا رمتُ أن أُهنِّيك وقتاً * بمَحَـلٍّ من العُـلا ترتقيه
شِمتُ مقدارك الذى أعجز الوا * صفَ أعلى من الذى أنت فيه

وكتب الحمدونى أخو صاحب التّذكرة يُهنِّئ بالسلامة من حريق وقع فى دار الخلافة :

الدّنيا — أعزّ الله أنصارَ الخدمة الشريفة — دارُ الامتحان والاختبار، ومجاز الابتلاء والاعتبار؛ ولله فيما نَزّله فيها إلى عباده من نِعَمه، وتخوّلهم من مَوَاهبه وقِسَمه، عاداتٌ يقتضيها بالغُ حكمته، وماضى إرادته ومشيئته؛ ليستيقظ الذاهل، و يعترف الجاهل؛ و يزداد العالم اللبيب آعتبارا، و يستفيد العاقل الأريب تفكُّرا وآستبصارا؛ فلا يغفُل عن واجب الشكر إذا سِيقتْ النعمةُ إليه، ولا يلهو عن آستدعاء المزيد منها بالاعتراف إذا أُسْبِغتْ عليه؛ وهو أن البارى سبحانه إذا تابع آلاءه إلى عبد ووالاها، [وجرّدها][1] له من الشوائب وأخلاها؛ أماط عن مَشَاربها أكدارَ الدنيا المطبوعة على الكَدَر، وغَمَر مسارّها بالأمْن من طوارق الغيَر؛ خِيف عليها الآنتقاض والزوال، وتُوُقِّع لهـا الآنتهاء والآنتقال . ومن ذلك الخبر المروىّ : أنه لمـا أنزل الله تعالى (اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) آبتهج الصحابة رضى الله تعالى عنهم إلا عمر بن الخطّاب رضى الله عنه فإنه بكى . فقالوا :

(١) زيادة يقتضيها سياق الكلام . ولعل هذه الكلمة أو ما فى معناها سقطت من الناسخ .

ما يُبْكيك وقد أكمل الله لنا ديننا برحمته ، وأتمّ لنا سابغ نعمته ؟ فقال : يُبكيني أنه ماتمّ أمرٌ إلا بدا نقصُه . فقُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريب . وإذا كانت مشوبة برائع يتخلّل صَفْوَها ، وطارقٍ يجْهَم فى بعض الأوقات عَفْوَها (١) ؛ كان ذلك صارفًا عنها عينَ الكمال ، مُؤذِنًا بطول الآجال ؛ حاكمًا لهـا بتراخى عمر البقاء ، دالًّا على الصعود بها إلى دَرَج المُكْث الطويل والارتقاء ؛ وحكمه حكمُ المرض الذى تَصِحّ به الأجساد ، وتُمَحِّص ذنوبُ من يُسلَّط عليه من العباد :

فلا يُبْهِج الأعداءَ سوءُ ظنونهم * فللّه صُنْعٌ فى الذى ساء ظاهرُ
فكم طالب شيئًا به الشرُّ كامنٌ * وكم كارهٍ أمرًا به الخيرُ وافرُ

فللّه الحمد الذى جعل ما جرت به الأقدار من الألم الواقع ظاهرُه ، الوجِل لوقعه ناظرُه ؛ لعنايته جلّت عظمته عُنْوانا ، وعلى دوام نعمته دليلًا واضحًا وبرهانا . وإليه الرغبة فى أن يجعل الديارَ وساكنيها ، والنـاس فى أقاصى الدّنيا وأدانيها ؛ لشريف الحوزة التى بها صلاحُ العالم فداء ، وعنها للكروه وِقاء . فكل حادث مع دوام هـذه الأيام الزاهرة جَلَل ، وكل غَمْرٍ (٢) من نوائب الدهر مادافع لطفُ الله عنها وَشَل .

وقال أبو عُبادة البُحْتُرِىّ يهنّئ الفتح بن خاقان بسلامته من الغَرَق :

بعَدُوِّك الحَدَثُ الجليلُ الواقعُ * ولمن يُكايدك الحِمَامُ الفاجِـعُ
قلنا : لعًا لمّـا عَثَرْتَ ولا تزلْ * نُوَبُ الليالى وهى عنك رواجعُ
ولربّما عثَر الجـوادُ وشأوُه * متقـدّمٌ ونبا الحُسَامُ القاطعُ
لن تظفرَ الأعداءُ منك بزَلّة (٣) * واللهُ دونك حاجزٌ ومُدافِـعُ
إحدى الحوادث شارفتْك فردّها * صُنْعُ الإلهِ ولطفُه المتتابع

(١) العفو : الفضل والمعروف وخيار الشيء وأجوده .
(٢) الغمر : الماء الكثير . وفى الأصل : «وكل غم» وهو تحريف ، لأنه يريد المقابلة بينه وبين «وشل» بعده .
(٣) كذا فى ديوان البحترى . وفى الأصل : « إن تظفر » .

حتى برزتَ لنا وجأشُك ساكنٌ * من نجدة وضياءُ وجهك ساطعُ
ماحال لونٌ عنـد ذاك ولا هفَا * عزمٌ ولا راع الجـوانحَ رائع

وقال المتنبّي يهنّئ بعافية :

المجدُ عُوفِيَ إذ عُوفيتَ والكَرَمُ * وزال عنك إلى أعدائك الألَمُ
وما أُخُصّـك فى بُرْءٍ بتهنئـةٍ (١) * إذا سَلِمتَ فكلُّ الناس قد سَلِموا (٥٨)

ومما هنّئ به مَن اتّصل بزوجة ذات جمال وحسب، وأصالة وأدب .

وقلما تقع التهنئة بذلك إلا بين صديقين صَحّ بينهما الائتلاف، وسقطت بينهما مـؤونة الاحتشام، وتساويا فى الرتبة، واتّحدا فى الصحبة .

فمن ذلك ما كتب به الوزير أبو الحسن العامرىّ إلى بعض إخوانه وقد ابتنى بأهْل :

بأيْمَنِ طائرٍ وأتمّ سَـعْدٍ * يكون من الكريمين اجتماعُ

أمَا إنّه المجد اليَفاع، والحسن المُطاع، تعارفت الطباع، فالتأمت الأنفس الشِّعَاع؛ كما التقى الثُّرَيّان، واقترن النيِّرانِ ؛ كما حاصر الرئمَ الضيغم، وهاصر النسيمُ الغصنَ المُنَعّم؛ كما راق فوق المِعْطَف الصارم العَضْب، كما التقت الصهباء والبـارد العَذْب؛ بل كما فازت القِدَاح، ونُظِم الوِشاح، واعتنق شَنٌّ طَبَقه، واعتلق الرَّوض عَبَقه . فحبّـذا النَّسَب شابَكَه الصِّهْر، والحَسَب عاقده التُّقَى والبِرّ، على حين جرت الأيامِن، واكتُنِف الحَرَم الآمن . وبالبنين والرِّفاء، والنعيم والصَّفاء، والثروة والنماء والزمن الرَّغْد والعِـزّة القعساء الشمّاء؛ على الوِفاق، والوِئام والاتّساق ؛ والحظـوظ والجـدود، والفُسْطاط الممدود ، وهَصْر العيش الأُملود، والالتئـام وتتابُع البشرى بالفارس المولود . ومالى تأوّدتُ أعطافا، وتأنّقتُ أوصافا! وتَهلّلت جَذَلا، وبسطتُ فى الدعاء مَذِلا ! أهَنأنى الأرَب، أم صَفَا لى المَشْرَب (٢) ! وقد غِبت عن اليوم المشهود،

(١) كذا فى ديوان المتنبي . وفى الأصل : «وما أخصك فى قوت» . (٢) كذا فى الأصل .

وعَطَّلْت سُــدَّةَ الإذن للوفود، ولم أَقُمْ فى السِّماط، سافرًا عن وجه الاغتباط؛ أتلقّ الوالج بمبرور التحيّة، وأُقفّى الخارج بحكم السرور والأريحيّة؛ وأتخدّم رفعَ الوحى والإيمـاء، وأتقدّم من المصافاة والموالاة فى الغفير الجمّـاء، كلا ! ولا شهدت ليلة الزِّفاف، وما حلت من محاسـنها الأفواف؛ حيث دارت المنى سُـلَافا؛ وصارت العُلَا دَوْحةً ألفافا؛ وأبدى رَوْنَق السيف جِلَاء، وأبرز عقيلةَ الحىّ هِدَاء؛ هنالك حلّت النعماء، ونهلت الأظماء؛ فياله منظرًا، ووعدًا منتظرا؛ لو ناجيته من كَثَب، وكرعت منه فى المنهل الأعذب! بل! إنه وَقَع[(1)]، فشفى ونَفَع؛ والتركيب سَنَح، فنعم ما منح؛ أهداها حَمَلا، فكأنما أسداها أملا؛ أثلج الفؤاد، وأورَى الزِّناد، وَفَى بالنفس أوكاد؛ وفلتْ[(2)] عن قِراه، نفس جذلت بسراه، وأرجت لذكراه. ولله ما أحظاه مَقْـدَما وأعلاه فى الإحسان قَدَما، لو وهبت لمقتضاه من الكرامة دما. وقد كان فى الحق أن أهاجر، وأعصِى الناهىَ والزاجر؛ فابْسُطْ لى عُذْرا، وأعِدَّنى لك ذخرا، وطِبْ مَدَى الدهر خَبَرًا وخُبْرا.

وممـا هنِئَ به مَنْ رزقه الله ولدا وزاده به قوّة وعددا. فمن ذلك ما كتب به الأستاذ ابن العميد فى فصل يهنئ عضد الدولة بن بُوَيْهِ وقد وُلد له ابنان توءمان :

وصـل كتابُ الأمير بالبشرى التى أبت النعمةُ بهـا أن تقع مُفردة، وامتنعت العارفة فيها أن تَسْنح مُوحدة، حتى تيسرت مِنْحَتانِ فى وَطَن، وانتظمت مَوْهِبتانِ فى قَرَن، وطلع من النجيبينِ أبى القاسم وأبى كاليجار — أدام الله عِزَّهما — طالعَا مُلْك، ونجما سعد، وشهابا عِزّ، وكوكبا مجد؛ فتأهلت بهما رِباع المحاسن، ووُطِّئت لهما أكناف المكارم، واستشرفت إليهما صدورُ الأسِرّة والمنابر. وفهمته وشكرت

(١) فى الأصل: «دان» وهو غير واضح. (٢) وردت هذه الكلمة هكذا بالأصل ؟

الله تعالى شُكْرَ مَنْ نادى الامالَ فأجابته مُكَبَّة[1]، ودعا الأمانى بجَاءته مُصْحِبة[2]، وحمدته حمـدًا مكافِئا جسـيم ما أتاح وعظيم ما أفاد؛ وآكتنفنى من السرور ما فَسَح مناهج الغبطـة، وسهّل موارد البهجة؛ وأشعْتُ ما ورد إشاعةً شرحتْ صدور الأوليـاء (٥٩)
بمَسَارّها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مَقَارِّها؛ وسألت الله إتمام ما آذن[3] به الأميران السيِّدان من سعادة لا يهتـدى إليها الاختيار علوّا، ولا ترتقى اليها الأفكار سمـوّا؛ وسلطانٍ تضيق البحار عن آتساعه، وتنخفض الأفلاك عن آرتفاعه؛ ويُبَلِّغهما أفضلَ ما تقسِمه السعود، وتعلو به الجدود، حتى يستغرقا مع السابقين إخوتهما مساعِى الفضل، ويَشِـيدا قواعد الفخر، ويَزْجُرا صروف الدهر، ويَضْـبِطا أطرافَ الأرض، وهو تعالى قريب مجيب .

ومن كلام الوزير الفقيه أبى القاسم محمد بن الجدّ الأندلسىّ :

إنّ أحقّ ما آنبسط فيه للتهنئة لسان، وتصرّف فى ميادين معانيه بيان وبنان؛ أملٌ رُجّى فتأبّى زمانا، وآستُدْعِى فلَوَى عِنَانا؛ وطاردته الأمانىّ فأتعبها حِينا، وغازلته الهمم فأشعرها حنِينا؛ ثم طلع غيرَ مُرْتَقَب، وورَد من صحبة المناجح فى عسكرٍ لَجِب؛ وكان كالمشير إلى ما بعده من مواكب الآمال، والدليلِ على ماوراءه من كواكب الإقبال؛ أوكالصُّبح آفترّتْ عن أنوار الشمس مبَاسمه، والبرْقِ تتابعت إثرَوميضه غمائمه. وفى هذه الجملة مادلّ على المولود، المؤذن بترادف الحظوظ وتضاعف السعود. فياله نجمَ سعادة، طلع فى أُفق سِيادة؛ وغُصْنَ سَنَاء، تفرّع عن دَوْحة عَلَاء. لقد تهلّلت وجوه المحاسن باستهلاله، وأقبلت وفود الميامن لآستقباله؛ ونُظِمت له قلائدُ التَّمائم، من جواهر المكارم؛ وخُصّ بالثُّدِىّ الحَوَافِل، بلِبان الفضائل . وما كان مَنْبِت الشرف بإفراد

(1) فى الأصل : «بجعلته» . (2) مصحبة : منقادة .
(3) فى الأصل : «ما أدنا» .

تلك الأَرومة الكريمة إلا مُقْشَعِرّ الرُّبا، مُغْبَرّ الـثرى ، متهافت أغصان الرضا . فأمّا وقد اهتزّ فى أيكة السِّيادة قضيب، ونشأ من نِبْتة النَّجابة نجيب، فأَخْلِقْ بذلك المَنْبِت أن تعاوده نَضْرتُه ، وتَرِف عليه حَبْرته، ويُراجعه رَوْنَقُه وبهاؤه، وتضاحكه أرضه وسماؤه . فالحمد لله على ما أتاحه من انثناء الأمل من جِماحه، واختيال الجَذَل فى حَلْبة غُرَره وأوضاحه . وهو المسئول أن يهبك منه صَنَعا يحسُن فى مثله الحسد، ويُتَمَنّى لفضله النسلُ والولد، بعزّته .

وقال أبو هِلال العسكرىّ :

قــد زاد فى عدد الكرام كريمُ * مَحْضٌ صريحٌ فى الكرامِ صَميمُ
عَالِى المَحَــلّةِ لا يزال كأنه * للفرقدينِ وللسِّمَاكِ نديمُ
فلأمره التتميمُ كيف تَصَرّفتْ * حالاته ، ولشأنه التفخيــمُ
فابْشِرْ فقــد وافاك يومَ رُزِقْتَهُ * حظٌّ بتخليــد السرور زعيــمُ
فَرْعٌ تكفَّلَ دهرُه بتمامه * حتى يكرّ الدهرُ وهو أرُومُ
إنّ الهلال يصــير بدرًا كاملًا * ويُهَدُّ ســدّ الّليل وهو بهيــمُ
وهو الوجيه إذا تبــدّى وجهُهُ * وغـــدًا إذا نزل العظيمُ عظيم
فلأهـــله شَرَفٌ به مُتَوطّــدٌ * ولهـــم به شرفٌ أشمّ عميــمُ
فاقْــرَرْ به عينًا فإنّ خِلالَه * تصفو وتَسْلَس أو يُقال نسيــمُ
ولجَدّه التصميمُ حيث تَلاحقتْ * أقــرانُه ولشاوِه التَّقْـــديم

ومن كلام الصاحب بن عبّاد تهنئة ببنت : (٦٠)

أهلًا وسهلًا بعَقيلة النساء، وأُمّ الأبناء، وجالبة الأصهار، وأولاد الأطهـار، والمبشِّرة بإخوة يتنافسون، ونُجَباء يتلاحقون .

فلو كان النِّســاءُ كمثلِ هــذى * لَفُضِّلَت النِّســاءُ عــلى الرِّجال

وما التأنيثُ لاسْم الشمسِ عيبٌ * ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

فٱدَّرِعْ يا سيِّدى ٱغتباطا، واستأنف نشاطا؛ فالدنيا مؤنّثة والرجال يخدُمونها، والذكور يعبدونها؛ والأرضُ مؤنّثة ومنها خُلقت البرية؛ وفيها كثُرت الذُّرِّيّة؛ والسماء مؤنّثة وقد تَزَيّنت بالكواكب، وحَلِيَتْ بالنجم الثاقب؛ والنفس مؤنّثة وهى قِوام الأبدان، ومِلاك الحيوان؛ والجنّة مؤنّثة وبها وُعِد المتّقون، وفيها ينعَم المرسلون. فهنيئًا هنيئًا ما أُولِيت، وأوزعك الله شكرَ ما أُعْطِيت؛ وأطال بقاءك ما عُرِف النسلُ والولد، وما بَقِى الأبد، وكما عُمِّر لُبَد.

ومن كلام أبى المكارم بن عبد السلام من شعراء الخريدة:

هذا شُعَيبٌ النبىّ بٱبنته صَفُوراء ٱستأجر موسى كليم الله. وهذا سيِّد المرسلين، أبقى الله بفاطمة ٱبنته نسلَه إلى يوم الدِّين. وهذه أُمّ الكتاب سُمِّيت الفاتحةَ، وهى لأبواب مُناجاة الرحمن فاتحة. وهذه مُحْكَمات القرآن، بها ثبتت شرائع الإيمان. وهذه سورة النساء وسُمِّيت بهنّ وهى من الطِّوال، ولا سورةَ من القِصار سُمِّيت بالرجال. على أنّ الدّنيا بأسرها مؤنّثة والملوكُ من خُدّامها، والشَّمسُ مؤنّثة والضِّياءُ والبهاءُ من تَمامها؛ والنفس تؤنّث وبها فُضِّل الناس، والحياة تؤنّث وهى أساس الحواس؛ والعين تؤنّث وبها يُتَوسّل الى علم الدقائق؛ واليد تؤنّث وهى المتصدّية لتحبير الأشياء، والعَضُد تؤنّث وبها ٱستعانة سائر الأعضاء؛ والسماء تؤنّث وهى تُزْجِى الأمطار، والأرض تؤنّث وهى مجمع أطايب الثّمار، والجنّة تؤنّث وبها وُعِد الأبرارُ الأخيار؛ والعين (أعنى الذهب) تؤنّث وبها يُدْفَع المُلْك، والقَوْس تؤنّث وبها عزّ المُلْك.

ومما هُنِّئَ به فى المَوَاسم والقدوم — قال ٱبن الرومى تهنئة بعيد الفطر:

قد مضى الصَّوْمُ صاحبًا محمودا * وأتى الفِطْرُ صاحبًا مَوْدُودا
ذهب الصَّوْمُ وهو يَحْكِيك نُسْكًا * وأتى الفطرُ وهو يَحكيك جودا

وقال آخر :

رأى العيدُ وجهَك عِيدًا له * وإن كنتَ زدتَ عليه جَمالَا

وكَبَّر حينَ رآكَ الهلالُ * كفعلِكَ حين رأيتَ الهِلالَا

رأى منكَ ما منـه أبصرتَه * هِـلالًا أضاء ووجهًا تَلَالَا

وقال ابن الرومي يُهنِّئ بعيد أضحى وهو يوم نَوْرُوز :

عِيدَانِ : أضحى ونَوْرُوزٌ كأنهما * يومَا فعالِك من بُؤْسٍ وإنعـامِ

كذاكَ يَوْمَاكَ : يومٌ سَيْبه دِيَمٌ * على العُفَاةِ ، ويومٌ سيفُه دامِي

وقال أبو إسحاق الصّابي :

يا سيِّدًا أضحى الزما * نُ بأُنْسِه منه رَبِيعا

أيامُ دَهْرِكَ لم تَزَلْ * للنّاس أعيادًا جميعا

حتى لأوشـك بينَها * عِيدُ الحقيقة أن يضيعا

وقال الشّريف الرَّضِيّ تهنئةً بقُدوم :

(٦١) قَدِمَ السّرورُ بقَدْمةٍ لك بَشَّرتْ * غُرَرَ العـلا وعَوالِيَ التِّيجانِ

قَلِقَتْ ظُبَا الأسيافِ منك بفرحةٍ * فتكاد تُنْهِضها من الأجفانِ

قد كان هذا الدهرُ يَلْحَظ جانبي * عن طَرْفِ لَيْثٍ ساغِبٍ ظمآنِ

فالآن حين قَدِمتَ عُذْنَ صُروفُه * يَرْمُقْنَنِي بنواظـر الغِزْلانِ

ومما قيل من شَوَاذِّ التهانى وهى الجمع بين التهنئة والتعزية ، والبِشارة والتسلية — فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن صالح للرشيد ، وكان من يحسُـده قد قال للرشيد عنه : إنه يُعِدّ كلامه . فأنكر الرشيد ذلك وقال : بل هو طبع . وجلس فى بعض الأيام ودخل عبد الملك ، فقال الرشيد للفضل : قل له : وُلِدَ لأمير المؤمنين

فى هذه الليلة ٱبنٌ ومات له ٱبن . فقال الفضل له ذلك . فدنا عبد الملك وقال : يا أمير المؤمنين، سَرّك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرّك، وجعلها واحدةً بواحدة، ثوابَ الشاكر وأجرَ الصابر . فقال الرشيد : أهذا الذى زعموا أنه يتصنّع الكلام ! ما رأى الناس أطبع من عبد الملك فى الفصاحة .

ومن ذلك ما حكاه ثُمَامة بن أشْرَس قال : لمّا دخل المأمون بغداد بعد قتل الأمين دخلت عليه زُبَيْدة بنت جعفر أمّ الأمين، فجلست بين يديه وقالت : الحمد لله ! إن أُهَنّئك بالخلافة فقد هنّأتُ بها نفسى قبل أن أراك، و إن كنتُ فقدتُ ٱبنًا خليفةً لقد ٱعتضتُ ٱبنًا خليفة . وما خَسِر من ٱعتاض مثلك، ولا ثَكِلتْ أُمٌّ ملأتْ عينَها منك . وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ، و إمتاعًا بما وَهَب . فقال المأمون : ما تَلِد النساء مثلَ هذه، ما تراها أبقت فى الكلام لبلغاء الرجال !

وقال عبد الله بن الحسن الجعفرىّ السمرقندىّ يهنّئ العزيز بخلافة مصر و يرثى أباه المُعِزّ :

قد أصبح الجَوْهَرُ العُلْوِىّ منتقلا * فى خيرِ مَنْ كان مِنْ خيرِ الوَرَى بَدَلَا
يا مِنْحةً كلَّتْ فى مِحْنــةٍ عَظُمتْ * لولاكَ فى الدّهرِ ما نال ٱمرؤٌ أَمَلَا
صُنْعٌ من الله فى خَطْبٍ أُتِيحَ لنــا * عمّ البــلادَ وعمّ السَّهْلَ والجَبَــلا
كان الزمانُ بمن أبقَى ومَنْ أخذتْ * صُروفُهُ مُذْنِبًا طَــورًا ومُتّصِلا
قام العــزيزُ بمــا أفضى المُعــزّ به * إليــه مُضْطَلِعًا بالعِبْء مُحْتَمِــلا
فقام أحفظَ مُسْــتَرْعًى رَعَى فكَفَى * من بعد خيرِ إمامٍ قوَّم المَيَــلا
كالسيف مُنْصَلِتًا والبحرِ مُنْدَفِقًا * والبَــدْرِ مُؤْتَلِقًا والغَيْثِ مُحْتَفِلا

ومنهــا :

فى طلعة البدرِ من شمس الضُّحَى عِوَضٌ * وظُلْمَةُ اللّيــلِ يجلو جُنْحَها ٱبنُ جَلَا

وما الأئمّـــةُ إلا أنجـــمٌ زُهُـــرٌ * يبـــدو لنـــا كوكبٌ إنْ كوكبٌ أَفَلا
إنّ المُعِـــزَّ الذى لا خَلْقَ يُشْـبِهُه * إلّا العزيز ابنه إنْ قال أو فعلا
مَلْكٌ وجدنا التُّـقَ والعَـــدْلَ عُدَّتَه * إذا الملوكُ آسـتعدّوا الكيدَ وٱلحِيَلا
سَمَتْ الى العـالَمِ النُّـورِىّ هِمّتُـــهُ * ففارَق القَــتَمَ الأرضىَّ وٱنتقـــلا (٦٣)
وراجعت نفسُه فى القُدْس عنصرَها * ولم يـــزل بحبـال الله مُتّصـــلا
لم يَرْضَ خَلْقًـا من الدُّنيـا يُجاوِرُه * إلّا الملائكَ فى الفِرْدَوْس والرُّسُـلا
لولا نِزَارٌ وعينُ الله تَحـرُسُهُ * كنّا بفقـــد مَعَـــدّ أُمّةً هَمَـــلا
فإنْ مَضَى كافِلُ الدُّنْيـا[1] وما ضَمِنَت * فَذَا ٱبنُـــه كافلٌ عنـه بمـا كَفَلا
وإن هَوَى الجبلُ الراسى فذا جَبَلٌ * راسٍ لنـا بعـده ، أَعْظِمْ به جَبَـلا !
عمّتْ خِلافتُـــه الدُّنيـا برونقِها * كأنه الشّمسُ فيهـا حلّت الحَمَـلا
مُلْكٌ أغَـــرُّ وأيّامٌ مُحجَّـــلةٌ * ودولةٌ كلَّ وقتٍ تَقْهَـرُ الدُّوَلا
أضحتْ ملوك بنى الدُّنيـا له خَوَلًا * وما حَوَتْ كلُّ دارٍ منهـمُ نَفَـلا
يأيّهـا الملك المأمـــولُ نائـــلُه * ومَنْ هو الغاية القُصْـوَى لنـا أملا
كان السريرُ سريرُ المِلك منخفضًا * حتى ٱرتقيتَ ذُرَاه فٱرتقى وعَـــلا

ومن ذلك ما كتب به عامل الى المصروف به :

قد قُلِّدتُ العملَ بناحيتِـك ، فهنّاك الله بتجـدّد[2] ولايتك ، فأنفـذتُ خليفتى لخلافتك ، فلا تُخْلِه من هِدَايتك ، إلى أن يَمُنّ الله بزيارتك .

فأجابه : ما ٱنتقلت عنّى نعمةٌ صارت إليـك ، ولا خلوتُ من كرامة ٱشتملت عليـك . وإنى لأجد صَرْفى بك ولايةً ثانية وصلة وافية ؛ لمـا أرجو لمكانك من حسن الخاتمة ومحمود العاقبة . والسلام .

(١) فى الأصل : "كامل الدنيا" . (٢) فى الأصل : «تجدد» من غير حرف الجر .

وكتب إبراهيم بن عيسى الكاتب يهنئ إبراهيم بن المدبّر بالعزل عن عمل : (٦٣)

لِيَهْنِئْ أبا إسحاق أسبابُ نِعْمةٍ * مُجَــدَّدةٍ بالعَزْلِ ، والعزلُ أنبل
شَهِدتُ لقد مَنُّوا عليك وأحسنوا * لأنك بعد العَزْلِ أعلى وأفضل

آخــــر :

إنّ الأميرَ هو الّذى * يُضْحِى أميرًا عند عَزْلِهْ
إن زال ســلطانُ الوِلا * يَةِ فهو فى سُلطان فَضْلِهْ

وكتب أبو إسحاق الصّابى الى رجل زوّج أمّه :

قد جعلك الله — وله الحمد — من أهل التحصيل، والرأى الأصيل ؛ وصحّة الدّين، وخُلُق ذى اليقين . فكما أنك لا تتّبــع الشهوةَ فى محظور تُحِــلّه ، فكذلك لا تُطيع الأنَفَــة فى مُباح تحظُره . وتأدّى إلىّ من اتّصال الوالدة — يسّر الله لهــا فى مُدّتك ، وأحسن بالبقيّة منها إمتاعَك — بأبى فلان، أعزّه الله ، ما علمتُ فيه أنّك بين طاعة للدّيانة تَوخّيتها، ومَشَقَّةٍ تجشَّمتَها ؛ وأنك جَدَعتَ أنفَ الغَيْرةِ بها ، وأضْرعتَ خَدّ الحَمِيَّة فيها ، وأسخطت نفســك بإرضائها ، وعَصَيت هواك لرأيها . فنحن نُهنِّيك بعزيمة صــبرِك، ونُعَزّيك عن فائت مُرادك ؛ ونسأل الله الخِــيَرةَ لك فيه، وأن يجعلَها أبدًا معك فيما شِئتَ وأبَيتَ، وتجنّبت وأتيتَ .

وقال كاتب متقدّم فى مثل ذلك :

الرضا بمــا يُبيحه حكم الله أولى من الامتعاض فيما تحظُره أَنَفَةُ الحَمِيّة . ولا قُبْحَ فيما أحلّ الله، كما لا جمالَ فيما حرّم الله . فعرّفك الله الخِــيَرةَ فيما اختارته من طهــارة العَفَاف ونُبْــل الحَصَانة، وعطفك مِن بِرّها على ما تُؤَدّى به حقّها ، وما لزمك من المعروف فى مُصاحبتها .

وكتب الصّاحب بن عبّاد تهنئةً بزواج أُمّ وتعزيةً بموت أب ، فقال :

الأيّام — أطال الله بقاءك — تجـرى على أنحاء مختلفـة ، وشُعَب متفرّقة ؛ وأحكامها تتفاوت بيننا بمـا يسوء ويَسُرّ ، وينفع ويَضُرّ . ويلغنى من نفوذ قضاء الله فى شيخك — رحمه الله — ما أزعجنى ، وأبْهم طُرُقَ السـلوةِ دونى ، وإن كان مَنْ خَلَفك غيرَ خارج عن مَزِيّة الأحياء ، ولا حاصلٍ فى زُمْرة الأموات . والله يأسو كَلْمَك ، ويَسُـدّ ثَلْمَك . وقد فعل ذلك بأن أتاح الله لك بعـد أبيك أبًا لا يَقْصُر عنه شفقةً عليك وحُنُوًّا ، وإيثارًا لك وبِرًّا . وقد لعمرى وُفِّقتَ حين وصلتَ بحبلك حبـلَه ، وأسكنت الكبيرةَ — حرَسها الله تعالى — ظِلَّه ؛ لئلا تَفْقد من المـاضى — عفا الله عنه — إلّا شخصَه . فالحمد لله الذى أرشدك لمـا يُعيد الشَّمْلَ مُجْتمِعًا بعد فِراقه ، والعَدَدَ موفورًا بعد انتقاصه ؛ حمدًا يقضِى لك بالمَسَرّة ، ويَحْسِم دونك مَرَادَ الوَحْشة ، ويُلَقِّيك ثوابَ ما قَضَيتَه من الحق ، وتحمّلتَه فيـه من الأَوْق[(1)]؛ إنه فعّال لمـا يريد .

فهذه نبذة كافية فى التهانى الخاصة ؛ فلنذكر العامّة .

---

## ذكر نبذة من التهانى العامّة والبشائر التامّة

ولنبدأ من ذلك بمـا قيل فى البِشارة بوفاء النيل ، لمـا فيه من عموم المنافع الشاملة ، وشُمول النِّعم الكاملة ، والخِصْب الذى يتساوَى فى الانتفـاع به الغَنِيّ والفقير ، والمأمور والأمير .

فمن ذلك ما كتب به المولى الفاضل ، الصدر الكبير الكامل ، ذو المناقب والمآثر ، والفضائل والمفاخر ، شهاب الدين محمود الحلبىّ :

---

(١) الأوق : الثقل .

وسَرّه بنبأ النيــل الذى عمّ نَيْلا، وجرّ على وجه الأرض مُلَاءة مِلْأته ، فشمّر المَحْــل للرحْلة ذَيْلا ، وجرّد على الجــدب سيفَ خِصْبِه فسال مُحْمَــرُّ دَمِه على وجه الصَّعيدِ سَــيْلا ، وجَرَى وسَرَى فى ضــياء إشراقه وظُلْمــة تَرَاكُمِه إلى الأرض التى بارك به حولَهــا ، بجَلَّ من أجراه نهــارًا وسبحانَ من أسْرَى به ليلا . صَــدَرتْ هذه المكاتبةُ إليه — أعزّه الله تعــالى — ونِعَمُ الله قد عمّتْ ، وآلاؤه مع تَحَقُّق المزيدِ قد تَمّتْ، ومَوَادّ فضلِه قد أمّت الأقطارَ فقامت صَلاة الصّلات إذ أمّتْ؛ وكلمــة الخصب قد نَمّتْ فى الآفاق، فوَشَتْ بمكنونِ حديثها للأرض ونَمّتْ؛ والخِصْبُ قد أقبل على الجَدْب فلم يكن له بمقاومته قِبَل ، وطُوفان الرَّحْمة قد طَبق الوِهَاد، فلم يُغْنِ المَحْلَ أن قال : سآوى منه إلى جبل . والسيلُ قد بلغ فى تَتَبُّع بقايا القَحْطِ الزُّبَى ، والنِّيل قد عمّ بنَيْــله الأرضَ حتى كَلَّل مَفَارِقَ الآكام وعَمّم رءوسَ الرُّبَا ؛ وحَمَى الأرضَ من تَطَرُّق المُحُولِ إليهــا فأصبحت منه فى حَرَم ، وظهرت به عجائب القدرة، ومنها أنّ آبنَ الستة عشرَ بلغ إلى الهرَم، وبثّ جُودَه فى الوجود فلو صوّر نفسَه لم يزِدها على مافيه من كَرَم؛وتَلَقّت منه النفوسُ أبهج محبوبٍ طَرَدَ ممقوتا ، ووثِقت من حُمْرته بالغِنَى والمُنَى إذ لم تَدْرِ أياقوتًا تُشاهد منه أم قُوتا . وجرى فى الوفاء (٦٤)
على أكمل ما ألِف من عادته ، وظهر بإشراقه وعمومِ نَفْعه ظهورَ الشّمس فألقى على الأرض أشِــعّةَ سعادته؛ وأقبلت به على الخَلْق بوادرُ الإقبال ، وركب الناسُ منه فى سُفن النجاح والنجاةِ فهى تجرى بهم فى مَوْج كالجبالِ. وبَلّغ الله به المنافع فزعزعَ الشُّحّ ولم يتجاسر على الجسور، وأمن الناس به طروقَ المَحْل المطرود به عنهم فضُرِب بينهم بِسُــور، وأقطع الخِصْب الأرضَ كلهــا فله فى كل بُقْعة مِثالٌ مَرْقِىّ ومنشور منشور ، وبعث إلى كل عمل من سَرَايا جُوده عارضًا مُغْضَبا على المَحْل ما يخطر إلّا وسيفُه مشهور؛ وأودع بطن الثَّرَى مَوَادَّ ثَرائه ،وآستقبل الورَى بوجه ما تأمّله آمرؤٌ

صادى الجوانح إلا ارتوى من مائه، وأظهر الله به مثال ما سلف من كرامة أصفيائه؛ إذ جعل تحت كل نخلة من سراه سريًّا، وجلا به عن الأمة ظُلَمَ الغُمّة إذ أطلع منه فى أول مطالعه المرتقبة مُحيًّا بدريًّا . وذلك أنه لما كان فى اليوم الفلانى وفى النيل المبارك ستة عشر ذراعا، ومدّ بحسن صنع الله إلى مصالح البلاد يدًا صناعا؛ وركبنا إلى المقياس الذى تعلم به مواقع الرحمة فى كل يوم، وتهدى منه واردات السرور إلى كل قوم؛ ووقفنا به لابسين من رحمة الله تعالى أحسن لباس، آنسين من أنوار رحمة الله التى أزالت اليأس وأذهبت الباس؛ ناظرين إلى أثر رحمة الله التى أحيت الأرض بعد موتها، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . وجرى الأمر فى التخليق على أجمل عادات البدور، وعُلّقت ستارةُ المقياس لا للإخفاء على عادة الأستار، بل للإشاعة والظهور؛ واستقر حكم المسرّة على السَّنن المعهود، وعاد للناس عيدُ سرورهم إذ ذاك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهود . وركب مولانا السلطان إلى سدّ الخليج والماء قد استطال عليه، وسرتْ سرايا أمواجه إليه، وصدمه بقوّة فاندفع منكسرًا بين يديه؛ فانجبرت القلوبُ بكسره، واستوفت الأنفسُ السرورَ بأسره، وأيقن كل ذى عُسْر بحصول يُسْره؛ وساق الله به الماء إلى الأرض الجُرُز فأحياها وحيّاها، ورقّ لوجهها المُغبَرّ فستر بردائه المحمرّ صفحةَ مُحيّاها . كل ذلك وهو — بحمد الله تعالى — آخذٌ فى الازدياد، جارٍ على وَفْق المُراد إلى حدّه المعتاد، سالكٌ ببلاغه سبيلَ أهل البلاغة إذ يهيمون فى كلّ واد . وها هو الآن يرتفع إلى كلّ ربوة على جَناح النجاح، ويُخيف السُّبُلَ وما عليه حَرَجٌ ويقطع الطُّرُق وليس عليه جُناح . فليأخذ مولانا حظّه من هذه البُشرى التى عمّ بِشْرُها، ووجب على كل مؤمن شُكْرُها؛ وليتحقق أنّ هذه بوادرُ خير تَسْرى إليه على ركائب السحائب، وطلائعُ خِصْب هى لديه أقرب غائب وأسرع آئب . والله تعالى يُعِزّ أنصاره، ويُوالى مَبارّه، بمحمد وآله .

وكتب أيضا فى مثل ذلك :

ضاعف الله نعمة المجلس العالى، و بَشّره بمـا أجرى الأُمّة عليه من عوائد كَرَمه، وسَره بمـا يَسّره من خصوص بِرّه وعموم نِعَمه، وهنّاه بما سنّاه(١) من هَرَب جيش المَحْل بعد قِدَم وثَباته وثَبَاتِ قَدَمه، وأورد على سمعه من أنباء نُصْرة الخصْب ما يَحقّق به أنْ لم يبـقَ فى الأرض عَلَمٌ إلا تحت عَلَمِه، وأنه ذَبَح الجَدْب بسيف مَدَده الذى أنبأ بحُمرة عَنْـدَمه عن دمه، وبثّ سراياه فى الأقطار، على مُتون القِطَار، مُرهِفًا على بقايا المَحْل سيوفَ بُرُوقه ونبـالَ دِيَمه، وضرب قِبابَ موجه على المسالك، فلو هبّت بينها عاصـفةُ جَدْب تعثّرتْ بأطناب خِيَمه، ولَعِب على ما شَمَخ من الرُّبا، فعَجَبٌ له من كاملٍ يلعب وقد بلَغ إلى هَرَمه ! صدرتْ هـذه المكاتبـةُ تَقُصّ عليه من نِعَم الله أحسنَ القَصَص، وتُهْـدِى إليه من مَوَادّ فَضْـله ما يَخُصّ الشأم وأهلَه منه بأوفى الأقسام وأوفر الحِصَص، وتَحُثّه على شكر الله تعالى الذى به يتهـز من مزيد بِرّه أعظم الحظوظ وأفضـل الفُرَص، وتُعْلِم أنّ الله نَصَر جيش الرخاء بمَدَد لُطْفه على اليأس الذى تولّى الشيطانُ أمرَه فلمّـا تراءتِ الفئتانِ نَكَص، وأنعم على خَلْقه بما أرخصتْه عزائم كَرَمه بهم، فوجب أن تُقَابَلَ نِعَمُه بعزائم الشكر دون الرُّخَص؛ وذلك أن الله تعالى أجاب دعوة المضطرّ، وأفاض بِرّه العميمَ على الغنىّ والفقير والقانع والمعترّ؛ وأحيا الأرض بعد موتها، وتداركَ برحمته دنيـا الدَّهْماء بعد أن أشرفت على فَوْتها؛ وأجرى الخَلْقَ على عوائد كَرَمه، وأجرى لهم بقدرته من حُجُب الغيب مَوَادّ نِعَمه، وأعلى لديهـم مواردَ نِيلهم حتى كاد ما يَشْرَب بفروق ساقِه يتناول الماءَ بفَمِه؛ وأمرَ البحرَ فأقبل بالفَرَج القريب من الأمد البعيد، وأذِن له فى الترفّع من مَحَلّه فسجَد على التُّرْب شكرًا وتيمّم الصعيدَ و إن لم يبق به الآن على وجه ٦٥

(١) سناه : يسره وسهله .

الأرض صــعيد؛ وأسرى منه ركائب السرور إلى الأقطار ففى كلّ نادٍ من هَــدِيره حاد وفى كل بَرٍّ من بروره بَرِيد، وذَكَّر بإحياء الأرض بعد موتها إحياء أمواتها، ﴿إنّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، ونشر ألويته على الثّرى لأهل الأرض بُشْرًا بين يَدَى رحمته، ﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ﴾؛ وأقبل بعد نقص عامه المــاضى بوجه عليه حُمْرةُ الخَجَل، وعَزْمٍ سَبَق سَيْفُه إلى المَحْل العَــذَلَ بل الأجَل ، وحَزْمٍ أدرك الجَدْبَ بوجه قبــل أن يقول : سآوِى إلى جبل ، وآستظهارٍ على كلّ ما عَلَا من الأرض حتى إنــ الهَرَمَيْن باتا منــه على وَجَل ؛ ومَهَّــد الأرضَ التى كانت تَرَقُّبه فهو لهـا المنتظَر على الحقيقــه، ووَطِئ بطنَ القُرَى فنتج الخِصْبُ بينهما وذُبح المَحْلُ فى العَقِيقه؛ وقَطَع الطُّرُق فأمِنــ بذلك كلُّ حاضر وباد ورائح وغاد، وآتّبعــه الرِّىّ لا الرُّوِىّ حتى أضحى كالشعراء يهيم فى كل واد؛ وعمت بركاته على الأرض "فتركن كل قَرَارة كالدرهم" من الخصب مرتعا، وأربى على رِيّه فيما سلف من السنينــ[(1)]، فأضحى كهوى آبن أبى ربيعة "يقيس ذراعا كلما قسن إصبعا"؛ وتجمّد على الآكام فخُيِّل للعيون أنها تستــيل، وشَيَّب مفارقَ الرُّبا بياض زَبَده، وعادةُ بيــاض الشيب أن يُخْضَب بورق النيل . وكأنّ ما بقِىَ من المَحْل قد جعل بينه وبينه سَدّا، وتسترّ منه وراءه وهو يُمْلِى ويمُــدّ له عَدّا؛ فصدَمه بقلبه وجعــله دكّا إذ جاء أمرُ ربه وأدركه وملَكه، وسفَكَ دمَه بجرى مستطيلا إذ سفكه؛ ووفّى بمــا وَعَد من ظَفَره، وأتى لنُصْرة الخِصْب من مكانٍ بعيد فأسفر عن النُّجح وجه سَــفَرِه، وأسبل على مقياسه ستر السرور لإخفاره ذِمّةَ الجَدْب لا لخفَره ، وبَشّر مصره بنُصْرة سرَايا السحائب

(1) فى الأصل : «وأربى على ريه ماسلف من السنين» وظاهر أنه غير مستقيم . ويجوز أن يكون الأصل : «وأربى ريه على ما سلف» فحدث فيه تقديم وتأخير من الناسخ.

فى أقطار الممالك لأنها من أشياعه وتَفَره . ولما كان اليوم الفلانى عُلِّق الستر وخُلِّق المقياس ، وكُسِر الخليجُ فكان فى كسْره جَبْرٌ للخليقة ومنافعُ للناس ، وذلك بعد أن وفَّى النيل المبارك ستة عشر ذراعا ، وصرف فى مصالح البلاد يدا تَضِنّ بالبذل خُرْقا وتكفى بحُسْن التدبير ضياعا ، [وبثّ فى أرجاء الأعمال بحارا تحسب بتلاطم الأمواج ركاما و بمضاعفة الفجاج سراعا](١) . وهو بحمد الله آخذٌ فى آزدياده إلى حدّه ، جارٍ على آعتياده فى المشى على وجه الثرى وخدّه ، يتتبّع أدواء المَحْل تتبّعَ طبيبٍ خبير ، و يعكس بيت أبى الطّيِّب فتُمْسِى و بُسطها تراب ، ويُصبِّحها و بُسطها حرير . وقد وثِقت الأنفس بفضل الله العَميم ، وأصبح الناس بعد قطوب اليأس تعرف فى وجوههم نَضْرةَ النَّعيم ، تَيمُّنًا ببركة أيّامنا التى أعادت إليهم المجوع ، وأعاذتهم مما آبْتُلِى به غيرُهم من الخوف والجوع . فليأخذ المجلس العالى حظَّه من هذه البشرى التى خَصّت وعَمّت ، ووثِقت النفوس بمزيد النعمة إذ قيل : تَمّت ، ويُذيعها فى الأقطار ، و يعرّفهم قدر ما منح الله جيوش الإسلام من فضله الذى يُعْجِب الزُّرّاع ليغيظ بهم الكُفّار ، و يستقبل نعم الله التى سَيَسِم الأرضَ وَسْمِيُّها و يولى النعم وَلِيُّها و يأتى بالبركات أَتِيُّها حتى تَغَصّ بالنعم تلك الرِّحاب ، و يُظَنّ لعموم رِىّ البلاد الشامية أنّ نيل مصر وصل إليها على السَّحاب ، و يقيم منارَ العَدْل الذى هو خير بالأرض من أن تُمْطَر ، و يُعفّى آثارَ الظلم حتى لا تكاد تَظْهَر .

## ومما قيل فى التهانى بالفتوحات ، وهزيمة جيوش الأعداء .

فمن ذلك ما كتب به المُهلّب بن أبى صُفْرة إلى الحجّاج بن يوسف الثقفىّ فى حرب الأزارقة :

---

(١) وردت هذه الجملة هكذا بالأصل !

أمّا بعـدُ، فالحمـد لله الذى لا تنقطع موادّ نعمته من خلقه حتى تنقطع موادّ الشكر . وإنّا وعدوّنا كنّا على حالتين : يسُرُّنا منهم أكثرُ ممـا يسوءنا، ويسوءهم منّا أكثرُ مما يسرّهم؛ فلم يزل الله عز وجل يزيدنا وينقصهم، ويُعِزُّنا ويُذِلُّهم، ويؤيّدنا ويخذُلهم، ويمحّصنا ويمحقُهم؛ حتى بلغ الكتابُ أجلَه ، فقُطِع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

(٦٦) وكتب الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة حين وُلّى العراق من قِبَل عبد الله ابن الزبير إليـه يخبره بهزيمة الخوارج : أمّا بعـد، فإنا مذ خرجنا نؤمّ هـذا العدو فى نعم من الله متّصلة علينا، ونقمةٍ من الله متابعة عليهم؛ نقْدِم ويُحْجِمون، ونَحِلّ ويرحَلون، إلى أن حللنا بسوق الأهواز . والحمد لله رب العالمين .

ثم كتب إليه بعد هذا الكتاب(١) : أمّا بعد، فإنا لقينا الأزارقة بجِدّ وحَدّ، وكانت فى الناس جولةٌ ثم ثاب أهلُ الحِفاظ والصبر بنيّاتٍ صادقة وأبدان شـداد وسيوف حِداد؛ فأعقب الله خير عاقبة، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل، فصاروا دَرِيئةَ رماحنا وضَرِيبةَ سيوفنا، وقتل الله أميرهم ابن المـاحُوز؛ وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأوّلها . والسلام .

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون لمّـا فتح بغداد وقتل محمدا الأمين : أمّا بعد، فإن المخلوع وإن كان قسيمَ أمير المؤمنين فى النسب واللُّحمة، لقد فرّق الله بينهما فى الولاية والحُرْمة؛ لمفارقته عصمةَ الدين، وخروجه عن الأمر الجامع للسلمين . قال الله عز وجل : ﴿يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ . ولا صلة لأحد فى معصية الله، ولا قطيعةَ فى ذات الله . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين وقد قُتِل المخلوع

(١) فى الكامل للبرد (ص ٦٤٠ طبع أوربا) : أن هذا الكتاب من المهلب الى الحارث .

وردّاه الله رداءَ نكبة، وأحمدَ لأمير المؤمنين أمرَه، وأنجز له ما كان ينتظر من صادق وعده . والحمد لله المتولّى لأمير المؤمنين بنعمته، والراجع إليه بعلوم حقّه، والكائد له ممن ختر عهده ونكث عقده، حتى ردّ له الألفة بعد تفريقها، وأحيا الأعلام بعد دروس أثرها، ومكّن له فى الأرض بعد شتات أهلها .

ولمّا فتح المعتصم عَمُّورِيَةَ أكثر الشعراءُ من ذكر هذا الفتح؛ فمن ذلك قول أبى تمام حبيب بن أوس الطائى من قصيدته التى يقول فى أولها :

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ * فى حَدّه الحدُّ بين الجدّ واللَّعِبِ
بيضُ الصفائح لا سود الصحائف فى * متونهنّ جَلاءُ الشكّ والرِّيَبِ
والعلمُ فى شُهُب الأرماح لامعةً * بين الخميسَيْنِ لا فى السبعة الشُّهُبِ

جاء منها :

فتحُ الفتوح تعالى أن يُحِيطَ به * نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخُطَبِ
فتحٌ تفتَّح أبوابُ السماء له * وتبرزُ الأرضُ فى أثوابها القُشُبِ

ومنها :

وبرزةُ الوجه قد أعيَتْ رياضتُها * كسرى وصدّت صدوداً عن أبى كَرِبِ
بِكرٌ فما افترعتها كفُّ حادثة * ولا ترقَّتْ إليها هِمَّةُ النُّوَبِ
من عهد إسكَنْدرٍ أو قبل ذاك فقد * شابت نواصى الليالى وهْىَ لم تَشِبِ
حتى إذا مَخَضَ اللهُ السنين لها * مَخْضَ الحليبة كانت زُبْدَةَ الحِقَبِ
أتتهمُ الكُرْبَةُ السوداءُ سادرةً * منها وكان اسمُها فرّاجةَ الكُرَبِ
لمّا رأت أُختَها بالأمس قد خَرِبَتْ * كان الخرابُ لها أعْدَى من الجَرَبِ

أشار فى هذا البيت إلى فتح أنقرة .

ومنهـا :

لَبَّيْتَ صــوتًا زِبَطْـرِيًّا هَرَقْتَ له * كأسَ الكَرَى ورُضَابَ الخُـرَّدِ العُرُبِ

(٦٧) قيـل : كانت الروم لمّـا فتحت زِبَطْرة صاحت آمرأة من المسلمين : واحمداه ! وامعتصماه! فلما بلغه الخبر ركب لوقته يؤمّ الشأم، وصاح : لبَّيك! لبَّيك! ولم يرجع إلى أن فتح أنقِرة وعَمُّورِيّة . ومنها :

خليفـــةَ الله جازى الله سَعْيَكَ عن * جُرثومة الدِّين والإسلام والحَسَبِ

إن كان بين صُروف الدهر من رَحِمٍ * موصـــولةٍ أو ذِمَامٍ غــير مُنْقَضِبِ

فبين أيامكَ اللاتى نُصِرتَ بهـا * وبين أيام بَدْرٍ أقــربُ النَّسب

وكتب أبو عبيد [عبـد] الله البكرى إلى المعتمد على الله المؤيَّد بنصر الله يهنِّئه بالفتح الذى كان فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة :

أطال الله بقاء سيدّى ومولاى الجليل القدر، الجميل الذكر، ذى الأيادى الغرّ، والنعم الزُّهْر؛ وهنأه ما مُنِحَه من فتح ونصر، وآعتلاء وقهر . بطالع السعد يا مولاى أُبْتَ، وبسانح اليُمن عُذْتَ، وبكَنَف الحِرْز عُذْتَ، وفى سبيل الظَّفَر سِرْتَ، وبقدم البِرّ سَعَيْتَ، وبجُنَّة العصمة أتَيْتَ، وبسهم السَّداد رميتَ فأصميت. صَدَرٌ عن أكرم المقاصد وأشرف المشاهد، وعود بأجلّ ما ناله عائد وآب به وارد ؛ فتوح أضحكت مَبْسِم الدهر، وسَفَرت عن صفحة البِشر، وردّت ماضىَ العُمْر، وأكْبَتْ[1] وارِىَ الكُفْر، وهزّت أعطاف الأيام طربا ، وسقت أقداحَ السرور نخبا ، وثَنَتْ آمال الشرك كَذِبا، وطوت أحشاء الطاغية رَهَبا؛ فذكرُها زادُ الراكب، وراحة اللّاغب؛ ومُتْعة الحاضر، وتُقْلة المسافر .

(١) أكبت : جعلته لا يورى . وفى الأصل : « أكفت » . ولعله تحريف من الناسخ .

بها تُنْقَضُ الأحلاسُ فى كلِّ منزلٍ * وتُعْقَد اطرافُ الحبالِ وتُطْلَقُ

شمِلت النعمة وجبرت الأمة ، وجلت الغُمّة ، وشفت المِلّة ، وبرّدت الغُلّة ، وكشفت العِلّة .

كان داءَ الإشراك سيفُك واشتـ * ـدت شكاةُ الهُدى وكان طبيبا

فغدا الدِّينُ جديدا ، والإسلام سعيدا ، والزمانُ حميدا ؛ وعمود الدين قائما ، وكتابُ الله حاكما ؛ ودعوة الإيمان منصورة، وعين الملك قريرة . فهنأ الله مولانا وهنأنا هذه المِنَح البهيّة مطالعُها، السَّنيّة مواقعُها، المشهورةَ آثارُها، المأثورةَ أخبارُها؛ ونصر الله أعلامَه ففى البرّ تُحَلّ وتُعْقَد، وعضد حُسامه فبالقسط يُسَلّ ويُغْمد؛ وأيّد مذاهبه فبالتَّحزّم تُسْدَى وتُلْحَم، وأمرّ كتائبه ففى الله تُسْرَج وتُلْجم . فكم فادح خَطْب كفاه، وظلامِ كَرْبٍ جلاه، وميّتِ حقّ أحياه، وحىٍّ باطلٍ أرداه! وكم جامح ضلالة أطفأ نارَه، وناجمِ فتنة قلّم أظفارَه، ومفلول سُنّة أرهف شِفارَه، ومستباح حُرْمة حَمَى ذِمارَه. فلله هذه المساعى الكريمة والمنازع القويمة، المتبلّجة عن ميمون النّقيبة ومحمود العزيمة؛ فقد تمثّل بها العهد الأوّل والقرن الأفضل الذى أُخْرِج للناس يأمُرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر؛ والذى سطع هذا السّراج، وانتهج هذا المنهاج؛ فلا زالت الفتوح تتوالى عليه، وصنائع الله تتّصل لديه، إدالةً من مشاقّيه وإذالةً لمحاربيه، وإبادةً لمناوئيه. وإن أجلّ هذه النعم فى الصدور، وأحقّها بالشكر الموفور؛ ما منّ الله به من سلامة مولاى التى هى جامعةٌ لعزّ الدّين وصلاح كافّة المسلمين، بعد أن صَلِي من الحرب نيرانَها، فكان أثبتَ أركانها وأصبرَ أقرانها :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ * كأنّك فى جفن الردى وهْوَ نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً * ووجهُك وضّاحٌ وثغرُك باسمُ
هنيئًا لضرب الهامِ والمجدِ والعُلا * ووجهك والإسلامِ أنّك سالمُ

فلله الحمـــد والإبداعُ والإلهام، وله المِنّة وعلينا متابعة الشكر والدوام. وقد فازت الكفّ الكليم، بأعلى قـــداح المكلوم لدى المَقام الكريم؛ وإنها لهى التالية للإصبع الدامية فى المنزلة العالية.

بَصُرْتَ بالراحة العُليا(١) فلم تَرَهـا * تُنـال إلا على جِسْرٍ من التَّعب

ومن كلام القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانىّ جواب كتاب ورد عليه يُخْبِر فيه بانتصار المسلمين. ابتدأه بقوله عز وجل: (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ). وصلت بُشرى المجلس السامى — أعلاه الله وشـيّده، وأسعده وأصعده، وشكر مشهَده وأنجح مقصِـدَه، وملأ بالحسنات أمسَه ويومَه وغده، وأهلك وعادى أعداءه وحُسَّدَه، وآجتَبَ بسيفه زرع الكفّار وذَراه وحصده — بما منّ الله سبحانه من نُصْرة المسلمين عند لقاء عدوهم؛ وما وَلِيهم الله من القوّة والإظهار، وما قذف فى قلوب الكفر من الخوف والحِـذار؛ وشرح القضيّة شرحًا شَرَح الصدور، وآستوى فيهـا الغُيّاب مع الحضور؛ فكانت البِشارةُ منــه وكانت المباشَرَةُ له؛ وما كلّ من بَشّر باشر، ولا كلُّ من غار غاوَرَ؛ ولا كلّ من خبّر عن السيوف لقيها بوجهه، ولا كلّ من خلّث عن الرماح عانقها بصـــدره. فنفعه الله بالإسلام كما نفع الإسلام به، وأتمّ النعمةَ عليه كما أتمّها فيه؛ وتقبّل جهاده الذى جلا فيه الكُرُبات، وآبتغى فيه القُرُبات. ويُتوقّع إن هان العدوّ فى العيون، وظهر منه غيرُ ما كان فى الظنون، أن يكسر الله بكم مَصافّه، ويفتح عليكم بلاده، ويُطهّر بسيوفكم الشام، ويسرّ بنصركم الإسلام، ويشرّف بيوم نصركم الأيام. والخير يُغْتَنَم إذا عَنَتْ فُرَصُه، ويُصاد إذا أمكن الصائدَ قنصُه، والجهاد فرض على المُطيق تقتضيه عزائمه ولا تقتضيه رُخَصُه. وقد حضر المولى وحضر كلّ خير، وحضر من رأيه ما يكفى

(١) فى ديوان أبى تمام: «الكبرى».

أمرَ العدوّ ولو لم يكن إلا رأيه لا غير؛ فكيف وفى يده من العَضْب، مثل ما فى صدره من القلب؛ كلاهما حديدٌ لا تَكِلّ مضاربه، ولا تخونه ضرائبه، ولا تفنَى إذا عُدّدت عجائبه. فكم له من يوم أغرّ محجّل الأطراف، وليلةٍ فى سبيل الله دهماء الأهوال بيضاء الأوصاف؛ والنفوس واثقة بأن الظَّفَر على يده يجرى، والمبشِّر من جهته يسرّ ويَسْرِى. وَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وكتب أيضا فى مثل ذلك: ورد كتاب المجلس — نصر الله عَزْمَته، وشكر هِمّته، وأتمّ عليه نعمته، وصَرَف به وعنه صَرْف كلّ دهرٍ ومُلِمّته ومؤلمته، وأعان أولياءه على أن يُؤَدّوا خدمته، ويستوهبوا له فضل الله ورحمته، وأجزل قِسْمه من الخير الذى يُحْسِن بين محبّيه قِسْمته — سافراً عن مثل الصباح السافر، متحدّثا عن روض أفعاله بلسان النسيم السَّحَرِىّ الساحر، حاملًا حديثَ بِيضه وسُمْره حديث السامر. وهنّأ بالفتح وهو المهنّأ به، وكيف لا يُهنّأُ بالفتح من هو فاتحُه! وكيف لا يشرح خبره من هو فاتح كلّ صدر وشارحُه! ولقد دعا له لسان كلّ مسلم وساعدت لسانَه جوارحُه؛ وعلم أنه باشر الحربَ وتولّى كِبرها، وأخمد جمرها، ولقى أقرانها، وافترس فُرسانها، وجبّن شجعانها، وشجّع جبانها؛ وأنفق الكريمين على النفس: النَّفْسَ والمال، وحفظ على الإسلام الطَّرَفَيْنِ: الفاتحةَ والمآل. وإذا تأمل المجلس الدنيا علم أن الذى يبقى بها أحاديث، وإذا نظر إلى المال علم أن الذى فى الأيدى منه مَوَاريث؛ فالحازم من ورث ماله ولم يُورثه لغيره، والسعيد من لم يرض لنفسه من الحديث إلا بخيره. وما يخفى عن أحد ما فعله، ولا ما بذله، ولا ما هان عليه، ولا ما أهان اللهُ كرائمَ المال بيديه؛ ولقد حلّت نعمة الله فى محلّها لديه، وكان كفأها الكريمَ الذى أصدقها ما فى كفّيْه.

هـــذا ثنائى وهاتيكم مَنَاقِبُكم * يا أعيُنَ النّاسِ ما أبعدت إسهادى

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا)، بل هو سبحانه يُوفى عباده مثاقيل الذّرّ، وللصابرين عنـده الأجر بغير حساب لجلالة قدْر الصبر . والمجلس صبّر نفسه على المشقات فلْيُبْشر بثوابهـا، وكثّر أعمال البِرّ فهو يدخل الجنّة بفضل الله من جميع أبوابها . وكما يُهنّأ المجلس بالافتتاح فهو يُهنّأ بالجِراح؛ ولا يغسل ثوبَ العمل إلا الدمُ المسفوح ، وكل جُرْح إنما هو باب إلى الجنة مفتوح . والحمد لله على أن أمتع الأمّة بنفسه التى بذلها، وقد باعها له وأبقاها لنا وقَبِلها . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) .

وكتب المرحوم علاء الدين علىّ بن القـاضى محيى الدين بن الزكىّ إلى أخيه بهاء الدين مُبَشّرا بفتح صَفَد، وكان هذا الفتح فى يوم الجمعة ثامن عشر شوّال سنة أربع وستين وستمائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار دولة الترك فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبَرْس :

يقبّل اليد الكريمة، ويبُثّ ما يعالجه من لواعج الأشواق التى تركته بين الأصحاب مُدَلّها، وسلبت لُبّه فلا أعلم عليه مَنْ دَلّها؛ ويُنْهى أن المملوك فارق كريم جنابه وتوجّه إلى صَـفَد المحروسة فوصل إليها فى تاريخ كذا ، ووافاها والحِصنُ قـد تزعزعت أركانُه، والكفرُ قد انهدم بُنيانُه، وشمّر عن ساق الهزيمة شـيطانُه ؛ وحُماةُ الحرب قد وقفت فى مراكزها، وكُماة الهيجاء قد آستعدّت لأخذ فُرَص النصر ومناهزها ؛ والرماحُ قد آهتزّت شوقا الى لقائهم، والسيوفُ قد آلت أنها لا توافق على مُقامهم، والمَجانيقُ تزور حِماهم وتلك الزيارة لشقائهم ؛ وتُدَمّر بحجارتها عليهم تدميرا، وتُريهم من بأسها يوما عبوسًا قَمْطرِيرا، وتصير بهم إلى الهَلاك وتعِدُهم جهنّم وساءت مصيرا ؛ والقِسِىّ تُرسل اليهم المنايا فى أجنحة السهام، وقد أحدقت بهم كُماةُ الترك كأنها ظِباءٌ

بأعلى الرقمتين قيام؛ فمنْ نازعٍ بقوسه وهو لُهَج الكافرين مُنازع، ومن متدرِّع بنحره نحو المنايا يسارع، ومن واردٍ مَنْهلَ المنيّــة وآخر فى إثْره كارع، ومن متدرِّع وحاسرٍ عَلِما أن ليس لقضاء الله دافع؛ وما زادهم إلا إيماناً وتسليما، وما سلك بهم إلا صِراطًا مستقيما، وما آشــترى أنفسهم وأموالهم إلا بالجنّة وأعدّ لهم أجرا كريمــا. والسلطان — عزّ نصره — قد شحَذ شبَوات عزمه، وفوّق سديد سهمه ليفوز بجزيل سهمه؛ وهو يرتّب عساكره، ويُهيِّئ ميامنه ومياسره، ويُنفذ أوائله ويقدّم أواخره، ويَحُثّ صناديده، ويُثَبّت رعاديده؛ ويُسْعِر هِمّة مَساعره، ويُذْكى نارَ الحرب فى مَجامره؛ ويقــابل الأبراج ببروج يَهدمونها، ويَكِلُ بالنُّقوب نُقباء يحفِرونها، ويَعِــد للؤمنين مغانمَ كثيرةً يأخذونها؛ ويُعِدّ لكل مقامٍ رجالا، ويرتّب لكل مُقاتِلٍ من المسلمين قِتالا، ويبسُط لهم بقتــل الكافرين آمالا؛ حتى قامت الحــربُ على ساق، وضاق بأهل الشقاق الخناق؛ وبلغت الأرواح منهم التّراق، ودارت عليهم كؤوسُ المنــايا فآنتشى المَسْقِيّ والساقى؛ وأحدقت بهــم الجياد تَصْهِل، وسُحُب القِسِيّ تَهْطِل، وكواذب الآمال تَعِدهم وتَمْطُل؛ وحَرَصوا لأنفسهم الفرَجَ فكذّبتهم أسنّة الخُرْصان، ونظــروا إلى الحياة بعين الطمع فكحّلتهم بنات الحَنِيّة المِرْنان؛ فلمــا أُشرِب[1] العجزُ نفوسُهم، وآســتوى فى الشُّورَى مرءوسهم ورئيسُهم؛ ومُنُوا بالمنايا من كل جانب، وسَمَح كلٌّ منهم بالمــال والذهب مذ عَلِم أنّه ذاهب؛ وتحقّقوا أن لا ملجأ من السيف إلا إليه، ولا مُعوّل بعد المعوّل إلا عليــه، وتيقّنوا أن لا مُقامَ لهم ولا مَقَرّ، وقال الكافر يومئذ أين المَفَرّ. والمسلمون مثابرون على العمل الصالح يرفعونه، ومبادرون أجَلَ عدوّهم يمزّقون منــه كل ما يرقَعونه؛ وإذا بصَيْحة كالصيحة التى تأخذهم وهم ينظرونها، أو الصعقة التى ينتظرونها، إذ أُمِرّت السيوفُ على رِقابهم وهم يُبصرونها؛

(١) فى الأصل : «اشراب» وهو غير واضح .

فآرتجت أرجاء الحصن بالآصطخاب، ووقع الآختلاف بينهم والآضطراب؛ وقيل: إن الكافرَ قد طلب الأمان، وإنه ركب ظهر المَذَلّة مذ ناوله الجَزَعُ العِنان، وإن الكفر قد ذلّ للإيمان، وإن شيطانه قد نكص على عَقِبه لمـا تراءت الفئتان؛ فأمسكت المجانيق عن ضربها، وكفّت الحَنَايا عن إرسال شُهبِها، وأقصرت ليوث الحرب الضارية عن وَثْبها. فما كان إلّا هُنَيهة وقد خرج رسول منهم حيث لا تنفع الرسائل، وآخترق وشِـيجَ القنا وشوكَ النّصال وظُبَا المَنَاصل، ورأى كثرةً هالتـه فكادت تنقدّ تحت الذعر منـه المفاصل، ومشى إلى السلطان خاضـعا وأعيا على السّماطين يقوم كلما عوّجته الأفاكل.



وقبّــل كمّا قبّــل التُّربَ قبلَه * وكلُّ كَمِيٍّ واقفٌ مُتَضائِــلُ

وأدّى الرسالة وإذا هي كما قال أبو الطيب دروع، ورجع إلى أهـله وفي قلبه من جيش الإسلام — كثّره الله — صدوع.

فأقبلَ من أصحابه وهو مُرْسَلٌ * وعاد إلى أصحـابه وهـو عَاذِلُ

فأبَوْا لنصيحته قَبُـولا، وقالوا: قاتلك الله رسـولا؛ لقد خرجتَ عن سُنّة إخوانك، وألقيتَ إلى المسلمين فاضلَ عِنانك، ولم ترقُب رِضا أقِسّتك(1) ورهبانك. والرعب قد خرج به عن قومه وآله، وهو يُناشدهم اللهَ في أموالهم وأنفسهم ويُنشدهم بلسان حاله:

أمرتُهُم أمرى بمُنعَـرَج اللّوى * فلم يَستبِينوا الرُّشدَ إلا ضُحَى الغدِ

فلمـا آستحكمت مِرّة عِصـيانهم، وأبَوْا إلا مغالاةً في طُغيانهـم؛ ولم يسمَحوا بتسليم ذلك الحِصن الحصين، وقالوا: إنه على حفظ أرواحنا لقويٌّ أمين؛ أُرسلت عليهم من المجانيق حجارةٌ كالمطر، إلا أنها ترمى بشَرَرٍ كالقصر فتهدِم قصوراً كالشرر؛

(1) في الأصول: «أقساتك» وهو تحريف.

فزعزعت منها بروجا وبدنا، وقالت : هذا جزاؤكم وإن عدتم عدنا، ولنتبعن بعدها آثاركم ونقلع منكم قلاعا ومدنا . فلما أكذبهم الحصن فى آمالهم، وأراهم الله قرب آجالهم؛ وكان ذلك فى اليوم الأغر يوم الجمعة والفتح، سلكوا فى التسليم عادة لم يسلكوها، ورأوا من الجزع خطة ملكتهم ولم يملكوها؛ فأجمعوا أمرهم وشركاءهم إلا أنه كان عليهم غمة، وطلبوا الذمام ومن قبلها كانوا لا يرقبون فى مؤمن إلّا ولا ذمة؛ فألقوا إلى الإسلام يومئذ السلم، ورأوا نور الله الظاهر أشهر من نار على علم؛ فخرجوا من الحصن زرافات وأوزاعا، مهطعين إلى الداعى كيوم يخرجون من الأجداث سراعا. فلو تراهم نحو المنايا يركضون، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ .

جرت الرياحُ على مقرّ ديارهم * فكأنما كانوا على ميعاد

وصدق الله المؤمنين وعده، وكان بصدق وعده حقيقا، ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ . فلما كان يوم السبت نادى فيهم السيفُ بالرحيل، ولم يتزودوا من متاع الدنيا إلا القليل؛ وقام النصر على منابر الهامات خطيبا، وكثر القتل فصار المهنّد الصقيل خضيبا؛ وأجرى أودية من دمائهم، ولم يغادر بقية من ذمائهم؛ واستوى العبيد منهم والأرباب، وصار فرسانهم فرائس الذئاب، واستمرءوا المرعى الوخيم فرعاهم الذباب؛ ووجدوا غبّ البغى علينا، وقلنا : ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾؛ وآب المسلمون بخير عميم، وفتح عظيم وأجر كريم؛ وجعل الله الجنّة جزاء للسالمين منهم والذاهبين، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ . فليأخذ حظّه من هذه البشرى فإن لها من النصر العزيز ما بعدها، ومن المغانم الكثيرة ما يُنجز للأمّة المحمديّة وعدها؛ ويثق بأن

له إن شاء الله من ثواب هـذه الغزوة أوفرَ نصيب، وأن سهـم عزمه فى نحور الأعداء إن شاء الله مصيب ؛ فقـد رُوى عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه قال : "إن بالمدينة قوما ما سِرْتم مَسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم" . والله لا يُخليـه من أجرها ، ولا يَحرِمه وافرَ بِرِّها ، ويُتحفه من مقربات التهانى بمـا تكون له هـذه بمنزلة العنوان فى الكتاب ، والآحاد فى الحساب ، وركعةِ النافلة بالنسبة إلى الخمس ، والفجرِ الأوّل قبـل طلوع طلعة الشمس ؛ وأن يُديم على الإسـلام والمسلمين حياةَ مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين ، ويؤيّده بالملائكة المقربين ، ما دامت السموات والأرضون ، إن شاء الله تعالى .

ومن إنشاء المولى المرحوم محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كتاب كتبه عن السلطان الملك الأشرف خليل إلى الملك المظفّر يوسف بن عمر صاحب اليمن قرين كتاب السلطان الملك المنصور المسيّر إليه بالهناء بفتح طرابلس الشأم :

أعز الله نُصرة المقـام وأوفد عليه كلّ بشرى أحسن من أختهـا ، وكل تهنئة (٧١) لا يُجلّيها إلا هو لوقتها ، وكل مُبهجة يعجَز البيان والبنان عن ثبتها ونعتها ، وتتبلّج فتودّ الدُّرر والدرارى لو زُفّت هذه إلى تَراقيها وسَمَتْ هذه إلى سَمْتها ؛ وصبّحه منها بكل هاتفةٍ أسجعَ من هواتف الحمائم ، وبكلّ عارفة أسرعَ من عَوارف الزّهر عند عزائم النسائم ، وبكل عاطفةٍ أعنّـةَ الإتحاف بالإيجاف الذى شكرت الصِّفَاحُ منه أعظمَ قادرٍ والصحائفُ أكرمَ قادم ، والغزو الذى لا تُخَصّ تِهامةُ ببُشراه بل جميع النجود والتهائم ، وذوو الصوارم والصرائم ، وأولو القُوى والقوائم ، وكلّ ثغر عن ابتهاج أهل الإسلام باسم ، وكلّ برٍ برّ بتوصيل ما ترتّب عليه من ملاحم ، وكلّ بحر عذْبٍ يَمُونُ كلّ غازٍ لا يحبس عن جهاد الكفار فى عُقْر الدار الشـكائم ، وكلّ بحر مِلْح كم تغيّظ من مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم . الملوك يجدّد

خدمةً يقتفى فيها أثرَ والدِه ، ويجرى فى تبليغها على أجمل عوائده ، ويستفتح فيها ٱستفتاحًا تَحُفّ به من هنا ومن هنا تُحَفُ محامده ؛ ويَصِف ولاءً قد جعله أجمل عقوده وأكمل عقائده ، ويشفعهما بإخلاص قد جعله ميلُه أحسن وسائله وقلبُه أزين وسائده ؛ ويُطلع العِلم الكريم أن من سجايا المتعرضين إلى الإعلان بشكر الله فى كلّ ما يعرض للسلمين من نَصْر ، ويُفرَض لهم من أجر غزوٍ كم قعد عنه مَلِكٌ فيما مضى من عصر ، أن يقدُروا تلك النعمةَ حقّ قدرها من التحدّث بنعمتها ، والتنبيه لسماع نَغْمتها ، وإرسال أعِنّة الأقلام فى ميادين الطروس ، وإدارة حِرْباء وصف خير حرب إلى مُواجهة خير الشموس . ولما كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة الوالد — خلّد الله سلطانه — قد أصبحت ذكرى للبشر ، ومواقفُه للنصر فكم جاءت هى والقدرُ على قَدَر ؛ وقد صارت سِيَرُها وسيرُها هذه شَذْو الأسمار ، وهذه جادّةٌ يستطيب منها حسنَ الحَذْو السُّفّار ، فكم قاتلت من يليها من الكفّار ، وكم جعلت من يُواليها وهو منصورها منصورا بالمهاجرين والأنصار . ولما أذلّ الله ببأسها طوائف التتار فى أقاصى بلاد العجم ، وجعل حظّ قلوبهم الوجع من الخوف ونصيبَ وجوههم الوجَمَ ، وأخلى الله من نسورهم الأوكارَ ومن أُسودهم الأَجَم ، وقصُرت بهم هممهم حتى صاروا يخافون الصبح إذا هجم والظن اذا رجَم ، وصارت رؤيةُ الدماء تُفزعهم فلو ٱحتاج أحدهم لتنقيص دم لمرض لأحجم من خوفه وما ٱحتجم . وأباد الله الأرمن فحل بالنَّيْل منهم الويل ، وما شمّر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعد إلا وشمّر هو من الذُّل الذَّيْل ، ولا أثارت الجياد من الخيل عِثْيَرًا منعقدًا إلا وظنّوه مساءً قد أقبل أو ليل . وٱنتهت نوبةُ القتل بهم والإسار إلى «التَّكْفُور ليفون» ملك الأرمن الذى كان يحمى سَرْحَهم ويمزّد صَرْحَهم ، ويستنطق هَتْفَ التتار ويسترجع صَدْحهم ؛ وتعتزّ طرابُلس الشأم بأنه خال إبرنسها الكافر ، ولسان مشورته السفير ووجه تدبيره

السافر ؛ وطالمـا غرّ وأغرى ، وجرّ وأجرى ، وضرّ وأضرى ؛ فلمـا توكّل مولانا السلطان وعزم وعزّم فتوكّل ، وتحقّق أن البلاء به قد نزل ، وما تشكّك أن ذلك فى ذهن القَـدَر قد تصوّر وتشـكّل ؛ وأنّ يومه فى الفتك سيكون أعظم من أمسه وأعظم منهما معاداة غده ، وأن نصر الله لن يُخلفه صادقُ موعده ، أكل يده ندامةً على ما فرّط فى جَنْب الله ؛ وساق الحَتْف لنفسه بيده فعمّر الله بروحه الخبيثة الدَّرَكَ الأسفل من النار ، وسقاه الحَتْفَ كأسا بعد كأس لم يكن لهـا غيرَ المُلْك من خُمار . وكانت طرابلس هى ضالّة الإسلام الشريدة ، وإحدى آبقاته من الأعوام العديدة ؛ وكلمـا مرّت شمخت بأنفها ، وتأنقت فى تحسين منازه منازهها وتزيين رَيْحانها وعَصْفها ، ومرّتْ وهى لا تُغازل مَلِكا بطرْفها وكلما تقادم عهدها تكثرت بالأفواج والأمواج من بين يديها ومن خلفها ؛ إذ البحر لها جِلْباب والسحاب لها خِمار ، وليس بها من البرّ إلا بمقـدار ساحة الباب من الدار ؛ كأنها فى سِيف ذلك البحر جبلٌ قد آنحطّ ، أو مَيْل آستواء قـد خرج عن الخط ، وما قصد أحدٌ شطّها بنكاية إلا شطّ وآشتط ؛ قدّر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العِنان ، وسبق جيشه اليها كلُّ خبر وليس الخبر كالعِيان ، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادةُ قد أحرسته عيونَها وتلك المخاوف كلّهن أمان ، وقد آتخذ من إقدامه عليها خير حبائل ومن مفاجآته لهـا أمدّ عِنان ؛ (٧٢) وفى خدمته جنود لا تستبعد مَفَازة ، وكم راحت وغدتْ وفى نفوسها للأعداء حَزَازة ؛ فآمتطَوْا بخيولهم من جبال لُبنان تيجانًا لهـا صاغتها الثلوج ، ومعارجَ لا تُرافق بها غير الرياح الهُوج ؛ وآنحطّت تلك الجيوش من تلك الجنادل ، آنحطاط الأجادل ، وآندفعوا فى تلك الأوعار آندفاع الأوعال ، ولم يَحفِل أحد منهم بسَرَبٍ لاصق ولا بجبل شاهق فقال : هذا منخفضٌ أو عال ؛ وشرعوا فى التحصيل لما يُوهى ذلك التحصين ، وآبتناءِ كلِّ سُور أمام أسوارها من التدبير الحسن والرأى الرصين ؛ فما لبثوا إلا مقدار ما قيل

لهم : دونكم والاحتطاب ، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب ؛ حتى جرّوها بأسرع من جرّ النَّفَس ، وأجروها على الأرض سفائن وكم قالوا : السفينة لا تجرى على يَبَس . وفى الحال نقلت إليها فرأوا من مُتَوقِّلها(١) من يمشى بها على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ، ووجّهت سهامُها وجوهَها إلى منافذها فما شوهدت منها عينٌ إلا وكان قُدّامها منها إصبع ؛ وأُلقيت العداوة بين الحجارة من المجانيق وبين الحجارة من الأسوار ، فكم نَقَبت ونقّبت من فِلْذة كَبِدها عن أسرار ؛ وأُوقدت نيرانُ المكايد ثمّ فكم حولها من صافن ومن صافر ، وكم رمتهم بشرر كالقصر فوقع الحافر كما يقال على الحافر . وما برحت سُوق أهل الإيمان فى نَفَاق على أهل النِّفاق ، وأكابرهم تساقُ أرواحهم الخبيثة إلى السِّياق . وكان أهل عكّاء قد أنجدوهم من البحر بكلّ بَرّ ، ورموا الإسلام بكل شَرَرٍ وكل شرّ ؛ فكان السهم الذى يخرج منها لا يخرج إلا مقترنا بسهام . وشُرُفات ذلك الثغر كالثنايا ولكنها لكثرة من بها لا تفترّ عن ابتسام ؛ وما زالت جنود الإسلام كذلك ، ومولانا السلطان لا تُرَى جماعةٌ مُقْدِمةٌ ولا متقدّمةٌ إلا وهو يُرَى بين أولئك . واستمرّ ذلك من مُستهلّ شهر ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر ، فزحف عليها فى بُكْرة ذلك النهار زَحْفًا يقتحم كلّ هَضْبة ووَهْده ، وكلّ صُلْبة وصَلْده ، حتى أنجز الله وعدَه ، وفتحها المسلمون مجازا وفى الحقيقة فتحها وحدَه ؛ وطلعت سناجق الإسلام الصُّفْر على اسوارها ، ودخلت عليهم من أقطارها ، وجاست الكتّابة خِلال ديارها ؛ فاحتازها مولانا السلطان لنفسه مِلْكا ، وما كان يكون له فى فتحها شريك وقد نفى عنها شِركا ؛ وكلما قيل : هذه طرابُلُس فُتحت قال النصر بمن قتل فيها من النُّجُد الواصلة وأكثر عكا وأهل عكا(٢) ؛ وأعاد الله قوة الكفر بها أنكاثا ،

(١) توقل فى الجبل : صعد .

(٢) كذا وردت هذه الكلمات بالأصل ، وهى كما يظهر قلقة غير واضحة .

وكان أخذُها من مائة سنة وثمانين سنة فى يوم ثلاثاء وٱستُرِدّتْ فى يوم الثلاثا . ولما عمّت هــذه البشائر [و] وَكّل بها مولانا السلطان إلى كلّ من يستجلى حسان هــذه العرائس، ويستحلِى نفيس هذه النفائس؛ سيّر مولانا السلطان إلى مولانا بُشْرى فقعقع بهــا البريد، لتُتْلَى بأمر مولانا على كل من ألقى السمع وهو شهيد ، وكما عمّ السرور بذلك كلّ قريب قصد أن يعُمّ الهناءُ كل بعيد . وأصدر المملوك هذه الخدمة تحجّب بين يدى نجواها ، ويتوثّب بعد هذه المفاتحة لكلّ سانحةٍ يحسن لدى المولى مستقرّها ومثواها . لا برح المقــام يستبشر لكُماة الإسلام بكل فضل و بكلّ نُعْمَى ، و يفرح لسَرْح الكفر إذا ٱنتُهِك ولسفح المُلْك إذا يُحْمَى ، ولسمع الشِّرك إذا يُصَمّ ولقلبه إذا يُصْمَى .

وكتب المولى محيي الدين أيضا عن نفســه مطالعةً إلى السلطان الملك المنصور يهنّئه بهذا الفتح :

هُنِّئتَ يا مــلكَ البَســيطهْ * فتحًا به النُّعْمَى مُحيطــه
وبَقِيتَ يا خـــير المــلو * كِ بسيفك الدّنيا محُوطَــه

يقبّل الأرض و يبتهل إلى دُعاءٍ صالح يقدّمــه بين يدى بِشْره وبُشْراه، وكلّ مقام محمود من الإجابة يحوّله فى سِرّه ونجواه ؛ و يهنّىء بهــذا الفتح الذى كم مضى مَلِكٌ وفى قلبه منه حَسْره ، وما ٱدّخر الله إلا لمولانا السلطان أجرَه وفخرَه . فالحمد لله على هذا النصر العزيز وهذا الفتح المبين، والظفر الذى أعطاه الله إيّاه فى شهر وقد أقامت جموعُ الكفر حتى حازت بعضَه فى مُدّة سبع سنين . وله الشكر على أن جعل الكفر من بعد قوةٍ أنكاثًا ، وجعل أخذ مدينة طرابُلس من الكفّار فى يوم الثلاثاء وكان أَخْذُها من المسلمين فى يوم الثلاثاء؛ وله المِنّة فى ردّ هــذه الأخِيذة ، وجعلها بين (٧٣) يدى مولانا السلطان مَنْبوذة . ثم المنّة لله على أن سطر فى سيرة مولانا السلطان هذه

السَّنَة، وجعلها ما بين نومة عين وآنتباهتها فى أقرب من سِنَة، وردّ إباقها على المسلمين بعد أن أقامت هاربة عند الكفار مائةَ سنة وستًّا وثمانين سنة؛ والله يلحق بها فى الفتح أخواتِها من المدن، ولا يلبث إن شاء الله هاديا بها بعدها مثل عَكّاء وصُور وصَيْدَا حتى يراهنّ الى قبضته قد عُدْن، إن شاء الله تعالى .

وكتب إلى الأمير حسام الدين طرنطاى عن الأمير بدر الدين بيدرا فى ذلك :

المملوك يهنئ بهذا الفتح الذى كادت به هذه الغزوة تزهو على غيرها من الغزوات وتتيه، وأشرقت الأرضُ بنور ربها آبتهاجًا بما أمضاه الله منه وما سيُمضيه، وبما سيُعطيه حتى يُرضيه، وذلك أن فتح طرابُلُس التى طالما شمَخت بأنفها على الملوك، وكم أبتْ على مستفتِح فما قال لغيره إباؤها : لله أبوك ؛ وأخّر الله مدّتها إلى خير الأزمان، وفتحها على يدى سلطاننا الذى حقّق الله به آمالًا تنفُذ إلا منه بسلطان. فالحمد لله الذى عضَد هذا الملك من مولانا بخير من دبّره، وحماه منه بأقطع حُسامٍ جرّده الله لنقض ما أمَرّه؛ وما من فُتوح ولا أمر ممنوح إلا ومولانا مُتَضَّد عقودِه، ومجهّز بَريدِه، ومطلع سعودِه، ورافع علمه، ومُمْضى سيفه ومُرضى قلمه . فأمتع الله الأمة من مولانا السلطان بسلطان يستردّ لهم الحقوق ويتقاضى الديون، وأمتع الله سلطانها من مولانا بمن آراؤه أقفال الممالك وسيوفه مفاتيح الحصون .

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ما كتب به عن الأمير سيف الدين سلّار نائب السلطنة الشريفة إلى النائب بقلعة الجبل عند كسرة التتار بمرْج الصُّفَّر فى شهر رمضان سنة آثنتين وسبعمائة :

وبشّره بالفتح الذى أعاد الله به الأمة خَلْقًا جديدا، والنصرِ الذى أنزل الله فيه من الملائكة أنصارا لله وجنودا، والظفرِ الذى أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن

يرهب خمودا، والغزوة التى زلزل الله بها جبالَ أهل الشرك وقد تدفّقت على الأرض أمثال البحار عددا وعديدا . المملوك يقبّل اليد العالية التى لها من هذه النُّصرة و إن لم تبلغها أجرُ الرامى المسدِّد سهمَه، المعجّلِ من التهانى غُنْمَه، الموفّرِ من المحامد الجزيلة قِسمَه، ويهنّىء المولى بهـذا الفتح الذى مدّ الله به على الأمة جناح رحمته وفضله، ومنّ على أيّامنا الزاهرة فيه بالشأم وأهله، وبرز فيـه الإسلامُ كلّه للشرك كلّه . ولله الحمد الذى أعز دينَه ونَصَره، وحصد بسيوف الإسلام عدوَّ دينه بعد أن حَصَره، وأباد جيوشَ الشِّرك وهم مائة ألف أو يزيدون، وأفنى أحزاب أهل الكفر وكانوا أمثالَ الرمال لا يُعَدّون ؛ وينْهِى أنّ علمه الكريم قد أحاط بمـا كان من أمر هذا العـدوّ المخذول ودخوله إلى البلاد المحروسة بجيوشه وكتائبـه وجُموعه وجُنوده من أشياع أهـل الكفر وأحزاب الشرك . ولمـا تواصلت الأخبارُ بقُربه، وآستعداده بحزبه، ومهاجمته البلاد، وإيقاع الرُّعب فى قلوب أهلها بالتنوّع فى الفساد، ساق الركابُ الشريف فى طلبه يَطْوِى المَراحل، ويقطَع فى كلّ يوم منزلتين بل منازل . ولمـا حلّ الركاب الشريفُ بمَـرْج الصُّفَّر على مَرْحلة من دمشق المحروسة فى يوم السبت مستهلّ شهر رمضان المعظّم زُيِّنَتِ العساكرُ المنصورة للقاء حال وصولهـا، وآستعدّت للحرب دون تشاغُلٍ بأسباب نُزولها ؛ فوافى العدوّ المخذولُ فى مائة ألف من جيوش تسيل كالرمال، وتعلو الجبالَ بأشدَّ من الجبال ؛ وحين وصلوا حملوا على الميمنة بجُمْلتهم، وقصـدوا إزاحتها عن موقفها بحملتهم؛ فتلقّتهـم الجيوشُ المنصورة بنفوس قد بايعت اللهَ على لقاء عدوّ الله وعدوِّها، ووثقت بمـا أعد الله لهـا من الجزاء فى رواحها فى سبيله وغُدُوِّها ؛ وصَدَمتهم صدمةً كسرت حدَّهم، وأوهنت شِدّتهم وشَدَّهم ؛ وأزالت طمَعهم، وأبانت ظَلَعهم؛ وسالت(١) عليهم الجيوشُ المنصورةُ من (٧٤)

(١) فى الأصل . «وأسالت» .

كلّ جانب، وحَميت الحرب بين الكتائب الإسلاميّة وبين تلك الكتائب؛ ودخل الليل ونار الحرب تشتعل، والجياد من المحاجر تحفى وبالجماجم تنتعل؛ فأووا إلى جبال اعتصموا بهضابها، واحتموا بتوعّر مسالكها وضيق عقابها؛ وأحاطت بهم الجيوش المنصورة تحوسهم[1] لا تحفظهم، وتضمّ أطرافهم لا لحبّهم بل لبغضهم؛ فكانوا — بعد كثرة من قتل منهم فى المعركة الأولى أو فرّ من أوّل الليل — جمعا يناهز الأربعين ألف فارس، فأصبحوا يعاودون القتال، وينزلون إلى أطراف الجبال للنزال؛ والجيوش المنصورة تلزمهم من كل جانب، وتحكّم فى أبطالهم القنا والقواضب. وجرت فى أثناء ذلك حملاتٌ ظهر فى كلّ منها خسارهم، وشهد عندهم بما يكابدون قتلهم وإسارهم؛ وبعد ذلك نزلوا من جانب واحد يطلبون الفرار، ويتوقّعون القتل إن تعذّر الإسار؛ فساقت خلفهم الجيوش المنصورة تتخطّفهم رماحها، وتتلقّفهم صفاحها؛ وتقاذفت بمن نجا منهم الفلوات، وغرّقتهم أمواج السّراب قبل أمواج الفرات؛ فأخذوا قنصا باليد من بطون الأودية ورءوس الشّعاب، ولم يحصل أحد منهم على الغنيمة بالإياب؛ وقتل أكثر مقدّمى التمانات[2] وفرّ كبيرهم وأنّى له الفرار، وبين يديه مفاوز إن سلك منها تناولته بأرماح من العطش القفار. فليأخذ المولى حظّه من هذه البشرى التى تنبىء عن الفتح العظيم والفضل العميم، والنّصرة التى حفظ الله بها على الإسلام البلادَ والثغورَ والأموالَ والحريمَ؛ ويكتُبْ إلى البلاد بمضمونها، ويَسُرّ قلوب أهل الثغور بمكنونها؛ ويستنهض المولى الأئمة لشكر الله عليها، ومن ذا الذى يقوم بشكر ذلك! ويعرّفهم مواقع هذه النّصرة التى أنجد الله فيها الإسلام بالملائك؛ ويتقدّم أمره بضرب البشائر بكلّ مكان، ويشهر فى جميع الثغور أن عدوّ

(١) فى الأصل: «تحرسهم» بالراء. والحوس: القتل.

(٢) فى أحد الأصول: «التومانات».

الله وعدوُّ الإسلام دخل فى خبرِ كان؛ وأن الله تعالى كسرَ جيوش التتار كسْراً لا يُجبَر صَدْعُه، ولا يتأتّى إن شاء الله تعالى جَمْعُه. والله تعالى يُسمعه من التهانى كلّ ما يَسُرّ الإسلامَ وأهلَه، ويشكر قولَه فى مصالح الإسلام وفعلَه؛ إن شاء الله تعالى .

---

# البـاب الثـانى

## من القسم الرابع من الفن الثـانى

### فى المــراثى والنــوادب

والمراثى إنما جُعلت تسليةً لمن عضّته النوائب بأنيابها، وفرّقت الحوادث بين نفسه وأحبابها؛ وتأسيةً لمن سبق الى هذا المَصْرَع، ونهِل من هذا المَشْرَع؛ ووثُوقا باللّحاق بالماضى، وعلمًا أنّ حادثةَ الموت من الديون التى لا بدّ لها من التقاضى؛ وأنه لا سبيل إلى الخلود والبقاء، ولا بدّ لكلّ نفس من الذّهاب ولكلّ جسد من الفناء . قال الله تعالى فى محكم تنزيله مخاطبة لرسوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. فليرضَ من فُجع بخليله وشقيقه، وصاحبه وصديقه؛ وأهله وولده، وجمعه وعَدَده، وماله ومدده؛ نفسَه الجـامحة فى ميادين أسفها وبكائها، الجانحةَ إلى طلب دوائها من مَظانّ أدوائها؛ بزِمام الصبر الجميل، لينال الأجرَ الكريم والثوابَ الجزيل؛ فقد أثنى الله تعالى على قومٍ بقوله : ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾؛ وقال تعالى إخبارا عن لُقمان فى وصيّته لابنه : ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ . وليسترجعْ مَنْ أصابته مصيبة أو نزلت به بليّة، وطَرقته حادثةٌ أو ألمّتْ به رزيّة؛ لمـا جعل الله تعالى للمسترجع بفضله ومنّه، من صَلاته عليه ورحمتـه؛ قال الله عز وجل :

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ . وليتأسَّ الفاقد برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جعل الله فيه أُسوةً حسنةً لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وليَقْتَدِ بأصحابه رضى الله عنهم ليفوز بثواب الصابر ويحوز أجر الشاكر .

وباب الرِّثاء فهو باب فسيح الرِّحاب والنوادى، فصيح اللسان فى إجابة المنادى (٧٥) ذى القلب الصادى؛ متباين الأُسلوب، مختلف الأطراف متباعد الشعوب؛ منه ما يُضْنِى القلوب بنباله، ومنه ما يُسَلِّيها بلطيف مَقاله؛ ومنه ما يبعثها على الأسف، ومنه ما يَصرفها عن موارد التلف . وقد أكثر الشعراء القول فى هذا الباب، وٱرتقَوْا الذِّروة العلياء من هـذه الهِضاب؛ ووجدوا مكان القول ذا سعة فقالوا، وأصابهم هجير اللوعة فمالوا إلى ظِلِّه وقالوا . قال الأصمعىّ : قلت لأعرابىّ : ما بالُ المراثى أشرف أشعاركم؟ قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترقة . وعلى الجملة فالموت هو المصيبة التى لا تُدْفَع ، والرزيّة التى لا تُرَدّ بكثرة الجموع ولا تُمنع ؛ والحادثةُ التى لا تنصرف بالفـداء وإن جلّ مقـدارُه ، والنازلةُ التى لا تتأخر عن وقتها بالدعاء وإن عظُمت فى غيرها آثاره ؛ وهو أحد الأربعة التى فُرِغ منها، وصُرِفت وجوهُ المطامع عنهـا .

وقد قالت الحكماء : أعظم المصائب كلِّها ٱنقطاع الرجاء . وقالوا : كلّ شىء يبـدو صغيرا ثم يعظُم إلا المصيبة فإنها تبـدو عظيمةً ثم تصغُر . وقالوا : لا يكون البكاء إلا من فضل، فإذا ٱشتدّ الحزن ذهب البكاء . قال شاعر :

فلئن بَكَيْنـاه لَحَـقّ لنـا * ولئن تركنا ذاك للصَّـبْرِ
فلمثـله جَرَت العيونُ دَمًا * ولمثـله جَمَـدَت فلم تَجْـرِ

وقيل : مرّ الأحنف بٱمرأة تبكى ميّتا ورجلٌ ينهاها، فقال : دعها فإنها تندُب عهـدًا وسفَرًا بعيدا . قيل لأعرابيّـة مات ٱبنها : ما أحسنَ عزاءَك ؟ قالت :

إنّ فقدى إيّاه آمننى كلَّ فقدٍ سواه، و إنّ مُصيبتى به هوّنتْ علىّ المصائبَ بعـده؛ ثم أنشأت تقول :

كنتَ السوادَ لمُقْلتى * فعَمِى عليكَ النّـاظرُ
مَنْ شاء بعدَك فلْيَمُتْ * فعليك كنتُ أحاذرُ
ليتَ المنـازلَ والدّيا * رَ حفـائرٌ ومقَـابِرُ
إنّى وغـيرى لا محـا * لةَ حيثُ صِرتَ لصائر

وقد نقل أبو الفرج الأصفهانى : أن بعض هذا الشعر لإبراهيم بن العباس بن محمد بن صُولٍ يرثى آبنًا له فقال :

أنت السوادُ لمقـلةٍ * تبْكِى عليـك وناظرُ
مَنْ شاء بعدكَ فليمُتْ * فعليـكَ كنتُ أُحاذِر

ولم يزد على هـذين البيتين شيئا . أخذ الحسن بن هانىء معنى البيت الأوّل فقـال فى الأمين :

طوى الموتُ ما بينى و بين محمدٍ * وليس لمـا تطوى المنيّةُ ناشرُ
وكنت عليه أحذَرُ الموتَ وحدَهُ * فـلم يبقَ لى شىء عليـه أُحَاذِرُ
لئن عَمَرَتْ دورٌ بمن لا نُحِبّه * لقـد عَمَرت ممّن نُحِبّ المقـابِر

وقيل : من أحسن ما قيل فى التّعازى أنّ أعرابيًّا مات له ثلاثة بنين فى يوم واحد فدفنهم وعاد إلى مجلسه، فجعـل يتحدّث كأن لم يفقِد أحدا؛ فَلِيم على ذلك، فقال : ليسوا فى الموت ببديع، ولا أنا فى المصيبة بأوحد، ولا جَدْوَى للجَزع، فعلَامَ تلومونى، وهذه ثلاثة الأقسام لا رابع لها! . وعزّى أعرابىّ رجلا فقال : لا أراك الله بعـد مصيبتك ما يُنْسِيكَها . وقيل : لمّـا دفن على بن أبى طالب رضى الله عنه فاطمةَ رضى الله عنها تمثّل على قبرها بهذين البيتين :

لكل ٱجتماعٍ من خليلين فُرْقَـةٌ * وكُلُّ الذى دون الممات قليلُ
وإن ٱفتقادى واحدًا بعد واحد * دليـلٌ على ألّا يدومَ خَليـلُ

وعزّى علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنـه الأشعثَ بن قيس عن ٱبنه فقال : إن تَحزَنْ فقد ٱستحقّتْ ذلك منك الرَّحِم ، و إن تَصْبِر ففى الله خَلَفٌ من كلّ هالك ، مع أنك إن صبرت جرى عليـك القدرُ وأنت مأجور ، و إن جَزِعت جرى عليـك القدر وأنت موزور ، سرّك الله وهو بلاءٌ وفتنة ، وحزَنَك وهو ثواب ورحمة .

وعزّى أكثم بن صَيْفِىّ حكيمُ العرب عمرو بن هند الملك عن أخيه فقال : أيها الملك ، إنّ أهل هذه الدار سَفْر لا يحلُّون عُقَدَ الرحال إلا فى غيرها ، وقد أتاك ما ليس بمردودٍ عنك ، وٱرتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك مَنْ سَيَظْعَن ويدعُك ؛ فـا أحسنَ الشكر للنعم والتسليم للقادر ! وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفرع بعد أصـله ! وٱعلم أن أعظم من المصيبة سوءُ الخَلَف منها ، وخيرٌ من الخير مُعطيه ، وشرٌّ من الشر فاعلُه .

وقال ٱبن السَّماك : المصيبة واحدة ، فإن كان فيهـا جَزَعٌ فهى ٱثنتان . وقال أبو على الرّازى : صَحِبتُ الفُضَيْل بن عِيَاض ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا متبسّما إلا يوم مات ٱبنـه علىّ ؛ فقلت له فى ذلك ؛ فقال : إنّ الله أحبّ أمرًا فأحببتُ ما أحبّ الله . وقال صالح المُرّىّ : إن تكن مصيبتُك فى أخيك أحدثتْ لك خشيةً فنعم المصيبةُ مصيبتُك ، و إن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جَزَعًا فبئست المصيبةُ مصيبتُكَ . وقال علىّ بن موسى للفضـل بن سهل يعزّيه : التهنئـةُ بآجل الثواب أولى من التعزيةَ على عاجل المُصيبة . وعزّى الرشيدَ رجلٌ فقال : كان لك الأجرُ يا أمير المؤمنين لا بك ، وكان العزاءُ لك لا عنك . أخذه الآخر فقال :

كُن المُعَـزِّى لا المُعزَّى به * إن كان لا بُدَّ من الواحد

وقال عمر بن عبد العزيز لأبنه عبد الملك وقد آشتدّ به الألمُ : كيف تجِدُك يا بُنيّ؟ قال : أجدنى فى الموت، فآحتسِبْنى، فإنّ ثواب الله خير لك منى . قال : والله يابُنىّ لأن تكون فى ميزانى أحبُّ إلىّ من أن أكون فى ميزانك . قال : وأنا والله لأن يكون ما تُحِبُّ أحب إلىّ من أن يكون ما أُحِبُّ .

وعزّى شبيب بن شبّة أبا جعفر المنصور بأخيه أبى العباس السفّاح فقال : جعل الله ثواب ما رُزِئْتَ لك أجرا، وأعقبك عليه صبْرا، وختم لك بعافية تامّة، ونعمة عامّة؛ فثوابُ الله خيرٌ لك منه، وأحقّ ما صُبِر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل .

ودخل البَلَاذُرِىّ على علىّ بن موسى الرِّضَا يعزّيه بآبنه فقال : أنت تجِلّ عن وصفنا، ونحن نقصُر عن عِظَتِك، وفى علمك ما كفاك، وفى ثواب الله ما عزّاك .

فهذه نُبذة فى التعازى كافية، وجُنّة لِمَنْ تحصّن بها من ذوى الفجائع واقية . فلنذكر المراثى .

## ذكر شىء من المراثى والنوادب

(٧٧) ولنبدأ من ذلك بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبشىء مما قيل عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم وفاة ولده إبراهيم عليه السلام : "يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حَقٌّ ووعدٌ صِدْقٌ وأن آخِرَنا سيلْحَقُ أوّلَنا لَحَزِنّا عليك حزنا هو أشدّ من هذا وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون تَبْكى العينُ ويحزَن القلب ولا نقول ما يُسْخِط الربّ" . ذكره الجوّانىّ النسّابة فى شجرة الأنساب، وذكره غيره مختصرا .

ومنه ماروى أن فاطمة رضى الله عنها وقفت على قبره صلى الله عليه وسلم وقالت :

إنّا فقـدناك فَقْـدَ الأرضِ وابلَها * وغاب مذ غِبْتَ عنّا الوحى والكُتُبُ
فليت قبـلك كان الموتُ صادفَنـا * لمـّا نُعِيتَ وحالت دونك الكُثُبُ

ووقف علىّ رضى الله عنه على قبره صلى الله عليه وسلم ساعة دُفن وقال : إنّ الصبر لجميلٌ إلّا عنك، و إن الجَزَع لَقبيحٌ إلا عليك؛ و إنّ المصاب بك لجليل، و إنه قبلك و بعدك لجَلَل . وقد ألمّ الشعراء بهذا المعنى؛ فقال إبراهيم بن إسماعيل فى علىّ ابن موسى الرِّضا :

إنّ الرزيّة يا بن موسى لم تَدَعْ * فى العين بعدك للمصائب مَدْمَعا
والصبرُ يُحْمَـدُ فى المواطن كلّها * والصـبرُ أن نبكى عليك ونَجْزَعا

ووقف أعرابىّ على قبر رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فقال : قلتَ فقبلنا، وأمرت فحفظنا، وقلتَ عن ربّك فسمعنا : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفر لنا؛ فمـا بقيت عينٌ إلا سالت .

ودخل عمر بن الخطاب على أبى بكر الصِّدّيق رضى الله عنهما فى مرض موته، فقال : يا خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، لقـد كلّفتَ القوم بعدك تَعَبا، وولّيتهم نَصَبا؛ فهيهات مَنْ شقّ غُبَارَك! وكيف باللّحاق بك! .

وقالت عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها وأبوها يُغَمَّض :

وأبيض يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهه * ثِمـالُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

فنظرَ إليها وقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أُغْمِى عليه، فقالت :

لَعَمْرُك ما يُغْـنِى الثَّرَاءُ عن الفـتى * إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاق بها الصدرُ

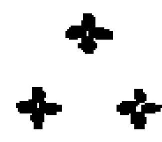
فنظر إليها كالغضبان وقال : قولى : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ

منهُ تَجِدُ﴾ . ثم قال : آنظروا مُلاءتَىّ فآغسلوهما وكفِّنونى فيهما ، فإن الحىَّ أحوجُ إلى الجـديد من الميّت . ووقفتْ رضى الله عنها على قبره رضى الله عنه فقالت : نضّر اللهُ وجهك ، وشكر لك صالحَ سَعيك ؛ فقد كنتَ للدنيا مُذِلاًّ بإدبارك عنها ، وكنتَ للآخرة مُعِزاًّ بإقبالك عليها ؛ ولئن كان أجلُّ الحوادث بعدَ رسول الله صلى الله عليـه وسلم رُزءك ، وأعظمُ المصائب بعـده فقدك ؛ إن كتاب الله لَيَعِدُ بحسن الصبر فيك وحسن العِوَض منك ؛ فإنا لنتنجّز موعودَ الله بحسن العَزَاء عليك ، وأستعيضه منك بالآستغفار لك . أَمَا لئن كانوا أقاموا بأمور الدنيا لقد قمتَ بأمر الدّين حين وَهَى شَعْبُه ، وتفاقم صَدْعُه ، ورَجَفت جوانبه . فعليك السلام ورحمة الله توديعَ غير قالِيَةٍ لك ، ولا زارِيَةٍ على القضاء فيك . ثم آنصرفت .

ولمـا قُبِض رضى الله عنه سُجِّى عليـه بالثوب ، فآرتجت المدينة بالبكاء ودَهِش القوم كيومَ قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؛ وجاء علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه باكيًا مسرعا مُسْترجِعا حتى وقف بالباب وهو يقول : رحمك الله أبا بكر ، كنتَ والله أوّلَ القوم إسلاما ، وأخلصَهم إيمانا ، وأشدَّهم يقينا ، وأعظمَهم غَناء ، وأحفظَهم على رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وأحدبَهم على الإسلام ، وأحناهم على أهـله ، وأشبَهم برسول الله صلى الله عليه وسـلم خُلُقًا وفضلًا وهَدْيًا وسَمْتا ؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، صدّقتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين كذّبه الناس ، وواسيتَه حين بَخِلوا ، وقمتَ معه حين قعدوا ، وأسماك الله فى كتابه صِدّيقا فقال : ﴿وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ، يريد محمدا و يريدك . كنت والله للإسلام حصنا وعلى الكافرين عذابا ، لم تَفْلُلْ حُجّتُك ، ولم تضعُف بصيرتُك ، ولم تجبُن نفسُك . كنت كالجبل الذى لا تحرّكه العواصف ولا تُزِيله القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفًا فى بدنك ،

قويًّا فى أمر الله، متواضعًا فى نفسك، عظيمًا عند الله، جليلًا فى الأرض، كبيرًا عند المؤمنين. لم يكن لأحد عندك مَطْمَعٌ ولا لأحد عندك هَوَادة؛ فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذَ الحقّ منه، والضعيفُ عندك قوىّ حتى تأخذ الحقّ له . فلا حرمَنا اللهُ أجرك، ولا أضلّنا بعدك .

فانظر إلى هذا الأسلوب العجيب، وتأمّل هذا النّمط الغريب؛ الذى جمع بين سلاسة الألفاظ و إيجازها، و إصابة المعانى و إعجازها . ولا يُستكثر على من أُنزِل القرآن بلغتهم، أن يكون هذا القول من بَديهتهم .



ولنذكر لُمْعةً من رسائل البلغاء والفضلاء، ولَمْحَةً من أشعار الأدباء والشعراء .

فمن ذلك رسالة كتبها الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجدّ، إلى الوزير الفقيه أبى القاسم الهُوزِنى يعزّيه عن أخيه، ابتدأها بأن قال :

لا بُدّ من فقـد ومن فاقد * هيهات ما فى الناس من خالد
كُن المُعَـزَّى لا المعـزَّى به * إن كان لا بُدَّ من الواحد

إذا لم يكن بُدٌّ من تجرُّع الحِمام، وتشتُّتِ النّظام، وآنصداع شَمْل الكرام؛ فمن الاتّفاق السعيد والقدَر الحميد أن يرث أعمارَ البِنْيَة الكريمة مُشَيِّد عُلَاها، وتسلَم من القلادة وُسْطاها، فمدار الكنانة على مُعَلّاها، ونِجارُ الحَلْبة مُحْرِز مَداها . وفى هذه النُّبذة إشارة إلى من فرَط من الإخوة النبلاء، ودرج من السادة النُّجَباء؛ فإنهم و إن كانوا فى رتبة الفضل صُدورا، وغدَوا فى سماء النُّبل بدورا؛ فإنّ شمس علائك أبهرُ أضواءً وأزهرُ أنوارًا، وظِلّ جنابك على بنيهم ومُخلَّفيهم أندى آصالا وأبردُ أسحارا .

نُعِى إلىّ — أوحشك الله سلوانك، ولا أخلى من شخصك الكريم مكانك! — الوزيرُ

أبو فلان، برّد الله ثراه ، وكرّم مثواه ؛ فكأنّما طَعَن ناعِيه فى كَبِدى، وظَعَن باكيه بذخيرة جَلَدى . لا جَرَمَ أنّى دُفِعتُ إلى غمرة من التَّلَدُّد لو صُدِم بهـا النجمُ لحار ، أو دُهِم بها الحَزْم لخار، ثم ثابتْ إلىّ نفسى وقد وقَذَها الجَزَع ، وعضّها الوجَع ، فأطلتُ الاسترجاع ، وجمعت الجَلَد الشَّعاع ؛ وها أنا عند الله أحتسبه جِمَاعَ فضائل، وجمالَ محافل؛ وحديقةَ مكارم صَوَّحتْ، وصحيفةَ محاسن دَرَست وٱمَّحت . وما ٱقتصرت من رسم التعزية المألوف، على القليل المحذوف، إلا لعلمى بأن المعزَّى لا يُورد عليك غريبا ، ولا يُسمعك من مواعظه عجيبا ؛ فبك يقتدى اللّبيب ، وعلى مثالك يحتذى الأديب ، و إلى غَرَضك فى كل موطن يُوفِى[(1)] المُصيب ؛ وفى تجافى الأقـدار عن حَوْبائك ، وسقوطها دون فِنائك ؛ ما يدعو إلى حسن التعزية . لا صدَع الله جمعَك ، ولا قرَع بنبأة المكروه سمعَك .

(٧٩) ومن إنشاء القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى :

ورد الخبر بمصرَع فلان الذى عزّ على المعالى ، وعُزِّيت به الليالى ؛ وسقط به نجمُ الشرف وهَوَى ، وجفّ به روض الكَرَم وذَوَى ؛ ونقصت الأرض من أطرافها ، ورَجَفت الجبال من أعرافها ؛ وبكت عليه السماء فإنّ يده كانت من سُحبها ، وتناثرت له النجوم فإنّ عزمه كان من شُهُبها ؛ واظلمت فى عينى الدنيـا الظالمة ، وتجرّعتُ منها كأسا لا تُسيغها النفسُ كاظمة ؛ وتقسّمت الأيامُ فريقين فى مودّتى وعداوتى ، فآهًا على السالفة ولا مرحبًا بالقادمـة ؛ وأصبحت أخوض المـاء وأحشائى تتقطّع غليلا ، وأرى الناس كثيرا بعينى وبقلبى قليلا .

وما النّاسُ فى عَيْنىَّ إلّا حجارةٌ * لبينك والأعراسُ إلا مآتِمُ

(١) كذا بالأصول . ولعله محرف عن : «يرى» .

فقد ٱستوحشت الدنيا لفقده، وٱرتابت بنفسها مِنْ بعده، وعلمتْ حلاوةَ قربه بمرارة بُعده، وٱنصرف ذوو الأبواب عن بابه، وٱجتنبت الآمال مَغْنَى جنابه، وبكت الرياض على آثار سحابه .

فإنْ يُمس وَحْشًا بابُه فَلَرُبَّمَا * تناطح أفواجًا عليه المواكبُ

ومن إنشائه أيضا رحمه الله تعالى : ما شككتُ — أطال الله بقاءك — حين ورد النعى بالمصائب التى قَصَمت الظهورَ بمكروهها، وحَسَرت فيها الحسراتُ عن وجوهها، أنّ السماءَ على الأرض قد ٱنطبقت، وأنّ الأيّامَ ما أبقتْ والسعادةَ قد أَبِقَتْ، والحياةَ لم يبق فى طولها طائل، والصبرَ بهجير اللوعة ظِلٌّ منسوخٌ زائل، وشمسَ الفضائل قد غرَبت وكيف بطلوعها، ونفسَ المكارم قد نُزِعت من بين ضلوعها، وغابَ الإسلامِ قد غاب منه أىُّ لَيْث، ورياضَ الآمال قد أقلع عن سُقياها أىُّ غيث . فإنّا لله وإنا اليه راجعون، رضًا بحكمه، وتجلُّداً على مارمى به الحادث من سهمه، وطِبًّا للقلوب على مَضَض البلاء وكَلْمه، وفِراراً من الجمع بين مصيبة الفاقد وإثمه . وسقى الله ذاك الضريحَ ما شاء أن يسقيه من سحابٍ كصَوْب يديه، ورحمه رحمةً تَحُفّ بجانبيه . وآهًا لماء العَذْب كيف ٱرتشفته النوازل وأبقت المِلْح، ثم آهًا للصباح الطَّلْق كيف ٱغتالته الأصائل وأطلقت الجُنُح، ووا أسفا لتلك الذخيرة التى فذلكت بها الأيّام ذخائرى، والسريرةِ التى طالما صُنتها أن تمرّ بسرائرى، شَفَقًا عليها من سهام دهرٍ بالذخائر مُولَعة، وسَتْرًا لها من عين زمان على السرائر مُوقَعة . ولئن صحب قلبى بعده أضلعى، وتحمّلتُ بعد فقده على ظَلَعى، فإنّا غدًا على أثره، وإن كنّا اليوم على خبره . وقَصْرُ الحياة الى قُصور، كما أن محصول غرورها غرور . والتأدّبُ بأدب الله أولى ما خفّف به المسلوب عن مَنكِبه، وطريقُ السلوان لابدّ أن يُراجعه عَزْم مُتنكِّبه . فأنشُدها الله إلا جعلتْ مصيبتها مصيبةً على الشامت بما تلبَسه من صبرٍ يَلْبِس عليه

المصيبةَ فيشُبِّهها بِنعْمة ، و بمــا تستشعره من تجلُّد فى النازلة يُنْزِل عليها صلواتٍ من ربِّها ورحْمة . ولن ترى أعجب من مُصاب لا ترى به إلا مُصابا ، وساكِنِ تُرْبٍ لم يبق بعده إلا من سقى بدمعه تُرابا ؛ اشترك فيه الأَمَّتان العربُ والعجَم ، وعُزِّى به العزيزان المجدُ والكرم ، وآستباح الدهرُ به الصيدَ فى الحَرَم .

وتَشَابَهَ الباكُون فيه فلم يَبِنْ * دمعُ المُحِقّ لنا من المُتَعَمِّــلِ

وكتب أيضا فى مثــل ذلك : أخَّرت مكاتبــة الحضرة — مدّ الله فى عمرها وفى صبرها وفى أجرها ، وألهمها التسليم لحكم من هو غالب على أمرها — إلى أن تنقضى نَبْوة الخَطْب ، وتضعَ الأنفاسُ أوزارها للحرب ، ويُخرِجَ ماءُ الجفن نارَ القلب ؛ وتَرَاجَعَ الخواطرُ إلى عاداتها ، وتنظرَ فى الدنيا التى ما صُحِبت إلا على عادياتها ومُعاداتها ؛

٨٠ فتكون الحضرة عرَفت من غير تعريف ، ووقَفتْ على الحزم من غير توقيف ؛ وتوفَّر عليها الثواب بغير مُشارِك ، ورجعتْ إلى فهمِ مُدْرِكٍ وصوابِ مدارِك . وتأخير التعزية عن البادرة خلافُ ما شُرِع فيها ، ولكن إنما يحتاج أن يُثَبِّت مَنْ صَبْرُه هاف ، ويُرَمِّ مَنْ تَجَلُّده عاف . وقد علم الله آهتمامى وآغتمامى بفقد شيخها رحمــه الله وعدَمِها منه من لا عِوَض عنه إلا ثواب الله الذى يُهوِّن الوقائع ، ويُوطِّن على الروائع . وأسباب التعزية غير واحدة ، منها أنه إنما درَج فى السنّ التى هى مُعتَرَك المنايا ، ومنها أنه ما خرج عن الدنيا الى أن رأى منها خَلَفًا يهوِّن الرزايا ؛ ومنها أنه لقِىَ الله بعملٍ صالحٍ هو بمشيئة الله نجاته ، ومنها أنه فارقها على الرضا عنها ويكفيها مرضاتُه ، وعلى الدعاء المقبول لها ونعمت الجُنَن دعواته .

ولكن للأُلَّاف لا بدّ حسرةً * إذا جعلتْ أقرانُهــا تتقطع

ومنهــا أنــ الحزن لو أُطيع والحــزم لو أُضيع لمــا أفضى إلى مُراد ، ولا أعاد ميتًا قبل المَعاد . وأحقُّ متروك ما يأثم طالبه ، ويُؤْجَرُ مُجانبه .

عن الدهر فاصفح إنه غير معتب * وفى غير من قد وارت الترب فاطمع

والحضرة تعلمنى من لاحقة رجوعها إلى الله بعد الاسترجاع ، ومن تسليم خاطر الحزن إلى حكم الله ما يسر خاطر الاستطلاع ؛ وحسبه — أبقاه الله تعالى — من كل هالك ، ولا يجزع المحاسب من فذالك ، ومثله من أخذ بعزائم الله فيما هو آخذ وتارك . جبر الله مصابه ، وعظم ثوابه ، وسقى الماضى وروى ترابه ، ولا تذهب النفس حسرة لما شهدت العين ذهابه .

وتخطفته يد الردى فى غيبتى * هبنى حضرت فكنت ماذا أصنع

ومن إنشاء الشيخ ضياء الدين أحمد بن محمد القرطبى ما كتب به الى الصاحب شرف الدين الفائزى يعزيه فى مملوك توفى له ، وكان الصاحب قد جزع لفقده . ابتدأ كتابه بأن قال :

فدى لك من يقصر عن مداكا * فلا أحد إذًا إلا فداكا

إنا لله و إنا إليه راجعون . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، وسنة فى الأسى مستحسنة ؛ و إنما الأنفس ودائع مستودعة ، وعوار مسترجعة ، ومواهب بيد الفناء مستنزعة .

فالعمر نوم والمنية يقظة * والمرء بينهما خيال سارى

وما برح ذوو العزمات يتلقون واردات المصائب بصبرهم ، وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . وإن يد الله لملية بفيض المواهب ، وفى الله عوض من كل بائن وخلف من كل ذاهب . و إذا سلم مولانا فى نفسه وولده ، فلا بأس إذا تطرقت يد الردى إلى ملك يده .

فأنت جوهرة الأعناق ، ما ملكت * كفاك من طارف أو تالد عرض

والحمد لله الذى جعل المصيبةَ عندك لا بك، والرزيّةَ لك لا فيك .

* إذا سَلِمتَ فكلُّ الناس قد سلموا *

واذا تخطّتكما المنيّــة فلها فى ســواكما الخِيار ، ولنــا القِدْحُ المُعَلّى إذا أورى زَنْد هذا الآختيار . ولا بدّ فى مَشْرَع المنيّة من مفقودٍ وفاقد .

كن المُعَــزَّى لا المعــزِّى به * إن كان لا بــدّ من الواحد

وهذا فقــد وهبه الله لمولانا من حيثُ إنه أخذه منه، وأبقاه له من حيث رآه ذاهبًا عنه؛ فهو بالأمس عاريةٌ مردودة، واليوم ذخيرة موجودة؛ وكان عطيّةً مسلوبة وهو الآن نعمةٌ موهوبة؛ كنتَ له وهو الآن لك، وفزتَ به والسعيدُ من فاز بما ملك . وهذه دارٌ دواؤها دَاؤها ، وبقاؤها فَناؤها؛ طالبها مطلوب ، وسالبها مسلوب؛ و إن لنا فيمن سَلَف لعزاء، ولنا برسول الله صلى الله عليه وسلم آقتداء؛ ولا بدّ من ورُود هذا المشرع، ومُلاقاة هذا المصرع . (٨١)

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبى ما كتب به عن بعض النوّاب إلى الأمير عزّ الدين الحموىّ النائب — كان بدِمَشْق — تعزيةً بولده :

أعزّ الله أنصار المقرّ الكريم العالى ، ولا هدمت له الخطوب ركنا ، ولا بخات له الحوادث حِمًى ولا طلبت عليــه إذنا ، ولا هصرت أيدى الأقــدار من عروشه الناضرة غُصْنا ، ولا أذاقته الأيّام بعد ما مرّ أسفًا على من يحبّ ولا حُزنا، ولا سلَبه الجزَع رداء الصّبر الذى يخصّه بجزيل الأجر و إن شَرِكه فى الأسى والأسف كلٌّ منا .

المملوك يقبّل اليد الكريمة، و يُنْهِى أنه آتّصل به النبأ الذى صدّع قلبَه، وشغَل بالبكاء طَرْفه وبالأسف لسانَه وبالحزن لُبَّه؛ وهو ما قــدّره الله تعالى من وفاة المولى الأمير ركن الدين عمر — تغمده الله برضوانه — الذى آختار الله له ما لديه، وآرتضى له البقاءَ

الدائم على الفانى فنقله إليه ؛ على أن الدين فقــد منــه رُكْناً شديدا ، ورأياً سديدا ، وعزماً وحزماً مُعيناً مفيدا ، وأميراً أردنا أن يعيش سعيــدا ، فأبى الله إلا أن يموت شهيدا ، فإنا لله و إنا إليه راجعون . لقــد كان للرجاء فى آعتضاد الدولة القاهرة به أىُّ مجال ، وللآمال فى الآنتظار ببأسه ظنونٌ تُحقِّق أن الغلبة للدِّين دائما مع أن الحروب سجال ، وللكواكب بطلوع طَلْعته أىُّ إشراق ، وللعيون عن مشاهدة كماله وأبهة جلاله أىُّ إغضاء وأىّ إطراق . ولله أىّ بدر هوى من أُفُق بروجه عن فَلَك[1] ، وأىّ شمس ما رأته الجوارى الكُنَّس إلا قلن : حاش لله ما هذا بَشَراً إنْ هذا إلا ملك ؛ وأىّ حصن كانت منه ثمار الشجاعة تُجتَنَى ، وأىّ أسد براثنُه الصوارم وأجَمَاته القَنَا . لقد فَتَّ فى عَضُد الدين مُصابُه ، وأذهب صحّةَ الأُنْس به وحلاوةَ وجوده أوصابُ فقده وصابه ؛ وكادت الصوارمُ أن تَشُقّ عليه غُمودَها ، والرَّاياتُ أن تقطِّع عليه ذوائبها وتغــيِّر بنودَها ، والرماحُ أن تَعرِض على النار لتَقْصف لا لتُثَقَّف قــدودَها ؛ والجيادُ أن تتعثّر للحزن بذُيولها ، وتعتاض بالنَّوح عن صهيلها . ولو أُنْصِف لأَكنَّته القلوب فى ضمائرها ، ولو قُبِل الفِداءُ لسمَحَتْ فيه النفوسُ بالنفائس ولو كانت الحياةُ من ذخائرها ؛ أو لو كان الحتف مما يُدَافَعُ بالجنود تحطّمت دونه القنا فى دروع عساكرها ، ولكنه السبيل الذى لا مَحِيدَ عن طريقه ، والمُعَرَّس الذى لا بدّ لكل حىّ من النزول على فَريقه ؛ وهو الغاية التى تستَنّ إليها النفوس آستنان الجياد ، والحَلْبة التى كنّا نحن وهذا الدارجُ نَركُض إليها ولكنّ السابق كان الجواد ؛ على أن المتأخِّر لا بدّ له من اللَّحاق ، وماذا عسى يسرّ البــدر بكماله وهو يعلم أن وراءه المِحَاق ! وفى رسول الله أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يعلم أن كلّ رُزْء بعده جَلَل ، و إذا آنتقل العبد إلى الله تعالى غيرَ مفتون فى دينه ولا مُثْقَل الظهر من الأوزار حمِد فى غَدٍ ما فعل ؛ وغُبِط بقدومه

(١) فى الأصل : « من أفق سروجه » .

على أكرم الأكرمين مسرورا، ولقى الله وقد جعل فى قلبه نورا وفى سمعه نورا وفى بصره نورا . والمولى أعزه الله تعالى أولى مَنْ تلقَّى أمر الله بالتسليم والرضا، وقابل أقدارَه بأن الخِـيَرَةَ فيما قــدّر وقضى؛ وحمـد الله على ما وهب من بقاء إخوته الذين فيهم أعظمُ خَلَف، وأجملُ عوض يقال به للدهر الذى آعتــذر بدوام المسَرّة فيهم : عفا اللهُ عمّا سلف؛ وعلم أنّ الخطب الذى هدّ ركن الدين بآحترابه وآجترامه، قد صرفه إلى الأمد عن الإلمـام بساحة شهابه والتعرُّض إلى حِمَى نحوه والنظرِ إلى حىّ صلاحه؛ ففى بقائهـم ما يُرْغِم العــدا، ويُعِزّ حزب الهدى؛ ويُقيم كلًّا منهم فى خدمة الدولة القاهرة بين يدى المولى مقامَ الشِّبل المنتمى للأسد، ويُنْهِضهم من مصالح الإسلام مع ما يعلمه منهم من حسن الثَّبات من الوالد وسُرعةِ الوَثَبات من الولد . والله تعالى يُجزِل له من الأجر أوفاه، ويحفظ عليه — وقــد فعل — أخراه؛ ويجعله للإسلام ذُخرا، ولا يُسمعه مع طول البقاء بعدها تعزيةً أخرى .

ومن أحسن الرثاء وأشجاه مانطقت به الخَنْساء فى رِثائها لأخيها صَخْر، فمن ذلك قولهـا :

أَلَا يا صخرُ إن أبكيتَ عينى * لقد أضحكتنى دهرًا طَويلَا
دفعتُ بك الجليلَ وأنت حَىٌّ * فمن ذا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجليلا
إذَا قَبُـح البكاءُ على قتيـلٍ * رأيتُ بكاءَك الحَسَنَ الجميلَا

وقالت أيضا فيه :

ألا هَبِلتْ أُمُّ الذيـن غَــدَوْا به * إلى القـــبر، ما ذا يحملون إلى القـــبر!
وما ذا يُوارِى القـــبرُ تحت تُـــرابه * من الجُود! يابؤسَ الحوادثِ والدهر!
فشأنَــ المنـايا إذ أصـابك رَيْبُها * لِتَغْــدُ على الفِتْيانِ بعــدَك أو تَسْرِى

وقالت :

يُذَكِّرنى طلوعُ الشمسِ صَخْرًا * وأبكيه لكُلِّ غروبِ شمسِ
ولولا كثرةُ الباكِينَ حَوْلِى * على إخوانهم لقتلتُ نفسى
وما يَبْكُون مثلَ أخى ولكنْ * أُسَلِّى النفسَ عنه بالتأسِّى

وقالوا : أرثى بيت قالته العرب قول مُتَمِّم بن نُوَيرة فى أخيه مالك ، وكان قد قتله خالد بن الوليد فى الرِّدَّة . وكان متمم قدِم العراق ، فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى ؛ فقيل له : يموت أخوك بالمَلَا وتبكى على قبر بالعراق ! فقال :

لقد لامَنى عند القبور على البُكا * رفيقى لتَذْرافِ الدموع السَّوافكِ
أمن أجل قبرٍ بالمَلَا أنت نائحٌ * على كلِّ قبرٍ أو على كلِّ هالكِ
وقال : أتبكى كلَّ قبرٍ رأيتَه * لقبرٍ ثَوَى بين اللِّوى فالدَّكادكِ
فقلت له : إن الشَّجَا يبعث الشجا * فدعْنى فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

معناه قد ملأ الأرض مُصابُه عِظَماً ، فكأنه مدفونٌ بكلّ مكان . وهو أبلغ ما قيل فى تعظيم ميّت . وقيل أرثى بيتٍ قالته العرب قول المُحْدَث :

على قبره بين القبور مهابةٌ * كما قبلها كانت على صاحب القبر

وقيل : بل قول الآخر :

أرادوا لِيُخْفُوا قبرَه عن عدوِّه * فطيبُ تراب القبرِ دَلَّ على القبرِ

وقالوا : بل بيت غيره :

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ * ولكنّه بُنْيانُ قومٍ تهدَّما

وقال الأصمعى : أرثى بيت قالته العرب قول الشاعر :

ومن عَجَبٍ أنّ بِتَّ مُستشعرَ الثّرَى * وبِتُّ بما زوَّدتَنى متمتِّعا
ولو أنّنى أنصفتُكَ الودَّ لم أَبِتْ * خلافَكَ حتى ننطوى فى الثرى معا

ومن أحسن الرثاء قول حسين بن مُطَير الأسدىّ :

أَلِمَّا بمَعْنٍ ثم قُـولَا لقـبره : * سـقتْك الغوادِى مَرْبعًا ثم مَرْبعا

فتًى عِيشَ فى معروفه بعــد موته * كما كان بعـد السيل مجراه مرتعا

أيا قبرَ معنٍ كنتَ أوّلَ حُفْرةٍ * من الأرض خُطّتْ للسماحة مَضْجَعا (٨٣)

ويا قبرَ معن كيف واريتَ جُودَهُ * وقـد كان منه البـرُّ والبحرُ مُتْرَعا!

بلى قد وسِعْتَ الجودَ والجودُ ميّتٌ * ولو كان حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدّعا

ولمّا مضى معنٌ مضى الجُود والنَّدى * وأصبح عِرْنينُ المكارمِ أجْدَعا

قال أبو هلال العسكرىّ : هذه الأبيات أرثى ما قيل فى الجاهلية والإسلام .

وقال بكر بن النَّطّاح يَرْثى معقل بن عيسى :

وحدّثنى عن بعض ما قال أنه * رأت عينُـــه فيما ترى عينُ نائم

كأن النَّـــدَى يبكى على قـبر مَعْقِلٍ * ولم تَرَهُ يبـــكى على قـــبرِ حاتم

ولا قـــبرِ كَعْب إذ يجـود بنفســه * ولا قبرِ حِلْف الجود قَيْس بن عاصِمِ

فأيقنتُ أن الله فضّــل معقِلًا * على كل مذكور بفضـل المكارِمِ

وقال آخر :

لعَمْرُكَ ماوارى الترابُ فَعالَه * ولكنما وارى ثيـابًا وأعظُما

ومثله لمنصور النَّمَرِىّ :

فإن تَكُ أفنته الليالى وأوشكت * فإن له ذكرًا سـيَبْقَى اللياليَا

وقال التيمىّ فى منصور بن زياد :

أمّا القبـورُ فإنّهـنّ أوانسٌ * بِفناء قـبرك والدّيارُ قبـورُ

عمّت صنائعُه فعمّ مُصابُه * فالناسُ فيه كلُّهـم مأجور

يُثنى عليك لسانُ من لم تُولِهِ * خيرًا لأنك بالثنـاء جدير

رَدّتْ صنائعُه إليه حياتَه * فكأنه من نشرها منشورُ
فالناس مأتمهم عليه واحدٌ * فى كل دار رَنّةٌ وزفيرُ

وقال ابن القزّاز المغربىّ :

سأبكيك لا أن البكا عَدْلُ لوعتى * ولا أنّ وجدى فيك كُفْء تَنَدُّمى
وقَلّ لعينى أن تَفيضَ دموعُها * عليك ولو أنّ الذى فاض من دمى

وقال الخُرَيْمىّ

وأعددتُه ذُخْرًا لكلّ مُلِمّةٍ * وسهمُ الرَّزايا بالذخائر مُولَعُ
وإنى وإن اظهرتُ منّى جَلادةً * وصانعتُ أعدائى عليه لَمُوجَعُ
ولو شئتُ أن أبكى دما لبكيتُه * عليه ولكن ساحةُ الصبر أوسعُ

وقال أبو هلال العسكرى :

على الرغم من أنف المكارمِ والعُلا * غدتْ دارُه قَفْرًا ومَغْناه بلقعا
ألم تر أنّ البأسَ أصبح بعده * أشلَّ وأن الجودَ أصبح أجدعا
فمُرّا على قبر المُسَوَّدِ وانظُرا * إلى المجد والعلياء كيف تخشّعا
فإن يك واراه الترابُ فكبّرا * على الجودِ والمعروفِ والفضلِ أربعا
ولا تسأما نَوْحًا عليه مُكَرَّرًا * ونَوْحًا لفقد العارفات مُرَجَّعا
فما كان قَيْسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحد * ولكنّه بُنيانُ قوم تَضَعْضَعا
ولا تحسَبا أنّى أُواريه وحده * ولكنّنى واريتُه والنَّدى معا

وقال أيضا :

ألستَ ترى موتَ العُلا والفضائلِ * وكيفَ غروبُ النجم بين الجنادلِ!
فما للمنايا أغفلت كلَّ ناقص * ونقّبن فى الآفاق عن كلّ فاضل!
على الرغم من أنف العُلا سِيقَ للردى * بكلّ كريم الفعل حر الشمائل

على أنّ من أبقتـه ليس بخــالدٍ * وليس آمرؤ يرجو الخلودَ بعاقـل
رأيت المنـايا بيـن غاد ورائح * فـا للبرايا بيـن ساهٍ وغافـلِ!
ولم أر كالدنيـا حبيبًا مُضرةً * ولم أر مثـل الموت حقًّا كباطل

وقال الرّقاشي في البرامكة :

ألآنَ آسترحْنا وآستراحت ركابُنا * وقلّ الذى يُجْدَى ومن كان يَجْتدى
فقل للطايا : قد أمِنتِ من السُّرَى * وطَيّ الفيافى فَـدْفدًا بعـد فَدْفدِ
وقل للنـايا : قـد ظفِرْتِ بجعفرٍ * ولن تظفَرِى من بعـده بمُسَوَّدِ
وقل للعطايا بعد فَضْـل : تعطَّلى * وقل للرزايا كل يوم : تجدّدى
ودونَكَ سـيفًا بَرْمكيًّا مُهَنّـدًا * أصِيب بسـيف هاشمىٍّ مهنّـدِ

وقال آخر :

سأبكيك للـدّنيـا وللـدّين، إننى * رأيتُ يدَ المعروف بعـدك شَلَّتِ
ربيـعٌ إذا ضَـنّ الغمامُ بمـائه * وليثٌ إذا ما المَشْرفيّـةُ سُـلّتِ

وقال عبد الله بن المعتزّ :

ألستَ ترى مـوت العُلَا والمحامد * وكيف دفنّا الخَلْقَ فى قـبر واحد
وللـدّهرِ أيّامٌ يُسِـئْنَ عَوامِدًا * ويُحسِـنّ إن أحسـنّ غيرَ عوامدِ

وقال أبو الطيّب المتنبّي :

إنى لأعلم — واللبيب خبـيرُ — * أن الحيـاة وإن حَرصت غُرور
ما كنتُ أعلم قبلَ دفنك فى الثرى[1] * أن الكواكب فى التّراب تَغـورُ
خرجـوا به ولكلّ باكٍ حـوله * صَعَقـاتُ مـوسى يوم دُكّ الطُّورُ

---

(١) كذا فى ديوان المتنبي طبع مطبعة هندية سنة ١٨٩٨ . وفى الأصل : « قبل تنزل فى الثرى » على حذف أن المصدرية .

حتى أتَوا جَدَثاً كأنّ ضريحَه * فى قلب كلّ مُوَحِّدٍ محفورُ
نبكى عليه وما ٱستقرّ قراره * فى اللحدِ حتى صافحته الحُورُ

وعنها :

صبراً على المكروه فيه تَكَرُّماً[1] * إنّ العظيم على العظيم صَبورُ
ولكلّ مفجوعٍ سواكم مُشْبِهٌ * ولكلّ مفقود سواه نظيرُ

وقال آخر :

كفى حَزَناً أنّى تخلّفتُ بعده * أدورُ مع الباكين فى عَرَصاته
وصارت يمينى ما حلفتُ بقبره * وكانت يمينى قبلها بحياته

وقال آخر :

وكنتُ أخاف الدّهرَ ما كان باقياً * فلما تولّى مات خوفى على الدّهرِ

وقال آخر :

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبُكا * أجاب البكا طوعاً ولم يُجِب الصبرُ
وإن يَنْقطِعْ منك الرجاءُ فإنه * سيَبْقَى عليك الحزنُ ما بَقِىَ الدهرُ

وقال آخر : (٨٥)

فوالله لو أسطيعُ قاسمتُه الرّدَى * فمُتْنَا جميعاً أو يُقاسِمُنى عمرى
ولكنما أرواحُنا مِلكُ غيرنا * فما لِىَ فى نفسى ولا فيه من أمرِ
أُحَمِّلُه ثِقْلَ الترابِ وإننى * لأخشى عليه الثقل من مَوْطِئ الذَّرّ
وما أنا بالوافى وقد عشتُ بعده * وربَّ ٱعترافٍ كان أبلغَ من عُذرِ

وقال آخر :

يا راحلاً لم يُبْقِ لى * من بعده فى العيش نَفْعا

(١) فى الديوان : «صبرا بنى إسحاق فيه تكرما» .

ضـاقت عليّ الأرضُ فيـ * ـك وضِقْت بالإخوان ذَرْعَا
ورعَيْتُ فيـــك النّجمَ يا * من كان يحفَظُني ويَرْعى
أبْكيـــك بالشـــعر الذى * قد رقّ حتى صـار دمعـا

وقال تاج الملوك بن أيّوب يَرْثى أخاه :

لو كان يَشفِى الدمعُ غُلّةَ واجِدٍ * لشَفَى غليلى فيضُ دمعى الهامرِ
هيهاتَ لا بردَ الغليلُ وقد ثَوى * من كان من عُدَدى وخيرذخائرى
ياللّرجالِ لِنَكْبةٍ قد أذهبت * جَلَدَ الجليدِ وحُسْنَ صَبْرِ الصابرِ
طرَقَتْ فتى المُلْك المعظّم فأنثنى * من بعد بهجته كَرَبْعٍ داثرِ

ومنهـا :

جَبَلٌ هوَى فارتجّت الدنيـا لهُ * فكأنمـا رَكِبتْ جَنـاحَىْ طائرِ

ومنهـا :

مَنْ للنّوائب يوم تفترس الورى * قَسْرًا بأنيـاب لهـا وأظـافر
أضحى وحيـدًا فى التراب كأنّه * ما سار بين مواكب وعساكرِ
قد كان لا تَعصِى البريّةُ أمرَه * فانقـاد ممتثـلًا لأمر الآمرِ
مـولاى دعـوةُ والهٍ غادرتَه * وَقْفًا على نُوَب الزمان الغـادرِ
هل من سبيل للزيارة عنـدها * هيهاتَ حال الموتُ دون الزائرِ
لو كان خَصْمُك غيرَ حادثة الرّدى * لرددتَه بذوابِـلٍ وبواتـــر
أو كان يُدْرَك ثأرُ من أُودى به * رَيْبُ المنون لكنتُ أوّلَ ثائرِ
لكنّه الموت الذى قهَر الورَى * من حيث لا تَثْنيه قدرةُ قادرِ

وقال كمال الدين بن النبيه يرثى الأمير على آبن الخليفة الناصر لدين الله :

النـاس للموت كخيـــل الطِّرادْ * فالسابقُ السابقُ منهـا الجـوادْ

والله لا يدعـــو إلى داره * إلا مَنْ آستصلح من ذى العبادْ
والمـــوت نَقّاد، على كفه * جواهرٌ يختـار منهـا الجيـادْ (٨٦)
والمرء كالظـلّ ولا بدّ أن * يزول ذاك الظلّ بعـد آمتدادْ
لا تصلُحُ الأرواحُ إلّا إذا * سرى إلى الأجسام هذا الفسادْ
أرغمتَ ياموتُ أنوفَ القنـا * ودُسْتَ أعناقَ السيوف الحدادْ
كيف تخرّمتَ أميرًا وما * أنجده كلُّ طويلِ النِّجادْ
مُصيبةٌ أذكت قلوبَ الورى * كأنمـا فى كلّ قلبٍ زِنَادْ
نازلةٌ عمّت فمِنْ أجلهـا * سنَّ بنو العباس لُبْسَ السَّوادْ
مأتمةٌ فى الأرض لكن لها * عُرْسٌ على السبع الطِّباق الشِّداد
طرقتَ ياموتُ كريمًا فلم * يقنَعْ بغيرِ النفس للضيف زَادْ
قصمتَه من سِدْرة المُنتهَى * غُصْنًا فشلّت يدُ أهل العنـادْ
يا ثالثَ السِّبطَيْن خلّفتنى * أهيم من همّىَ فى كلّ وادْ
يا نائمًا فى غَمَـرات الرّدَى * كحّلْتَ اجفانى بميـلِ السُّهادْ
وياضجيـعَ التُّرب أسـقمتنى * كأنمـا فَرْشِىَ شـوكُ القَتَادْ
دُفنتَ فى الترب ولو أنصفُوا * ما كنتَ إلا فى صميم الفـؤادْ
خليفـةَ الله آصطبِرْ وآحتسِبْ * فمـا وَهى البيتُ وأنت العمادْ
فى العـلم والحـلم بكم يُقتَـدَى[(١)] * إذا دجا الخطبُ وضَلّ الرشادْ
وأنت لُجُّ البحـ[ـر] [ما] ضـرّه * أن سال من بعض نواحيه وادْ

ولمـا مات الإخشيد محمد بن طُغْج رثاه جماعة من الشعراء منهم محمد بن الحسن آبن زكريا فقال :

(١) كذا فى ديوان ابن النبيه طبع مصر . وفى الأصلين : « فالعلم والحلم » .

فى الرزايا روائــعُ الأوجالِ * والـــبرايا دَرِيئــةُ الآجال
وكـذا الليلُ والنهارُ آعتبــارٌ * للورى فى تفكُّر الأحوالِ
كلُّ شىء و إن تمــادَى مداه * قَصْـــرُهُ للفَـــناء أو للزَّوال
وأرى كلَّ عِيشــةٍ لأناسٍ * كونُها مُؤذِنٌ بوَشْـك آنتقالِ
كل ذى جِدّة — إذا ما الجديدا * ن ألحّــا عليــه — مُودٍ بالِ
ما لخَلْقٍ من المنونـــ مَفَــرٌّ * لا ولا دون بطشِهــا من مآلِ
كان(١) غيثُ الأيّام إن أخلف الغيـ * ـثُ أطلّتْ سحابُه بآنهمال
فجعتْــنا بواهب لا نــراه * يُخْلِقُ الوجهُ عنــده بآبتــذالِ
فجعتنا ببهجة الأرض فى الأر * ض وشمسِ الضُّحَى وبدرِ الليالى
فجعتنــا بمن حَمَى حُرْمــةَ الإسـ * ـلام من حادث ومن خَتّــال
فجعتنا بالباســل البَطَــل السا * مى غداةَ الوغَى إلى الأبطــالِ
فجعتنا بالواهب المُجــزِلِ المــر * تاح حينــ السؤال للسؤّالِ
عَجَبٌ إذ دنتْ إليـــه المنــايا * وحِمَى عِزِّه المنيــعُ العــالى
أين من يشترى المدائحَ والشكـ * ـر بأسْنى وَفْــرٍ وأوفى نَوالِ
قطع الموتُ وَصْلَنا منه كرهًــا * والردَى قاطعٌ لكــل آتّصالِ ٨٧
رحمــةُ الله والسلام عليـــه * فى الضُّــحَى والعِشاء والآصال
وسـقَى الله حُفْــرةً ضُمِّنَتْــهُ * شكرَ واهٍ منـــ الحَيَــا هطّالِ

ثم خرج من الرثاء إلى مدح آبنه فقال :

إنْ خبا بدرُه فقد لاح للأمّـ * ـة لمّــا خَبَا طلوعُ الهــلالِ
نُوره مُشرِقٌ مضىءٌ مدى الدهـ * ـر منـــيرٌ وليس ذا آضمحلالِ

(١) فى الأصول : « كل » .

وقال أبو الطيب المتنبي يرثيه :

هو الزمانُ مُشِتٌّ بالذى جمعا * فى كل يوم نرى من صَرْفه بِدَعا
لو كان مُمْتَنِعٌ تُغنيه مَنعتُه * لم يصنع الدهرُ بالإخشيد ما صنعا
ذاق الحِمامَ فلم تَدْفَع كتائبُه * عنه القضاءَ ولا أغناه ما جمعا
لقد نَعَى من نعاه كلَّ مفتخرٍ * وكلَّ جُود لأهل الأرض حين نعى
لله ما حلّ بالإسلام حين ثَوَى ! * لقد وهى شَعْبُ هذا الدين فانصدعا
فمن تراه يقود الخيلَ ساهمةً * سدَّ الفضاءِ ومِلْءَ الأرض ما وَسعا
ترى الحُتُوفَ عُلُوقًا فى أسنّته * لدى الوغى وشهابَ الموت قد لَمَعا
لو كان يسطيع قبرٌ ضمّه لسعى * إليه شوقًا ليلقاه وإن شَسَعا
فليَعْجب الناسُ من لحد تضمّن مَنْ * تضمّن الرزقَ بعد الله فاضطلعا
لو يعلم اللحدُ ما قد ضَمّ من كرمٍ * ومن فخارٍ ومن نَعْماء لاتّسعا
يا لحدَه إن تَضِقْ عنه فلا عجبٌ * فيه الحِجا والنُّهَى والبأسُ قد جُمِعا
يا لحدُ طُلْ إنّ فيك البحرَ مُحتبِسًا * والليثَ منهصرًا والجُودَ مجتمعا
يا يومَهُ لم تُخُصّ الفجعَ أُسْرتَهُ * كُلُّ الورى بِرَدَى الإخشيد قد فُجِعا
يا يومه لم تَدَعْ صبرًا لمصطبرٍ * ولم تدعْ مَدْمَعًا إلا وقد دَمَعا
اردَى الرِّفاقَ رَدَى الإخشيدِ فانقرضُوا * فما ترى منهُمُ فى الأرض منتجعا
يأيها الملك المُخْلِي مجالسَه * أحْميتَ أعيننا الإغماضَ فامتنعا

ومنها :

لئن مضيتَ حميدَ الأمر مُفْتَقَدًا * لقد تركتَ حميدَ الأمر مُتَّبَعا

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ولد الإخشيد : (٨٨)

ثَبْتُ الجَنان فلا نكسٌ ولا وَرَعٌ * تلقاه مؤتزرًا بالحزم مُدَّرِعا

أعطت أبا القاسم الأملاكُ بيعتَها * ولو أبت أُخذت أسـيافُه البِيَعا
وآنقـاد أعــداؤه ذُلًّا لهيبــته * وظَلّ متبوعُهم من خوفه تَبَعا
أضحت به هِمَمُ الغِلمان عاليــةً * كأنّ مولاهُمُ الإخشيدُ قد رَجَعا

وقال مُهَلْهِل بن يَموت يَرثيه أيضا :

أىّ عزٍّ مضى من الإسـلام! * أىّ ركن أضحى حديثَ آنهدام!
ذاق موتًا محمد بن طُغــج * هو ليثُ الشّرى وغيثُ الغَمام
فَقَــدَ النـاسُ مُولِيَ الإنعـامِ * فهُــمُ سائمـون كالأنعـامِ
مات ربُّ العُـلَا وراعى الرعايا * والسـرايا وكافل الأيتـامِ
أين ما كنتَ فيه من عِزّك البا * ذخ والمُـرْتَقَى عزيزِ المُـرامِ!
أين ذاك الحجابُ والمُلك والهيـ * ـبة أين الزِّحامُ وقت الزّحام!
من أميرٍ وقائدٍ وخطـيرٍ * ورئيسٍ وماجـدٍ وهُمـام
كلّهم مطرَقٌ لديك من الهيـ * ـبة خوف الإجلال والإعظـام
أين تلك الخيـامُ حَوْلَك إن عرّ * ـست والأسـدُ حول تلك الخيام
من عديد وعُدّة لك ما بيـ * ـن قُعود فيهـا وبين قِيـامِ
لم يُطِقْ جمعُهم دفاعَ الرّدى عنـ * ـك ولم يمنعوك منـعَ آعتصامِ
أسلمتك الخيولُ قَسْرًا وقـد كنـ * ـتَ عليهـا سُورًا على الإسـلام
خانك السيفُ وهو يصدرُ عن أمـ * ـرك مُستعديا بغـير آحتجام
خـذل الرمحُ وهو عونُك لو حا * ن لقـاءٌ وثار نَقْـعُ قَتَـامِ
لم تَرُدّ القِسِيّ عنــك سـهامَ الـ * ـحتفِ والحتفُ عندها فى السهام
ما وقتك الحـرابُ حربَ المنـايا * حين وافاك جيشُهـا من أمامِ

لم يُحَصِّنْك ما آقتنيتَ من الآ * لات من جَوْشَن ولا من لَام(١)
حكَمَ الموتُ فيك من بعد ما كنـ * ـتَ تُرى حاكما على الحُكَّام
فقدَتْك الفُسطاط وجدًا مدى الد * هر ومن بعدها بلادُ الشام
فُجِعَتْ يثرِبٌ ومكَّةُ والبيـ * ـتُ إلى زمزمٍ أجَلْ والمَقَام
عمّ فيك المصابُ فآشترك العا * لَمُ فى الرُّزْء منه والآلام
حَسْبُنَا الله عزَّ من حَكَمٍ يجـ * ـرى على الحاكمين بالأحكام
كلّ شىء إلى زوال ، ومن ذا * نال ملك الدنيا بغير آخترام
أين أين الملوك فى سالف الدّ * هر دَهَتهم حوادث الأيّام
أين من قد كانوا يُخافون فى البأ * س ويُرْجَون للعطايا الجِسام
ليس يَبْقى إلا الإله تعالى * من له الملك ثابتًا بالدّوام
أيّهذا الأمير بل يا أبا القا * سم يابن السَّمَيْدَع القَمْقام
ارض حكم الإله فى المَلِك الما * ضى وسلِّمْ لنافذ الأحكام
وهناك الذى بلغتَ من الأمـ * ـر وما حزتَه بحسن آنتظام
ما كمثل الذى رُزِئتَ ولا مثـ * ـل الذى قد مَلَكتَ فى ذا العام
أنت مثل الإخشيد فآنهض بما مُلِّـ * ـكتَ بالجِدّ منك والإعتزام

وقال بعض الشعراء يرثى الوزير يعقوب بن كِلِّس وزير العزيز بن المُعِزّ (٨٩)
خليفة مصر :

إن التصبر فى الأمور جميلُ * إلا عليك فما إليه سبيلُ
ياحاملًا ثِقَلَ العُلَا وكأنه * لعُلُوّ همّتِه بها محمولُ
يا واهبًا فوق المُنَى وكأنه * لسخائه مما يجود بخيلُ

(١) لام : مخفف "لأم" جمع "لأمة" وهى الدرع .

جاء منهـا :

يا تُرْبُ لا تأكُل لسانًا طالمـا * والَى به التحميـدُ والتهليــلُ

يا تُرْبُ لا تَعْنُف بكفٍّ طالمـا * قد كان يُؤْلِم ظهرَها التقبيــلُ

ومنهـا :

يادهرُ تعلمُ ماجنيتَ على الورى ؟ ! * خَطْبٌ لعمرُك إن علمتَ جليلُ

ما كان ضرَّك لو مَهَلت بمثله * يادهرُ إنك بعـــدها لعَجُــول

ومن المراثى المشهورة التى عُنى بها ، وٱتصلت أسباب الشارحين بسببها ، المرثية العَبْدونيّة التى نظمهـا الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون يرثى بهـا بنى مسلمة المعروفين ببنى الأفطس ، وهى من أمهات القصائد ووسائط القلائد ، فإنه ذكر فيها عدّة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته ، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جُنّةً تقيهم من وثباته ، ودبّت [عليهم][1] الأيام بصروفها ، وسقتهم المنيّة بكأس حُتوفها . وها نحن نذكرها ونزيدها تبيانا بشرح من ٱستبهَمت أخباره ، وخَفِيت على المُطالع آثارُه .

وأوّل القصيدة :

الدهرُ يفجَعُ بعـــد العَيْن بالأثَرَ * فمـا البكاءُ على الأشـباح والصُّورِ

أنهـاك أنهاك لا آلُوك مَعْــذِرةً * عن وقفةٍ بين ناب الليث والظُّفُرِ

فالدهرُ حربٌ وإن أبدى مُسالَمة * فالبِيضُ والسُّمْرُ مثلُ البيض والسُّمُرِ

ولا هَـوادةَ بيــن الرأس تأخذه * يدُ الضِّراب وبين الصـارم الذَّكَرِ

فلا تغُرَّنْك مــن دنيـاك نومتُها * فمـا صناعةُ عينيها ســوى السَّهرِ

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ما لِلَّيالى — أقال اللهُ عثرتَنا * من اللّيالى وخانتها يُدُ الغِيَرِ —
فى كلّ حينٍ لها فى كلّ جارحةٍ * منّا جِراحٌ وإن زاغت عن البصرِ
تَسُرّ بالشىء لكن كى تَغُرّ به * كالأيْمِ(١) ثار إلى الجانى من الثمَرِ
كم دولةٍ وَلِيتْ بالنصر خدمتَها * لم تُبْقِ منها! وسَلْ ذكراك من خَبَرِ
هوت «بدارا» وفَلّت غَرْبَ قاتله * وكان عَضْبًا على الأملاك ذا أُثُرِ

«دارا» الذى ذكره هو دارا بن دارا آخر ملوك الفرس؛ وقاتله الإسكندر. وسنذكر إن شاء الله أخبارهما فى فنّ التاريخ.

واسْتَرْجعتْ من بنى ساسانَ ما وهبت * ولم تَدَعْ لبنى يونانَ من أَثَرِ

(٩٠) «بنو ساسان» هم الفرس الأُخَر ولهم دولة مشهورة انقرضت فى الإسلام. و"بنو يونان" أيضا من الملوك أرباب الدول المشهورة، ومن مشاهير ملوكهم الإسكندر بن فيلبس. وسترد إن شاء الله أخبارهم.

وأتْبَعَتْ أُخْتَها طَسْمًا، وعاد على * عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ

أخت «طسم» جَدِيس، وهما أبناء عمّ كثر نسلهما وهم العرب العاربة. وسنذكر أخبارهما إن شاء الله فى وقائع العرب. و«عاد» هم قوم هود. و«جرهم» هو ابن عوف بن زُهَير بن أنس بن الهَمَيْسَع بن حِمْيَر بن سَبَأ الأكبر بن يَشْجُب ابن يَعْرُب بن قَحْطان، وقيل: إن العمالقة من ولد جرهم. أراد بذكرهم أنهم كلّهم أبادهم الموت.

وما أقالت ذوى الهيئاتِ من يَمَنٍ * ولا أجارتْ ذوى الغايات من مُضَرِ

---

(١) الأيم: الأفعى.

«اليمن» كلّهم بٱتفاق العلماء بالأنساب من ولد قَحْطان، ومنهم ملوك نذكرهم إن شاء الله فى التاريخ . و «مضر» بن نزار بن معدّ بن عَدْنان . وقد تقدم ذكرهم فى الأنساب .

ومزّقت سَـبَأً فى كلّ قاصـيةٍ      فما ٱلتـقى رائحٌ منهـم بمُبْتَكِرِ

«سبأ» الذى أشار إليه هو سبأ بن يَشْجُب بن يعرُب بن قحطان، وٱسمه عبد شمس، وإنما قيـل فيه سـبأ لأنه أوّل من أدخل بلادَ اليمن السَّبْى . وكان له عشرة أولاد سكن الشام منهـم أربعـة وهم : لَخْم وغَسّان وجُذَام وعامـلة؛ وسكن اليمن منهم ستة : كِنْدة ومَذْحِج والأزْد وأنمـار [والأشعر وعمرو](١) ؛ وقـد ذكر الله عزّ وجل تمزيقَهم بقوله : (وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) . وسنذكر أخبار سيل العَرِم وسدّ مأرِب .

وأنفذتْ فى كُلَيب حكمَها ورمَتْ * مُهَلْهِـلا بين سمع الأرض والبصرِ

"كليب" الذى ذكر هو كليب بن ربيعـة بن الحارث الذى ضرب به المثل فقيل : "أعزّ من كُلَيْب وائل" . وأشار ٱبن عبدون فى هذا البيت إلى ما كان من قتل جسّاس بن مرّة كليبًا وما وقع بين بكر وتَغْلِب من الحروب التى نشرحها إن شاء الله فى وقائع العـرب . وقوله : "ورمت مهلهـلا بين سمع الأرض والبصر" كأنه أراد ما حكى أنه قتل فى موضع لم يطّلع عليه أحد، وهو مثل؛ يقال : فعـل كذا وكذا بين سمع الأرض وبصرها إذا فعله خاليا .

ولم تَرُدّ عـلى الضِّلِّيـل صحّتَـه * ولا ثنت أسـدًا عن ربّها حُجُـرِ

"الضِّلِّيل" الذى أشار إليه هو ٱمرؤ القيس بن حُجْر بن عمرو، والحارث هو آكل المُرَار؛ وسُمّى ٱمرؤ القيس بالضلّيل لأنه ترك ملكه وتوجّه إلى قيصر يطلب منـه

(١) التكملة عن قلائد الجمان فى التعـريف بقبائل عرب الزمان للعـلامة القلقشندى مؤلف كتاب صبح الأعشى . وفى الأصل بياض .

جيشا يأخذ به ثأر أبيه من بنى أسد . و إشارته إلى الصحّة لقول آمرئ القيس في قصيدته السينيّة :

وبُدِّلْتُ قُرْحًا داميًا بعد صحّةٍ * لعلّ منايانا تحوّلْنَ أَبْؤُسا
لقد طمَح الطَّمّاحُ من بُعد أرضه * لِيُلْبِسنى من دائه ما تلبّسا

و « الطّماح » رجل من بنى أسد أرسله قيصر إلى آمرئ القيس بحُلّة مسمومة ، فلما لبسها تقطّع ومات بأنقِرة . و إشارته إلى أسد لأن بنى أسد كانوا قتلوا حُجْر ابن الحارث يوم ماقِط .

ودوّخت آلَ ذُبْيانٍ و إخوتَهم * عَبْسًا وعضّت بنى بَدْر على النَّهَرِ

أشار إلى ما كان بين عبس وذبيان من الحروب بسبب داحس والغبراء . وسيرد ذلك فى وقائع العرب إن شاء الله تعالى .

وألحقت بعَدىٍّ بالعراق على * يد آبنه أحْمَرَ العينين والشَّعَرِ

أراد عدىّ بن أيوب بن زيد مناة بن تميم الشاعر . وأحمر العينين والشعر هو النّعمان بن المُنذر . وكان عدىّ هذا ترجمانا لأَبْرَوِيز وكاتبه بالعربيّة، فلما مات قابوس بن المنذر تلطّف عدىّ وتحيّل على أبرويز حتى ولّى النعمان إمْرة العرب وقدّمه على إخوته وكان أدمتهم، ثم آتهمه النعمان أنه وشى به فآحتال عليه حتى ظفر به وحبسه ثم قتله بالعراق ؛ فتلطّف آبنه زيد بن عدىّ وتوصّل حتى خدَم أبرويز على عادة أبيه، وأوقع بين أبرويز والنعمان حتى قتله أبرويز، على ما يرد إن شاء الله تعالى فى التاريخ . والله أعلم .

وأشرفت بخُبَيْبٍ فوق فارعةٍ * وألصقت طَلْحَةَ الفيّاضَ بالعَفَرِ

أشار إلى خبيب بن عدىّ الأنصارىّ وهو بَدْرِىّ وأسر فى السريّة التى خرج فيها مَرْثَد بن أبى مَرْثَد فانطلق به المشركون إلى مكّة وآشتراه حجر بن إهاب التميمىّ

حليف بنى نوفل لعقبة بن الحارث بن نوفل ليقتله بأبيه، وكان خبيب قتل الحارث أبا عقبة يوم بدر، فصلبه عقبة على خشبة بالتنعيم وقتله . وطلحة الفيّاض هو طلحة آبن عبـد الله التيمى أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم، قتل يوم الجمل، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ومزّقت جعفرًا بالبيض، وآختلست * من غيله حمزة الظلّام للجُزُر

«جعفر» الذى ذكره هو جعفـر بن أبى طالب أخو علىّ رضى الله عنهما قُتل فى غزوة مؤتة. «حمزة» هو آبن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل يوم أُحُد قتله وحشىّ غلام جُبير بن مُطعِم؛ وجعله ظلّاما للجزر وصفه بالكرم .

و بلغت يزدجرد الصين وآختزلت * عنه سوى الفُرس جمع الترك والخزر

ولم تَرُدّ مواضى رُسْـتم وقنـا * ذى حاجب عنه سعدًا فى آبنة الغِيَر

«يزدجرد» الذى ذكرهو آبن شهريار آخر الملوك الساسانيّة. ورُستم هو الأرمينىّ وهو الذى قاتل سعد بن أبى وقّاص وقُتل يوم القادسـيّة ، على ما يأتى شرح ذلك فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وخضّبت شيب عثمان دمًا، وخطّت * إلى الزبير، ولم تستحى من عُمـر

أشار فى هـذا البيت إلى مقتل عمـر بن الخطاب وعثمان بن عفان والزبير بن العوّام رضى الله عنهم . وسترد إن شاء الله أخبارهم .

وما رعت لأبى اليقظان صُحبتـه * ولم تزوّده إلا الضَّـيح فى الغُمَـر

«أبو اليقظان» هو عمّار بن ياسر العنسىّ قُتل بصفّين وكان مع علىّ؛ وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تقتل عمّارًا الفئةُ الباغية" . ولمـا قتل كانت الراية يومئذ بيـده فعطش فدعا بشربة من المـاء فأُتى بضَيحة[1] فشربها ثم قال : أخبرنى

(١) الضيحة : الشربة من الضياح أو الضيح بالفتح فيهما وهو اللبن الرقيق الممزوج بالماء .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللبن آخِرُ شَرْبَةٍ أشربها فى الدنيا؛ فقُتل يومئذ رضى الله عنه .

وأجْزَرت سيفَ أشقاها أبا حسنٍ * وأمكنتْ من حسين راحتَىْ شَمِرِ

أشقاها هو عبد الرحمن بن مُلْجَم المُرادِىّ قاتل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لقوله صلى الله عليه وسلم : "ياعلىّ، أشقاها الذى يَخْضِب هذه من هذه" وأشار إلى لحية علىّ ورأسه . والحسين الذى ذكره هو الحسين بن علىّ . وشمر هو شمر ابن ذى الجَوْشَن وهو الذى أرسله عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد يحرّضه على قتل الحسين؛ وقيل : إن شَمِرًا لم يباشر قتلَ الحسين ، والذى قتله سِنان بن أَنَس[1] النَّخَعى، وشَمِرٌ فهو المُجَهِّز والمُحَرِّض على قتله ، فلذلك ذكره .

وليتها إذ فَدَتْ عمرًا بخارجةٍ * فدَتْ عليًّا بمن شاءت من البشر

عمرو الذى أشار إليه هو عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سَهْم ابن عمرو بن هُصَيْص بن كعب، أمير مصر لمعاوية بن أبى سفيان . وخارجة رجل من سهم بن عمرو . وكان من خبره أن الخوارج كانت قد اجتمعت على قتل علىّ ومعاوية وعمرو، فكان الذى انتدب لقتل عمرو زادويه مولى بنى العَنْبر، ورَصَده إلى ليلة المعاد التى اتفقوا على الفتك بهم فيها ؛ فاشتكى عمرو تلك الليلةَ من بطنه ولم يخرج للصلاة واستخلف خارجةَ ليُصلّى بالناس ؛ فلما قام فى المحراب وثب عليه زادويه وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله ، وأُخِذَ زادويه وأُدْخِل على عمرو، فسمع الناسَ

(١) كذا فى الطبرى طبع أوربا (ق ٢ ص ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧) وابن الأثير طبع أوربا (ج ٤ ص ٦٦ — ٦٨) . وفى الأصل : « ابن أبى أنس » .

يخاطبونه بالإمرة، فقال: أوَ ماقتلتُ عمرا؟ قيل له: [لا](١) إنما قتلت خارجة؛ فقال: "أردتُ عمرا وأراد الله خارجة". فلذلك قال:

* وليتها إذ فدت عمرا بخارجة *

وفى آبن هندٍ وفى آبن المصطفى حسنٍ * أتت بمُعْضِـلة الألبـابِ والفِكَرِ
فبعضُنا قائلٌ ما آغتـاله أحــدٌ * وبعضُنا ساكتٌ لم يُؤْتَ من حَصَرِ (٩٢)

ابن هنــد الذى أشار إليه هو معاوية بن أبى سفيان، أراد ما كان بينه وبين الحسن بن علىّ فى أمر الخلافة. وأراد بالبيت الثانى ما وقع الآختلاف فيه من أن الحسن مات مسموما وأنّ معاوية وعدَ زوجة الحسن جَعْدة بنت قيس الكِندىّ بمائة ألف درهم ويزوّجها لآبنه يزيد إن قتلت الحسن، ففعلت وسمّته. ولما مات الحسن وفّى لها بالمال وقال: حبُّ حياة يزيد منعنى تزويجه منك؛ وقيل: مات الحسن حَتْفَ أنفه. والله أعلم.

وعَمّمَتْ بالرَّدى فَوْدَىْ أبى أَنَسٍ * ولم تَرُدَّ الردى عنــه قنا زُفَــرِ

أبو أنس هو الضحاك بن قيس الفِهْرى. يُشير إلى ما وقع بينه وبين مروان آبن الحكم بمَرْج راهط، وكان الضحاك يدعو لآبن الزبير فقُتل الضحّاك، على ما نذكره إن شاء الله فى أخبار مروان. وكان زُفَر بن الحارث الكلابىّ مع الضحّاك ففرّ عنه.

وأرْدَتِ آبنَ زياد بالحسـين فَـلَمْ * يَبُؤْ بشِسْعٍ له قـد طاح أو ظُفُـرِ

أشار إلى عبيد الله بن زياد آبن أبيه عامل يزيد بن معاوية على العراق، وهو الذى جهّز عمر بن سعد لحرب الحسين بن علىّ رضى الله عنهما. وقوله "يبؤ بشسع له" أخذه من قول مهلهل حين قتل بُجَيْر بن الحارث وقال: بُؤْ بِشِسْعِ نعل كُلَيْب.

(١) زيادة من شرح القصيدة العبدونية لابن بدرون، طبع ليدن سنة ١٨٤٦ م.

وأنزلتْ مُصْعبًا من رأس شاهقةٍ * كانت به مهجةُ المُختار فى وَزَرِ(١)

أشار إلى مصعب بن الزبير بن العوّام وقتله . والشاهقةُ هى الكوفة . جعلها شاهقة لَمْنعتها وكثرة رجالها . وأراد ما كان بين مصعب وعبد الملك بن مروان من الحرب التى قُتِل فيها مصعب . والمختار الذى ذكره هو المختار بن أبى عُبَيْد بن مسعود آبن عمرو الثّقفىّ . أشار إلى ما كان بينه وبين مصعب من الحرب وقَتْل المختار . وسنُورد كلّ هذه الوقائع إن شاء الله فى التاريخ .

ولم تُراقِبْ مكان آبن الزبير ولا * راعت عِياذَتَهُ بالبيت والحَجَرِ

أراد عبدَ الله بن الزبير، وكان يُسَمّى العائذ لأنه كان يقول : أنا العائذ بالبيت، وقتله الحجّاج بن يوسف الثقفىّ لمـا وجّهه عبد الملك لحربه .

ولم تَدَعْ لأبى الذِّبّان قاضيَةً * ليس اللَّطِيمُ لهـا عمرٌو بمُنْتَصِرِ

أبو الذِّبّان هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ، سمّى بذلك لبَخَره . وقوله "قاضيه" لأنه كان مُظَفَّرًا على أعدائه فإنه غلَب من كان يناوئه فى سلطانه مثل عبد الله ومصعب آبنىْ الزبير ، وعمرو بن سعيد ، وعبد الرحمن بن الأشعث ، ما منهم إلا من قُتِل وحكَم فيه قاضيه وهو سيفه ، ولم يُغْنِ ذلك عنه لمـا أتته منيّتُه .

وأما اللَّطِيم فهو عمرو بن سعيد الأشْدَق، سمّى بذلك لمَيَل كان فى فمه فقيل له من أجله لَطِيمُ الشيطان، وقتله عبد الملك بن مروان .

وأظْفَرتْ بالوليد بن اليزيد ولم * تُبْقِ الخلافةَ بين الكأس والوتر

الوليد هذا هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهو الذى يقال له الجبّار العنيد . أشار إلى ظفر يزيد بن الوليد بن عبد الملك به وقتلِه . و[قوله](٢) :

(١) الوزر : الملجأ والمعتصم .

(٢) من عادته أن يذكر هذه الكلمة . فلعلها سقطت من الناسخ .

... ... ... ... ... ... ... ولم * تُبْقِ الخـلافة بين الكأس والوتر

أراد بذلك ما كان عليه الوليد من الاشتهار باللّهو واللّعب .

ولم تَعدْ قُضُبُ السفّاح نابيــةً * عن رأس مروان أو أشياعه الفُجُرِ

السفّاح هو أبو العباس عبـد الله بن محمـد بن علىّ بن عبـد الله بن عباس ، وهو أوّل خلفاء الدولة العباسـيّة . يُشير إلى ظفره بمروان بن محمد وقتله ، وآنقراض دولة بنى أميّة وقتلهم على يديه .

وأسبلتْ عَبَراتٍ للعيونِ على * دَمٍ بفَخٍّ[1] لآل المصطفى هَــدَرِ

أشار فى هـذا البيت إلى ذكر من قُتل بفَخّ وهم الحسين بن علىّ بن حسن بن حسن بن على ، والحسن بن محمد بن الحسن بن الحسن بن علىّ ، وعبد الله بن إسحاق آبن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ، على ما نذكره فى التاريخ إن شاء الله تعالى .

(٩٣) وأشرقَتْ جعفراً والفضـلُ ينظره * والشيخُ يحيى بريق الصارمِ الذَّكَرِ

أشار فى هـذا البيت إلى قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برْمَك ونكبة البرامكة فى أيام الرشيد .

وأخْفَرتْ فى الأمين العهدَ وآنتدبت[2] * لجعفـر بآبنــه والأعْبُـدِ الغُـدُرِ

الأمين هو محمـد بن هارون الرشيد . يُشير إلى ما كان بينه و بين أخيه المأمون و إلى العهد الذى كان الرشيدُ كتبه بينهما . وجعفر الذى أشار إليه هاهنا هو المتوكل آبن المعتصم . أراد ما كان من قتل باغِر التركى له بمواطأةٍ من آبنه المُنْتَصِر، على ما نُورده فى أخباره .

وروّعَتْ كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ * وأسلمت كلَّ منصــور ومُنْتَصِرِ

(١) فخ : واد بمكة .

(٢) كذا فى شرح القصيدة البدونية لأبن بدرون . وفى الأصل : «وآنتدبت» .

المأمون هو عبد الله بن الرشيد وهو أوّل من لُقِّب بالمأمون، ولُقّب به بعد ذلك ولدٌ من أولاد المعتمد بن عبّاد ويحيى بن ذى النون صاحبُ طُلَيْطُلة . والمؤتمَن فأوّلُ من لقب به مروان بن الحكم على قول من يقول إنه كان لبنى أميّة ألقاب ، ثم لُقّب به القاسم بن الرشيد . وكان الرشيد لما كتب العهد بين الأمين والمأمون جعل ٱبنه المؤتمَن بعد المأمون، وجعل أمرَ المؤتمن إلى أخيه المأمون إذا أفضت الخلافة إليه إن شاء أمضاه و إن شاء خلَعه ؛ فلما أفضت الخلافةُ إلى المأمون أزال المؤتمَن فارتاع لذلك . وتلقّب بالمؤتمَن محمد بن ياقوت مولى ٱلمُعْتَضد صاحب فارس . وتلقب به سلامة الطُّولُونى ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ثم تسمّى بالمنصور . وأما المنصور فأوّلُ من لُقّب به هشام بن عبد الملك بن مروان على تلك الرواية، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله بن علىّ العباسى، ثم أبو طاهر إسماعيل ٱبن القائم بن المهدى صاحب إفريقيّة ، ثم محمد بن أبى عامر بالأندلس، وتلقّب به ٱبن زيرى الصِّنْهاجى ، وتلقّب به سابور صاحبُ بَطَلْيُوس ، وعبد الله بن محمد ٱبن مسلمة التُّجِيبىّ، وحفيده يحيى بن محمد بن عبد الله، وعبد العزيز بن أبى عامر؛ ثم تلقّب به جماعةٌ من الملوك بعد نظم هذه المَرْثِيَة . وأما المنتصر فهو محمد ٱبن المتوكّل ؛ وممّن تَلقّب بالمنتصر مِدْرار بن اليَسَع صاحب سِجِلْماسَة . وكلُّ هؤلاء أبادهم الموت .

وأعثرتْ آلَ عبّاسٍ لَعًا لهُمُ * بذيْل زَبّاء[(1)] من بِيض ومن سُمُرِ

أشار فى هذا البيت إلى ما كان من تغلُّب الأتراك والدّيلم على خلفاء الدولة العباسيّة حتى لم يبق لهم إلا ٱسم الخلافة، على ما سيَرِد فى أخبارهم . وقوله :

---

(1) الزباء : الداهية الشديدة .

* بذيل زباء من بيض ومن سمر *

تنبيها على كثرة عدد المتغلّبين على الأمر وقدرتهم على السِّلاح .

ولا وَفَتْ بعهـود المُستعينِ ولا * بما تأكّد للمعـتزّ من مِرَرِ

المستعين هو أحمد بن المعتصم العبّاسى . أشار إلى ما كان من قيام المُعتزّ على المستعين وهرب المستعين من سامُرّا إلى بغداد . والمعتزّ هو أبو عبد الله محمد بن المتوكّل، وستَرِد أخبارُهم إن شاء الله تعالى :

وأوثقتْ فى عُرَاها كلَّ معتمـِدٍ * وأشرقتْ بقَذَاها كلَّ مُقْتَـدِرِ

المعتمد هو أبو العباس بن المتوكّل، وهو أوّل من لُقّب بهذا اللقب، وتلقّب به محمد بن عبّاد بإشبيلية . والمقتدر هو أبو الفضل جعفر بن المعتضِد، وهو أوّل من لُقّب بالمقتدر، ثم لُقّب به أحمد بن سليمان بن هود الجُذامىّ بِسَرَقُسْطَة . ثم أخذ ابن عبدون فى رثاء بنى الأَفْطَس فقال :

بَنِى المُظَفَّـرِ والأيّامُ ما بَرِحتْ * مَراحِلًا والورى منها على سَفَرِ

(٩٤) سُحْقًا ليومكمُ يومًا ولا حمَلتْ * بمثله ليلةٌ فى مُقْبِلِ العُمُرِ

مَنْ للأَسِرّة أو مَنْ للأعنّة أو * من للأسِنّة يُهديها إلى الثُّغَرِ

مَنْ للبراعة أو مَن لليَراعةِ أو * من للسماحة أو للنفع والضَّرَرِ

أو رفع كارثة أو دفع آزفة * أو قمع حادثة تَعيا على القَدَرِ

من للظُّبى(١) وعوالى الخطّ قد عُقِدَتْ * أطـرافُ ألسُنها بالعِىّ والحَصَرِ

وطُوّقتْ بالثنايا(٢) السُود بِيضُهم * أعْجِبْ بذاك وما منها سوى ذَكَرِ

(١) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "من للعدى ..." . (٢) كذا فى شرح ابن بدرون طبع ليدن سنة ١٨٤٦ . وفى الأصلين : "فطوّقت بالثنايا ..." . ولعل المراد بالثنايا ما يعلو السيوف من الصدأ لإهمالها بعد موت أصحابها . وفى هامش شرح ابن بدرون إشارة إلى أنه فى نسخة أخرى "وطوّقت بالمنايا السود ..." الخ .

ويح السّماح وويح الجود لو سَلِما * وحسرةَ الدّين والدّنيا على عمر
سقتْ ثرى الفضل والعبّاس هامية * تُعزى إليهم سَماحًا لا إلى المطر
ثلاثةٌ ما ارتقى النّسران حيث رقُوا (١) * وكلّ ما طار من نسرٍ ولم يطِرِ
ثلاثةٌ ما رأى العصران مثلَهمُ * فضلًا ولو عُزِّزا بالشمس والقمر
ومن من كل شيء فيه أطيبُه * حتى التمتّع بالآصال والبُكَرِ
مَنْ للجلال الذى عمّتْ مهابتُه (٢) * قلوبَنا وعيونَ الأنجم الزُّهُرِ
أين الإباءُ الذى أرسَوْا قواعدَه * على دعائمَ من عزٍّ ومن ظَفَر
أين الوفاء الذى أصفَوْا مشاربَه * فلم يرِدْ أحدٌ منها على كَدَر
كانوا رواسيَ أرض الله منذ نأوا * عنها استطارت بمن فيها ولم تقِرِ
كانوا مصابيحَها فمذ خَبَوْا غبَرتْ * هذى الخليقةُ بالله فى سَدَرِ
كانوا شجا الدهر فاستهوتهم خُدَعٌ * منه بأحلام عادٍ فى خُطا الخَضِرِ
مَنْ لى ولا مَنْ بهم إن أطبقتْ مِحَنٌ * ولم يكن وِرْدُها يُفضى إلى صَدَر
مَنْ لى ولا من بهم إن أظلمت نُوَبٌ * ولم يكن ليلُها يُفضى إلى سَحَر
مَنْ لى ولا من بهم إن عُطّلت سُنَنٌ * وأُخْفِتَتْ ألسُن الأيام والسِّير
على الفضائل إلّا الصبرَ بعدهمُ * سلامُ مُرتَقِبٍ (٣) للأجر منتظر
يرجو عسى ، وله فى أختها طمعٌ * والدّهر ذو عُقَبٍ شتّى وذو غِيَر
قرّطْتُ آذانَ من فيها بفاضحةٍ (٤) * على الحسان حصى الياقوت والدُّرَر

(١) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "رقا" .
(٢) فى شرح ابن بدرون : "غضت مهابته" .
(٣) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "مرتقب للأمر ..." .
(٤) كذا فى شرح ابن بدرون . وفى الأصل : "من الحسان ..." .

ومن أجود الرثاء وأصنعه وأتقنــه وأبدعه مراثى أبى تمــام حبيب بن أوس الطائى، فمن ذلك ماقاله يرثى به غالبَ بن السَّعْدىّ :

هــو الدّهر لا يُشوِى وهنّ المصائبُ * وأكثر آمال الرّجال كواذبُ
فيـا غالبًـا لا غالبٌ لرزيّةٍ * بل الموتُ لا شك الذى هــو غالبُ
وقلت : أخى، قالوا : أخٌ من قرابةٍ؟ * فقلت لهــم إن الشُّكول أقاربُ
نسيبىَ فى رأىٍ وعزمٍ ومَنْصِبٍ(١) * وإن باعدتنا فى الأصــول المناسبُ
كأن لم يقل يوما : كأنّ، فتنثنى * إلى قــوله الأسمـاعُ وهى رَواغب(٢)
ولم يَصْــدَع النادى بلفظة فَيْصَــلٍ * سِــنانيّــةٍ فى صــفحتيها التّجارِبُ(٣)

ومنهـا :

مضى صاحبى وٱستخلف البثَّ والأسى * علىّ، فلى من ذا وهذاك صاحبُ
عجِبتُ لصــبرى بعــده وهو ميّتٌ * وكنت آمرأً أبكى دمًا وهــو غائب
على أنهــا الأيام قــد صِرْن كلُّها * عجــائبَ حتى ليس فيهــا عجــائبُ (٩٥)

وقال يرثى محمد بن الفضل الحِمْيَرىّ :

ريْبُ دهرٍ أصمّ دون العتــابِ * مُرْصَــدٌ بالأوجال والأوْصــابِ
جفّ دَرّ الدنيا فقــد أصبحت تكـ * ـتــال أرواحَنا بغــير حســابِ
لو بدَتْ سافــرًا أُهِينَتْ ولكن * شغَفَ الخــلقَ أنّهــا فى النِّقاب
إن ريب الزمان يُحْسن أن يُهـ * ـدى الرَّزايا إلى ذوى الأحســاب
فلهــذا يجِفّ بعــد آخضــرارٍ * قبــل روض الوِهاد روضُ الرّوابى

(١) فى ديوان أبى تمـام : "ومذهب".
(٢) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "وهى لواعب". (٣) فى الديوان :
ولم يصــدع النادى بخطبة فيصل * ســنانية قــد دربتهـا التجارب
وقال فى الأصل : ويروى، ثم وضع تحت بعض الكلمات ماهو مذكور فى رواية الديوان .

جاء منها :

ذهبتْ يامحمد الغُرُّ من أيّـ * ـامك الواضحاتِ أىَّ ذَهابِ
عبّس الحمدُ والثرى منك وجهًا * غيرَ ما عابسٍ ولا قطّابِ
أطفأ الحمدُ والثرَى لُبَّك المسْـ * ـروجَ فى وقت ظُلمة الألبابِ
وتبدّلتَ منزلًا ظاهرَ الجَدْ * ب يُسمَّى مُقَطَّعَ الأسباب
منزلًا مُوحشًا و إن كان معمو * رًا بجُلّ الصديق والأحباب
يا شهابًا خبا لآل عبيد الله أعْزِزْ بفقد هذا الشّهاب

ومنها :

أنزلته الأيامُ عن ظهرها من * بعد إثبات رِجْله فى الرِّكاب
حين تم الشّبابُ(١) واعتدت الدنـ * ـيا إليه مفتوحةَ الأبوابِ
وحكى الصارمَ المُحَلَّ سوى أنْـ * ـنَ حُلاه جَواهرُ الآدابِ
قصدتْ نحوه المنيّة حتى * وهبت حسنَ وجهه للتراب

وقال يرثى إسحاق بن أبى رِبْعىّ :

أىُّ ندًى بين الثرى والجُبوبِ(٢) * وسُؤددٍ لَدْنٍ ورأىٍ صليب
يا بن أبى رِبْعِىٍّ استُقْبِلتْ * من يومك الدنيا بيومٍ عصيب
شقَّ جيوبًا من أناسٍ لو استـ * ـطاعوا لشقّوا ما وراء الجيوبِ
كنتَ على البعد قريبًا فقد * صرتَ على قربك غيرَ القريب
راحت وفودُ الأرض عن قبره * فارغةَ الأيدى مِلاءَ القلوب
قد علمتْ ما رُزِئتْ ، إنما * يُعرَفُ فقدُ الشّمس بعد المَغيب

(١) فى الديوان : « سامى الشباب » .
(٢) كذا فى الأصل . وفى بعض نسخ الديوان : "الجنوب" وفى بعض آخر : "الجبوب" . والجبوب : الأرض الغليظة .

إذا البعيدُ الوطنِ انتابه * حَـلّ إلى نَهْيٍ ووادٍ خصيب
أدنته أيدى العيس من ساحةٍ * كأنها مَسْقِطُ رأس الغـريب
أظلمتِ الآمالُ من بعـده * وعُرِّيتْ من كل حسن وطِيب
كانت خـدودًا صُقِلتْ برهـةً[1] * واليوم صارت مألفاً للشّحوب
كم حاجةٍ صـارت رَكُوبًا به * ولم تكن من قبله بالرَّكُوب (٩٦)
حـلّ عِقالَيها كما أطْلقت * من عُقَد المُزْنَة ريحُ الجنـوب
إذا تيمّـــناه فى مَطْلبٍ * كان قَليبًا ورشاءَ القليب
ونعمــة منـــه تسربلتُها * كأنها طُـرّةُ بُـرْدٍ قَشِيب
من اللواتى إن ونَى شاكرٌ * قامت لمُسْدِيها مَقامُ الخطيب
متى تُنَـخْ تُرْحَـلْ بتفضـيله * أو غاب يوما حضرتْ بالمَغيب
فما لنا اليـوم ولا للعُـلا * من بعده غيرُ الأسى والنّحيب

وقال يرثى أحمد بن هارون القرشيّ :

دأبُ عينى البكاءُ والحزنُ دابى * فاتركينى — وُقيتِ مابى — لمابى
سأُجَزّى بقـاء أيام عمـــرى * بين بَثّى وعَبْرتى وآكتئابى
فيك يا أحمد بن هارون خَصّت * ثم عمّت رزيتى ومُصـــابى
فجعتنى الأيّامُ فى الصادق النطـ * ـق فـتى المَكْرُمات والآدابِ
بخليـلٍ دون الأخلّاءِ [لا] بل[2] * صاحبِي المُصْطَفَى على أصحابى
أفلمّـا تَسَرْبل المجـدَ وآجتـا * ب من الحمد أيّما مُجْتاب
وتراءته أعينُ النّاظـــريه * قمـراً باهـــراً ورِئْبالَ غاب

(١) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "صقلت مرة" .
(٢) التكلة عن الديوان .

وعلا عارضَيْه ماء النّدَى الجا * رى وماءُ الحجَا وماءُ الشباب
أرسلتْ نحوه المنيّةُ عينًا * قطعت منه أوثق الأسباب

وقال يرثى أبا الصقر:

لو صُحّح الدمعُ لى أو ناصحَ الكمَدُ * لقلّما صَحِبانى الرُّوح والجسدُ
خان الصفاءَ أخٌ خان الزمانُ له * أخًا فلم يتخوّنْ جسمَه الكمَدُ
تساقُطُ الدمع أدنى ما بُليتُ به * للوجد إذ لم تَساقَطْ مهجةٌ ويدُ
فوالذى رَتَكت تَطْوِى الفِجاجَ له[1] * سفائنُ البرّ فى خَدّ الثرى تَخِد
لأنْفَدَنّ أسًى إن لم أمتْ أسفًا * وينفَد العمر بى أو ينفَدَ الأمد
عنّى إليك فإنى عنك فى شُغُلٍ * لى منه يومٌ سيُبْلِى مهجتى وغدُ
وإن بُجَيرِيّةٌ[2] نابت جارتُ لها * إلى ذَرَى جَلَدى فاستُؤهل الجَلَدَ
هى النوائبُ فانْجَى أوفَبِى عِظَةً * فإنها شجرٌ[3] أثمارُها رَشَدُ
هَبِى تَرَىْ قلقًا من تحته أرَقٌ * يحدوهما كمدٌ يعنو[4] له الجسدُ
صمّاءُ سمٌّ العِدا فى جنبها ضَرَبٌ * وشربُ كأس الردَى فى ظلّها شَهَدُ
هناك أمّ النُّهَى لم تُودِ من حَزَن * ولم تَجُدْ لبنى الدنيا بما تَجِدُ
لو يعلم الناسُ علمى بالزمان وما * عانت يداه لما ربَوْا ولا وَلَدُوا
لا يُبْعِد الله ملحودًا أقام به * شخصُ الحجا وسقاه الواحد الصَّمَدُ
يا صاحب القبر، دعوى غير مُتّئِبٍ[5] * إن قال أودى النّدى والبدرُ والأسدُ

(١) رتك (من باب ضرب): عدا فى مقاربة خطو.
(٢) فى الديوان: "وإن بجيرية" بالتصغير، والبجرية: الداهية.
(٣) فى الديوان: "فانها فرص": جمع فرصة وهى موضع الاستقاء.
(٤) كذا فى الديوان. ويعنو: يذل ويخضع. وفى الأصل: "يحنو له الجسد".
(٥) متئب: مستح أو منخذل.

بات الثرى بأخى جذلان مبتهجا * وبت يحكم فى أجفانى السهد
لهفى عليك وما لهفى بمجدية * ما لم يزرك بنفسى حرُّ ما أجد
أمسى أبو الصقر يعفو الترب أحسنه * دونى ودلو الردى فى مائه يرد
ويل لأمك أقصر إنه حدث * لم يعتقد مثله قلب ولا خلد(١)
غال الزمان شقيق الجود(٢) لم يقه * أهل ولم يفده مال ولا ولد
حين ارتوى الماء وافترت شبيبته * عن مضحك للمعالى ثغره برد
وقيل: أحمدها، بل قيل: أمجدها * بل قيل: أنجدها إن فرت النجد
رؤد الشباب كنصل السيف لا جعد * فى راحتيه ولا فى عوده أود
سقى الحبيس ومحبوسا ببرزخه * من السمى كغيث الودق يطرد
بحيث حل أبو صقر فودعه * صفو الحياة ومن لذاتها الرغد
بحيث حل فقيد المجد مغتربا * ومورثا حسرات ليس تفتقد

وقال يرثى عمير بن الوليد:

أعيدى النوح معولة أعيدى * وزيدى فى بكائك ثم زيدى
وقومى حاسرا فى حاسرات * خوامش للنحور وللخدود
هو الخطب الذى ابتدأ الرزايا * وقال لأعين الثقلين جودى
ألا رزئت خراسان فتاها * غداة ثوى عمير بن الوليد
ألا رزئت بمسئول منيل * ألا رزئت بمتلاف مفيد
ألا إن الندى والجود حلا * بحيث حللت من حفر الصعيد
بنفسى أنت من ملك رمته * منيته بسهم ردى سديد

(١) كذا فى الديوان. وفى الأصل: "جلد".
(٢) فى الديوان: "رضيع الجود".

تجلّتْ غَمْـرةُ الهيجاء عنـه * خَضيبَ الوجه من دمه الجَسيدِ
فيابحر المَنون ذهبتَ منه * بحر الجود فى السَّنة الصَّلُودِ
ويا أسدَ المنون فرسْتَ منه * غَداةَ فرسته أسدَ الأسودِ
أبالبطل النَّجيد فتكتَ منه (١) * نعم وبقاتل البطل النَّجيدِ
تَراءَى للطِّعان وقد تَراءَتْ * وجوه الموت من حُمْرٍ وسُودِ
فيالَكِ وقعةً جَلَّا أعادت * أسًى وصبابةً جلَدَ الجليدِ
ويالكِ ساعةً أهدتْ غَليلًا * الى أكبادنا أبَدَ الأبيدِ
ألا أبْلغْ مقالتىَ الإمامَ آلـ * ـخليفة والأمينَ بنَ الرشيدِ
بأن أميرَنا لم يَأْلُ عدلًا * ونُصْحًا فى الرَّعايا والجنودِ
أفاض نوالَ راحته عليهم * وسامحَ بالطَّريف وبالتَّليدِ
وأضحى دونهم للموت حتى * سقاه الموتُ من مَقِرٍ هبيدِ (٢)
وما ظفروا به حتى قَرَاهم * قَشاعِمَ أنْسُرٍ وضِباعَ بيدِ
بطعنٍ فى نحورهمُ رشيقٍ * وضربٍ فى رءوسهمُ عتيدِ
فيا يومَ الثلاثاء آصطبحنا * غداةً منك هائلةَ الورودِ
ويا يوم الثلاثاء آعتَمَدْنا * بفقدٍ فيك للسَّنَد العَميدِ
وكم أسخَنْتَ فينا من عيونٍ * وكم أعثرتَ فينا من جُدودِ
فما زُجِرتْ طيورُك عن سَنِيحٍ * ولا طَلعتْ نجومُك بالسُّعودِ
ألَا يأيها الملكُ المُرَدَّى * رداءَ الموت فى جَدَثٍ جديدِ
حضرتُ فناءَ بابك وآعترانى * شجًى بين المُخَنَّق والوَريدِ

(١) فى الديوان : "فتكت منا".

(٢) المقر : السم أو الصبر أو شبهه . والهبيد : الحنظل .

رأيتُ به مطايا مُهْــمَلَاتٍ * وأفراسًا صَــوافِنَ بالوَصِــيد
فكنتَ عَتَادَ إما فَـكِّ عانٍ * وإما قتــلِ طاغيــةٍ عَنُــود
رأيتُ مؤمِّلِيــك عدتْ عليهم * عــوادٍ صعَّدَتْهم فى كَــؤودِ
وأضحت عنـد غيرك فى هبوطٍ * حظوظٌ كُنّ عندك فى صُعُود
وأصبحتِ الوفودُ إليــك وقفًا * على أنــ لا مُفَادَ لمُسْتَفِيــدِ
فكلُّهمُ أعــدّ اليأسَ وقْفًــا * عليك ونصَّ راحلةَ القُعــود
لقد سَخِنتْ عيــونُ الجود لـمّـا * ثويتَ وأُقْصِدتْ غُرَرُ القصيد

وقال يرثى محمد بن حُمَيْد الطُّوسىّ :

كذا فَلْيَجِلّ الخطبُ وليَفْدَحِ الأمرُ * فليس لعــينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذرُ
تُوُفِّيتِ الآمالُ بعــد محمــدٍ * وأصبح فى شغلٍ عن السَّفْرِ السَّفْرُ
وما كان إلا مالَ مَنــ قلّ مالُه * وذُخرًا لمنــ أمسى وليس له ذُخر
وما كان يَدرى المُجْتدى جودَ كفّه * إذا ما آستهلّت أنه خُــلِق العُسرُ
ألَا فى ســبيل الله من عُطِّلت له * فِجاجُ سبيــلِ الله وآثغَرَ الثغــرُ (١)
فتًى كلمــا فاضت عيونُــ قبيلةٍ * دمًا ضَحِكت عنه الأحاديثُ والذِّكْرُ
[فتًى دهرُه شطرانــ فيما ينُوبه * ففى بأسه شطرٌ وفى جوده شطر] (٢)
فتًى مات بين الضرب والطعن مِيتةً * تقوم مَقــام النَّصر إذ فاته النَّصر
وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفه * من الشَّلّ (٣) وآعتلّت عليه القنا السُّمْر
وقد كان فوتُ الموت سهلًا فردّه * عليه الحِفاظُ المرُّ والخُـلُقُ الوَعْر
ونفسٌ تَعاف العارَ حتى كأنه * هو الكفرُ يومَ الرَّوعِ أو دونه الكُفر

(١) الإثغار : أن يلقى الصبي ثغره على أسنانه . (٢) زيادة من الديوان .

(٣) شل الأعداء بسيفه : طردهم بين يديه . وفى الديوان : " من الضرب " .

فأثبتَ فى مُسْتَنقع الموت رِجْـلَه * وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ
غدا غُـدوةً والحمـدُ نسجُ ردائه * فلم ينصرف إلا وأكفانُه الأجرُ
تردّى ثيابَ الموت حُمْرًا فما أتى * لها الليل إلا وهى من سندسٍ خُضْر
كأنّ بنى نَبْهان يوم وفاته * نجومُ سماء خرّ من بينها البدر
يعزّون عن ثاوٍ تعزّى به العُلَا * ويبكى عليه الجود والبأس والشعر
وأنّى لهم صبرٌ عليه وقد مضى * إلى الموت حتى آستُشْهِدا هو والصّبر!
فتىً كان عذبَ الروح لاعن غَضَاضة * ولكنّ كِبرًا أن يكون له كِبْر[1]
فتىً سلبته الخيلُ وهو حِمًى لها * وبزّته نارُ الحرب وهو لها جَمْـرُ
وقد كانت البيضُ المآثير فى الوغى * بَواترَ فهى الآن من بعده بُتْرُ
أمن بعد طىٍّ الحادثات محمّدًا * يكون لأثواب العلا أبدا نَشْرُ!
[إذا شَجَرات العرف جُذّتْ أصولُها * ففى أىّ فرعٍ يُوجد الورقُ النَّضْر![2]]
لئن أبغضَ الدهرُ الخئونُ لفقده * لَعَهْدى به مِمّن يُحَبُّ له الدهر
لئن غدرتْ فى الرَّوع أيامُه به * لَمَا زالت الأيامُ شيمتها الغدر
لئن أُلْبِسَتْ فيه المصيبةَ طيّئٌ * لَمَا عُرّيتْ منها تميمٌ ولا بَكْر
كذلك ما ننفكّ نفقد هالكًا * يُشاركنا فى فقده البدو والحَضْر
سقى الغيثُ غيثًا وارتِ الأرضُ شخصَه * وإن لم يكن فيها سحاب ولا قَطْر
وكيف آحتمالى للسّحاب صنيعةً * بإسقائها قبرًا وفى لحده البحرُ
ثوى فى الثّرى من كان يحيا به الثّرى * ويغمُر صرفَ الدهر نائلُه الغَمْرُ

---

(١) رواية الديوان :
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة * ولكن كبرا أن يقال به كِبر
(٢) زيادة من الديوان .

مضى طاهرَ الأثواب لم تَبْقَ روضةٌ * غداةَ ثوى إلا اشتهت أنها قبرُ
عليك سلامُ الله وقفًا فإننى * رأيتُ الكريم الحرَّ ليس له عمرُ

وقال يرثى إدريس بن بدر السامىّ :

دموعٌ أجابت داعىَ الحزن هُمَّعُ * توصَّلُ منا عن قلوب تَقَطَّعُ
عَفاءٌ على الدنيا طويلٌ فإنها * تَفَرَّقُ من حيث ابتدت تتجمّع
تبدّلتِ الأشياء حتى لَخِلتُها * ستثنى غروبَ الشمس من حيث تَطْلُع
لها صَيْحةٌ فى كل رُوح ومهجةٍ * وليست لشىء ما خلا القلبَ تُسْمِعُ
أإدريسُ ضاع المجدُ بعدك كلُّه * ورأىُ الذى يرجوه بعدك أضيَعُ
وغُودِر وجهُ العُرْف أسودَ بعد ما * يُرَى وهو كالبِكر الكَعاب تَصَنَّع
وأصبحتِ الأحزانُ لا لمبرّةٍ * تُسَلِّمُ شَزْرًا والمعالى تُوَدِّعُ
وضلّ بك المُرْتاد من حيث يَهْتدى * وضرّتْ بك الأيامُ من حيث تنفع
وأضحت قَريحاتُ القلوب من الجوى * تَقيظ (١) ولكنّ المدامعَ تَرْبع (٢)
عيونٌ حفظن الليلَ فيك محرَّمًا * وأعطينك الدمعَ الذى كان يُمْنَع
وقد كان يدعى لابسُ الصبر حازمًا * فأصبح يُدْعَى حازمًا حين يَجزَع
وقالوا عزاءً : ليس للموت مَدْفَعٌ * فقلت : ولا للحزن للمرء مَدْفَعُ
لإدريسَ يومٌ ما تزال لذكره * دموعى وإن سكّنتُها تتفرّعُ
ولما نضا ثوبَ الحياة وأوقعت * به نائباتُ الدهر ما يُتَوَقَّعُ
غدا ليس يَدرى كيف يَصنَع مُعْدِمٌ * درى دمعُه من وجده كيف يَصنع
وماتت نفوس الغالبيّين كلهم * وإلا فصبرُ الغالبيّين أجمعُ

(١) تقيظ : يشتد حرها . وفى الأصل والديوان : "تقاظ" .

(٢) تربع : تخصب .

غَدَوْا فى زوايا نعشه وكأنما * قريشٌ قريشٌ حين مات مُجَمِّعُ(١)

ولم أنس سَعْىَ الجود خلفَ سريره * بأكسف بالٍ يَستقيم ويَظْلَعُ

وتكبيرَه خَمْسًا عليه مُعالِنًا * وإن كان تكبير المصلّين أربعُ

وما كنت أدرى يعلم الله قبلها * بأن النَّدى فى أهله يتشيَّعُ

وقمنا فقلنا بعد أن أُفْرِد الثَّرى * به ما يُقال فى السَّحابة تُقْلِعُ

ـ هذا مأخوذ من قول مسلم :

فاذهبْ كما ذهبتْ غَوادى مُزْنَةٍ * أثْنى عليها السهلُ والأوعارُ

ألم تك تَرْعانا من الدهر إن سطا * وتحفظُ من أموالنا ما نُضَيِّعُ

وتبسُطُ كفًّا فى الحقوق كأنما * أناملُها فى البأس والجود أذْرُعُ

وتَلْبَسُ أخلاقًا كِرامًا كأنها * على العِرْض من فرط الحَصانة أدْرُعُ

وتربِطُ جأشًا والكُماةُ قلوبُهم * تَزَعْزَعُ خوفًا من قنًا تتزعزعُ

وأمنيَّةُ المرتاد يحضُرك النَّدى * فيَشْفَعُ فى مثل الفلا فيشفَّعُ(٢)

فأنطق فيه حامدٌ وهو مُفْحَمٌ * وأُفْحِمَ فيه حاسدٌ وهو مِصْقَعُ

ألا إنّ فى ظُفْر المنيّة مُهجةً * تَظَلّ لها عينُ العُلا وهى تدمعُ

هى النفس إن تَبْكِ المكارمُ فَقْدَها * فمن بين أحشاء المكارم تُنْزَعُ

ألا إنّ أنفًا لم يَعُدْ وهو أجدعُ * لفقدك عند المكرمات لأجْدَعُ

وإن آمرأً لم يُمْسِ فيك مُفجَّعًا * بمحموده، فى عقله لَمُفَجَّعُ

وقال يرثى القاسم بن طَوْق بن مالك :

جوًى ساوَر الأحشاءَ والقلبَ واغِلُهْ * ودمعٌ يَضيمُ(٣) العينَ والجفنَ هامِلُهْ

(١) مجمع : لقب قصى بن كلاب بن مرة وهو الجد الخامس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقب بذلك لجمعه قريشا للرحلتين : رحلة الصيف ورحلة الشتاء . (٢) فى ديوان أبى تمام : « فيشفع فى ملء الملا فيشفع » (٣) كذا بالأصل . ولعله محرف عن «يطم» بمعنى يملأ .

وفاجعُ موت لا عدوٌّ يخافـــه * فَيُبقِى ، ولا يُبقِى صـــديقًا يُجامِلُهْ
وأىٌّ أخى عِزٍّ[1] وذى جَـــبَرِيةٍ * ينـابذه أو أىٌّ رامٍ يناضِـــلُهْ
إذا ما جرى مَجْرى دم المرء حُكْمُه * وبُثَّت على طُرق النفوس حَبَائلُهْ !
فـلو شاء هـــذا الدهرُ أقصَرَ شرُّه * كما أقصرتْ عنَّا لُهَـاهُ ونائـــلُهْ
سنشـــكوه إعلانًا وسرًّا ونيَّـــةً * شكيَّةَ مَن لا يستطيع يُقاتلُهْ
فمن مبلغٌ عنِّى ربيعـــةَ أنَّه * تقشَّعَ ظلُّ الجُــود عنهـا ووابلُهْ
وأنّ الحِجَا منها آستطارت صُدوعه * وأنّ الندى منهـا أصيبت مَقَاتلُهْ
مضى للزِّيالِ القاسمُ الواهبُ اللُّهى * ولـــو لم يُزَايلنـا لكـنَّا نُزَايِلُهْ
ولم يعلموا أنّ الزمان يريده * بفجع ولا أنّ المنايا تُراسِـــلُهْ

ومنهـا :

طـواه الرَّدى طَىَّ الرِّداء وغُيِّبَتْ * فضائلُه عن قومه وفَوَاضِـــلُهْ
طوى شِيَمًا كانت تروحُ وتغتـــدى * وسائلَ من أعيتْ عليـــه وَسَائلُهْ
فيا عارضًا للعُــرْف أقلَـــعَ مُزْنُهُ * ويا واديًا للجُـــود[2] جَفَّت مَسايِلُهُ

وقال يرثى محمد بن حُميد[3] وأخاه قحطبة :

بأبى وغيرِ أبى ـــ وذاكَ قليلُ ـــ * ثاوٍ عليـــه ثرى النِّبـــاج مَهِيلُ

---

(١) فى الديوان : «وأى أخى عزاء أو جبرية » .

(٢) كذا فى الديوان . وفى الأصل : « ويا واديا للعرف» .

(٣) كذا فى الجزء الثالث من شرح ديوانه لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٧٢ أدب) وكان محمد هو الأكبر والآخر قحطبة . وفى الأصل : «وقال يرثى محمد بن حميد ويسمى قحطبة ، وقيل : قحطبة أخوه » والصحيح ما أثبتناه وهو أن قحطبة أخوه ويؤيد هذا قول أبى تمام من مرثية أخرى يرثى بها بنى حميد الطوسى :

ذكرت أبا نصر بفقد محمـــد * وقحطبة ذكرى طويل البلابل

ومنهـا :

لعمـرك ما كانوا ثلاثة إخوة * ولكنهـم كانوا ثلاث قبائل

خَذَلَتْـه أسرته كأنّ سَراتَهـم * جهلوا بأن الخاذلَ المخـذولُ
أكّالُ أشـلاءِ الفوارس بالقَنا * أضحى بهنّ وشِـلْوُهُ ماكول (١٠١)
كُفِّى، فقتلُ محمـدٍ لِىَ شاهدٌ * أن العـزيزَ مع القضـاء ذليلُ

ومنهـا :

هيهـات لا يأتى الزمانُ بمثـله * إنّ الزمانَ بمثـله لَبخيلُ
ما أنتَ بالمقتولِ صـبْرًا إنّمـا * أَمَلِى غداةَ نَعِيِّـك المقتولُ

ومنهـا :

من ذا يحـدّث بالبقاء ضميره! * هيهات ! أنت على الفَناء دليلُ
ياليت شعرى بالمكارم كلِّهـا * ماذا، وقد فقدت نداك، تقول؟

ومنهـا :

يا يومَ قحطبةٍ لقـد أبقيتَ لى * حُرَقًا أرى أيّامهـا سـتطولُ
ليثٌ لو آنّ الليث قام مَقامـه * لأنصـاع(١) وهو يَرَاعةٌ إجْفيلُ
لمّـا رأى جمعًا قليلا فى الوغَى * وأولو الحِفاظ من القليل قليلُ
لاقى الكريهةَ وهو مُغْمِدُ رَوْعه * فيهـا ولكنْ بأسُـه(٢) مسلولُ
ومشى إلى الموت الزُّؤام كأنمـا * هو من محبّته إليه خليـل

ومنهـا :

أضحتْ عِراصُ محمـدٍ ومحمـدٍ * وأخيهما وكأنهنّ طُـلولُ
أبنى حُمَيـدٍ ليس أوّلَ ما عفـا * بعد الأسود من الأسود الغِيلُ
مازال ذاك الصبرُ وهو عليكُمُ * بالموت فى ظلّ السيوف كفيلُ
مستبسلون كأنّمـا مُهجاتُهُـمْ * ليسـت لهم إلا غداةَ تسـيلُ

(١) انصاع : انفتل راجعا مسرعا . (٢) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "ولكن سيفه".

أَلِفوا المنايا فالقتيلُ لديهـــمُ * من لم يُخَلِّ العيشَ وهو قتيـــلُ(١)
إن كان ريبُ الدهرِ أَنْكلَنيكُمُ * فالموتُ أيضًا ميِّتٌ مشكولُ

وقال يعزّى مالك بن طَوْق :

أمالكُ إنّ الحزنَ أحلام حالمِ * ومهما تدُمْ فالحزنُ ليس بدائمِ
أمالكُ إفراطُ الصبابة تاركٌ * جنًا واعوجاجًا فى قناة المكارمِ
تأمّلْ رُوَيْدًا هل تَعُدَّنَّ سالمًا * إلى آدمٍ أم هل تعدُّ ابنَ سالمِ!
متى تُرْعِ هذا الموتَ عينًا بصيرةً * تَجِدْ عادلًا منـــه شبيهًا بظالمِ
فإن تكُ مفجوعًا بأبيضَ لم تكن * تَشُـــدُّ على جدواه عقدَ التمائمِ
بفارس دُغْمِيٍّ وهَضْـبةِ وائلٍ * وكوكبِ عتّابٍ وحمزةِ هاشمِ
شَجَا الريحَ فازدادتْ حنينًا لفقده * وأحدثَ شَجْوًا فى بُكاء الحمائمِ
فمن قبـله ما قد أصيب نبيُّنا * أبو القاسم النورُ المبينُ بقاسمِ
وخُبِّرَ قَيْسٌ بالجليـــةِ فى ابنــه * فلم يتـغيّر وجهُ قيس بن عاصمِ
وقال علىٌّ فى التعازى لأشعثٍ * وخاف عليه بعض تلك المآثمِ :
أتصبر للبلوى عزاءً وحِسبةً * فتُؤجَرَ، أم تسلو سلوّ البهائمِ؟
خُلِقنا رجالًا للتجلّد والأسَى * وتلك الغَوَانِى للبُكَا والمآتمِ
وأىُّ فتًى فى الناس أحرضُ من فتًى(٢) * غدا فى خفَارات الدموع السَّواجمِ
وهل من حكيم ضيّع الصبرَ بعدما * رأى الحكماءُ الصبرَ ضربةَ لازمِ
فلا بَرِحت تسطو ربيعةُ منكم * بأرقمَ عطّافٍ وراء الأراقمِ

(١) فى نسخة من الديوان : "من لا تجلى الحرب وهو قتيل" وفى نسخة أخرى منه : "من لم يخل الحــرب ..." .
(٢) من حرض ككرم : طال همه وسقمه وفسد .

فأنت وصنواك الشقيقان إخوة * خُلقتم سُعُوطًا للا نوف الرواغم (١٠٢)
ثلاثة أركان، وما آنهدّ سؤددٌ * إذا ثبتت فيــه ثلاثُ دعائم

وقال يرثى عُمَيْر بن الوليد :

كفُّ الندى أمستْ بغير بَنانِ * وقَنَاتُهُ أضحت بغير سِـــنانِ
جبلُ الجبال غدتْ عليــه مُلِمَّةٌ * تركته وهو مهــدَّم الأركانِ
أنعَى عُمَــيْرَ بن الوليـــد لغارةٍ * بِكْرٍ من الغارات أو لَعَوانِ
أنعَى فتى الفِتْيانِ غيرَ مكذَّبِ * قولى، وأنعَى فارس الفُرسانِ
عَثَر الزمانُ ونائبــاتُ صروفه * بمُقيلنا عــثراتِ كلِّ زمانِ
لم يترك الحَدَثانُ يوم سـطا به * أحدًا نَصُول به على الحَدَثانِ
قدكنتَ حَشْوَ الدرع ثم أراك قد * أصبحتَ حشوَ اللحدوالأكفانِ
شُغلت قلوبُ الناس ثم عيونُهم * مذ مُتَّ بالخفقانِ والهَمَلانِ
وآستعذبوا الأحزانَ حتى إنّهم * يتحاسدون مَضَاضــة الأحزانِ
ما يرعَــوِى أحدٌ الى أحدٍ ولا * يشـــتاق إنسانٌ الى إنســانِ
أأصاب منك الموتُ فرصةَ ساعةٍ * فعَـــدَا عليك وأنتمــا أخَوانِ!
فَمَن الذى أبْقَى ليــومِ تكرُّمٍ * ومن الذى أبقى ليوم طِعانِ! (١)

وقال يرثى آبنا له :

كان الذى خِفتُ أن يكونا * إنّا إلى الله راجعـــونا
أمسى المُرَجَّى أبو علىٍّ * مُوَسَّـدًا فى الثرى يمينَــا
حين آســتوى وآنتهى شباباً * وحقَّـــق الرأىَ والظنــونا

(١) كذا بالأصل . والذى بالديوان :
فمن الذى يُبْقَى ليوم كريهة * ومن الذى يُدعَى ليوم طعان

أُصِبْتُ فيـه وكان عندى * على المصيبـاتِ لى مُعينـا
كنتُ كثيرًا به عزيزًا * وكنتُ صَـبًّا به ضَـنِينا
دافعتُ إلا المَنُونَ عنــه * والمـرءُ لا يدفع المنـونا
آخرُ عهـــدى به صريعًـا * للـوت بالداء مُسـتكينا
إذا شَـكَا غُصَّـةً وكَرْبًا * لاحَظَ أو راجَـعَ الأنينا
يُدير فى رَجْعِــه لسـانًا * يمنعــه الموتُ أن يُبِينا
يشـخصُ طورًا بنـاظرَيْهِ * وتارةً يُطْبِـق الجُفُـونا
ثم قضَى نَحْبَــه وأمسَى * فى جَــدَثٍ للثرى دفينـا
باشَرَ بَرْدَ الـــثرى بوجهٍ * قد كان من قبـله مَصُونا
بَعِيـــد دارٍ قريب جارٍ * قـد فارق الإلف والقَرِينا
بُنَىَّ يا واحــدَ البنينـا * غادرتَنى مُفْــردًا حزينـا
هوّن رُزْئى بـك الرزايا * علىَّ فى النـاس أجمعينا
آليتُ أنسـاك ما تجَــلَّى * صُـبحُ[1] نهـارٍ لمُصْبِحينا
وما دعا طـائرٌ هَــدِيلًا * ورجَّعتْ والِهٌ حَنِينـا
تصرَّف الدهرُ بى صُروفًا * وعاد لى شأنُه شُــؤونا
وحــزّ فى اللحم بــل بَرَاه * وأجتثّ من طلحتى فُنُـونا
أصاب مـــنّى صميمَ قلبى * وخفتُ أن يقطع الوَتِينـــا
والمـرء رهنٌ بحالتيه * فشِـدّةً مَرّةً ولِينـــا

(١) كذا فى الديوان . وفى الأصل : "شمس نهار" .

## ومما قيل فى شواذّ المراثى :

من ذلك ما قالته جَلِيلة بنت مُرّة أخت جَسّاس زوج كُلَيْب لما قتل أخوها جسّاس زوجها كليبا ؛ وكان نساء الحىّ لما آجتمعن للمأتم قلن لأخت كليب : رَحِّلى جليلة عنك فإن قيامها فيه شماتةٌ وعار علينا عند العرب ، فقالت لها : أخرجى عن مأتمنا ، فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا ، فخرجتْ وهى تجرّ أعطافها ؛ فلقيها أبوها مُرّة فقال لها : ما وراءكِ ياجليلة؟ فقالت : ثُكْل العَدَد ، وحزن الأبد ، وفقدُ حليل ، وقتل أخ عن قليل ، و بين ذلك غَرْس الأحقاد(١) ، وتفتّت الأكباد . فقال لها : أوَ يَكُفّ ذلك كرمُ الصَّفْح و إغلاء الدِّيَات ؟ فقالت جليلة : أُمنيةٌ مخدوع وربِّ الكعبة ، ابالبُدْن تَدَعُ(٢) لك وائل دم ربِّها ! قال : ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رِحلَةَ المعتدى وفراقَ الشامت ! و يلٌ [غداً](٣) لآل مُرّة ، من الكرّة بعد الكرّة ! و بلغ قولها جليلة فقالت : وكيف تشمَت الحُرّة بهتك سترها وترقّب وترها ! [ أسعد الله أختى ، ألا قالت : نَفْرةَ الحياء وخوفَ الأعداء ](٣) ثم أنشأتْ تقول :

يابنةَ الأقوام إن لمتِ فلا * تَعْجَلى باللوم حتّى تسألى
فإذا أنتِ تبينتِ الذى * يُوجب اللوم فلُومى وآعذُلى
إن تكن أختُ آمرئٍ لِيمَتْ على * جَزَعٍ منها عليه فافعلى
جلّ عندى فعلُ جَسّاس فيا * حسرتا عما آنجلت أو تنجلى
فعلُ جسّاس على ضَنِّى به * قاطعٌ ظهرى ومُدنٍ أَجَلى

---

(١) كذا فى الكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٢١٦ طبعة بلاق) . وفى الأصل : « وبين ورزاين : غرس الأحقاد ... » .
(٢) فى الكامل لابن الأثير : « تدع لك تغلب ... » .
(٣) زيادة من الكامل لابن الأثير .

لو بعينٍ فقئت عينٌ سوى (١) * أختها وانفقأت لم أحفِلِ
تحمِلُ العينُ قَذَى العين كما (٢) * تحمِلُ الأمّ أذَى ما تفتلى
إنّني قاتلةٌ مقتولةٌ * فلعلّ الله أن يرتاحَ لى
يا قتيلًا قوّض الدهرُ به * سقفَ بيتَيّ جميعًا من علِ
ورمانى فقده من كثبٍ (٣) * رميةَ المُصْمَى به المُستأصَلِ
هدم البيتَ الذى استحدثتُه * وبدا فى هدم (٤) بيتى الأوّلِ
يا نسائى دونكنّ اليوم قد * خصّنى الدهرُ برُزْءٍ مُعضِلِ
مسّنى فقدُ كُلَيْب بلظًى * من ورائى ولظًى مُستقبَلى
ليس من يبكى ليومين كمن * إنما يبكى ليوم ينجلى
دَرَكُ الثائر شافيه وفى * دَرَكى ثارِىَ ثُكْلُ المُثْكِلِ (٥)
ليتَه كان دَمِى فاحتلَبوا * دِرَرًا منه دما من أكحلى

ولما مات معاوية بن أبى سفيان اجتمع الناس بباب يزيد فلم يقدروا على الجمع بين التهنئة والتعزية، حتى أتى عبد الله بن همّام فقال: يا أمير المؤمنين، أجزل الله أجرك على الرزّية . وبارك لك فى العطيّة، وأعانك على الرعية؛ فقد رُزئت عظيما، وأُعطيتَ جسيما؛ فاشكر الله على ما أعطيت، واصبر على ما رُزيت؛ فقد فقدت خليفة الله، وأُعطيت خلافة الله؛ ففارقت جليلا، وأُعطيت جزيلا؛ إذ قضى معاوية نحبه؛ ووليت الرياسة، وأُعطيت السياسة؛ فأورده الله موارد السرور، ووفّقك فى جميع الأمور:

(١) فى رواية أخرى أشار إليها هامش الأصل: «فديت عين سوى» .
(٢) اقتلى الصغير: رباه . (٣) فى رواية أشير إليها فى هامش الأصل: «ورمانى قتله...» .
(٤) فى الكامل لابن الأثير (ج ١ ص ٣٨٩ طبع أوربا): «وانثنى فى هدم...» .
(٥) فى الكامل لابن الأثير: «يشتفى المدرك بالثأر وفى...» .

فاشكر يزيدُ فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ * واشكر حِباءَ الذى بالملك حَاباكا[1]
[أصبحت تملك هذا الخلق كلَّهمُ * فأنت ترعاهــمُ والله يرعاكا][2]
لا رُزْءَ أعظمُ فى الأقوامِ قد علموا * ممـا رُزِئتَ، ولا عُقْبى كَعُقباكا
وفى معاوية البـاقى لنـا خَلَفٌ * إذا نُعِيتَ ولا نسـمعْ بمَنْعاكا

ففتح للناس باب الرثاء وجَرَوْا على منواله .

وقال أبو نُوَاس الحسن بن هانىء يعزّى الفضل بن الربيع عن الرشيد ويهنّئه بالأمين :

تَعَزَّ أبا العبّاس عن خير هالكٍ * بأكرمِ حىٍّ كان أو هــو كائنُ
حوادثُ أيام تدور صروفُهـا * لهن مَساوٍ مرّةً ومحَاسِنُ
وفى الحى بالميْتِ الذى غيّب الثرى * فلا أنت مغبونٌ ولا الموت غابِنُ

وقال أبو تمـام يرثى المعتصم ويهنىء الواثق :

ما للدموع تروم كلّ مَرَامِ * والجفنِ ثاكلَ هَجْعةٍ ومنـامِ
يا حُفرةَ المعصوم تربُك مُودَعٌ * ماءَ الحيـاةِ وقاتـلَ الإعدام
إن الصفائحَ منكِ قد نُضِدت على * ملقَى عظامٍ لو علمتِ عظامِ
فَتَقَ المدامعَ أن لحدك حلّه * سكنُ الزمان ومُمْسكُ الأيامِ
ومصرِّفُ المُلْكِ الجَمُوحِ كأنه * قــد زُمّ مُصْعَبُه له بزمامِ
هدمتْ صروفُ الدهر أرفعَ حائطٍ * ضُرِبت دعائمه على الإســلامِ
دخلتْ على مَلِك الملوك رِواقَه * وتسرّبتْ لمُقَــوِّم القُــوّامِ

(١) رواية الكامل للمبرد : (ص ٧٨٥ طبع ليبزج سنة ١٨٦٤) :
اصــبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة * واشكر بلاء الذى بالملك أصفاكا
(٢) زيادة من الكامل .

مفتاحُ كلِّ مدينـــةٍ قد أُبْهِمت * غَلَقًا ومُخْلِى كــلِّ دارِ مُقَــامِ
ومُعَرِّف الخلفاء أنّ حظوظها * فى حـــيِّز الإسراج والإلجام
أخذ الخلافةَ عن أســلافه التى * منعتْ حِمَى الآباءِ والأعمــامِ
فلسُورة الأنفال فى مِــيراثه * آثارُهــا ولسُـــورة الأنعــامِ
ما دام هارونُ الخليفةَ فالهُدَى * فى غِبْطة موصـــولةٍ بدوامِ
إنّا رحَلنا واثقين بواثقٍ * بالله شمس ضُحًى وبدر تَمَامِ
لله أىّ حياةٍ انبعثت لنــا * يوم الخميس وبعــد أىّ حِمَــامِ
أودى بخير إمامٍ اضطربت به * شُعَب الرجال وقام خــيرُ إمامِ
تــلك الرزيّةُ لا رزيّةَ مثلُهــا * والقِسْــمُ ليس كسائر الأقسامِ

جاء منها :

نقضٌ كرَجْع الطَّرْف قد أبرمتَه * يابْن الخــلائف أيّمــا إبرام
ما إن رأى الأقوامُ شمسًا قبلها * أَفَلَتْ فــلم تُعقبْهُمُ بظَــلام
أكرِمْ بيــومِهِمُ الذى مَلَّكتَهُمْ * فى صــدره وبعامهم من عامِ

ثم أخذ فى مدح الواثق .

وفى هذه الواقعة يقول ابن الزيّات :

قد قلتُ إذ غيّبوك واصطَفَقتْ * عليــك أيدٍ بالتُّرْب والطيــنِ
اذهب فنعم المعينُ كنتَ على الدنيــا ونعــــم الظهير للديــنِ
لن يجبُرَ الله أمّــةً فقــدتْ * مثلَك إلا بمثــل هارونِ

ومن أشدّ الرثاء صعوبةً على الشاعر وأضيقه مجالًا أن يرثى امرأة أو طفلا .

وقد أُخِذ على المتنبّى فى قوله يرثى أمّ سيف الدولة بن حَمْدان :

ســلامُ الله خالقِنا حَنُــوطٌ * على الوجه المُكَفَّن بالجمالِ

وقالوا : ماله ولهذه العجوز يصف جمالها! ووبخه الصاحب بن عبّاد فى قوله فيها :

رواق العز فوقكِ مُسْبَطِرٌّ * ومُلْكُ علىٍّ ٱبنِكِ فى كمالِ

قال أبو الحسن علىّ بن رَشيق الأزدى فى كتابه المترجم بالعمدة و بالأغانى (١) أيضا : أشدُّ ماهجّن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة من الهجاء أنه قرنها "بفوقك" فجاء عملا تاما لم يبق فيه إلا الإفضاء . و إن يكن المتنبى أخطأ فى هذا فلقد أجاد فى غيره؛ والفاضل من عُدّت سَقَطاته، وحُفظت هَفَواته وفَلَتاته؛ وٱنظر إلى قوله فى أخت سيف الدولة :

يا أختَ خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أب * كنايةً بهما عن أشرف النَسَب

أُجِلُّ قدرَكِ أن تُدْعَىْ مُؤَنَّثَةً * ومن يَصِفْكِ فقد سمّاكِ للعَرَب

وقوله أيضا :

ولو كان النساء كمن فقدْنا * لفُضِّلت النساء على الرجالِ

مَشَى الأُمراءُ حولَيْها حُفَاةً * كأن المَرْوَ من زِفِّ الرئال (٢)

ومن جيّد ما رُثى النساء به وأشدّه تأثيراً فى القلب و إثارةً للحزن قول ٱبن عبد الملك ابن الزيّات فى أمّ ولده :

ألَا مَن رأى الطفلَ المفارِقَ أمَّه * بُعَيْدَ الكَرَى عيناه تبتدرانِ

رأى كلَّ أمٍّ وٱبنَها غيرَ أمِّه * يبيتانِ تحت الليلِ يَنْتجيانِ

وبات وحيدًا فى الفراش تحثُّه * بلابلُ قلبٍ دائمِ الخَفَقانِ

---

(١) لم يذكر أبو الفرج فى النسخ التى تحت أيدينا من كتابه الأغانى شيئا عن المتنبى مع أنه كان من معاصريه . (٢) الزف : ريش النعام . والرئال : جمع رأل، وهو ولد النعام .

ومنها بعد أبيات .

ألا إنّ سَجْلًا واحدًا قد أرقتُه * من الدمع أو سَجْلين قد شَفَيانِى
فلا تَلْحيانى إنْ بكيتُ فإنما * أُداوى بهذا الدمع ما تَرَيان
وإنّ مكانًا فى الثَّرَى خُطَّ لَحدُه * لمن كان من قلبى بكلّ مكان
أحقُّ مكانٍ بالزيارة والهوى، * فهل أنتما إن عُجْتُ منتظران؟
فهَبْنى عزمتُ الصبرَ عنها لأنّنى * جَليدٌ فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القُوَى لا يعرف الأجرَ حِسبةً * ولا يأتسى بالناس فى الحَدَثان
ألا مَنْ أُمَنِّيه المُنَى وأُعِدُّهُ * لعَثْرة أيامٍ وصَرْفِ زمان
ألا مَن إذا ما جئتُ أكرمَ مجلسى * وإن غبتُ عنه حاطَنى ورعانى
فلم أر كالأقدار كيف تُصيبنى * ولا مثلَ هذا الدهر كيف رمانى

وقال أبو تمام يرثى جارية له :

ألم ترنى خلَّيتُ عينى وشانَها * ولم أحفِلِ الدنيا ولا حَدَثانَها
لقد خوّفتنى النائباتُ صروفَها * ولو أمّنتنى ما قبِلتُ أمانَها
وكيف على نار الليالى معرَّسى * إذا كان شيبُ العارضَيْن دُخانَها
أُصِبتُ بخَوْد سوف أغبُرُ بعدها * حليفَ أسًى أبكى زمانى زمانَها
عِنانٌ من اللذّات قد كان فى يدى * فلما مضى الإلفُ استردّتْ عِنانَها
منحتُ الدُّمَى هجرى فلا مُحْسِناتها * أَوَدُّ ولا يهوَى فؤادى حِسانَها
يقولون: هل يبكى الفتى لخريدةٍ * متى ما أراد اعتاض عشرًا مكانَها!
وهل يستعيضُ المرءُ من خَمس كَفِّه * ولو صاغ من حُرّ اللُّجَين بنانَها!

وقال أبو الفتح كُشاجم يعزِّى بابنة :

تأسَّ يا أبا بكرٍ * لموت الحُرّة البِكْرِ

فقد زوّجتَها القبرَ * وما كالقبر من صِهْرِ
وعُوِّضتَ بها الأجرَ * وما كالأجر من مَهْرِ
زِفافٌ أُهديت فيه * من الخِدْر إلى القبرِ
فتاةٌ أسبغ الله * عليها أفضل السِّترِ
ورزءٌ أشبهَ النعمـ * ـة فى الموقعِ والقَدْرِ
وقد يُختار فى المكرو * هِ للمرء وما يدرى
فقابِلْ نعمةَ الله * وما أولاك من شكرٍ
وعَزِّ النفسَ عمّا فا * ت بالتسليمِ والصبرِ

وقال أبو مروان بن أبى الخصال الأندلسىّ فى مثل ذلك :

ألا ياموتُ كنت بنا رَءوفاً * فجدّدت الحياة لنا بزَوْرَهْ (١٠٧)
حمِدتُ لفعلك المأثور لمّا * كفيتَ مؤونةً وسترتَ عَوْرهْ
فأنكحنا الضريحَ بغير مَهْر * وجهّزنا الفتاةَ بغير شَوْرهْ.

وقال أبو تمّام حبيب بن أوس الطائىّ فى ٱبنين لعبد الله بن طاهر ماتا صغيرين فى يوم واحد من قصيدة :

نجمان شاء الله ألّا يطلُعا * إلا ٱرتدادَ الطَّرْف حتى يأفُلا
إنّ الفجيعةَ بالرياض نواضراً * لأجَلُّ منها بالرياض ذوابِلَا
لو يُنْسَآنِ لكان هذا غاربًا * للمكرُماتِ وكان هذا كاهِلَا
لَهْفى على تلك الشواهد فيهما * لو أُمهِلتْ حتى تكونَ شمائلَا
لَغَدا سكونهما حِجًا وصِباهما * حِلْمًا وتلك الأريحيّةُ نائلَا
إنّ الهلالَ إذا رأيتَ نُمُوَّه * أيقنتَ أن سيكونُ بدرًا كاملَا

وقال أبو الحسن الأنبارى فى محمد بن بقيّة وزير عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة آبن بُوَيْهِ لمّا صلبه عَضُدُ الدولة بن رُكن الدولة بن بُوَيْهِ عند خلع بختيار، وهى من نوادر المراثى :

عُلُوٌّ فى الحياةِ وفى المماتِ * لَحَقٌّ أنت إحدى المُعجِزاتِ
كأنّ الناسَ حولك حين قاموا * وفودُ نَدَاكَ أيّامَ الصِّلاتِ
كأنّك قائمٌ فيهم خطيبًا * وكُلُّهمُ قِيامٌ للصّلاةِ
مَدَدْتَ يديك نحوَهُمُ جميعًا (١) * كمدِّهما إليهم بالهِبَاتِ
ولمّا ضاق بطنُ الأرض عن أنْ * يَضُمَّ عُلَاكَ من بعد المماتِ
أصاروا الجوَّ قبرَك وآستنابوا * عن الأكفانِ ثوبَ السافياتِ
لِعُظْمِك فى النفوس بَقِيتَ تُرْعَى * بحُرّاس وحُفّاظ ثِقاتِ
وتُشْعَلُ عندك النيرانُ ليلًا * كذلك كنتَ أيّامَ الحياةِ
ولم أرَ قبلَ جذعك قطُّ جذعًا * تمكّنَ من عِناقِ المكرُماتِ
ركبتَ مطيّةً من قبلُ زيدٌ * عَلَاها فى السنين الذاهباتِ

أشار فى هذا البيت إلى زيد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب لمّا قُتِلَ وصُلِب فى أيّام هشام بن عبد الملك .

ومما يدخل فى هذا الباب ويلتحق به ما يطرأ من الحوادث التى تعُمّ بها البليّة، وتشمَل بسببها الرزيّة ؛ كآستيلاء أهل الكفر على بلد من بلاد الإسلام، وهزيمتهم لجيشه اللُّهام؛ فمن ذلك ما كتب به القاضى الفاضل عبد الرحيم البَيْسانى (٢٠٨) إلى الأمير عزّ الدين سامة لمّا آستعاد الفرنج — خذلهم الله تعالى — مدينة بيروت : ابتدأ كتابه بأن قال بعد البسملة : قال الله سبحانه فى كتابه العزيز مُسلّيًا لنبيّه الكريم

(١) كذا بالأصل . وفى احدى النسخ : "اتقفاء" وهو محرف عن "احتفاء" .

صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، فإذا كان من الناس من خان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فكيف لا يخون الناسُ الناس ! وأين المُوفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرون فى البأساء والضرّاء وحين الباس :

وقد كانوا إذا عُدّوا قليــلًا * فقد صاروا أقلَّ من القليل

والمولى – أعزّه الله بنصره ، وعوّضه أحسن العِوَض من أجره ، وكتب له ثوابَ تسليمه إليــه وصبره – ليس بأوّل من وَثِق بمن خان ، وقضيّةُ بيروت بأوّل مقدور قال الله له : كن فكان ؛ والقــدر السابق لا يدفعه الهمّ اللاحق ، ومن الخَلات المســتعارة تَخْجلة الواثق ، والموثوقُ به لائقٌ به الخجَلُ الصادق ؛ ومعاذ الله أن ينكّس المجلس رأسَه حياء ، أو أن يَسْخَط لله قضاء ؛ أو أن يأسَف على مال نقله من مُودَعه الذى لا يُؤمَن من الآفات عليه ، إلى مُودَع الله الذى يحفظه إلى أن يأتيَه به أحوجَ ما كان إليه ؛ والحمــد لله الذى جعل مصائبَنا فى الدنيا فوائدَنا فى الأُخرى ، ثم الحمد لله الذى جعل البادرةَ للعُدوان والعاقبــةَ للتقوى . وقــد علم الله أنى مُقَاسِمه ومُساهِمه ، ومُضمِرٌ من الهمّ بمــا آتفق من هذا المقدور ما مُقَدّره عالمه ؛ غير أنه لا حيلةَ لمن لا حيلة له إلا الصبر ، وإن صبَر جرى عليــه القدَر وجرى له الأجْر ، وإن لم يصبر جرى عليه القدَر وكُتِب عليه الوِزْر ؛ وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن يذهب صاحبُه فقــد أنعم الله عليــه ، حيث أخرج ما فى يديه وأبقى يديه ؛ والمــال غاد ورائح ، والمــال بالحقيقة هو العمل الصالح ؛ وإن آجتمع مُوصلها بحضرته فهو يُنْهِى ما عندى ، ويُؤَدِّى حقيقةَ وِدّى ؛ ورأيه الموفَّق .

وقال أبو المظفَّر الأَبِيوَرْدِىّ [1] لمــا آستولى الفِرنْج على البيت المقدّس فى سنة آثنتين وتسعين وأربعمائة قصيدة منها :

(١) وتنسب هــذه الأبيات أيضا فى النجوم الزاهرة (ج ٥ ص ١٥١ طبع دار الكتب المصرية) للقاضى زين الدين أبى سعد الهروىّ .

مَزَجنا دماءً بالدموع السـواجِمِ * فلم يبقَ منا عُرضـةٌ للمَراجمِ

وشرُّ سلاحِ المـرءِ دمعٌ يُفيضُهُ * إذا الحربُ شبّت نارُها بالصوارِمِ

فإيهًا بنى الإسـلام ! إن وراءكم * وقائعَ يُلحِقنَ الذُّرى بالمَناسـمِ

أتَهْوِيمةً فى ظِـلِّ أمنٍ وغِبطةٍ * وعيشٍ كنُوّارِ الخميـلةِ ناعـمِ!

وكيف تنام العينُ مِـلْءَ جُفونِها * عـلى هَبَواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ

وإخوانُكم بالشام يُضحِى مَقيلُهـم * ظهورَ المَـذاكى أو بطونَ القَشاعِمِ

يسومُهـمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ * تجـرُّون ذيلَ الخَفضِ فعلَ المُسالِمِ

وكم من دماءٍ قد أُبيحتْ ، ومن دُمًى * تُوارى حياءً حُسنَها بالمعاصِمِ

بحيث السيوفُ البيضُ مُحمَرّةُ الظُّبَى * وسُمْـرُ العَوالِى داميـاتُ اللَّهاذِمِ

وبين اختلاسِ الطعنِ والضربِ وقفةٌ * تَظَلُّ لها الوِلْدانُ شِيبَ القَوادِمِ

وتلك حروبٌ مَن يَغِبْ عن غِمارِها * ليسلمَ يقرَعْ بعـدها سِنَّ نادمِ

سَلَلْنَ بأيدى المسلمين قَواضِبًا * ستُغمَدُ منهـم فى الطُّلَى والجماجِمِ

يكادُ بهنَّ المُستجِنُّ بطَيْبـةٍ * ينادى بأعلى الصوت : يا آلَ هاشمِ

أرى أمّتى لا يُشرِعون إلى العِـدا * رماحَهمُ والدِّينُ واهى الدعائمِ

ويجتنبون النـارَ خوفًا من العِـدا * ولا يحسبون العـارَ ضربةَ لازمِ (١٠٩)

أترضى صناديدُ الأعاريبِ بالأذَى * وتُغضِى عـلى ذُلٍّ كُماةُ الأعاجِمِ !

فليتهـمُ إذ لم يَذُودوا حميّـةً * عن الدينِ ضنُّوا غَيْرةً بالمحارمِ

وإن زَهِدوا فى الأجرِ إذ حَمِىَ الوَغَى(١) * فهلّا أتَوه رغبـةً فى المغانمِ !

(١) فى الأصـل : "جمش" ولعلها محرفة عن "حمس" بالحاء والسين المهملتين وهو ( بالتخفيف والتشديد) بمعنى اشتداد الأمر واضطرام النار ، وهى رواية ابن الأثير. وما أثبتناه رواية النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .

لئن أذعنت تلك الخياشيم للثرى * فلا عَطَسوا إلا بأجدعَ راغم
دعوناكُمُ والحربُ ترنُو مُلِحّةً * إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تُراقِبُ فينا غارةً عربيّةً * تُطيل عليها الرومُ عَضّ الأباهِم
فإن أنتُمُ لم تغضبوا عند هذه * رمتنا إلى أعدائنا بالجرائم

وقال علَاء الدين علىّ الأوتارىّ الدمشقىّ فى مثل ذلك لما ٱستولى التتار على دمشق فى سنة تسع وتسعين وستمائة :

لك عِلْمٌ بما جرى يا سُهَادى * من جفونى على ٱفتقاد رُقَادى
لم أجد عند شِدّتى مُؤنِساً لى * غيرَ سُهْدى مُلازماً لسَوَادِى
وحبيبُ العين الرقادُ جفاها * مُذ رآها خليفةَ الأنكادِ
أحسن الله يا دِمَشْقُ عَزَاكِ * فى مَغَانيكِ يا عمادَ البلادِ
وبرُسْتاق نَيْرَبَيْكَ مع المِزّ * ة مع رَوْنَقٍ بذاك الوادى
وبأُنْس بقاسِيُونَ وناس * أصبحوا مَغْنَماً لأهل الفسادِ
طَرَقتهمْ حوادثُ الدهر بالقتـ * ـلِ ونَهْبِ الأموال والأولادِ
وبنات مُحَجّبات عن الشمـ * ـسِ تناءت بهنّ أيدى الأعادى
وقُصور مُشَيّدات تَقَضّتْ * فى ذَرَاها الأيامُ كالأعيادِ
وبيوت فيها التِّلاوةُ والذكـ * ـرُ وعالى الحديث بالإسنادِ
حَرَّقُوها وخرّبوها وبادَتْ * بقضاء الإله ربِّ العبادِ
وكذا شارعُ العُقَيْبَة والقصـ * ـر وشاغُورُها وذاك النادى
أصبحوا اليومَ مثلَ أمسٍ تَقَضَّى * وبكتهم سماؤهم والغوادى
ولكمْ سُورُها حَوَى مِن مُعَنًى * مُقْرَحِ القلبِ والحشى والفُؤادِ
إن بكى لا يُفيده أو تَشَكّى * وَجد المُشْتَكى حليفَ سُهادِ

يشتكي فوق ١٠ آشتكاه بأضعا * ف فيغـدو وهمـه فى آزدياد
فالغلا والجلا مع الجوع والعر * ى ونهب الأقوات والأزواد
والحصار الشديد والحبس والخو * ف مع السادة العراة المكادى (١)
و بوزن الأموال من غير وجد * بآعتساف الغتم (٢) الغلاظ الشداد
كاتر آچقا كبرخوار أنت ياغيه * لمحمود غازان قاآن البـلاد (٣)
يا ترى هل لكربنا من مجير * أم لتشديد أسرنا من مفادى
لهف نفسى على جيوش تولت * ثم ولت جريحـة الأكباد
كل نـدب غضب حمى كمى * أمجد أصـيد شجاع جواد
إن سطا فى هياته كان بحـرا * أو سطا خلته من الآساد (١١٠)
أو بدا حاملا تخـال عنتريا * أو غدا سابق الجواد فغادى
إن أتانى مبشر بلقـاهم * حاز روحى ومهجتى وقيادى
ولثمت التراب شكرا وعفـر * ت خدودى على بلوغ مرادى
لست أرجو غير البشير شفيعا * عنـد ربى فى المن بالإنجاد
فهـو الصادق الذى وعد الدين * بنصـر جار عـلى الاياد
غير أن الفساد يكسب ذلا * ويعمى الفسـاد طرق السداد
وآرتكاب الفساد يورث فقرا * وخراب البيوت عقبى الفسـاد
ياحبيب الإله لا تتخـلى * عن عصاة غمرتهم بالأيادى

(١) المكادى : جمع "مكدى" اسم مفعول من كداه بمعنى حبسه . (٢) الغتم : جمع أغتم وهو من لا يفصح . (٣) عرضنا هذا البيت على العالم الجليل موسى افندى جار الله نزيل القاهرة الآن فشرحه بما يأتى : كاتر : هات . آچقا : النقود . كبرخوار : كافر حقير غير كتابى . ياغيه : العـدو الباغى . قاآن : كبير الملوك . ومعنى البيت : هات أيها الكافر الحقير الخراج أنت عدو لقاآن (خاقان) البلاد محمود غازان . وهذا البيت لا تتفق أوزانه مع التفاعيل الشعرية .

ياحبيبَ الإلٰهِ قـد مسَّنا الضُّـ * ـرُّ فجُـدْ بالإسعاف والإسعادِ
ياحبيب الإلٰهِ تُبْنـا إلى اللـ * ـه وأنت العِمادُ حتّى المَعادِ
مَنْ لأسرى كَسْرى حَيارى دَهَتْهم * دَهَمتهم جِيادُ أهلِ العِنادِ
واضع اللقط فى الحساب عناه * ـلو بعش ـ حصر كثرةِ الأعدادِ
منهـمُ الطفـلُ والصبيّةُ والشا * بُّ يُنادى، فمن يجيب المنادى!
ويُنادَى عليهـم برغيف * وبتَزْرٍ بَخْسٍ بسُوق الكَسادِ
عُوِّضوا عن سرورهم بغرور * وقصورِ البلاد سُكْنَى البَوادى
وبأهل الوداد شـرَّ أناس * وبلِينِ المِهادِ شـوكَ القَتادِ
أىُّ عين عليهـمُ ليس تبكى * أىّ قلب عليهـمُ غيرُ صادى!
فلأنت الرحيم قلبًا ولُبًّا * ولأنت الهادى لسُبْل الرَّشادِ
ولأنت البديعُ خَلْقا وخُلْقا * ولأنت السميع للإنشاد
ولأنت الطِّرازُ فى كلّ معـنًى * ولسيف المقال شِبهُ النِّجاد
ولأنت الحاوى فُنُونَ صِفاتٍ * دونَ حصرٍ لها فَناءُ المِدادِ
ولأنت الممدوح من فوق عرش * بعـدُ ماذا يقول قُسُّ الإيادى
جُلُّ قَصْدِ الفصيح بالنظم معنًى * نَشْرُ فضل الممدوح بين العبادِ
فإذا كان مُنشئُ المدح ربّى * عاد مدحُ الفصيح جمعَ سَوادِ
فعليكَ الصلاةُ يرجو بها الأمـ * ـنَ علىٌّ من سائر الأنكاد

وحيث انتهينا من المراثى والنوادب إلى هذه الغاية، فلنذكر نُبْذة من الزهد والتوكّل.

# البـاب الثـالث

## من القسم الرابع من الفن الثانى فى الزهد والتوكل

وهذا البـاب — وفّقنا الله و إياك لقصـدنا، وألهمنا سلوكَ سبيل رشـدنا؛ وٱستعمَلَنا فى مَرَاضيـه، وجنّبنا عن الالتفات بالقول والفعل إلى معاصيه — من هذا الفنّ هو واسطة عِقده،وعضُد زَنْده، وقائم مُرْهَفه وحَدّ فِرِنْده،وشَبَا سِنَانه، (١١١) ومَثْنَى عِنانه، و إنسانُ حَدَقته، وحدقة إنسانه؛ وكيف لا وهو للنفس دُرّة تاجها، وطبيبُ عِلاجها، وواضح مِنْهاجها؛ ودليلها المُرْشِـد إذا ضلّ الدليل، ومُنْجيها من الهول الأعظم إذا فرّ المرء من الأخ والأمّ والأب والآبن والصاحبة والخليل . فتأمله أيها المُطالع بعين قلبك قبل ناظرك، وٱتخذه من أحصن جُنّتك وأعدّ عُدَدك وأنفس ذخائرك؛ ورُضْ به نفسـك إذا جَمحتْ، وسكّن به آمالك إذا مالت إلى المطامع وجَنَحتْ . وٱعلم أن الدنيا ظلٌّ زائل، وعدوٌّ قد نَصب لك الشّباك ومدّ الحبائل، وأنك لا بدّ مسئول عما ٱكتسبتَه منها، فليت شعرى ما أعددتَ لجواب المُسَائل؟ فهى العـدوّ الذى أشبه بالصديق، والغـادر المـاكر الذى ما أخوفنى أنّ مَكْرَه بى وبك سيَحيق . فٱقتصر على القليل منها، وٱعلم أنك سترحل فى غد عنها؛ وأن الموت نازلٌ بك فلا ينفعك ما جمعته من مال وخَوَل، ولا يصحبك من الدنيا إلا ما قدّمته لآخرتك من صالح العمل؛ وأنّ مالك سيقتسمه من لعـلّه لا يشكرك عليـه، وماذا ينفعك شكره أن لو فعل ! وغايةَ ما ينالك من دنياك ، و إن بلغتَ منها مُناك، وطال بها مَدَاك، أن تَمَتّع بزَهْرتهـا، وتنال من لذّتها؛ وقد علمتَ بالمشاهـدة من حالك وحال غيرك ما يؤول أمر مَلَاذّها إليه فى العاجل ، وما يُتَوَقّع لمن ٱقتصر من دنياه عليها فى الآجل؛ فالمأكل والمَشْرب صائران إلى ما علمته و إنمـا تحصل اللذّة

بهما قبل الازدراد ؛ والمنكح والمركب فأنت وهما فى الموت والفناء على ميعاد ، والملابس فستخلقها الأيام بعد الجدّة ، والمساكن فستعفّى الليالى آثارها ولو بعد مدّة . فإذا علمت أن مآل الدنيا إلى الزوال ، وقصاراها إلى الانتقال ، وملاذّها إلى هذه الغاية ، والعمر فيها وإن طال سريع النهاية ؛ فتقلّل منها حسب طاقتك ، واقتصر على ما تسدّ به بعض خلّتك وفاقتك ؛ واعمل لآخرتك التى لا ينقضى أمدها ، ولا يفنى من النعيم الدائم مددها . وقد أمرتك الخير وليتنى به لو ائتمرت ، وأوضحت لك سبيل الرشاد وليتنى به لو مررت .

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به * وما استقمت فما قولى لك : استقم !

وسأورد إن شاء الله على سمعك من هذا الباب ما إن تمسّكت به كان سببا لإرشادك ، وذخيرة تجدها فى يوم معادك .

## ذكر بيان حقيقة الزهد

قال الإمام الأوحد العالم زين الدين حجّة المتكلّمين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بإحياء علوم الدين : إعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين . وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات ؛ لأن أبواب الإيمان كلّها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل . وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال ، إذ به يظهر الحال الباطن ، وإلا فليس القول مرادا بعينه ؛ وإذا لم يكن صادرا عن حال سمّى إسلاما ولم يسمّ إيمانا . والعلم هو السبب فى الحال يجرى مجرى المثمر ، والعمل يجرى مجرى الثمرة .

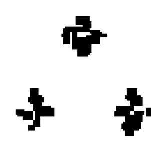
فأما الحال فنعنى بها ما يسمّى زهدا ، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشئ إلى ما هو خير منه ؛ فكلّ من عدل عن شئ إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنّما عدل

عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته فيه. فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يُسَمَّى [ زهدا، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمّى ](١) رغبةً وحبّاً. فإذًا يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبًا فيه(٢) هو خير من المرغوب عنه. وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه؛ فمن رغب عما ليس مطلوبا فى نفسه لا يسمَّى زاهدا، فتارك التراب والحجارة والحشرات لا يسمّى زاهدا، لأن ذلك ليس فى مَظِنَّة الرغبة، وإنما يسمَّى زاهدا تاركُ الدراهم والدنانير. وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة؛ فالبائع لا يُقْدِم على البيع إلا والمُشْتَرَى عنده خيرٌ من المَبيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدًا فيه، وبالإضافة إلى العِوَض رغبةً وحبًّا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وشَرَوْه بمعنى باعوه، ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طمعوا أن يخلُوَ لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحبّ إليهم من يوسف فباعوه طَمَعًا فى العِوَض. فإذًا كلُّ من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا، وكلُّ من باع الآخرةَ بالدنيا فهو أيضا زاهدٌ ولكن فى الآخرة؛ ولكنّ العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن زهد فى الدنيا؛ كما خُصِّص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصّة، وإن كان هو الميل فى وضع اللسان. قال: ولما كان الزهد رغبةً عن محبوبٍ بالجملة لم يُتَصوَّر إلا بالعدول إلى شىء هو أحبّ منه، وإلا فتركُ المحبوب بغير الأحبّ محال. والذى يرغب عن كلّ ما سوى الله تعالى حتى الفِردَوس ولا يحبّ إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق. والذى يرغب عن كل حظّ ينُال فى الدنيا ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة بل طمع فى الحُور العين

(١) زيادة عن الإحياء.

(٢) كذا فى الإحياء. وفى الأصل: «إليه».

والقُصور والفواكه والأشجار فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول . والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض، كالذى يترك المال دون الجاه، أو يترك التوسُّع فى الأكل ولا يترك التجمُّل فى الزينة، فلا يستحق اسم الزهد مطلقا، ودرجته فى الزّهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين ، وهو زهدٌ صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة ؛ فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظّ النفس . والمُقتصر على ترك المحظورات لا يسمّى زاهدا، وإن كان زهد فى المحظور وانصرف عنه، ولكن العادة تخصّص هذا الاسم بتارك المباحات . فإذًا الزهد عبارةٌ عن رغبةٍ عن الدنيا عُدولًا إلى الآخرة أو عن غير الله عدولًا إلى الله، وهى الدرجة العليا . وكما يُشترط فى المرغوب فيه (١) أن يكون خيرًا عنده، فيُشترط فى المرغوب عنه أن يكون مقدورًا عليه، فإن ترك ما لا يُقدر عليه محال، وبالترك يتبيّن زوال الرغبة ؛ ولذلك قيل لابن المبارك : يا زاهد، فقال : الزاهد عمر بن عبد العزيز، إذ جاءته الدنيا راغمةً فتركها، وأما أنا ففيم زهدتُ !



وأمّا العلم الذى هو المثمر لهذا الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرًا بالإضافة إلى المأخوذ، كعلم التاجر بأن العِوض خيرٌ من المَبيع فيرغب فيه؛ وما لم يتحقّق هذا العلم لا يُتصوّر أن تزول الرغبة عن المَبيع ، فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خيرٌ وأبقى ، أى لذّاتها خيرٌ فى نفسها وأبقى . فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبةُ فى البيع والمعاملة ؛ حتّى إنّ من قوِى يقينه يبيع نفسه وماله، كما قال الله عز وجل : ﴿ إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

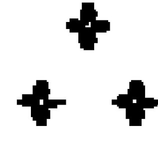
(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «المرغوب إليه» .

وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...) الآية، ثم بيّن أن صَفْقتهم رابحة فقال تعالى: (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ) . فليس يُحتاج من العلم فى الزهد إلا إلى هذا القدْر وهو أنّ الآخرة خيرٌ وأبقى ؛ وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إمّا لضعف علمه ويقينه ، وإما لاستيلاء الدنيا والشهوة فى الحال عليه ولكونه مقهورًا فى يد الشيطان ،
(١١٣) وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يومًا فيومًا إلى أن يختطفه الموتُ ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفَوْت . قال : وإلى تعريف خَسَاسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وإلى تعريف نَفَاسة الآخرة الإشارة بقوله عزّ وجل : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ﴾؛ فنبّه على أنّ العلم بنفاسته هو المُرَغِّب عن عِوَضه . قال: ولمّا لم يُتَصَوّر الزهد إلا بمعاوضةٍ ورغبةٍ عن محبوب فى أحبَّ منه قال رجل : اللّهمّ أَرِنى الدنيا كما تراها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَا تَقُلْ هـذا ولٰكنْ قل اللّهمّ أَرِنى الدنيا كما أَرَيْتَهَا الصالحين من عبادك" . وهذا لأن الله يراها حقيرةً كما هى ، وكلّ مخلوق فهو بالإضافة إلى جَلاله حقير، والعبد يراها حقيرةً فى حقّ نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له (١) ، ولا يُتَصَوّر أن يرى بائعُ الفرس وإن رغِب عن فرسه كما يرى حشرات الأرض [ مثلا ] (٢) ، لأنّه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيًا عن الفرس ؛ والله تعالى غنىٌّ بذاته عن كلّ ما سواه ، فيرى الكلّ فى درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ، ويراها متفاوتة بالإضافة إلى غيره ، والزاهد هو الذى يرى تفاوُتها بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره .

---

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : "إلى ما هو خير منه" .

(٢) زيادة عن الاحياء .



وأمّا العمل الصادر عن حال الزهد فهو تَرْكٌ وأَخْذ، لأنه بيعٌ ومعاملة واستبدالُ الذى هو خير بالذى هو أدنى. فكما أنّ العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع [1] و إخراجه عن اليد وأخْذ العوَض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكُلِّيّة وهى الدنيا بأسرها مع أسبابها ومُقَدماتها وعلائقها، فيُخْرِج من القلب حبّها ويُدخِل حبَّ الطاعات ويُخرِج من اليد والعين ما أخرجه من القلب ، ويُوَظّف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف من الطاعات، وإلّا كان كمن سلّم المَبيع ولم يأخذ الثمن . فإذا وفّى شرطَ الحالتين فى الأخْذ والترك فليَسْتبشر ببيعه الذى بايع به، فإن الذى بايعه بهذا البيع وَفِيٌّ بالعهد؛ فمن سلّم حاضرا فى غائب وسلّم الحاضر وأخذ يسعى فى طلب الغائب سُلِّم إليه الغائبُ حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يُوثَق بصدقه وقُدْرته ووفائه بالعهد . وما دام مُمْسكا للدّنيا فلا يصح زهده أصلا، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد فى بنيامين وإن كانوا قد قالوا : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ﴾ ، وعزموا على إبعاده كما عزموا على إبعاد يوسف حتى شفع فيه أحدهم فتُرِكَ ، ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عند العزم على إخراجه إلا عند التسليم والبيع . فعلامة الرغبة الإمساك ، وعلامة الزهد الإخراج . فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهدٌ فيما أخرجت فقط، ولست زاهدا مطلقا؛ وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يُتَصوَّر منك الزهد، لإنّ ما لا تقدر عليه لا تقدر على تركه . وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيّل [إليك] [2] أنّ الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهدٌ فيها ، فلا ينبغى أن تَتدلّى بحبل

(١) كذا بالإحياء. وفى الأصل : « هو بذل البيع » .

(٢) زيادة عن الإحياء .

غروره دون أن [تستوثق و] (١) تستظهر بموثق (٢) غليظ من الله تعالى؛ فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها؛ فكم من ظانٍّ بنفسه كراهةَ المعاصى عند تعذُّرها فلما تيسَّرت له أسبابها من غير مُكَدِّر ولا مخوف من الخلق وقع فيها . وإذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات فإيّاكَ أن تثق بوعدها فى المباحات . والموثق الغليظ الذى تأخذه عليها أن تجرّبها مرّة بعد مرّة فى حال القدرة، فاذا وفَتْ بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرًا وباطنًا فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما، ولكن تكون من تغيُّرها على حذَر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبةُ الرجوع إلى مُقتضَى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما تركت فقط وذلك عند القدرة . قال: وليس مِنَ الزهد بذل المال على سبيل (ج٤ ص٢٤٤) السخاء والفُتُوّة وعلى سبيل استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع، فذلك كلّه من محاسن العادات ولا مدخل له فى العبادات، إنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة. [فأما كل نوع من الترك فإنه يُتصوّر ممن لا يؤمن بالآخرة] (١) فذلك قد يكون مُروءة وفتوّة وسخاء وحسن خُلُق، وحسنُ الذكر وميْل القلوب من حظوظ العاجلة، وهى ألذّ وأهنأ من المال؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمةً عفوًا وصفوًا وهو قادرٌ على التنعُّم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم وفوات حظّ للنفس، فتركَها خوفًا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ومحبًّا لما سوى الله، ويكون مُشركا فى حبّ الله غيرَ الله؛ أو تركها طَمَعًا فى ثواب آخرَ فترك التمتّع بأشربة الدنيا طمعًا فى أشربة الجنّة، وترك التمتّع بالسرارى والنسوان طمعًا فى الحُور العِين، وترك التفرّج فى البساتين طمعًا فى بساتين الجنّة وأشجارها ، وترك التزيّن والتجمّل بزينة الدنيا طمعًا فى زينة الجنّة ، وترك المطاعم اللذيذة طمعًا

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « بموثق عليك » .

في فواكه الجنة وخوفًا من أن يقال له : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ فآثر في جميع ذلك ما وُعِد به في الجنّة على ما تيسّر له في الدنيا عفوًا صفوًا، لعلمه بأن ما في الآخرة خيرٌ وأبقى؛ وما سوى هذه فمعاملات دُنيويّة لا جَدْوَى لها في الآخرة أصلا . وحيث قدّمنا هذه المقدّمة من أحوال الزهد في الحال والعلم فلنذكر بيان فضيلة الزهد وذمّ الدنيا .

## ذكر فضيلة الزهد وبغض الدنيا

قال الله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ، فنسب الزهد الى العلماء ووصف أهله بالعلم، وذلك غاية الثناء. وقال تعالى : ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ جاء في التفسير : على الزهد في الدنيا . وقال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ . قيل : معناه أيّهم أزهد في الدنيا ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال . وقال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ ... إلى قوله : ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أصبح وهمّه الدنيا شتّت الله عليه أمره وفرّق عليه ضَيْعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له ومن أصبح وهمّه الآخرة جمع الله له أمره وحفظ عليه ضَيْعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة" . وقال صلى الله عليه وسلم : "إذا رأيتم العبد قد أُوتي[1] مَنْطِقًا وزهدًا في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقّن الحكمة" . وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ؛ ولذلك

(١) الذي في الإحياء : «إذا رأيتم العبد وقد أعطي صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة» .

قيل : من زهد فى الدنيا أربعين يوماً اجرى الله ينابيعَ الحكمةِ فى قلبـه وأطلق بها لسانه . وقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أردت أن يحبّـك الله فأزهدْ فى الدنيا" فجعـل الزهد سبباً للمحبّة؛ فمن أحبّه الله فهو فى أعلى الدرجات، فينبغى أن يكون الزهد فى أفضل المقامات . ولمـا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعـالى : ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قال : "إن النُّور إذا دخل القلب آنشرح له الصدر وآنفسح" . قيـل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة ؟ قال : "نعَمْ التجافى عن دار الغرور والإنابةُ إلى دار الخلود والآستعداد للموت قبل نزوله" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "استَحْيُوا من الله حقَّ الحياء" قالوا : إنا نستحيي من الله، فقال : "[ليس كذلك](١) تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون" . فبيّن أن ذلك يناقض الحياء من الله . وقدم وفدٌ على رســول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنّا مؤمنون . قال : "وما علامة إيمـانكم ؟" فذكروا الصبرَ على البـلاء، والشكرَ على الرخاء، والرِّضا بمواقع القضـاء ، وتَرْكَ الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء . قال : "إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تَنَافَسُوا فيما عنـه ترحَلون" ؛ فجعل الزهد تكملةَ إيمانهم . ورُوِى أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم مرّ فى أصحابه بإبلٍ عِشار حُفَّل وهى الحوامل ، وكانت من أحبِّ أموالهم إليهـم وأَنْفَسِها عندهم، لأنها تجمع بين اللحم واللبن والوبر والظَّهْر، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغضَّ بصرَه . فقيل له : يارسول الله ، هـذه أَنْفَسُ أموالنا، لم لا تنظر إليها؟ فقال : قد نهانى الله عن ذلك، ثم تلا قوله تعالى : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ

(١١٥)

(١) التكملة من الإحياء .

خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ . وروى مسروق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت : يارسول الله، ألا تستطعم اللهَ فيُطْعِمك ؟ قالت : وبكيت لِمَا رأيت به من الجوع. فقال : "ياعائشة والذى نفسى بيده لو سألت ربّى أن يُجْرِىَ معى جبالَ الدنيا ذَهَبًا لأجراها حيثُ شئتُ من الأرض ولكن آخترتُ جُوع الدنيا على شِبَعها وفقر الدنيا على غِناها وحزن الدنيا على فرحها ياعائشة إنّ الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ياعائشة إن الله لم يرضَ لأُولى العزم من الرسل إلا الصبرَ على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن يُكلّفنى ما كلّفهم فقال ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ والله مالى بُدٌّ من طاعته وإنّى والله لأصبِرنّ كما صبَرُوا جهدى ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله" .

وروى عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنه حين فُتِحَ عليه الفتوحاتُ قالت له آبنته حفصة : البَسْ ليِّنَ الثياب إذا وفَدَت عليك الوفود من الآفاق، ومُرْ بصَنْعة طعام تَطْعَمُه وتُطعم مَنْ حضر . فقال : ياحفصة، ألستِ تعلمين أنّ أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ قالت بلى . قال : ناشدتُكِ الله، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لبِث فى النبوّة كذا وكذا سنةً لم يَشبَع هو ولا أهل بيته غُدْوةً إلّا جاعوا عشيّةً، ولا شبِعوا عشيّةً إلا جاعوا غُدْوة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لبِث فى النبوّة كذا وكذا سنةً لم يَشْبَعْ من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرّبتم إليه [يوما] (١) طعامًا على مائدة فيها آرتفاع فشقّ ذلك عليه حتى تغيّر لونُه ثم أمر بالمائدة فرُفعت ووُضِع الطعامُ على دون ذلك أو وُضِع على الأرض؟ ناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عَبَاءة مَثْنِيّة فثُنِيَت له ليلةً أربع

(١) زيادة عن الإحياء .

طاقات فنام عليها، فلما استيقظ قال: "منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة اشتروا بالاثنين كما كنتم تنونها"؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين إزاراً ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك؟ فما زال [يقول](١) حتى أبكاها، وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج. وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال: كان لي صاحبان سلكا طريقاً، فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما، وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم". وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال". وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تباً للدنيا! تباً للدينار والدرهم!" فقلنا: نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأي شيء ندخر؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته". وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من آثر

(١) زيادة من الإحياء.

الدنيا على الآخرة ٱبتلاه الله تعالى بثلاث : همًّا لا يُفارق قلبه أبدًا وفقرًا لا يستغنى أبدا وحرصًا لا يشبعُ أبدا" . وقال صلى الله عليه وسلم : "لا يستكمل العبدُ الإيمانَ حتّى يكون ألّا يُعرَف أحبَّ إليه من أن يُعرَف وحتى تكون قِلةُ الشيء أحبَّ إليه من كثرته" . وقال المسيح عليه السلام : الدنيا قنطرةٌ فٱعبُروها ولا تعمُروها . وقيل له : يانبيَّ الله، لو أمرتنا أن نبتنى بيتًا نعبُدُ الله فيه ! قال : اذهبوا فٱبنُوا بيتًا على الماء . فقالوا : كيف يستقيم بُنيانٌ على الماء ! قال: وكيف تستقيم عِبادةٌ مع حُبّ الدنيا ! .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ ربّى عَرَض علىّ أن يجعل لى بَطْحاء مكة ذهبا فقلت لا يا ربّ ولكن أجُوع يوما وأشبَعُ يوما فأمّا اليوم الذى أجوع فيه فأتضرّعُ إليك وأدعوك وأمّا اليوم الذى أشبع فيه فأحمَدُكَ وأُثنِى عليك" .

وعن ٱبن عبّاس رضى الله عنهما قال : "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريلُ معه فصعِد على الصّفا، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحقّ ما أمسَى لآل محمد كفُّ سَوِيق ولا سَفّةُ دقيق . فلم يكن كلامه بأسرَعَ من أن سمع هدّةً من السماء أفظعتْه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله القيامة أن تقوم ؟ قال : لا ، ولكن هذا إسرافيلُ قد نزل إليك حين سمع كلامك . فأتاه إسرافيلُ فقال : إنّ الله عزّ وجلّ سمع ما ذكرتَ، فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعْرِض عليك إنْ أحببتَ أن أُسيِّر(١) معك جبالَ تِهامة زُمُرُّدًا وياقوتًا وذهبا وفِضّة فعلتُ، وإن شئتَ نبيًّا ملِكًا وإن شئتَ نبيًّا عبدًا . فأومأ إليه جبريلُ أن تواضَعْ لله . فقال: "نبيًّا عبدا" ثلاثا . وقال صلى الله عليه وسلم: "اذا أراد الله بعبد خيرًا زَهّده فى الدنيا ورَغّبه فى الآخرة وبَصّره بعيوب نفسه". وقال صلى الله عليه وسلم: "من أراد أن يُؤتيه الله علما بغير تَعَلُّم وهُدًى بغير هِدَاية فليَزْهَدْ فى الدنيا".

(١) كذا فى الإحياء، وفى الأصل : « أن تسير ... » .

وقال صلى الله عليه وسـلم : "من اشتاق إلى الجنّة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لهَا عن الشهوات ومن ترقّب الموت ترك اللذّات ومن زَهِد فى الدنيا هانت عليه المصائب" . والأحاديث فى ذلك كثيرة وفيما ذكرناه منها كفاية . فلنذكر ما جاء من ذلك فى الأثر .

قيل : جاء فى الأثر : لا تزال لا إله إلاّ الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يَسْألوا ما نقص من دُنياهم . وفى لفظ آخر : ما لم يُؤْثِروا صفقة دنياهم على دِينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا : لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين . وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمالَ كلَّها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زُهد الدنيا . وقال بعض الصحابة لصدر التابعين : أنتم أكثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم وكانوا خيرا منكم . قيل : ولم ذاك؟ قال : كانوا أزهدَ فى الدنيـا منكم . وقال عمر رضى الله عنه : الزهادة فى الدنيـا راحةُ القلب والجسد . والآثار أيضا فى ذلك كثيرة فلا نُطوِّل بسردها .

---

## ذكر بيان ذمّ الدنيا وشىء من المواعظ والرقائق الداخلة فى هذا الباب

وقد ورد فى كتاب الله عز وجلّ كثيرٌ فى ذمّ الدنيا وصَرْف الخلق عنها ودعْوتهم إلى الآخرة، وهـو أيضا مقصود الأنبيـاء ولذلك بُعِثُوا ، فلا حاجةَ إلى الاستشهاد بالآيات لظهورها . فلنذكر نُبْـذة من الأخبار والآثار الواردة فى ذلك ، وذلك من
(٤١٧) جملة ما اختاره الغزالىّ رحمه الله فى كتابه المترجم بإحياء علوم الدين . فمن ذلك ما رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه مرّ على شاة ميّتة فقال : "أتَرَوْنَ أن الشاة هيّنةٌ على أهلها" ؟ قالوا : مِن هَوَانِها عليهم ألْقَوْها . قال : "والذى نفسى بيده للدنيا أهون على

الله من هـذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جَناح بعُوضة ما سَقَى كافراً منها شربة [ماء][1]» . وقال صلى الله عليه وسلم : «الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ما كان لله منها» . وقال صلى الله عليه وسلم : «حُبُّ الدنيا أُسُّ كلِّ خَطِيئة» . وقال صلى الله عليـه وسلم : « يا عَجَبًا كلَّ العَجَب لِلمُصَدِّق بدار الخُلود وهو يسعَى لدار الغرور! » .

ورُوِى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقف على مَزْبَلَة فقـال : «هلُمُّوا إلى الدنيا وأخذ خِرَقاً قد بَلِيَتْ على تلك المزبلة وعظاماً قد نَخِرت فقال هذه الدنيا» وهـذه إشارةٌ إلى أن زينتها ستخلق مثل تلك الخِرَق، وأن الأجسام التى تُرَى بها ستصير عظاما باليـة . وقال عيسى بن مريم عليـه السلام : لا تتخـذوا الدنيا رَبًّا فتتّخذَكم عبيدا، اِكنِزُوا كَنْزَكم عند من لا يُضيِّعه، فإنّ صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة . وقال أيضا : يا معشر الحَوارِيِّين، إنى قـد كَبَبْتُ لكم الدنيا على وجهها فلا تُنْعِشوها بعـدى، فإنّ من خبث الدنيا أن الله عُصِى فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تُدْرَكُ إلا بتركها. أَلَا فَاْعبُرُوا الدنيا ولا تعمرُوها، واْعلموا أن أصلَ كلِّ خَطِيئة حبُّ الدنيا. ورُبَّ شهوة أورثتْ حُزْنًا طويلا . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن الله جلّ ثناؤه لم يَخْلُقْ خلقاً أبغضَ اليه من الدنيا وإنه منذ خَلَقها لم ينظر اليها» . وقال صلى الله عليه وسلم : « ألهاكم التكاثُر يقول اْبن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبستَ فأبليت أو تصدّقت فأبقيتَ!» . وقال صلى الله عليـه وسلم : «الدنيا دارُ من لا دارَ له ومالُ من لا مالَ له ولها يجمع من لا عقلَ له وعليها يُعادِى من لا علمَ له وعليها يَحْسُد من لا فِقْهَ له ولها يسعى من لا يَقينَ له». وقال صلى الله

(١) التكملة عن الإحياء .

عليه وسلم : "من أصبح والدنيا أكبرُ هَمِّه فليس من الله فى شئ وألزم الله قلبه أربع خصال همًّا لا ينقطع عنه أبدا وشُغلًا لا يتفرغ منه أبدا وفقرًا لا يبلغ غناه أبدا وأملًا لا يبلغ منتهاه أبدا" . وقال أبو هُريرة رضى الله عنه : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا هُريرة ألَا أُريك الدنيا جميعا بما فيها"؟ قلت : بلى يارسول الله . فأخذ بيدى وأتى بى وادياً من أودية المدينة ، فإذا مَزْبلة فيها رءوس ناس وعذِرات وخِرَق وعظام ، ثم قال : "يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرِصُ كحِرْصِكم وتأمُلُ آمالَكم هى اليوم عظامٌ بلا جِلْد ثم هى صائرة رماداً وهذه العَذِرات هى ألوانٌ أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذَفُوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامَوْنها وهذه الخِرَق البالية كانت رِياشَهم ولباسَهم فأصبحت الرياح تُصَفِّقها وهذه العظام عظام دَوَابِّهم التى كانوا ينتجعون عليها أطرافَ البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك" . قال : فما بَرِحْنا حتى اشتدّ بكاؤنا . وقال صلى الله عليه وسلم : "الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لا ينظر إليها وتقول يوم القيامة : يارب اجعلنى لأدنى أوليائك نصيباً اليوم فيقول اسكتى يالا شئ إنى لم أرْضَك لهم فى الدنيا أأرضاك لهم اليوم"! وقال صلى الله عليه وسلم : "لَيَجِيئَنَّ أقوامٌ يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيُؤمَرُ بهم إلى النار". قالوا : يارسول الله ، مصلين؟ قال : "نعم [كانوا] (1) يصلُّون ويصومون ويأخذون هَنَةً من الليل فإذا عرض لهم من الدنيا شئ وثَبوا عليه" . وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خُطَبه : "المؤمن بين مخافتين بين أجَلٍ قد مضى لا يدرى ما الله صانعٌ فيه وبين أجلٍ قد بقى لا يدرى ما الله قاضٍ فيه فليتزوَّد العبدُ من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه

(1) التكملة من الإحياء .

لهرمه فإنّ الدنيـا خُلِقتْ لكم وأنتم خُلِقتم للآخرة والذى نفسى بيـده ما بعد الموت مُسْتَعتَب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنّة أو النار" .

قال صلى الله عليه وسلم: "احذروا الدنيا فإنها أسحرُ من هارُوتَ ومارُوتَ" .

وقال عليـه السلام لأصحابه : "هل منكم مَن يريد أن يُذْهِب الله عنـه العَمَى ويجعله بصيرا ألَا إنه من رغب فى الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبَه على قَدر ذلك ومن زَهِد فى الدنيا وقَصُر أملُه فيها أعطاه الله علمًا بغير تَعَلُّم وهُدًى بغير هداية ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم المُلْك إلا بالقتل والتَّجبُّر ولا الغنى إلا بالفَخْر والبُخْل ولا المحبّة إلا باتّباع الهوى ألَا فمن أدرك ذلك الزمانَ منكم فصَبَر للفقر وهو يقدِر على الغِنَى وصَبَر على البَغْضاء وهو يقدِر على المحبّة وصَبَر للذُّل وهو يقدِر على العِزّ لا يريد بذلك إلا وجهَ الله تعـالى أعطاه الله ثواب خمسين صِدِّيقا" . ١١٨

وقال عيسى بن مريم عليـه السـلام : وَيْلٌ لصاحب الدنيـا ! كيف يموت ويتركها ، ويأمَنُها وتَغُرُّه ، ويثِق بها وتخذله ! ؛ وويلٌ للمغترّين ! كيف أرتْهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبُّون ، وجاءهم ما يُوعَدون ! وويلٌ لمن الدنيا هَمُّه ، والخطايا عمـلُه كيف يفتضح غداً بذنبه ! . وقيل له : علِّمنا علماً واحداً يحبّنا الله عليه ، قال : أبغِضوا الدنيا يحبّكم الله .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو تعلمون ما أعلم لضَحِكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة" .

ومن الآثار فى ذلك ما حكاه داود بن هلال قال : مكتوبٌ فى صحف إبراهيم عليه السلام : يادنيا ، ما أهونَكِ على الأبرار الذين تصنّعتِ وتزيّنتِ لهم ! إنى قذفتُ فى قلوبهم بغضَك والصدودَ عنك ، وما خلقتُ خَلْقاً أهونَ علىّ منك ، كلُّ شأنك صغير ، وإلى الفناء تصيرين ، قضيتُ عليك يوم خلقتُك ألّا تدومى لأحد ولا يدوم أحدٌ لك

وإن بخل بك صاحبُك وشحّ عليك. طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهـــم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة! طوبى لهم! مالهم عندى من الخير إذا وفدوا إلىّ من قبورهم [ إلا ](١) النورُ يسعى أمامهم والملائكةُ حافّون بهم حتى أبلّغهم ما يرجُون من رحمتى .

وقال عمّار بن سعيد : مرّ عيسى بن مريم عليه السلام بقرية فإذا أهلُها موتى فى الأفنية والطرق ، فقال : يا معشر الحواريّين، إن هؤلاء ماتوا عن سخْطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لتَدافنُوا . فقالوا : يارُوح الله، وَدِدْنا أنّا علمنا خبرهم، فسأل اللهَ تعالى فأوحى اليه : إذا كان الليل فنادِهم يُجيبوك . فلما كان الليل أشرف على نَشَز، ثم نادى يا أهلَ القرية، فأجابه مُجيب: لَبّيْكَ يارُوح الله. فقال : ما حالكم وما قِصّتكم؟ قال(٢) : بِتْنا فى عافية وأصبحنا فى الهاوية. قال : وكيف ذاك؟ قال : لحُبّنا الدنيا وطاعتِنا أهل المعاصى . قال : وكيف كان حبّكم للدنيا؟ قال : حُبّ الصبىّ لأمّه، إذا أقبلت فرِح بها، وإذا أدبرت حزِن وبكى عليها . قال : فما بال أصحابك لا يُجيبونى ؟ قال : لأنهم مُلْجَمون بلُجُم من نار بأيدى ملائكةٍ غِلاظٍ شِداد. قال : فكيف أجبتنى من بينهـم ؟ قال : لأنى كنت فيهم ولم أكن منهم، فلمـا نزل بهم العذاب أصابنى معهم، فأنا مُعَلَّق على شَفِير جهنّم لا أدرى أنجو منها أم أُكَبُّ فيها . فقال المسيح للحواريّين : لَأَكْلُ الخـبز الشعير بالملح الجَرِيش ولُبْسُ المُسُوح والنوم على المزابل كثيرٌ مع عافية الدنيا والآخرة .

قيل : وأوحى الله تعـالى إلى موسى عليه السـلام أن يا موسى لا تركَنَنّ إلى حبّ الدنيا فلن تأتينى بكبيرة هى أشدّ منها .

(١) زيادة عن الإحياء (ج ٣ ص ١٨٨)

(٢) فى الأصل وفى الإحياء : «قالوا» والسياق يقتضى الإفراد .

وقال لُقْمان لابنه : يا بُنَىَّ، إن الدنيا بحر عميق وقد غرِق فيه ناسٌ كثير، فلتكن سفينتُك فيها تَقْوى الله عز وجل، وحَشْوُها الإيمان بالله تعالى ، وشراعُها التوكُّل على الله عز وجل، لعلك تنجو وما أراك ناجيا .

وقال بعض الحكماء : إنك لن تُصبح فى شىء من الدنيا إلا وقد كان له أهلٌ قبلك ويكون له أهلٌ بعدك ؛ وليس لك من الدنيا إلا عَشاءُ ليلةٍ وغَداءُ يوم ، فلا تهلِكْ فى أَكْلة، وصُم [عن](١) الدنيا وأَفْطِر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربْحَها النار .

وقيل لبعضهم : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخْلِق الأبدان، ويُجَدِّد الآمال، ويُقَرِّب المنية، ويُبْعِد الأُمْنِيَة . قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفِر به تَعِب، ومن فاته نَصِب . وفى ذلك قيل :

وَمَنْ يَحْمَدِ الدنيا لعيش يَسُرُّه * فسوف لعمرى عن قريب يَلُومُها
إذا أَدْبرتْ كانت على المرءِ حَسْرَةً * وإن أقبلتْ كانتْ كثيراً هُمُومُها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها، فإنّ عيشَها نكَد ، وصفوها كَدَر، وأهلَها منها على وَجَل، (١١٩) إمّا بنعمة زائلة، أو بليّة نازلة، أو منيّة قاضية .

وقال أبو حازم : إيّاكم والدنيا، فإنّه بلغنى أنه يُوقف العبدُ يوم القيامة إذا كان مُعَظِّما للدنيا فيقال : هذا عظَّم ما حقَّره الله .

وقال ابن مسعود : ما أصبح أحدٌ من الناس إلا وهو ضَيْفٌ ومالُه عارية ، فالضيف يرتحل والعارية مردودة . وفى ذلك قيل :

وما المالُ والأهلون إلّا وديعةٌ * ولا بُدّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ

(١) الزيادة عن الإحياء .

وزار رابعةَ العدوية أصحابُها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمّها، فقالت : أمسكوا عن ذكرها ، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألا من أحبّ شيئا أكثر من ذكره .

وقال رجل لعليّ رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا الدنيا؛ فقال : وما أصِفُ لكم مِن دار مَنْ صَحّ فيها ما أَمِنَ ، ومن سَقِم فيها نَدِم (١) ، ومن ٱفتقر فيها حزِن، ومن ٱستغنى فيها فُتِن؛ فى حَلالها الحِسابُ، وفى حرامها العذاب .

وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ : من قال ذا ؟ مَنْ خلقها مَن هو أعلم بها . إيّاكم وما شَغَل من الدنيا فإنّ الدنيا كثيرةُ الأشغال، لا يفتح رجلٌ على نفسه بابَ شغل إلا أوشك ذلك البابُ أن يفتح عليه عَشْرةَ أبواب . وقال أيضا : مسكينٌ ٱبنُ آدم رَضِى بدار حلالُها حساب، وحرامُها عذاب، إن أخذه من حلّه حُوسب به، وإن أخذه من حرام عُذّب به . ابن آدم يستقلّ ما له ولا يستقلّ عمله، يفرح بمصيبته فى دِينه ويجزَع من مصيبته فى دنياه .

وقال داود الطائىّ : يٱبن آدم ، فرِحتَ ببلوغ أملك، وإنّما بلغتَه بٱنقضاء أجلك، ثم سوّفتَ بعملك، كأنّ منفعته لغيرك .

وقال بِشر : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه .

وقال أبو حازم : ما فى الدنيا شىء يَسُرُّك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك

وقال الحسن : أَهِينوا الدنيا، فوالله ما هى لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها . وقال أيضا : إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أعطاه عطيّةً من الدنيا ثم يُمسك، فإذا نفِد أعاد عليه؛ وإذا هان عليه عبدٌ بَسَطَ له الدنيا بَسْطا .

---

(١) كذا فى الأصلين . وفى الإحياء (ج ٣ ص ١٩٢) : «من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم» .

قال الجُنَيْد : كان الشافعىّ رحمه الله من المُريدين الناطقين بلسان الحقّ فى الدين ، وَعَظ أخًا له فى الله تعالى وخوّفه بالله فقال : يا أخى، إنّ الدنيا دَحْضُ مَزَلّة، ودار مذلّة ، عُمْرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفُرقة موقوف ، وغِناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار ، والإعسار فيها يَسَار، فافْزَع إلى الله وارْضَ برزق الله . لا تَسْتسلف من دار بقائك فى دار فَنائك، فإن عيشك فَىْءٌ زائل، وجِدارٌ مائل، أكثِرْ من عملك، وقَصِّرْ من أملك . وهذا من أبلغ المواعظ والترغيب .

ومن المواعظ ما قاله أبو الدرداء رضى الله عنه : والله لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصُّعُدات [تجارون و](1) تبكون على أنفسكم ، ولتركتم أموالكم لا حارسَ لها ولا راجعَ إليها إلّا ما لا بدّ لكم منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الأمل، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم وصرتم كالذين لا يعلمون، فبعضكم شرٌّ من البهائم التى لا تدع هواها مخافةً مما فى عاقبته . ما لكم لا تَحَابُّون ولا تَنَاصحون وأنتم إخوان على دين [الله](1)؛ ما فرّق بين أهوائكم إلا خُبْث سرائركم، ولو اجتمعتم على البِرّ لتحاببتم . ما لكم تَنَاصحون(2) فى أمر الدنيا ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يُحبّه ويُعينه على أمر آخرته! ما هذا إلا من قلّة الإيمان فى قلوبكم . لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرّها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك بأموركم . فإن قلتم : حبُّ العاجلة غالب، فإنّا نراكم تَدَعون العاجل من الدنيا للآجل مما تكدُّون أنفسكم بالمشقّة والاحتراف فى طلب أمرٍ لعلكم لا تُدركونه .

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) فى الأصلين : «ما لكم لا تناصحون فى أمر الدنيا» بدخول لا النافية والسياق يقتضى حذفها . وفى الإحياء : «ما لكم تناصحون فى أمر الدنيا ولا تناصحون فى أمر الآخرة ولا يملك أحدكم ... » .

فبئس القوم أنتم ! ما حقّقتم إيمانكم بما يُعرَف به الإيمان البالغ فيكم . فإن كنتم فى شكٍّ ممـا جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأتونا لنبيِّن لكم ولنريكم من النور ما تطمئنّ اليه ١٢ب
قلوبكم . والله ما أنتم بالمنقوصــة عقولُكم فنعــذركم؛ إنكم لَتَبَيَّنُون صواب الرأى فى دنيا كم وتأخذون بالحزم فى أموركم . ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تُصيبونه وتحـزَنون على اليســير منها يفوتكم ، يتبين ذلك فى وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمُّونها المصائب وتُقيمون فيها المآتم ، وعامتكم قــد تركوا كثيرا من دينهــم ثم لا يتبيّن ذلك فى وجوهكم ولا يتغيّر حالٌ بكم(١) ! . إنى لأرى الله قد تبرّأ منكم . يلقى بعضكم بعضًا بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبَه بمـا يكره مخافةَ أن يستقبله صاحبُه بمثــله ، فاصطحبتم على الغِــلّ(٢) ، ونبتت مراعيكم على الدِّمَن ، وتصافيتم على رفض الأجل . ولَوَدِدْتُ أن الله أراحنى منكم وألحقنى بمن أُحبّ رؤيته ، ولو كان حيًّا لم يصابركم . فإن كان فيكم خير فقــد أسمعتكم ، وإنْ تطلبوا ما عنــد الله تجدوه يسيرا . والله أستعين على نفسى وعليكم .

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله تعالى :

أمّا بعد ، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أُنزل آدمُ عليه السلام من الجنّة إليها عقوبة ؛ فاحذَرْها يا أمير المؤمنين ؛ فإنّ الزاد منها تركُها ، والغنَى منها فقرها ؛ لها فى كلّ حين قتيل ؛ تُذِلّ من أعزّها ، وتُفقر من جمعها ؛ هى كالسمّ يأكله من لا يعرفه وهو حتفه . فكن فيها كالمُداوى جراحتَه ، يحتمى قليــلا مخافةَ ما يكره طويلا ، ويصبر على شدّة الدواء مخافة طول الداء . فاحذر هذه الدار الغدّارة الختّالة الخدّاعة التى قد تزيّنت بخُدَعها وفتنت بغرورها ، وحلّت بآمالها ، وسوّفت بخطّابها ؛

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : « ثم لا يتبين ذلك فى وجوههم » .

(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « فأصبحتم على الغل ... » .

فأصبحت كالعروس المجلوّة[١]، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلّهم قالية؛ فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأوّل مزدجر، والعارف بالله عزّ وجلّ حين أخبره عنها مدّكر؛ فعاشقٌ لها قد ظفر منها بحاجته فاغترّ وطغى ونَسِيَ المعادَ، فشغل لبّه حتى زلّت [به][٢] قدمه، فعظُمت ندامته، وكثُرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألّمه، وحسرات الفوت بغُصّته؛ وراغبٌ[٣] فيها لم يدرك فيها ما طلب، ولم يروّح نفسه من التعب؛ فخرج بغير زاد، وقدِم على غير مهاد. فاحذَرْها يا أمير المؤمنين، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكون لها؛ فإنّ صاحب الدنيا كلما اطمأنّ فيها إلى سرورٍ أشخصته إلى مكروه؛ السارّ فيها أهلَها غارّ، والنافع فيها غدّار[٤] ضارّ؛ وقد وُصل الرخاءُ فيها بالبلاء، وجُعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوبٌ بالأحزان. لا يرجع منها ما ولّى وأدبر، ولا يُدْرَى ما هو آتٍ فينتظر، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كَدَر، وعيشُها نكد، وابن آدم فيها على خطر، ومن البلاء على حَذَر. فلو كان الخالق لم يُخبر عنها خبَرا، ولم يضرب لها مثلا، لكانت الدنيا أيقظت النائم ونبّهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عزّ وجلّ عنها زاجر وفيها واعظ! فما لها عند الله جلّ ثناؤه قَدْر، وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عُرضت على نبيّك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا يَنْقصه ذلك عند الله جَناحَ بَعوضة فأبى أن يقبلها إذ كَرِه أن يُخالف على الله أمره، أو يُحبّ ما أبغض خالقُه، أو يرفع ما وَضع مليكُه. فزَوَاها[٥] عن الصالحين اختبارا. وبَسطها

---

(١) في الأصل: «المجلية» والفعل واوي كما في القاموس. (٢) زيادة عن الإحياء.

(٣) كذا في الإحياء. وفي الأصلين: «ومن راغب بزيادة «من» والسياق يأباها.

(٤) كذا في الإحياء. وفي الأصلين: «والنافع فيها غدا ضارّ».

(٥) زواه زَيًّا وزُوِيًّا: نحّاه.

لأعدائه اغترارا؛ فيظنّ المغرور المقتدر عليها أنه أُكْرِم بها، ونسِيَ ماصنع الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شدّ الحجر على بطنه . ولقد جاءت الرواية عنه عن ربّه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغِنَى مُقبلًا فقل: ذَنْبٌ عُجِّلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقل : مرحبًا بشِعار الصالحين . فإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى بن مريم عليه السلام فإنه كان يقول : إدامى (١٢١) الجوع، وشِعارى الخوف، ولباسى الصوف، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس، وسراجى القمر، ودابّتى رجلاى ، وطعامى وفاكهتى ما تُنبت الأرض، أبيت ليس لى شىءٌ وأُصبح وليس لى شىءٌ وليس على الأرض أغنى منّى .

وقال بعضهم لبعض الملوك : إن أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقِلاها مَن بُسِط له فيها وأُعطى حاجته منها، لأنه يتوقّع آفةً تعدو على ماله فتجتاحه، أو على جَمْعه فتفرّقه، أو تأتى سلطانَه فتهدمه من القواعد، أو تدبّ إلى جسمه فتُسْقمه، أو تَفْجَعه بشىء هو ضنين به من أحبابه . فالدنيا أحقّ بالذمّ، هى الآخذة لما تُعطى، الراجعة فيما تَهَب . بينا هى تُضْحِك صاحبَها إذ أضحكت منه غيرَه ، وبينا هى تبكى له إذ بكت عليه، وبينا هى تبسُط كفّه بالإعطاء إذ بَسَطتها بالاسترداد . تعقِد التاج على رأس صاحبها اليوم وتُعفِّره فى التراب غدا؛ سواء عليها ذَهاب ما ذهب وبقاء ما بقى، تجد فى الباقى من الذاهب خَلَفا، وتَرْضَى بكُلٍّ من كلٍّ بدلًا .

وعن وهب بن مُنبِّه أنه قال :

لمّا بعث الله عز وجلّ موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يَرُوعنّكما لباسُه الذى لبس من الدنيا ، فإنّ ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرِف ولا يتنفّس إلا بإذنى ، ولا يُعجبنّكما ما مُتِّع به منها فإنما هى زَهْرة الدنيا وزينة المُتْرَفين . فلو شئتُ أن أُزَيِّنكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ قدرته

تعجِزُ عمّا أُوتيتما لفعلت ، ولكنّى أرغب بكما عن ذلك فأَزْوِى ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليـائى، إنى لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهَلَكة ؛ وما ذاك لهوانهم علىّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالمًـا مُوَفَّرا . إنمـا يتزيّن لى أوليائى بالذُّلّ والخضوع والخوف والتقوى تَنْبُتُ فى قلوبهم فتظهر على أجسادهم، فهى ثيابهـم التى يلبَسون، ودِثارهم الذى يُظهرون، وضميرُهم الذى يستشعرون، ونجاتُهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إيّاه يأْمُلون، ومجدهم الذى به يفخَرون، وسيماهم التى بهـا يُعْرَفون . فإذا لَقِيتَهم فاْخفِضْ لهم جَناحك وذلّل لهم قلبك ولسانك . وآعلم أنّ من أخاف لى وليًّا فقـد بارزنى بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة .

وخطب علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يوما [خطبةً][1] فقال فيها :

اِعلموا أنكم ميّتون، ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجْزِيُّون بها ، فلا تَغُرّنّكم الحياة الدنيا ، فإنّها بالبلاء محفوفة، وبالفَناء معروفة ، وبالغَدْر موصوفة ؛ وكلّ ما فيها إلى زوال، وهى بين أهلها دُوَلٌ وسِجَال؛ لاتدوم أحوالهـا، ولا يسلَم من شرها نُزّالها؛ بينا أهلُها فى رخاءٍ وسرورٍ، إذا هم منها فى بلاءٍ وغرورٍ ؛ أحوال مختلفة، وتارات متصرِّفة؛ العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم. وإنمـا أهلها فيها أغراضٌ مُستهدَفةٌ ترميهم بسهامها، وتُقْصِيهم بحِمامها؛ وكلٌّ حتفُه فيها مقدور، وحظُّه فيها موفور . وآعلموا عبادَ الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيلِ مَنْ قد مضى ممن كان أطولَ منكم أعمارا، وأشدّ منكم بَطْشًا وأَعمرَ دِيارا، وأبعد آثارا؛ فأصبحت أصواتهم هامدةً وخامدةً من بعد طُول تقلّبها، وأجسادُهم بالية، وديارهم خالية،وآثارهم عافية؛استبدلوا بالقصور المشيَّدة، والسُّرُرِ والنمارِق المُهَّدة، الصخورَ (١٢٢)

(١) زيادة عن الإحياء.

والأحجارَ المُسَنَّدة، في القبور اللاطئة المُلْحَدَة؛ فمحلُّها مُقترِب، وساكنُها مُغترِب، بين أهل عِمارةٍ مُوحشين، وأهل محلّة مُتشاغلين؛ لا يستأنسون بالعُمْران، ولا يتواصلون تواصُلَ الجيران والإخوان؛ على ما بينهم من قرب المكان والجوار، ودنوّ الدار. وكيف يكون بينهم تواصلٌ وقد طحنهم بكَلْكَله البِلَى، وأكلتهم الجنادل والثرى؛ وأصبحوا بعد الحياة أمواتا، وبعد غَضَارة العيش رُفاتا؛ فُجِع بهم الأحباب، وسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب. هيهات هيهات! كلّا إنها كلمةٌ هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يومِ يُبعثون؛ فكأنْ قد صِرْتم إلى ما صاروا إليه من البِلى والوحدةِ في دار المثوى، وارتُهِنتم في ذلك المَضْجَع، وضمّكم ذلك المُستودَع؛ فكيف بكم لو قد عاينتم الأمور، وبُعثِرت القبور، وحُصِّل ما في الصدور؛ ووُقِفتم للتحصيل، بين يدي الملك الجليل؛ فطارت القلوب، لإشفاقها من سالف الذنوب؛ وهُتِكت عنكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار؛ هنالك تُجْزَى كلُّ نفسٍ ما كسبت. إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾؛ وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. جعلنا اللهُ وإيّاكم عاملين بكتابه، متّبعين لأوليائه، حتّى يُحِلّنا وإيّاكم دارَ المُقَامة من فضله، إنه حميد مجيد.

ومما يلتحق بهذا الفصل ويدخل فيه، خطبة قَطَرِيّ بن الفجاءة وسترد في كلام البلغاء في باب الكتابة.

وقال بعضهم: يأيها الناس، اِعملوا على مَهَل، وكونوا من الله على وَجَل، ولا تغترّوا بالأَمَل ونسيان الأجل؛ ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدّارة خدّاعة،

قد تزخرفتْ لكم بغُرورها ، وفتَنتكم بأمانيها ، وتزينت لُخطّابها ، فأصبحت كالعروس المجلوّة ، العيونُ اليها ناظرة ، والقلوبُ عليها عاكفة ، والنفوسُ لها عاشقة . فكم من عاشقٍ لها قتلتْ ، ومطمئنٍّ إليها خَذلتْ . فآنظروا إليها بعين الحقيقة فإنّها دار كثرت بوائقُها ، وذمّها خالقها ؛ جديدها يبـلَى ، وملكها يفنَى ، وعزيزُها يَذِلّ ، وكثيرها يقِلّ ، وحيّها يموت ، وخيرها يفوت . فآستيقظوا من غفلتكم ، وآنتبهوا من رقدتكم ، قبل أن يقال : فلانٌ عليل ، أو مُدنَفٌ ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ، أو على الطبيب من سبيل ، فيُدْعَى لك الأطبّاء ، ولا يُرْجَى لك الشفاء ؛ ثم يقال : فلان أوصَى ، ولماله أحصَى ، ثم يقال : قد ثقُـل لسانه فما يكلّم إخوانه ، ولا يعرف جيرانه ، وعرِق عنـد ذلك جبينُك ، وتتابع أنينُـك ، وثبت يقينك[(١)] ، وطَمَحت جفُونك ، وصدَقت ظنونك ، وتلجلج لسانُك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك : هذا آبنك فلان ، وهـذا أخوك فلان ، ومُنِعتَ الكلام فلا تنطق ، ثم حلّ بك القضـاء ، وآنتُزِعت نفْسُك من الأعضاء ، ثم عُرِج بها الى السماء ، فآجتمع عند ذلك إخوانك ، وأُحضِرَت أكفانك ، فغسّلوك وكفّنوك ، فآنقطع عُوّادك ، وآستراح حُسّادك ، وآنصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مُرتَهنًا بأعمالك .

وقال بعض الحكماء : الأيام سِهام ، والناسُ أغراض ، والدهر يرميك كلَّ يوم بسهامه ، ويتخرّمك بلياليه وأيّامه ، حتّى يستغرق جميع أجزائك ، فكم بقاءُ سلامتك مع وقوع الأيّام بك ، وسرعةِ الليالى فى بدَنك ! لو كُشِف[(٢)] لك عما أحدثت الأيامُ فيك من النقص لآستوحشتَ من كلّ يوم يأتى عليك ، وآستثقلت ممرّ الساعات بك ، ولكنّ تدبير الله فوق تدبير الآعتبار ، وبالسلوّ عن غوائل الدنيـا وُجِد طعمُ لذّاتها ، وإنّها (١٢٣)

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : «وثبت نفسك ... » .

(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « لو كشفت عما ... » .

لأمرّ من العَلْقَم إذا عَجَمها الحكيم ؛ وقد أعيت الواصفَ لعيوبها بظاهر أفعالهـا، وما تأتى به من العجائب أكثر مما يُحيط به الواعظ . اللهم أرشدنا للصواب .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه‌الله فقال : أيها الناس، إنكم خُلقتم لأمرٍ إن كنتم تصدّقون [ به ] (١) فإنكم حمقى، و إن كنتم تكذّبون به إنكم لهلكَى (٢) ؛ إنما خُلقتم للأبد، ولكنكم من دارٍ الى دارٍ تُنقَلون . عباد الله، إنكم فى دارٍ لكم فيها من طعامكم غَصَص، ومن شرابكم شَرَق، لا تصفو نعمةٌ تُسَرُّون بها إلا بفراق أُخرى تكرهون فِراقها، فاعمـلوا لمـا أنتم صائرون إليه خالدون فيه . ثم غلبه البكاء ونزل .

---

## ذكر بيان الزهد وأقسامه وأحكامه

فأمّا درجاته فقد قال الغزالىّ رحمه الله : إنها تتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث :

الأولى وهى السفلى منها : أن يزهدَ فى الدنيا وهو لها مُشتهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفتةٌ ولكنّه يجاهدها و يكُفّها، وهذا يسمّى التزهُّد، وهو مبدأ الزهد فى حقّ من يصل الى درجة الزهد بالكسب والآجتهاد . والمتزهّد يُذيب أوّلا نفسه ثم كسبه، والزاهد يُذيب أوّلا كسبَه ثم يُذيب نفســه فى الطاعة لا فى الصــبر على ما فارقه . والمتزهّد على خطَر، فإنه ربمـا تغلبه نفسُه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا و إلى الآستراحة بها فى قليل أو كثير .

الثانية : الذى يترك الدنيا طوعًا (٣) لآستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمـع فيه كالذى يترك درهمـا لأجل درهمين فإنّه لا يشُقّ عليــه ذلك و إنْ كان يحتاج

---

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) الذى فى الإحياء : «وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى» .

(٣) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « طاعة » .

إلى انتظار قليل . ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه ، فيكاد يكون مُعْجَبًا بنفسه وبزهده ، ويظنّ بنفسه أنّه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدراً منه ؛ وهذا أيضا نقصان .

الثالثة وهى العليا : أن يزهد طوعا ويزهد فى زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنّه ترك شيئًا إذ عرف أن الدنيا لا شىء ، فيكون كمن ترك خَزَفَةً وأخذ جوهرةً فلا يرى ذلك معاوضةً ولا يرى نفسه تاركا شيئا . [والدنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخسّ من خزفة بالإضافة إلى جوهرة](1) ؛ فهذا هو الكمال فى الزهد ، وسببه كمال المعرفة . وأما أقسامه فنها ما هو مضاف إلى المرغوب فيه والمرغوب عنه ؛ فأما المرغوب فيه فهو على ثلاث درجات :

الأولى وهى السفلى : أن يكون المرغوبُ فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدى العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار . وفى الخبر : "إن الرجل لَيُوقَف فى الحساب حتى لو وردتْ مائةُ بعير عطاشًا على عَرَقه لصَدَرَتْ رِوَاء" ؛ فهذا زهد الخائفين وكأنّهم رَضُوا بالعدم لو أُعْدِموا فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم .

الدرجة الثانية : أن يزهد رغبةً فى ثواب الله ونعيمه واللّذّات الموعودة فى جنّته من الحُور والقصور وغيره ، وهذا زهد الراجين ، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا فى وجودٍ دائم ونعيم سَرْمَدٍ لا آخر له .

الدرجة الثالثة وهى العليا : ألا يكون له رغبة إلا فى الله وفى لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ، ولا إلى اللذّات ليقصد نَيْلَها والظفر بها ،

(1) زيادة من الإحياء .

بل هو مستغرق الهمّ بالله تعالى، وهو الموحِّد الحقيقيّ الذى لا يطلب غير الله تعالى، لأنّ من طلب غير الله فقد عبده؛ وكلّ مطلوب معبود، وكلّ طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلبُ غير الله من الشرك الخفيّ. وهذا زهـد المحبّين وهم العارفون، (١٢٤) لأنه لا يحبّ الله تعالى خاصّة إلا من عرفه؛ وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنّه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحبّ إلا الدينار، فكذلك من عرف الله تعالى وعرف لذّة النظر الى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين تلك اللذّة وبين لذّة التنعّم بالحُور العين والنظر الى نقش القصور وخضرة الأشجار غـير ممكن، فلا يحبّ إلّا لذّة النظر ولا يُؤْثِر غيره. قال: ولا تَظُنّنّ أن أهل الجنّة عنـد النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذّة الحُور والقُصور مُتّسعٌ فى قلوبهم، بل تلك اللذّة بالإضافة إلى لذّة نعيم الجنّـة كلذّة مُلْك الدنيـا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخَلْق بالإضافـة إلى الاستيلاء على عُصفور واللعب به؛ والطالبون لنعيم الجنّـة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبيّ الطالب للّعب بالعصفور التارك للّذة الملك، وذلك لقصـوره عن إدراكِ لذّة الملك لا لأن اللعب بالعصفور فى نفسه أعلى وألذّ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأمّا المرغوب عنه، فقد كثرت فيه الأقاويل.

قال الغزالىّ رحمـه الله: لعلها تزيد على مائة قـول، وأشار إلى كلام محيـط بالتفاصيل فقال: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل.

أمّا الإجمال فى الدرجة الأولى: فهو كلّ ما سوى الله فينبغى أن يزهد فيه حتّى يزهد فى نفسه أيضا.

والإجمـال فى الدرجة الثانية : أن يزهد فى كل صفة للنفس فيها مُتعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكِبْر والرياسة والمـال والجاه وغير ذلك .

وفى الدرجة الثالثـة : أن يزهد فى المـال والجاه وأسبابهما ، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس .

وفى الدرجة الرابعة : أن يزهد فى العلم والقدرة والدينار والدرهم [ والجاه ][(1)] ، إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثُرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة . قال : وأعنى به كلّ علم وقدرة مقصودهما ملك القلوب ؛ إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المـال ملك الأعيان والقدرة عليهـا . قال : فإن جاوزتَ هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فتكاد تُخْرِج ما فيه الزهدُ عن الحصر . وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها فقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ . ثم ردّه فى آية أخرى إلى خمسة فقال : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ . ثم ردّه فى موضع آخر إلى اثنين فقال : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ . ثم ردّ الكلّ فى موضع آخر إلى واحد فقال : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ ؛ فالهوى لفظٌ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا ، فينبغى أن يكون الزهد فيه .

قال : فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلّها .

---

(1) زيادة من الإحياء .

وقال أبو سليمان الدارانى : سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا، والزهد عندنا ترك كلّ شى يشغَلك عن الله عز وجلّ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾، قال : هو القلب الذى ليس فيه غير الله . فهذا بيان أقسامه بالإضافة إلى المرغوب فيه وعنه .

وأما أحكامه فتنقسم إلى فرض ونفل وسلامة . فالفرض هو الزهد فى الحرام، والنفل هو الزهد فى الحلال ، والسلامة هو الزهد فى الشبهات . فهذه درجاته وأقسامه وأحكامه على سبيل الاختصار .

---

## ذكر بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

١٢٥ قال الغزالى رحمه الله : اِعلم أنّ ما الناسُ منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهمّ ؛ فالفضول كالخيل المسوّمة — إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفُّه بركوبها وهو قادر على المشى — وغير ذلك مما لا يحصر . ثم حصَر المهمّ الضرورى فتميّز ما عداه أنّه فضُول . قال : والمهمّ أيضا يتطرّق إليه فضول فى مقداره وجنسه(١) وأوقاته على ما نشرحه من قوله . قال : والمهمّات ستّة أمور، وهى : المطعم، والملبس، والمسكن وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه يطلب لأغراض .

فالمهمّ الأوّل المطعم . ولا بدّ للإنسان من قوتٍ حلالٍ يُقيم صُلبه، ولكن له طول وعرض ووقت . فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه قد لا يقنع به ، وهو لا يقصُر إلا بقصر الأمل، وأقلّ درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّته وخوف المرض . ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدّخر(٢) من غدائه لعشائه؛ وهذه الدرجة العليا .

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « وحسه ... » .
(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « ولم يدخر » بالواو .

والثانية : أن يدّخر لشهر أو أربعين يوما .

والثالثة : أن يدّخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهّاد . ومن آدّخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدًا محال؛ لأنّ من أمّل بقاءً أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدّا فلا يتمّ منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرضَ لنفسه الأخذ من أيدى الناس، كداود الطائىّ فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها عشرين سنة، فهذا لا يضادّ الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد .

وأمّا عَرْضه فبالإضافة الى المقدار، وأقل درجاته فى اليوم والليله نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مُدّ — وهو ما قدّره الله تعالى فى إطعام المساكين فى الكفّارة — وما وراء ذلك فهو آتساع وآشتغال بالبطن . ومن لم يقدر على الآقتصار على مُدّ لم يكن له من الزهد فى البطن نصيب .

وأمّا بالإضافة إلى الجنس فأقلّه ما يقوت وهو الخبز من النُّخالة، وأوسطه خبز الشعير والذرة، وأعلاه خبز البُرّ غير منخول؛ فاذا مُيّزت النُّخالة منه وصار حُوّارَى فقد دخل فى التنعّم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله .

وأمّا الأُدْم، فأقلّه الملح أو البقل والخلّ، وأوسطة الزيت أو يسيرٌ من الأدهان، وأعلاه اللحم وذلك فى الأسبوع مرّة أو مرّتين؛ فإن صار دائما أو أكثر من مرّتين فى الأسبوع خرج من آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا فى البطن أصلا .

وأمّا بالإضافة إلى الوقت فأقلّه فى اليوم والليلة مرّة وهو أن يكون صائما ثم يُفطر فى وقت الإفطار؛ وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلةً ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب؛ وأعلاه أن ينتهى إلى أن يَطْوِىَ ثلاثة أيام وأسبوعا وما زاد عليه .

وآنظر الى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى كيفيّة زهدهم فى المطاعم وتركهم الأُدم وآقتصارهم على ما يُمسك الرمق . قالت عائشة أمّ المؤمنين رضى الله

عنها : كانت تأتى علينا أربعون ليـلة وما يُوقَد فى بيت رسول الله صـلى الله عليه وسلم مصباحٌ ولا نار . قيل لها : فبم كنتم تعيشون؟ قالت : بالأسودَين التمر والماء. وجاء أهل قُبَاء إلى النبيّ صلى الله عليـه وسلم بشربة من لبن مَشُوبةٍ بعسل، فوضع القـدحَ من يده وقال : "أَمَا إنّى لست أُحرِّمه ولكنّى أتركه تواضعاً لله تعالى" . وأُتِى عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يومٍ صائف فقال : (١٣٦) اعزِلوا عنّى حسابها . وقال يحيى بن مُعاذ الرازىّ . الزاهد الصـادق قوتُه ما وجَد، ولباسـه ما سَـتر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه ، والقـبر مضجَعه ، والخلوة مجلسه، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه، والربّ أنيسه، والذكر رفيقه ، والزهـد قرينه ، والحزن شأنه، والحياء شِـعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه ، والتراب فراشـه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصـبر مُعتَمده، والتوكّل حسبه، والعقل دليله ، والعبادة حِرفته، والجنّة مَبلَغه إن شاء الله تعالى .

المهم الثانى الملبس . وأقلّ درجاته ما يدفع الحَرّ والبرد و يستر العورة، وهو كساء يتغطّى به؛ وأوسطه قميصٌ وقَلَنْسُوة ونعلان؛ وأعلاه أن يكون معه منديل وسَراويل . وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مُجاوِز حدّ الزهد . وشرط الزهد ألّا يكون له ثوبٌ يلبسه اذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود فى البيت؛ فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد . هذا من حيث المقـدار . وأما الجنس، فأقلّه المُسُوح الخشنة، وأوسطه الصوف الخشن، وأعلاه القطن الغليظ .

وأما من حيث الوقت ، فأقصاه ما يستُر سـنةً، وأقلّه ما يبقَى يوما، وقد رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر [ وإن كان يتسارع الجفاف إليه ](١)؛ وأوسطه ما يتماسك

(١) زيادة من الإحياء .

عليه شهرا وما يقاربه . فطلبُ ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل، وهو مُضادّ للزهد إلا إذا كان المطلوب خشونته وقد يتبَع ذلك قوّته ودوامُه . فمن وجد زيادة من ذلك فينبغى أن يتصدّق به؛ فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبًّا للدنيا . ولينظر إلى أحوال الأنبياء صلى الله عليهم والصحابة رضى الله عنهم كيف تركوا الملابس. قال أبو بُردة : أخرجتْ لنا عائشة رضى الله عنها كساءً مُلبَّداً وإزاراً غليظا فقالت : قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين . وقال صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى يُحبّ المُتَبَذِّل الذى لا يُبَالِى مالبِس" . وفى الخبر : "ما من عبدٍ لبِس ثوب شُهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزِعه وإن كان عنده حبيبا" . واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبًا بأربعة دراهم وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا، واشترى سراويل بثلاثة دراهم، وكان يلبَس شَمْلتين بَيْضاوَينِ من صوف وكانت تسمَّى حُلّةً لأنهما ثوبان من جنس واحد. وربما كان يلبس بُردين يمانيّين أو سَحُوليّين . ولبس صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سِيَراء(١) من سُندس قيمته مائتا درهم، فكان أصحابه يلمِسُونه ويقولون : يا رسول الله، أُنزِلَ هذا عليك من الجنة! تعجُّبا، وكان قد أهداه إليه المُقَوقِس ملك الإسكندرية، فأراد أن يُكرمه بلُبسه ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصَلَه به ، ثم حرّم لُبسَ الحرير والديباج . وقد صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فى خَمِيصة(٢) لها علم فلمّا سلّم قال : "شَغَلنى النظر الى هذه اذهبوا بها الى أبى جَهْم وأْتونى بأَنْبجانيّته(٣)" (يعنى كساءه) فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم. وكان شِراك نعله قد أَخْلَق فأُبْدِل بسَيْرٍ جديد فصلّى

(١) السيراء (بكسر السين وفتح التحتية ممدودا) : ضرب من البرود فيه خطوط صفر .

(٢) الخميصة : ثوب خز أو صوف معلم .

(٣) الأنبجانىّ : نسبة الى منبج (كمجلس) موضع بالشام، يقال فى النسبة اليه منبجانى وأنبجانى بفتح بائهما على غير قياس .

فيه؛ فلما سلّم قال : "أعيدوا الشِّراك الخَلَق وآنزِعوا هــذا الجديد فإنّى نظرت إليه فى الصلاة" . وعن جابر رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليــه وسلم على فاطمة رضى الله عنها وهى تطحَن بالرحا وعليها كساء من وبر الإبل(١)، فلما نظر إليها بكى وقال: "يافاطمة تجرّعى مرارةَ الدنيا لنعيم الأبد" . فأنزل الله عليه (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) . [وقد أوصى أمته عامّة باتباعه إذ قال: "من أحبنى فَلْيَسْتَنّ بسُنّتى" . وقال : "عليكم بسُنتى وسُنّة الخلفاء الراشدين من بعدى عَضُّوا عليها بالنواجذ" . وقال الله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ)(٢)] . وأوصى رسول صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها خاصة وقال لها: "إنْ أردتِ اللُّحوق بى فإيّاكِ ومجالسة الأغنياء ولا تنْزِعى ثوبا حتى تُرَقِّعيه" .وعُدَّ على قميص عمر رضى الله عنــه آثنتان وعشرون رقعة(٣) بعضها من أَدَم . وفى الخبر : "من ترك ثوب جَمال وهو يقدِر عليه تواضعًا لله تعالى وآبتغاءً لوجهه كان حقًّا على الله أن يدّخر له (١٢٧) من عبقرىّ الجنّــة فى تخات الياقوت" . وقال عمر رضى الله عنه : اخلَوْلِقُوا وآخشوشنوا ، وإيّاكم وزِىَّ العجم كسرى وقيصر . وقال الثورىّ وغيره : الْبَسْ من الثياب مالا يُشَهِّرك عند العلماء ولا يُحقِّرك عند الجهّال . وقال بعضهم: قوّمت ثوبى سُفْيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانيق . والأخبار فى التقلُّل من اللباس كثيرة فلا نطوّل بسردها .

المهم الثالث المسكن . وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات، أعلاها ألّا يطلب موضــعا خاصًّا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصُّفَّة، وأوسطها أن يطلب

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : « من أجلة الابل ... » .

(٢) زيادة عن الإحياء .

(٣) كذا بالأصل . وفى الإحياء (ج ٤ ص ٢٢٣ طبع بلاق) : « اثنتا عشرة رقعة » .

موضعا خاصّا لنفسه مثل كُوخ مبنيّ من سَعَف أو خُصّ أو ما يشبهه، وأدناها أن يطلب حُجرة مبنيّة إما بشراء أو إجارة . فإن كان قدرُ سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم تكن فيه زينةٌ لم يُخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد . فإنْ طلب التشييد والتجصيص والسعة وآرتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكليّة حدّ الزهد فى المسكن . قال : والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى . وأقلّ الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو من الفضول، والفضول كله من الدنيا، وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا أراد الله بعبد شرًّا أهلك ماله فى الماء والطين" . وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لَبِنة على لبنة ولا قَصَبة على قصبة . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خُصًّا فقال : "ما هذا" قلنا : خصٌّ لنا قد وَهَى؛ قال : "أرى الأمر أعجل من ذلك" . وآتخذ نوح عليه السلام بيتًا من قَصَب؛ فقيل له : لو بَنَيت! فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال الحسن : دخلنا على صَفْوان بن مُحرِز[1] وهو فى بيت من قَصَب قد مال عليه؛ فقيل له : لو أصلحته! فقال : كم من رجلٍ قد مات وهذا قائم على حاله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من بنى فوق ما يكفيه كُلِّف أن يحمله يوم القيامة" . وفى الخبر : "كلّ نفقة للعبد يُؤْجَر عليها إلا ما أنفقه فى الماء والطين" . وجاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ أنه الرياسة والتطاوُل فى البُنيان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلُّ بناء وبالٌ على صاحبه يوم القيامة إلا ما أَكَنّ من حرّ وبرد" . ونظر عمر رضى الله عنه

(١) كذا فى كتابى الخلاصة والتهذيب فى أسماء الرجال . وفى الأصلين : « محيريز » .

فى طريق الشأم الى صَرْح قـد بُنِى بِجَصّ وآجُرّ، فكَبّر وقال : ما كنت أظنّ أن يكون فى هذه الأمّة من يبنى بنيان هامان لفرعون . وكان آرتفاع بناء السلف قامةً وبَسْطة . قال الحسن : كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صـلى الله عليـه وسلم ضربت بيدى الى السقف . وقال عمرو بن دينار : اذا علّى العبـد البناء فوق ستة أذرع ناداه مَلَك : الى أين يا أفسق الفاسقين . وقال الفُضَيل : إنّى لا أعجب ممن بنى وترك ولكنّى أعجب ممن نظر اليـه ولم يعتبر . وقال ابن مسعود : يأتى قومٌ يرفعون الطين، و يَضَعون الدين، و يستعملون البراذين، يصلُّون الى قِبْلتكم، و يموتون على غير دينكم .

المهم الرابع أثاث البيت . وللزهد فيه أيضا درجات، أعلاها حال عيسى عليه السلام إذ كان لا يصحبه إلا مشطٌ وكُوز، فرأى إنسانا يمشُط لحيتَه بأصابعه، فرمى بالمشط . ورأى آخر يشرب من النهر بكفّيه فرمى بالكوز . وهـذا حكم كلّ أثاث فإنه إنمـا يراد لمقصودٍ فإذا آستغنى عنه فهو وبالٌ فى الدنيا والآخرة . وما لا يُستغنى عنه فيُقتصر فيه على أقلّ الدرجات وهو الخَزَف فى كلّ ما يكفى فيه الخزف، ولا يُبَـالَى أن يكون مكسور الطرَف اذا كان المقصود يحصـل به . وأوسطها أن يكون له أثاثٌ بقدر الحاجة صحيحٌ فى نفسه، ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد (١١٠٤) كالذى معه قَصْعة يأكل فيها و يشرب فيها و يحفظ المتاع فيها . وكان السلف يستحبّون آستعمال آلة واحدة فى أشياء للتخفيف . وأعلاها أن يكون له بعـدد كلّ حاجةٍ آلةٌ من الجنس النازل الخسيس؛ فإنْ زاد فى العدد أو فى نفاسـة الجنس خرج من جميع أبواب الزهد وركن الى طلب الفضول . ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسـيرة أصحابه رضى الله عنهم . قالت عائشة رضى الله عنها : كان

ضِجاع[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وِسادةٌ من أَدَم حَشْوُها لِيف . وقال الفُضَيل : ما كان فِراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عَباءةً مَثْنِيّة ووسادة حشوها ليف . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مَرْمُولٍ[2] بشريط ، فجلس فرأى أثر السرير فى جنبه عليه السلام فدمعت عينا عمرَ . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما الذى أبكاك يابن الخطاب" ؟ قال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من المُلْك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيّه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط ! فقال صلى الله عليه وسلم : "أمَا ترضى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة"! قال : بلى يا رسول الله . قال : "فذلك كذلك" . ودخل رجل على أبى ذَرٍّ فجعل يقلِّب بصره فى بيته فقال : يا أبا ذَرّ، ما أرى فى بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث ! فقال : إن لنا بيتا نوجّه إليه صالح متاعنا . فقال : إنه لا بدّ لك من متاع ما دمتَ هاهنا . فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدم عُمَيْر بن سعد أمير حمص على عمر قال له : ما معك من الدنيا؟ فقال : معى عصاى أتوكّأ عليها وأقتل بها حيّةً إن لقيتها، ومعى جِرابى أحمل فيه طعامى، ومعى قَصْعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى ، ومعى مِطْهَرَتى أحمل فيها شرابى ووَضُوئى للصلاة ، فما كان بعد هذا من

---

(١) كذا فى الأصلين والإحياء، ولم نجده فى كتب اللغة التى بين أيدينا . وفى لسان العرب ونهاية ابن الأثير «ضجعة» وقالا فى تفسيره : «الضجعة بالكسر من الاضطجاع وهو النوم كالجلسة من الجلوس وبفتحها المرة الواحدة ، والمراد ما كان يضطجع عليه فيكون فى الكلام مضاف محذوف تقديره كانت ذات ضجعته أو ذات اضطجاعه فراش أدم... » .

(٢) الرمل : النسج ، والسرير المرمول هو الذى ينسج له شريط ويجعل ظهوراً له (عن القاموس) . وقد ورد الحديث فى نهاية ابن الأثير وفى لسان العرب : « وإذا هو جالس على رمال سرير » وفى رواية أخرى «على رمال حصير» . والرمال كحطام وركام ما رمل أى نسج . والمراد أن هذا السرير قد نسج وجهه بالسعف ولم يكن عليه وطاء سوى الحصير .

الدنيا فهو تَبَعٌ لما معى . فقال عمر : صدقتَ ، رحمك الله . وقدِم رسول الله صلى الله وسلم من سفر ، فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سِتْرا وفى يديها قُلْبَيْنِ من فضة فرجع . فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى ، فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسأله أبو رافع فقال: "من أجل الستر والسِّوارين": فأرسلت بهما بِلالًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : قد تصدّقت بهما فضَعْهما حيث ترى . فقال: " اذهب فبعه وٱدفعه إلى أهل الصُّفَّة". فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدّق بهما عليهم . فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " بأبى أنتِ قد أحسنتِ " . وقال الحسن : أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه ، وما وضع أحدهم بينه و بين الأرض ثوبًا قطّ ، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه .

المهم الخامس المنكح . قال الغـزالى : وقد قال قائلون : لا معنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرته ؛ و إليه ذهب سهل بن عبد الله وقال : قد حُبِّب إلى سيِّد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهنّ! ووافقه ٱبن عُيَينة ، وقال : كان أزهد الصحابة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربعُ نسوة و بِضْعَ عشرةَ سُرِّيّةً . قال الغزالى : والصحيح ما قاله أبو سليمان الدارانى إذ قال : كلُّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم . والمرأة قد تكون شاغلا عن الله . قال : وكَشْفُ الحقّ فيه أنّه قد تكون العُزُوبة أفضل فى بعض الأحوال فيكون ترك النكاح من الزهد . وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد! و إن لم يكن عليه آفة فى تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح ٱحترازًا عن مَيْل القلب إليهنّ والأنس بهنّ بحيث يشتغل عن ذكر الله فتركُ ذلك من الزهد . و إن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك ٱحترازًا من لذّة النظر والمضاجعة

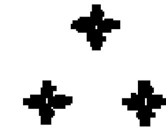
والمواقعة فليس هـذا من الزهد أصلا؛ فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثيرُ أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القُربات . واللذّة التى تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضرّه إذا لم تكن هى المقصد والمطلَب؛ وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب المـاء آحترازاً من لذّة الأكل والشرب، وليس ذلك من الزهد فى شئ؛ لأن فى ترك ذلك فواتَ بدنه، فكذلك فى ترك النكاح آنقطاعُ نسله؛ فلا يجوز أن يترك النكاح زهدًا فى لذّته من غير آفةٍ أُخرى . قال: وأكثر الناس تَشغَلهم كثرة النسوان، فينبغى أن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشـغله الكثرة منهن أو جمالُ المرأة فلينكح واحدةً غير جميلة وليراعِ قلبه فى ذلك . قال أبو سليمان : الزهـد فى النساء أن تختار المرأةَ الدُّون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة . وقال الجُنَيْد: أُحِبّ للمريد المبتدى ألّا يشغل قلبه بثلاث وإلّا تغيّر حالُه : التكسّب، وطلب الحديث، والتزوّج . فقد ظهر أن لذّة النكاح كلذّة الأكل والشرب، فما شغل عن (١٣٩) الله تعالى فهو محذور فيهما جميعا .

المهم السادس : ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة وهو المال والجاه . [أمّا الجاه][(١)] فمعناه ملك القلوب بطلب محلّ فيها ليُتَوَصَّل به إلى الآستعانة فى الأغراض والأعمال . وكلّ من لا يقدر على القيام بنفسه فى جميع حاجاته وآفتقر إلى من يخدُمه آفتقر إلى جاه لا محالة فى قلب خادمه؛ لأنه إن لم يكن له عنده محلٌّ وقدرلم يقم بخدمته . وقيام القدر والمحلّ فى القلوب هو الجاه . قال : وإنما يُحتاج إلى المحلّ فى القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم . فأمّا النفع فيُغنى عنه المـال؛ فإنّ من يخدُم بأجرة خدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر، وإنما يُحتاج إلى الجاه فى قلب من يخدم

(١) الزيادة عن الإحياء .

بغير أُجرة . وأما دفع الضرر فيُحتاج لأجله إلى الجاه فى بلد لا يكمُلُ فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه فلا يقدر على دفع شرّهم إلا بمحلٍّ له فى قلوبهم أو محلّ له عند السلطان . وقدر الجاه فيه لا ينضبط . والخائض فى طلب الجاه سالك طريق الهلاك . بل حق الزاهد ألاّ يسعى لطلب المحل فى القلوب أصلا ؛ فإن آشتغاله بالدين والعبادة يمهّد له من المحلّ فى القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفّار فكيف بين المسلمين .

وأمّا التوهُّمات والتقديرات التى تُحوِج[1] إلى زيادة فى الجاه على الحاصل بغير كسب فهى أوهام كاذبة ؛ إذ مَن طلب الجاه لم يخلُ عن أذى فى بعض الأحوال ؛ فعلاج ذلك بالآحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه . فإذاً طلبُ المحلّ فى القلوب لا رخصة فيه أصلا ، واليسير منه داعٍ إلى الكثير ، وضراوتُه أشدّ من ضراوة الخمر ، فليُحترز من قليله وكثيره .



وأمّا المال ، فهو ضرورىّ فى المعيشة أعنى القليل منه . فإن كان كسوبا ، فإذا آكتسب حاجة يومه فينبغى أن يترك الكسب ، هذا شرط الزهد ؛ وإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهّاد وأقويائهم جميعا . وإن كانت له ضيعة ولم تكن له قوة يقين فى آلتوكّل فأمسك منها مقدار ما يكفى ريعه لسنةٍ واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكلّ ما يفضُل عن كفاية سنة ؛ ولكن يكون من ضعفاء الزهّاد .

قال : وأمر المتفرد فى جميع ذلك أخف من أمر المُعِيل . وقد قال أبو سليمان : لا ينبغى أن يُرهق الرجل أهلَه إلى الزهد بل يدعوهم إليه ؛ فإن أجابوا وإلاّ تركهم

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « تخرج ... » .

وفعل بنفسه ما شاء . قال : والذى يُضطرّ الإنسان إليه من الجاه والمال ليس بمحدود؛ فالزائد منه على الحاجة سمٌّ قاتل، والاقتصار على قدْر الضرورة دواءٌ نافع، وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة و إن لم يكن سمًّا قاتلا فهو مضرّ، وما يقرب من الضرورة فهو و إن لم يكن دواءً نافعا لكنّه قليل الضرر . والسمّ محظور شُربه، والدواء فَرْض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره . فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينه وترك ما يَريبه إلى ما لا يريبه وردّ نفسه إلى مَضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة . والمقتصر على [قدر](١) الضرورة والمهمّ لا يجوز أن يُنْسَب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرطُ الدين، والشرط من جملة المشروط.

وقد رُوى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجةٌ فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يُقرضه فرجع مهموما . فأوحى الله تعالى إليه : لو سألتَ خليلك لأعطاك . فقال : يا ربّ، عرفتُ مَقْتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئا . فأوحى الله إليه : ليس الحاجة من الدنيا . فعلى هذا يكون قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبالٌ فى الآخرة؛ وهو أيضا فى الدنيا كذلك، يعرفه من يخبُرُ أحوال الأغنياء وما عليهم من المِحْنة فى كسب المال وجَمْعه وحفظه واحتمال الذُّل فيه؛ وغايةُ سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلوه، وربما يكونون أعداءً له، وقد يستعينون به على المعاصى فيكون هو مُعينا لهم عليها . ولذلك شُبِّه جامع الدنيا ومتّبع الشهوات بدود القزّ إذ لا يزال ينسج على نفسه حيًا(٢) ثم يروم الخروج فلا يجد مَخْلَصاً فيموت ويهلك بسبب عمله الذى عمله بنفسه؛ فكذلك كلّ من اتّبع شهوات الدنيا . قال الشاعر :

(١) الزيادة عن الإحياء . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «ينسج على نفسه حتى يقتلها ثم يروم» .

كَدُودٍ كدودِ القزِّ ينسِجُ دائما * ويَهْلِكُ غمًّا وَسْطَ ما هو نَاسِجُهْ (١٣٠)

قال : ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مُهْلِكٌ نفسه بأعماله واتّباعه هوى نفسه إهلاكَ دود القزّ نفسَه رفضوا الدنيا بالكلّيّة؛ حتى قال الحسن : رأيت سبعين بَدْرِيًّا كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم . وفى لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشدّ فرحا منكم بالخِصْب والرخاء، لو رأيتموهم قلتم : مجانين، ولو رأوا خِيارَكم قالوا : ما لهؤلاء من خَلَاق، ولو رأوا شِرارَكم قالوا : ما يُؤْمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض له المالُ الحلال فلا يأخذه ويقول : أخاف أن يُفسد علىّ قلبى . فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده، والذين أمات حُبّ الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم فقال : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾، وقال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾؛ فأحال ذلك كلّه على الغفلة وعدم الفكر . وقال بعضهم : ما من يوم ذَرّ شارقُه إلا وأربعة أملاكٍ يُنادون فى الآفاق بأربعة أصوات : ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهم بالمشرق : يا باغى الخير هلمّ، ويا باغى الشرّ أَقْصِرْ . ويقول الآخر : اللّهمّ أَعْطِ مُنفقا خَلَفا، وأَعط مُمسكا تلفا . ويقول اللذان بالمغرب أحدهما : لِدُوا للموت وابنوا للخراب؛ ويقول الآخر : كُلُوا وتمتّعوا لطول الحساب .

---

## ذكر بيان علامات الزهد

قال الغزالىّ رحمه الله تعالى : اعلم أنه قد يُظَنّ أنّ تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحبّ المدح بالزهد . فكم

من الرّهابين[1] من ردّوا أنفسهم كل يوم الى نَزْرٍ يسير من الطعام ولازموا ديرًا لا باب له ، وإنما مسرّة أحدهم معرفةُ الناس حالَه ونظرُهم إليه ومدحُهم له ؛ فذلك لا يدلّ على الزهد دلالةً قاطعة؛ بل لا بدّ من الزهد فى المال والجاه جميعا حتى يكمُلَ الزهد[2] فى جميع حظوظ النفس من الدنيا؛ بل قد يدّعى جماعةٌ الزهد مع لُبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخوّاص فى وصف المدّعين إذ قال : وقوم ادّعَوُا الزهد ولبسوا الفاخر من الثياب يُموِّهون بذلك على الناس ليُهْدَى إليهم مثل لباسهم لئلّا يُنْظَرَ إليهم بالعين التى يُنْظَر بها الى الفقراء فيُحقروا فيُعْطَوْا كما يُعْطَى المساكين ويحتجّون لأنفسهم باتّباع العلم وأنّهم على السنّة وأنّ الأشياء داخلةٌ إليهم وهم خارجون منها، وإنما يأخذون [ما يأخذون][3] بعلّة غيرهم؛ هذا إذا طُولبوا بالحقائق وأُلجئوا إلى المضايق . وكلّ هؤلاء أَكَلَة الدنيا بالدين لم يُعْنَوْا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادّعَوْها حالًا لهم، فهم مائلون إلى الدنيا متّبِعون للهوى . هذا كلام الخوّاص .

قال الغزالىّ رحمه الله : فإذًا معرفة الزهد أمرٌ مُشكل، [بل حال الزهد على الزاهد مشكل][2]؛ فينبغى أن يعوّل فى باطنه على ثلاث علامات :

العلامة الأولى : ألّا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾، بل ينبغى أن يكون بالضدّ من ذلك وهو أن يحزن لوجود المال و يفرح لفقده .

العلامة الثانية : أن يستوى عنده ذامّه ومادحه؛ فالأولى علامة الزهد فى المال، والثانية علامة الزهد فى الجاه .

---

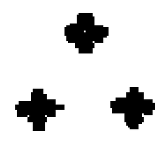
(١) الرهابين : جمع رهبان وهو الكثير الخوف . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «حتى يكمل الزهد بل فى جميع ... الخ» . (٣) زيادة من الإحياء .

العلامة الثالثة : أن يكون أُنسه بالله عز وجل، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة، إذ لا يخلو القلب من حلاوة المحبّة ، إما محبّة الدنيا و إما محبّة الله ، وهما فى القلب كالمـاء والهواء فى القَدَح؛ فالمـاء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان؛ وكلّ من أَنِس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره . وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلّق الإيمـان بظاهر القلب أحبّ الدنيا والآخرة جميعًا وعمِل لهما، وإذا بطَن الإيمان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا ولم ينظر إليها ولم يعمل لها . وقـد ورد فى دعاء آدم عليه السلام : اللّهمّ إنّى أسألك إيمـانًا يُباشر قلبي . وقال أبو سليمان : من شُغِل بنفسه شُغِل عن الناس، وهذا مقام العاملين . ومن شُغِل بربّه شُغِل عن نفسه، وهذا مقام العارفين . والزاهد لا بدّ أن يكون فى أحد هذين المقامين .

و بالجملة فعلامة الزهد استواء الفقر والغنى والعزّ والذّل والمدح والذمّ، وذلك لغلبة الأنس بالله . ويتفرّع عن هذه العلامات علاماتٌ أُخَر مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى مَنْ أخذها . وقيل : علامته أن يترك الدنيا كما هى فلا يقول : أَبنى رباطًا أو أَعمُر مسجدًا؛ وهذا من كلام الأستاذ أبي علىّ الدقّاق . وقال ابـن خفيف : علامته وجود الراحة فى الخروج من الملك . وقال الجُنَيد : علامته خلوّ القلب عمّا خلت منه اليد . وقال أحمد بن حنبل وسُفيان : علامة الزهد قِصَر الأَمَل . وقال رجل ليحيي بن معاذ : متى أدخل حانوت التوكّل وألبَس بُرد الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال : إذا صرتَ مـن رياضتك لنفسك فى السرّ إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعُف فى نفسك؛ فأمّا ما لم تبلُغ هـذه الدرجة فجلوسك على بسـاط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح . قالوا : ولا يتمّ الزهـد إلا بالتوكّل؛ فلنذكر التوكّل .

## ذكر ما ورد فى التوكل من فضيلته وحقيقته

أمّا فضيلته فقد قال الله تعالى : ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال الله تعالى : ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ . وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ؛ وناهيك بذلك مقاما . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُرِيتُ الأمم فى الموسم فرأيت أمّتى قد ملئوا السهل والجبل فأعجبتنى كثرتهم وهيئتهم فقيل لى أرَضيت قلت نعم قال ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل من هم يا رسول الله قال هم الذين لا يكتوُون ولا يتطيّرون ولا يسترقُون وعلى ربّهم يتوكّلون" . وقال صلى الله عليه وسلم : "من انقطع إلى الله عزّ وجلّ كفاه الله تعالى مئونة[1] رزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها" .



وأمّا حقيقة التوكل فقد قال الغزالىّ رحمه الله : التوكّل مشتقّ من الوكالة يقال : وَكَل أمره إلى فلان أى فوّضه إليه وآعتمد عليه [فيه][2]. ويسمّى الموكول[3] إليه وكيلا، ويسمّى المفوّض اليه متّكلا عليه ومتوكّلا عليه مهما[4] آطمأنّت إليه نفسه ووثق به ولم يتّهمه فيه [بتقصيره ولم يعتقد فيه عجزًا ولا قصورا][5]. ثم قال بعد أن ضرب لذلك أمثلة يطول شرحها : وآعلم أن حالة التوكّل فى القوّة والضعف ثلاث درجات :

الأولى : أن يكون حاله فى حقّ الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله فى الثقة بالوكيل .

(١) فى الإحياء (ج ٤ ص ٢٤٢) : «كفاه الله كل مئونة ورزقه ...» .

(٢) الزيادة عن الإحياء . (٣) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «الموكل اليه ...» .

(٤) كذا فى الأصل والإحياء . ولعلها : «ما اطمأنت ...» . (٥) زيادة عن الإحياء .

الثانية وهى أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل فى حق أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى ســواها ولا يعتمد إلا إياها[(١)] ؛ فإن رآها تعلّق فى كلّ حال بها ، و إن نابه أمرٌ فى غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه : يا أمّاه، وأوّل خاطر يخطر على قلبه أمه لوثوقه بكفالتها وكفايتها وشفقتها .

الثالثة وهى أعلاها : أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميّت بين يدى الغاسل يقلّبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير . قال : وهذا المقام فى التوكل يُثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقةً بكرمه وعنايته، وأنه يُعطى آبتداء أفضلَ ممـا يُسأل . وقد تكلّم المشايخ فى التوكّل و بيان حدّه وآختلفت عباراتهم وتكلّم كلّ واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه .

قال أبو موسى الدّيلى : قلت لأبى يزيد : ما التوكل؟ فقال : ما تقول أنت؟ قلت : إن أصحابنـا يقولون : لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ما تحرّك لذلك سرّك. فقال أبو يزيد : نعم هــذا قريب، ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنّة يتنعّمون ، وأهل النار فى النار يُعَــذبون، ثم وقع بك تمييزٌ عليهما خرجت من جملة التوكّل . وسُئل أبو عبــد الله القرشىّ عن التوكّل فقال : التعلُّق بالله تعالى فى كلّ حال . فقال السائل : زِدْنى؛ فقال : ترك كلّ سبب يُوَصِّل إلى سبب حتى يكون [الحق][(٢)] هو المتولّى لذلك . وهذا مثل توكّل إبراهيم الخليل عليه الســلام إذ قال له جبريل : ألك حاجةٌ؟ فقال : أمّا إليك فلا؛ إذ كان سؤاله يُفضى الى سبب فترك ذلك ثقةً بأن الله يتولّى ذلك .

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « يغتم » .

(٢) زيادة عن الإحياء .

قال أبو سعيد الخرّاز : التوكّل ٱضطراب بلا سكون، وسكونٌ بلا اضطراب. أشار بالأوّل إلى فزعه إلى الله تعالى وٱبتهاله وتضرّعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمّه ؛ وبالثانى إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به[١] . وقال أبو علىّ الدقّاق : التوكّل على ثلاث درجات : التوكّل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكّل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه، وصاحب التفويض يرضَى بحكمه. وقال : التوكّل بداية، والتسليم وسائط ، والتفويض نهاية . وقال : التوكّل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحّدين .

وسئل ٱبن عطاء عن حقيقة التوكّل فقال: ألّا يظهر فيك ٱنزعاج إلى الأسباب مع شدّة فاقتك إليها، ولا تزولَ عن حقيقة السكون إلى الحقّ مع وقوفك عليها .

وقال أبو نصر السرّاج : شرط التوكّل ما قاله أبو تُراب النَّخْشَبِىّ وهو طرح البدن فى العبوديّة وتعلّق القلب بالربوبيّة والطّمأنينة إلى الكفاية، فإن أُعطِى شكَر[٢]، وإن مُنِع صبَر . وكما قال ذو النّون : التوكّل تركُ تدبير النفس والانخلاعُ من الحول والقوّة . وقال أبو بكر الدقّاق : التوكّل ردّ العيش إلى يوم واحد وإسقاطُ همّ غد .

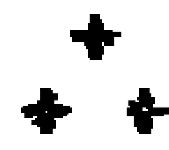
وسئل ذو النون : ما التوكّل ؟ فقال: خلع الأرباب، وقطع الأسباب . فقال السائل : زدنى؛ فقال : إلقاءُ النفس فى العُبودية وإخراجُها من الرُّبوبيّة . وقال مَسْروق: التوكّل الاستسلام لجَرَيان[٣] القضاء والأحكام . وقال أبو عثمان : التوكّل الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه . وقيل : التوكل الثقة بما فى يد الله واليأس مما فى يد الناس . وقيل : التوكّل فراغ السرّ عن التفكّر فى التقاضى فى طلب الرزق .

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «وبالثانى الى سكون القلب الى التوكل وثقة به» .

(٢) فى الأصلين : «سكن» والسياق يقتضى ما أثبتناه . (٣) فى الأصل : «بجريان» بالباء. ولم نجد هذا الفعل يتعدى بالباء.

## ذكر بيـــان أعمـــال المتوكلين

قال الغزالىّ رحمه الله : قد يُظَنّ أن معنى التوكُّل تركُ الكسب [بالبدن](1) وترك التدبير بالقلب، والسقوطُ على الأرض كالخِرْقة المُلقاة وكاللحم على الوَضَم؛ وهذا ظنّ الجهّال، فإنّ ذلك حرامٌ فى الشرع؛ والشرع قد أثنى على المتوكّلين فكيف يُنال مقامٌ من مقامات الدّين بمحظورات الدّين! بل إنما يظهر تأثير التوكّل فى حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده . وسعيُ العبد باختياره إمّا أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود(2) عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادّخار، أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع، أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالتداوى من المرض . فمقصود حركات العبد لا يعدو هذه الحالات الأربع التى هى جلبُ النافع أو حفظه أو دفعُ الضارّ أو قطعه . ثم ذكر شرط التوكّل ودرجاته فى كلّ واحد منها، وقرن ذلك بشواهد الشرع، فقال ما مختصره ومعناه :



أمّا جلب النافع، فالأسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به، ومظنون ظنًّا يوثق به، وموهوم وهمًا لا تثق النفس به ثقةً تامّة ولا تطمئنّ إليه.

فالدرجة الأولى : المقطوع به كالطعام إذا وُضع بين يدى الرجل وهو جائع محتاج إلى تناوله فامتنع من مدّ يده إليــه وقال : أنا متوكّل، وشرط التوكل ترك السعى، ومدّ اليد إليه سعيٌ وحركة، وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالى الحنك على أسفله؛ فهذا جنون وليس من التوكّل فى شىء، فإنه إن انتظر أنّ الله تعالى يخلق فيه شبعًا دون الخبز أو يسخّر ملَكًا يمضغه ويوصله الى معدته فهذا رجلٌ جهل سنّة الله

(1) الزيادة عن الإحياء (ج ٤ ص ٢٥٢ طبعة بلاق) . (2) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «معبود عنه» .

تعالى؛ وكذلك لو لم يزرع الأرض وطمع أنّ الله تعالى يخلق نباتاً من غير بَذْر أو تلد زوجه من غير مباضعةٍ كَرْيَم، فكلّ ذلك جنون؛ بل يجب عليه أن يعلم أن الله تعالى خالق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة، وأنّه الذى يُطعمه ويَسقيه، وأن يكون قلبه وآعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام، فليمدّ يده ويأكل فإنه متوكل .

والدرجة الثانية: الأسباب التى ليست متعيّنة، ولكن الغالب أن المسبّبات لا تحصل دونها وآحتمالُ حصولها دونها بعيدٌ كالذى يفارق الأمصار والقوافل ويسافر فى البوادى التى لا يطرُقها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير آستصحاب زاد، فهذا ليس شرطا فى التوكّل، بل آستصحاب الزاد فى البوادى سنّة الأوّلين مع الآعتماد على فضل الله عز وجل لا على الزاد؛ ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل وهو فعل الخواصّ . قال الغزالى: فإن قلت: فهذا سعىٌ فى الهلاك وإلقاء النفس إلى التَّهْلُكة، فآعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين: أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسَه وجاهدها حتى صبَرت عن الطعام أسبوعا أو ما يقاربه بحيث إنه لا يناله ضيق قلب ولا تشويش خاطر. والثانى أن يكون بحيث يقوى على التقوُّت بالحشيش وما يتّفق من الأشياء الخسيسة، فإنه لا يخلو غالبَ الأمر فى البوادى فى كلّ أسبوع أن يلقاه آدمى أو ينتهى إلى مَحَلّة أو قرية أو إلى حشيش يتقوّت به؛ وعلى هذا كان يُعوّل الخَوّاص ونظراؤه من المتوكّلين. وقد كان الخوّاص مع توكُّله لا تفارقه الإبرة والمِقْراض والحبل والركوة، ويقول: هذا لا يقدح فى التوكّل . (١٣٢)

وأمّا لو آنحاز الى شِعب من شِعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرُقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع فى إهلاك نفسه .

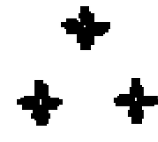
وأمّا القاعد فى البلد بغير كسب فليس ذلك حراما، لأنه لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه . فإن أغلق بابَ البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليـه ففعلُه ذلك حرام . فإن فتح باب البيت وهو بطّال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج له أولى ، ولكن ليس فعله حراما إلّا أن يُشرف على الموت، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . و إن كان مشغول القلب بالله غير متطلّع إلى الناس ولا إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزق، بل تطلُّعه إلى فضل الله تعالى وٱشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكّل، فإن الرزق يأتيه لا محالة . فلو هرب العبد من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه .

قال ابن عبـاس رضى الله عنهما : اِختلف النـاس فى كلّ شىء إلا فى الرزق والأجل [فإنهم](١) أجمعوا أن لا رازق ولا مُميت إلا الله تعالى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو توكّلتم على الله تعالى حقّ تَوَكُّله لرزقكم(٢) كما يرزقُ الطيرَ تغدو خماصًا وتروح بِطانا ولزالت بدعائكم الجبال" . وقال عيسى عليه السلام : اُنظروا إلى الطير لا تزرَع ولا تحصُد ولا تدّخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم، فإن قلتم نحن أكبر بطونا، فانظروا إلى الأنعام كيف قيّض الله تعالى لها هذا الخلق [للرزق](١). وقال أبو يعقوب السوسى: المتوكّلون تجرى أرزاقُهم على أيدى العباد بلا تعبٍ منهم وغيرُهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم : العبيد كلّهم فى رزق الله تعـالى ، لكن بعضهم يأكل بذلّ كالسؤّال، وبعضهم يأكل بتعب كالتجّار، وبعضهم بٱمتهانٍ كالصنّاع، وبعضهم بعزّ كالصوفيّة، يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة .

(١٣٤) والدرجة الثالثة : ملابسةَ الأسباب التى يُتوهّم إفضاؤها إلى المسبّبات من غير ثقة ظاهرة، كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه،

(١) زيادة عن الإحياء . (٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصلين : «لرزقكم ... ...» .

وذلك يُخرج بالكلّيّة عن درجات التوكّل كلّها، وهو الذى الناسُ كلّهم فيه من التكسُّب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحا لمالٍ مباح . هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى فى جلب النافع، وذكر لذلك أمثلة ونظائر تركناها اختصارا .

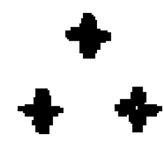


وأمّا حفظ النافع فهو التعرض لأسباب الادّخار، فمن حصل له مال بإرثٍ أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله فى الادّخار ثلاث أحوال :

الأولى : أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت فيأكلَ إن كان جائعا، ويلبس إن كان عاريا، ويشترى مسكنا مختصرا إن كان محتاجا، ويُفرّق الباقى فى الحال ولا يدّخر منه إلا ما أرصده لمحتاج؛ فهذا هو المُوفى بموجب التوكّل تحقيقًا، وهى الدرجة العليا .

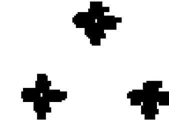
الحالة الثانية المقابِلةُ لهذه المُخرِجة له عن حدود التوكّل : أن يدّخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكّلين أصلا .

الحالة الثالثة : أن يدّخر لأربعين يوما فما دونها، فهذا يُوجب حرمانَه من المقام المحمود الموعود فى الآخرة للمتوكّلين . وقال الخَوّاص : لا يخرج بأربعين يومًا ويخرج بما زاد عليها .



وأمّا دفع الضارّ عن النفس والمال فقد قال الغزالىّ رحمه الله : ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر . أمّا فى النفس فكالنوم فى الأرض المَسْبعة أو فى مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المائل أو السقف المتكسّر، فإنّ ذلك مَنهىّ عنه وصاحبُه قد عرّض نفسه إلى الهلاك بغير فائدة . وأمّا فى المال فلا يَنقص التوكّلَ إغلاق باب البيت عند الخروج منه ولا أن يُعقَل البعيرُ . فهذه أسباب عُرِفت بسنّة الله تعالى ، فقد رُوى عن أَنَس بن مالك رضى الله عنه أنه

قال : جاء رجل على ناقة فقال : يا رسول الله، أدَعُها وأتوكل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اِعقِلْها وتوكّل" .



وأمّا إزالة الضرر فقد قال الغزالى رحمه الله تعـالى : إن الأسـباب المزيلة للضرر تنقسم إلى مقطوع به كالمـاء المزيل لضرر العطش والخـبز المزيل لضرر الجوع؛ وإلى مظنون كالفَصْد والحِجامة وشرب الدواء وسائر أبواب الطبّ؛ وإلى موهوم كالكىّ والرُّقْية .

أمّا المقطوع به فليس من التوكّل تركه بل تركه حرامٌ عند خوف الموت .

وأمّا الموهوم، فشرط التوكل تركه، إذ بتركه وَصف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لم يتوكّل من ٱسترقَى وٱكتوى" . وقال سعيد بن جُبَير : لدغتنى عقربٌ فأقسمتْ علىّ أُمّى لتَسْتَرقِيَنّ، فناولتُ الراقى يدى التى لم تُلدغ .

وأمّا الدرجة الوسطى وهى المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطبّاء ففعلُ ذلك لايُناقض التوكّل بخلاف الموهوم، وتركُه ليس بمحظور بخلاف المقطوع به . وقد تداوى رسـولُ الله صلى الله عليه وسـلم وأمر بالتداوى وقال : "ما من داءٍ إلا وله دواءٌ عرَفه من عرفه وجهِله من جهله إلّا السامَ" يعنى الموت؛ وتضافرت الأحاديث بالأمر بالدواء .

ومنهم من رأى أن ترك التداوى قد يُحمد فى بعض الأحيان إذا اقترن به أحد أسباب ستة :

الأوّل : أن يكون المريض من المكاشَفين وقـد كُوشف بأنه ٱنتهى أجله وأن الدواء لا ينفعـه، وتحقق ذلك إما برُؤيا صادقةٍ أو بحَدْس وظنّ أو بكشف محقّق

كحال أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه لمّا قيل له فى مرض موته : لو دعونا لك طبيبا ! فقال : الطبيب نظر إلىّ وقال إنّى فعّال لمّا أُريد . وكان رضى الله عنه من المكاشَفين؛ والدليل على ذلك أنّه قال لعائشة رضى الله عنها فى أمر الميراث : إنما هنّ أُختاك ؛ وما كان لها إلا أُختٌ واحدة وكانت آمرأته حاملا فولدت أنثى ؛ فلا يبعد أن يكون كوشف بانتهاء أجله ؛ ومحال أن يُنكر التداوى وقد رأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فَعَلَه .

الثانى : أن يكون المريض مشغولا بحاله و بخوف عاقبته وآطّلاع الله تعالى عليه، فيُنسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرّغ قلبه للتداوى شُغلًا بحاله ، كحال أبى ذرّ لمّا رَمِدتْ عيناه ، فقيل له : لو داويتَهما ! فقال : إنّى عنهما مشغول . فقيل له : لو سألت الله أن يعافيك ! فقال : أسأل فيما هو أهمّ علىّ منهما . وكحال أبى الدرداء فإنه قيل له فى مرضه : ما تشتكى؟ قال : ذنوبى . قيل : فما تشتهى؟ قال : مغفرة ربى . قالوا : ألَا ندعو لك طبيبا؟ قال : الطبيب أمرضنى . ويكون حال هذا كالمصاب بموت عزيز من أحبابه أو كالخائف من ملِك فيشغَله ذلك عن ألم الجوع . (١٣٥)

الثالث : أن تكون العلّة مزمنة والدواء الذى يُؤمر به بالإضافة إلى علّته موهوم كالكىّ والرقية، فتركه للتوكّل كالربيع بن خُثَيْم فإنه أصابه فالج، فقيل له : لو تداويت! فقال : لقد هَممت ثم ذكرت عادًا وثمود وقرونًا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطبّاء فهلَك المُداوِى والمداوَى ولم تُغنِ الرُّقَى شيئا . أى إن الدواء غير موثوق به .

الرابع : أن يقصد العبد ترك التداوى استبقاءً للمرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى وليجرِّب نفسه فى القدرة على الصبر .

الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوبٌ وهو خائفٌ منها عاجزٌ عن تكفيرها فيرى المرَض إذا طال تكفيرا ، وترَك التداوى خوفا من أن يُسرِع زوالُ

المرض ورغب فى مضاعفة الأجر . فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "حُمّى يومٍ كفّارة سنة" .

السادس: أن يستشعر العبد فى نفسه مبادئ البَطَر والطُّغيان بطول مدّة الصحّة، فيترك التداوى خوفاً من أن يُعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان أو طولُ الأمل والتسويفُ فى تدارك الفائت وتأخيرِ الخيرات؛ فإن الصحة تُحرّك الهـوى وتبعث على الشهوات وتدعو إلى المعاصى، وأقلّها أنْ تدعو إلى التنعّم فى المباحات وهو تضييع الأوقات وإهمال الربح العظيم فى مخالفـة النفس وملازمةِ الطاعات . وإذا أراد الله بعبدٍ خيراً لم يُخلِه عن التنبيه بالأمراض والمصائب؛ ولذلك قيل : لا يخلو المؤمنون من عِلّة أو قِلّة أو ذِلّة . قال : فلما أن كثُرت فوائد المرض رأى جماعة تركَ الحيلة فى زوالهـا، إذ رأَوْا لأنفسهم مَزِيداً فيها لا من حيث رأوا التداوى نُقصانا، وكيف يكون ذلك نقصانا وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم! .

فهذه نُبذة كافية فى مقامى الزهد والتوكل . فلنذكر الأدعية .

# البـــاب الرابع

## من القسم الرابع من الفن الثـانى

## فى الأدعيـــة

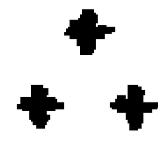
وهذا الباب — يقبل الله منا ومنك وفينا وفيك صالح الدعوات، وجعلنا وإيّاك ممن آعتمد على كرمه ومنّته فى الحركات والسكنات؛ ووفّقنا للتضرع والسكون إلى فضله، وعاملنا بما هو من أهله لا ما نحن من أهله — هو مَشْرَع الظمآن إلى موارد الكرم العذبة، ومَفْزَع الحـيران إذا ألمّتْ به الضائقة وحصرته الكُربة؛ فبه يُتوسّل الى الله تعالى فى مطالب الدنيا والآخرة، ويُتَوَصّل إلى النعم الوافية والخيرات الوافرة؛ كيف لا وقد

أمرنا الرب العظيم بالدعاء والإنابة ، ووعدنا وهو الوفىّ الكريم بالقبول والإجابة ؛ وترادفت بفضله الأخبار الصحيحة ، وجاءت بشرفه الآثار الصريحة ؛ على ماستقف على ذلك إن شاء الله تعالى واضحا ، وتعوّل عليه مقيما وظاعنا وغاديا ورائحا . فلازمه فى سائر أحوالك ، وتعاهده فى بُكَرك وآصالك ؛ فستجنى إن شاء الله منه ثمار غَرْسك ، وتجد حلاوة ذلك فى قلبك وأُنسَه فى نفسك .

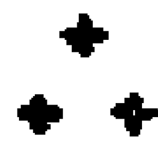
وٱعلم أن للدعاء ، كما قال ٱبن عطاء ، أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا . قال : فإن وافق أركانَه قوى ، و إن وافق أجنحته طار فى السمٰوات ، و إن وافق مواقيته فاز ، و إن وافق أسبابه أَنْجح . فأركانه حضور القلب والرقة والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب . وأجنحته الصدق . ومواقيته الأسحار . وأسبابه الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم . قال الله عز وجل : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة أكنت ترى لبعض دعائك الإجابة ولا ترى لبعضه فيقول نعم فيقول له أمَا إنك مادعوتنى بدعوة إلا وقد استجبتُ لك فيها أليس دعوتنى يوم كذا وكذا فرأيت الإجابة فيقول نعم ويقول ودعوتنى يوم كذا وكذا فلم تر الإجابة فيقول نعم فيقول فإنى ٱدخرتها لك فى الجنة فلا يُبقى له دعوة إلا بيّنها له حتى يتمنّى المؤمن أن دعواته كلها كانت ذخائره فى الآخرة" . وعن النعمان بن بَشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الدعاء هو العبادة" قال : وقرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس شىءٌ أكرم على الله من الدعاء" . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الدعاء ينفع (١٣٦)

ممـا نزل ومما لم ينزل فعليكم عبادَ الله بالدعاء» . وعن أنس رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله عز وجل حيٌّ كريم يستحيي إذا بَسَـط الرجلُ إليه يديه أن يردَّهمـا صِفْرًا ليس فيهما شيء» . وعن أبى سـعيد الخُدْرِيّ رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «دعوة المسلم لا تُرَدُّ إلا بإحدى ثلاث ما لم يدعُ بإثم أو قطيعـةِ رَحِم إمّا أن يسـتجيبَ الله له فيما دعا أو يدّخره له فى الآخرة أو يَصرف عنه من السوء بقدر ما دعا» . وعن أنس رضى الله عنه قال: قيل يارسول الله : إنا ندعو بدعاء كثيرٍ منه ما نرى إجابتَه ومنه مالا نرى إجابتـه فقال : «والذى نفسى بيده مامن أحدٍ يدعو بدعوة إلا ٱستُجيب له أو صُرف عنه مثلُها شرًّا».قالوا : يارسول الله، إذًا نُكثِر؟ قال: «الله أكثر وأكثر» ثلاث مرات .
وعنه رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : «دعوة فى السر تَعدل سبعين دعوةً فى العَلَانِيَة» . وعن أبى سعيد الخُدرىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن لله عز وجل فى الليل والنهار عُتَقاءَ من النار ولكلّ مسلمٍ ومسلمةٍ فى كلّ يومٍ وليلةٍ دعوة مستجابة» . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله تعالى يقول من ذا الذى دعانى فلم أُجِبْه وسألنى فلم أُعْطِه وٱستغفرنى فلم أَغْفِر له وأنا أرحم الراحمين» . وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إذا فتح الله على عبدٍ بابَ الدعاء فليُكثر فإن الله يَستجيب له» . وعن ٱبن عمر رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال : «من فُتِح له بابٌ فى الدعاء فُتِحت له أبواب الإجابة» . وعن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من لم يسألِ الله يغضَبْ عليه» . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية فقال صلى الله عليه وسلم : «اللّهم إنّك

أَمرتَ بالدعاء وتوكّلت بالإجابة لبّيك اللهم لبّيك لبّيك لا شريك لك لبيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك أشهد أنّك فردٌ أحد صَمَدٌ لم يَلِد ولم يُولد ولم يكن له كُفُوًا أحد وأشهد أنّ وعدك حق ولقاءك حقّ والجنة حق والنار حق وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنّك تبعث من فى القبور". هذا مما ورد فى الحثّ على الدعاء.

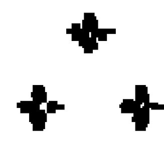


وأمّا ما ورد فى نفع الدعاء ودفعه للبلاء؛ رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن أنواع البِرّ كلّها نصفُ العبادة والنصف الآخر الدعاء". وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ينفع حَذَر من قَدَر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن الدعاءَ ليَلْقَى البلاءَ فيعتلجان إلى يوم القيامة". وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء ينفع مما نزل ومما لم لا ينزل وإن الدعاء لَيردّ القضاء المُبْرَم وإن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فلا يزال أحدُهما يدفع صاحبَه إلى يوم القيامة". وعن سَلْمان الفارسىّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يردّ القضاءَ إلا الدعاءُ ولا يزيد فى العمر إلا البِرّ". وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء سِلاحُ المؤمن وعِمادُ الدِّين ونورُ السموات والأرض".



وأمّا ما ورد فى الإلحاح فى الدعاء وهيئة الذِّلّة والإنابة؛ قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله يحبّ المُلِحِّين فى الدعاء". وعن أبى هريرة

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُدعوا اللهَ وأنتم مُوقِنون بالإجابة وآعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاءً من قلب ساهٍ لاهٍ" . وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه فى الدعاء حتى يُرَى بياضُ إبطيه (1) . وعن آبن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه (١٣٧)
وسلم إذا دعا جعل باطن كفّيه إلى وجهه . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سلوا الله ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم فآمسحوا بها وجوهكم" وعن آبن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن ربكم عز وجل حيٌّ كريم يستحيي أن يرفع العبد يديه فيردّهما صِفْرا لا خير فيهما فإذا رفع أحدكم يده فليقل يا حيّ لا إله إلا أنت يا أرحم الراحمين ثلاث مرات ثم إذا ردّ يده فليُفرغ ذلك الخير على وجهه" . وعن عمر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مدّ يديه فى الدعاء لم يردّهما حتى يمسح بهما وجهه . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الإخلاص هكذا ورفع إصبعا واحدا من اليد اليمنى والدعاء هكذا وجعل بطونهما مما يلى السماء والآبتهال هكذا ومدّ يديه شيئا وجعل ظهر الكفّ مما يلى السماء" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أقربُ ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجد فأكثروا الدعاء" .



وأمّا ماورد من كراهية آستعجال الإجابة ورفع البصر والسجع فى الدعاء

قال تعالى : ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يستجابُ لأحدكم ما لم يعجَل

(1) فى الأصلين هكذا : «بيان» والتصحيح عن الإحياء (ج ١ ص ٢٨٧) .

فيقول قد دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لى" . وعنه صلى الله عليه وسلم: "لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل". قالوا : وكيف يستعجل؟ قال: "يقول قد دعوت الله مرارا فلا أراه يستجيب لى" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام عن رفع أبصارهم عند الدعاء فى الصلاة إلى السماء أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارُهم" . وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : إيّاك والسجْعَ فى الدعاء فإنّى شهدت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك .

* * *

وأمّا ما ورد فيمن تجاب دعواتهم . قال الله عز وجل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾. وقال تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : "خمسُ دَعَواتٍ لا تُرَدّ دعوةُ الحاجّ حتّى يصدُر ودعوة الغازى حتى يرجع ودعوة المظلوم حتى ينتصر ودعوة المريض حتى يبرأ ودعوة الأخ لأخيه بالغيب وأسرعُ هؤلاء الدعوات إجابةً دعوةُ الأخ لأخيه بالغيب" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاثُ دعوات مستجابات لا شكّ فيهنّ دعوةُ الوالد ودعوة المسافر ودعوة المظلوم" . وفى حديث آخر : "دعوة الصائم بدل دعوة الوالد" . وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعاذ حين بعثه إلى اليمن : "إنّك تأتى قومًا أهلَ كتابٍ فاتّق دعوة المظلوم" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "الإمام العادل لا تُرَدُّ دعوته". وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا تردّ دعوتهم إمامٌ مُقْسِط ودعوة الصائم ودعوة المظلوم تُفتح لها أبواب السماء ويقول الله عز وجل لأنصرنّك ولو بعد حين". وعنه صلى الله عليه وسلم : "دعاء الوالد لولده مثل دعاء النبى لأمته". وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أسرعُ الدعاء إجابةً دعوةُ غائب لغائب". وعن أبي الدرداء، رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "دعوةُ الرجل لأخيه بظهر الغيب تعدِل سبعين دعوةً مستجابةً ويُوكِّل الله عز وجل ملَكا يقول آمين ولك مثل ما دعوت". وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب إلا قال له ملَك عن يمينه وملَك عن شماله ولك مثله". وعن (١٣٨) أبي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حامل القرآن له دعوة مستجابة". وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا دخلت على المريض فسَلْه يدعو لك فإن دعاءه كدعاء الملائكة". وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أُلهم الدعاء لم يُحْرَم الإجابةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ومن أُلهم التوبةَ لم يحرم القبولَ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ ومن أُلهم الشكر لم يحرَم الزيادةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ومن أُلهم الاستغفارَ لم يحرم المغفرةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ ومن أُلهم النفقةَ لم يحرم الخلَف لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾".

## ذكر الأوقات التي تُرجى فيها إجابةُ الدعاء

قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ينزل الله حين يبقى ثلثُ الليل إلى السماء الدُّنيا فيقول من يسألني فأُعطيَه ومن يدعوني فأَستجيبَ له ومن يستغفرني فأغفرَ له". وعنه صلى الله عليه وسلم: "تُفتح أبوابُ السماء ويُستجاب دعاءُ المسلم عند إقامة الصلاة وعند

نزول الغيث وعند زَحْف الصفوف فى سبيل الله وعند رُؤية الكعبة" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا فاءت الأفياء وهبّت الرياح فأرفعوا إلى الله حوائجكم فإنّها ساعة الأوّابين إنه كان للأوّابين غفورا" . وعن أبى أُمامة قال قلت : يا رسول الله، أىّ الدعاء أسمع ؟ قال : "جوفَ الليل وأدبارَ المكتوبات". وعن ابن عمر قال : أفضلُ الساعات مواقيت الصّلاة فأدعوا فيها . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم: "خيرُ يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة إن فيه لساعةً لا يوافقها عبدٌ يصلّى يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إيّاه". وقد اختلف فى ابتداء وقت هذه الساعة فقيل : أوّلُ ساعة من طلوع الشمس، وقيل : آخرُ ساعة من غروبها، وقيل : عند جلوس الإمام على المنبر ، وقيل : من الزوال إلى ابتداء الصلاة، وقيل : من بعد العصر إلى الغروب، وقيل: إنها تنتقل فى ساعات اليوم كما تنتقل ليلة القَدْر فى شهر رمضان . رُوى عن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرىّ قال : قال لى عبد الله بن عمر رضى الله عنهم : أَسمعتَ أباك يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن ساعة الجمعة؟ قال: نعم، سمعته يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن ساعة الجمعة يقول : "هى ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاةُ" . وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها عن أبيها صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن فى الجمعة لساعةً لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه" . فقلت : يا أبت، أىّ ساعة هى؟ قال: "إذا تدلّى نصف الشمس للغروب" . فكانت فاطمة رضى الله عنها إذا كان يوم الجمعة تأمر غلاما لها يقال له زيد يرصُد لها الشمس ، فإذا تدلّى نصف الشمس للغروب أعلمها، فتقوم فتدخل المسجد فتدعو حتى تغرب الشمس وتصلّى .

وحيث ذكرنا هذه المراتب فلنذكر الأدعية المنصوص عليها .

## ذكر دعوات ساعات الأيام السبعة ولياليها

قد أورد الشيخ أبو العباس أحمد بن علىّ بن يوسف القرشىّ البُونى رحمه الله تعـالى دعوات الساعات فى اللُّمعة النورانية (١) فبدأ بيوم الأحد وذكر دعاء كل ساعة منه، ثم ذكر يوم الاثنين فقال: ساعة كذا يُدعَى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الأحد، ثم ذكر يوم الثـلاثاء فقال : ساعة كذا يدعى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الاثنين وكذلك فى بقيّة ساعات الأيام والليالى، يذكر كلّ ساعة ويُحيل فى دعائها على ساعة من اليوم أو الليلة التى قبلها . فرأيت أن الراغب فى الدعاء يحتاج فى معرفته إلى كشف طويل وتحقيق إلى أن يصل إلى تلك الساعة من يوم الأحد، وربما تعذّر ذلك على كثير من الناس، فرتّبت الأدعيــة على ما ستقف إن شاء الله تعـالى عليه (١٣٩) ليسهُل على المتناول طريقها ويدنو من المحاول تحقيقُها ؛ فقلت وبالله التوفيق :

دعاء يُدْعَى به فى الساعة الأولى من يوم الأحد، وفى الثامنة من ليلة الاثنين، وفى العاشرة من يوم الاثنين ، وفى الخامسة من ليلة الثلاثاء ، وفى السابعة من يوم الثلاثاء، وفى الثانية من ليلة الأربعاء وفى الرابعة من يوم الأربعاء، وفى الحادية عشرة من ليلة الخميس وفى الأولى من يوم الخميس ، والحادية عشرة من ليـلة الجمعة والعاشرة من يوم الجمعة، وفى الثامنة من ليلة السبت وفى السابعة من يوم السبت ، وفى الخامسة من ليلة الأحد، وهو :

"ربّ أغمسنى فى بحر [من] (٢) نور هيبتك حتى أخرجَ منه وفى وجهى شعاعات هيبة تخطَف أبصار الحاسدين من الجنّ والإنس فتُعميهم عن رمى سهام الحسد فى قرطاس

---

(١) فى الأصلين: "اللمحة النورانية" وصحة الاسم ماذكرناه . وفى دار الكتب المصرية منه نسختان خطيتان تحت رقمى (١٩٩٢ و ٨٥ م تصوّف) .

(٢) زيادة عن اللمعة النورانية .

نعمتى، وٱحجُبنى عنهم بحجاب النور الذى باطنُه النورُ وظاهرُه النار . أسألك باسمك النور وبوجهك النور يانور النور أن تحجُبنى فى نور ٱسمك بنور ٱسمك حجاباً يمنعنى من كلّ نقصٍ يُمازج منّى جوهرًا أو عَرَضا إنّك نُور الكلّ ومنوّر الكل بنورك » .

قال البُونى : تدعو بهذا الدعاء ثمانيا وأربعين مرّة فى هـذه الساعة على وضوء بعد صلاة ركعتين فيما يتعلق بسؤال الهيبة وإقامة الكلمة وقهر العدوّ . ويناسب هذا الدعاء من القرآن قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، قال : من قرأ هذه الآية هذا العدد المتقدّم فى بيت مظلم وعيناه مغلقتان شاهد أنوارا عجيبة تملا قلبه، وإن ٱستدام ذلك تشكّلت له فى عالم الحسّ . وهو ذكر يصلح لأرباب الهمم وأهل الخلوات، وكاتبه وحامله تظهر له زيادات فى قوى نفسه وقهر عدوّه وخَصْمه لم يكن يعهدها من قبل؛ ومن أمكنه أن يداوى به العلل الكائنة فى الرأس خصوصا من البرودة وجد تأثير ذلك لوقته .

دعاء يدعى به فى الساعة الثانيـة من يوم الأحد والتاسعة من ليلة الآثنين وفى الحادية عشرة من يوم الآثنين، وفى السادسة من ليلة الثلاثاء وفى الثامنة من يوم الثلاثاء، وفى الثالثة من ليلة الأربعاء وفى الخامسة من يوم الأربعاء، وفى الثانية عشرة من ليلة الخميس وفى الثانية من يوم الخميس، وفى الحادية عشرة من يوم الجمعـة، وفى التاسـعة من ليلة السبت وفى الثامنة من يوم السبت، وفى السادسة من ليـلة الأحد وهو :

« ربّ فرّحنى بما ترضى به عنّى فرحًا يُبهجنى بجميل المَسَارّ، حتى لا ينبسط شىء من وجودى إلا بما بسطه جودك العلىّ . ربّ فرّحنى بنيل المراد منك بفناء إرادتى منّى حتى لا يكون فى كَوْنى إرادةٌ إلا إرادتُك محفوظةً من عوارض التكوين، وأَبهج

بذلك فى سرّ سماء الأفراح فى الوجودَيْن برزق الباطن والظاهر ، إنك باسطُ الرزق والرحمة يا ذا الجودِ الباسطِ يا ذا البسط والجود » .

هذا الذكر من ذكره فى ساعة من هذه الساعات تسعاً وأربعين مرة أذهب الله تعالى عن قلبه الحزن وعن صدره الحَرَج والضّيق ، ونفى عنه كل همّ وغمّ ، وبه يدعو المسجونون والمأسورون والمحزونون فيفرج الله تعالى عنهم ، وذلك بعد صلاة تسليمتين ، والآيات(١) المناسبة لهذا القسم ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الآية ، (١) ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ الآية . قال البُونى : ويقدّم على ذكر هذه الآيات: (٢) اَللّهمّ اجعلنى من الفَرِحين بما آتاهم الله من فضله ، يقول ذلك بعد الذكر الأول مثل العدد المذكور ، فيرى المهموم من فضل الله تعالى به عجبا ، ويزداد [به](٣) ذو السرور سرورا لا يعرف سببه . ويصلح هذا الذكر لأرباب الفيض من أهل الخَلَوات فإنهم يستَروِحون منه أُنسا فى خَلَواتهم ومخاطبات بألفاظ مختلفة بقدر الفيض والمقام والسبب ، يعرف ذلك من كانت له إحاطةٌ بكشف أسرار الدعوات والأسماء .

دعاء يُدْعَى به فى الساعة الثالثة من يوم الأحد ، والعاشرة من ليلة الاثنين وفى الثانية عشرة من يوم الاثنين ، وفى السابعة من ليلة الثلاثاء وفى التاسعة من يوم الثلاثاء ، وفى الرابعة من ليلة الأربعاء وفى السادسة من يوم الأربعاء ، وفى الأولى من ليلة الخميس وفى الثالثة من يوم الخميس ، وفى الأولى من ليلة الجمعة وفى الثانية عشرة من يوم الجمعة ، وفى العاشرة من ليلة السبت وفى التاسعة من يوم السبت ، وفى السابعة من ليلة الأحد . وهو :

---

(١) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصل : «والآية» .

(٢) الذى فى اللمعة النورانية : « يضاف بعد الذكر الأول مثل هذا العدد المذكور » .

(٣) زيادة من اللمعة النورانية .

«ربِّ قَلِّبْــنِى فى أطوار معارف أسمــائك تقليبا تُشْهدنى به فى ذرّات وُجودِى ما أودعته ذرّات(١) وجودِى المُلْكِ والمَلَكُوت حتّى أعاين سَرَيان سرّ قدرك(٢) فى معالم المعلومات، فلا يبقَ معلوم إلا و بيدى سِرّ دقيقةٍ منه مجذوبةٍ بيد الكمال ونور الطوع؛ وأذهِبْ(٣) ظلمة الإكراه حتى أتصرّف فى المُهَج بمُبهجات المحبّة إنك أنت المحبّ المحبوب يا مقلّب القلوبْ» .

قال : من دعا بهذا الاسم والذكر ستَّ عشرةَ مرة بعد صلاة ثلاث تسليمات قلب الله قلبه عن كل خاطر فيه نقص(٤) إلى كلّ خاطر فيه كمال [فى حقّه](٥)، و يصلح لأرباب الاستخارات، وفيه لسرعة قضاء الحاجات معنى بديع . والآيات(٦) المناسبة له ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ [وَلَهُ الْمُلْكُ﴾، وقوله تعالى](٥) : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ إلى آخر الآية، وقوله تعــالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الآية؛ وما يناسب ذلك من القرآن .

وهو ذكر يصلح لأرباب القلوب من تكرار الخواطر والوساوس، وله فى تقلّب الأحوال أمور عجيبة عظيمة لمن فهم ذلك؛ وكذلك من كتب الذكر كله وعلّقه عليه عصمه الله فى تقلّباته من الآفات حتى فى أمور دنياه وآخرته .

---

(١) كذا فى اللمعة النورانية . وفى أحد الأصلين : «ما أودعته فى دورات» وفى الأصل الآخر: «ما أودعته من ذوات ...» .

(٢) فى إحدى نسخ اللمعة المخطوطة : «سر قدرتك ... » .

(٣) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصلين : «مجذوبة بيد كمال يبدو الكمال و نور الطلوع أذهب» الخ

(٤) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصلين : « قلب الله قلب كل من خاطره فيه نقص ... » .

(٥) زيادة من اللمعة النورانية .

(٦) كذا فى اللمعة النورانية : وفى الأصلين : « والآية ... » .

دعاء يدعى به فى الساعة الرابعة من يوم الأحد، وفى الحادية عشرة من ليلة الاثنين وفى الأولى من يوم الاثنين، وفى الثامنة من ليلة الثلاثاء وفى العاشرة من يوم الثلاثاء، وفى الخامسة من ليـلة الأربعاء وفى السابعة من يوم الأربعاء ، وفى الثانية من ليلة الخميس وفى الرابعة من يوم الخميس، وفى الثانية من ليلة الجمعة والأولى من يوم الجمعة، وفى الحادية عشرة من ليلة السبت وفى العاشرة من يوم السبت، وفى الثامنة من ليلة الأحد . وهو :

«ربِّ قابلنى بنور اسمك مقابلة تملأ وجودى ظاهرا و باطنا حتى تمحو منّى حظوظ الأشكال كلها فيبدو لى فى وجودى ومن وجودى سرّ ما كتبه قلم تقديرك من كل مُسـتودَع فى مُسْتَقَر ومستقرٍّ فى مستودع فلا يخفى علىّ ما غاب عنّى فَأَنْظِرْنى بك وأَنْظِر مَنْ سواى بنور اسمك[(١)] فأرى الكمال المطلق فى المُلْك المطلق، يا مُودِع الأنوار قلوبَ عباده الأبرار يا سريعُ يا قريبُ» .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى ساعة من هذه الساعات ست عشرة مرة ثم قصد أىّ حاجة أراد، أسرع اللهُ تعالى قضاءها وتمّم له ما يملكه من مال أو جاه أو حال أو مقام . ومن خاصّة هذا الذكر وضع البركة فى أىّ شىء وُضع عليه . ويصلح هذا الذكر لطالبى المكاشفات من أرباب الخلَوات فإنهم اذا داوموا هذا الذكر ألقى اليهم الخاطر الصحيح . قال : وإن أضيف له يا سريعُ يا قريبُ يامُبين ظهر له ما يريد من كشف العواقب فى الأفعال المرتبطة بعالَم الغيب والشهادة .

دعاء يدعى به فى الساعة الخامسة من يوم الأحد، وفى الثانية عشرة من ليلة الاثنين وفى الثانية من يوم الاثنين، وفى التاسعة من ليلة الثلاثاء وفى الحادية عشرة

(١) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصل : «أنيتك» .

من يوم الثلاثاء، وفى السادسة من ليلة الأربعاء وفى الثامنة من يوم الأربعاء، (١٤١) وفى الثالثة من ليلة الخميس وفى الخامسة من يوم الخميس، وفى الثالثة من ليلة الجمعة وفى الثانية من يوم الجمعة، وفى الثانية عشرة من ليلة السبت وفى الحادية عشرة من يوم السبت، وفى التاسعة من ليلة الأحد . وهو :

«ربّ أسألك مددا رُوحانيًّا تقوَى به قُواى الكلّية والجزئيّة حتى أَقهر بمبادئ نفسى كلّ نفسٍ قاهرة فتنقبض لى رِقابُها انقباضًا تسقُطُ به قُواها ، فلا يبقى فى الكون ذو رُوح إلّا ونارُ القهر أخمدت ظهورَه ، يا شديدُ يا ذا البطش يا قهّارُ يا جبّارُ أسألك بما أودعته عزرائيل من قُوى أسمائك القهريّة فانفعلت له النفوسُ بالقهر أن تكسونى(١) ذلك السرّ فى هذ الساعة حتى أُلَيِّن به كلّ صعب، وأُذِلّ به كلّ منيع بقوّتك ياذا القوّة المتين» .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى ساعة من هذه الساعات تسعا وثمانين مرة، ثم دعا على ظالم أُخذ لوقته ، وذلك بعد صلاة خمس تسليمات بالفاتحة لا غير . ويناسب هذا الدعاء من آى القرآن العظيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ . قال : فى هذا الذكر قمع الجبابرة، وقطع دابر الظالمين، وخراب ديار الماردين ، وما شابه ذلك . وهو ذكر يليق بالسالكين فى مبادئ الرياضات والمنتهين فى مقامات التجلّى إلى الخلوة ؛ وهو من الأسرار العجيبة، ولا يذكره من غلبته الشيخوخة إلّا وجد فى قلبه خفقانا بالخاصيّة ، ولا يذكره محمومٌ إلا برئ من حُمّاه لوقته، وإن كتبه وعلّقه عليه دامت صحّته .

دعاء يدعى به فى الساعة السادسة من يوم الأحد، وفى الأولى من ليلة الآثنين وفى الثالثة من يوم الآثنين، وفى العاشرة من ليلة الثلاثاء وفى الثانية عشرة من يوم

(١) كذا فى إحدى نسخ اللمعة النورانية . وفى الأصلين : "وا كسنى ..." .

الثلاثاء ، وفى السابعة من ليلة الأربعاء وفى التاسـعة من يوم الأربعاء، وفى الرابعة من ليلة الخميس وفى السادسة من يوم الخميس، وفى الرابعة من ليلة الجمعة وفى الثالثة من يوم الجمعة، وفى الأولى من ليـلة السبت وفى الثانيـة عشرة من يوم السبت، وفى العاشرة من ليلة الأحد . وهو :

"رب صَفِّنى [ من كدرات الأغيار ](١) صـفاء من صفّته يدُ عنايتك من نقص التكوين(٢) حتى يتجـلى فى مرآة قلبى ومستوى نفسى كلُّ آسم آنطبع فى قُوّة جبرائيـل فقوِى به على كشف ما فى اللوح من أسرار أسمـائك ومجامع رسائلك ، فكلّ نفس منفوسة آمتدّت لها من دقائقه دقيقةٌ(٣) طرفها(٣) منه والثانى(٣) لمن هو به ، ومجامع هـذه الدقائق فى دقيقة الأسم الجبرائيلى العالم العليم العلّام، ياذا الكرم(٣) الذى علّم بالقلم(٣)، فمواد الوحى والإلهام والتحديث والفهم تسرى بنفحة منه فى هذه الساعة إلى مثلها . إلٰهى مَنْطِقْنِى بالدقيقة العظمى منه حتى أتلقّى عنك بما به تلقّ [عنك جبرائيل](١) مما أملأ به وجودى بلا ميـلٍ لغلبة حتى أتلذّذ بمصافاتك تلذُّذ جبريل برسـائلك ، إنكَ علّام الغيوب" .

قال : من دعا به خمسا وعشرين مرة فى ساعة من هذه الساعات أُلْهِم رشده فى عواقب أموره . والأسم اللائق بهـذا الدعاء يا علّام الغيوب يا عالم الخفيّـات وما شا كل هذا النمط من الأسماء، ومن القرآن العظيم ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ الآية . قال : وهو من الكبريت الأحمر و بعضه من الدّرياق الأكبر . وهذا الذكر للذى فُتِح عليه بابٌ من المعارف فإنّه مهما آستدامه أُلْهِم قلبُه إلى علوم جليلة، ويُخاطب

(١) زيادة من اللمة النورانية .

(٢) كذا فى إحدى نسخ اللمة النورانية . وفى الأصلين : «من نقص التلوين ... » .

(٣) كذا فى الأصلين بالدال فى هذه الكلمات . وفى اللمة النورانية بالراء فيها جميعا .

فى نفسه بإلقاءات[1] من وحى الإلهام ، ويخاطبه الحيوان بمعنى يفهمه فيستفيد علوما عظيمة، يعرف ذلك أرباب المنازلات لفهم الحديث .

دعاء يدعى به فى الساعة السابعة من يوم الأحد، وفى الثانية من ليلة الأثنين وفى الرابعة من يوم الأثنين، وفى الحادية عشرة من ليلة الثلاثاء وفى الأولى من يوم الثلاثاء، وفى الثامنة من ليلة الأربعاء وفى العاشرة من يوم الأربعاء ، وفى الخامسة من ليلة الخميس وفى السابعة من يوم الخميس،وفى الخامسة من ليلة الجمعة وفى الرابعة (١٤٢)
من يوم الجمعة،وفى الثانية من ليلة السبت وفى الأولى من يوم السبت، وفى الحادية عشرة من ليلة الأحد . وهو :

«ربّ أوقفنى موقف العزّ حتى لا أجد فى ذرّةً ولا رقيقةً ولا دقيقة إلا وقد غشّاها من عزّ عزّتك ما منعها من الذّلّ لغيرك ، حتى لا أشهدَ ذلّ مَنْ سواى لعزّتى بك مُؤيّدا برقيقة من الرعب يخضع لها[2] كلّ شيطان مَريد، وجبّارٍ عنيد؛ وأبقِ علىّ ذلّ العبوديّة فى العزّة بقاءً يبسط لسانَ الأعتراف، ويقبض لسانَ الدعوى، إنّك العزيز الجبّار المتكبّر القهّار » .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى هذه الساعة أو فى ساعة من هذه الساعات ستّ عشرة مرة بعد صلاة[3] وحضور قلب نُصر على أىّ عدوٍّ قصده ظاهرا وباطنا .

دعاء يدعى به فى الساعة الثامنة من يوم الأحد ، وفى الثالثة من ليلة الأثنين وفى الخامسة من يوم الأثنين، وفى الثانية عشرة من ليلة الثلاثاء، وفى الثانية من يوم

---

(١) كذا فى اللمة النورانية . وفى الأصل : «بألقاب» .

(٢) كذا فى إحدى نسخ اللمة النورانية . وفى نسخة أخرى منها : «حتى يخضع له...» . وفى الأصلين : « حتى يخضع به ... » .

(٣) فى هامش إحدى نسخ اللمة النورانية : «ثلاث تسليمات ... » وكتب عليها كلمة «صح» وأشار الى موضعها بعد كلمة «صلاة» .

الثلاثاء ، وفى التاسـعة من ليلة الأربعاء وفى الحـادية عشرة من يوم الأربعـاء، وفى السادسة من ليلة الخميس وفى الثامنـة من يوم الخميس، وفى السادسة من ليلة الجمعة وفى الخامسة من يوم الجمعة ، وفى الثالثة من ليلة السبت وفى الثانية من يوم السبت ، وفى الثانية عشرة من ليلة الأحد . وهو :

«إلٰهى أطلع على وجودى شمس شهودى منك فى الأكوان والألوان حتى أمشىَ بمـا أشهدتنى فى آفاق الملكوت فأكشفَ منـه معنى كلمةِ التكوين فينفعلَ لى كلُّ مكوَّنٍ انفعاله للكلمة بإذنك الذى سخَّرت به ما فى الوجودين بلا ظلمةِ وَضْع ولا ظلمة طبع ، إنك منوِّر الكلِّ بكلِّك ومنوِّر الأنوار بنورك الذى صـدورُه عن اسمك النورِ والظاهرِ والحى والقيُّوم ، كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» الآية .

قال البُونى : لا يذكر أحدٌ هذا الذكر فى ساعة من هذه الساعات تسعًا وأربعين مرة إلا كساه الله نُورا يجد ذلك فى نفسه ، ويُيسَّر عليه المقسوم من الرزق ، وتسرى كلمته فى الأسباب سَرَيانا عجيبا . وهو ذكر يصلح لأرباب المكاشفات يُثبت لهم ما يكاشفون .

دعاء يدعى به فى الساعة التاسعة من يوم الأحد ، وفى الرابعة من ليلة الاثنين وفى السادسة من يوم الاثنين ، وفى الأولى من ليـلة الثلاثاء وفى الثالثـة من يوم الثلاثاء ، وفى العاشرة من ليلة الأربعاء وفى الثانية عشرة من يوم الأربعاء ، وفى السابعة من ليلة الخميس وفى التاسـعة من يوم الخميس ، وفى السابعـة من ليلة الجمعة وفى السادسة من يوم الجمعة ، وفى الرابعة من ليلة السبت وفى الثالثة من يوم السبت ، وفى الأولى من ليلة الأحد . وهو :

«سيِّدى أدخلنى فى بواطن رياض اسمك من الباب الخاصّ الذى لا يُحْجَب بنورٍ ولا بظلمة ولا بشىء منه ولا بشىء خارجٍ عنـه ، وأطلق يد قُوَاىَ فى نيل النعمة ،

وألهمنى تحقيق ذوق كلّ مَذُوق منه حتى أكونَ بك فيه وأكونَ فيه بك مبتهجاً منك وبك، ربّ إنك لطيفٌ عَطُوف رحيم رحمن » .

قال : هذا الذكر بخاصيّة فيه يجلب الفرح ويُذهب الحزن ويُطيب الوقت ويجلو الكرب ؛ ومن دعا به أربعين مرة فى ساعة من هذه الساعات على طهارة(١) وآستقبال فُرِّج به كربُه وآنجلى غمُّه .

دعاء يدعى به فى الساعة العاشرة من يوم الأحد، وفى الخامسة من ليلة الأثنين وفى السابعة من يوم الأثنين ، وفى الثانية من ليلة الثلاثاء وفى الرابعة من يوم الثلاثاء، وفى الحادية عشرة من ليلة الأربعاء وفى الأولى من يوم الأربعاء، وفى الثامنة من ليلة الخميس وفى العاشرة من يوم الخميس، وفى الثامنة من ليلة الجمعة وفى السابعة (١٤٢٣) من يوم الجمعة، وفى الخامسة من ليلة السبت وفى الرابعة من يوم السبت، وفى الثانية من ليلة الأحد . وهو :

« يامَن نسبةُ العلوم إلى علمه نسبةُ لاشىءٍ لشىء لا يتناهى، أظهرت الحروفَ بالقلم فكان لها صريف فى ألواح الملكوت قام لها مقام مخارج الحروف من الحلق والصدر واللّها واللسان، كلّ جنس صدر عنه آسمٌ لا يعلم تركيبه سوى مَلَك قلمك، وكلّ نوع صدر عنه مركّبا، فلوح إسرافيل أظهره بقوّة ما فى آحاد كلّياته من جزئيّات تراكيبه، أسألك بهذا السرّ الخفىّ الذى وقف العقل دونه وتقدّم إليك السرّ بسرٍّ أودعته فيه يوم إمكان وجوده، أسألك كشف حجاب الغيب(٢) حتى أُعاينَ الغيب بما به حَىَّ الرُّوح الباقى، يا حىّ، ياهْ يا هو، يا أنت يا مهيمنُ يا خالقُ يا بارىء أنت هو » .

---

(١) فى هامش إحدى نسختى اللغة النورانية : «وصلاة ثلاث تسليمات» وكتب عليها كلمة «صح» وموضعها بعد كلمة «طهارة» .

(٢) فى اللغة النورانية : «المغيب» .

قال البُونى : هذا الذكر من ذكره فى ساعة من هذه الساعات مائةَ مرة يُسِّر له قضاءُ أىّ حاجة قصدها بغير مشقّة .

دعاء يدعى به فى الساعة الحادية عشرة من يوم الأحد، وفى السادسة من ليلة الآثنين وفى الثامنة من يوم الآثنين، وفى الثالثة من ليلة الثلاثاء وفى الخامسة من يوم الثلاثاء، وفى الثانية عشرة من ليلة الأربعاء وفى الثانية من يوم الأربعاء، وفى التاسعة من ليلة الخميس وفى الحادية عشرة من يوم الخميس، وفى التاسعة من من ليلة الجمعة وفى الثامنة من يوم الجمعة، وفى السادسة من ليلة السبت وفى الخامسة من يوم السبت، وفى الثالثة من ليلة الأحد . وهو :

« يامن لوجوده[1] العلىّ بآعتبار حكمته إلى كلّ موجود حصل من وجوده آسم يليق به هو مفتاحه الخاصّ، ومعناه المغيّب، وحقيقته الوجودية وسرّه القابل؛ فما فى الأكوان جوهر فرد من جواهر آحاد العالم العُلوىّ والسُّفلىّ إلا ومقاليد أحكامه متعلّقة بآسم من أسمائه، وآجتماعُها برقائقها بيد آسمك الذى آستأثرتَ به عن جميع خلقك فلم يظهر لهم إلا ما ناسب الأفعال، فأسماؤك إلهى لا تُحْصَى، ومعلوماتك لا نهايةَ لها، أسألك غمسةً فى بحر هذا النور حتى أعود إلى الكمال الأوّل فأتصرّف فى الكون بآسم الكمال تصرُّفًا ينتفى النقص بالوقوف على عبوديّة النقص، إنّك المُعِزّ المُذِلّ اللطيف الخبير العَدْل المُجيب » .

قال : من ذكر هذا الذكر ستّ عشرة مرة فى ساعة من هذه الساعات ثم سأل الله تعالى فيها رزقا[2]، وتيسيرَ أسباب، وسكونَ بحر هائج[3]، وسلطانٍ غاصب، ونفسٍ

(١) كذا فى إحدى نسخ اللمة النورانية . وفى الأصلين : « من يجوده ... » .

(١) كذا فى اللمة النورانية . وفى الأصل : « ثم سأل الله تعالى فمن سأله فيها رزقا ...» .

(٢) كذا فى إحدى نسخ اللمة النورانية . وفى الأصلين : «بحر هائل» .

متمرّدة من شيطانى الإنس والجنّ وما ناسب ذلك إلّا أُجيب له لوقته، وذلك على طهارة وصلاة[١] و جمع همة فى موضع خال من الأصوات .

دعاء يدعى به فى الساعة الثانية عشرة من يوم الأحد، والسابعة من ليلة الآثنين والتاسعة من يوم الآثنين، وفى الرابعة من ليلة الثلاثاء وفى السادسة من يوم الثلاثاء، وفى الأولى من ليلة الأربعاء وفى الثالثة من يوم الأربعاء ، وفى العاشرة من ليلة الخميس وفى الثانية عشرة من يوم الخميس، وفى العاشرة من ليلة الجمعة وفى التاسعة من يوم الجمعة، وفى السابعة من ليلة السبت وفى السادسة من يوم السبت، وفى الرابعة من ليلة الأحد . وهو :

«تعاليتَ يا من تَقاصر كلُّ فكرٍ عن حصر معنًى من معانى أسمائه ، فكل علوّ ورفعة فمن[٢] ذلك العلوّ والرفعة صدورُه ظاهرا و باطنا؛ تقدّس مجدك يا من أستارُ عرشه أظهر فيها كبرياءه ومجده، أسألك بالصفات التى لا تَعَلُّقَ لها بموجود ، ياذا العظمة والكبرياء والجلال والجمال والبهاء، أسألك الأُنس بمقابلات سِرّ القَدَر أُنسا (١٤٤ ز) يمحو آثار وحشة الفكر حتى يطيب وقتى بك فأطيب بوقتى لك ، فلا يتحرّك ذو طبع لخالقى إلا صَغُر لعظمتك وقُصِم بكبريائك ، إنك جبّار الأرض والسماء، وقاهر الكلّ بقهرك يا مجيب» .

قال البُونى : من ذكر هذا الذكر سبعا وعشرين مرة فى ساعة من هذه الساعات ودعا [بما يريد][٣] كُفِى لوقته [شرّ ما يحاذره][٣] . فهذه دعوات ساعات الأيّام والليالى.

(١) فى إحدى نسخ اللمعة بعد كلمة «صلاة» بين الأسطر : «ثلاث تسليمات» .

(٢) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصلين : «فمن دون ذلك العلو» الخ .

(٣) الزيادة عن إحدى نسختى اللمعة النورانية .

## ذكر ما يدعى به فى المساء والصباح، والغدوّ والرواح، والصلاة والصوم، والجماع والنوم، والوِرْد والصدَر، والسفر والحضر، وغير ذلك .

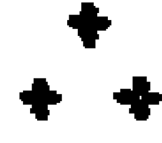
فأمّا ما يقال عند المساء والصباح، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه وقد سأله فقال : يا رسول الله مُرْنى بشىء أقوله إذا أصبحتُ و إذا أمسيتُ . فقال : "قل اللهمّ عالم الغيب والشهادة فاطرَ السموات والأرض ربَّ كلّ شىء ومليكَه أشهد أن لا إله إلّا أنت أعوذُ بك من شرّ نفسى وشرّ الشيطان وشِرْكه قُلْهن إذا أصبحتَ و إذا أمسيتَ و إذا أخذتَ مَضْجَعَك" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح يقول : " أصبحنا على فِطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبيّنا[٢] محمد صلى الله عليه وسلم وملّةِ أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين" . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال : "أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمةُ والخَلْق والأَمر والليل والنهار وما سَكَن فيهما من شىء لله وحده لا شريكَ له اللّهم آجعل أوّلَ هذا النهار لنا صَلاحا وأوسطَه فَلاحا وآخرَه نَجاحا أسألك خيرَ الدنيا وخيرَ الآخرة ياأرحم الراحمين". وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا أصبح : "اللّهمّ بك أَصبحنا وبك أَمسينا و بك نحيا و بك نموت و إليك النشور". و إذا أمسى قال: "اللّهم بك أمسينا و بك نحيا و بك نموت". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قال حين يصبح أو يمسى اللّهم أنت ربّى لا إله إلّا أنت خلقتَنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما آستطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوءُ

(٢) فى كتاب الأذكار للنووى (ص ٣٩) : «كذا وقع فى كتاب ابن السنى ، ثم قال هو غير متبع . ولعله صلى الله عليه وسلم قال ذلك جهرا ليسمعه غيره فيتعلمه» اهـ .

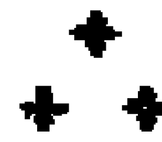
[لك](١) بنعمتك [عليك](١) وأبوءُ بذنبي فٱغفرلى إنّه لا يغفر الذنوب إلّاأنت فمات من يومه أو من ليلته دخل الجنة" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قال لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريكَ له له الملكُ وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير بعد ما يصلّى الغداة عشر مرّات كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيّئات و رفع له عشر درجات وكنّ له عِدْل رقبتين من ولد إسماعيل وكنّ له حجاباً من الشيطان حتّى يُمسى فإن قالها حين يُمسى كان له مثلُ ذلك وكنّ له حجاباً من الشيطان حتى يُصبح"، وفى رواية : "من قالها فى يوم مائةَ مرّة كانت له عِدْل عشر رقاب وكُتِبت له مائة حسنة ومُحِيت عنه مائةُ سيئة وكانت له حِرْزًا من الشيطان يومه ذٰلك حتّى يُمسى ولم يأت أحد بأفضلَ ممـا جاء به إلا رجلٌ عمِل أكثر منه ومن قال سبحانَ الله وبحمده فى اليوم مائةَ مرة حُطّت خَطَاياه و إن كانت مثل زَبَد البحر" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قال حين يُمسى أعوذ بكلمات الله التامّات كلّها من شرّ ما خلق لم تضرّه لَدْغة عقرب حتى يُصبح". وعنه صلى الله عليه وسلم : "من قال حين يُصبح فى أوّل يومه أو فى أوّل ليلته بٱسم الله الذى لا يَضُرّ مع ٱسمه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ثلاثا لم يضرّه شىءٌ فى ذلك اليوم أو تلك الليلة". وعنه صلى الله عليه وسلم . "من قال إذا أصبح باسم الله العلىّ الأَعْلى الذى لا ولدَ له ولا صاحبةَ ولا شريكَ أَشهد أنّ نوحا رسولُ الله وأنّ إبراهيم خليلُ الله وأنّ موسى نَجِىُّ الله وأنّ داود خليفةُ الله وأنّ عيسى روحُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وأنّ محمدا رسول الله وخاتَمُ النبيّين لا نبىّ بعده لم تلسعه حيّة ولا عقرب ولم يخف من سلطان ولا كاهن ولا ساحر حتى يُمسى و إذا قالها إذا أَمسى لم يخف شيئا من ذلك حتى يُصبح" . (١٤٥)

---

(١) زيادة عن صحيح البخارى .



وأمّا ما يقال عند النوم؛ رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وإذا أخذتَ مضجَعك فتوضّا وضوءَك للصّلاة ثم اضطجع على شِقّك الأيمن ثم قُلْ أسلمتُ وجهى إليك وفوّضتُ أمرى اليك وألجأت ظهرى إليك رهبةً ورغبةً إليك لا ملجأً ولا منجى منـك إلا إليك اللّهم آمنتُ بكتابك الذى أنزلتَ ونبيِّـك الذى أرسلتَ فإن متّ من ليلتك متّ على فِطرة الإسلام واجعلهنّ آخر ما تتكلّم به". قال البَرَاء بن عازِب : فردّدتها على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلما بلغتُ اللهم آمنتُ بكتابك الذى أنزلت قلت : ورسولِك قال : "ونبيك الذى أرسلتَ". وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من اللّيل يقول : "اللهم لك الحمدُ أنت نورُ السمٰوات والأرض ولك الحمدُ أنت قيّام السمٰوات والأرض ومَن فيهنّ أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنّة حق والنار حق والساعة حق اللّهم لك أسلمتُ وبك آمنت وعليك توكّلت وإليـك أنبتُ وبك خاصمتُ وإليـك حاكمت فاغفـر لى ما قدّمتُ وما أخّرت[1] وما أسررْت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت".



وأمّا ما يقال عند دخول المنزل والمسجد والخروج منهما ؛ رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا وَلَجَ الرجلُ بيتَه فليقُلْ باسم الله اللّهم إنّى أسالك خيرَ المَوْلِج وخيرَ المَخْرَج باسم الله وَلَجْنا وباسم الله خرجْنا وعلى الله توكّلنا ثم ليسلِّمْ على أهله". وعنه صلى الله عليه وسلم : "إذا دخل الرجلُ بيته فقال بآسم الله قعد الشيطانُ على الباب وقال مامِنْ مَقِيلٍ فهل من غَدَاء فاذا أُتِى بغَدَائه فقال بآسم الله

(١) كذا فى رواية الأذكار للنورى من رواية الصحيحين . وقد ورد فى الأصل بدون ما الموصولة إلا فى الفعل الأوّل دون الأفعال الباقية .

قال ما مِنْ غَدَاء ولا مَقِيل ". وعنه صلى الله عليه وسلم : " إذا خرج الرجلُ من بيته فقال سبحان الله قال المَلَك هُدِيتَ وإذا قال لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله قال الملك وُقِيتَ فإذا قال توكّلت على الله يقول الملك كُفِيت يقول الشيطان عند ذلك كيف أعمَل بمن كُفِي وهُدِي ووُقِ ". وعن أمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت : ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته صباحًا قطّ إلا قال : " اللّهم إنّى أعوذ بك أن أَزِلّ أو أَضِلّ أو أظلم أو أُجهل أو يُجْهَل علىّ ". وعنه صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلم خرج من بيته يريد سفرًا أو غيره فقال حين يخرج باسم الله آمنتُ بالله آعتصمتُ بالله توكّلت على الله لا حول ولا قوّة إلا بالله إلا رُزِق خيرَ ذلك المَخْرَج وصُرِف عنه شرُّ ذلك المخرج". وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال فُضَيل بن مرزوق — أحسبه رفعه — قال : "من قال حين يخرج إلى الصّلاة اللّهم إنى أسألك بحقّ السائلين عليك وبحقّ مَمْشاى هذا إنى لم أَخْرج أَشَرًا ولا بَطَرًا ولا رياءً ولا سُمْعة خرجتُ خوفَ سخطك وآبتغاءَ مَرْضاتِك أسألك أنْ تُنقذنى من النّار وأن تغفر ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وكّل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل اللهُ عليه بوجهه حتى يفرُغَ من صَلاته ". وعن فاطمة(١) رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد قال : " باسم الله والسلام على رسول الله اللّهم آغفر لى وآفتح لى أبوابَ رحمتك وإذا خرج قال باسم الله والسلام على رسول الله اللّهم آغفر لى ذنوبى وآفتح لى أبوابَ فضلك". وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللّهم آفتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللّهم إنى أسألك من فضلك ".

(١) وضع على حاشية إحدى النسخ « لعلها بنت قيس » ووضعت هذه الزيادة فى نسخة أخرى فى صلب الكتاب . والظاهر أنها فاطمة الزهراء رضى الله عنها ؛ فقد روى هذا الحديث الإمام النووى فى كتاب الأذكار عن عبد الله بن الحسن عن أمه عن جدّته اهـ وجدّته هى فاطمة الزهراء .

*
* *

وأمّا ما يقال عند النداء، فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان عند الأذان فُتِحت أبوابُ السماء وٱستُجِيب الدعاءُ وإذا كان عند الإقامة لم تُرَدّ دعوة" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "من قال حين يسمع المؤذّن وأنا أشهد (١٤٦) أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمدا عبده ورسوله رضيتُ بالله ربًّا وبمحمد رسولًا وبالإسلام دينًا غُفِر له ذنبُه" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من سمع المؤذّن فقال اللّهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدا الوسيلةَ والفضيلةَ وٱبعثه مَقَامًا محمودا الذى وعدتَه حلّت له شفاعتى يوم القيامة" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثلَ ما يقول ثم صلُّوا علىّ فإنه من صلّى علىّ مرّةً صلى الله عليه بها عشرا" .

*
* *

وأمّا ما يقال عند دخول الخلاء، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخَلاء قال : "اللّهم إنى أعوذ بك من الخُبْث والخبائث" وإذا خرج قال "غفرانَك" . وفى لفظ إذا خرج قال : "الحمدُ لله الذى أَذْهب عنِّى الأذَى وعافانى" . وعن أَنَس رضى الله عنه قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال : "اللّهم إنّى أعوذ بك من الرِّجس النِجس الخبيث المُخْبِث الشيطان الرجيم"، وإذا خرج قال : "الحمد لله الذى أذهب عنّى الأذى وعافانى" .

*
* *

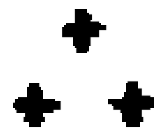
وأمّا ما يقال عند الوضوء وغَسْل الأعضاء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاةَ لمن لا وُضُوء له ولا وضوءَ لمن لم يذكر ٱسم الله عليه" . وعن علىّ ٱبن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا علىّ

إذا توضّأتَ فقل بٱسم الله والصلاة على رسول الله» . وعن محمد بن الحَنَفيّة قال: دخلتُ على والدى علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنهما — وإذا عن يمينه إناءٌ من ماء، فسمّى ثم سَكَب على يمينه ثم تمَضمض فقال: اللّهم حَصّنْ فَرْجى وٱستُرْ عورتى ولا تُشْمِت بى الأعداء؛ ثم تمضمض وٱستنشق وقال: اللّهم لقّنى حُجّتى ولا تحرِمنى رائحةَ الجنّة. ثم غسل وجهَه وقال: اللّهم بيّضْ وجهى يوم تَسْوَدُّ الوجوه ولا تُسوِّدْ وجهى يوم تبيضّ الوجوه. ثم سكب على يمينه فقال: اللّهم أعْطِنى كتابى بيمينى والخلدَ بشمالى. ثم سكب على شماله وقال: اللّهم لا تُعطِنى كتابى بشمالى ولا تجعلها مغلولةً إلى عُنُقى. ثم مسح برأسه وقال: اللّهم غَشِّنا برحمتك فإنّا نخشى عذابك، اللّهم لا تجمع بين نواصينا وأقدامنا. ثم مَسَح عنقه فقال: اللّهم نجّنا من مُقَطَّعات[1] النيران وأغلالها. ثم غسل قدميه فقال: اللّهم ثَبِّتْ قَدَمىّ على الصراط المستقيم يوم تَزِلّ فيه الأقدام. ثم ٱستوى قائما فقال: اللّهم كما طَهّرتنا بالماء فطهِّرنا من الذنوب، ثم قال بيده هكذا، يقطُرُ الماء من أنامله، ثم قال: يا بُنَىّ، ٱفعل كفعلى هذا فإنه مامن قَطْرة تقطر من أناملك إلا خلق اللهُ منها مَلَكًا يستغفر لك إلى يوم القيامة. يا بُنَىّ؛ من فعل كفعلى هذا تساقطت عنه الذنوب كما يتساقط الورق عن الشجر يوم الريح العاصف.

وعن علىّ رضى الله عنه قال: دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا علىّ إذا توضّأتَ فقل اللّهم إنى أسألك تمامَ الوضوء وتمامَ مغفرتك ورضوانك» . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: «من توضّأ فأحسن وضوءه ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صادقا من قلبه فتح الله له ثمانية أبواب الجنّة يدخل من أيّها شاء» . وعن

(١) المقطعات من الثياب: شبه الجباب، وفى التنزيل: (قطعت لهم ثياب من نار) أى قطعت وخيطت وجعلت لبوسا لهم. (عن لسان العرب).

علىّ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى عليه وسـلم : "يا علىّ إذا فرغتَ من وُضوئك فقل أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمدا عبده ورسوله اللّهم آجعلنى من التوابين وآجعلنى من المتطهّرين تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أمّك وتُفتح لك ثمانيةُ أبواب الجنة فيقال آدخل من أيّها شئت" .



وأمّا ادعية الصلاة، فهى إمّا أن تقع قبلها أو فيها أو بعدها . فأمّا ما يقال قبلها

(١٤٧) فقد رُوى عن أبى سَلَمة بن عبـد الرحمن قال : سألتُ عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها بأىّ شىء كان نبىّ الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصـلاةَ إذا قام من الليل ؟ قالت : إذا قام يفتتح صـلاته يقول : "اللهم ربَّ جبريل وميكائيل و إسرافيـل فاطرَ السمٰوات والأرض عالمَ الغيب والشهـادة أنت تحكُمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لمـا آختلفتُ فيه من الحقّ بإذنك إنك تَهْدى من تشاء إلى صراط مســتقيم" .

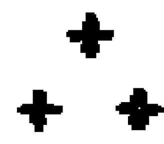
وأمّا ما يدعى به فى نفس الصلاة، فقد روى عن عائشـة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آفتتح الصلاة رفع يديه حذو منكبيه ثم يقول : "سبحانَك اللّهمّ وبحمـدك تبارك آسمُك وتعالى جَدُّك ولا إلهَ غيرُك" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا كبّر فى الصلاة سكت هُنَيّةً قبل أن يقرأ . فقلت : يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، ما تقول فى سكوتك بين التكبير والقراءة ؟ قال : "أقول اللّهم باعِدْ بينى وبين خَطَاياى كما باعدتَ بين المشرق والمغرب اللّهم نَقّنى من الخطايا كما يُنَقّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَس وآغسلنى من خطاياى بالثلج والمـاء والبَرَد" . وعن جُبَيْر بن مُطْعِم رضى الله عنـه أنه رأى

النبىّ صلى الله عليه وسلم يصلّى قال : فكبّر فقال " الله أكبر كبيرا ثلاث مرات والحمد لله كثيرا ثلاث مرات وسبحان الله بكرةً وأصيلا ثلاث مرات اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه " . قال راويه عمرو بن مُرّة : نفخه : الكبر، ونفثه : السحر، وهمزه : المُوتة، وهى الجنون . وعن علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصلاة كبّر ثم قال : " وجّهت وجهى للّذى فطر السموات والأرض حنيفًا مُسلما وما أنا من المشركين إن صلاتى ونُسُكى ومَحياى ومماتى لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوّل المسلمين اللّهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربّى وأنا عبدك ظلمتُ نفسى واعترفتُ بذنبى فاغفرلى ذنوبى جميعا لا يغفر الذنوبَ إلا أنت واهدنى لأحسنِ الأخلاق لا يَهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيّئها لا يصرف سيّئها إلا أنت لبّيكَ وسعدَيكَ والخير كلّه فى يديك [ والشرّ ليس إليك ](1) وأنا بك وإليك تباركتَ وتعاليتَ أستغفرك وأتوب إليك". فإذا ركع قال : " اللّهم لك ركعتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ خشَع لك سمعى وبصرى ومُخّى وعظمى وعَصَبى". فإذا رفع رأسه قال : "سمع الله لمن حمده ربّنا ولك الحمد مِلْءَ السموات والأرض وما بينهما وملءَ ما شئت من شىء بعد" . فإذا سجد قال : " اللّهم لك سجدتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ سجد وجهى للّذى خلقه وصوّره فأحسن صُوره وشقّ سمعه وبصره فتبارك الله أحسنُ الخالقين". فإذا فرغ من الصلاة وسلّم قال : " اللهم اغفرلى ما قدّمتُ وما أخرتُ وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منّى أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إله إلا أنت" . وقد ورد فى لفظ آخر أنه يقول : اللهم اغفرلى إلى آخر الدعاء بين التشهّد والتسليم . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : صلّيت مع رسول الله

(١) زيادة من كتاب الأذكار للنووى (ص ٢١) .

صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول فى ركوعه : "سبحانَ ربّى العظيم"، وفى سجوده : " ســبحانَ ربّى الأعلى" . وفى لفظ أنه كان يقــول ذلك ثلاث مرات . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده وركوعه : "سُبُّوح قُدُّوس ربّ الملائكة والروح" . وعن أبى ســعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال : "ربّنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئتَ من شىء بعدُ أهل الثناء والمجد أحقّ ما قال العبد وكلّنا لك عبد اللّهم لا مانعَ لِمَـا أعطيتَ ولا مُعطى لمـا منعتَ ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ" . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من قال وهو ساجدٌ ثلاث مرّات ربّ اغفرلى لم يرفع رأسه حتّى يُغْفَرَ له" . وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وســلم يعلّمنا التشهّد كما يعلّمنا السُّورة من القرآن، وكان يقول : "التحيّات المباركات الصلوات الطيبات لله سلامٌ عليك أيها (١٤٨) النبىّ ورحمة الله وبركاته سلامٌ علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمدا رسولُ الله" . وروى : "السلامُ" فى الموضعين . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: كنّا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم: السلام على الله السلام على فلان . فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم: "إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيّاتُ لله والصلوات والطيبات الســلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته الســلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإذا قالها أصابت كلّ عبد صالح فى السماء والأرض أشهد أن لا إلهَ إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخيّر فى المسألة ما شاء" . وقد علّم رسول الله صلى الله عليــه وســلم أصحابه الصلاة عليه . وقد سأله كعب بن عُجْرة عنهـا فقال : " قولوا اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآلِ إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد وبارِكْ

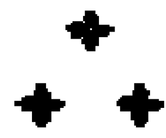
على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد " . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فرغ أحدكم من التشهّد فليتعوّذ بالله من أربع : من عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة المحْيا والممات وشرّ المسيح الدجّال " . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : علّمنى دعاءً أدعو به فى الصلاة وفى بيتى قال : " قل اللّهم إنى ظلمتُ نفسى ظلمًا كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاْغفرلى مغفرةً من عندك إنّك أنت الغفور الرحيم " . وروى بعد قوله من عندك : " وآرحمنى إنك أنت التوّاب الرحيم " .



وأمّا ما يدعى به بعد التسليم؛ فقد روى عن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دُبُرَ كلّ صلاة : "لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمد يحيى ويُميت وهو على كلّ شىء قدير اللّهم لا مانعَ لِمَا أعطيتَ ولا مُعْطِىَ لما منعت ولا ينفع ذَا الجَدّ منك الجَدّ " . وعن عبد الله آبن الزُّبَير رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلّم من صلاته يقول بصوته الأعلى : "لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لا حولَ ولا قوّة إلا بالله ولا نعبد إلا إيّاه له النعمةُ وله الفضلُ وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مُخلصين له الدينَ ولو كره الكافرون" . وفى طريق آخر : "له الدينَ وهو على كل شىء قدير" . وعن أُمّ سلَمة رضى عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلّى الصبح قال : "اللّهم إنى أسألك علمًا نافعا ورزقا طيّبا وعملا مُتَقَبَّلا" . وعن أنس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم :

"من قال حين ينصرف من صلاته سبحانَ الله العظيم وبحمده لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله العليّ العظيم ثلاث مرات فإنه مغفور له" . وعن أبي أُمامة الباهليّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ آية الكرسيّ دُبُرَ كلّ صلاة لم يمنعه من دخول الجنـة إلا أن يموت" . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : "ما من عبدٍ بَسَط كفّيه فى دبر صـلاته ثم يقول إلٰهى إلٰهَ إبراهيم وإسحـاق ويعقوب إله جبريلَ وميكائيل وإسرافيـل أسألك أن تسـتجيبَ دعوتى وتَعْصِمَنى فى دِينى فإنى مبتلًى وتنالَنى برحمتـك فإنّى مذنبٌ وتنفىَ عنى الفقرَ فإنى مُستمسك إلّا كان حقًّا على الله ألّا يردّ يديه خائبتين" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قال دبر كلّ صلاة الحمدُ لله ثلاثًا وثلاثين مرّة وسبحانَ الله ثلاثًا وثلاثين مرة واللهُ أكبرُ ثلاثًا وثلاثين مرّةً وتمامَ المـائة لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غُفِرَتْ ذنوبُه ولو كانت أكثر من زَبَد البحر" . وعن عليّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى آخر وَتْره : "اللّٰهم إنى أعوذ برضاك من سَخَطِك وأعوذُ بمُعافتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أُحْصِى ثناءً عليك أنت كما أَثنيتَ على نفسك" . وعن الحسن بن عليّ رضى الله عنهما قال : علّمنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كلماتٍ أقولهنّ فى الوِتْر، وفى لفظ : فى قُنوت الوتر : "اللّٰهـم
(١٤٩) آهْدِنى فيمن هديتَ وعافِنِى فيـمن عافيتَ وتولّنى فيمن تَوَلّيت وبارك لى فيما أعطيتَ وقِنِى شرّ ما قضيتَ إنك تَقْضِى ولا يُقْضَى عليك وإنّه لا يَذِلّ من واليت تباركت ربّنا وتعاليت" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسـلم على جنازةٍ فقال : "اللّٰهـم آغفر لحيّنا وميّتنا وصغيرنا وكبيرنا وذَكَرِنا وأُنثانا وشاهدنا وغائبنا اللّٰهم من أَحْييته منّا فأَحْيِه على الإيمـان ومن توفّيْتَه منا فتوفّه على

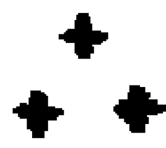
الإسلام اللّهم لا تحرِمنا أجرَه ولا تُضِلّنا بعده". وعن عليّ رضى الله عنه قال: دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا عليّ اذا صلّيت على جنازة رجلٍ فقل اللّهم هٰـذا عبدُك آبن عبدِك آبنُ أمتك ماضٍ فيـه حكمُك خلقتَه ولم يكن شيئاً مذكورا نزل بك وأنت خيرُ منزولٍ به اللّهم لقّنْه حُجّته وألحِقْه بنبيّه محمد صلى الله عليه وسـلم وثبّتـه بالقول الثابت فإنه آفتقر إليك وآستغنيتَ عنـه كان يشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا الله فاغفر له وآرحمـه ولا تحرِمْنا أجرَه ولا تفتِنا بعـده اللّهم إن كان زاكياً فزكّه و إن كان خاطئا فاغفرْ له . و إذا صلّيتَ على جنازة آمرأةٍ فقل اللّهـم أنتَ خلقتها وأنت أحْييتها وأنت أمتّها تعلم سرّها وعَلانِيَتَها جئناك شفعاءَ لها فآغفر لهـا وآرحمها ولا تحرِمنا أجرها ولا تفتِنا بعدها. وإذا صلّيتَ على جنازة طفل فقـل اللّهم آجعله لوالديه سَلَفا وآجعـله لهما ذُخرا وآجعله لهما رَشَدا وآجعله لهما نُورا وآجعـله لهما فَرَطا وأَعْقِب لوالديه الجنّة ولا تحرِمنا أجره ولا تفتِنا بعده " . وعن عَوْف بن مالك رضى الله عنـه قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسـلم وصلّى على جنازة يقول : " اللّهم آغفر له وآرحمه وآعفُ عنه وعافِه وأكرم نُزُلَه ووسّع مَدْخله وآغسِله بمـاء وثلج و بَرَد ونقّه من الخطايا كما يُنَقّى الثوب الأبيض من الدنَس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلًا خيرا من أهله وزوجًا خيرا من زوجه وقِهِ فتنةَ القبر وعذابَ القبر وعذابَ النار " . قال عوف رضى الله عنـه : فتمنّيتُ لو كنت أنا الميّت لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسـلم .



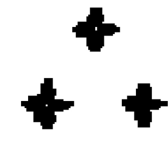
وأمّا ما يقال عند رؤية الجنازة والتلقين والدفن، وما فى ذلك من الأجر،

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : من رأى جنازةً فقال اللهُ أكبرُ صدَق الله ورسولُه هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه اللّهم زِدْنا إيماناً وتسليما كُتِبَ له عشرون

حسنةٌ فى كلّ يو‌مٍ من يومٍ يقولها إلى يوم القيامة ". وقال صلى الله عليه وسلم : " لقّنوا موتاكم لا إلهَ إلا الله " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا وضعتم موْتاكم فى القبر فقولوا بآسم الله وعلى مِلّة رسول الله " . وعن آبن عمر رضى الله عنهما أنه كان اذا سُوِّىَ على الميّت الترابُ قال: " اللّهم أَسْلَمه إليك الأهلُ والمالُ والعشيرةُ وذنبُه عظيم فاغفرْ له " . وعن سعيد بن عبد الله الأَوْدىّ قال : شهدت أبا أُمامة وهو فى النَّزْع فقال : إذا أنا مُتُّ فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصنع بموتانا ، أمرنا فقال : " إذا مات أحد من إخوانكم فسوّيتم الترابَ على قبره فليقُمْ أحدكم على رأس قبره فليقل يا فلان بن فلانة فإنه يسمعه ولا يُجيبه ثم يقول يا فلان بن فلانة فإنّه يستوى قاعدًا ثم يقول يا فلان بن فلانة فإنه يقول أَرْشِدنا رحمك الله ولكن لا تشعرون فليقُل أُذْكُرْ ما خرجتَ عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدا عبدُه ورسولُه وأنّك رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دِينًا وبمحمد نبيًّا وبالقرآنِ إماما فإن مُنْكَرًا ونكيرا يأخذُ كلُّ واحدٍ منهما بيدِ صاحبه ويقول آنطلِقْ بنا ما نقعد عند من لُقِّن حُجّته فيكون الله حجيجَه دونهما" . فقال رجل : يارسول الله فإن لم يعرف أمّه ؟ قال : " فينسبه إلى حوّاء يا فلان آبن حوّاء " .

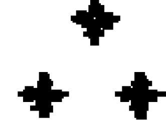


وأمّا ما يقال عند زيارة القبور؛ عن عائشة رضى الله عنها أنّها تبعت النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى زيارة البَقيع فقال لها : " قولى السّلامُ على أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات ويرحمُ اللهُ المُستقدِمين منّا والمُستأخِرين وإنّا إن شاء اللهُ بكم لاحقون" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى المقابر قال : " السلامُ عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون أنتم لنا فَرَطٌ ونحن لكم تَبَعٌ أسأل الله العافيةَ لنا ولكم " .



وأمّا ما يقال عند الإفطار من الصوم، والأكل والشرب، روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أفطر قال : "اللّهم لك صُمْنا وعلى رزقك أفطرنا فتقبّلْ منّا إنك أنت السميع العليم" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "من قال اللّهم لك صُمتُ وعلى رزقك أفطرتُ وعليك توكّلت كُتِبَ له من الأجْر بعدد من صام ذلك اليوم". وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ أحدكم لَتُوضَعُ مائدةٌ بين يديه فما تكاد أن تُرْفَعَ حتى يُغْفَرَله". قيل يارسول الله وكيف ذلك ؟ قال : "لأنه يُسَمِّى الله إذا وُضِعت المائدةُ وأكل ويحمَدُ الله إذا رُفِعت" . وعن عائشة رضى الله عنها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا نَسِىَ أحدُكم أن يذكر آسم الله فى أوّل طَعامه فليقل بآسم الله أوّلَه وآخرَه" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "من أكل طعاماً ثم قال الحمدُ لله الذى أطْعمنى هـذا الطعامَ ورزقَنيه بغير حول منّى ولا قُوّة غُفِرله ما تقدّم من ذنبه" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل قال : "الحمد لله الذى أطعم وسَقَى وسوّغه وجعل له مَخْرَجا" . ومن رواية أنس : "الحمـد لله الذى أطْعمنى وسقانى وهدانى وكلّ بلاء حسن أبلانى الحمدُ لله الرازقِ ذِى القوة اللّهم لا تَنْزِعْ منّا صالحا أعطيتَناهُ ولا صالحاً رَزَقْتناهُ وآجعلنا لك من الشاكرين" . وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل قال : "الحمـد لله الذى أطعمَنا وسقَانا وأشبعَنا وآوانا وكفانا" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ياعلىّ إذا شربتَ ماءً فقل الحمدُ لله الذى سقانا ماءً عَذْبًا فُراتا برحمته ولم يجعله مِلْحًا أُجَاجا بذنوبنا تُكْتَب شاكرا" . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أفطر عند أهل بيت قال لهم : "أفْطَرَ عندكم

الصائمون وأَكَل طعامكم الأبرارُ ونزلت عليكم الملائكة"؛ ورُوى : "وصلّت عليكم الملائكة وذكركم الله فيمن عنده" .



وأمّا ما يقال عند لباس الثوب و إلباسه، وعند النظر فى المرآة والتسريح وفى المجلس ؛ روى أبو سعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه أن رسول الله صــلى الله عليه وسلم كان إذا آستجدّ ثوبا ــ سمّاه بآسمه قميصا أو إزارا أو عمامةً ــ يقول : "اللّهمّ لك الحمدُ أنت كَسَوْتَنِيه اللّهم إنى أسألك من خيره (١) وخيرِ ما صُنِــع له وأعوذُ بك من شرّه وشرِّ ما صُنِــع له" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا علىّ إذا لَبِست ثوبًا فقل بآسم الله الحمــدُ لله الذى كسانى ما أُوَارِى به عَوْرَتى وأستغنى به عن الناس لم يبلغ الثوبُ رقبتَك حتى يُغْفَرَ لك يا علىّ من لَبِس ثوبًا جديدًا وكَسَا (٢) أسماله عُرْيانا أو مِسكينا كان فى جِوار الله وأَمْنِه وحفظه ما دام عليه منه سِلْك (٣)" . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن لَبِس ثوبًا فقال الحمــدُ لله الذى كسانى هــذا ورزقنيه من غير حولٍ منّى ولا قوّة غُفِر (٤) له ما تقــدّم من ذنبــه وما تأخر (٥)" . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا نظر فى المرآة يقول : "الحمــد لله رب العالمين الذى خلقنى وسوّى خَلْقِى وجعلنى بَشَرًا سَوِيًّا ولا حول ولا قوّة إلا بالله" . قال آبن عبــاس رضى الله عنهما : فما تركتُها منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : لا تَمَسّ

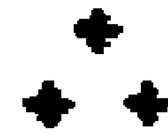
(١) الذى فى أذكار النووى : «أسألك خيره ...» بدون كلمة «من» .

(٢) فى الأصول : «أو كسا أسماله ...» والظاهر أن السياق يقتضى الواو دون «أو» . وقد ورد ما يشبه هذا الحديث فى أذكار النووى (ص ١١) وأداة العطف فيه «ثم» . (٣) السلك : الخيط .

(٤) فى الأصل : «إلا غفر له» بزيادة «إلا» وهى غير موجودة فى أذكار النووى .

(٥) كلمة «وما تأخر» غير موجودة فى أذكار النووى .

وجهَ من قالها سوءٌ أبدا . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا علىّ إذا نظرت فى المرآة فقل اللهم كما حسّنتَ خَلْقى فأَحْسِنْ خُلُقى وٱرزقنى " . وعن الرِّضى علىّ بن موسى عن أبيــه عن آبائه أبًا فأبًا رضى الله عنهم عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : "من أَمَرَّ المشط على رأسه ولحيته فى كل يوم سـبعَ مرّات وقال فى كلّ مرة سـبحانَ الله العظيم وبحمـده لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم لم يقارنه ذنب". وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من جلس فى مجلس كثُر لَغَطه فيه فقال قبل أن يقوم سبحانَك اللّهم ربّنا وبحمدك لا إلهَ إلّا أنت أَستغفرُك وأتوبُ إليـك غَفَر الله له ما كان فى مجلسه ذلك" .



وأمّا ما يقال فى المرض والرُّقَى والوَسْواس والحَرِيق؛ عن عائشة رضى الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسـلم كان يقول للمريض : " بٱسم الله تربةُ أرضنا وريقةُ بعضنا يُشفَى سقيمُنا بإذْنِ ربّنا[(1)] " . وعن عثمان بن أبى العاص الثقفىّ رضى الله عنه قال : قدِمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبى وَجَعٌ قد كاد يُبطلنى فقال لى صلى الله عليه وسلم : "ٱجعل يدك اليمنى عليه ثم قل بٱسم الله أعوذُ بعزة الله وقدرته من شرّ ما أَجِد سبعَ مرات[(2)]"، ففعلت ذلك فشفانى الله تعالى . وعنه صلى (١٥١)

---

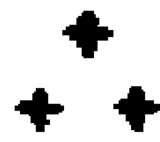
(١) كذا فى الأصول . وفى صحيح مسلم : «باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ليشفى به سقيمنا باذن ربنا وقال ابن أبى شيبة : يشفى وقال زهير : ليشفى به سقيمنا » . وفى أذكار النووى (ص ٦١) : « وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم وسنن أبى داود وغيرها ، إلى أن قال : باسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى به سقيمنا باذن ربنا ، وفى رواية تربة أرضنا وريقة بعضنا » اهـ . فما فى الأصول هنا يوافق بعض الروايات .

(٢) الذى فى صحيح مسلم : « عن عثمان بن أبى العاصى الثقفى أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا يجده فى جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

الله عليه وسلم : "من عاد مريضًا لم يحضر أجله فقال عنده سبع مرات أسألُ الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يَشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض" . وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض وضع يده اليمنى على خدّه وقال : "أذهِب البَاس، ربَّ النَاس وٱشفِ أنت الشافى شفاءً لا يغادر سَقَمًا" . وعن عبـد الله بن مسعود رضى الله عنه أنّه قرأ فى أُذُن مبتلًى فأفاق، فقال له النبيّ صـلى الله عليه وسلم : "ما قرأت فى أذنه"؟ قال: قرأت (أَفَحَسِبتُم أنّما خَلَقنَاكُم عَبَثًا) إلى آخر السورة. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لو أنّ رجلًا مُوقِنًا قرأ بها على جبلٍ لزال" . وعن ٱبن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من رأى صاحب بلَاء فقال الحمد الذى عافانى ممـا ٱبتلاكَ به وفضّلنى عليك وعلى كثيرٍ ممن خَلَق الله عافاه الله من ذلك البلاء كائنًا ما كان أبدا ما عاش" . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أَرْقِى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العَين فأضعُ يدى على صدره وأقول : أَذْهِب البَاس، ربّ الناس؛ بيدك الشفاءُ ولا كاشف له إلا أنت . وعن ٱبن عبّاس رضى الله عنهما رفع الحديث أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "هٰذه الكلمات دواءٌ من كلّ داء أعوذُ بكلمات الله التامّة وأسمائه كلها عامّة من السامّة والهـامّة وشرِّ العين اللّامّة ومن شرِّ حاسـدٍ إذا حَسَـد ومن شرّ أبى قِتْرَة(١) وما وَلَد ثلاثون من الملائكة أَتَوا ربَّهـم عزّ وجل فقالوا وَصَبٌ بأرضنا فقال خُذُوا تربةً من أرضكم وٱمسحوا بوَصَبكم رُقْيَةُ محمد صلى الله عليه وسلم من أخذ عليها صَفَدًا(٢) أو كَتَمَها أحدًا فلا أَفْلح أبدا" . وعن علىّ رضى الله عنـه قال : من ٱشتكى ضِرْسـه فليأخذ الترابَ من موضع سجوده ثم يمسح يده على الموضع الذى يشتكى، ثم يقول : بٱسم الله ، والشافى الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله . وعن أبى الدرداء رضى الله عنـه أنه أتاه رجل فذكر له أن

(١) أبو قترة : إبليس . (٢) الصفد (بفتحتين) : العطاء .

أباه ٱحتبس بولُه وأصابته حَصَاةٌ منعته البول فعلّمه رُقْيــة سمعها من النبيّ صلى الله عليه وسلم وهى : "ربُّنا الله الذى فى السماء تقدّس ٱسمك أمرُك فى السماء والأرض كما رَحْمَتُك فى السماء فٱجعل رحمتك فى الأرض وٱغفِرْ لنا حُوبَنَا(١) وخطايانا أنت ربّ الطيّبين فأَنْزِلْ شفاءً من شفائك ورحمةً من رحمتك على الوَجَع فيبرأ"؛ فأمره برَقْيه بها فرقاه بهــا فبرئ . وعن علىّ رضى الله عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فوافقه مُغْتَمًّا، فقال : يا محمد، ما هذا الغمّ الذى أراه فى وجهك؟ قال : "الحسن والحسين أصابتهما عَيْن" . فقال : يا محمد، صدِّق العينَ فإن العَيْنَ حقّ . ثم قال : أفَلَا عوّذتَهما بهؤلاء الكلمات؟ فقال : "وما هنّ يا جبريل"؛ فقال : "قل اللّهمّ ذا السلطان العظيم، ذا المَنّ القديم، ذا الوجهِ الكريم، والكلمات التامّات، والدعوات المُستجابات عافِ الحسنَ والحسينَ من أَنْفُس الجنّ وأَعْيُن الإنس" . فقالهــا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقاما يلعبانِ بين يديه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "عَوِّذُوا أنفسكم بهذا التعوُّذ فإنّه لم يتعوّذ المتعوِّذون بمثله" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "أَمَانٌ لك من الحَرَق أن تقول سبحانَك ربّى لا إلهَ إلّا أنت عليك توكّلتُ وأنت ربّ العرش العظيم" . وعنه أيضا رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ أمانٌ لك من الوَسْواس أن تقــرأ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَــكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَــابًا مَسْتُورًا ﴾ . ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ " .



وأمّا ما يقال عنــد دخول السوق وشراء الجارية والدابّة؛ رُوى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل السوق قال : "اللّهم إنّى أسألك من خير

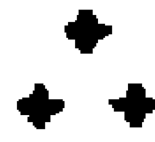
(١) الحوب : الإثم .

(١٥٢) هذه السوق وأعوذُ بك من الكفر والفُسوق" . وعن عليّ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا عليّ إذا دخلت السوق فقـل حينَ تدخل بٱسم الله وبالله أشهـدُ أن لا إلَهَ إلّا الله وأشهدُ أنّ محمدًا عبـدُه ورسوله يقول الله عز وجل عبدى هذا ذَكَرنى والناسُ غافلون اشهَدوا أنّى قد غفرتُ له" . وعن عمر ٱبن الخطاب رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من دخل السوق فقال لا إلَهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يُحيي ويُميت وهو حىٌّ لا يموت بيده الخيرُ وهو على كل شيء قدير كتب اللهُ له ألفَ ألفِ حسنة ورفع له ألفَ ألفِ درجة" أو قال : "وبنى له بيتًا فى الجنّة" . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أفاد أحدُكم الجـاريةَ أو المرأةَ أو الدابّة فليأخذْ بناصيتها وليَدْعُ بالبركة وليقُل اللّهم إنّى أسألك خيرَها وخيرَ ما جُبِلَتْ عليه وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما جُبِلت عليه فإن كان بعيرًا فليأخذ بذروة سَنَامه" .

\+ \+ \+

وأمّا ما يقال عند هبوب الرياح وفى الرعد والمطر، عن أُبَيّ بن كعب رضى الله عنه أن الريح هاجت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبّها رجلٌ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تسبّها فإنها مأمورة ولكن قل اللّهم إنى أسألك خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُمِرَتْ به وأعوذُ بك من شرّها وشر ما فيها وشرّ ما أُمِرت به" . وعن ٱبن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعْد أو البرْق قال : "اللّهم لا تقتلنا غَضَبًا ولا تقتلنا بغتةً وعافِنا قبل ذلك" . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : "اللّهم لا تُهْلِكنا بغضبك ولا تقتلنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك" . وعن أنَس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه فى شيء من الدعاء إلا فى الٱستسقاء

حتى يُرى بياضُ إبطَيه . وعن كعب بن مُرّة السلمىّ رضى الله عنه قال : كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه رجل فقال : يا رسول الله، ٱستسق اللهَ لمُضَر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال: "اللّٰهم ٱسقِنا غَيْثاً مُغيثا مَرِيعا مريئا عاجِلًا غيرَ رائثٍ نافعًا غيرَ ضارّ" . قال : فما جَمّعوا[1] حتى أَحْيَوْا[2] . فأَتَوْه فشكَوْا إليه المطرَ فقالوا : يا رسول الله قد تهدّمت البيوتُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه : "اللّٰهم حَوَالَيْنا ولا علينا"، فجعل السحاب يتقطّع يمينًا وشمالا . وعن عائشة رضى الله عنها أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى ناشئًا فى أُفُق السماء ترك العمل وإن كان فى صلاة، ثم يقول : "اللّٰهم إنى أعوذُ بك من شرّها"، فإن رأى مطرا قال : "اللّٰهم صَيِّبًا هَنِيئا" . وعنها رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى المطرَ قال : "اللّٰهم صيّبًا نافعا" .

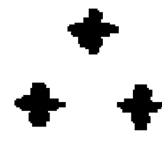


وأمّا ما يقال فى الخوف والشدائد، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا تخوّف الرجلُ من السلطان فليقل اللّٰهم ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم كن لى جارًا من فلان بن فلان يسمّى الذى يريد وشرّ الجنّ والإنس وأحزابهم وأتباعهم أن يفرُط علىّ أحدٌ منهم أو يَطْغَى عزّ جارُك وجلّ ثناؤك ولا إلٰهَ غيرُك" . وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من خاف من السلطان أو غيره فليفزَعْ إلى هذه الدعوة اللهُ أكبرُ وأعزُّ من خَلْقه جميعا اللهُ أكبرُ وأعزُّ مما أخافُ وأحذَر وأعوذ بالله الذى لا إلٰهَ إلّا هو مُمْسِك السموات السبع أن يَقَعْنَ على الأرض إلّا بإذنه من شرّ فلان

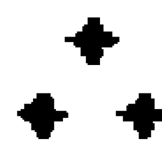
(١) جمّعوا : شهدوا الجمعة .

(٢) أحيوا : حيت ما شيتهم وحسن حالها أو صاروا فى الخصب . (عن القاموس) .

ابن فلان يا ربّ كن لى جارًا من شرّه عزّ جارُك وجلّ ثناؤك ولا إلهَ إلا أنت العليّ العظيم يقولهنّ ثلاثَ مرات إلّا أعاذه الله من شرّ ذلك". وعن عليّ رضى الله عنه قال : دعانى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا عليّ إذا اشتدّ بك أمرٌ فكبّر ثلاثًا وقل اللهُ أكبرُ وأعزّ من كل شيء واللهُ أكبرُ أعزّ من خَلقه وأقدر وأعزّ مما أخاف وأحذر اللّهم أدرأُ بك فى نحره وأعوذُ بك من شرّه فإنك تُكْفَى بإذن الله عزّ وجل".



١٥٢ وأمّا ما يقال فى الغضب والفزع؛ عن سليمان بن صُرَد رضى الله عنه قال: استبّ رجلان عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فجعل أحدُهما تحمرّ عيناه وتنتفخ أوداجهُ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّى لأعرف كلمةً لو قالها لذَهَب عنه الذى يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا فزع أحدكم فليقُلْ أعوذُ بكلمات الله التامّة(1) من غضبه وعذابه ومن شرّ عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرونِ فإنّها لم تضرّه". قال فكان عبد الله يعلّمها من بلغ من ولده، ومن لم يبلُغْ منهم كتَبها فى صَكٍّ وعلّقها عليه. وفى لفظ : "إذا فزع أحدكم فى النوم فليقل..." يعنى الكلمات؛ وفى طريق : كان خالد بن الوليد رجلا يفزع فى نومه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : "إذا اضطجعت للنوم فقل..." يعنى الكلمات، فقالها فذهب ذلك عنه.



وأمّا ما يقال فى السفر وركوب الدابّة والسفينة ودخول القرية؛ عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا توضّأ

(1) ذكر هذا الحديث فى أذكار النووى مرات ولم تذكر فيه كلمة «وعذابه».

فأسبغ وضوءه وصلّى ركعتين، ويقول وهو فى مجلسه مستقبِلَ القبلة: "الحمد لله الذى خلقنى ولم أكُ شيئا ربِّ أعِنّى على أهوال الدنيا والآخرة ومن مصيبات الليالى والأيّام فى سفرى فآحفظنى وفى أهلى فآخلُفنى" . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما آستخلَف العبد فى أهله إذا هو شدّ عليه ثيابَ سفره خيرًا من أربع ركعاتٍ يُصَلِّيهنّ (١) فى بيته يقرأ فى كل واحدة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول اللّهم إنّى أتقرّب بهنّ اليك فاجعلْهُنّ خليفتى فى أهلى ومالى (٢) قال فهو خليفته فى أهله وماله وولده ودُورِ حولَ داره حتى يرجعَ إلى داره" . وعن أنس رضى الله عنه قال : لم يُرِد النبىّ صلى الله عليه وسلم سفرًا قطّ إلا قال حين ينهض من جلوسه : "بك آنتشرتُ إليك وَجّهتُ (٣) وبك آعتصمت أنت ثِقتى ورجائى اللّهم آكفِنى ما يهمّنى وما لا أهتمّ به وما أنت أعلم به منّى اللّهم زوّدنى التقوى وآغفرلى ذنبى ووجّهنى إلى الخير أينما توجّهتُ" . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا ركبتم الإبل فتعوّذوا بالله وآذكروا آسم الله عليه فإنّ على سَنَام كلّ بعيرٍ شيطانا" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آستوى على بعيره يريد السفر كبّر ثلاثا ثم قال : "سبحانَ الذى سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقْرِنين وإنّا إلى ربّنا لَمُنْقَلِبُون اللّهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البِرّ والتقوى ومِن العمل ما ترضَى اللّهم هَوِّنْ لنا سفرنا هذا وآطْوِ عنّا بُعْدَه اللّهم أنت

(١) كذا فى شرح الإحياء طبع المطبعة الميمنية (ج ٦ ص ٤٠٣) . وفى الأصل «يضمهن» .

(٢) ورد هذا الحديث فى كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال الموضوع بهامش الجزء الثالث من مسند الامام أحمد بن حنبل طبع مصر سنة ١٣١٢ هـ (ج ٣ ص ٣٩) مع شىء يسير جدًا من النقص أو الزيادة . وفيه «فآجعلهن خليفتى فى أهلى ومالى فهن خليفة» الخ .

(٣) كذا فى الأصلين . وقد روى هذا الحديث فى منتخب كنز العمال : « اللهم لك انتشرت واليك توجهت وبك اعتصمت اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى اللهم اكفنى ما أهمنى وما لا أهتم له وما أنت أعلم به اللهم زودنى التقوى» الخ .

الصاحبُ فى السفر والخليفةُ فى الأهل والمـال والولد" ، وإذا رجع صلى الله عليه وسلم قالهن وزاد فيهن : "آئبون تائبون لربّنا حامدون" . وعن آبن عمر رضى الله عنهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قَفَل من حَجّ أو عُمرة فأشرف على شَرَف كبّر ثلاثا ثم قال : "لا إلٰهَ إلّا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير آئبون تائبون لربّنا حامدون صدق اللهُ وعدَه ونصر عبدَه وهزم الأحزاب وحدَه وكُلّ شيء هـالكٌ إلّا وجهَه له الحكمُ وإليـه تُرْجعون اللّهــم إنى أعوذ بك من وَعْثاء السفَر وكآبةِ المُنْقلَب وسوءِ المنظَر فى الأهل والمـال" . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَمَانٌ لأُمّتى من الغَـرَق إذا ركبوا السُّـفُن أن يقولوا بسم الله الرحمٰن الرحيم وما قدَرُوا اللهَ حَقّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعًا قبضَتُه يومَ القيامةِ والسمٰواتُ مَطْوِيّاتٌ بيَمِينه سبحانَهُ وتَعَالَى عَمّا يُشْرِكون باسم الله مَجْرِيها ومُرْساها إن رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل اللّيلُ قال : "يا أرضُ ربِّى وربُّكِ اللهُ أعوذُ بالله من شرِّكِ وشرِّ ما فيـك وشرِّ ما يدبّ عليكِ أعوذُ بالله من أَسَدٍ وأَسْوَدَ ومن الحيّة والعقرب ومن ساكِنِ البلد ومن والد وما وَلَد" . وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال لى رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "يا علىّ إذا نزلتَ منزلًا فقـل باسم الله اللّهم أنزِلْنا منزلًا مباركا وأنت خيرُ المُنْزِلين تُرْزَقْ خيرَه ويُدْفَعْ عنك شرُّه" . (١٥٤) وقال صلى الله عليه وسـلم : "مَنْ نزل منزلًا ثم قال أعوذُ بكلماتِ الله التامّات كلِّها من شرِّ ما خلق لم يضرّه شيءٌ حتى يرتحل من منزله ذلك" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إذا أردتَ الدخول إلى مدينة أو قرية فقـل حين تُعاينها اللّهم إنّى أسألك خيرَ هــذه القريةِ وخيرَ ما كتبتَ فيها وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما كتبتَ فيها اللّهــم ٱرزُقْنى خيرَها وأعوذُ بك من شرِّها

وحَبِّبْنا إلى أهلها وحَبِّبْ أهلَها إلينا" . وعن صُهَيب رضى الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم ير قريةً يُريدُ دخولَها إلا قال: "اللّهم ربَّ السمٰوات السبع وما أَظْلَلْنَ وربَّ الأَرَضِينَ السبع وما أَقْلَلْنَ وربَّ الرياح وما ذَرَيْنَ وربَّ الشياطينِ وما أَضْلَلْنَ أسألك خيرَ هــذه القــريةِ وخيرَ ما فيها وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها" . وعن أبى هُريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأراد أن ينزل قريةً عدَل إليها وقال : "اللهُ أكبرُ ثلاثا اللّهم آرزُقْنا خيرَها وآصرِفْ عنّا وَبَاءَها وحَبِّبْنا إلى صالح أهلها وحَبِّبْهم إلينا" .

\+ \+ \+

وأمّا مايقال فى الزواج والجماع؛ عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : "إذا تزوّج أحدُكم ثم دخل على أهله فليقُــل اللّهمّ بارك لى فى أَهْلِى و بارك لأهلى فىّ وآرزُقْنى منها وآرزقها منى وآجْمع بيننا ما جمعتَ فى خيرٍ وإذا فرّقتَ بيننا ففرّق فى خير" . وعن آبن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى صــلى الله عليه وسلم : "لو أن أحدكم إذا أتى أهلَه قال اللّهم جنّبنِى الشيطانَ وجَنِّب الشيطانَ ما رزقتَنى فإنْ قُضِى بينهما ولَدٌ لم يضرّه الشيطانُ"(1)، أو قال: "لم يُسلَّط عليه" .

\+ \+ \+

وأمّا ما يقال فى قضاء الدَّين ونجاح الحوائج؛ عن أبى سَعيد رضى الله عنه قال : دخل رســول الله صلى الله عليه وســلم ذات يوم المسجدَ فإذا هو برجل من

(1) كذا فى الأصلين . وفى أذكار النووى (ص ١٢٥) عن رواية صحيحى البخارى ومسلم : «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضى بينهما ولد لم يضره» وفى رواية البخارى : « ... لم يضره شيطان أبدا» .

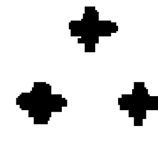
الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقـال : " يا أبا أمامة مالى أراك جالساً فى المسـجد فى غير وقت صلاة"؟ قال : هموم لزمتني وديون يارسول الله . قال : "أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك عنك وقضى عنك دينك"! قال : بلى يارسول الله. قال : "قل إذا أصبحتَ وأمسيتَ اللهم إنى أعوذ بك من الهمِّ[1] والحزَن وأعوذُ بك من العجز والكسَل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذُ بك من غلبـة الدَّين وقهر الرجال"؛ قال : ففعلت ذلك فأذهب الله همِّى وقضى عنِّى دَيْنى . وعن معاذ ابن جبل رضى الله عنه أنه تخلف عن صـلاة من الصلوات ففقده النبيّ صلى الله عليه وسلم. فلما جاءه قال: "ما خلفك عن الصلاة يامعاذ" ؟ قال : ليُوحنّا اليهودىّ علىّ دَيْنٌ فخشيتُ إن خرجتُ أن يلزمنى فلا أنا وصلتُ إليك ولا أنا كنتُ فى أهلى. فقال صلى الله عليه وسلم : " ألَا أُعلِّمك[2] كلماتٍ إذا قلتهن قضى الله عنك دينَك ولو كان مثـلَ الأرض أو مثل صـبِرٍ[3] ذهباً أو ورِقاً قضاه الله عنـك"! قلت : بلى يا رسول الله قال : " قل اللَّهمّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ الملكَ ممّن تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، رحمنَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما تُعطى منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء أسألك بعزتك ورحمتك أن تقضىَ عنِّى دَيْنى" . وعن عبد الله بن أبى أوْفَى الأسلمىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " من كانت له

(١) كذا فى أذكار النووى (ص ٣٩) . وفى الأصلين : «... من الجبن والحزن...» .

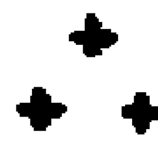
(٢) كذا فى نزل الأبرار بالعـلم المأثور من الأدعية والأذكار طبع مطبعة الجوائب (ص ٢٦٤). وفى الأصلين : «ألا أكلمك ...» .

(٣) صبر (بفتح فكسر) : جبل من جبال اليمن مطل على قلعة «تعز» المدينة المشهورة بها . (عن تاج العروس) .

حاجةٌ إلى الله أو إلى أحد من بنى آدم فليتوضّأ وليُحسِنِ الوضوءَ وليصلِّ ركعتين ثم (١٥٥) لْيُثْنِ على الله عزّ وجلّ و يصلِّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم ليقُلْ لا إله إلا الله الحكيم الكريم سبحانَ الله ربِّ العرش العظيم والحمدُ لله ربّ العالمين أسألك مُوجباتِ رحمتك وعزائمَ مغفرتك والغنيمةَ من كلِّ بِرّ والسلامةَ من كلِّ ذنب لا تدع لى ذنباً إلا غفرتَه ولا همًّا إلا فرّجتَه ولا حاجةً هى لك رِضًا إلا قضيتَها". وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ إذا خرجتَ من منزلك تريدُ حاجةً فاقرأْ آيةَ الكُرْسىّ فإنّ حاجتَك تُقْضَى إن شاء الله تعالى". وعنه رضى الله عنه قال : "إذا أراد أحدُكم الحاجةَ فليُبَكِّرْ فى طلبها يوم الخميس وليقرأْ إذا خرج من بيته آخر سورةِ آلِ عِمْرانَ وآيةَ الكرسىّ وإنّا أنزلناه فى ليلة القدر وأمَّ الكتاب فإنّ فيها قضاءَ حوائج الدنيا والآخرة".



وأمّا ما يقال فى ردّ الضالّة ؛ عن مكحول رضى الله عنه أنه كان يدعو فى الضالّة : اللّهم هادىَ ورادَّ الضُّوَالِّ ارْدُدْ علىّ ضالّتى ولا تُعَنِّنى بطلبها ولا تَفْجَعْنى بمُصيبتها فإنها من رزقك وعطائك . وكان يقول فى الآبق : اللّهم ضَيِّق عليه البلادَ واجعلْه فى أضيقَ من ضرورة الحمل(١) حتى تردَّه .



دعاء الاستخارة ؛ عن أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أراد الأمرَ : "اللّهم خِرْ لِى واخْتَرْ لى". وعن جابر

(١) كذا فى الأصل . وقد راجعنا كثيرا من كتب الحديث والأدعية فلم نوفق له . وفى كتاب الفوائد فى الصلات والعوائد المطبوع بالمطبعة الكاستلية سنة ١٢٩٦ هـ (ص ٢٨) وردت العبارة الآتية فى عزيمة العبد الآبق وهى : «اللهم إنى أسألك يا مالك السموات والأرض ومن فيهن أن تجعل اللهم السماء والأرض وما فيهما على عبد فلان بن فلانة أضيق من حلقة حتى يرجع الى مولاه برحمتك يا أرحم الراحمين» .

ٱبن عبد الله رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمنا الاستخارةَ فى الأمور كما يعلِّمنا السورةَ من القرآن، يقول: " إذا همّ أحدكم بالأمر فليركَعْ ركعتين من غير الفريضة ثم ليقُل اللّٰهم إنّى أستخيرُكَ بعلمك وأستَقْدِرُكَ بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدِر ولا أقدِر وتعلَم ولا أعلَمُ وأنت علّامُ الغيوب اللّٰهم إنْ كنت تعلم أن هذا الأمرَ خيرٌ لى فى دِينى ومَعاشى وعاقبةِ أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فٱقدُرْهُ لى [ويسّره لى ثم بارك لى فيه](١) وإن كنتَ تعلم أن هــذا الأمرَ شرٌّ لى فى دِينى ومعاشى وعاقبةِ أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فٱ[صْرِفْه عنّى وٱ](١) صرِفْنى عنه وٱقدُرْ لى الخيرَ حيث كان ثم رَضِّنى به ويُسَمّى حاجتَــه " .

---

## ذكر ما ورد فى أسماء الله الحسنى والاسم الأعظم

قال الله تعالى: (وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا). وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن لِلّٰهِ عزّ وجل تسعةً وتسعين ٱسماً مائةً غيرَ واحدٍ إنّه وِترٌ يُحبّ الوترَ مَن أحصاها دخل الجنــة هو الله الذى لا إلٰهَ إلّا هُوَ الرحمن، الرحيم، الملك، القُدُّوس، السَّــلَام، المُؤْمِن، المُهَيْمِن، العزيز، الجبّار، المتكبِّر، الخالق، البارئ، المصوِّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزّ، المُذِلّ، السميع، البصــير، الحَكَم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلىّ، الكبير، الحفيظ، المُقِيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المَجِيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القوىّ، المتين، الولىّ، الحميد،

---

(١) زيادة عن كتاب الأذكار للنووى (ص ٦٥) .

المُحْصِى ، المُبْدِئ ، المُعيد ، المُحيى ، المُميت ، الحىّ ، القيّوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصَّمَد ، القادر ، المقتدِر ، المقدِّم ، المُؤَخِّر ، الأوّل ، الآخِر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعال ، البرّ ، التوّاب ، المنتقم ، العفوّ ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المُقْسِط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضارّ ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصَّبُور .

وقد نبّـه البُونى رحمه الله فى اللُّمَعة النورانية على كيفية العـلم والعمل بأسماء الله الحسنى وخاصيّة كل آسم منها ، ورتّب ذلك وجعله عشرة أنماط فقال :

## النمـــط الأوّل

مِنْ نَظْمِ الأسماء آسمُه الله ، والإله ، والربّ ، والخالق ، والبارىء ، والمصوّر ، والمبدئ والمُعيد ، والمُحيى ، والمُميت . قال البونى : هذا النمط عشرة أسماء لا تكون إلّا أذكارا للذاكرين [على آختلاف](1) أحوالهم . فالله والإله ذِكْرُ الأكابر والمُوَلَّهين فى الغالب . والربُّ ، والخالقُ ، والبارئُ ذكر الأكابر من السالكين المُريدين(2) . والمصوّر ، والمبدئ ، والمعيد ، والمُحيى ، والمُميت ذكر عباد الله المتعبِّدين والمتبصّرين(3) .

## النمـــط الثانى

الأحد ، الواحد ، الصمد ، الفعّال ، البصير ، السميع ، القادر ، المقتدر ، القوىّ ، القائم . قال : هذه الأسماء العشرة سِلْكٌ واحدٌ فى تقارب الأذكار ؛ وهذا القسم فيه أذكار السالكين المتعلّقين بأسرار التوحيد ذكرُهم الأحد والواحد . وأمّا الصمد

(١) الزيادة عن اللمعة النورانية .

(٢) فى إحدى نسختى اللمعة النورانية : من المسلكين المربين :

(٣) فى إحدى نسختى اللمعة : "المعتبرين والمتبصرين" .

فذكر يصلح للرتاضين بالجوع[1]، فذاكره لا يُحِسّ بألم الجوع البتّـة ما لم يُدخل عليه ذكرا غيره[2] . والفعّال آسم للمغلوبين بالخواطر والوساوس وكثرة الأفكار وآغتمام القلب [بهذا السبب][3]؛ فهما ذكره مَنْ هذه صفتُه تقلّبت[4] أفكاره إلى ما يقع له به سرور وفرح. وأما السميع والبصير فتنزيه جليل، وهو ذكر يصلح للاحّين فى الدعاء فإنه ربما أسرعت لهم الإجابة . وأمّا القـادر، والمقتـدر، والقوىّ، والقائم فذكر يصلح لأصحـاب الإعياء والحِرَف الثقيلة؛ ولو علم سرّه من يعانى الأثقال وآستدامه لم يحسّ بثقلٍ فيما يتعاطاه البتّة؛ ومن نقشهـا[5] فى فص خاتم وتختّم به أدرك ذلك لوقته؛ ومن ضعُف عن شيء ما وعلّقه عليه وذَكَره قوِى لوقته .

## النمـــط الثـالث

الحىّ[6] ، القيُّوم، الرحمن ، الرحيم، الملك القـدير[7] ، العلىّ، العظيم، الكبير، المتعال . قال : هذا القسم من الأسمـاء يحتوى على أذكار المراقبين، وفيه أعمـال جليـلة البرهان . فالحىّ القيُّوم اسمان جليلان ، ذكرٌ لأهل الحضرة ، وهو من أذكار إسرافيل وملائكة الصُّور أجمعين ، يصلُح أن يُذْكَر من مبـادئ الفجر إلى طلوع الشمس، يجد ذاكره من الزيادة والخشـية وَالتطلُّع إلى طلب الفضائل ما لم

---

(١) فى نسختى اللغة النورانية : "للتريضين" .

(٢) كذا فى إحدى نسختى اللغة . وفى الأخرى والأصلين : "ما لم يدخل عليه ذكر غيره" .

(٣) الزيادة عن اللغة النورانية .

(٤) فى نسختى اللغة النورانية : "تقلت" .

(٥) فى الأصلين ونسختى اللغة النورانية : "ومن نقشهم" بميم الجمع . وظاهر أن قواعد اللغة لا تقتضيها

(٦) كذا فى إحدى نسختى اللغة . وفى الأصلين وفى نسخة أخرى من اللغة : "ياحى ياقيوم الرحمن" الخ .

(٧) كذا فى إحدى نسختى اللغة . وفى نسخة أخرى منها وفى الأصلين : "القدوس" ووجد بأحد الأصلين كلمة "القدير" فوق كلمة القدوس .

يعهده قبلُ؛ ومن نقش الاسمين عند طلوع الشمس [من يوم الجمعة](١) مستقبلَ القبلة على ذكرٍ وأمسكه عنده أحيا الله ذِكْرَه إنْ كان خاملا، وأحيا رزقه(٢) إنْ كان قليلا . وأمّا الرحمن الرحيم فأذكارٌ شريفة للمضطرين وأمانٌ للخائفين لا ينقُشه أحدٌ فى خاتم فى يوم جمعة آخر النهار فيرى ما يكرهه مادام عليه . ومن أكثر من ذكره كان ملطوفًا به فى كل أموره . وأمّا الملك والقدير و[ذكر](٣) يذكر عند كل ذى ملك وقدرة فإنه ما من مَلِك يستديم هذا الذّكرَ فى عموم أوقاته إلّا ثبت مُلكه وانبسطت قدرته؛ (١٥٧) ويصلح للسالك الذى تغلبه شهواتُ نفسه؛ فإنه ما يستديم ذكره مَنْ هذا مقامُه إلا بعث الله إليه قوّةً مَلَكيّة تؤيّده وتنصره على من يخالفه من عوالمه . وأما العلىّ العظيم فللتنزيه . والكبير المتعال مناسب للتنزيه أيضا ، وهما اسمان لائقانِ(٤) بأهل التعظيم من أرباب الأحوال ليس للعامّة فى الذكر بهما(٥) قسم .

## النمـــط الرابع

المهيمن، المُقيت، العزيز، الجبّار، المتكبّر، المحيط ، الحفيظ، القاطر، المجيد ذو الجلال . قال البونى : أمّا المهيمن ، والمُقيت فللعلم والاستيلاء(٦) والمراقبة فى الجزئيات والكليات . والعزيز ، والجبّار ، والمتكبّر فمن أسماء صفات الذات اللازمة للخوف والرهبة والعظمة، لا يذكرها(٧) ذليل إلا عزّ، ولا حقير إلا ارتفع، ولا بين يدى جبّار إلا ذلّ وخضع ، ولا يذكرها(٧) ملك من ملوك الأرض إلا وجد

(١) هذه الكلمة ساقطة من نسختى الممة .

(٢) كذا فى نسختى الممة . وفى الأصلين : "أحيا الله ذكره وإن كان خاملا وأحيا رزقه وإن كان قليلا" .     (٣) زيادة عن نسختى الممة النورانية .

(٤) كذا فى نسختى الممة النورانية . وفى الأصلين : «وهما اسمان يليق» .

(٥) فى الأصلين : «بهم» .     (٦) فى نسختى الممة النورانية : «فللعلم بالأشياء» .

(٧) فى الأصلين ونسختى الممة بميم الجمع، وقواعد اللغة تقتضى ما وضعناه .

فى نفســه ذِلّةً وآنكسارا . وأما الحفيظ فإنه آسم سريع الإجابة للخائفين فى الأسفار. وأما المحيط، والمجيد، والقاطر، وذو الجلال، فأسماء التنزيه وزيادات فى التوحيـــد .

## النمـــــط الخـامس

العليم، الحكيم، البديع، النور، القابض، الباسط، الأوّل الآخر، الظاهر، الباطن . قال : هذا القسم من الأسماء جليل القدر عظيم الشأن. فأمّا العليم، والحكيم فللتوحيد الخاص، لا يصلحان إلا لمَنْ أُبْهِمَ عليه أمرٌ من كشف سرٍّ من أسرار الله تعالى يعسُرُ على الفكر إدراكُه، فإنه إذا آستدام ذِكْرَ العليم الحكيم يسّر الله عليه علم ماسأل (١) وعرّفه الحكمة فيه، ومنه آسمه البديع أيضا [مثل ذلك] . وأمّا النُّور، والباسط، والظاهر، فذكر أرباب المكاشفات. ومن أراد أن ينظر شيئا فى منامه فليذكر هذه الأسماءَ على طهارة وهو فى فراشه إلى أن ينام على هذا الذكر، ويُعْمِلْ همّتَه فيما يريده فإنه يُمَثَّلُ له فى نومه كشف ذلك . وأمّا القابض، والأوّل، والآخر، والباطن، فكلها أسماء للتعظيم والتوحيد .

## النمـــــط السادس

الحليم، الرءوف، المنّان، الكريم، ذو الطَّوْل، الوهّاب، النَّفُور، الغافر، العَفُوّ، المُجيب . قال : هذا النَّمَطُ من الأسماء عليه مدار إبقاءِ الوجود ودفع الأضداد وجمع المتفرّق . أما الحليم، والرءوف، والمنّان، فذكر للخائفين ؛ ما داومه مَنْ يخاف شيئا إلا أوجده الله تعـالى بَرْدَ الطُّمَأْنينة وسكّن رَوْعَه . قال البونى : وذكر [لى] (٢) من له

(١) هكذا فى الأصلين . والذى فى نسختى اللمة : "علمه فيما يناله، وعرفه الحكمة فيما سأل" .

(٢) زيادة عن اللمة النورانية .

اطلاع أنه من استدام هذا الذكر إلى أن يغلب عليه حال منه على خلق معدّة ثم أمسك النارَ لم تعدُ عليه، ولو تنفس حينئذ على قِدْر تغلي سكن غليانُها بإذن الله تعالى، ولا يكتبها أحد و يقابل بها من يخاف منه إلّا أطفأ الله شرّه عند رؤيته، ولا يستديم هذا الذكر مَنْ غلبته شهوتُه إلا نزع اللهُ منه التروعَ إليها فى أثناء ذكره . وأما الكريم، الوهّاب، وذو الطّول، فلا يستديم على هذا الذكر مَنْ قُدر عليه رِزْقُه ومسّته حاجةٌ إلا يسّر الله عليه من حيث لا يشعر، ومن نقش هذه الأسماءَ وعلّقها عليه لم يدر كيف يُيسّر الله عليه المطالب من غير عُسْر . وأما الغفور، والغافر، والعفوّ، فنظمٌ متقاربٌ لسؤال دفع المُؤْلِم خصوصا من آلام الدين والدنيا . وأمّا المجيب، فيذكر فى آخر الدعوات .

---

## النمـــط السابع (١٥٨)

الكافى، الغنىّ، الفتاح، الرزاق، الوَدُود، اللطيف، الواسع، الشهيد، نِعْم المولى ونعم النصير . قال : هذا النَّمَطُ من الأسماء جليل القدر، به يُنَزِّل الله الرغائب من كل مفضول به على أحد من عباده . فاسمه الكافى، والغنىّ، والفتاح، والرزّاق لا يذكرُ أحدٌ هـذه الأسماءَ الأربعةَ وهو يتمنّى شيئا لم تبلغه أمنيّته إلا بلّغه بإذن الله تعالى من جهةٍ لا يعتمد عليها لم تخطر بباله . لا يذكر أحد هـذا الذكر على القليل إلا كثّره الله ولا على طعام إلا ظهرت فيه زيادة، ولا يذكره مَنْ هو فى رتبة وهمّته طالبةٌ أعلى منها إلا يسّر الله له الوصولَ إليها . وأمّا الوَدُود، واللطيف، والواسع، والشهيد، فنَمَطٌ جليل النظم لأرباب الجوع والخلوة، واللطيف خصوصا لتفريج الكرب فى أوقات الشـدائد لا يضاف إليه غيره، لا يذكره من يُؤْلِمه شىء فى نفسه وبدنه إلا أزاله الله عنه أثناء الذكر .

(١) فى الأصلين ونسختى الفتح : «ولا يكتبهم أحد و يقابل بهم الخ» .

## النمـــــط الثامن

الشديد، ذو القوة، المتين، السريع، الرقيب، المقتدر، القـاهر، الوارث، الباعث، القوى[1] . هذا النمط من الأسماء عظيم الشأن . فأما الشديد، وذو القوة، والقاهر، والمقتدر، فهى أسماء القهر لا يذكرها[2] ضعيف الهمّة إلا قويت نفسه، ولا يدعو بها[()] أحد على ظالم فى آحتراق[3] الشهر فى السابعة من الليل فى بيت مظلم حاسرَ الرأس على الأرض لا حائل بينه وبينها[4] مائة مرة يقول فى آخرها : يا شـديد خُذْ لى بحقى من فلان؛[5] ولا يشخّص[6] شيئا فالله أعلم بما يعمل . قال : وقد جُرِّب مِئين من المرّات . ولا ينقشها[2] أحد فى خاتم ويختم به إلا ألبسه الله تعالى مهابة يُدْرِكها من نفسه ويُدْركها غيره منه ، ويرتاع منه كل جبّار عَنيد عند رؤيته ، حتى كأن الجبال على كاهله ما دام ينظر إلى من هو معـه . وأمّا السّريع، والرقيب، والمتين، فذكر لأرباب المراقبة فى الأفعال تنفتح لهـم بذلك مكاشفات وأسرار . وأمّا الوارث، والباعث، فلحكمة الاعتبار والتصديق بآثار القدرة .

---

(١) فى إحدى نسختى اللمة النورانية يدل اسم القوي بين السطور اسم « الشكور » . ولم يرد فى نسخة اللمة الثانية شىء بعد كلمة الباعث .

(٢) فى الأصلين ونسختى اللمة : «لا يذكرهم ... ولا يدعو بهم» ، وكذلك ما عليه رقم (٢) .

(٣) فى المخصص (ج ٩ ص ٣١) : وامتحاق القمر احتراقه يوم المحاق آخر الشهر لأن الشمس تمحق الهـلال فيه ولا تبينه .

(٤) كذا فى إحدى نسختى اللمة . وفى نسخة أخرى والأصلين : «لا حائل بينه وبينها يقول فى آخرها مائة مرة : يا شديد خذ لى الخ» .

(٥) فى الكلام حذف يدل عليه السياق بأن يقدر : «إلا استجيب له» .

(٦) كذا فى الأصلين وإحدى نسختى اللمة . وفى أخرى : «ولا يخصّنى» .

## النمـــــــط التـاسع

التوّاب، الشاكر، الولىّ، الحسيب، الوكيل، القريب، الصادق، البرّ، الباقى، الخلّاق . قال : هذا القسم مرتّب على سلوك مقامات السالكين ؛ فالتوّاب للتائبين، والشاكر للشاكرين، والولىّ للأولياء، والحسيب لأهل الكفاية، والوكيل للمتوكّلين، والقريب من أهل القرب، والصادق مع الصادقين، والبرّ مع أهل البرّ، والباقى مع الشهداء ، والخلّاق لذوى الآعتبار . وللشايخ فى هـذا الميدان مجالٌ رحْب بحسب آختلاف أحوالهم .

---

## النمـــــــط العاشر

الهـادى، الخبير، المبين، علّام الغيوب، ذو الجلال والإكرام، القُـدُّوس، السلام، المُؤمِن ، وينتظم فى ذلك المُعِزّ، والمُذِلّ ، وما فى آخر سورة الإخلاص . قال : فالهادى، والخبير، والمبين، لمن أراد كشف عواقب الأمور بجُوع وسهر؛ ويَذْكُرُ هـذه الأسماء وعلى رأس مائة من أعداد الذكر يقول : آهـدنى يا هادى، وخبِّرنى يا خبير، وبيِّن لى يا مُبين؛ ويسمّى ما يريده وذلك فى جوف الليل، فإذا أدركه النوم مُثِّل له كشفُ ما أراده من أىّ نوع شاء . هذا مختصر ماقاله البونى فى ترتيب أسماء الله الحسنى .

(١٥٩) وأمّا ما ورد فى الآسم الأعظم؛ فقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يقول : اللّهـم إنى أسألك أنى أشهَدُ أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد، الصمد، الّذى لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكنْ له كُفُوًا أحد؛ فقال : "لقد سألتَ اللهَ بالآسم الذى إذا سُئِل به أعطى وإذا دُعِى به أجاب" . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا رجل من

الأنصار يقال له أبو عيَّاش[1] الزُّرَقِيّ يصلِّي، فدنوت منه، فدعا فى صلاته : اللّهم إنى أسألك — بأن لك الحمدَ لا إلٰهَ إلا أنت المنّان بديعُ السمٰوات والأرض ذو الجلال والإكرام — أن تغفرَ لى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد دعا اللهَ باسمه الأعظم الذى إذا دُعِى به أجاب وإذا سُئِل به أعطى " . وعن أسمـاء بنت يزيد رضى الله عنهـا أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وفاتحة سورة آل عمران ﴿الٓمٓ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ " . وعن أبى أُمَامة واسمه صُدَىّ بن عَجْلَان الباهِلِيّ رضى الله عنـه قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " إن اسم الله الأعظم لفى ثلاث سور من القرآن فى البقرة وآل عمران وطه " . قال فالتمستها فوجدت فى البقرة آية الكرسى ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ، وفاتحة آل عمران ﴿الٓمٓ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وفى طه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ .

والأدعية المختارة كثيرة وقد أتينا منها بما فيه كفاية لمن توجّه إلى الله تعالى وسأله . ولنختم هذا الباب بمـا ختم به البخارىّ كتابه : كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن : سبحانَ الله وبحمده سبحانَ الله العظيم .

(١) فى أحد الأصلين : « أبو العباس » وفى الآخر : « أبوعياس » بالسين المهملة وهو محرف عن أبى « عياش » الزرقىّ الأنصارى وهو صحابى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث صلاة الخوف بعسفان كما فى تهذيب التهذيب .

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس فى أحد الأصلين الفتوغرافيين :

تمّ الجزء الخامس من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرىّ ،
والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبىّ بعده محمد وآله وسلم
يتلوه إن شاء الله الجزء السادس

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس فى الأصل الثانى الفتوغرافى :

كمل السفر الخامس من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب، على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهّاب بن محمد بن عبد الدائم البكرىّ التّيمىّ القرشىّ، عُرِف بالنُّوَيرىّ، عفا الله عنهم .

ووافق الفراغ من كتابته فى يوم الأحد المبارك لثمان بقين من شهر ربيع الأوّل سنة آثنتين وعشرين وسبعمائة بالقاهرة المُعِزّيّة .

يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء السادس القسم الخامس من الفن الثانى فى الملك وما يحتاج إليه وما يجب له على الرعية وما يجب للرعيّة عليه إن شاء الله تعالى .

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيّه وآله وصحبه ، وسلّم تسليما كثيرا، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع نقعة الحمزاوي بالظاهر ت ٩٠٠٠٥
القاهرة

تراثنا

# نهاية الأرب

في

# فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

٦٧٧ هـ - ٧٣٢ هـ

## السفر السادس

---

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهرة ت ٩٠٠١١٨
القاهرة

# فهرس

## السفر السادس

### من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

---

القسم الخامس — صفحة

فى الملك وما يشترط فيه وما يحتاج اليه وفيه أربعة عشر بابا

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

# القسم الخامس

## فى المَلِك وما يشترط فيه وما يحتاج إليه وما يجب له على الرعيّة وما يجب للرعية عليه ، ويتصل به ذِكر الوزراء وقادة الجيوش وأوصاف السلاح ووُلاة المناصب الدينية والكتّاب والبلغاء

وفيه أربعة عشر بابا

---

## الباب الأوّل

### من هذا القسم فى شروط الإمامة الشرعيّة والعُرفيّة

أما الشروط الشرعية، فقد ذكر منها الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسين ابن الحسن بن محمد بن الحليم الحَلِيمىّ الجُرْجانى الشافعىّ (١) — رحمه الله — فى كتابه المترجم بـ"المنهاج" لُمْعة واضحةَ البيان، حسنةَ التِّبيان؛ آكتفينا بإيرادها عما سواها، وآقتصرنا عليها دون ما عداها؛ لجمعها أكثر الشروط مع إيجاز اللفظ وإصابة الغرض، على ما ستقف عليه إن شاء الله تعالى .

قال الحَلِيمىّ : إذا أراد أهل الآجتهاد نَصْبَ إمام حين لا إمام لهم ، فأول شرائطه أن يكون من قريش . والثانية أن يكون عالمًا بأحكام الدين من الصلاة وأَخْذ

(١) توفى سنة ٤٠٣ هـ وكتابه المنهاج يقع فى نحو ثلاثة مجلدات فيه أحكام كثيرة ومسائل فقهية وغيرها مما يتعلق بأصول الإيمان وآيات الساعة وأحوال القيامة . عن كشف الظنون .

الصدقات ومصارفها والقضايا والجهاد بالمسلمين وقَسْم الغنائم والنظر فى حدود الله تعالى إذا رُفِعَت إليه فيقيمَها أو يدرأَها وغير ذلك . والثالثة أن يكون عَدْلا فى دينه وتعاطيه ومعاملاته .

فأما اشتراط النسب ؛ فلما رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الأئمة من قريش ..." وأنه صلى الله عليه وسلم قال: "قدموا قريشا ولا تَقَدَّموها ولولا أن تَبْطَرَ قريش لأخبرتها بما لها عند الله تعالى" .

وأما اشتراط العلم بأحكام الصلاة والزكاة والجهاد والقضاء والحدود والأموال التى يتولّاها الأئمة، فإنه لا يُمكنه أن يقوم بحقّها والواجب فيها إلا بعد العلم، لتكون معالم الدنيا قائمة، وأحكام الله تعالى بين عباده جارية . فإذا لم [يكن](١) عنده من العلم ما يتوصّل به إلى ما يحتاج الإمام إليه فوجودُه وعدمه بمنزلة واحدة . وينبغى أن يكون شجاعا شَهْما، لأن رأس أمور الناس الجهاد، فإذا كان من يتولّى أمورهم جبانًا فَشِلا منعه ذلك من مجاهدة المشركين وحَمَله على أن يترك كثيرا من حقوق المسلمين فكان ضررهم به أكثر من نفعهم .

وأما اشتراط العَدالة، فلأن الإمام إذا كان يتولّى حقوقَ الله تعالى وحقوق المسلمين فَمَنصِبُه منصبَ الأمانة ائتمانٌ له على الحقوق، ولا يجوز أن يُؤْتَمَن على حقوق الله تعالى مَن ظهرت خيانتُه لله ولعباده، ولأن الفاسق ناقصُ الإيمان فلا يجوز أن يُشرف بالتّوْلية على المسلمين الذين فيهم مَنْ هو كامل الإيمان وأقربُ إلى كماله منه، كما لا يجوز أن يُوَلّى شيئا من أمور المسلمين كافر، ولأن الفاسق لا يُرْضَى للشهادة فكان بألّا يُرْضَى للحُكم وهو أرفع منزلةً من الشهادة أولى ، وإذا لم يُرْضَ للحكم كان بألّا يُرْضَى للإمامة التى هى أجمعُ من الحكم أولى، والله أعلم، ولأنه إذا لم يكن يُصلح

(١) زيادة يقتضيها السياق .

نفسَه، إما تضييعا لها أو عجزا عن إصلاحها ، فهو فى حقّ غيره أكثرُ تضييعا ولإصلاحه أشدُّ عجزا، ومَن كان بهذه المنزلة فهو أبعدُ الناس من موقف الأئمة .

فصـــل — وإذا آجتمعت هذه الشرائط التى ذكرناها فى رجل، فإن كان الإمام الذى تقدّمه ولّاه فى حياته ما يتولّاه إما آستخلافًا عند عجزه عن القيام بما عليه فيه، وإما آنخلاعا إليه منه فلا آعتراض فى ذلك عليه ، وإن كان أوصى له بالولاية بعد موته فالأظهر جواز ذلك . قال : فإن لم يكن لمن جمع شرائط الإمامة عهدٌ من إمام قبله وآحتيج إلى نصب إمام للسلمين فآجتمع أربعون عدلا من المسلمين أحدُهم عالم يصلُحُ للقضاء بين الناس، فعقَدُوا لرجل جَمَع الشرائط التى تقدّم ذكرها بعد إمعان النظر والمبالغة بالآجتهاد، ثبَت له الإمامة ووجبت طاعته . وينبغى أن يبدأ العالم الذى بينهم بالعقد ثم الذين ليسوا فى العلم والرأى مثله .

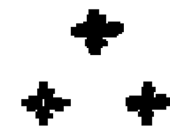
فصـــل — قال: وإذا لم يجدوا من قريش من توجد فيه شرائطُ الإمامة — وهذا بعيد جدّا وإنما هى مسائل توضع لآحتمال الوقوع — فعند ذلك يكون الإمام من أقرب القبائل إلى قريش، فيكون من كِنانة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله آصطفى كِنانةَ من العرب وآصطفى قريشا من كنانة"؛ فإن لم يوجد فيهم كان من أقرب العرب من كنانة، حتى إذا آستُوفِى بنو إسماعيل لم يُعْدَل إلى بنى إسحاق، وإن كانوا أقرب لأنهما آبنا إبراهيم، ولكن الى جدّهم من العرب، ثم الأقرب فالأقرب.

فصـــل — وإذا وُجد قرشىّ عالم غير عدل وقرشىٌّ عدلٌ غير عالم وكنانىٌّ عالم عدل، قال الحليمىّ : الأشبه عندى أن يُقَدَّم القرشىّ العدل، فإن أَشْكَلَ عليه شىء عَمِل فيه برأى أهل العلم .

فصـــل — وإذا خَلَعَ الإمامُ نفسَه ولم يُوَلِّ أحدا مكانه، فإن كان الإمام صالحا للإمامة بالإطلاق فذلك منه غير نافذ، لأنه نُصِب ناظرًا للسلمين، وخَلْعُه نفسَه فى هذه

الحـالة ضررٌ عليهم، لأنه يدعهم بلا إمام ويعرّضهم للآجتهاد فى نصب غيره، وقد يُصيبون فى ذلك أو يُخطئون .

فصـــل — وإذا أمَّرَ الإمام أُمراءَ وآستقضَى قضاةً ثم مات، كان أُمراؤه وقضاته على أعمـالهم كما كانوا فى حياته ولا ينعزلون، وليسوا كالوكيل ينعزل بموت الموكِّل، لأن الوكالة نيابة، والولاية شركة. هذا ما قاله الحَلِيمىّ، والله تعالى أعلم. فهذه الشرعية التى لا بدّ منها فى حقّ الإمام .



وأما الشروط العُرفية والآصطلاحية، وهى ما ينبغى أن يأتيه المَلِك من جميل الفِعَال، ويَذَرُه من قبيح الخِصال .

قال معاوية بن أبى سفيان : مهما كان فى المِلك فلا ينبغى أن تكون فيه خمسُ خصال : لا ينبغى أن يكون كذّابا، فإنه إذا كان كذّابا فوعد بخير لم يُرْجَ، وإن وعد بشرّ لم يُخَفْ؛ ولا ينبغى أن يكون بخيلا، فإنه إذا كان بخيلا لم يناصحه أحد، ولا تصلُح الولاية إلا بالمُنَاصَحة؛ ولا ينبغى أن يكون حديدا، فإنه إذا كان حديدا مع القـدرة هَلَكت الرعيّة؛ ولا ينبغى أن يكون حسودا، فإنه إذا كان حسودا لم يُشَرِّف أحدا، ولا يصلُح الناس إلا على أشرافهم؛ ولا ينبغى أن يكون جبانا، فإنه إذا كان جبانا آجترأ عليه عدوّه .

وقال آبن المُقَفَّع : ليس للملك أن يغضَب، لأن القدرة من وراء حاجته؛ وليس له أن يَكْذِب، لأنه لا يُقْدَر على آستكراهه على غير ما يريد؛ وليس له أن يبخَل، لأنه أقلّ النـاس عذرا فى خوف الفقر؛ وليس له أن يكون حقودا، لأن خطره أعظم من المجـازاة .

وقالت الحكماء : يجب على المَلِك أن يتلبّس بثلاث خِصال : تأخيره العقوبة فى سلطان الغضب، وتعجيل مكافأة المحسِن، والعمل بالأَناة فيما يَحْدُث ؛ فإن له فى تأخير العقوبة إمكانا، وفى تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة فى الطاعة من الرعية، وفى الأناة انفساح الرأى وإيضاح الصواب .

وقالوا : ينبغى للملك أن يأْنَف أن يكون فى رعيّته مَن هو أفضل منه دِينا، كما يأنف من أن يكون منهم مَن هو أنفذ منه أمرا .

وقيل : لا ينبغى للملك أن يُسرع إلى حبس من يُكْتَفَى له بالجفاء والوعيد .

وقالوا : ينبغى للملك أن تَعرِفه رعيّته بالأمانة، ولا يُعَجِّل بالعقاب ولا بالثواب، فإن ذلك أَدْوم لخوف الخائف ورجاء الراجى .

وقال بعض حكماء الفرس : أحزم الملوك مَن غلب جِدُّه هَزْلَه، وقهر رأيُه هواه، وعبّر عن ضميره فعلُه، ولم يَخْدَعْه رضاه عن حظّه، ولا غضبُه عن كيده .

---

# الباب الثانى

## من القسم الخامس من الفن الثانى

## فى صفاتِ الملك وأخلاقه وما يُفَضَّل به على غيره، وذِكْر ما نُقِل من أقوال الخلفاء والملوك الدالّة على علوِّ هِمَمهم وكرم شِيَمهم

قال أحمد بن محمد بن عبد ربّه : السلطان زِمام الأمور، ونِظام الحقوق، وقِوَام الحدود، والقطب الذى عليه مَدار الدِّين والدنيا، وهو حِمَى الله فى بلاده، وظلّه الممدود على عباده، به يُمْتَع حريمُهم، ويُنْتَصَر مظلومُهم، ويُقْمَع ظالمهم، ويؤمَّن خائفهُم .

وقال بعض البلغاء : المَلِك من تَبْيَضُّ آثار أياديه، وتسودّ أيام أعاديه، وتخضرّ مواقع سَيْبه، وتحمَرّ مواضع سيفه، وتصفرّ وجوه حُسّاده (١)، وتروق أعينُ أنداده .

وقال سهل بن هارون : المَلِك صبيّ الرضا، كَهْل الغضب، يأمر بالقتل وهو يضحك، ويستأصل شأفة القوم وهو يمزَح، يخلط الجدّ بالهزل، ويتجاوز في العقوبة قَدْر الذنب، وربما أحفظه الذنب اليسير، وربما أعرض صفحا عن الخَطْب الكبير، أسباب الموت والحياة متعلّقة بطَرَف لسانه، لا يعرف أَلَمَ العقوبة فيُبْقِي، ولا يُؤَنِّب على بادرة فينتهي، يُخطئ فيُصَوَّب ويُصيب فيُفْتَرَض، مفتون الهوى فظّ الخليقة أخْرَقُ العقوبة، لا يمنعه من ذى الخاصّة به ما يعلم من عنايته (٢) وطول صحبته أن يقتله بخَطْرة من خَطَرات مَوْجدته، ثم لا ينفكّ ان يُخْطَبَ إليه موضعُه، فلا الثانى بالأوّل يعتبر، ولا الملك عن مثل ما فَرَط منه يزدجر .

قال عمرو بن هنـد : الملوك يَتَشَمُّون بالأفعال لا بالأقوال، ويُسَفِّهون بالأيدى لا بالألسن . قال مَعْبَد بن عَلْقمة :

وتجهلُ أيدينا ويحلُمُ رأينا * وَنَشْتُمُ بالأفعال لا بالتّكَلُّم

وأما ما يُفَضَّل به المَلِك على غيره، فقد قيـل : تميُّز الملك على غيره إنما يكون بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات . وفضل ذات الملك بخمس خصال : رحمة تَشمل رعيّته، ويَقظة تَحوطُهم، وصَوْلة تَذُبُّ عنهم، ولِين يَكيد به الأعداء، وحزم ينتهز به الفُرَص، فهذه فضيلة الذات .

---

(١) الذى بالأصل : وجوده، وهو تحريف ظاهر .

(٢) بالأصل "عناية" وأضفناه الى الضمير ليشا كل تاليه .

وأما فضيلة الآلات، فاتخاذُ المبانى الوثيقة العليّة، والملابس الأنيقة السنيّة، والذخائر النفيسة، والمطاعم الشهيّة، والمراكب البهيّة .

وقالت أمّ مَلِك طَخَارِسْتَان لنصر بن سَيّار : ينبغى للملك أن يكون على ستة أشياء خاصّة به : وزير يثق به ويُفْضِى إليه بسرّه، وحِصْن إذا فَزِع يأوى إليه، وسيف إذا نَزَل به أمرٌ لم يَخَف أن يخونه، وذخيرة خفيفة إذا نابته نائبة آستعان بها، وآمرأة جميلة إذا دخل عليها أذهبت همّه، وطبّاخ إذا لم يَشْتَهِ الطعام عَمِل له ما يشتهيه .

## ذكر شىء من الأقوال الصادرة عن الخلفاء والملوك الدالّة على عظم هممهم، وكرم أخلاقهم وشيمهم، وشدّة كيدهم، وقوّة أيدهم

قيل للإسكندر وهو يحارب دَارَا : إن دارا فى ثمانين ألفا؛ فقال : إن القَصّاب لا يهولُه كثرةُ الغنم .

وآصطنع أَنُوشِرْوَانُ رجلا؛ فقيل له : إنه لا قديم له؛ فقال : آصطناعُنا إيّاه بيتُه وشرفُه . ولما رَهَن حاجب آبن زُرَارة قوسه عند كِسْرى [قال](١) : لولا أنهم عندى أقلّ من القوس لم أقبلها .

قال النُّعمان بن المُنذِر

يعفو الملوك عن الكثير من الذنوب لفضلها *
ولقد تُعاقب فى اليسير * وليس ذاك لجهلها
لكنْ ليُرْجَى عفوُها * ويُخَافَ شدّةُ نَكْلِها

ومن كلام معاوية : نحن الزمان، من رفعناه آرتفع، ومن وضعناه آتّضع . وكان يقول : إنى لآنَفُ أن يكون فى الأرض جهلٌ لا يسعه حلمى، وذنبٌ لا يسعه

(١) زيادة يقتضيها سياق الكلام .

عفوى، وحاجةٌ لا يسعها جُودى . وقال معاوية أيضا : إنى لأرفع نفسى أن يكون ذنب أوسعَ من حلمى، وما غضبى على من أملِك ، أو ما غضبى على من لا أملِك! يريد: إنى إذا كنت مالكا للذنب فإنى قادر على الآنتقام منه، فلِم أُلزم نفسى الغضب! وإن لم أكن أملكه فليس يضرّه غضبى ، فلِم أغضب عليه فأضرَّ نفسى ولا أضرّه!

ومن كلام السّفّاح : ما أقبَحَ بنا أن تكون الدنيا لنا وأولياؤنا خالُون من حسن آثارنا! . ومن كلام المأمون: إنما تُطْلَبُ الدنيا لتُملك، فإذا مُلِكت فلْتوهَب . وكان يقول : إنمـا يَستكثر من الذهب والفضّة من يَقِلّان عنده .

ومن كلام العبّاس بن محمد للرشيد : إنما هو درهمك وسيفك ، فآزرَعْ بهذا مَنْ شكرك، وآحصُدْ بهذا مَن كفرك؛ فقال : ياعمِّ، والله ما للملك غيرُ هذا . كما قيل :

لم أرَ شـيئا صادقًا نفعُه * للمــرء كالدرهم والسيفِ
يَقضِى له الدرهمُ حاجاتِه * والسيفُ يَحْميه من الحَيْفِ

قيل : لمـّا أُشير على الإسكندر بتبييت الفرس قال : لا أجعل غَلَبَتِى سَرِقة . وقيل [له] (١) : لو تزوّجتَ بنت دارا! فقال : لا تغلِبُنِى آمرأةٌ غلبتُ أباها .

ومن كلام أنُوشِرْوان : إن الملِك إذا كثُرت أمواله مما يأخذ من رعيّته كان كمن يَعمُر سَطحَ بيته مما يقتلِـع من قواعد بُنيانه . وكان يقول: وجدنا للذّة العفو ما لم نجد للذّة العقوبة .

ومن كلام المنصور : يحتمل الملوكُ كلَّ شىء إلا ثلاثة : القَــدْح فى الملك ، وإفشاء السرّ، والتعرّض للحُرَم .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

# الباب الثالث من الفن الثانى

## فيما يجب للملك على الرعايا من الطاعة والنصيحة والتعظيم والتوقير

وأما الطاعة فواجبة على سائر الرعيّة ، لأن الله تعالى قَرَن طاعة أولى الأمر بطاعته وطاعة رسوله ، ونصّ على ذلك فى مُحكم تنزيله فقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ)، فبأمره تبارك وتعالى وجبت، وبسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم تأكّدت وترتّبت . رُوِى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أطاعنى فقد أطاع الله ومن يَعْصِنى فقد عصى الله ومن يُطِع الأميرَ فقد أطاعنى ومن يَعْصِ الأميرَ فقد عصانى" وهذا الحديث ثابت فى صحيح مسلم . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اسمعوا وأطيعوا ولو أُمِّر عليكم عبدٌ حبشيّ كأنّ رأسه زَبِيبة". فقد تبيّن بكتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وجوبُ طاعة الإمام على كلّ مسلم .

وأما النصيحة، فلِما رُوِى عن تَميم الدّارِىّ رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الدّينَ النصيحةُ إن الدين النصيحةُ إن الدين النصيحة"؛ قالوا : لمن يا رسول الله؟ قال : "لله ولكتابه ورسوله وأئمة المؤمنين" أو قال: "أئمة المسلمين وعامّتهم". وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل رَضِى لكم ثلاثًا وسخِط لكم ثلاثًا رَضِى لكم أن تعبدوه ولا تُشرِكوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تَفَرّقوا وأن تُناصِحُوا من ولّاهُ الله عز وجل أمركم". وقال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحِيرِىّ رحمه الله: فانْصَحْ للسلطان وأكثر له من الدعاء بالصلاح والرشاد فى القول والعمل ، فإنهم إذا صَلَحُوا صَلَح العباد والبلاد بصَلاحهم، وإيّاك أن تدعوَ عليهم فيزدادوا شرًّا ويزدادَ البلاء بالمسلمين،

وإيّاك أن تأتيهم أو تتصنّع لإتيانهم أو تُحِبّ أن يأتوك ، وآهرُبْ منهم ما آستطعت .

وفى كتاب للهند أن رجلًا دخل على بعض ملوكهم فقال: أيها الملك ، إنّ نصيحتك واجبة فى الصغير الحقير والكبير الخطير ، ولولا الثقةُ بفضيلة رأيك وآحتمالِ ما يسوء موقِعُه منك فى جَنْب صَلاح العامّة وتَلَافى الخاصّة لكان خُرْقًا منّى أن أقول ، ولكنّا إذا رجعنا إلى أن بقاءنا مشمولٌ ببقائك ، وأنفسَنا معلَّقةٌ بنفسك لم نجد بُدًّا من أداء الحقّ إليك وإن أنت لم تَسَلْنى ذلك ؛ فإنه يقال: من كتم السلطانَ نصيحتَه والأطباءَ مرضَه والإخوانَ بثَّه فقد أخلّ بنفسه . وأنا أعلم أنّ كلّ ما كان من كلام يكرهه سامعه ، لم يتشجّع عليه قائلُه إلا أن يثق بعقل المقول له ، فإنه إذا كان عاقلا آحتمل ذلك ، لأنه ما كان فيه من نفع فإنما هو للسامع دون القائل . وإنك أيها الملك ذو فضيلة فى الرأى وتصرّف فى العلم ، وإنما يُشجّعنى ذلك على أن أُخبرَك بما تكره واثقًا بمعرفتك بنُصْحى لك وإيثارى إيّاك على نفسى .

وقال عمرو بن عُتْبة للوليد بن يزيد حين تغيّر الناسُ له : يا أمير المؤمنين ، إنه يُنْطِقنى الأمن منك ، ويُسكِتنى الهيبة لك ، وأراك تأمن أشياءَ أخافُها عليك ، أفأسكُتُ مطيعا ، أم أقول مشفقا؟ قال : قل ، مقبولٌ منك ، ولله فينا علمُ غَيبٍ نحن صائرون إليه ؛ فقُتِل بعد ذلك بأيام .

وقالوا : ينبغى لمن صَحِب السلطان ألّا يكتم عنه نصيحته وإن آستثقلها ، وليكن كلامه له كلامَ رِفْقٍ لا كلامَ خُرْق ، حتى يُخبره بعيبه من غير أن يواجهه بذلك ، ولكن يضرب له الأمثال ويُعرّفه بعيب غيره ، ليَعرِف به عيب نفسه .

دخل الزُّهرىّ على الوليد بن عبد الملك فقال له : ما حديثٌ يحدِّثنا به أهل الشام؟ قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : يحدّثوننا أن الله إذا آسترعى عبدا

رعيّة كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات؛ قال : باطلٌ يا أمير المؤمنين، أنبيٌّ خليفةٌ أكرم على الله، أم خليفةٌ غيرُ نبيّ؟ قال : نبيّ خليفة؛ قال: فإن الله تعالى يقول لنبيّه داود عليه السلام: (يَٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ)؛ فهذا يا أمير المؤمنين وعيده لنبيٍّ خليفة، فما ظنّك بخليفةٍ غير نبيّ! قال : إن الناس لَيُغْرُونَنَا من ديننا .

خطب المنصور فقال فى خطبته ما كأنّه تفسيرُ ما أدمجه فيثاغُورث و إيضاحُه، وهو : معشر النــاس، لا تُضمِروا غِشّ الأئمــة فإنه من أضمر ذلك أظهره الله على سَقَطات لسانه، وفَلَتات أحواله وسَحْنَة وجهه .

قال : خرج الزُّهرىّ يوما من مجلس هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيتُ كاليوم ولا سمعت كأربع كلمات تكلّم بهنّ رجل عند هشام بن عبد الملك، دخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، آحفظ عنّى أربع كلمات فيهن صلاحُ مُلكك ، وآستقامةُ رعيّتك، قال : هاتِهن؛ فقال : لا تعِدَنّ عِدةً لا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يغُرّنّك المُرتَقَى وإن كان سهلا إذا كان المُنحدَرُ وَعْرا، وآعلم أن الأعمــال جزاء فآتّق العواقب، وأن الأمور بَغَتاتٌ فكن على حَذَر؛ قال عيسى بن دَأْب : فحدّثت الهــادى بها وفى يده لُقْمة قد رفعها إلى فيــه فأمسكها، وقال : ويحك ! أعِدْ علىّ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين؛ أسِغْ لقمتك؛ فقال : حديثك أعجب إلىّ .

وقال آبن المقفّع : آعلم أن السلطان يقبل من الوزراء التّبخيل(١) و يَعُدُّه منهم شفقةً ويحمَدُهم عليه و إن كان جَوادا، فإن كنت(٢) مبخّلا غَشَشْت صاحبك بفساد مُرُوءته،

(١) كذا فى الأدب الكبير ورسائل البلغاء لابن المقفع وفى الأصل " التبخل " . والتبخيل : المطالبة بالبخل .

(٢) كذا فى الأدب الكبير ورسائل البلغاء لابن المقفع وفى الأصل : " كان ... " .

وإن كنت مُسَخَّياً لم تأمن إضرار ذلك بمنزلتك، فالرأى تصحيحُ النصيحة على وجهها، والتماسُ المَخْرَج [من العيب واللائمة فيما تترك] [1] من تجهيل صاحبك، فلا يعرف منك فيما تدعوه إليه مَيلا إلى شيء من هواك، ولا طلبًا لغيرِ ما ترجو أن يَزِينَه ويَنْفَعه.

* * *

وأما تعظيمه وتوقيره والأدبُ فى خدمته والتمسّكُ بجماعته، فلما روى عن أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "السلطان ظِلّ الله فى الأرض فمن أكرمه أكرمه الله ومن أهانه أهانه الله". وعن أبى عُبَيدة بن الجَرّاح رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تَسُبُّوا السلطان فإنه فَىءُ [2] الله فى أرضه". وعن أبى ذَرّ رضى الله عنه قال: خطبَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إنه كائنٌ بعدى سلطانٌ فلا تُذِلّوه فمن أراد أن يُذِلّه فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه وليس بمقبول توبتُه حتى يسُدّ الثُّلْمَةَ التى ثَلَم ثم يعودَ فيكونَ فيمن يُعِزّه". وقد رُوِى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا مررتَ ببلدٍ ليس فيه سلطانٌ فلا تدخلْه فإنما السلطانُ ظلُّ الله ورُمْحُه [3] فى الأرض". وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات مات مِيتَةً جاهليّة" وعن أبى رَجَاء العُطَارِدِىّ قال: سمعت ابنَ عبّاس يَروِيه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) الزيادة عن الأدب الكبير.

(٢) فى الأصل: "فإنهم فىء الله..." بميم الجمع وما ذكرناه عن الجامع الصغير.

(٣) فى الأصل «السلطان ظل وريحه فى الأرض» والتصويب عن الجامع الصغير والنهاية لابن الأثير، ثم شرحه صاحب النهاية بكلام طويل ملخصه: أن الظل يلجأ إليه عند الحر، والرمح يدفع به شر العدوّ وأذاه.

قال: "من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر فإنه ليس أحدٌ يُفارق الجماعة شبرا فيموتُ إلا مات مِيتةً جاهلية" (١) رواه البخاري. فقد تبيّن لك من سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوب تعظيم السلطان وتوقيره . .

وقال بُزُرْجِمِهر : من جالس الملوك بغير أدب فقد خاطر بنفسه . وقال ٱبن المقفّع : من خدم السلطانَ فعليه بالملازمة من غير معاتبة . وقال : إن سأل السلطانُ غيرَك فلا تكن المجيبَ عنه ، فإن ٱستلابك الكلام خِفّةٌ منك وٱستخفافٌ بالسائل والمسئول ، وما أنت قائل إن قال لك : ما إيّاك سألت ! أو قال لك المسئول عند المسئلة [يُعَادُ له بها] (٢) : يا هذا ، دونَك فأجب؟ وإذا لم يقصد الملك بمسئلته رجلا بعينه وعمّ بها جميع من عنده فلا تُبادرنّ بالجواب ، ولا تُسابق الجلساء ولا تُواثِبْ بالكلام مواثبة ، فإنك إن سَبقتَ القوم الى الجواب صاروا لكلامك خصوما فتعقّبوه بالعيب له والطعن فيه ، وإذا أنت لم تعجَل بالجواب وخلّيتَه للقوم عرضت قولهم على عينك ، ثم تدبّرته وفكّرت فيه وفيما عندك ، ثم هيّأت من تفكيرك ومما سمعت جوابا مَرْضيا ، ثم ٱستدبرتَ به أقاويلهم حتى (٣) تصغى إليك الأسماع ، ويهدأ عنك الخصوم . فإن لم يبلغك الكلام وٱكتُفِي بغيرك وٱنقطع الحديث فلا يكوننّ من الغَبْن عند نفسك فوتُ ما فاتك من الجواب ، فإن صيانة القول خيرٌ من سوء موضعه . وقال : إذا كلّمك السلطان فاستمع لكلامه وٱصغَ إليه ، ولا تشغَلْ طَرْفك بنظر ، ولا أطرافك بعمل ،

(١) نص ما في البخاري : « من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فانه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية » .

(٢) الزيادة عن الأدب الكبير ، والمراد من الجملة : ما ذا أنت قائل اذا أعاد السائل السؤال على المسئول الأول دون التفات الى جوابك .

(٣) في الأدب الكبير "حين" بدل "حتى" .

ولا قلبك بحديث نفس، وٱحذَرْ هــذا من نفسك وتعهَّدْها به . وقال : لا تشكوَنّ إلى وزراء السلطان ودُخَلائه ما ٱطّلعت عليه منه من رأى أنت تكرَهه، فإنك تكون قد فطَّنتهم لهواه والميل عليك معه . وقال : لا تكونن صحبتك للملوك إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم فى المكروه عندك ، وموافقتهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على أهوائهــم دون هواك ، وعلى[1] ألّا تكتُمَهم سرَّك ولا تستطلعَهم ما كتموك ، وتُخفىَ ما أطلعوك عليه عن الناس كلهم [حتى تَحمِىَ نفسك الحديثَ به][2]، وعلى الٱجتهاد فى طلب رضاهم، والتلطُّف لحاجاتهم ، والتثبيت[3] لحجتهم ، والتصـديق لمقالتهم ، [والتزيين لرأيهم][2] ، وقلة[4] الٱمتعاض لمـا فعلوا إذا أساءوا ، وترك الانتحال لمـا فعلوا اذا أحسنوا ، وكثرة النشْر لمحاسنهم ، وحسنِ السَّتر لمساوئهم ، والمقاربةِ لمن قاربوا وإن كان بعيدا ، والمباعدةِ لمن باعدوا وإن كان قريبا ، والٱهتمامِ بأمورهم وإن لم يهتمُّوا ، والحفظ لأمورهم وإن ضيّعوا، والذكرِ لأمورهم وإن نَسُوا ، والتخفيف بمئونتك عنهم ، والٱحتمال لكل مئونة لهم ، والرضا منهم بالعفو ، وقلة الرضا من نفسك بالمجهود . فإن كنت حافظا إذا ولَّوك، حَذِرا إذا قرّبوك، أمينا إذا ٱئتمنوك، ذليلا إذا صرموك، راضيا إذا أسخطوك ، تُعلِّمهم وكأنك تتعلَّم منهم ، وتؤدِّبهم وكأنك تتأدب منهم ، وتشكرهم ولا تُحمِّلهم الشكر، وإلّا فالبعدَ منهم كلّ البعد .

ومن الآداب العرفية فى صحبة الملوك وخدمتهم، ألّا يُسَلَّم على قادم بين أيديهم، وإنمـا ٱستَنّ ذلك زيادُ بن أبيه، وذلك أن عبد الله بن عبّاس قدم على

---

(١) كذا فى الأدب الكبير، وفى الأصل : "وعلم" بدل "وعلى ..." وهو تحريف .

(٢) زيادة عن الأدب الكبير . (٣) كذا فى الأدب الكبير، وفى الأصل : "والتثبت بحجتهم" .

(٤) الجملة من "وقلة الٱمتعاض ... اذا أحسنوا" منقولة عن الأدب الكبير، وهى فى الأصل : "وقلة الٱنتحال لمـا فعلوا إذا أساءوا" ففيه تحريف شوّه المعنى وأضاعه .

مُعاوية بن أبي سفيان وعنده زياد، فرحّب به معاوية وألطفه وقرّبه ولم يكلّمه زياد بكلمة، فابتدأه ابن عبّاس وقال: ما حالك يا أبا المُغيرة! كأنك أردت أن تُحدِث بيننا وبينك هِجرة؛ قال: لا، ولكنه لا يُسَلَّم على قادم بين يدى أمير المؤمنين؛ فقال له ابن عبّاس: ما ترك الناسُ التحيّةَ بينهم عند أمرائهم؛ فقال له معاوية: كُفّ عنه يابن عبّاس، فإنك لا تشاء أن تَغلِب إلا غَلَبتَ.

وقالوا: كن على التماس الحظ بالسكوت بين يدى السلطان أحرصَ منك على التماسه بالكلام.

وقالوا: مُساءلةُ الملوك عن أحوالهم من تحيّة النَّوكَى.

وقالوا: لا تُسَلِّم على الملك، فإنه إن أجابك شقّ عليه، وإن لم يُجبك شقّ عليك.

وقال الفضل بن الربيع: سُنّتان مُهْمَلتان عند الملوك: السلام والتشميت، لأنهم يُصانون عن كلّ ما يقتضى جوابا.

وقيل: لا يقدِر على صحبة السلطان إلا من يستقلّ بما حمّلوه، ولا يُلحِف إذا سألهم، ولا يغترّ بهم إذا رَضُوا عنه، ولا يتغيّر لهم إذا سخِطوا عليه، ولا يطغَى إذا سلّطوه، ولا يبطَر إذا أكرموه.

وقال فيلسوف: إذا قرّبك السلطان فكن منه على حدّ السِّنان، وإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك، وارْفُق به رِفْقك بالصبىّ، وكلّمه بما يشتهى. قال الصاحب بن عبّاد

إذا ولّاك سلطانٌ فزِدْهُ * من التعظيم واحذَرْه وراقِبْ

فما السلطان إلا البحرُ عُظْماً * وقُرْبُ البحر محذور العواقِبْ

وقال أبو الفتح البُسْتىّ: أجهل الناس من كان مُدِلّا على السلطان مُدِلّا للإخوان.

قال الشَّعْبِيّ : قال لى ٱبن عبّاس قال لى أبى : إنى أرى هـذا الرجل — يعنى عمر بن الخطاب — يَستفهمك ويُقدّمك على الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنى مُوصيك بخلالٍ أربع : لا تُفْشِيَنّ له سِرّا، ولا يُجَرِّبَنّ عليك كذبا، ولا تَطْوِ عنه نصيحة، ولا تغتابَنّ عنده أحدا ؛ قال الشَّعْبِيّ فقلت لٱبن عبـاس : كلٌّ واحدةٍ خيرٌ من ألف ؛ قال : إِى واللهِ ومن عشرة آلاف ! .

---

# البـاب الرابع

## من القسم الخامس من الفن الثـانى فى وصايا الملوك

كتب أرسطاطاليس إلى الإسكندر: أن ٱملِك الرعيّة بالإحسان إليها تظْفَرْ بالمحبّة منها ، فإنّ طَلَبَك الناسَ بإحسانك هو أدومُ بقاءً منه باعتسافك ؛ [وٱعلم أنك إنمـا تَمْلِك الأبدان فاجمع لها القلوب] [1] ؛ وٱعلم أن الرعيّة إذا قَدَرت أن تقول قَدَرت أن تفعل . وهـذا مخالف لمـا حُكِى عن معاوية أن رجلا أغلظ عليـه فحَلُم عنه ؛ قيل له : أتحلُمُ عن مثل هذا؟ فقال: إنا لا نحولُ بين الناس وبين ألسنتهم مالم يَحُولوا بيننا وبين سلطاننا . وكتب إلى الإسكندر : اعلم أنك غير مستصلح رعيّتك وأنت مُفسد، ولا مُرْشِدُهم وأنت غاوٍ، ولا هاديهم وأنت ضالّ؛ وكيف يقدر الأعمى على الهُدى، والفقيرُ على الغنى، والذليل على العزّ ! .

وقال أنوشِرْوَان : ثمانية أشياء هي أساس الملك، يأتى بأربعة، ويحذَرُ أربعة؛ فالذى يأتى به : النصحُ فى الدين ، وكِفاءُ [2] الأمين، وتقديمُ الحَزْم ، وإمضاءُ العَزْم . والذى يحذره : غِشّ الوزير، وسوء التدبير، وخُبث النيّة، وظلم الرّعية .

وقال أردَشـير لأصحابه : إنى إنمـا أملِك الأجسادَ لا النيّات، وأَحكُم بالعدل لا بالرضا، وأفحَص عن الأعمال لا عن السرائر .

---

(١) زيادة عن العقد الفريد . (٢) مصدر كافأه : جازاه .

وقال أبرويز لابنه شيرويه : لا توسعن على جندك سعة يستغنون بها عنك فيطغوا، ولا تضيق عليهم ضيقا يضجون به منك ، ولكن أعطهم عطاء قصدا وامنعهم منعا جميلا ، وابسط لهم في الرجاء، ولا تبسط لهم في العطاء. وكتب إليه أيضا من الحبس : اعلم أن كلمة منك تسفك دما وأخرى تحقن دما، وأن سخط سيفك مسلول على من سخطت عليه، وأن رضاك بركة مستفادة على من رضيت عنه، وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فاحترس في غضبك من قولك أن يخطئ، ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يخف؛ فإن الملوك تعاقب حزما وتعفو حلما . واعلم أنك تجل عن الغضب، وأن ملكك يصغر عن رضاك، فقدر لسخطك من العقاب كما تقدر لرضاك من الثواب . وكتب إليه أيضا من الحبس : اختر لولايتك امرأ كان في وضيعة فرفعته، وذا شرف كان مهملا فاصطنعته ، ولا تجعله امرأ أصبته بعقوبة فاتضع لها، ولا امرأ أطاعك بعد ما أذللته ، ولا أحدا ممن يقع في خلدك (١) أن إزالة سلطانك أحب إليه من ثبوته؛ وإياك أن تستعمله ضرعا غمرا، كثيرا إعجابه بنفسه ، قليلا تجربته في غيره ، ولا كبيرا مدبرا قد أخذ الدهر من عقله كما أخذت السن من جسمه .

قال لقيط الإيادي :

فقلدوا أمركم لله دركم * رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده * ولا إذا عض مكروه به خشعا
مازال يحلب در الدهر أشطره * يكون متبعا طورا ومتبعا
حتى استمرت على شزر (٢) مريرته (٣) * مستحصد الرأي لا قحما (٤) ولا ضرعا (٥)

(١) الخلد : البال والقلب والنفس . (٢) الشزر : الصعوبة والشدة . (٣) المريرة : العزيمة . (٤) القحم : الكبير السن جدا . (٥) الضرع : الصغير السن .

وكتب سابور بن أردشير فى عهده إلى ولده : ليكن وزيرك مقبولَ القول عندك ، قوىَّ المنزلة لديك ، يمنعه مكانه منك وما يثق به من لطافة منزلته ، من الخشوع لأحد أو الضراعة أو المداهنة لأحد فى شىء مما تحت يده ، لتبعثَه الثِّقــةُ بك على مَحْض النصيحة لك ، والمنــابذةِ لمن أراد غِشّك وآنتقاصَك حقَّك . وإنْ أوْرد عليك رأياً يخالفُك ولا يوافق الصواب عندك ، فلا تَجْبَهْهُ جَبْهَ الظَّنين ، ولا تَرُدّه عليه بالتجهُّم فيفُتَّ ذلك فى عَضُده ، ويقبِضَه عن إبثاثك كلَّ رأى يلوح صوابُه ، بل آقبَل ما آرتضيت من قوله ، وعرِّفه ماتخوّفت من ضرر الرأى الذى آنصرفت عنه ، لينتفع بأدبك فيما يستقبِل الرأىَ فيــه . وآحذر كلّ الحذر أن تُنْزِلَ هــذه المنزلةَ سواه ممن يُطيف بك من خَدَمك وخاصّتك ، وأن تسهِّل لأحد منهم سبيلَ الآنبساط بالنطق عندك والإفاضة فى أمور ولايتك ورعيّتك ، فإنه لا يُوثَق بصحّة رأيهم ، ولا يُؤمَن الآنتشارُ فيما أُفضِى من السرّ إليهم .

وقال آبن المقفع : عوِّد نفسك الصبرَ على منَ خالفك من(١) ذوى النصيحة ، والتجرُّعَ لمرارة قولهم وعذلهم ، ولا تسهِّلن سبيل ذلك إلا لأهل الفضل والعقل [والسّن](٢) والمروءة فى سِتْر ، لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيهٌ أو يستخفّ به شانئ . وآعلم أن رأيك لا يتّسع لكل شىء ففرِّغه لمهمّ ما يَعْنيك ، وأن مالك لا يتّسع للناس فاخصُص به أهــل الحق(٣) ، وأن كرامتك لا تُطيق العامّة فتوخَّ بها أهل الفضــل ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك وإن دأبْتَ فيهما ، فأحسِنْ قسمتَهما(٤) بين عملك ودَعَتك . وآعلم أن ما شغلتَ(٥) من رأيك بغير المهمّ أزْرَى بك ، وما صرفت من مالِك فى الباطل

(١) كذا فى الأدب الكبير ، وفى الأصــل : «من رأى ذوى النصيحة» وظاهر أن كلمة «رأى» مقحمة لغير فائدة . (٢) الزيادة عن الأدب الكبير ورسائل البلغاء . (٣) فى رسائل البلغاء : «وأن مالك لا يغنى الناس كلهم فآختصّ به ذوى الحقوق» . (٤) كذا فى الأدب الكبير ، وفى الأصل «فأحسن قسمتك ...» . (٥) فى الأصل : "ما شغلت به الخ" وظاهر أن كلمة "به" مقحمة .

فقَدْتَه حين تريدُه للحقّ، وما عَدَلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضرّ بك فى العجز عن أهل الفضل .

وكتب عبد الله بن عبّاس إلى الحسن بن علىّ لمـّا ولّاه الناس أمرهم بعد علىّ رضى الله عنهما : أنْ شمِّرْ للحرب، وجاهدْ عدوّك، وآشْترِ من الضَنِين(١) دِينَه بمـا لا يَثْلِمَ دينك، ووَالِ(٢) أهلَ البيوتات تَستصلحْ به عشائرَهم .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : يجب على الوالى أن يتعهّد أموره ويتفقّد أعوانه حتّى لا يَخْفى عليه إحسانُ مُحْسن ولا إساءةُ مسىء، ثم لا يترك أحدَهما بغير جزاء، فإنه إذا ترك ذلك تهاوَنَ المحسن وآجترأ المسىء، وفسد الأمرُ وضاع العمل. (٨)

وقال بعض الحكماء : الملك المُنعم إذا أفاض المكارم(٣) وآغتفر الجرائم آرتبط بذلك خلوصُ نيّة من قَرُب منـه وهم الأقل، وآنفساحُ الأمل ممن بَعُد عنه وهم الأكثر، فيَستخلص حينئذ ضمائرَ الكلّ من حيث لم يَصِل معروفُه إلا إلى البعض .

ولم أرَ فيما طالعتُه من هـذا المعنى أجمعَ للوصايا ولا أشملَ من عهـدٍ كتبه علىّ آبن أبى طالب رضى الله عنه إلى مالك بن الحارث الأشْتر حينَ ولّاه مصر، فأحببت أن أُورده على طوله وآتىَ على جُملتـه وتفصيله، لأن مثل هذا العهـدِ لا يُهمَل، وسبيلَ فضله لا يُجْهل؛ وهو :

هذا ما أمر [به](٤) عبد الله علىٌّ أميرُ المؤمنين إلى مالك بن الحارث الأشتر فى عهده إليه حين ولاه مصر : جِبايةَ خراجها، وجِهاد عدوّها، وآستصلاح أهلها، وعِمَارة بلادها، أمره بتقوى الله و إيثارِ طاعته وآتّباع ما أمر به فى كتابه من فرائضه وسُنَّته التى

---

(١) فى الأصل هكذا : «وآستر الصين» وهو محرف عما أثبتناه عن عيون الأخبار والعقد الفريد .

(٢) وال : ناصر وصادق . (٣) فى الأصل «المكاره» وسياق الكلام يقتضى ما وضعنا .

(٤) زيادة عن نهج البلاغة (طبع بيروت ج ٢ ص ٥٠ — ٦٨) ، وكذلك كل ما وضع بين هذين القوسين [ ] فى ثنايا هذا الكتاب .

لا يَسْعَد أحد إلا بآتّباعها، ولا يَشقى إلا بالعدول عنها ؛ وأن ينصرَ اللهَ تعالى بيده وقلبه ولسانه، فإنه جلّ آسمُه قد تكفّل بنصر من نَصَرَه وإعزاز من أعزّه ؛ وأمره أن يَكسِر نفسه عند الشهوات ويزعها(١) عنـد الجَمَحات، فإن النفس لأمّارة بالسوء .

ثم آعلم يا مالكُ أنى قد وجّهتك إلى بلاد قد جَرَتْ عليها دُول قبلك من عدل وجَوْر، وأن الناس ينظُرون من أمورك فى مثل ما كنتَ تنظر فيه من أمر الوُلاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم . وإنما يُستدَلّ على الصالحين بما يُجْرِى الله لهم على ألسن عباده . فليكن أحبَّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح . فآمْلِكْ هواك وشُحَّ بنفسك عما لا يَحِلّ لك ؛ فإن الشُّحَّ بالنفس الإنصافُ منها فيما أحَبَّت [أ]و كرِهت . وأَشْعِر قلبك الرحمة للرعيّة والمحبّة لهم ؛ وآللُّطْفَ بهم، ولا تكوننّ عليهم سَبُعا ضاريا تغتنِمُ أَكْلَهم(٢) ؛ فإنهم صنفان : إما أخٌ لك فى الدِّين، وإما نظير لك فى الخُلُق، يَفْرُط منهم الزَّلَلُ وتعرِض لهم العِلَل ويُؤتَى على أيديهم فى العَمْد والخطأ ؛ فأَعطهم من صَفْحك وعفوك مثلَ الذى تُحبّ أن يُعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالى الأمرِ عليك فوقك ؛ والله فوق من ولّاك ؛ وقد آستكفاك أمرَهم(٣) وآبتلاك [بهم] . فلا تنصِبَنّ نفسك لحرب الله، فإنه لا قوّة لك بنِقْمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته . ولا تندَمنّ على عفو، ولا تَبْجَحَنّ(٤) بعقوبة، ولا تُسرِعَنّ إلى بادرة وجدتَ منها مندوحة، ولا تقولَنّ : إنى مُؤَمَّر آمُرُ فأُطاع، فإن ذلك إدغالٌ فى القلب ومَنْهَكَةٌ للدِّين وتقرّب من الغِيَر . فإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبَّهةً أو مَخِيلَةً، فانظر إلى عِظَم مُلك الله تعالى فوقك وقدرته [منك](٥) على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يُطامِن إليك من

(١) كذا فى نهج البلاغة وفى الأصل : "ويزعها ..." . (٢) كذا فى نهج البلاغة وفى الأصل : "وتغتنم أكلها" . (٣) كذا فى نهج البلاغة وفى الأصل : "استكفاك أمره" .

(٤) بجح : كفرح لفظا ومعنى . (٥) فى الأصل : "... وقدرته على ما لا يقدر عليك من نفسه" ولعل فيه تحريفا جعله غير واضح، وما وضعناه عن نهج البلاغة .

طِمَاحك، ويكُفّ عنك من غَرْبك ويَفىء إليك بما عَزَب عنك من عقلك. وإياك ومساماةَ(١) الله فى عظمته والتشبّهَ به فى جبروته، فإن الله يُذلّ كل جبار ويُهين كل مُختال. أَنْصف اللهَ وأنصف الناس من نفسك ومن خاصّة أهلك وممن لك فيه هوًى من رعيّتك، فإنك إلّا تفعل تَظْلِمْ، ومن ظلم عباد الله كان خَصْمَه دون عباده، ومن خاصمه الله أَدْحض حُجّته وكان لله حَرْباً حتى ينْزِع ويتوب. وليس شىء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نِقْمته من إقامةٍ على ظلم [فإن الله سميعٌ دعوةَ المضطَهَدين وهو للظالمين بالمِرْصاد]. وليكن أحبَّ الأمور إليك أوسطها فى الحق وأعمّها فى العدل وأجمعها لرضا الرعيّة، فإن سُخْطَ العامة يُجحف برضا الخاصّة، وإن سخط الخاصة يُغتفَر برضا العامة. وليس أحد من الرعيّة أثقلَ على الوالى مئونةً فى الرخاء، وأقلَّ معونةً فى البلاء، وأكرهَ للإنصاف، وأسألَ بالإلحاف، وأقلَّ شكرا عند الإعطاء، وأبطأَ عُذْرا عند المنع، وأضعفَ صبرا عند مُلِمّات الدهر من أهل الخاصة، وإن عمود الدين وجِمَاعَ المسلمين والعُدَّة للأعداء العامّةُ من الأمة؛ فليكن صَغْوك لهم وميلك معهم. وليكن أبعدُ رعيّتك منك وأشْنَؤهم عندك أطلَبَهم لعيوب الناس، فإن فى الناس عيوبا الوالى أحقُّ بسترها، فلا تكشِفَنّ عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهيرُ ما ظهر لك، والله حَكَمٌ على ما غاب عنك منها. فاسْتُر العورة ما استطعت يستُرِ الله ما تحبّ سَتْرَه من عيبك. أطلِقْ عن الناس عُقْدَةَ كلِّ حِقْد، واقطعْ عنهم سبب كل وِتْر، وتَغَابَ عن كل ما لا يصحّ لك. ولا تَعجَلَنّ إلى تصديق ساعٍ، فإن الساعىَ غاشّ وإن تشبّه بالناصحين. ولا تُدْخِلَنّ فى مَشُورتك بخيلا فيعدل بك عن الفضل ويعِدَك الفقرَ، ولا جبانا فيُضْعِفَك عن الأمور، ولا حريصا فيُزَيِّنَ لك الشرَهَ بالجَوْر؛ فإن البخل والجبن والحِرْص غرائزُ شتّى يجمعها سوءُ الظنّ بالله. واعلم أن شرّ وزرائك من كان

(١) فى الأصل: «مساومة الله» وما هنا عن نهج البلاغة.

للأشرار قبلك وزيرا ومن شركهم فى الآثام ، فلا يكونن لك بطانةً ، فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة . [وأنت واجد منهم خير الخلف] ممن له مثل آرائهم ونفاذهم ، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ، ممن لم يعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على إثمه ، أولئك أخف عليك مئونةً وأحسن لك معونة(١) ، وأحنى عليك عطفا وأقل لغيرك إلفا ، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك . ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم للحق ، وأقلهم مساعدةً فيما يكون منك مما(٢) كره الله تعالى لأوليائه واقعا من هواك [حيث وقع] . ثم رضهم على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله ، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدنى إلى العزة . ولا يكونن المحسن والمسىء عندك بمنزلة واحدة ، فإن فى ذلك تزهيدا لأهل الإحسان فى الإحسان ، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة ، وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه . واعلم أنه ليس شىء أدعى إلى حسن ظن والٍ برعيته من إحسانه إليهم وتخفيف المئونات عنهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم . وليكن منك فى ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك ، فإن حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا . وإن أحق من حسن ظنك به من حسن بلاؤك عنده ، [وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده] . ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ، ولا تحدثن سنة تضر بشىء من ماضى تلك السنن ، فيكون الأجر لمن سنها ، والوزر عليك بما نقضت منها . وأكثر(٣) مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك . واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، [ولا غنى ببعضها عن بعض] ، فمنها جنود

(١) كذا فى نهج البلاغة ، وفى الأصل «معاونة» .

(٢) كذا فى نهج البلاغة ، وفى الأصل «مما كره الله لأولئك ...» وهو تحريف .

(٣) كذا فى نهج البلاغة ، وفى الأصل « ولكن ... » وهو تحريف .

[الله]، ومنها كتّاب العامّة والخاصّة، ومنها قُضاة العدل، ومنها عمّال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزْية والخَراج من [أهل] الذّمّة ومَسْلَمَة[1] الناس، ومنها التجّار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السُّفْلى من ذوى الحاجة والمَسْكَنة، وكلٌّ قد سمّى الله سهمَه، ووضع على حدّه فريضته فى كتابه وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم عهدًا منه محفوظا. فالجنود بإذن الله حصونُ الرعيّة وزَيْن[2] الولاة وعزّ الدّين وسُبُل الأمن، وليس تقوم الرعيّة إلا بهم. [ثم لا قِوام للجنود إلا بما يُخرج الله لهم من الخَراج الذى يَقْوَوْن به فى جهاد عدُوّهم ويعتمدون عليه فيما يُصلحهم ويكون من وراء حاجتهم]. ثم لا قِوام لهذين الصّنفين إلا بالصّنف الثالث من القضاة والعُمّال والكُتّاب لما يُحْكِمون من المعاقد، ويَجْمعون من المنافع، ويُؤْتَمَنون عليه من خواصّ الأمور وعوامّها. ولا قِوام لهم جميعا إلا بالتجّار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقومون به فى أسواقهم، ويَكْفُونهم من الرِّفق[3] بأيديهم ما لا يبلغه رِفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمَسْكَنة الذين يحقّ رِفْدُهم ومعونتهم؛ وفى الله لكلٍّ سَعَة؛ ولكلٍّ على الوالى حقٌّ بقدر ما يُصلحه. [وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحقّ والصبر عليه فيما خفّ عليه أو ثَقُل]. فولِّ من جنودك أنصحهم فى نفسك لله تعالى ولرسوله ولإمامك، [وأنقاهم] جيبا، وأفضلهم حِلْما، ممن يُبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر ويرفُق بالضعفاء وينبو[4] عن الأقوياء، [و] ممن لا يثيره العُنْف ولا يقعُد به الضعف. ثم ألحق بذوى الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة أهلَ النَّجْدة والشجاعة والسخاء والسماحة؛ فإنهم جِمَاعُ الكَرم وشُعَب العُرْف؛ ثم تفقّد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما. ولا يتفاقَمَنّ فى نفسك شىء قوّيتهم به، ولا تَحْقِرَنّ

(١) مسلمة الناس: المسلمون منهم. (٢) كذا فى نهج البلاغة وفى الأصل: «ذوى الولاة...» وهو تحريف. (٣) الرفق بالفتح: النفع. (٤) يقال نبا عنه وعليه: اذا لم ينقد له.

لُطفا تَعاهدُهم به و إن قلّ، فإنه داعيةٌ لهم إلى بَذْل النصيحة لك، وحسن الظن بك. ولا تَدَعْ تفقُّد لطيف أمورهم ٱتّكالا على جسيمها ، فإن اليسـير من لطفك موْضعا ينتفعون به ، وللجسيم موقعا لا يستغنُون عنه . وليكن آثَرُ رءوس جندك عندك مَن واساهم فى معونته وأفْضلَ عليهم من جِدَته بما يسعهم و يَسَعُ مَنْ وراءهم من خُلوف أهليهم حتى يكونَ همّهم همًّا واحدا فى جِهاد العدوّ، فإنّ عطفك عليهم يُعطِّف عليك قلوبهم؛[و إنّ أفضل قُرّة عين الولاة ٱستقامة العدل فى البلاد وظهورُ مودّة الرعيّة ،و إنه لا تظهر مودّتهم إلا بسلامة صـدورهم] ، ولا تَصِحّ نصيحتهم إلا بحِيطتهم على وُلاة أمورهم وقِلّة ٱستثقال دُوَلهم وترك ٱستبطاء ٱنقطاع مدّتهم، فٱفسح فى آمالهم[(١)] وواصِلْ فى حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم ، فإن كثرة الذّكر لحسن فَعالهم تهُزّ الشجاع وتحرّض الجَبان إن شـاء الله . ثم ٱعرف لكل ٱمرئ منهم ما أبلى . ولا تَضُمّنّ [بلاء] ٱمرئ الى غيره،ولا تُقَصّرنّ به دون غاية بلائه . ولا يدعونّك شرف ٱمرئ الى أن تُعظِّم من بلائه ما كان صغيرا، ولا ضَعَةُ ٱمرئ الى أن تستصغِر من بلائه ما كان عظيما . وٱردُدْ الى الله ورسوله ما يُضلِعك من الخطوب و يشتبه عليك من الأمور؛ فقد قال الله تعالى لقوم أحبّ إرشادهم : (يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ) ؛ فالرادّ الى الله هو الآخِذُ بمُحكَم كتابه ،والرادّ الى الرسول الآخذ بسنّته الجامعة غير المتفرّقة.

ثم ٱختر للحكم بين الناس أفضـل رعيّتك فى نفسك ممن لا تَضيق به الأمور، ولا تُمحِكُه[(٢)] الخصوم، ولا يتمادى فى الزّلّة، ولا يَحصَرُ[(٣)] من الفَيْء الى الحق إذا عَرَفه، ولا تُشرِف[نفسه]على طمع ،ولا يَكتفى بأدنى فهم دون أقصاه،أوْقَفَهم فى الشُّبهات،

(١) كذا فى نهج البلاغة، وفى الأصل «وٱفسح فى أموالهم ... » .

(٢) أمحكه : أغضبه أو جعله محكان كسكران : عسر الخلق . (٣) يحصر : يضيق صدره .

وآخَذَهم بالحُجَج، وأقلّهم تَبَرُّما بمراجعة الخَصْم، وأصبَرَهم على تكشُّف الأمور، وأصرمَهم عند إيضاح الحكم، ممن لا يَزْدَهيه إطراء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل. ثم أَكْثِر (١٠) تعاهُدَ قضائه، وآفسَح له فى البَذْل ما يُزيح علّته وتَقلّ معه حاجتُه الى الناس، وأعطه من المنزلة لديك مالا يَطمع فيه غيره من خاصّتك، ليأْمَنَ بذلك آغتيالَ الرجال له عندك. فآنظر فى ذلك نظرا بليغا، فإن هذا [الدّين] قد كان أسيرا فى أيدى الأشرار يُعْمَل فيه بالهوى وتُطْلَب به الدنيا (١).

ثم آنظر فى أمور عُمّالك فآستعملْهم آختبارا ولا تُوَلِّهم مُحاباة وأَثَرَة، فإنهما جِمَاعٌ من شُعَب الجَوْر والخيانة. وتَوَخَّ منهم أهلَ التجربة والحَيَاء من أهل البيوتات الصالحة والقَدَم فى الإسلام المتقدّمة، فإنهم أكرم أخلاقًا، وأصحّ أعراضا، وأقلّ فى المطامع إسرافا، وأبلغ فى عواقب الأمور نَظَرا. ثم أَسْبِغْ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوّةٌ لهم على آستصلاح أنفسهم، وغِنًى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجّةٌ عليهم إن خالفوا أمرك أو ثَلَموا أمانتك. ثم تفقّد أعمالهم، وآبعَث العُيون من أهل الصدق والوَفاء عليهم، فإنّ تعاهُدَك فى السرّ لأمورهم حَدْوَةٌ (٢) لهم على آستعمال الأمانة والرِّفق بالرعيّة. وتحفّظْ من الأعوان، فإنْ أحدٌ منهم بَسَط يده الى خيانة آجتمعتْ بها عليه عندك أخبارُ عيونك آكتفيتَ بذلك شاهدا، فبسطتَ عليه العقوبة فى بدنه، وأخذتَه بما أصاب من عمله، ثم نصبتَه بمَقَام الذّلة، ووسَمْتَه بالخيانة، وقلّدتَه عَار التُّهمة.

وتفقّدْ أمر الخَراج بما يُصلح أهلَه، فإنّ صلاحهم وصلاحه صلاح لمن سواهم، وَلا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأنّ الناس كلّهم عِيَالٌ على الخَراج وأهله. وليكن نظرُك فى عِمَارة الأرض أبلغَ من نظرك فى آستجلاب الخَراج، لأن ذلك لا يُدْرَك إلا بالعِمَارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد

(١) كذا فى نهج البلاغة، وفى الأصل: «وتطلب منه الدنيا».

(٢) حدوة لهم أى سوق لهم وحثّ.

ولم يستقم أمره إلا قليلا . فإن شكَوْا ثِقَلا أو عِلّةً أو ٱنقطاع شِرْب [ أو بالّة ](١) أو إحالة أرض ٱغتمرها غَرَق أو أجحف بها عَطَش، خفّفتَ عنهم بما ترجو أن يَصْلُح به أمرهم؛ ولا يثقُلنّ عليك شيء خفّفتَ به المئونة عنهم، فإنه ذُخْرٌ يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك، مع ٱستجلابك حُسْنَ ثنائهم وتَبَجُّحك(٢) باستفاضة العدل فيهم، معتمدًا فضلَ قُوّتهم بما ذَخَرتَ عندهم من إجمامك(٣) لهم والثِّقَةَ منهم بما عوّدتَهم من عدلك عليهم ورِفْقك بهم . فربما حدث من الأمور ما إذا عوّلت [فيه] عليهم من بعدُ، ٱحتملوه طَيِّبَةً أنفسُهم به، فإن العُمْرانَ يَحتمِل ما حمّلتَه، وإنما يُؤْتَى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يُعْوِزُ أهلُها لإشراف أنفس الوُلاة على الجمع وسوء ظنّهم بالبقاء وقلّة ٱنتفاعهم بالعِبَر . وٱستعمل مَن يُحبّ أن يَدَّخِر حسنَ الثناء من الرعيّة والمثوبةَ من الله عزّ وجلّ والرضا من الإمام .

ثم ٱنظر في حال الكُتّاب فولِّ أمورَك خيرَهم . وٱخصُص رسائلك التي تُدخِل فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجود(٤) صالح الأخلاق ممن لا تُبْطِرُه الكرامة فيجترئ بها عليك في خِلافٍ لك بحضرة مَلأ، ولا تُقَصِّر(٥) به الغَفْلة عن إيراد مكاتبات عُمّالك [عليك] وإصدار جوابها على الصواب منها عنك، وفيما يأخذ لك ويُعطى منك، ولا يُضْعِف عَقْدا ٱعتقده لك، ولا يَعجَز عن إطلاق ما عُقِد عليك، ولا يجهَل مبلغَ قَدْر(٦) نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقَدْر نفسه يكون بقَدْر غيره أجهلَ . ثم لا يكن

---

(١) أى شكوا ثقل المضروب عليهم من مال الخراج، أو نزول علة سماوية، أو ٱنقطاع شرب (الشرب بالكسر : الماء) فيما يسق بالأنهار، أو بالّة وهو ما يبل الأرض من مطر وندى فيما يسق بالمطر، وإحالة الأرض : تحولها وتغيرها . (٢) التبجح : الفرح والسرور . (٣) إجمامك لهم : تركك إياهم حتى اذا ما استراحوا تقوّوا على معونتك . (٤) كذا فى الأصل ولعله محرف عن «وجوه» . (٥) كذا فى نهج البلاغة وفى الأصل : «ولا تقصر بك ...» . (٦) فى الأصل : «قدر نفسك ...» وكذلك فعلا يعجز ويجهل بتاء الخطاب، والسياق يقتضى ما وضعناه عن نهج البلاغة .

آختيارُك[1] إيّاهم على فِرَاسـتك وآستنامتك وحسن الظّن منك ، فإن الرجال يتَعرّفون لفِرَاسات الوُلاة بتصنّعهم وحسن خدمتهم ؛ وليس وراءَ ذلك من النصيحة والأمانة شيء ؛ ولكن آختبرهم بمـا ولّوا[2] للصالحين قبلك ، فآعمِدْ لأحسنهم كان في العامّة أثرًا ، وأعرفِهم بالأمانة وجها ، فإنّ ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وَلِيتَ أمرَه . وآجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسًا منهم لا يقْهَره كبيرُها ولا يتشتّت عليه كثيرُها . ومهما كان في كُتّابك من عيبٍ فتغابيت عنه أُلْزِمتَه .

ثم آستوص بالتجّار وذوي الصناعات ، وأوص بهم خيرا المقيم [منهم و] المضطرب بماله والمترفّق ببدنه ، فإنهم موادّ المنافع وأسباب المَرَافق وجُلّابُها من المَبَاعد والمطَارح في برّك وبحرك وسَهْلك وجَبَلك وحيث لا يلتئم الناسُ لمواضعها ولا يجترئون عليها ، فإنّهم سِلْمٌ لا تُخاف بائقته ، وصلحٌ لا تُخشى غائلته . وتفقّد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك . وآعلم أن [في] كثير منهم ضِيقًا فاحشا وشُحًّا قبيحا وآحتكارا للمنافع في المبايعات ، وذلك باب مضَرّة للعامّة ، وعيبٍ على الوُلاة . فامنع [من] الآحتكار ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه . وليكن البيعُ بيعا سَمْحا بموازين عدل وأسعار لا تُجحِف بالفريقين البائع والمبتاع ، فمن قارف حُكْرَةً بعد نهيك إيّاه فنكِّل به وعاقِبه من غير إسراف .

ثم اللهَ اللهَ في الطبقة السُّفلى من الذين لا حيلةَ لهم والمساكين والمحتاجين و[أهل] البُؤْسَى والزَّمْنَى ، فإن [في] هذه الطبقة قانعا ومُعْتَرًّا ، فآحفظ لله ما آستحفظك من حقّه فيهم ، وآجعل لهم قِسْما من بيت مالك ، وقِسْما من غَلّات صَوافِي[3] الإسـلام (١١) في كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثلَ الذي للأدنى . وكلٌّ قد آسترعِيتَ حقّه فلا يشغلنّك

(١) قال الأستاذ الإمام : أى يتوسلون إليها لتعرفهم . (٢) كذا في نهج البلاغة وفى الأصل : «ولكن اختبرهم بهؤلاء الصالحين» . (٣) صوافى جمع صافية : أرض الغنيمة .

عنهم بَطَر(١) فإنك لا تُعذَر بتضييع[ك التافِهَ لإحكامك] الكثيرَ المُهِمّ، فلا تُشْخِص هَمَّك عنهم ولا تُصَعِّر خدّك لهم؛ وتفقّدْ أمور من لا يصل إليك [منهم] ممن تقتحمه العيون وتحقِره الرجال، ففرِّغ لأولئك ثِقَتَك من أهل الخَشْية والتواضع، فليَرْفَعْ إليك أمورهم؛ ثم آعْمَل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه وتعالى يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعيّة أحوجُ إلى الإنصاف من غيرهم . وكلٌّ فأَعْذِرْ إلى الله تعالى فى تأدية حقّه إليه(٢) . وتعهّدْ أهل اليُتْم وذوى الرِّقّة فى السنّ ممن لا حيلة له ولا يَنْصِب للمسئلة نفسه . وذلك على الولاة ثقيل؛ [والحق كله ثقيل] وقد يُخفّفه الله على أقوام طلبُوا العاقبة فصبّروا أنفسهم ووثِقُوا بصدق موعود الله لهم .

وآجعل لذوى الحاجات منك قِسما تُفرِّغُ لهم [فيه شخصَك] وتجلسُ لهم فيه مجلسا عامّا فتتواضع فيه لله الذى خلقك وتُبعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرَطك حتى يُكلِّمَك متكلِّمهم غيرَ مُتَعْتَع(٣) فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى غير موطن : "لن تُقدَّس أُمّةٌ لا يُؤخذ للضعيف فيها [حقّه](٤) من القوىّ غير مُتَعْتَع" . ثم آحتمِل الخُرْق منهم والعِىّ، ونَحِّ عنك الضِّيق والأَنَف يبسُط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجِبْ لك ثواب طاعته، وأَعْطِ ما أعطيت هنيئا، وآمنَعْ فى إجمال وإعذار .

ثم أمورٌ من أمورك لا بدّ [لك] من مباشرتها : منها إجابة عُمّالك بما لا يُغنى عنه كُتّابك، ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك مما تَحْرَجُ به صدور أعوانك . وأَمْضِ لكلّ يوم عملَه فإن لكلّ يوم ما فيه . وآجعل لنفسك فيما بينك وبين الله

(١) كذا فى نهج البلاغة؛ وفى الأصل : "فلا يشغلنك عنهم نظر ..." .

(٢) كذا فى نهج البلاغة؛ وفى الأصل : "فى تأدية حقه اليك..." . (٣) التعتعة فى الكلام : التردد فيه من عجز وعىّ والمراد أنه غير خائف، تعبيرا باللازم . (٤) كذا فى نهج البلاغة؛ وفى الأصل : "لم يؤخذ للضعيف منها ..." الخ .

أفضلَ تلك المواقيتَ وأجزَلَ تلك الأقسام، وإن كانت كلُّها لله إذا صَلَحت فيها النِّيّة وسَلِمت منها الرعيّة .

وليكن فى خاصّة ما تُخْلِص لله به [دينك] إقامةُ فرائضه التى هى له خاصّة، فأعطِ الله من بدنك فى ليلك ونهارك، ووفِّ ما تقرّبت به إلى الله تعالى من ذلك(١) كاملا غيرَ مَثْلوم ولا منقوص بالغًا من بدنك ما بلغ . وإذا قمتَ فى صلاتك للنـاس فلا تكونَنّ منفِّرا ولا مضيِّعا؛ فإن فى الناس من به العِلّة وله الحاجة؛ وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجّهنى إلى اليمن كيف أصـلِّى بهم؟ قال : "كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما" .

وأما بعد هذا فلا يَطولَنّ آحتجابُك عن رعيّتك، فإن آحتجاب الوُلاة عن الرعيّة شُعْبة من الضِّيق وقلّةُ علمٍ بالأمور . والآحتجاب منهم يقطع عنهم علمَ ما آحتجبوا دونه، فيصغُر عندهم الكبير ويعظُم الصـغير ويقبُح الحسن ويحسُن القبيح ويُشاب الحقّ بالباطل . وإنما الوالى بَشَر لا يعرِف ما يُوارى عنه الناسُ من الأمور؛ وليست على الحق سِمَاتٌ تُعرَف بها ضروبُ الصّدق من الكذب . وإنما أنت أحد رجلين : إما آمرؤ سَخَتْ نفسُك بالبَذْل فى الحقّ، ففيم آحتجابُك من واجب حقّ تُعطيه أو فعلِ كريم تُسديه؟ وإما آمرؤ مُبْتَلًى بالمنع، فما أسرعَ كفَّ الناس عن مسألتك إذا يئسوا من ذلك! مع أنّ أكثرَ حاجات الناس إليك مما لا مئونة فيه عليك من شَكاة مَظْلَمَة أو طلبِ إنصافٍ فى معاملة .

ثم إن للوالى خاصـةً وبطانةً فيهم آستئثارٌ وتطاوُل [وقلّة إنصاف فى معاملة]، فآحسِم مادّة ذلك بقطع أسباب تلك الأحوال . ولا تُقْطِعنّ لأحد من حاشيتك وخاصّتك

---

(١) كذا فى نهج البلاغة، وفى الأصل : "من ذلك ..." .

قطيعة، ولا يَطْمَعَنّ [منـ]ـك [في] آعتقاد عُقْدَة تضرّ[(١)] بمَن يليها من [الناس في] شِرْب أو عمل مشترَك يحملون مئونته على غيرهم، فيكون مَهْنَأُ ذلك لهم دونك، وعَيْبُه عليك في الدنيا والآخرة .

وألْزِم الحقّ مَن لَزِمه من القريب والبعيـد، وكن في ذلك صابرا مُحتسبا واقعا ذلك من قرابتك وخاصّتك حيث وقع؛ وآبتغِ[(٢)] عاقبتَه بما يثقُل عليك منه، فإن مَغَبَّة ذلك محمودة . وإن ظنّت الرعيّـة بك حَيْفا فأَصْحِر[(٣)] لهم بعُذْرك وآعْدِل عنك ظنونهم بإصحارك، فإن في ذلك إعذاراً تبلُغ به حاجتك من تقويمهم على الحقّ .

ولا تدفعَنّ صلحا دعاك إليه عدوّك [و] لله فيه رِضًا، فإن في الصلح دَعَةً لجنودك وراحةً من همومك وأمْناً لبلادك . ولكن آحذَر كلّ الحذر من عدوّك بعد صلحه، فإن العدوّ ربما قارب ليتغفّل، فخذ بالحزم وآتّهِمْ في ذلك حسنَ الظن . فإن عقدتَ بينك وبين عدوّك عُقْدة وألبسته منك ذِمّة فحُطْ عهدك بالوفاء وآرْعَ ذمّتك بالأمانة وآجعل نفسك جُنّة دون ما أعطيتَ، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناسُ[(٤)] أشـدّ عليـه آجتماعا مع تفرّق أهوائهم وتشتّت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود؛ وقد لَزِم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لِمَـا آستوبلوا[(٥)] من عواقب الغدر . فلا تغدُرنّ بذمّتك ولا تَخِيسَنّ بعهدك ولا تَخْتِلَنّ عدوّك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقيّ . وقد جعل الله عهده وذمّته أَمْناً قضاه بين العباد برحمته، وحَرَماً يسكنون إلى مَنَعَته ويستفيضون إلى جِوَاره، فلا إدغال ولا مدالسـة[(٦)] ولا خِداع فيه . ولا تَعْقِد عَقْدا (١٣)

(١) كذا في نهج البلاغة : وفي الأصل : «ولا تطمعنّ فيك اعتقاد عقدة فيضر ...» وهي مضطربة النسج ولا تؤدي المعنى المراد . والعقدة : الضَّيعة، واعتقادها : امتلاكها واقتناؤها . (٢) كذا في نهج البلاغة وفي الأصـل : «واتبع ...» وهو تحريف . (٣) الإصحار بالأمر : إظهاره .

(٤) كذا في نهج البـلاغة وفي الأصل : «فانه ليس من فرائض الله شيء إلا الناس ... الخ» .

(٥) كذا في نهج البلاغة . واستوبل الشيء اذا تركه لوخامته وان كان محبّا له، وفي الأصـل «لما استولوا عليه ...» . (٦) كذا في نهج البلاغة «والمدالسة» : الخيانة، وفي الأصل «مخالسة» .

تجوز فيه العِلَل . ولا تُعَوِّلَنّ على لَحْنِ قول بعد التأكيد والتوثقة . ولا يدعُوَنَّك ضيق أمرٍ لزمك فيه عهدُ الله إلى طلب انفساخه بغير الحقّ ، فإنّ صبرك على ضيقٍ ترجو انفراجه وفضلَ عاقبته خير من غدر تخاف تَبِعَتَه وأن تُحيطَ بك من الله طِلْبَة فلا تستقيل(١) فيها دنياك ولا آخرتَك .

إيّاك والدماءَ وسَفْكَها بغير حِلِّها، فإنه ليس شىء أدعى لِنقْمةٍ ولا أعظم تَبِعةً ولا أحرى بزوال نعمةٍ وانقطاعِ مُدّة من سفك الدماء بغير حقّها، والله سبحانه مبتدئ بالحكم [بين العباد] فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة؛ فلا تُقَوِّيَنّ(٢) سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يُضعفه ويُوهنه بل يُزيله ويَنقُله. فلا عُذرَ لك عند الله ولا عندى فى قتل العَمْد، لإن فيه قَوَدَ البدن . فإن ابتُليت بخطأ وأفرط عليك سوطُك [أو سيفك] أو يدك بعقوبة؛ فإن فى الوَكْزة فما فوقها مَقْتَلة، فلا تطمحَنّ بك نَخْوةُ سلطانك عن أن تُؤدّى إلى أولياء المقتول حقّهم .

وإيّاك والإعجابَ بنفسك والثقةَ بما يُعجبك منها وحُبَّ الإطراء، فإن ذلك من أوثق فُرَص الشيطان فى نفسه ليَمْحَق ما يكون من إحسان المحسنين .

وإيّاك والمَنَّ على رعيتك بإحسانك، والتزيّدَ فيما كان [من فعلك]، وأن تَعِدهم فتُتْبِع مَوْعِدك بخُلف، فإن المَنّ يبطل الإحسان، والتزيّد يذهب بنور الحق، والخُلف يُوجب المقت عند الله والناس . قال الله تعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ ٱللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

(١) كذا فى نهج البلاغة وعليه يكون معنى الجملة : لا تطلب أن تقال منها لا فى دنياك ولا فى آخرتك . وفى الأصل : لاتستقلّ دنياك ولا آخرتُك . وهذه العبارة غير واضحة المعنى الا اذا زيدت عليها كلمة بها ، والمراد لاتقوم بحملها دنياك ولا آخرتُك . والطلبة اسم من المطالبة .

(٢) كذا فى نهج البلاغة ، وفى الأصل « فلا تقومن » .

و إياكَ والعَجَلةَ بالأمور قبل أوانها ، أو التسقُّط[١] فيها عند إمكانها ، أو اللَّجَاجةَ فيها إذا تنكّرتْ ، أو الوَهْنَ عنها إذا آستوضحتْ ؛ فضع كلَّ أمرٍ موضعَه وأوقع كلّ عملٍ موقعَه .

و إياكَ والاستئثارَ بمــا الناسُ فيه أُسوة[٢] ، والتغابىَ عما يُعنَى به مما قد وضح لعيون الناظرين ، فإنه مأخوذ منك لغيرك ، وعما قليــلٍ تنكشف عنك أغطيــة الأمور ويُنتصَف منك للظلوم .

آملكْ حَمِيّة أنفك وسَوْرة حدِّك وسَطْوة يدك وغَرْبَ لسانك ، وآحترس من كلّ ذلك بكفّ البادرة وتأخير السطوة حتى يسكُنَ غضبك فتملكَ الآختيار ، ولن تُحْكِم ذلك من نفسك حتى تكثُرَ[٣] همومُك بذكر المَعَاد إلى ربك .

والواجب عليك أن تتذكّر مامضى لمن تقدّمك من حكومة عادلة ، أو سُنّة فاضلة ، أو أثرٍ عن نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، أو فريضة فى كتاب الله ، فتقتدى بما شاهدت ممــا عملنا به فيها ، وتجتهد لنفســك فى آتّباع ما عَهِدتُ إليك فى عهدى هــذا ، وآستوثقتُ به من الحُجّة لنفسى عليك لكيلا تكون لك علّة عند تسرّع نفسك إلى هواها .

وأنا أسأل الله بسَعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كلّ ذى رغبة : أن يوفّقنى[٤] و إياك لمــا فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه و إلى خلقه ، مع حسن الثناء فى العباد وجميل الأثَر فى البلاد وتمــام النعمة وتضعيف الكرامة ، وأن يختِمَ لى ولك بالسعادة والشهادة . إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . تمّ العهد بعون الله تعالى .

وقيل : ينبغى للملك أن يسوق العُنْف باللطف ، والتوفير بالتوقير ، ولا يتخذَ أعوانا إلا أعيانا ، ولا أخِلّاء إلا أَجِلّاء ، ولا نُدَماء إلا كرماء ، ولا جلساء إلا ظُرَفاء .

(١) كذا فى نهج البلاغة . وفى الأصل : "التثبت" والمراد بالتسقّط : التهاون .

(٢) أسوة بمعنى سواء ، قال فى اللسان : القوم أسوة فى هذا الأمر أى حالهم فيه واحدة .

(٣) كذا فى نهج البلاغة ، وفى الأصل "وأن تحكم بذلك فى نفسك" .

(٤) أن يوفقنى ، مفعول "أسأل" وفى الأصل : "وتوفيق ..." وما هنا نقلناه عن نهج البلاغة .

# الباب الخامس

## من القسم الخامس من الفن الثانى

### فيما يجب على الملك للرعايا

ويجب على الملك أن يبسط لرعيّته من العدل بساطا، ويبنى لهم من الأمن فسطاطا، وينشر عليهم ألوية حلم خفقت ذوائبها، ويسلسل لهم أنهار بر امتدت دوائبها(١)، ويكفّ عنهم أكفّ المظالم، ويوكف عليهم سحائب المكارم. وأهمّ ما قدّم من ذلك "العدل".

---

## ذكر ما قيل فى العدل وثمرته وصفة الإمام العادل

والعدل واجب على كل من استُرعى رعيّةً من إمام وغيره؛ قال الله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ)، وقال تعالى: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) وقال تعالى (وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) وقال تعالى(يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَى) وقال تعالى (ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عدلُ ساعة (١٣)
فى حكومة خيرٌ من عبادة ستين سنة" وقال صلى الله عليه وسلم: "(٢)ألا كلّكم راعٍ وكلّكم مسئول عن رعيته فالإمام الذى على الناس راعٍ عليهم وهو مسئول عنهم والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى

---

(١) لعله «ذنائبها» جمع ذِنَاب وهو مسيل ما بين التلعتين.

(٢) نصه فى البخارى ومسلم يختلف عن الأصل فى بعض ألفاظ لا تخرجه عن معناه.

مسئولة عنهم والعبد راع على مال سيّده وهو مسئول عنه فكلّكم راع وكلكم مسئول عن رعيّته" قال بعض الشعراء :

فكلُّكُمُ راعٍ ونحن رعيّـة * وكلٌّ سيَلْقَى ربَّه فيُحاسِبُهْ

وقالت الحكماء : إمام عادل خير من مَطَر وابِل ، و إمام غَشُوم خير من فتنة تدوم .

يقال : إنّ جَمْشِيد(١) أحدَ ملوك الفرس الأُوَل ، لما ملَك الأقاليم عَمِـل أربعة خواتم : خاتَمًا للحرب والشُّرْطة وكتب عليه الأَنَاة ، وخاتما للخراج وكتب عليه العِمَارة ، وخاتما للبريد وكتب عليه الوحا(٢) ، وخاتما للظالم وكتب عليه العدل ، فبقيتْ هذه الرسومُ فى ملوك الفرس إلى أن جاء الإسلام .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : إذا كان الإمام عادلا فله الأجر وعليك الشكر ، و إذا كان جائرا فله الوِزْر وعليك الصبر .

وقال أَرْدَشِـير لابنه : يا بُنَىّ إن المُلك والعدل أخَوَان لا غِنى لأحدهما عن صاحبه ، فالمُلك أُسٌّ والعدل حارس ، فما لم يكن له أُسٌّ فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع ، يا بُنَىّ اجعل حديثك مع أهل المراتب ، وعطيّتك لأهل الجِهَاد ، وبِشْرك لأهل الدِّين ، وبِرّك لمن عناه ما عناك من ذوى العقول .

وقال بعض الحكماء : يجب على السلطان أن يلتزم العدل فى ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه ، وفى باطن ضميره لإقامة أمر دينه ، فإذا فسَـدت السياسة ذهب السلطان ، ومدارُ السياسة كلّها على العـدل والإنصاف ، فلا يقوم السلطان لأهـل الكفر والإيمان إلا بهما ، ولا يدور إلا عليهما .

---

(١) فى الأصل : «حشيد» بالحاء المهملة ، وصوابه جمشيد بالجيم المعجمة ، ومعناه : شعاع القمر .

(٢) الوحا : العجلة والإسراع ، ويمدّ .

وقال عبد الملك بن مَرْوان لبنيه : كلّكم يترشّح لهذا الأمر، ولا يصلُح له منكم إلا من له سيفٌ مسلول، ومالٌ مبذول، وعدلٌ تطمئنّ إليه القلوب .

وخطب سعيد بن سُوَيد بحِمْص، فحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناس، إن للإسلام حائطا مَنِيعا وبابا وثيقا؛ فحائطُ الإسلام الحقّ وبابُه العدل؛ ولا يزال الإسلام مَنِيعا ما آشتدّ السلطان؛ وليس شدّة السلطان قتلًا بالسيف ولا ضربا بالسَّوْط، ولكنْ قَضَاءٌ بالحقّ وأخذٌ بالعدل .

وكتب إلى عُمَرَ بن عبد العزيز بعضُ عُمّاله يستأذنه فى تحصين مدينة؛ فكتب إليه : حصّنها بالعدل ونقِّ طريقها من الظلم .

وقال معاوية : إنّى لأستحيي أن أَظلِم من لا يجد علىّ ناصرًا إلا الله .

وقال المهدىّ للربيع بن الجَهْم(١) وهو والٍ على أرض فارس: يا ربيع، آنشُر الحقّ وآلزَم القَصْد وآبسُط العدل وآرفُق بالرعيّة؛ وآعلم أن أعدل الناس مَن أنصف من نفسه، وأَجْوَرَهم من ظلم الناس لغيره .

وقال جعفر بن يحيى : الخراجُ عَمود المُلْك، وما آستُغزِر بمثل العدل، ولا آستُنزِر بمثل الظلم .

وقال عمرو بن العاص : لا سلطانَ إلا برجال، ولا رجالَ إلا بمال، ولا مال إلا بعِمارة، ولا عِمارة إلا بعدل .

وقيل : سأل الإسكندر حكماء بَابِل، فقال : أيّما أبلغ عندكم، الشجاعة أم(٢) العدل؟ فقالوا : إذا آستعملنا العدل آستغنينا عن الشجاعة .

(١) فى العقد الفريد ج ١ ص ١٣ : «ابن أبى الجهم» . (٢) فى الأصل «أو» والمقام يقتضى «أم» .

ولما جيء بالهُرْمُزَان ملِك خُوزِسْتان أسيرا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لم يزل الموكَّل به يقتفى أثَر عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى وجده بالمسجد نائما متوسِّدا دِرّته، فلما رآه الهُرْمُزَان قال : هذا هو الملك؟ قيل : نعم؛ فقال له : عدَلتَ فأَمِنت فنِمت ، والله إنى قد خدمت أربعة من ملوك الأكاسرة أصحاب التِّيجان فما هِبْتُ أحدا منهم هَيْبتى لصاحب هذه الدِّرّة .

وقالوا : إذا عَدَل الإمام خَصِب الزمان .

وقال ٱبن عبّاس رضى الله عنهما : إن الأرض لَتَزَيَّنُ فى أعيُن الناس إذا كان عليها إمامٌ عادل، وتَقْبُح إذا كان عليها إمام جائر .

وحُكى أن كسرى أَبْرَوِيز نزل متنكِّرا بامرأة، فحلَبت له بقرة فرأى لها لبنا كثيرا، فقال لها : كم يلزمُك فى السنة على هذه البقرة للسلطان؟ فقالت : درهم واحد؛ فقال : وأين تَرتَع وبكم منها يُنتَفع ؟ فقالت : ترتع فى أراضى السلطان، ولى منها قُوتى وقُوتُ عِيالى؛ فقال فى نفسه : إن الواجب أن أجعل إتاوة على البقور(١) فلأصحابها نفعٌ عظيم؛ فما لَبِث أن قالت المرأة : أوَّهْ! إن سلطاننا هَمّ بجَوْر؛ فقال أبْرَوِيز : لِمَهْ؟ فقالت : لأن دَرّ البقرة ٱنقطع، وإن جَوْر السلطان مُقْتَضٍ لجَدْب الزمان؛ فأقلع عما كان هَمّ به . وكان يقول بعد ذلك : إذا هَمّ الإمام بجور ٱرتفعت البَرَكة .

وقال سُقْراط : يَنْبُوع فَرَح العالَم الملكُ العادل، ويَنْبوع حُزْنِهم الملكُ الجائر .

---

(١) هكذا فى الأصل . والذى فى كتب اللغة التى تحت أيدينا من جموع هذا الاسم : بقر وأبقر وأبقار وأباقر وبُقّار وأبقور؛ وله أسماء جمع وهى باقر وبقير وبيقور وباقور وباقورة؛ ولعل ما فى الأصل جمع لبقر والقياس لا يأباه فإن من النحويين من ذهب الى أن فَعَلا يجمع قياسا على فعول كأسد وأسود وذكر وذكور .

(١٤) وقال الفضيل : لو كان عندى دعوةٌ مستجابة لم أجعلها إلا فى الإمام، فإنه إذا صلَح أخصبت البلاد وأَمِنت العباد ؛ فقبّل آبن المبارك رأسه وقال : لا يحسِنّ هذا غـيرُك .

وقال قُدَامة : حسبكم دلالةً على فضيلة العدل أن الجَوْر الذى هو ضـدّه لا يقوم إلا به؛ وذلك أن اللصوص إذا أخذوا الأموال وآقتسموها بينهم آحتاجوا إلى آستعمال العدل فى آقتسامهم و إلا أضرّ ذلك بهم .

صفة الإمام العادل — كتب عمر بن عبد العزيز لمـا وَلِى الخلافة إلى الحسن آبن أبى الحسن البَصرى أن يكتب له بصفة الإمام العادل؛ فكتب إليه الحسن : اِعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قِوَامَ كلّ مائل، وقَصْدَ كل جائر، وصلاحَ كلّ فاسد، وقوّة كلّ ضعيف، ونَصَفة كلّ مظلوم، ومَفْزَع كلّ ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق [ على إبله ] (١) والحـازم الرفيق الذى يرتاد لهـا أطيب المراعى، ويذُودها عن مراتع الهَلَكَة، ويحميها من السباع، ويكْنُفها من أذى الحرّ والقُرّ. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على وَلَده، يسعى لهم صِغارا، ويعلّمهم كبارا، يكتسب لهم فى حياته، ويدّخر لهم بعد وفاته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأمّ الشفيقة البَرّة الرفيقة بولدها، حملته كُرْها، ووضعته كُرْها، وربّته طفلا، تسهر لسهره وتسكن لسكونه، وتُرْضعه تارة وتَفْطِمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشِكَايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصىّ اليتامى، وخازن المساكين، يربّى صغيرهم، ويَمُون كبيرهم. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلُح الجوارح بصلاحه، وتفسُد بفساده . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله و بين عبـاده، يَسْمع كلام الله ويُسمعهم، وينظُر إلى الله ويُريهم، وينقاد لله ويَقُودهم . فلا تكن

(١) زيادة عن العقد الفريد (جزء أوّل ص ١٤) .

يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ائتمنه سيّده واستحفظه مالَه وعيالَه، فبدّد المـال وشرّد العِيال فأفقر أهله وأهلك مالَه .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجُر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف [إذا أتاها من يليها! وأن الله أنزل القِصاص حياة لعباده، فكيف] (1) إذا قتلهم من يقتصّ لهم ! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلّة أشياعك (2) عنده وأنصارك عليه، فتزوّد له وما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت به، يطول [فيه] (1) ثواؤُك، ويفارقك أحبّاؤك، ويُسلمونك فى قعْره فريدا وحيدا، فتزوّد له ما يصحَبك يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . واذكر يا أمير المؤمنين إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ، وحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مَهَل، قبل حلول الأَجَل، وانقطاع الأَمَل، لا تَحْكُمْ يا أمير المؤمنين فى عبـاد الله بحُكم الجاهلين، ولا تسلُكْ بهـم سبيلَ الظالمين، ولا تُسَلِّطْ المستكبرين على المستضعَفين، فإنهـم لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، فتبوءَ بأوزارك وأوزارٍ مع أوزارك، وتَحمّلَ أثقالك وأثقالا مع أثقالك . ولا يَغُرَّنّك الذين ينعَمون بمـا فيه بُؤْسك، ويأكلون الطيّبات من دنيـاهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك . ولا تنظُرَنّ إلى قدرك (3) اليوم، ولكن انظر إلى قدرك (3) غدا وأنت مأسور فى حبائل الموت، وموقوف بين يدى الله تعالى فى مَجْمع الملائكة والمُرْسَلين، وقد عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ . إنى يا أمير المؤمنين إن لم أبلُغ فى عِظَتى ما بلغه أولو النُّهى قبلى، فلم آلُك شَفَقَةً ونُصْحا، فأَنْزِلْ كتابى هـذا إليك كمُداوى حبيبه يَسْقيه

(1) زيادة عن العقد الفريد، جزء أول ص ١٤ (2) كذا فى العقد الفريد، وفى الأصل «امتاعك»

(3) كذا فى الأصل . وفى العقد الفريد : قدرتك .

الأدوية الكريهة لما يرجو له بذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

وحيثما ذكرنا العدل وصفة الإمام العادل فلنذكر الظلم وسوء عاقبته .

---

## ذكر ما قيل فى الظلم وسوء عاقبته

قال الله تعالى : ( أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ) . وقال تعالى : (وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) . وقال تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ مُهْطِعِينَ ) ؛ قيل : هذا تعزية للمظلوم ووعيد للظالم . وقال تعالى : (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا) . وقال تعالى : (وَسَيَعْلَمُ (١٥) ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) . وقال تعالى : (وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) . وقال تعالى : (فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة إمامٌ جائر" وفى لفظ آخر : "أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدُّهم عذابا إمام جائر" . وقال صلى الله عليه وسلم : "اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب[1]" وفى لفظ : "فإنها مستجابة" .

ويقال : ما أنعم الله على عبد نِعْمةً فظَلَم بها إلا كان حقيقا على الله أن يُزيلها .

وقال الأحنف : إذا دعتْك نفسك إلى ظلم الناس فاذكر قدرة الله على عقوبتك ، وانتقام الله لهم ، وذهاب ما آتيتَ[2] إليهم عنهم . وقال يوسف بن أسباط : من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يُعصَى الله .

---

(١) فى الجامع الصغير : «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا فإنه ليس دونها حجاب» .

(٢) أى ما سقته إليهم من الظلم .

وروى فى الحديث : " إن الله تعالى يقول وعزّتى لأُجِيبَنّ دعوة المظلوم و إن كان كافرا " . وقال : "ما من عبد ظُلِم فشَخَص ببصره إلى السماء ثم قال : يا ربِّ، عبدك، ظُلِمتُ فلم أنتصِرْ إلا بك إلا قال الله لَبَّيك عبدى لأَنْصُرَنّك ولو بعد حين" .

وقيل : الظلم أدعى شىء إلى تغيير نِعْمةٍ وتعجيل نِقْمة .

وقال ٱبن عبّاس : ليس للظالم عهد، فإن عاهدته فانْقُضه، فإن الله تعالى يقول : (لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ) . وأجمعوا على أن المظلوم موقوف على النُّصْرة لقوله تعالى : (ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ ٱللَّهُ) . والظالم مَدْرجة العقوبة و إن تنفّست مدّته .

وقيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنـه : كان الرجل يُظْلَمُ فى الجاهلية فيدعو على مَن ظلمه فيُجاب عاجلا ولا يُرَى ذلك فى الإســلام؛ فقال : هــذا حاجز بينهم وبين الظلم، وإن مَوْعِدَكم الآن الساعةُ، وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ .

وقيل : تندمل من المظلوم جِراحُه، إذا ٱنكسر من الظالم جَنَاحُه . وقالوا : الجَوْر آفة الزمان، ومُحدث الحَدَثان، وجالب الإِحَن، ومسبِّب المِحَن، ومُحيل الأحوال، ومُمْحق الأموال، ومُخْلى الديار، ومُحيى البَـوَار . وهو مأخوذ(١) من قولهم : جار عن الطريق إذا نَكب عنها، فكأنه عَدَل عن طريق العدل وحاد عن سبيله .

وفى الإسرائيليّـات أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى عليه السلام : ياموسى، قل لبنى إسرائيل : تجنّبوا الظلم، وعزّتى وجلالى إن له عندى مَغَبّة، قال : يارب وما مغبته؟ قال : يُتْم الولد، وتقليل العَدَد، وٱنقطاع الأَمَد، والثَّوَاء فى النار .

وقد أوردنا فى ذلك ما يَكتفى به مَن يعلم أن الله تعالى مُسَائله ومُحاسبه، ومُناقشه غدا ومُطالبه، وجامع الناس ليوم لاريب فيــه، ومُوقف المظلوم لطلب حقّه ممن

(١) فى الأصل : «وهو مأخوذ به ... الخ» وظاهر أن كلمة «به» هنا مقحمة لغير حاجة .

ظلمه بمِلْء فيه؛ وربما يُعجِّل له العقوبة فى دنياه، و يضاعف عليه العذاب فى أُخراه، و يُريه عاقبة بَغْيه فى يوم ينظُر المرء ما قدّمت يداه . نسأل الله تعالى أن يَحمِيَنا أن نظلِم أو نُظلَم، وأن يجعلَنا ممن فوّض أمرَه إليه وسلّم، ولا يمتحنَنا بمكروه، فهو بضَعْفنا عن حَمْله أدرى، و بعجزنا أعلم، بمَنّه وكرمه .

## ذكر ما قيل فى حسن السِّيرة والرِّفق بالرعيّة

قال الله تعالى : (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ). ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أُعطِىَ حظَّه من الرفق فقد أُعطِىَ حظَّه من الخير كلِّه، ومن حُرِم حظَّه من الرِّفق فقد حُرِم حظَّه من الخير كلِّه" .

ولما وَلِى عمر بن عبد العزيز الخلافة أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب فقال لهما : أَشيرا علىّ؛ فقال له سالم : آجعل الناس أبًا وأخا وآبنا، فبِرّ أباك، وآحفظ أخاك، وآرحم آبنك . وقال محمد بن كعب : أَحبِب للناس ما تُحبّ لنفسك، وآكْرَهْ لهم ما تكْرَهُ لنفسك، وآعلم أنك أوّلُ خليفة يموت .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عَدِىّ بن أَرْطَاةَ : أما بعد، فإذا أمكنتْك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك، وآعلم أن ما لَك عند الله مثلُ ما للرعيّة عندك .

وقال المنصور لآبنه المهدىّ : يا بُنَىّ لا تُبْرِم أمرا حتى تفكّر فيه، فإن فكرة العاقل مرآته تُريه حسناته وسيئاته؛ وآعلم أن الخليفة لا يُصلِحه إلا التقوى، والسلطانَ لا يُصلِحه إلا الطاعة، والرعية لا يُصلحها إلا العدل[1]؛ وأَولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا مَن ظلم مَن هو دونه .

(١) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ١٧) وفى الأصل : «والطاعة» .

وقال خالد بن عبد الله القَسْرِىّ[١] لبـلال بن أبى بُرْدَة : لا يحملنّك فضلُ المقدرة على شدّة السَّطْوة ، ولا تطلب من رعيّتك إلا ما تبذُله لها ، فـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

وقيـل : لمـا آنصرف مَرْوان بن الحَكَم من مصر إلى الشام ، آستعمل آبنه عبد العزيز على مصر ، وقال له حين ودّعه : أرسـل حكيما ولا توصـه ؛ آنظر أىّ بَنِىّ[٢] إلى أهل عملك ؛ فإن كان لهم عندك حقٌّ غُدْوةً فلا تُؤخّره إلى عَشيّة ، وإن كان (١٦)
لهم عشيّةً فلا تُؤخّره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلّها تستوجبْ بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيّتك منك كَذِب ، فإنهم إن ظَهَر لهم منك كَذِب لم يصدّقوك فى الحق . وآستشرْ جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبِنْ لك فآكتب إلىّ يأتك رأيى فيه إن شاء الله . وإن كان بك غَضَب على أحد من رعيّتك فلا تُؤاخذه به عند سَوْرَة الغضب ، وآحبِس عقوبتَك حتى يسكُنَ غضبُك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب مُطفئاً الجمرة ، فإنّ أوّل من جعل السجن كان حليما ذا أناة ؛ ثم آنظر إلى أهل الحسب والدّين والمروءة ، فليكونوا أصحابَك وجلساءك ، ثم آرفع منازلهم منك على غيرهم على غير آسترسال ولا آنقباض . أقول هذا وأستخلف الله عليك .

---

(١) فى الأصل : «خالد البصرى» ، والتصويب عن العقد الفريد .

(٢) كذا فى العقد الفريد (ج ص ١٧ ) ، وفى الأصل : «وأى شىء» وهو تحريف .

# الباب السادس

## من القسم الخامس من الفن الثانى

في حسن السياسة، وإقامة المملكة، ويتصل به الحزم، والعزم، وآنتهاز الفرصة، والحلم، والعفو، والعقوبة، والآنتقام

فأما ما قيل فى حسن السياسة وإقامة المملكة، قالوا : مَن طلب الرياسةَ فليصبِرْ على مَضَض السياسة . ويقال : إذا صحّت السياسة تمّت الرياسة .

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجّاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه [بسيرته](١) فكتب إليه : إنّى أيقظتُ رأيى وأنمتُّ هواى، وأدنيتُ السيّدَ المُطاعَ فى قومه، ووليّت الحربَ الحازمَ فى أمره، وقلّدت الخَراجَ الموفَّرَ لأمانته، وقسمتُ لكلّ خَصْمٍ من نفسى قِسْمًا، أعطيته حظًّا من لطيف عنايتى ونظرى، وصرَفت السيفَ إلى النّطِف(٢) المسىء، [والثواب الى المحسن البرىء](١)؛ فخاف المُريب صولةَ العقاب، وتمسّك المُحسن بحظّه [من](١) الثواب . وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : يا أبت، ما السياسة؟ فقال : هيبةُ الخاصّة مع صدق مَوَدّتها، وآقتياد قلوب العامّة مع الإنصاف لها، وآحتمال هَفَوات الصنائع(٣) .

وقيل : بلغ بعضَ الملوك سياسةُ ملكٍ آخر فكتب اليه : قد بلغتَ من حسن السياسة مبلغًا لم يبلُغْه ملك فى زمانك، فأفِدْنى الذى بلغتَ به ذلك؛ فكتب إليه : لم أهزِلْ فى أمرٍ و[لا](٤) نَهْى ولا وعدٍ ولا وعيد، وآستكفيتُ أهل الكفاية وأثبْتُ على

(١) زيادة عن العقد الفريد، ج ١ ص ١٠ (٢) النطف : المريب . (٣) فى الأصل : «وأهل الصناعات» والتصويب عن عيون الأخبار (مجلد ١ ص ١٠) والصنائع جمع صنيعة، يقال : فلان صنيعة فلان إذا آصطنعه وخرّجه وأدّبه وربّاه . (٤) زيادة عن عيون الأخبار (مجلد ١ ص ١٠ طبع دار الكتب المصرية) .

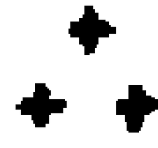
الغَناء لا على الهوى ، وأودعتُ القلوبَ هيبةً لم يَشُبْها مَقْت، ووُدًّا لم يَشُبْه كذب، وعمّمت القُوت، ومنعت الفضول . وقيل : إن أَنُوشِرْوان كان يُوَقِّع فى عهود الولاة : سُسْ خيارَ الناس بالمحبّة، وآمْزُجْ للعامّة الرغبةَ بالرهبة . ولما قدم سعدُ العشيرة فى مائة من أولاده على مَلِك حِمْيَر سأله عن صلاح المُلْك؛ فقال : مَعْدَلَةٌ شائعة، وهَيبةٌ وازعة، ورعيّة طائعة؛ ففى المعدلة حياة الإمام، وفى الهيبة نفىٌ للظُّلّام وفى طاعة الرعية حسن ٱلتئام . وقال أبو مُعاذ للمتوكّل : إذا كنتم للناس أهلَ سياسة فسوسوا كرامَ الناس بالرفق والبذل، وسوسوا لئام الناس بالذُّلّ يَصْلُحوا على الذلّ، إن الذلّ يُصلح النَّذْل . وقال أنوشِرْوان : الناس ثلاث طبقات، تسوسهم[(1)] ثلاث سياسات، طبقة هم خاصّة الأشراف، تسوسهم باللين والعطف، وطبقة هم خاصّة الأشرار، تسوسهم بالغِلْظة والعنف، وطبقة هم العامّة، تسوسهم بالشدّة واللين .

وقال مُعاوية بن أبى سُفْيان : إنى لا أَضَع سيفى حيث يكفينى سوطى، [ولا أضع][(2)] سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو أن بينى و بين العامة شعرةً[(3)] ما ٱنقطعت؛ قيل له : وكيف ذلك؟ قال : كنت إذا جذبُوها أرخيتها و إذا أرخَوْها جذبتها . وقال المأمون : أَسْوَسُ الملوك من ساس نفسه لرعيّته، فأسقطَ مواقعَ حُجّتها عنه وقطع مواقع حجّته عنها .

(١) فى الأصل « يسوسهم » بالياء، وكذلك بقية الأفعال فى هذه الجملة؛ وظاهر أن الخطاب هو الذى يستقيم معه اللفظ والمعنى .

(٢) زيادة عن العقد الفريد (ج ١ ص ١٠) .

(٣) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ١٠) وعيون الأخبار (مجلد ١ ص ٩) . والكثير فى جواب « لو » المنفى بما عدم ٱقترانه باللام .



وأما ما قيل فى الحزم والعزم وآنتهاز الفُرصة ، قالت الحكماء : أحزمُ الملوك من قَهَر جِدُّه هَزْلَه ، وغلَب رأْيُه هواه ، وأعربَ عن ضميره فعلُه ، ولم يختدعه رضاه عن سخطه ، ولا غضبُه عن كيده . وقيل لبعضهم : ما الحزم؟ فقال : التفكُّر فى العواقب . وقال عبد الملك بن مروان لآبنه الوليد : يا بُنَىّ ، آعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملِكَ الرعيّةَ أو تملكه الرعيّةُ إلّا حزْمٌ أو تَوَان . وقالوا : ينبغى للعاقل ألّا يستصغر شيئا من الخطأ والزَّلَل ، فإنّ من آستصغر الصغيرَ يُوشك أن يقع فى الكبير ، فقد رأينا المُلْك يُؤْتَى من العدوّ المحتَقَر ، ورأينا الصِّحّة تُؤْتَى من الداء اليسير ، ورأينا الأنهارَ (١٧) تنبثق من الجداول الصغار . وقال مَسْلَمة بن عبد الملك : ما أخذتُ أمرًا قطُّ بحزمٍ فلُمْتُ نفسى فيه وإن كانت العاقبةُ علىّ ، ولا أخذت أمرًا قطّ وضيّعت الحزم فيه فحمِدْتُ نفسى وإن كانت العاقبة لى . وقال عبد الملك لعمر بن عبد العزيز : ما العزيمة فى الأمر؟ فقال : إصدارُه إذا أُورد بالحزم؛ قال : وهل بينهما فرق؟ قال : نعم ، أمَا سمعتَ قول الشاعر :

ليستْ تكونُ عزيمةٌ ما لم يَكُنْ * معها من الحزم المشيَّد رافدُ

وقيل لملك سُلِبَ ملكَه : ما الذى سَلَبك ملكَك؟ فقال : [دفعُ شغلِ][1] اليومِ إلى غد ، والتماسُ عُدّة بتضييع عُدَد ، وآستكفاءُ كلِّ مخدوعٍ عن عقله[2] . والمخدوع [عن عقله][1] : من بلغ قدرًا لا يستحقّه أو أُثيب ثوابًا لا يستوجبه . وفى كُتُب الهند : الحازم يحذَر عدوّه على كل حال ، يحذر المُوَاثبةَ إن قرُب ، والمغارة[3] إن بعُد ، والكمينَ

(١) زيادة من العقد الفريد (ج ١ ص ١٨) . (٢) فى الأصل : « من عقله » .

(٣) كذا فى الأصل ، ولعله « المناورة » بمعنى الإغارة .

إن آنكشف ، والآستطرادَ إن ولّى . وقال صاحب كتاب كليلة ودمنـة : إذا عرَف الملك أنّ رجلًا يُسَاوَى به فى المنزلة والرأى والهِمّة والمـال وآتّبـع فليصْرَعْه، فإن لم يفعلْ فهو المصروع . وقيل : من لم يُقَدِّمْه حزمُه أخّره عجزُه . وقيـل : من آستقبل وجوهَ الآراء عرف مواقع الخطأ .

قال البُحتُرِىّ :

فَتًى لم يُضَيِّعْ وجهَ حزمٍ ولم يَبِتْ * يُلَاحِـظ أعجـازَ الأُمورِ تَعقُّبا

ومثله قول آخر :

وخيرُ الأمرِ ما آستقبلتَ منه * وليس بأن تَتَبَّعَـه آتّبـاعا

وقيل : من لم ينظر فى العواقب فقد تعرّض لحادثات النوائب . قال الشاعر:

ومَنْ ترك العواقِبَ مُهْمَلاتٍ * فأيسـرُ سَعْيِـهِ أبدًا تَبَـارُ

وقال صاحب كتاب كليلة ودمنة : رأسُ الحزمِ للملك معرفتُـه بأصحابه وإنزالُهم منازلَهم وآتّهـامُ بعضهم على بعض، فإنه إنْ وجد بعضُهم إلى هلاك بعضٍ سبيلًا أو إلى تهجين بَلَاءِ المُبلِين وإحسانِ المُحسنين والتغطيةِ على إساءة المُسيئين، سارَعوا الى ذلك، وآستحالوا[(١)] محاسنَ أمور المملكة، وهجّنوا محاسن رأيه؛ ولم يَبْرَح منهم حاسد قد أفسـد ناصحا ، وكاذبٌ قد آتّهم أمينـا ، ومحتالٌ قد أغضـب بريئا . وليس ينبغى للملك أن يُفسِـد أهلَ الثقة فى نفسه بغير أمرٍ يعرفه، بل ينبغى فى فضل حلمه وبَسْطَة علمه الخِبْطَةُ على رأيه فيهم، والمحاماةُ على حُرمتهم وذِمامهم، وألّا يرتاحَ[(٢)] إلى إفسادهم ، فلم يزل جُهّال الناس يحسدون علماءهم ، وجبناؤُهم شجعانَهم ، ولئامُهـم كرماءهم، وفجّارُهم أبرارَهم، وشِرارُهم خيارَهم .

(١) كذا فى الأصل . ولعله : « أحالوا » بمعنى غيّروا .

(٢) فى الأصل « ألا يريح » ولعل الصواب ما وضعناه .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : آنتهزوا هذه الفُرَص فإنها تمرّ مرّ السَّحاب، ولا تطلبوا أثرا بعد عَيْن .

وكتب يزيد بن الوليد إلى مَرْوان بن محمد، وقد بلغه عنه تلكّؤٌ فى بَيْعته : أما بعد، فإنى أراك تُقدِّم رِجلا وتؤخّر أخرى، فإذا أتاك كتابى فاعتمد أيّهما شئت والسلام .

وكتب عبد الله بن طاهر الخُراسانىّ إلى الحسن بن عمر التَّغلبىّ (١) : أما بعد، فإنه بلغنى من قَطْع الفَسَقة الطريقَ [ما بلغنى] (٢) ، فلا الطريقَ تَحمى ، ولا اللصوصَ تَكْفِى ،ولا الرعيةَ تُرضِى، وتطمع بعد هذا فى الزيادة! إنك لمنفسح الأمل! وآيم الله لتكفِيَنّ مَنْ قِبَلَك أو لأُوجِّهنّ إليك رجالا لا تعرِف مُرّةُ من جُشَم ، ولا عَدِيًّا من رُهْم (٣) . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قُتَيْبة بن مُسلِم والى خُراسان : أما بعد، فإن وَكيع ابن حسّان (٤) كان بالبصرة [منه] (٥) ما كان، ثم صار لِصًّا بسِجِسْتَانَ، ثم صار إلى خُراسانَ، فإذا أتاك كتابى هذا فآهدِم بناءه وآحلُلْ لواءه . وكان على شُرْطة قُتَيْبة فعزله وولّى الضَّبىّ .

---

(١) فى الأصل : الثعلبى وهو تحريف إذ هو الحسن بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب العدوى التغلبى . انظر ابن الأثير طبع أوربا ج ٧ ص ١٢٧ و ١٧٢ .

(٢) زيادة يقتضيها السياق وفى العقد الفريد «ما بلغ» (ج ١ ص ٢٠) .

(٣) كذا فى العقد الفريد «رهم» بالراء وهو بطن من بطون العرب وفى الأصل : «دهم» .

(٤) فى الأصل : «حيّان» والتصويب عن العقد الفريد والطبرىّ .

(٥) زيادة يقتضيها المقام .

## ذكر ما قيـــل فى الحلم

الحلم دفع السيئة بالحسنة . وقيل : تجرّع الغيظ(١) . وقيل : الحلم دِعَامة العقل، وقال الله تعالى : (وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) .

وقال علىّ رضى الله عنه : حلمُك عن السفيه يُكثر أنصارَك عليه .

وقيل : ليس الحليم من إذا ظُلِم حَلُمَ حتى إذا قَدَر آنتصر، ولكن الحليم من ظُلِم فإذا قَدَر غفر(٢) .

(١٨) وقيل : الحليم من لم يكن حِلْمه لفقد النُّصرة أو لعدم القــدرة . وهو جوهر فى الإنسان يَصْــدُر عن صدر سالم من الغوائل والأذى، صافٍ من(٣) شوائب الكَدَر والقَذَى؛ لا يُستطاع تعلّما، ولا يُدرك تبصُّرا وتفهّما؛ كما قال أبو الطيّب :

وإذا الحلمُ لم يكن فى طِباع * لم يُحَــلِّم تقادمُ الميــلادِ(٤)

ويدلّ على ذلك أنه غريزة فى الإنسان . وقد رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأشجّ عبد القَيْس : "يا أبا المنذر إن فيك خَصْلتين(٥) يرضاهما الله ورسوله الحلم والأناة" فقال : يارسول الله، أشىء جَبَلَنى الله عليــه أم شىء آخترعتُه من قِبَل

(١) فى الأصل : «الغليظ» .

(٢) عبارة الإحياء فى شطر هذه الجملة الأخيرة «ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا» .

(٣) فى الأصل : «صاف عن شوائب ...الخ» والمقام تقتضى «من» .

(٤) ورد هذا البيت فى ديوان المتنبى هكذا :

وإذا الحلم لم يكن عن طباع * لم يكن عن تقادم الميــلاد

(٥) فى الإحياء للغزالى «خلقين يحبهما ...» (ج ٣ ص ١٢٢) طبع المطبعة الميمنية .

نفسى؟ قال : "بل شىء جَبَلَك الله عليه"؛ قال : الحمد لله الذى جبلنى على خُلُق يرضاه الله ورسوله .

ومن الناس من يقول : إن الحلم ليس غريزة ولا طبيعة بل مكتسَب مستفاد، تمترن النفس الأبيّة عليه، وتنقاد حُبًّا فى المَحْمَدة إليه .

وقالوا : الحلم بالتحلُّم كما أن العلم بالتعلّم . ويدلّ على ذلك ما حُكى عن جعفر الصادق أنه كان عنده عبد سيّئ الخُلُق، فقيل له : أما تأْنف [من](١) مثل هذا عندك وأنت قادر على الآستبدال به؟ فقال : إنما أتركه لأتعلَّم عليه الحلم . ويحكى عنه أنه كان إذا أذنب إليه عبد أعتقه؛ فقيل له فى ذلك؛ فقال : أريد بفعلى هذا تعلّم الحلم . قال الشاعر :

وليس يتمّ الحلم للمرء راضيا * إذا هو عند السُّخط لم يتحلَّم
كما لا يتمّ الجُودُ للمرء مُوسرًا * إذا هو عند القَتْر لم يتخشّم(٢)

ورُوى عن سَرِىّ السَّقَطِىّ أنه قال : الحلم على خمسة أوجه : حلم غريزىّ، وهو هِبة من الله للعبد، يعفو عمّن ظلَمه، ويَصِل من قطعه، ويُعطى مَن حرمه، ويُحسن لمن أساء إليه؛ وحلمُ تحالُم، يَكْظِم غيظه رجاءَ الثواب وفى القلب كراهيَة؛ وحلم كِبْر، لا يرى المسىءَ أهلا أن يُجاريه؛ وحلم مذموم، رِياء وسُمعة وهو حاقد ساكت يُرائى به جلساءه؛ وحلم مَهانة وذِلّة وعجز وضعف نفس وصِغَر هِمّة .

وقال أبو هلال العسكرىّ : أجمع كلمة سمعناها فى الحلم ما سمعتُ عمِّى أبى يقول : الحليم ذليل عزيز؛ وذلك أن صورة الحليم صُورة الذليل الذى لا آنتصارَ له، وآحتمال السفيه والتغافل عنه فى ظاهر الحال ذلّ وإن لم يكن به . وقيل : "[الحليم](٣) مطيّة الجهول" لآحتماله جهلَه وتركه الآنتصافَ منه . وقال الأوّل البيتين وقد تقدّما .

---

(١) زيادة يقتضيها آستعمال اللغة، ولعلها سقطت من الناسخ . (٢) يتخشم : يتذمّم ويستحى .

(٣) زيادة عن ديوان المعانى لأبى هلال العسكرىّ (ج ١ ص ١٠٨ مخطوط ومحفوظ بدار الكتب المصرية) .

[ولهذا][1] قال شيخ من الأعراب وقد قيل له : ما الحلم؟ فقال: الذى تصبِرُ عليه . وقال : الحلم عِقال الشرّ، وذلك أن من سمع مكروهة فسكت عنها آنقطعت عنه أسبابها، وإن أجاب آتصلت بأمثالها[2] .

وقالوا : الحلم والأناة توءمان ينتجهما علوّ الهمة .

ومن كلام النبوّة : "كاد الحليم أن يكون نبيًّا" .

ورأى حكيمٌ رِقّة من ملِك فقال : أيها الملك! ليس التاج الذى يفتَخِر به عظماء الملوك فضّةً ولا ذَهَبا، ولكنه الوَقَار المكَلّل بجواهر الحلم، وأحق الملوك بالبَسْطة، مَن حَلُم عند ظهور السَّقطة .

وقال معاوية لآبنه يزيد : عليك بالحلم والآحتمال حتى تُمْكِنك الفُرصة ، فإذا أمكنتك فعليك بالصفح، فإنه يدفع عنك مُعضِلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور . وقال أيضا : أفضل ما أُعْطِىَ الرجُلُ الحلمُ . وقال : ما وجدتُ لذّة هى عندى ألَذّ من غيظ أتجرّعه وسَفَه بحلم أقمَعه .

وقالوا : الحلم مطيّة وطيئة تبلّغ راكبَها قاصية المَجْد، وتملّكه ناصيةَ الحمد .

وقال أبو هلال : ومن أشرف نُعوت الإنسان أن يُدعى حليمًا، لأنه لا يُدعاه حتى يكون عاقلا وعالما ومُصْطبِرًا مُحتسِبا وعَفُوّا وصافحا ومُحتمِلا وكاظما . وهذه شرائف الأخلاق وكرائم السجايا والخصال .

## ذكر أخبار من آشتهر بالحلم وآتصف به

كان ممن آشتهر بالحلم الأحْنَف بن قيس . قيل له : ممّن تعلّمت الحلم؟ قال : من قيس بن عاصم المِنْقَرىّ، رأيته قاعدا بفِناء داره مُحتَبِيا بحمائل سيفه يحدّث قومه، حتى أُتِى بمكتوف ورجلٍ مقتول، فقيل له : هذا آبن أخيك قتل آبنَك،

(١) زيادة عن ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى . (٢) زيادة عن ديوان المعانى لأبى هلال العسكرىّ وفى الأصل : «بأسبابها» .

قال : فوالله ما حَلّ حُبْوته ولا قطع كلامه ، ثم ٱلتفتَ إلى ٱبن أخيه فقال : يابن أخى أثمت بربّك ، ورَمَيت نفسك بِسَهْمك ، وقتلت ٱبن عمك ؛ ثم قال لٱبن له آخر : قم يا بُنَيّ فوارِ أخاك وحُلّ كِتَاف ٱبن عمك وسُق إلى أمك مائة ناقة دِيَة ٱبنها فإنها غَرِيبةٌ . وقد ساق أبو هلال هذه القصة بسند وزاد فيها زيادة حسنة نذكرها ، فقال : (١٩)

إن قيس بن عاصم لما فرغ من حديثه ٱلتفت إلى بعض بَنِيه ، فقال : قم إلى ٱبن عمك فأطلقه ، وإلى أخيك فادفِنْه . فبدأ بإطلاق القاتل قبل دفن المقتول .

وقال فى خبره : ثم ٱتكأ على شِقّه الأيسر وقال :

إنى ٱمرؤٌ لا يَعترِى خُلُقِى[1] * دَنَس يُفَنِّده ولا أُفْنُ[1]
من مِنْقَرٍ فى بيت مَكْرُمةٍ * والفرعُ ينبُت فوقه الغُصُنُ
خُطَبَاءُ حين يقول قائلهم * بيضُ الوجوه مَصَاقِعٌ لُسُنُ[2]
لا يَفْطِنُون لعيب جارِهِمُ * وهُمُ لحفظ جِوَارِه فُطُنُ

وقيل : قُتِل للأحنف بن قيس ولد وكان الذى قتله أخ للأحنف ، فجىء به مكتوفا لِيُقِيدَه ؛ فلما رآه الأحنف بكى ، وأنشد :

أقول للنفس تأسَاءً وتعزِيةً * إحدى يَدَيّ أصابتنى ولم تُرِدِ
كلاهما خَلَفٌ من فَقْد صاحبه * هذا أخى حين أدعوه وذا وَلَدِى

وممن ٱشتهر بالحلم "معاوية بن أبى سفيان" . حكى أن رجلا خاطر[3] رجلا أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كَفَله ويقول : سبحانَ الله يا أمير المؤمنين!

(١) رواه فى العقد الفريد (ج ١ ص ١٧) :

إنى ٱمرؤ لا يطّبى حسبى * دَنَس يُهجّنه ولا أفن

وفى عيون الأخبار لابن قتيبة (مجلد ١ ص ٢٨٦ طبع دار الكتب المصرية) :

إنى ٱمرؤ لا شائنٌ حَسَبى * دنس يُغيّره ولا أفن

(١) الأُفْنُ : النقص . (٢) فى العقد الفريد ، وعيون الأخبار "أعِفّة" . (٣) يقال : خاطره على الأمر : راهنه عليه .

ما أشبهَ عُجَيزَتَك بعجيزة أُمّك هند-! ففعل ذلك ؛ فلما آنفتل معاوية عن (١) صلاته قال له : يا أخى ، إن أبا سفيان كان محتاجا إلى ذلك منها ؛ فخذ ما جعلوه لك . فأخذه ؛ ثم خاطره آخر بعد ذلك أن يقوم إلى زِياد وهو فى الخطبة فيقول : أيها الأمير، مَن أُمّك ، ففعل ؛ فقال زياد : هذا يُخبرك ،وأشار إلى صاحب الشُّرْطَة ، فقدّمه وضرب عُنُقه ؛ فلما بلغ ذلك معاويةَ قال : ما قتله غيرى ، ولو أدّبتُه على الأولى ما عاد إلى الثانيـــة .

قيل : ودخل خُرَيْم الناعم على معاوية بن أبى سفيان فنظر معاوية إلى ساقَيه ، فقال : أىُّ ساقَيْن ! لو أنهما على جارية ! فقال له خُرَيم : فى مثل عُجَيزتك يا أمير المؤمنين ؛ فقال : واحدةٌ بواحدة والبادئ أظلم .

وقيـــل : خاطر رجل على أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو فى الخطبة فيقول له : أيها الأمير، مَن أُمّك ؛ ففعل ؛ فقال عمرو : النابغةُ بنت عبد الله أصابَتْها رماح العرب فبِيعت بعُكَاظ ؛ فاشتراها عبد الله بن جُدْعان فوهبها للعاصى بن وائل فولدت له فأنجبت ، فإن كانوا جعلوا لك شيئا فخذه .

وقيـــل : أسمعَ رجل عمرَ بن عبد العزيز بعضَ ما يكره ؛ فقال : لا عليك ، إنمـا أردتَ أن يستفزّنى الشيطان بعزّ السلطان فأنالَ منك اليومَ ما تنالُه منّى غدًا ، آنصرف إذا شئت .

حكى صاحب العِقْد عن آبن عائشـة أن رجلا من أهل الشأم دخل المدينة ، قال : فرأيتُ رجلا راكبًا على بغـلة لم أَرَ أحسنَ وجهًا ولا سَمْتا ولا ثوبًا ولا دابّةً منه ، قال : فمال قلبي إليه ، فسألت عنه ، فقيل : هذا الحسن بن علىّ بن أبى طالب ، فامتلأ قلبي بُغْضًا له وحسدت عليًا أن يكون له ولدٌ مثلُه ، فصرت إليه فقلت : أنت

(١) فى الأصل : «من» وهذا يخالف الآستعمال اللغوى ؛ فإنه يقال : انفتل عن كذا إذا آنصرف عنه .

آبن أبي طالب ؟. قال : أنا آبن آبنه ؛ قلتُ : قلتُ فيك وفي أبيك أشمُّهما ، فلما آنقضى كلامي ، قال : أحسَبكَ غريبا ؛ فقلت : أجل ؛ قال : فإن آحتجتَ إلى منزل أنزلناك أو إلى مالٍ آسيناك أو إلى حاجةٍ عاونّاك ؛ فانصرفت وما على الأرض أحبُّ إليَّ منه .

حدّث زياد عن مالك بن أنس قال : بعث إليَّ أبو جعفر المنصور وإلى آبن طاوس ؛ فأتينا فدخلنا عليه ، فإذا هو جالس على فُرُش قد نُضِدت ، وبين يديه أَنْطَاعٌ قد بُسِطت ، وجلاوِزَةٌ(١) بأيديهم السيوف يضربون بها الأعناق ، فأومأ إلينا أن آجلسا فجلسنا ، ثم أطرق عنا طويلا ، ثم رفع رأسه وآلتفت إلى آبن طاوُس فقال : حدّثني عن أبيك ؛ قال : نعم ، سمعت أبي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجورَ في عدله" ؛ فأمسك ساعة ؛ قال مالك : فضممتُ ثيابي من ثيابه مخافةَ أن يملأني من دمه ؛ ثم آلتفت إليه أبو جعفر فقال : عِظْني يابن طاوس ؛ قال : نعم يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِي ٱلْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ) ؛ قال مالك : فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني دمه ؛ فأمسك ساعة حتى آسودَّ ما بيننا وبينه ، ثم قال : يابن طاوس ناولني هذه الدواة ؛ فأمسك ؛ فقال : ما يمنعك أن تناولَنيها ؟ قال : أخشى أن تكتب بها معصيةً لله فأكونَ شريكَك فيها ؛ فلما سمع (٣٠) ذلك قال : قُوما عنّي ؛ فقال آبن طاوس : ذلك ما كنّا نبغي منذ اليوم . قال مالك : فما زلتُ أعرف لآبن طاوس فضلَه .

(١) الجلاوزة جمع جلواز بكسر الجيم : الشُّرَطي .

وقيل : دخل الحارث بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة ؛ فقال : أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك الرشيد ، وذكر قوله فلم يُعجب المأمونَ ، فقال : لقد تَتَيَّستَ فيها وتَتَيَّس مالك ؛ فقال الحارث بن مسكين : فالسامع يا أمير المؤمنين من التيسين أتيس ؛ فتغيّر وجه المأمون ، وقام الحارث وندم على ما كان منه ؛ فلم يستقرّ في منزله حتى أتاه رسول المأمون ، فأيقن بالشرّ ولبس ثيابَ أكفانه ، ثم أقبل حتى دخل عليه ، فقرّبه المأمون من نفسه ، ثم أقبل عليه بوجهه وقال له : يا هذا ، إنّ الله تبارك وتعالى قد أمر مَنْ هو خيرٌ منك بالإلانة القول لمن هو شرٌّ منّى ، قال لنبيّه موسى صلى الله عليه وسلم إذ أرسله إلى فرعون : (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) ؛ فقال الحارث بن مسكين : يا أمير المؤمنين ، أبوءُ بالذنب وأستغفر الربّ ؛ فقال : عفا الله عنك ، آنصرف إذا شئت .

وقد مدح الشعراء ذوى الحلم ، فمن ذلك قولُ بعضهم :

لن يُدرِكَ المجدَ أقوامٌ وإن كَرُمُوا * حتّى يذِلُّوا — وإن عَزُّوا — لأقوامِ
ويُشتَمُوا فترى الألوانَ مُسْفِرَةً(١) * لَا ذلَّ عجزٍ ولكنْ ذُلَّ أحلامِ

وقال آخر :

لقد أَسمعُ القولَ الذى هو كلّما * تُذَكِّرُنِيهِ النفسُ قلبِي يُصَدَّعُ
فأُبدِى لمن أبداه منّى بشاشةً * كأنّى مسرورٌ بما منه أسمعُ
وما ذاك من عجزٍ به غيرَ أنّنى * أَرَى أنَّ تَرْكَ الشرِّ للشرّ أدفعُ

وقال مِهيار :

وإذا الإباءُ المُرُّ قال لك : آنتقِمْ * قالت خلائقُك الكرامُ : بل آحلُمِ

(١) مسفرة : مشرقة سرورا .

شَرعٌ من العفو انفردتَ بدِينِه[1] * وفضيلةٌ لسواك لم تتقدَّمِ
حتَّى لقد ودَّ البرىء لو انَّهُ * أدْلى إليك بفضل جاه المُجرِمِ

وقال آخر :

فدهرُهُ يصفَحُ عن قدرةٍ * ويغفِر الذنبَ على علمِه
كأنَّه يأنَفُ من أنْ يرى * ذنبَ امرئٍ أعظمَ من حلمِه

وقال آخر :

أسدٌ على أعدائه * ما إن يَذِلُّ ولا يهُون
فإذا تمكّن منهمُ * فهناك أحلمُ ما يكون

وقال محمود الورّاق :

إنّى وهبتُ لظالمى ظُلْمِى * وغفرتُ زلّتَهُ على علمى
ورأيتُهُ أسْدَى إلىّ يدًا * لمّا أبانَ بجهله حلمى
فكأنّما الإحسانُ كان لَهُ * وأنا المسىءُ إليه فى الحكم
ما زال يظلِمُنى وأرحمُهُ * حتّى بكَيْتُ لهُ من الظلم

وقال آخر :

وذِى رَحِمٍ قلَّمْتُ أظفارَ ضِغْنِهِ * بحلمِىَ عنهُ حين[2] ليس له حلمُ
إذا سُمْتُهُ وصلَ القرابةِ سامَنِى * قطيعتَها، تلك السفاهةُ والإثمُ
فداويتُهُ بالحلم، والمرءُ قادرٌ * على سهمه ما كان فى كفِّه السهمُ
لأستلَّ منه الضِّغْنَ حتّى سلَلْتُهُ * وإن كان ذا ضغنٍ يضيقُ به الحزمُ

---

(١) كذا فى ديوان مهيار . وفى الأصل : « المجد » . (٢) كذا فى الأصل، ورواية الأمالى (ج ٢ ص ١٠٣ طبع بولاق) : « وهو ليس ...... » والأبيات من قصيدة طويلة لمعن بن أوس .

(٢١) وقد كره بعضهم الحلمَ فى كل الأمور، فمن ذلك ما أنشد المبرّد :

أبا حَسَنٍ ما أقبحَ الجهـلَ بالفتَى * وللحِلْمُ أحيانا من الجهـل أقبحُ
إذا كان حلمُ المـــرءِ عونَ عدوِّه * عليـه فإنّ الجهـلَ أَعْفَى وأروحُ

وقال آخر :

ترفّعتُ عن شتم العشيرةِ إنّنى * رأيتُ أبى قد عفّ عن شتمهم قبلى
حليمٌ إذا ما الحـــلم كان جلالة (١) * وأجهلُ أحيـانًا إذا ٱلتمسوا جهلى

وقال آخر :

* إذا الحلم لم ينفعك فالجهل أحزم *

وقال الأحنف : آفة الحلم الذّلّ . وقال : لاحلم لمن لاسفيه له . وقال : ماقلّ سفهاء قومٍ إلا ذَلّوا . وقال النابغة الجَعْدىّ :

ولا خيرَ فى حلم إذا لم تكن لَهُ * بوادرُ تَحْمِى صفوَهُ أن يُكَدَّرا
ولا خيرَ فى جهلٍ إذا لم يكن له * حليمٌ إذا ما أَوْرد (٢) الأمرَ أصدرا

ولمـا أنشد هذين البيتين النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال : "أجدت لا يُفْضِضِ (٣) اللهُ فاك "؛ قال : فعاش مائةً وثلاثين سنة لم تنفضّ له ثَنِيّة .

وقال كعب بن زُهَيْر :

إذا أنت لم تُعْرِض عن الجهلِ والخَنَا * أصبتَ حليمًا أو أصابك جاهـلُ

---

(١) كذا فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرىّ ؛ وفى الأصـــل : " إذا ما الجهل كان حلالة "، ورواية الأغانى (ج ١٢ ص ٥٦ طبع بولاق) : " حليما إذا ما الحلم كان مروءة ".

(٢) كذا فى جمهرة أشعار العرب (طبع مطبعة بولاق الأميرية) وفى الأغانى أيضا (ج ٤ ص ١٢١). وفى الأصل : "حليم اذا هاجه الأمر أصدرا " .

(٣) كذا فى الأغانى (ج ٤ ص ١٢١ طبع بولاق) وفى الأصل : « لاتفضض » ونصه فى العقد الفريد (ج ١ ص ٢١٨) ، كما فى الأغانى ولم يذكر لفظ : « أجدت » .

# ذكر ما قيل فى العفو

قال الله تعالى : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . وقال تعالى : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) . وقال تعالى : (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) . وقال تعالى : (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) . وقال : (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) . وقال تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ العفوَ لا يزيدُ العبدَ إلا عزّا فاعفُوا يعزّكم الله". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان يومُ القيامة وجمع الله الخلقَ فى صعيدٍ واحدٍ حيث يُسمعهم الداعى وينفُذُهم البصر[(1)] يُنادِى مُنادٍ من تحت العرش ألَا مَنْ كان له على الله حقٌّ فليقمْ فلا يقوم إلا مَنْ عفا عن مُجرم". وفى لفظ "ينادى منادٍ يوم القيامة ألَا من كان له أجر على الله فليقم، فيقوم العافون عن الناس". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما من إمامٍ عفا بعد قُدرة إلا قيل له يوم القيامة ادخل الجنّة بغير حساب" . وقال مُعاذ بن جبل : لمـا بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال لى : "يا مُعاذ مازال جبريلُ يُوصينى بالعفو فلولا عِلْمى بالله لظننت أنه يُوصينى بترك الحدود" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من عفا عن مَظْلمةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ فأجرُه على الله ومن كان أجره على الله فهو من المقرّبين يوم القيامة" .

وعن علىّ بن الحسين أنه قال : إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ : ليقُمْ أهلُ الفضل[(2)] فيقوم ناس، فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة، فتتلقّاهم الملائكةُ وهم سائرون فيقولون لهم :

(١) فى الأصل : "وينفدهم الصبر" والتصويب عن الإحياء (ج ٣ ص١٢٦ طبع المطبعة الميمنية) .

(٢) فى الإحياء أن هذا حديث رواه البيهقىّ فى الشعب من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه . قال البيهقىّ : فى إسناده ضعف . انظر (ج ٨ ص ٣٢) من شرح الإحياء (طبع المطبعة الميمنية) .

أين تريدون؟ فيقولون : الجنة؛ فيقولون لهم : قبل الحساب؟ فيقولون : نعم؛ فيقولون : من أنتم؟ فيقولون : نحن أهل الفضــل؛ فيقولون : وما فضلكم؟ فيقولون : كنا إذا جُهِل علينا حَلُمْنا، وإذا ظُلِمنا صَــبَرْنا، وإذا أُسِيء إلينا عفونا؛ فيقولون : يحِقّ لكم أن تكونوا من أهل الجنّة فنعم أجر العاملين .

وقيل لأبى الدَّرْدَاء : مَن أعزّ الناس؟ فقال: الذين يعفُون إذا قَدَرُوا، فٱعفوا يُعزّكم الله تعالى .

قيل : حدُّ العفو تركُ المكافأة عند القدرة قولا وفعلا . وقيــل : هو السكون عند الأحوال المهيِّجة للانتقام .

قال الأحنف : إياك وحَمِيَّة الأوغاد؛ قيل : وما هى؟ قال : يَرَوْن العفو مَغْرما والتحمّلَ مَغْنَما .

وقيل لبعضهم : هل لك فى الإنصاف، أو ما هو خير من الإنصاف؟ فقال : وما هو خير من الإنصاف؟ فقال : العفو .

وقيــل : العفو زكاة النفس . وقيــل : لذّة العفو أطيب من لذّة التّشفِّى؛ لأن لذة العفو يلحقها حَمْدُ العاقبة، ولذة التشفِّى يلحقها ذمّ الندم .

وقيل للإسكندر : أىُّ شىء أنت أسرّ به ممــا ملكت؟ فقــال : مكافأةُ مَن أحسن إلىّ بأكثر من إحسانه، وعفوى عمّن أساء بعد قدرتى عليه . (٣٣)

قال أشجع :

يعفُو عن الذنب العظيــ * ـــم وليس يُعجِزُه ٱنتصارُهْ
صــفحًا عن الجــانى عليــ * ـــه وليس حاط به ٱقتدارُهْ

وقال المتنبّى :

فَتًى لا تَسْلُب القَتْلى يداهُ * ويسلُب عفوُه الأَسْرى الوَثاقا

وقال قابوس وشمكير[1] : العفو عن المذنب من واجبات الكرم .

وقالوا : العفو يَزين حالات مَن قَدَر، كما يزين الحَلْى قَبِيحات الصُّوَر .

وقال المنصور لولده المهدىّ : لَذّة العفو أطيب من لذّة التشفّى، وقد تقدّم ذكر الدليل . وقال الشاعر :

لَذّةُ العفو إن نظرت بعين الـ * ـعدلِ أشفى من لَذّة الإنتقامِ

هذه تكسب المحامدَ والأجـ * ـرَ وهذى تجىء بالآثام

قال عمر بن حبيب العَدَوىّ[2] : كنت فى وفد أهل البَصرة لما قدموا على المنصور يسألونه أن يُولِّىَ عليهم قاضيا، فبينا نحن عنده إذ جىء برجل مُصَفَّد بالحديد، يدُه مغلولة فى عنقه، فوقف بين يديه فساءله طويلا، ثم بُسِط له نِطَع وأَمَر بضرب عنقه، والرجل يَحْلِف وهو يُكذِّبه، ولم يتكلّم أحد من الجمع، فقمت وكنت أحدَثَهم سِنًّا فقلت : يا أمير المؤمنين، أتأذن لى فى الكلام ؟ فقال : قل؛ قلتُ : يُروى عن آبن عمّك رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من آعتذر إليه أخوه المسلم فلم يقبل لم يَرِد على الحوض"، وقد آعتذر إليك فاقبَل منه عُذْرَه؛ فقال : ياغلام آضرب عنقَه؛ قلت : إن أباك حدّثنى عن جَدِّك عن آبن عبّاس أنه قال : قال رسول الله صلى الله

(١) فى آبن خلكان (ج ١ ص ٦٠٦) ما نصه : "الأمير قابوس : الأمير شمس المعالى أبو الحسن قابوس بن أبى طاهر وشمكير بن زيار بن وردان شاه الجيلىّ أمير جرجان وبلاد الجيل وطبرستان . وهذا موافق تماما لما جاء فى "قاموس الأعلام التركى" لصاحبه "شمس الدين سامى بك" فقد قال تحت عنوان "قابوس : إنه هو الأمير شمس المعالى أبو الحسن بن أبى طاهر وشمكير الجيلى" . وفى الأصل : «وشمكرى» . وفى اليتيمة للثعالبى (ج ٣ ص ٢٨٨) : «قابوس بن وشمكير ......» .

(٢) فى الأصل : العدى، بدون واو . والتصويب عن الطبرىّ .

عليه وسلم: "إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من تحت العرش ليقم كل من كان له عند الله يدٌ فلا يقوم إلا من عفا عن أخيـه المسلم"، فقال : آلله(١) أبى حدّثك؟ فقلت : آلله إن أباك حدّثنى عن جدّك عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليـه وسلم؛ فقال أبو جعفر : صدق، حدّثنى أبى عن جدّى عن ابن عباس بهذا؛ [فقال](٢) : ياغلام خلّ له السبيل، وأمر له بجائزة وولّانى قضاء البصرة .

وقيل : أُتى المأمونُ برجل يريد أن يقتله وعلىّ بن موسى الرِّضا جالس، فقال : ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال : أقول : إن الله تعالى لا يزيدك بحسن العفو إلا عزّا ؛ فعفا عنه . وكان المأمونُ مُؤْثِرا للعفو كأنّه غريزة له ؛ وهو الذى يقول : لقد حُبِّب إلىّ العفوُ حتى إنى أظنّ أنّى لا أُثاب عليه . وأُحضِر إلى المأمون رجل قد أذنب، فقال له المأمون : أنت الذى فعلت كذا وكذا؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، أنا الذى أسرف على نفسه واتّكل على عفوك؛ فعفا عنه .

قال : ولما ظَفِر المأمون بإبراهيم بن المهدىّ أمر بإدخاله عليه، فلما مُثِّل بين يديه قال : وَلِىُّ الثأر مُحَكَّمٌ فى القِصاص، والعفو أقرب للتقوى، والقـدرة تُذهب الحَفِيظة، ومن مدّ له الاعتذارُ فى الأمل هجمت به الأَناةُ على التلف، وقد جعل الله كلّ ذنب دون عفوك، فإن صفَحت فبكرمك، و إن أخذت فبحقّك؛ قال المأمون: إنى شاورت أبا إسحاق والعبّاس فى قتلك فأشارا علىّ به؛ قال : أمّا أن يكونا قد نصحاك فى عِظَم قدْر الملك ولما جرت عليه السياسة فقـد فعلا ، ولكن أبيتَ أن تستجلب(٣) النصر إلا من حيث عوّدك الله ، ثم آستعبر باكيا؛ فقال له المأمون :

---

(١) فى حاشية الأمير على المغنى : (ج ١ ص ١٨ طبع مصر) : أن من معانى الهمزة القسم مثل «آلله لأفعلنّ» نظرا الى أنها الهاء المبدلة من التاء . (٢) زيادة يقتضيها السياق . (٣) كذا فى عيون الأخبار ص ١٠٠ طبع دار الكتب المصرية . وفى الأمل : " أبيت أن لا تستجلب من حيث الخ" .

مايُبكيك ؟ قال : جَذَلا إذ كان ذنبي إلى مَن هـذه صفتُه ، ثم قال : إنه وإن كان جُرْمي بلغ سَـفْكَ دمى فحِلْمُ أمير المؤمنين وفضلُه يُبلّغاني عفوَه ، ولى بعـد هذا شُفْعةُ الإقرار بالذنب وحُرمة الأبِ بعد الأب؛ قال المأمون : لو لم يكن فى حق نسبك ما يُبلِّغ الصفحَ عن جُرْمك لبلّغك إليه حسن تنصُّلك . فكان تصويب إبراهيم لرأى أبي إسحاق والعباس ألطفَ فى طلب الرضا ودفع المكروه عن نفسه من تخطئتهما . ثم قال المأمون لإسحـاق بن العبّاس : لا تحسَبنِّى أغفلت إجلابك مع ابن المهدىّ وتأييدَك لرأيه وإيقادَك لناره؛ فقال : والله لإجرامُ قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ من جُرمى إليك، ولَرَحِمِى أمسّ من أرحامهم، وقد قال[لهم](١) رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال يوسف لإخوته (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)، وأنت يا أمير المؤمنين أحقُّ وارث لهـذه المنّة ومتمثِّل بها؛ قال : هيهات! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسـلام، وجُرْمك جرمٌ فى إسلامك ٣٣
فى دار خلافتك؛ قال يا أمير المؤمنين، فوالله لَلْمسلمُ أحقُّ بإقالة العثْرة وغُفْران الذنب من الكافر، هذا كتاب الله بيني وبينك، يقول الله تعالى : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) الآية [إلى](٢) (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)، فهى للناس يا أمير المؤمنين سُـنّة دخل فيها المسـلم والكافر والشريف والمشروف؛ قال : صدقتَ، اجلس وَرِيَتْ بك زِنَادى، وعفا عنه .

وقال أحمد بن أبي دُواد : ما رأيت رجلا نزل به الموت فما شَغَله ذلك ولا أذهله عمّـا كان يجب أن يفعله إلا تميم ابن جَميل، فإنه كان تغلّب على شاطئ الفرات فظُفِر به، وَوافَى به الرسول بابَ المعتصم فى يوم المَوْكب فى حين جلوسه للعامّة

(١) زيادة يقتضيها حسن السياق ولعلها سقطت سهوا من الناسخ .

(٢) هذه الزيادة موجودة فى العقد الفريد .

فأُدخِل عليه، فلما مَثُل بين يديه دعا بالنِّطْع والسيف فأُحضِرا، وجعل تميمُ بن جَميل يُصعِّد النظر إلى ذلك ولا يقول شيئا، وجعل المعتصم يُصعِّد النظر فيه ويصوّبه، وكان جسيما وَسِيما، فرأى أن يستنطقه لينظُرَ أين جَنانُه ولسانُه من منْظَره، فقال: يا تميم، إن كان لك عذر فأْتِ به أو حُجَّةٌ فأَدْل بها؛ فقال: أمّا إذ قد أَذِنت لى يا أمير المؤمنين بالكلام فإنى أقول: الحمد لله الذى أحسن كلّ شيء خَلَقه وبدأ خَلْق الإنسانِ من طين، [ثم جعل نَسْلَه من سُلَالة من ماء مَهِين][1]، يا أمير المؤمنين جبرَ الله بك صَدْعَ الدّين، ولَأَمَ بك شَعَث الأُمّة، وأخمد بك شِهاب الباطل، وأوضح بك سِرَاج الحقّ؛ يا أمير المؤمنين، إن الذنوب تُخرِس الألسنة، وتَصدَع الأفئدة، ولقد عظُمت الجريرة وكبُرَ الذنب وساء الظنّ، ولم يبق إلا عفوُك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربُهما منك وأسرعهما إليك أَوْلاهما بإمامتك وأشبهَهما بخلافتك، ثم أنشد:

أرى الموتَ بين السيف والنِّطْع كامنًا * يُلاحِظُنى من حيثُما[2] أتلفَّتُ
وأكبرُ ظنِّى أنك اليومَ قاتلى * وأىُّ امرئٍ مما قضى اللهُ يُفْلِتُ!
ومن ذا الذى يُدْلِى بعُذرٍ وحُجّةٍ * وسيفُ المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
يعِزّ على أبناء تغلِبَ موقفٌ * يُسَلّ علىّ السيفُ فيه وأسكُتُ
وما جزَعى من أن أموت وإننى * لأعلم أنّ الموتَ شيء مُؤَقَّتُ
ولكنّ خلْفى صِبْيَةً قد تركتُهم * وأكبادُهم من حَسْرةٍ تتفتّت
كأنى أراهم حين أُنْعَى إليهمُ * وقد خَمَشوا تلك الوجوهَ وصوّتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بغِبْطةٍ * أذود الردى عنهم وإن مُتُّ مُوِّتوا
وكم قائلٍ: لا يُبعِدِ اللهُ دارَه * وآخرَ جذلانٍ يُسَرّ ويَشْمَتُ

(١) هذه الزيادة موجودة فى العقد الفريد .

(٢) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ٢٢٨ . وفى الأصل : من حيث لا ...) .

قال : فتبسّم المعتصم وقال : كاد والله ياتميم أن يَسبِق السيفُ العَذَل! اذهب فقد غفرتُ لك الهفوة وتركتك للصِّبْية .

وحُكِي : أن عبد الملك بن مَرْوان غضب على رجل فهرَب منه، فلما ظفر به أمر بقتله؛ فقال له الرجل : إن الله قد فعل ما أحببتَ من الظفَر فافعـل ما يُحبّه من العفو، فإن الآنتقام عدل والتجاوزَ فضل، والله يُحبّ المحسنين؛ فعفا عنه .

وحُكي عن محمد بن حُمَيْـد الطُّوسيّ أنه كان يومًا على غَدائه مع جلسائه إذا بصيحة عظيمة على باب داره، فرفع رأسَـه وقال لبعض غِلمانه : ما هذه الضجّة ؟ من كان على الباب فليدخل؛ فخرج الغلام ثم عاد إليه وقال : إن فلانا أُخذ وقد أُوثِق بالحديد والغِلمانُ ينتظرون أمرَك فيه؛ فرفع يده من الطعام؛ فقال رجل من جلسائه : الحمد لله الذى أمكنك من عدوك، فسبيلُه أن تسقِيَ الأرضَ من دمه؛ وأشار كلٌّ من جلسائه عليه بقتله على صفة آختارها، وهو ساكت؛ ثم قال: ياغلام، فُكَّ عنه وَثَاقه ويدخلَ إلينا مكرّما، فأُدخِل عليه رجل لادمَ فيه؛ فلما رآه هشّ إليه ورفع مجلسَه وأمر بتجديد الطعام، وبسَطَه بالكلام ولَقَّمه حتى آنتهى الطعام، ثم أمر له بكُسوة حسنة وصِلة، وأمر بردّه إلى أهله مكرّما ولم يعاتبه على جُرْم ولا جناية، ثم التفت إلى جلسائه وقال لهم: إنّ أفضل الأصحاب من حضّ الصاحب على المكارم، ونهاه عن آرتكاب المآثم، وحسّن لصاحبه أن يجازى الإحسانَ بضِعْفه، والإساءةَ بصفحه؛ إنا إذا جازينا مَن أساء الينا بمثل ما أساء فأين موقعُ الشكر على النعمة فيما أُتيح من الظفَر! إنه ينبغى (٢٤) لمن حضر مجالِسَ الملوك أن يُمسك إلا عن قولٍ سديد وأمرٍ رشيد، فإن ذاك أَدْوَم للنعمة وأجمعُ للألفـة؛ إن الله تعالى يقول : (يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) الآية .

وقيـل : بعث بعض الملوك فى رجلٍ وَجَد عليه فظفر به ، فلما مَثُل بين يديه قال : أيهـا الأمير ، إنّ الغضب شيطانٌ فاستعذ بالله منه ، وإنمـا خُلِق العفوُ للذنب والتجاوُزُ للمسيء ، فلا يَضيق علىّ مايسع الرعيّةَ من حلمك وعفوك ؛ فعفا عنه وأطلق سبيله .

وقال خالد بن عبد الله لسليمان بن عبد الملك حين وَجَد عليه : يا أمير المؤمنين ، إنّ القـدرةَ تُذْهِب الحَفِيظة ، وأنت تَجِلُّ عن العقوبة ، ونحن مُقِرُّون بالذنب ، فإن تعفُ عنّى فأهلُ ذلك أنت ، وإن تعاقِبْنى فأهلُ ذلك أنا ؛ فعفا عنه .

وقيل : أُتِى الحجاج بأَسْرى من الخوارج ، فأمر بضرب أعناقهم فقُتِلوا ، حتى قُدِّم شابٌ منهم فقال : والله يا حجّاج إن كنا أسأنا فى الذنب فما أحسنت فى العفو ؛ فقال الحجاج : أُفٍّ لهذه الجِيَف ! أما كان فيهم من يقول مثلَ هذا ! وأمسك عن القتل .

وأُتِى الحجاج بأسرى فأمر بقتلهـم ، فقال له رجل منهم : لاجزاك الله يا حجّـاج عن السُّـنّة خيرا ، فإنّ الله تعالى يقول : (فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) ، فهذا قول الله تعالى فى كتابه ، وقال شاعركم فيما وصف به قومَه من مكارم الأخلاق :

وما نقتلُ الأَسْرى ولكن نَفُكُّهم * إذا أثقلَ الأعناقَ حمـلُ القلائدِ

فقال الحجّاج : ويحكم ! أَعَجَزْتم أن تخبرونى ما أخبرنى به هذا المنافق ! وأمسك عمن بقى .

## ذكر ما قيل فى العقوبة والانتقام

ومن الناس من يرجح عقوبة المذنب على ذنبه، ومقابلة المسىء بما يستحقه من نكاله وضربه؛ ورأى أن العفو عن المجرم موجب لتكراره، والإحسانَ إلى المسىء مقتضٍ لإصراره؛ وقال : إن طِباع اللؤم التى حملته على ذلك لا ترتدع بالإحسان، ومرارة الذنب التى استحلاها لا تغيّرها حلاوةُ الغفران . وأخذ فى ذلك بالكتاب والحديث، وقابل على الذنب القديم بالعذاب الحديث؛ قال الله تعالى : (فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ) . وقال تعالى : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل أبى عزّة، لما كان يتعرّض له من أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلَب عُقْبة بن أبى مُعَيْط يوم بَدْر إلى شجرة؛ فقال : يارسول الله، أنا من بين قريش! قال : "نعم"؛ قال : فمن للصبية؟ قال : "النار" . وقيل : إنه أوّل مصلوبٍ صُلِب فى الإسلام . وكان النَّضْرُ بن الحارث بن كَلَدَة شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأُخذ أسيرا يوم بدر، فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بقتله، فقُتل صبرا بيد علىّ بن أبى طالب. وقال علىّ رضى الله عنه : الخيرُ بالخير والبادئ أفضل، والشرّ بالشرّ والبادئُ أظلم. وقال : «رُدَّ الحَجَرَ من حيث جاءك»[1] فالشرّ لايُدْفَعُ إلا بالشرّ؛ وأنشد :

لئن كنتُ محتاجًا إلى الحِلم إنّنى * إلى الجهل فى بعض الأحايين أَحْوجُ
ولِى فرسٌ للخير بالخير مُلْجَمٌ * ولى فرسٌ للشرّ بالشرّ مُسْرَجُ
فمَن رام تقويمى فإنّى مقوَّمٌ * ومن رام تعويجى فإنّى معوّجُ

وقال الجاحظ : من قابل الإساءةَ بالإحسان فقد خالف اللهَ فى تدبيره، وظنّ أن رحمة الله دون رحمته، فإنّ الله تعالى يقول : (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) وقال :

(١) ورد هذا المثل فى مجمع الأمثال للميدانى ومعناه : لا تقبل الضيم وآرم من رماك .

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)، وقال تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) . وقال أَكْثَمُ بن صَيْفِيّ : من تعمّد الذنب فلا ترحمه دون العقوبة، فإنّ الأدب رِفق، والرفق يُمْن . قال أبو الطيّب المتنبّي :

مِنَ الحِلمِ أن تستعمِلَ الجهلَ دونه * إذا اتّسعت فى الحلم طُرُقُ المَظَالِمِ

وقالوا : تواضعْ للمحسن إليك وإن كان عبدا حبشيّا، وٱنتصِف ممن أساءإليك وإن كان حرّا قرشيّا .

(٢٥) وقال الشعبيّ : يُعجبنى الرجل إذا سِيم هوانًا دعته الأَنَفَةُ[(١)] إلى المكافأة، وجَزَاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مِثلُها . ورُفِع كلامُه إلى الحجّاج بن يوسف الثقفيّ فقال : لله درّه ! أىّ رجلٍ بين جنبيه! وتمثّل بقول الشاعر :

ولاخيرَ فى عِرض آمرئ لايصونُه * ولا خيرَ فى حلم آمرئ ذَلّ جانبُـه

وقال رجل لابن سـيرين : إنّى وقعتُ فيك فاجعلنى فى حِلّ؛ قال : ما أُحِبّ أن أُحِلّ لك ماحرّم الله عليك . وقالوا : مَن ترك العقوبةَ أغرى بالذنب، ولولا السيف كثُر الحيف . قال الشاعر :

إذا المرءُ أولاكَ الهوانَ فأَوْلِهِ * هوانًا وإن كانت قريبًا أَواصِرُهْ
وإنْ أنت لم تقـدرْ على أن تُهِينَه * فدَعْه إلى اليوم الذى أنت قادِرُهْ
وقارِبْ إذا مالم تكن لك حِيـلةٌ[(٢)] * وصَمِّمْ إذا أيقنتَ أنّك عاقِرُهْ

وقيـل : ٱستُؤمِرَ عبدُ الله بن طاهر بن الحسـين فى رجلين كانا فى السجن، أحدهما ضعيف والآخر عليل، فوقّع : الضعيفُ يَقْوَى والعليلُ يبرأ، فإن يكن

(١) فى الأصل : "اذا سيم هوانا ودعته إلى الأنفة ..." ولعله تحريف من الناسخ .

(٢) فى الاصل : "وقارب اذا لم تكن له حيلة" وهو تحريف .

فى الحبس ممن يُؤْمَن شرُّه غيرُهما فليُفْرَجْ عنه ودَعْهما فى موضعهما، فإنه مَن أطلق مثلَهما على الناس فهو شرٌّ منهما وشريكُهما فى فعلهما .

وكتب رجل إلى المأمون — وكان قد طال حبسه — : أغْفلتَ ياأمير المؤمنين أمرى، وتناسيتَ ذكرى، ولم تتأمل حُجّتى وعذرى، وقد ملّ من صبرى الصبر، ومسّنى فى حبسك الضُّرّ. فأجابه المأمون: ركوبُك مطيةَ الجهل، صيّرك أهلًا للقتل، وبَغْيُك علىّ وعلى نفسك نَقَلك من سَعة الدنيا إلى قبرٍ من قبور الأحياء، ومَن جَهِل الشكرَ على المِنَن قلّ صبره على المِحَن، فآصبرْ على عواقب هفَواتك ومُوبِقات زَلّاتك، على قدر صبرك على كثيرِ جناياتك؛ فإن حصل فى نفسك كَفٌّ عن معْصيتى، وعزمٌ على طاعتى، وندمٌ على مخالفتى، فلن تَعدَم مع ذلك جميلًا من يبَى(١) والسلام .

وقيل لأعرابىّ : أيسرّك أن تدخلَ الجنّة ولا تُسيءَ إلى من أساء إليك؟ قال: بل يسرّنى أن أُدْرِكَ الثار وأَدخُلَ النار . قال البُحْتُرِىّ :

تَذُمُّ الفتـاةُ الرُّؤْدُ شِيمةَ بَعْلِهـا * إذا بات دون الثأْرِ وهو ضَجِيعُهَا

ويقال : إنمـا هو مالُك وسيفُك، فازرع بمالك من شَكَرك ، وآحصُدْ بسيفك من كَفَرك . قال الشاعر :

قُطَّ العِدَا قَطَّ البَرَاعةِ وآنتهِزْ * بظُبَا السيوفِ سوائمَ الأضغانِ
إنّ البيادِقَ إنْ تَوَسَّع خَطْوُها * أخذتْ إليك مآخِذَ الفِرْزانِ

وقالوا : العفوُ يُفْسِد مِنَ اللئيم، بقدر ما يُصْلِح من الكريم . وقال مُعاوية آبن يزيد بن معاوية لأبيه : هل ذَمَمْتَ عاقبةَ حلم قطّ ؟ قال : ما حلُمت عن لئيم وإن كان وليًا إلا أعقبنى نَدَمًا على مافعلت . قال بعض الشعراء :

متى تَضَـعِ الكرامةَ من لئيمٍ * فإنّك قد أسأْتَ إلى الكَرَامهْ

(١) كذا فى الأصل ولعله : « بِرِّى » .

وقالوا : جَنِّب كرامتك اللئامَ، فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا، وإن أساءوا لم يشعروا .

ومن رسالة لأبى إسحاق الصابى فى حقّ من نزع يده من الطاعة[(١)] :

وكان الذى أثمره الجهاد، ودلّ عليه الآرتياد، اليأسَ من صلاح هذه الطوائف الناشـئةَ على آعتياد المعاصى والآستئناسِ بالدواهى ، والثقةَ بأنّ أَوَدَها لا يتقوّم ، وزيْغَها لا يتسدّد، وخلائقَها لاتنصرف عمّا ضَرَبت العادةُ عليه بسِياجها، وآستمرّت به على آعوِجاجها، إذ كانت العادة طبيعةً ثانية، وسجيّة لازمة؛ كذلك زعمت الحكماء، وبرهنت عليه العلماء . قال بعض الشعراء :

ماكلَّ يومٍ ينـالُ المرءُ ما طلبَا[(٢)] * ولا يُسَـوِّغُه المِقْـدَار ما وهبـا
وأَنْصفُ الناسِ فى كلِّ المواطن مَنْ * سَقَى الأعادىَ بالكأسِ التى شَرِبَا
وليس يَظلمهم من بات يَضربهم * [بحَدِّ][(٣)] سيفٍ به مِنْ قبلهم ضُرِبا
فالعفوُ إلّا عن الأعداءِ مَكْرُمةٌ * من قال غيرَ الذى قـد قلتُه كَذَبا
قتلتَ عمـرًا وتستبقى يزيدَ لقـد * رأيتَ رأيًا يجُرّ الويلَ والحَرَبا
لا تقطعَنْ ذَنَبَ الأفعى وتتركَهـا * إن كنتَ شَهْمًا فأَتْبِـعْ رأسَها الذنبا
هم جرّدوا السيفَ فاجعلْهم به جَزَرًا[(٤)] * هم أوقدوا النارَ فاجعلْهم لها حَطَبَا (٣٦)

(١) فى الأصل : « من نزع يده من الطاعة منها » وظاهر أن كلمة « منها » مقحمة لغير حاجة .

(٢) كذا فى تاريخ أبى الفدا طبع دار الطباعة العامرة الشاهانية بالقسطنطينية وفى الأصل "ما طلبا" وقائل هذه القصيدة أبو أُذَيْنة يحرّض آبن عمه الأسود بن المنذر على قتل جماعة من ملوك الشام كان قد أسرهم وأراد أن يعفو عنهم .

(٣) زيادة عن تاريخ أبى الفدا . (٤) الجزر بالتحريك : ما يذبح من الشاء واحدتها جزرة بالتحريك أيضا . وفى أبى الفدا : " فاجعلهم له جزرا " .

ومنهـا :

لا عفوَ عن مِثلهم فى مثلِ ما طَلَبوا * لكنّ ذلك كانَ المُـلْكَ والعَطَبَا
علامَ تقبلُ منهـــم فِـدْيةً وهمُ * لا فِضّةً قبِـلُوا منّا ولا ذَهَبَـا

# الباب السابع
## من الفن الثانى

فى المشورة و إعمال الرأى والآستبداد ومن يعتمد على رأيه وذكر من كره أن يستشير

### ذكر ما قيل فى المشورة و إعمال الرأى

قد أمر الله عزّ وجل نبيّه صلى الله عليه وسلم بمشاورة مَن هو دونه من أصحابه فقال تعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)؛ ذهب المفسّرون إلى أن الله تعالى لم يأمر نبيّه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه لحاجةٍ منه إلى رأيهم ولكن لِيُعْلَمَ ما فى المشاورة من البركة . وقيل: أمره بذلك تألّفًا لهم وتطييبا لنفوسهم. وقيل : ليستنّ بذلك المسلمون .

ورُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما ندِم مَن آستشار ولا خاب مَن آستخار" .

وقيل : الخطأُ مع الآستشارة أحمدُ من الإصابة مع الآستبداد . وقيل : مَن استشار فيما نزَل به صديقَه وآستخار ربّه وآجتهد رأيه ، فقد قضى ما عليه ، وأَمِن من رجوع الملامة إليه؛ و يفعل الله فى أمره ما يشاء. وقيل: ما هَلَك آمرؤٌ عن مشورة.

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نِعْم المؤازرةُ المشاورةُ، و بئس الآستعدادُ الآستبدادُ . وقيل : الأحمق مَن قطعه العُجْب عن الآستشارة، والآستبدادُ عن

الآستخارة . وقيل : لمـا همّت ثَقيف بالآرتداد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، آستشاروا عثمان بن [أبي] (١) العاصي وكان مُطاعًا فيهم ؛ فقال : لا تكونوا آخرَ العرب إسلاما وأولَهم آرتدادا؛ فنفعهم الله تعالى برأيه .

وقال العُتْبيّ لرجل من عَبْس : ما أكثر صوابَكم (٢) ! فقال : نحن ألفُ رجل وفينا حازمٌ واحد، فنحن نُشاوره فكأنّا ألفُ حازم . وسُئل بعض الحكماء : أيُّ الأمور أشد تأييدا للعقل، وأيها أشدّ إضرارا به؟ فقال : أشـدُّها تأييدا له ثلاثةُ أشياء : مشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحسن التثبُّت . وأشدُّها إضرارا به ثلاثة أشياء: الآستبداد، والتهاون، والعَجَلة .

وقال بعض الحكماء : إذا آستبدّ الرجل برأيه عَميت عليه المَرَاشد .

وقال الفَضْل بن سَهْل : الرأى يَسُدّ ثُلَمَ السيف، والسيفُ لا يَسُدّ ثُلَمَ الرأى .

وقالوا : من آستغنى برأيه فقد خاطر بنفسه . وقال بعض البلغاء : إذا أشكلت عليـك [الأمور] (٣)، وتغيّر لك الجمهور، فارجعْ إلى رأى العقلاء، وآفزَعْ إلى آستشارة العلماء، ولا تأنَفْ من الآسترشاد، ولا تستنكف من الآستمداد (٤)، فلأَن تسألَ وتسلَمَ خيرٌ من أن تستبِدّ وتندَم .

وقال حكيم لآبنه : يا بُنَيّ، إنّ رأيك إذا آحتجتَ إليه وجدتَه نائمـا ووجدتَ هواك يَقْظان، فإيّاك أن تستبِدّ برأيك ، فإنّه حينئـذ هواك . ويقال : تعوَّذْ من سَكَرات الآستبداد بصحَوات الآستشارة، ومن عَثَرات البَغْى باستقالة الآستخارة .

(١) الزيادة عن الكامل لابن الأثير، والطبرى، ومعجم ياقوت .
(٢) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ٢٥) وأدب الدنيا والدين (ص ٣٠٤) وفى الأصل "صوابك".
(٣) زيادة عن «أدب الدنيا والدين» ص ٣٠٦ .
(٤) فى الأصل «ولا تستنكف من الاستبداد ... الخ» والتصويب عن أدب الدنيا والدين ص ٣٠٦ .

وقال ٱبن المقفّع : لا يُقْذَفَنَّ[1] فى رُوعك أنك إذا ٱستشرتَ الرجال ظهر للناس منك الحاجةُ [إلى رأى غيرك][2] فتنقطعَ بذلك عن المشورة، فإنك لا تريد الفخر ولكن الانتفاع .

قال بشّار :

إذا بَلَغَ الرأْىُ المشورةَ فاستعنْ * برأْىِ نَصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ
ولا تحسَبِ الشُّورى عليك غضاضةً * فإن الخوافِى[3] رافداتُ القَوادِمِ

قال الأصمعىّ : قلت لبشّار : إن الناس يَعْجَبون من أبياتك فى المشورة، فقال : يا أبا سعيد، إن المُشاوِرَ بين صوابٍ يفوزُ بثمرته، وخطإٍ يُشارَكُ فى مكروهه ؛ فقلت : أنت والله فى قولك أشعر منك فى شعرك . وهذان البيتان من قصيدة كان بشّار بن بُرْد قد كتب بها إلى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يمدحه بها ويُحرِّضه على أبى جعفر المنصور، فمات إبراهيم قبل وصول القصيدة إليه، فخاف بشار من ٱشتهارها فقلبها[4] وجعل التحريض على أبى مُسلم[5] الخراسانىّ فقال : (٢٧)

أبا مسلمٍ ما طِيبُ عَيْشٍ بدائمٍ * ولا سالمٌ عمّا قليلٍ بسالمِ

وإنما كان قال :

* أبا جعفرٍ ما طيبُ عيشٍ بدائمِ *

قال فيها بعد هذين البيتين المُقدَّمين :

وخَلِّ المُوَنَّى للضعيف ولا تكنْ * نَؤُومًا فإن الحزم ليس بنائمِ

(١) كذا فى عيون الأخبار (مجلد ١ ص ٣١ طبع دار الكتب المصرية) وفى الأصل : "لا تقذفن فى روعائك..." . (٢) زيادة عن عيون الأخبار . (٣) الخوافى : ريشات فى جناح الطائر إذا ضم جناحيه خفيت . والقوادم : ريشات فى مقدم جناح الطائر . يريد : أن الضعيف قد يمد القوى بالمونة . (٤) فى الأغانى : "فقلب الكنية" . (٥) فى الأصل : « وجعل التحريض فيها على أبى موسى ... » والتصويب عن الأغانى ج ٣ ص ٥٦ طبع بولاق .

وما خيرُ كفٍّ امسك الغُلُّ أختها ❊ وما خيرُ سيف لم يؤيَّد بقـائم
وحاربْ إذا لم تُعْـطَ إلا ظُلامةً ❊ شَبَا الحربِ خيرٌ من قبول المَظَالِم
وأدنِ على القُرْبَى المقرِّبَ نفسه ❊ ولا تُشْهِد الشُّورَى آمرأً غير كاتم (١)
فإنّك لا تسـتطردُ الهَمَّ بالمُنَى ❊ ولا تبلُغُ العَلْيـا بغير المكـارم
إذا كنت فردا هرَّك القومُ مُقبِلا (٢) ❊ وإن كنتَ أدنى لَم تفُزْ بالعـزائم
وما قرعَ (٣) الأقوامَ مثـلُ مُشيَّعٍ (٤) ❊ أريبٍ ولا جَلّى العَمَى مثـلُ عالِم

وقال الهيثم : ما رأيت آبنَ شُبرُمةَ قطّ إلا وهو متهيئ كأنه يريد الركوب، فذُكِر ذلك له وأنا حاضر، فقال : إنّ الرجل لا يَسْتَجْمِع له رأيُه حتى يجمَعَ عليه ثيابَه، ثم قال : أتى رجلٌ من الحيّ فقال لدُهْقان : يا هـذا، إنه ربمـا آنتشر علىّ أمرى فى الرأى فهل عندك مشورة؟ فقال: تهيأْ وآلبَسْ ثيابك ثم آهمُمْ بمـا تريد، فهو أجمعُ لرأيك، فليس من أحدٍ يفعل ذلك إلا آجتمعَ له رأيُه .

وقال أفلاطون : إذا آستشـارك عدوّك فجرّد له النصيحة، لأنه بالآستشارة قد خرج من عداوتك إلى مُوالاتك . وقيل : إذا أردتَ أن تعرِف الرجل فشاوِره، فإنك تقف من مشورته على جَوْره وعدله، وحبّه وبُغضه، وخيره وشرّه .

وقيل : لمـا سار رسول الله صـلى الله عليه وسلم إلى قريش فى غَزاة بَدْر نزل صلى الله عليه وسلم أدنى ماء من مياه بدر، فقال له الحُبَاب بن المُنْذِر : يارسول الله،

---

(١) فى عيون الأخبار (المجلد الأوّل ص ٣٢) : "وأدن من القربى ..." . (٢) يقال : فلان هرّه الناس اذا كرهوا ناحيته . والعزائم : الحاجات التى يعتزم المرء فعلها . يريد أنك اذا آنفردت برأى نفسك ولم تستعن بآراء ذوى التجارب باعدك الناس وأصغروا من شأنك، وان كنت أدنى القوم شأنا لم تفز بحاجاتك التى اعتزمت عليها . (٣) كذا فى الأغانى (ج ٣ ص ٥٦) وفى الأصل : "وما قارب ..." . (٤) المشيّع : الشجاع كأنه شيع بغيره أو بقوة قلبه .

أرأيتَ هذا المنزل [أمنزلٌ](1) أنزلكه الله عز وجل ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال : "بل هو الرأى والحرب والمكيدة"؛ فقال : يارسول الله، فإنّ هذا ليس [لك](1) بمنزل فارحل(2) بالناس حتى نأتى أدنى ماء من مياه القوم فننزلَه، ثم نُعوِّر(3) ما سواه من القُلُب، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء، ثم نقاتل [القوم](1) فنشربَ ولا يشربوا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد أشرت بالرأى"؛ وفعل ما أشار به الحُبَاب .

وقال بُزُرْجِمْهر : أقرهُ ما يكون من الدوابّ لا غِنَى به عن السوط، وأعقل ما يكون من النساء لا غِنَى بها عن الزوج، وأدهى ما يكون من الرجال لا غنى به عن المشورة .

وقيل : كانت اليونان والفرس لا يجمعون وزراءهم على الأمر يستشيرون فيه، وإنما يستشيرون الواحدَ منهم من غير أن يعلم الآخرُ به، لمعانٍ شتّى : منها لئلا يقع بين المشاوِرين منافسة تُذْهِب أصالةَ الرأى وصحّةَ النظر، لأن من طباع المشترِكين فى الأمر التنافسَ والتغالُبَ والطعنَ من بعضهم على بعض، وربما أشار أحدهم بالرأى الصواب وسَبَق إليه فحسده الآخرون فتعقّبوه بالإعراض والتأويل والتهجين وكدّروه وأفسدوه . ومنها أنّ فى اجتماعهم على المشورة تعريضَ السرّ للإضاعة والشناعة والإذاعة؛ ولذلك قالت الفرس : إنما يُراد الاجتماعُ والكثرةُ والتناصرُ فى الأمور التى يُحتاج فيها إلى القوّة، فأمّا الآراء والأمور الغامضة فإنّ الاجتماع يُفسدها ويُولِّد فيها التضاغُن والتنافس .

(١) الزيادة عن الطبرى جزء خامس ص ١٣٠٩ من القسم الأول طبع ليدن .

(٢) فى الطبرى وسيرة ابن هشام : "فانهض" .

(٣) نعوّر : نطمّه ونردمه بالتراب حتى ينضب الماء .

## ذكر ما قيل فيمن يُعتَمد على مَشورته وبديهته، ويُعتَضد بفكرته ورويّته

قال بعض الحكماء : عليــك بمشورة من حلَب أشطُرَ دهره ، ومرّت عليــه ضروبُ خيره وشره؛ وبلغ من العمر أشُدَّه، وأورت التجربةُ زَنْدَه . وقيل : آستشار زِياد رجلا؛ فقال الرجل : حقُّ المستشار أن يكون ذا عقل وافر، وآختبارٍ متظاهر، ولا أرانى كذلك . قال إبراهيم بن العبّاس :

يُمْضِى الأمورَ على بديهَتِــهِ ـ وتُرِيه فكرتُه عواقبَهـا
فيَظَلُّ يُصدِرها ويُوردهــا : فيعمُّ حاضرَهـا وغائبَـــها
وإذا الحروبُ علَتْ بعثتَ لها * رأياً تَفُــلُّ به كتائبَها [٣٨]
رأياً إذا نَبَتِ السيوفُ مَضَى * قُدُماً بهــا فَسَقَى مَضارِبَهـا

وقال آخر :

أَلمعِيٌّ يَرَى بأوّلِ رَأْيٍ(١) * آخِرَ الأمرِ من وراءِ المَغِيبِ
لا يُرَوِّى ولا يقلِّبُ كَفًّا * وأَكُفُّ الرجالِ فى تقليبِ

وقال آخر(٢) :

الألمعِيُّ الذى يَظُنُّ بك الظَّنّ * كأَنْ قد رَأَى وقد سَمِعا

وكانت العرب تحمَدُ آراء الشــيوخ لتقدُّمها فى السن ، ولأنها لا تُتْبِــع حسناتها بالأذى والمنّ(٣)، ولِما مرّ عليها من التجارب التى عرَفت بها عواقبَ الأُمور، حتى

(١) فى ديوان آبن الرومىّ : بأول ظنّ .

(٢) القائل هو أوس بن حجر؛ وهذا البيت من قصيدة له فى الرثاء ذكرها القالى فى أماليه (ج ٣ ص ٣٥) مطلعها : أيتها النفس أجملى جزَعا :: إن الذى تحذرين قد وقعا

(٣) فى الأصل : "إلا بالأذى ..." والسياق يقتضى حذف "إلا" .

كأنّها تنظرها عِيانا، وطرأ عليها من الحوادث التى أوضحتْ لها طريقَ الصواب وبيّنته تِبيانا؛ ولما مُنِحته من أصالة رأيها، وآستفادته بجميل سَعْيها. ولذلك قال علىّ آبن أبى طالب رضى الله عنه: رأْىُ الشيخ خيرٌ من مشهد الغلام (١).

ومن أمثالهم «زاحِمْ بعَوْدٍ أو دعْ» (٢). قال بعض الشعراء:

لئن فقدوا الشبابَ فرُبّ عقلٍ * أفادُوه علَى مَرّ الليالِى
خبَتْ نارُ الذكاء فأجّجوها * بآراءٍ أحدَّ من النّصالِ

وقد عدَل قوم عن ذلك، وسلكوا فى خِلافه أوضحَ الطُّرُق وأنهجَ المسالك، وقالوا: بل رأىُ الشباب هو الرأى الصائب، وفهمُهم الفهمُ الثاقب، ونجمُ سعدهم الطالع، وسحابُ جَدّهم الهامع، وإن لهم من الفِطْنة أوفرَ نَصيب، وإن سَهْم رأيهم الرائش (٣) المُصيب، وإن عقولهم سليمةٌ من العوارض، وأذهانَهم آخذةٌ بحظ وافر من النوامض. ولذلك قالت الحكماء: عليكم بآراء الأحداث ومَشُورة الشبّان، فإن لهم أذهانا تَفُلّ القواصل (٤)، وتُحطِّم الذوابل.

وقالوا: آراءُ الشّباب خَضِرة نَضِرة لم يَهْتصر (٥) غُصنَها هَرَم، ولا أذوى زَهْرتَها قِدَم، ولا خَبَا من ذَكائها بطول المدّة ضَرَم. قال شاعر:

عليكم بآراء الشّباب فإنّها * نتائجُ ما لم يُبْلِه قِدَمُ العهدِ
فُروعُ ذَكاءٍ تستمدّ من النّهى * بأنورَ فى اللأْواءِ (٦) من قمر السعدِ

---

(١) كذا فى عيون الأخبار، وفى الأصل: "من جلد الغلام". (٢) كذا فى مجمع الأمثال للميدانى، وفى الأصل: "أو فدَعْ" بزيادة الفاء. والعود: المسنّ من الإبل، أى لاتستعن إلا بأهل السن والتجربة فى الأمور. (٣) الرائش: السهمُ ذو الريش. (٤) قواصل جمع قاصل، والقاصل: السيف القطاع. (٥) يهتصر الغصن: يعطفه و يكسره من غير انفصال. (٦) اللأْواء: الشدة.

وقال آخر :

رأيتُ العقلَ لم يكن انتهاباً ﴿ ولم يُقسَم على عَدَد السِّنينـا
ولو أنّ السنين تَقَسَّمتهُ ﴿ حوى الآباءُ أنصِبَةَ البنينـا

وقال آخر :

أدركتَ ما فات الكُهُولَ من الحِجَا ﴿ فى عُنفُوان شَبابِك المُستقبـلِ
فإذا أمرتَ فلا يُقـالُ لك : اتَّئِدْ ﴿ وإذا قضيتَ فلا يُقالُ لك : اعْدِلِ

## ذكر ما قيل فيمن نُهِىَ عن مشاورته ومعاضدته وأُمِر بالامتناع من مشايعته ومتابعتـه

وقد كَرِهت العربُ والحكماءُ مشاورةَ من اعترتْه الشواغل، وألَمّت به النوازل، مع وفُور عقله وحَزْمه، والتمسُّك بنُصْحه وفهمه .

قال قُسُّ بنُ ساعدةَ الإيادىّ لابنـه : لا تُشـاوِرْ مشغولًا وإن كان حازما، ولا جائعـا وإن كان فَهِما، ولا مذعورا وإن كان ناصحا، ولا مهموما وإن كان عاقلا، فالهمُّ يَعقِل العقلَ فلا يتولّدُ منه رأىٌ ولا تَصْدُق به رويّة .

وقال الأحنف بن قَيْس : لا تُشاوِر الجائعَ حتّى يَشبَعَ، ولا العطشان حتى يَرْوَى، ولا الأسيرَ حتّى يُطلَقَ، ولا المُقِلّ حتى يَجِد، ولا الراغبَ حتّى يَنجح .

وقالوا : لا تُشاوِر المعزول، فإنّ رأيَهُ مفلول .

وقيل : لا تُدخِلْ فى مَشُورتك بخيلا فيُقَصِّرَ بفعلك، ولا جَبَانًا فيُخَوِّفَك، ولا حريصًا فيَعِـدَك ما لا يُرْجَى؛ فإنّ البخلَ والجُبْنَ والحِرْصَ طبيعـةٌ واحدةٌ يجمعها سوءُ الظنّ بالله . قال الشاعر

وأنفعُ مَن شاورتَ مَن كان ناصحًا ﴿ شفيقًا فأَبْصِرْ بعدَها مَن تُشاوِرُ
وليس بشافيـك الشفيقُ ورأيُهُ ﴿ عَزِيبٌ ولا ذُو الرأى والصدرُ واغِرُ

## ذكر ما قيل فى الأناة والروية

كانت العرب تحمد الأناة فى الرأى وإجالة الفكرة فيه وعدم التسرع .

وكان عبد الله بن وهب الراسبى(1) يقول : إياى والرأى الفطير!(2) وكان يستعيذ [بالله](3) من الرأى الدبرى ؛ وهو الذى يسنح بعد الفوت .

وأوصى إبراهيم بن هبيرة ولده فقال : لا تكن أول مشير، وإياك والرأى الفطير، ولا تشيرن على مستبد، فإن التماس موافقته لؤم والاستماع منه خيانة .

وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول : دعوا الرأى يغب حتى يختمر، وإياكم والرأى الفطير! يريد الأناة فى الرأى والتثبت فيه . قال شاعر :

تأن وشاور فإن الأمو * ر منها مضىء ومستغمض
فرأيان أفضل من واحد * ورأى الثلاثة لا ينقض

وقال آخر :

الرأى كالليل مسود جوانبه * والليل لا ينجلى إلا بإصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى * مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

وقال المتنبى :

الرأى قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهى المحل الثانى
فإذا هما اجتمعا لنفس حرة(4) * بلغت من العلياء كل مكان

وقال طاهر بن الحسين :

اعمل صوابا تنل بالحزم مأثرة * فلن يذم لأهل الحزم تدبير

---

(1) فى الأصل "الرياشى" والتصويب عن الطبرى (ص ٢٤٧٨ من القسم الأول)، والكامل للبرد (ص ٥٤٣)؛ والعقد الفريد (ج ١ ص ٢٥) . (2) الرأى الفطير : الذى أعجل به قبل أن يختمر .
(3) زيادة عن العقد الفريد (ج ١ ص ٢٥) . (4) كذا فى ديوان المتنبى وفى الأصل "لنفس مرة" .

فإنْ هَلَكتَ برأْيٍ أو ظَفِرتَ به ＊ فأنت عند ذوى الألبـاب معذُورُ
وإن ظَفِرتَ على جهلٍ وفُزْتَ به ＊ قالوا : جَهُـول أعانتْـهُ المقـادِيرُ

ومن أحسن ماقيـل فيمن أُشير عليه فلم يَقْبـل، قول السُّبَيْع لأهل اليمامة بعد إيقاع خالد بن الوليد بهم : يا بنى حَنيفة بُعْداً كما بَعِدتْ عادٌ وثمود، والله لقد أنبأتُكم بالأمر قبل وقوعه، كأنّى أسمع جَرْسَه وأُبصر غِبَّه، ولكنّكم أبيتم النصيحةَ فآجتنيتم الندامة، وإنّى لمـا رأيتُكم تَتَّهِمون النصيحَ، وتُسفِّهون الحليمَ، آستشعرتُ منكم اليأسَ وخفتُ عليكم البـلاءَ . والله ما منعكم [الله](١) التوبةَ ولا أَخَذَكم [على](١) غِرّة، ولقد أمهلكم حتّى ملّ الواعظُ وهَرِأ(٢) الموعوظ، وكنتم كأنّما يُعْنَى بما أنتم فيه غيرُكم، فأصبحتم وفى أيديكم من تكذيبى التصديقُ ومن نُصْحى الندامةُ، وأصبح فى يدى من هلاكِكم البكاءُ ومن ذُلّكم الجَزَعُ، وأصبح ما كان غيرَ مردود، وما بقى غيرَ مأمون .

---

## ذكر ما قيل فى الاستبداد وترك الاستشارة وكراهة الإشارة

ومن الناس من آثر الاستبداد برأيه وكَرِه أن يَستشير . قال عبدُ الملك بن صالح : ما آستشرتُ أحدا قطُّ إلا تكبّر علىّ وتصاغرتُ له، ودخلته العِزّةُ ودخلتنى الذِّلّةُ . فعليك بالاستبداد، فإن صاحبَه جليلٌ فى العيون مَهِيبٌ فى الصدور . وآعلم أنك متى آستشرتَ تضعضع شأنُك، ورَجَفَت بك أركانُك . وماعزّ سلطانٌ لم يُغْنه عقلُه عن عقول وُزرائه، وآراءِ نُصحائه . فإيّاكَ والمشورةَ وإن ضاقت عليك المذاهب، وآستَبهمَتْ لديك المسالك، وأنشد :

فما كلُّ ذى نُصحٍ بمؤتيك نُصْحَهُ ＊ ولا كلُّ مُؤتٍ نُصْحَه بلبيب

---

(١) زيادة عن عيون الأخبار والعقد الفريد . (٢) هرأ فى منطقه كمنع : أكثر فى خطأ، أو قال الخنا والقبيح . وفى الأصل والعقد الفريد : "وهرى الموعوظ" .

وقال المُهَلَّبُ بن أبي صُفْرَةَ : لو لم يكن فى الآستبداد بالرأى إلّا صَوْنُ السِّرِّ وتوفيرُ العقل لوجب التمسُّكُ به .

(٣٠) وقال بُزُرْجِمِهْر : أردتُ نصيحا أثِقُ به فما وجدتُ غيرَ فكرى، وآستضأتُ بنور الشمس والقمر فلم أستضئ بشىء أَضْوأَ من نور قلبى .

وقال علىُّ بن الحُسَين : الفِكْرةُ مِرآة تُرِى المؤمنَ سيئاته فيُقْلِعُ عنها، وحسناته فيُكثِرُ منها، فلا تقع مِقْرَعةُ التقريع عليه، ولا تنظُرُ عيونُ العواقب شَزْرًا إليه .

وما زال المنصورُ يستشير أهلَ بيته حتّى مَدَحَه آبنُ هَرْمَةَ بقوله :

يَزُرْنَ آمرأً لا يُصلِح القومُ أمرَهُ ✽ ولا ينتجى[(١)] الأدْنَين فيما يُحاولُ

فاستوى جالسا وقال : أصبتَ واللهِ! وآستعاده، وما آستشار بعدها .

قالوا : وعلى المستَبِدّ أن يَتَروّى فى رأيه ، فكلُّ رأيٍ لم تمخَض به الفِكْرةُ ليلةً فهو مولُودٌ لغير تَمامٍ . قال شاعر :

إذا كنت ذَا رأْيٍ فكن ذَا أناءةٍ ✽ فإنّ فسادَ الرأْيِ أن تتعجَّلَا

وما العجزُ إلّا أن تُشاوِرَ عاجزًا ✽ وما الحَزْمُ إلا أن تَهُمَّ فتفعلا

قال بعضُ جلساء هارونَ الرشيد : أنا قتلتُ جعفرَ بنَ يحيى، وذلك أنّى رأيتُ الرشيد يوما وقد تنفّس تنفُّسا مُنْكَرًا فأنشدتُ فى إثْرِ تنفُّسه :

وَآستبدّتْ مَرّةً واحدةً[(٢)] ✽ إنما العاجزُ من لا يستبِدّْ

ومِمّا مُدِح به ذو الرأْى قولُ بعض الشعراء :

بَصيرٌ بأعقاب الأمور كأنّما ✽ يُخاطبه من كلّ أمرٍ عواقِبُهْ

وأين مَفَرُّ الحزم منه وإنّما ✽ مَرائِى الأمورِ المُشكِلاتِ تجاربُهْ

(١) يقال : انتجاه إذا أفضى اليه بسره وخصه به .

(٢) كذا فى ديوان عمر بن أبى ربيعة المطبوع بليبزج . وفى الأصل «فاستبدت» بالفاء .

وقال البُحترىّ فى سليمان بن عبد الله :

كأنّ آراءَهُ والحـــزمُ يَتبَعُها * تُرِيهِ كلّ خَـفِىٍّ وهْو إعلانُ
ما غاب عن عَيْنِه فالقلبُ يكلؤهُ * وإن تَنَمْ عينُه فالقلبُ يَقْظانُ

وقال أيضا :

كأنّه وزِمامُ الدّهرِ فى يده * يَرَى عواقبَ ما يأتى وما يَذَرُ

وقال آخر :

يَرى العواقبَ فى أثنــاء فِكْرَتِهِ * كأنَّ أفكارَهُ بالغَيْب كُهّــانُ

وقال آخر :

بَديهَتُـــهُ وفِكْرَتُهُ سَـــواءٌ * إذا ما نابَهُ الخَطْبُ الخَطِيرُ
وأحزَمُ ما يكونُ الدهرَ يومًا * إذا عَجَــزَ المُشاوِرُ والمُشِيرُ

ومن الناس من كَرِه أن يُشيرَ، فمنهم عبد الله بن المُقَفَّع؛ وذلك أنّ عبد الله آبن علِىّ آستشاره فيما كان بينه و بين المنصور؛ فقال : لستُ أَقُودُ جيشا، ولا أتقلّد حَرْبًا، ولا أُشير بسفك دَمٍ، وعَثْرَةُ الحرب لا تُستقال، وغيرى أولى بالمشورة فى هذا المكان .

وآجتمع رؤساء بنى سعد إلى أَكْثَم بن صَيْفِىّ يَستشيرونه فيما دَهَمَهم يومَ الكُلَاب؛ فقال : إنّ وَهَنَ الكِبَرِ قد فشا فى بَدَنى ، وليس معى من حِدَّة الذِّهن ما أبتدئ به الرأى، ولكن آجتمِعُوا وقولوا، فإنّى إذا مرّ بى الصوابُ عرفتُه . وسيأتى خبرُ كلامه فى وقائع العرب؛ وإنمــا أوردناه فى هذا الموضع لدخوله فيه وآلتِئامه به، ومناسبته له، لا على سبيل السهو والتَّكْرار لغير فائدة .

# البـاب الثامن

## من الفن الثانى فى حفظ الأسرار والإذن والحجاب

---

### ذكر ما قيل فى حفظ الأسرار

قال الله تعالى إخبارًا عن نبيّه يعقوبَ بنِ إسحاق حين أوصى يوسفَ ٱبنَهُ عليهم السلام : (يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) . ورُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اِستعينوا على قضاء حوائجكم بالكِتْمان " . (٣١)

وقالت الحكماء : صدرُك أوسعُ لسرِّك . وقالوا : سِرُّك من دَمِك . يَعْنُون أنه ربما كان فى إفشاء السرّ سَفْكُ الدم .

وقالوا : أَصْبَرُ الناس مَن صَبَرَ على كِتْمان سِرِّه، فلم يُبْدِه لصديق فيُوشِكَ أن يصيرَ عدُوًا فيُذيعهُ .

وقالوا : ما كنتَ كاتِمَهُ عن عدوّك فلا تُظهر عليه صديقَك .

وقال عمــرو بن العاص : ما ٱستودعتُ رجلا سِرًّا فأفشاه فلُمْــتُه، لأنّى كنتُ أَضْيَقَ صدرًا حين ٱستودعتُه منــه حين أفشاه .

قال عُبَيْدُ الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ بن مسعود الفقيهُ :

إذا كان لى سِرٌّ فحدّثتُه العِــدا * وضاق به صدرى فَلَلنّاسُ أعذَرُ
هو السِّرُّ ما ٱستُودِعْتَهُ وكتمتَهُ * وليس بسِرٍّ حين يَفْشُو ويَظْهرُ

وقال آخر :

فــلا تُودِعَنّ الدهرَ سِرَّك أحمقًا * فإنّك إن أَودعْتَــه منــه أحمَقُ
إذا ضاق صدرُ المرء عن كَتْم سرِّه * فصدرُ الذى يُستَودَعُ السِّرَّ أضيقُ

وكتب عبدُ الملك بنُ مَرْوان إلى الحجّاج :

لَا تُفْشِ سِرَّكَ إلا إليك * فإنَّ لكل نصيحٍ نَصِيحا

فإنِّى رأيتُ غُـواةَ الرجا * لِ لَا يَتركون أَدِيمًا صحيحا

وقال الوليدُ بن عُتْبة لأبيه : إنّ أمير المؤمنين أسرَّ إلىّ حديثا [ولا أُراه يَطْوِى[1] عنك ما يَبْسُطه لغيرك] أفلا أُخبرك به؟ فقال : [لا ![1]]، يا بُنَىّ إنه مَن كَتَم سِرًّا كان الخيارُ له، ومن أظهره كان الخيار عليه، فلا تكن مملوكا بعد أن كنتَ مالكا .

وفى كتاب التاج : أن بعضَ ملوك العَجَم آستشار وزيرَيْه، فقال أحدهما : إنّه لا ينبغى للملك أن يَستشير منّا أحدًا إلا خاليا به، فإنّه أَمْوَتُ للسرّ وأحزمُ للرأى وأجدرُ بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض؛ فإن إفشاء السِّرّ إلى رجل واحد أوثقُ من إفشائه إلى آثنين، وإفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة؛ لأنّ الواحد رَهْنٌ بما أُفشِى إليه، والثانى[2] مُطْلَقٌ عنه ذلك الرهنَ، والثالث[3] عِلَاوةٌ فيه . فإذا كان السرّ عند واحد كان أَحْرَى أَلّا يُظهِره رَهْبةً ورَغْبة . وإن كان عند آثنين كان الملك على شُبهة، وآتسعت على الرجلين المَعاريض . فإن عاقبهما عاقَبَ آثنين بذنبِ واحدٍ، وإن آتّهمهما آتّهم بريئا بجناية مُجرِم. وإن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما ولا ذنب له، وعن الآخر ولا حُجّة عليه .

وقال علىٌّ رضى الله عنه : الظَّفَرُ بالحَزْم، والحزمُ بأَصَالة الرأى، والرأى بتحصين السرّ.

وقيل : مَن حصَّن سِرّه فله من تحصينه إيّاه خَلَّتان : إمّا الظفرُ بما يريد، وإما السلامةُ من العيب والضرر إن أخطأه الظفر .

وقيل : كلّما كَثُرَ خُزّان السرّ آزداد ضَيَاعا .

(١) زيادة عن عيون الأخبار (مجلد ١ ص ٤٠ طبع دار الكتب المصرية) . (٢) فى العقد الفريد "والاثنان مطلق عنهما" . (٣) فى العقد الفريد "والثلاثة" (ج ١ ص ٢٦) .

ويقال : إذا آنتهى السرّ من الجَنَان إلى عَذَبة اللسان، فالإذاعة مستولِيَةٌ عليه .

وقال عمرو بن العاص[1] : القلوب أوعِيَةٌ للأسرار ، والشِّفاهُ أقفالُها، والألسنُ مفاتيحُها، فليَحْفَظْ كلُّ آمرئٍ مِفتاحَ سرِّه . قال شاعر :

صُنِ السرَّ عن كلِّ مُسْتَخْبِرٍ * وحاذِرْ فما الحزمُ إلا الحَذَرْ
أسِيرُك سِرُّك إن صُنْتَهُ * وأنتَ أسِيرٌ له إن ظَهَرْ

وكان يقال : الكاتمُ سرَّه بين إحدى فَضِيلتَيْن : الظَّفَر بحاجته ، والسلامة من شرّ إذاعته .

ويقال : أصبرُ الناس مَن صَبَرَ على كِتْمان سرّه .

وقال آخر : كِتمانك سرّك يُعقِبُك السلامة، وإفشاؤه يعقبك الندامة ، والصبرُ على كِتْمان السرّ أيسرُ[2] من الندامة على إفشائه . قال شاعر :

إذا أنتَ لم تَحفَظْ لنفسك سِرَّها * فسرُّك عند الناس أفْشَى وأضيَعُ

وقال آخر :

تَبُوح بسرِّك ضِيقًا به * وتَحسَبُ كلَّ أخٍ يَكْتُمُ
وكِتمانُك السرَّ ممن تخاف * ومَن لا تَخافَنَّه أحزَمُ
إذا ذاع سرُّك من مُخْبِرٍ * فأنت متى لُمْتَــهُ ألْوَمُ (٣٢)

وكان يقال : لا تُظهر كوامن صَدرك بإذاعة سِرِّك ، فيمكُرَ بك حاسدُك ، ويَظْهرَ عليك مُعانِدُك . قال عمر بن أبي ربيعة :

فقالت وأرخَتْ جانبَ السِّتر إنّما * معى فتحدَّثْ غيرَ ذى رِقْبَةٍ أهلى
فقلتُ لها ما بى لهم من تَرَقُّبٍ * ولكنّ سِرِّى ليس يحمِلُه مِثْلى

---

(١) فى كتاب أدب الدنيا والدين (ص ٣١١) تنسب هذه الكلمة إلى عمر بن عبد العزيز .

(٢) كذا فى المحاسن والأضداد . وفى الأصل : "من التشاغل به عن إفشائه" .

ومما قيل فى آستراحة الرجُل بمكنون سرّه إلى صديقه — قال الله تعالى: (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ) . وقالت الحكماء: لكل سِرٍّ مُسْتَوْدَعٌ . قال بعض الشعراء:

وأبثثتُ عَمْرًا بعضَ ما فى جوانحى * وجرّعتُــه من مُرِّ ما أتجــرّعُ
فلا بُدَّ من شَكْوى إلى ذى حفيظةٍ (١) * إذا جَعَلتْ أســرارُ نفسى تَطَلَّعُ

وقال حَبيب:

شكوتُ وما الشكوى لمثــلِىَ عادة * ولكنْ تَفيض الكأسُ (٢) عند آمتلائها

وقال أبو الحسن بن محمد البصرىّ:

تَعِبَ الهــوى بمَعَـالمى ورُسُومى * ودُفِنتُ حيًّـا تحت رَدْم همـــومى
وشكوتُ همّى حين ضِقتُ، ومَن شكا * همًّـا يَضِــيق به فغــيرُ مَلُومِ

* * *

ومـمـا وصف به كتمان السرّ — قيل: أسَرَّ رجلٌ إلى صديق له حديثا، فلما آستقصاه قال: أفهمتَ؟ قال: بل نسيتُ . وقيــل لآخر: كيف كِتمانُك للسرّ؟ فقال: أجحَدُ المُخبِرَ، وأحلِف للمُستخبِر .

ومن جيّد ما قيل فى كتمان السرّ قولُ الأوّل:

تلاقتْ حَيَازِيمى على قلب حازمٍ * كَتُومٍ لِمـا ضُمّتْ عليه أضالِعُهْ (٣)
أُؤَاخى رجالًا لستُ أُطلِـعُ بعضَهم * على سرّ بعضٍ، إنّ قلبىَ واسِعُهْ

---

(١) الحفيظة: اسم من المحافظة والحفاظ .

(٢) هذه هى الرواية المشهورة فى البيت، وفى الأصل "تفيض النفس" .

(٣) فى الأصل: «أصابعه» والسياق يقتضى ما وضعنا .

قال قيس بن الخطيم :

إذا جاوز الإثنين سرٌّ فإنه * بِنَثٍّ[(١)] وتكثيرِ الحديث قَمِينُ
وإن ضيّع الإخوانُ سِرًّا فإنّني * كَتُومٌ لأسرار العشير أمينُ
يكون له عندى إذا ما ضَمِنْتُهُ * مكانٌ بسوداءِ الفؤاد مَكِينُ

وقال أبو إسحاق الصابى :

لِسِرِّ صديقٍ مَكْمَنٌ[(٢)] فى جوانحى * تَمَنَّعَ أن تدنو إليه المباحثُ
تَغَلْغَلَ منّى حيث لا تستطيعهُ * كُؤوسُ الندامى والأنيسُ المُحادثُ
إذا الفَحْصُ آلَى جاهدًا أن ينالَهُ * تَراجَعَ عنه وهو خَزْيانُ حانثُ
فقل لصديقٍ اذا لم السّر آمنًا[(٣)] * إذا لم يكن ما بيننا فيه ثالثُ

وهذا البيت مأخوذ من قول جَميل :

ولا يَسْمَعَنْ سِرّى وسِرَّك ثالثٌ * ألَا كلُّ سرٍّ جاوز آثنين ضائعُ[(٤)]

وقال الصابى أيضا :

وللسرّ فيما بين جنبىَّ مَكْمَنٌ * خَفِىٌّ قَصِىٌّ عن مَدارج أنفاسى
أَضَنُّ به ضَنّى بموضعِ حفظه * فأحجبه عن إحساس غيرى وإحساسى
فقد صار كالمعدوم لا يستطيعهُ * يقينٌ ولا ظَنٌّ لخَلْقٍ من الناس
كأنّى من فَرط آحتياطى أضعتُهُ * فبعضى له واعٍ وبعضى له ناسى (٣٣)

---

(١) النَّثُّ : الإفشاء. (٢) فى الأصل «ممكن» وهو تحريف. (٣) كذا فى الأصل؛ وفيه تحريف واضح، ولم نوفق الى أصل هذا الشعر فى مصدر آخر. ولو قيل :

* فقل لصديق كن على السر آمنا *

لآستقام به الوزن والمعنى. (٤) فى حماسة البحترى طبع «ليدن» ص ٢١٧ : «ذائع» وفيها ينسب الشعر الى قيس بن منقذ الخزاعىّ.

وقال كُثيِّر :

كريمٌ يُميت السرَّ حتى كأنّه * إذا آستنطقوه عن حديثك جاهلُهْ

رَعى سِرَّكم مستودَع القلب والحشا * شفيقٌ عليكم لا تُخاف غوائلُهْ

وأكتُمُ نفسي بعضَ سرّي تكرُّماً * إذا ما أضاع السرَّ في الناس حاملُهْ

## ذكر ما قيل فى الإذن والآستئذان

قال الله تعالى : ( يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ) وقال تعالى : ( يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ) الآية . وقال تعالى : ( يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ) الآية .

وقيل : آستأذن رجل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت فقال : أألج؟ فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم [ لخادمه ](1) : "أخرُج إلى هذا وعلِّمْه الآستئذانَ وقل له يقول السلام عليكم أأدخُل" . وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "الآستئذانُ ثلاثٌ فإن أُذِن لك وإلّا فارجعْ" .

وقال علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه : الأولى إذْنٌ والثانية مُؤامرةٌ والثالثة عَزْمة ، إما أن يأذَنوا وإما أن يرجعَ(2) .

وقال زيادُ بن أبيه لعَجْلانَ حاجبه : كيف تأذَنُ للناس؟ قال : على البيوتات ثم على الأسنان ثم على الأدب ؛ قال : فمن تُؤخِّر؟ قال : الذين لا يَعبأُ اللهُ بهم ؛ قال : ومَن هم؟ قال : الذين يَلبَسُون كُسوةَ الشتاء فى الصيف وكُسوةَ الصيف فى الشتاء .

(1) زيادة عن العقد الفريد (ج ١ ص ٢٧)

(2) كذا فى العقد الفريد ، وفى الأصل : «إما تأذنوا وإما نرجع» .

وكان سعيد بن عُتْبة بن حُصَين إذا حضر بابَ أحدٍ من السلاطين جلس جانبا؛ فقيل له : إنّك لتَتباعد من الآذن جُهْدك. فقال : لأَن أُدْعَى من بعيد خيرٌ من أن أُقْصَى من قريب . قال بعض الشعراء :

رأيتُ أُناسا يُسرعون تبادُراً * إذا فتحَ البوّابُ بابَكَ إصبَعا
ونحن جُلوسٌ ساكنون رَزَانةً * وحِلْما إلى أن يَفْتح البابَ أجمعا

وقيل لمعاوية : إنّ آذِنَك لَيُقَدِّم معارفَه فى الإذن على وجوه النـاس؛ قال : وما عليه! إنّ المعرفة لَتنفعُ فى الكَلْب العَقُور والجَمَل الصَّؤُول، فكيف رجلٌ حسيبٌ ذُو كَرَمٍ ودِينٍ !

ونظر رجل إلى رَوْح بن حاتم وهو واقف فى الشمس عند باب المنصور، فقال له : لقد طال وقوفك فى الشمس. فقـال : ذلك لِيطُولَ جلوسى فى الظلّ .

---

## ذكـر ما قيـل فى الحجـاب

قال خالد بن عبـد الله القَسْرىّ أميرُ العراق لحاجبه : إذا أخذتُ مجلسى فلا تَحْجُبَنّ عنى أحدا، فإنّ الوالى يَحْتَجب عن الرعيّة لإحدَى ثلاث : إمّا لِعىٍّ يكره أن يُطَّلَع عليه، وإما لبُخلٍ يَكْره أن يُسأل شيئا، وإما لرِيبـة لا يُحبّ أن تَظْهر منه .

وقال زِياد لحاجبه : وَلَّيتُـك حِجَابتى وعزلتُك عن أربع : المنادى إلى الصلاة والفلاح، [لا تُعَرِّجَنَّه عنّى فلا سُلطانَ لك عليه] (١)، وطارقِ الليل [لا تحجُبه فشرٌّ ما جاء به، ولو كان خيرًا ما جاء به تلك الساعة] (١)، ورسولِ الثَّغر فإنّه إن أبطأ ساعةً فَسَد عملُ سـنة فأَدْخِله علىّ وإن كنتُ فى لِحَافى، وصاحبِ الطعام فإن الطعام إذا أُعِيـد تسخينُه فَسَد .

---

(١) زيادة عن العقد الفريد ج ١ ص ٢٧

وقف أبو سُفْيان بباب عثمان بن عفّان رضى الله عنه وقد آشتغل بمصلحةٍ للسلمين فحجبه، فقال له رجل وأراد إغراءه : يا أبا سفيان، ما كنتُ أرى أن تقف بباب مُضَرِىّ فيحجُبَك ! فقال أبو سفيان : لا عدِمتُ مِن قومى مَن أقِف ببابه فيحجُبُنى .

وآستأذن أبو الدَّرْداء على مُعاوية بن أبى سُفيان فحَجَبَهُ، فقال : مَن يَغْشَ أبواب الملوك يَقُمْ ويقعدْ، ومن يجِد بابا مُغْلَقا يجِدْ إلى جانبه بابا مفتوحا إن دعا أُجيب وإن سأل أُعطِى . قال محمود الورّاق :

شاد الملوكُ قُصورَهم فتحصَّنُوا * مِن كل طالبِ حاجةٍ أو راغبِ
غالَوْا بأبواب الحديد لعِزِّها * وتنوَّقُوا[1] فى قُبْح وجه الحاجبِ
فإذا تلطَّفَ فى الدخول إليهمُ * راجٍ تلَقَّوْه بوعدٍ كاذبِ
فآطلُبْ إلى مَلِكِ الملوك ولا تكن * يا ذا الضَّراعةِ طالبا من طالبِ



قال أبو مُسْهِر : أتيتُ إلى باب أبى جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان، فحَجَبنى فكتبتُ إليه :

إنى أتيتُك للتسليم أمسِ فلَمْ * تأذَنْ عليكَ لِىَ الأستارُ والحُجُبُ
وقد علمتَ بأنى لم أُرَدَّ ولا * واللهِ ماردَّ إلّا العِلمُ والأدبُ

فأجابه آبنُ عبد كان :

لو كنتَ كافأْتَ بالحُسْنَى لقلتَ كما * قال آبنُ أَوْسٍ وفيما قاله أدبُ
ليس الحجابُ بمُقْصٍ عنك لى أملا * إنّ السماءَ تُرَجَّى حين تحتجبُ

وقف إلى باب محمد بن منصور رجلٌ من خاصّته فحُجِب عنه، فكتب إليه :

على أىِّ بابٍ أطلُبُ الإذنَ بعد ما * حُجِبتُ عن الباب الذى أنا حاجبُهْ

(١) تنوّقوا : جوّدوا وبالغوا .

وقف أبو العَتَاهِيَة إلى باب بعض الهاشميّين، فطلَب الإذن؛ فقيل له : تكون لك عودة[(١)]؛ فقال :

لئن عُدْتُ بعد اليوم إنّى لظالمٌ * سأَصرِف وجهى حين تُبْغَى المكارِمُ
متى يَظْفَرُ الغادى إليك بحاجةٍ * ونصفُك محجوب ونصفك نائمُ

ونظيره قولُ العُمَانِىّ[(٢)] :

قد أتيناك للسلام مِرارًا[(٣)] * غيرَ منّ بنا[(٤)] بتلك المزار
فإذا أنت فى آستتارك بالليـ * ـل [على][(٥)] مثل حالنا بالنّهارِ

وقال أبو تمّام :

سأتُرك هذا البابَ مادام إِذْنُهُ * على ما أرى حتّى يَلِينَ قليلا
فما خاب مَن لم يأته مُتعمِّدًا * ولا فاز مَن قد نال منه وُصولا
ولا جُعِلتْ أرزاقُنا بيد آمرئٍ * حَمَى بابَه من أن يُنَالَ دُخولا
إذا لم أَجِد للإذن عندك موضعًا * وجدتُ إلى ترك المجىء سَبِيلا

وقال آخر :

أتيتُك للتسليم لا أَنى آمرؤٌ * أردتُ بإتيانيك أسبابَ نائلِكْ
فألفيتُ بوّابًا ببابك مُغْرَمًا * بهدْم الذى وطّدتَه من فضائلكْ

وقال العُمَانىّ :

إذا ما أتيناهُ فى حاجةٍ * رفعنا الرِّقاعَ له بالقَصَبْ
له حاجبٌ دونه حاجبٌ * وحاجبُ حاجبِه مُحتَجِبْ

وقال آخر :

يا أبا موسى وأنت فتًى * ماجدٌ حلوٌ ضرائبُه[(٦)]

---

(١) فى الأصل : " يكون له دعوة " وهو تحريف والتصويب عن العقد الفريد (ج ١ ص ٢٨)
(٢) فى العقد الفريد : « العتابى » . (٣) لعله « منا » و يؤيد هذا رواية العقد الفريد .
(٤) فى العقد الفريد : "غير من منا بذاك المزار" . (٥) زيادة من العقد الفريد ج ١ ص ٢٨
(٦) ضرائب : جمع ضريبة، وهى الطبيعة والسجية .

كُن على مِنْهـاجِ معرفةٍ * إنَّ وجهَ المرءِ حاجِبُهُ
فبِـه تبــدُو محاســنُهُ * وبه تبـــدُو معايبُــهُ

وقف عبد الله بن العباس بن الحسين العلوىّ على باب المأمون يوما، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق؛ فقال عبد الله لقوم معــه : إنه لو أُذِن لنا لدخلنا، ولو صُرِفنا لانصرفنا، ولو آعتذر إلينا لقبِلنا، فأمّا الفَتْرة بعد النَّظْرة، والتوقُّف بعد التعرُّف، فلا أفهمه، ثم تمثّل :

وما عن رِضًا كانَ الحِمَارُ مَطِيَّتِي * ولكنّ مَن يمشِي سَيَرْضَى بما رَكِبْ

وآنصرف؛ فبلغ المأمون كلامُهُ، فصرَف الحاجبَ وأمر لعبد الله بصِلَة جزيلة وعشر دوابّ. وحُجِب بعضُ الهاشميّين فرجع مُغْضَبًا فرُدَّ فلم يرجِع، وقال : ليس بعد الحجاب إلا العذاب، لأن الله تعالى يقول : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾. ٣٥

## ذكر ما قيل فى النهى عن شدّة الحجاب

قيــل : لا شيءَ أضيعُ للملكة وأهلَكُ للرعيّة من شِدّة الحِجاب، لأنّ الرعيّة إذا وثِقت بسهولة الحجاب أحجمتْ عن الظلم، وإذا وَثِقت بصعوبته هجَمتْ على الظلم. وهذا مخالف لوصيّة زياد لآبنه : عليك بالحجاب، فإنّما تجرّأت الرُّعاةُ على السِّباع لكثرة نظرها إليها. قال سعيد بن المُسَيَّب : نِعْم الرجلُ عبدُ العزيز لولا حِجَابه! وعن علىّ رضى الله عنه : إنمـا أُمهِل فرعونُ مع دعواه ما آدّعاه لسهولة إذنه وبَذْل طعامه. وقال ميمون بن مِهْران : كنت عند عمر بن عبد العزيز، فقال لآبنه : مَن بالباب؟ فقال : رجل أناخ الآن يَزْعُم أنه آبن بِلال مؤذّن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من وَلِيَ شيئًا من أمور المسلمين ثم حَجَب عنــه حَجَبَه الله يوم القيامة؛ فقال لحاجبه : آلزَمْ بيتك. فمـا رُئِيَ على بابه بعده حاجبٌ.

وقال عمرو بن العاص لابنه وقد وُلِّىَ ولاية : أُنظر حاجبك فإنّه لحمُك ودمُك. ولقد رأيتُنا بصفّين وقد أشرعَ قومٌ رِماحَهم فى وجوهنا يريدون نفوسَنا مالنا ذنبٌ إليهم إلا الحجاب .

وقيل : وَلّى المنصورُ حجابَته الخَصيبَ[1] فقال : إنّك بِولايتى عظيم القَدْر، وبحجابتى عظيم الجاه ، فَبَقِّها على نفسك ، اُبسُطْ وجهك للمستأذنين ، وصُنْ عِرْضَك عن تناول المحجوبين ، فما شىءٌ أوقعُ بقلوبهم من سهولة الإذن وطَلاقة الوجه .

قال سليمان بن زيد النابلسىّ :

سأهجُرُكم حتى يَلينَ حِجابُكم * على أنّه لابدّ أن سَيلينُ
خُذوا حِذْرَكم من نَبْوةِ الدّهرِ إنّها * وإن لم تكن حانت فسوف تحين

وقال آخر :

كم من فتًى تُحْمَدُ أخلاقُهُ * وتَسكُنُ الأحرارُ فى ذِمّتِهْ
قد كثَّر الحاجبُ أعداءَهُ * وسلَّطَ الذمَّ[2] على نِعْمتِهْ

وقال أعرابىّ :

لَعَمْرِى َ إن حَجَبَتْنِى العبيدُ * ببابك ما تُحْجَب القافيهْ
سأَرمِى بها من وراء الحجابِ * فتعدُو عليك بها داهِيهْ
تُصِمُّ السميعَ وتُعمِى البصيرَ * وتُسأَلُ من مثلها العافِيهْ

وقال جعفر المصرىّ :

[ و] تفضَّلْ علىّ بالإذن إن جئـ * ـتُ فإنّى مُخَفَّفٌ فى اللقاءِ
ليس لى حاجةٌ سوى الحمد والشُّكـ * ـرِ فدعنى أَقْرِيكَ حُسْنَ الثناء

(١) فى الأصل : «الخصيب» ولعله تحريف ، فان الفعل ينصب المفعولين بنفسه .
(٢) كذا فى عيون الأخبار (مجلد ١ ص ٨٥) وهو الأنسب بالسياق ، وفى الأصل : "وسلط الدهر"

# البـاب التـاسع

## من القسم الخامس من الفن الثـانى

## فى الوزراء وأصحاب الملك

---

### ذكر ما قيل فى الوزارة وشروطها واشتقاقها وما يحتاج الوزير إليه

قال الله عزّ وجلّ إخبارا عن موسى عليه السلام: ( وَٱجْعَلْ لِى وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هٰرُونَ أَخِى ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى) . ورُوى عن النبى صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "ما من أحد أعظم أجرا من وزير صالح يكون مع إمام فيأمر بذات الله تعالى"(١) .

قالت الحكماء : أعْرَفُ الملوك يَحتاج إلى الوزير ، وأشجعُ الرجال يحتاج إلى السلاح ، وأجودُ الخيل يحتاج الى السَّوْط ، وأحدُّ الشِّفار يحتاج الى المِسَنّ .

وقالوا : صَلَاحُ الدنيا بصلاح الملوك ، وصلاحُ الملوك بصلاح الوُزَرَاء ، ولا يَصْلُح المُلْكُ إلا لأهله ، ولا تَصْلُح الوِزارةُ إلا لمستحقِّها .

(٣٦) وقالوا : أفضل عُدَد الملوك صلاحُ الوُزراء الكُفَاة ، لأن فى صلاحهم صَلَاحَ قلوب عوامّهم لهم .

وقالوا : خيرُ الوزراء أصلحُهم للرعيّة ، وأصدقُهم نيّةً فى النصيحة ، وأشدُّهم ذَبًّا عن المملكة ، وأسدُّهم بصيرةً فى الطاعة ، وآخَذُهم لحقوق الرعيّة من نفسه وسلطانه .

وقالوا : الوزير الخيِّر لا يَرَى أنّ صلاحه فى نفسه وسلطانه كائن صلاحا حتى يتّصل بصلاح المَلِك ورعيّته ، وتكونَ عنايتُه فيما عطَف الملك على عامّته ، وفيما

---

(١) ورد هذا الحديث فى "قوانين الوزارة" للماوردى هكذا : "ما من رجل من المسلمين أعظم أجرا من وزير صالح مع إمام يطيعه و يأمره بذات الله تعالى" .

آستعطف قلوبَ العامّة على الطاعة لملكه، وفيما قَوَّم أمرَ الملك والمملكة من تدبير، حتى يجمعَ إلى أخذ الحق وتقديمه عمومَ الأمن والسلامة، ويجمع إلى صلاح المَلِك صَلاحَ أتباعه. وإذا تطرّقت الحوادثُ ودَهِمَت العظائم كان للمَلِك عُدّةً وعَتاداً، وللرعيّة كافياً محتاطا، ومن ورائها ذَابّاً ناصرا، يَعنيه من صلاحِها ما لا يَعنيه[(١)] من صلاح نفسه دونها.

---

## ذكر ما قيل فى آشتقاق الوزارة وصفة الوزير وما يحتاج إليه

أما آشتقاقها فقد آختُلِف فى معناه على ثلاثة أوجه: أحدها أنه مشتَقّ من الوِزْر وهو الثِّقْل، لأنه يَحمِل عن الملك أثقالَه. والثانى أنّه مشتَقّ من الأَزْر وهو الظَّهْر، لأن المَلِك يَقْوَى بوزيره كقوّة البَدَن بِظَهْره. والثالث أنه مشتَقّ من الوَزَر — وهو الملجأ — ومنه قوله تعالى: (كَلاَّ لاَ وَزَرَ) أى لا ملجأ، لأن المَلِك يَلجأ الى وزيره ومعُونَته.

وأما صفة الوزير وما يحتاج إليه، فقد قال أَقْضى القُضاة أبو الحَسَن على آبن محمد بن محمد بن حَبيب الماوردىّ فى كتابه المترجَم بـ"قوانين الوزارة" ما معناه: إن الوزير فى مَنْصِب مختلف الأطراف، يُدبِّر غيرَه من الرعايا ويَتَدبَّر بغيره من الملوك، فهو سائس ومَسُوس يقوم بسياسة رعيّته وينقاد لطاعة سلطانه، فيجمعُ بين سَطْوة مُطاعٍ وآنقياد مُطيع، فشطرُ فكْرِه جاذبٌ لمن يَسُوسه، وشطرُه مجذوبٌ بمن يُطيعه؛ لأن الناس بين سائس، ومسوس، وجامعٍ بينهما، و[له][(٢)] هذه المرتبة الجامعة؛ فهو يَجمعُ ما آختَلَف من أحكامها، ويَستكمِلُ ما تبايَنَ من أقسامها؛ وبيده تدبيرُ مَملكةٍ صلاحُها

---

(١) فى الأصل: "يعينه فى صلاحها ما لا يعينه من ..." وظاهر أنه تحريف.

(٢) زيادة أصلها فى قوانين الوزارة: "وله هذه الرتبة الجامعة" والكلام هناك لمخاطب وهاهنا لغائب.

[مستحق][1] عليـه، وفسادها منسوب إليه؛ يؤاخذ بالإساءة ولا يعتد له بالإحسان، تلان له المبادئ [ بالإرغاب ] ونشدد[2] عليه الغايات بالإعتاب[3]، مســتظهرا ليكفى[4] آعتداد الإحسان إليه، ويسلم من غب المؤاخذة له، ويلزمه ضدها فى حق سلطانه ألا يعتد عليه بصلاح ملكه، لأنه للصلاح مندوب، ولا يعتذر إليه من آختلاله؛[5] لأن الاختلال إليه منسوب .

والوزير مباشر لتدبير ملك له أس هو الدين المشروع، ونظام هو الحق المتبوع. فإن جعل الدين قائده، والحق رائده، تذلل له كل صعب، وسهل عليه كل خطب؛ لأن للدين أنصارا وأعوانا، إن قعدت عنه أجسادهم لم تقعد عنه قلوبهم . وحسبه أن [تكون][1] القلوب معه، فإن للدين سلطانا قد آنقادت اليه إمامته، وآستقرت عليه زعامته[6] . فإن جعله ظهيرا[7] له فى أموره، وعونا له على تدبيره، يجد من القلوب خشوعا، ومن النفوس خضوعا؛ فما آعترت مملكة إليه إلا صالت، ولا آلتحفت بشعاره إلا طالت . ولن يستغزر الوزير مواده إلا بالعدل والإحسان، ولن يستنزرها بمثل الجور والإساءة؛ لأن العدل آستثمار دائم، والجور آستئصال منقطع. وليس يختص بالأموال دون الأقوال والأفعال؛ فعدله فى الأموال أن تؤخذ بحقها وتدفع إلى مستحقها؛ لأنه فى الحقوق سفير مؤتمن، وكفيل مرتهن؛ عليــه غرمها، ولغيره غنمها . وعدله فى الأقوال ألا يخاطب الفاضل بخطاب المفضول، ولا العالم بخطاب المجهول؛ ويقف فى الحمد والذم على حسب الإحسان والإساءة، ليكون

(١) الزيادة عن ''قوانين الوزارة'' . (٢) فى الأصل ''تشد'' وما أثبتناه عن قوانين الوزارة .

(٣) كذا فى قوانين الوزارة وهو ما يقتضيه السجع . وفى الأصل : ''بالإعنات'' .

(٤) فى هذه الجملة كلها شىء من الغموض .

(٥) كذا فى '' قوانين الوزارة'' وفى الأصل : '' ولا يعتذر إليه من إضلاله لأن الإضلال ... الخ''

(٦) فى قوانين الوزارة : «دعامته» . (٧) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل «ظهرا» .

إرغابُه و إرهابُه وَفْقَ أسبابهما من غير سَرَف ولا تقصير؛ فلسانُه ميزانه ؛ فليحتفِظْه من رُجْحَان أو نقصان . وعدلُه فى الأفعال ألّا يعاقِبَ إلا على ذَنْب ، ولا يعفوَ إلا عن إنابة ، ولا يبعثه السُّخْط على آطِّراح المَحَاسن ، ولا يَحمِله الرضا على العفو عن المَسَاوِئ. وليكن وَفاؤُه بالوعد حَتْمًا(١) ، وبالوعيد حَزْمًا ؛ لأن الوعد حقٌّ عليه لغيره يسقط فيه آختياره ، والوعيدَ حقٌّ له على غيره فهو فيه على خياره . فمن أجل ذلك لم يَجُز إخلافُ الوعد و إن جاز إخلافُ الوعيد . قال بعض الشعراء :

و إنى إذا أوعدتُه أو وعدتُهُ * لَمُخْلِفُ إيعادى ومُنْجِزُ مَوْعِدى

لكن ينبغى أن يَقرِن بُخلف الوعيد عُذْرًا حتى لا يهونَ وعيدُه ؛ ليكون نظام الهيبة محفوظا ، وقانونُ السياسة فيه مضبوطا ؛ وليُظهِره إن خَفِىَ ليكون بإخلاف (٣٧) وعيده معذورا ، و بعفوه عنه مشكورا . ولتكن أفعاله أكثرَ من أقواله ؛ فإن زيادة القول على الفعل دناءةٌ وشَينٌ ، وزيادةَ الفعل على القول مَكْرُمةٌ وزَيْنٌ . ولا يجعل لغضبه سلطانًا على نفسه يُخرجه عن الآعتدال الى الآختلال ؛ فلن يَسْلَمَ بالغضب رأىٌ من زَلَل ، ولا كلامٌ من خَطَل ؛ لأن ثورتَه طَيْشٌ مُعِرّ ، ونفرتَه بطشٌ مُضِرّ ؛ لأنه يُخرِج عن التأديب الى الآنتقام ، وعن التقويم الى الآصطلام(٢) .

قال آبن عبّاس : لم يَمِلْ إلى الغضب إلّا مَن أعياه سُلطان الحُجّة . وقال بعض السَّلَف : إيّاك وعِزّةَ الغضب ، فإنها تُفْضى بك الى ذُلّ الآعتذار . وقال بعض الحكماء : من كَثُر شَطَطُه ، كَثُرَ غلطُه . قال بعض الشعراء :

ولم أَرَ فى الأعداء حين آختبرتُهم * عدوًّا لعقل المرء أعدى من الغَضَبْ

---

(١) كذا فى قوانين الوزارة ، وفى الأصل : "حسيا" .

(٢) الاصطلام : القطع والاستئصال .

وليكن غضبُه تغاضُبا يَمْلك به عزمَه، ويُقوِّم به خَصْمَه، فيَسلَم من جَوْر غضبه ويقف على آعتدال تغاضُبه. فقد قيل فى بعض صُحُف بنى إسرائيل: إذا كان الرجل ذَا غَضَبٍ تواترتْ عليه الوضائع[1]، فكلَّما آشتدّ غضبُه آزداد بلاءً. وقد يقترن بالغضب لَجَاجٌ يساويه فى مَعَرَّته، ويُشارِكه فى مَضَرَّته؛ لأن فى اللَّجَاج التزامَ الخطأ وآطِّراح الصواب. فليَدَعْ عنه لَجَاج الخَصْم الألَدّ، وليَتجنَّبْ عواقب المدلّ الفَدْم[2]. وليُتابِع الرأىَ فيما آقتضاه؛ فَلأَنْ يَنْتَفِعَ بالرأى خيرٌ من أن يَسْتَضِرّ باللَّجَاج. فقد قال بعض الحكماء: مَن آستعان بالرأى مَلَك، ومن كابر الأمور هلك. وقال آبن المقفَّع: دع اللَّجَاج فإنه يَكسِر عزائمَ العقول. وقيل: الظَّفَرُ لمن آحتَجّ، لا لمن لَجّ.

وليأخذ الوزيرُ أمورَه بالجِدّ دون الهَزْل. فالجِدُّ والهزل ضِدّان متنافران؛ لأن الجِدّ من قواعد الحقّ الباعث على الصلاح، والهزلَ من مَرَح الباطل الداعى إلى الفساد؛ فصار فرقُ ما بين الجِدّ والهزل هو فرقَ ما بين الحقّ والباطل. وتنافر الأضداد يمنَع من الجمع بينهما[3]؛ فمتى آنفرد بأحدهما كان للآخر تاركا.

وقد رُوِى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: العقلُ حُسامٌ قاطعٌ، والحِلمُ غِطاء ساتر، فقابِلْ[4] هواك بعقلك، وآستُرْ خَلَل خُلُقك بحلمك، وآستعمل الجِدّ ينْقَدْ إليك الحقّ ويفارِقْك الباطل. ولا تَعْدِل إلى الهَزْل فيتبَعَك الباطل ويُنافِرَك الحقّ. وقلّما آلتأمت هَيْبةُ الجِدّ أو تكاملت هَيْبَة الهزل. والهيبة أُسّ السلطنة.

---

(1) الوضائع: الأثقال. (2) الفدم: الغليظ الأحمق الجافى وفى الأصل "المدل الندم" وفى قوانين الوزارة: "النذل الفدم". وما أثبتناه مختارا من الأصل ومن قوانين الوزارة هو المناسب للسياق.

(3) كان الظاهر أن تكون الجملة: وتنافر الضدين يمنع من الجمع بينهما، أو: وتنافر الأضداد يمنع من الجمع بينها، ليوافق الضمير مرجعه. (4) فى قوانين الوزارة: «فقاتل هواك ...» وكلتا الكلمتين يستقيم بها المعنى.

حُكى عن عمرو بن مُرّة أن رجلا من قريش قال لعمر بن الخطّاب رضى الله عنه : إنّ لنا فقد ملأتَ قلوبنا مهابة؛ فقال عمر : أفى ذلك ظلم؟ قال : لا؛ قال : فزادنى الله فى صدوركم مَهابةً . وقال حكيم الهند : ليكن [فيك](١) مع طلاقتك تشدُّد، لئلا يُجترأ عليك بالطلاقة ويُنفَر منك بالتشدّد . والهَزْل إنما يكون من سُخْف أو بَطَر بِجلّ عنهما مَن ساس الرعايا ودبّر الممالك . وسأل ملكُ الهند الإسكندرَ [وقد دخل بلاده](١) : ما علامةُ [دوام](١) الملك؟ قال : الجِدُّ فى كلّ الأمور؛ قال : فما علامة زواله؟ قال : الهَزْل فيها . وليس الكِبْرُ والعُنْفُ جِدّا، ولا التواضعُ واللطفُ هزلًا .

قالوا : و إن آستكدّ الجِدّ خاطرَه فلا بأس أن يَستَروِحَ ببعض الهزل ليستعينَ به على مُصابرة الجِدّ، لكن يكون فى زمان راحته وأوقات خَلْوته بمقدار دَوائه من دائه، فإن الكَلال مَلال(٢) . وليكن ذلك كما قال بعض الشعراء :

أَفِدْ طبعَك المكدُودَ بالجِدّ راحةً * يَجِمَّ وعَلِّله بشىءٍ من المَزْح
ولكن إذا أعطيتَه المَزْح فليكنْ * بمقدار ماتُعطِى الطعامَ من المِلْح

وكذلك فليَتَحرَّ الصدقَ ويتجنّب الكذب، فإنّهما ضدّان متنافران تختلف عِلَلُهما وتفترق نتائجُهما؛ فالصدق من لوازم العقل وهو أُسّ الدِّين وقِوام الحقّ؛ والكذبُ من غرائز الجهل وهو زُورٌ يقترن بغُرور، إن آلتبست أوائله آنهتكت(٣) أواخرُه، و إن جرّ آلتباسه نفعا عاد آنهتاكه ضررا، فلن يَسلَمَ من مَعَرّة زُوره، ومضرّة غُروره .

وقد قدّمنا من مدح الصدق فى باب المدح، وذمّ الكذب فى باب الهجاء، مافيه غُنْيَةٌ عن تَكْراره . وحيث ذكرنا هذه المقدّمة فى آشتقاق الوزارة وما يحتاج الوزير إليه فلنذكر صفةَ الوزارة وشروطها .

---

(١) زيادة عن "قوانين الوزارة" . (٢) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل «ملول» .
(٣) كذا فى قوانين الوزارة، والمصدر الآتى بعده، وفى الأصل «انهكت» .

## ذكر صفة الوزارة وشروطها

قال أقضى القضاة أبو الحسن علىّ بن محمد بن حبيب المـاوردىّ : والوزارة
(٣٨) ضربان : وزارة تفويضٍ تجمع بين كِفايتى السيف والقلم، ووزارة تنفيذ تختصّ بالرأى والحزم . ولكل واحدةٍ منهما حقوقٌ وشروط .

فأما وزارة التفويض فهى: الاستيلاء على التدبير بالعَقْد، والحَلّ، والتقليد والعزل . فأما العقد فيشتمل على شرطين : تنفيذ وإقدام[1] . [وأما الحَلّ][2] فيشتمل على شرطين : دفاع وحذَر . وكلّ شرط من هذه الأربعة الشروط يشتمل على فصول .

فأما الشرط الأول، وهو التنفيذ، فهو أُسُّ[3] الوزارة وقاعدةُ النيابة، وهو الأخصّ بكفاية القلم فى مصالح المُلْك واستقامة الأعمال . ويشتمل على أربعة أقسام :

الأوّل — تنفيذ ما صدرت به أوامرُ الملك . وعلى الوزير فيها حقّان: أحدهما أن يتصفّحها من زَلَلٍ فى ابتدائها، ويحرُسها من خَلَلٍ فى أثنائها[4] ليردّه عن زَلَلها باللطف، ويُقوِّىَ عزمه على صوابها بالإحماد . وقد قال أفلاطون : أوّلُ رياضة الوزير أن يتأمّل أخلاقَ الملك ومُعامَلتَه، فإن كانت شديدةً فَظّةً عامل الناس بدونها، وإن كانت ليّنة مُطلَقة عاملهم بأقوى منها، ليقرُبَ من العدل فى سعيه . والثانى :

---

(١) كذا يؤخذ من « قوانين الوزارة » وهو ما يقتضيه سياق التقسيم الآتى . وفى الأصل : «دفاع وإقدام» . (٢) التكملة عن قوانين الوزارة، ومكانها فى الأصل بياض .

(٣) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل «فالشرط الأول وهو التنفيذ وهو أس ... الخ» .

(٤) فى الأصل : "فى انتهائها" وما أثبتناه هنا عن قوانين الوزارة، وهو ما يقتضيه المعنى، إذ لا معنى للحراسة فى الانتهاء .

تعجيل إمضائها للوقت المقدَّر لها حتى لا يقف فيُوحِش ، [ لأن وقوف أوامره يُوحش ] [١] وهو مندوب للتنفيذ دون الوقوف . وقد قال حكيم الهند : العَجَلةُ فى الأمر خُرْقٌ ، وأَخْرَقُ منه التفريطُ فى الأمر بعد القُدرة عليه . ودَرْكُ [٢] هذا التنفيذ عائدٌ على الملك دون الوزير .

القسم الثانى — تنفيذ ما آقتضاه رأى الوزير من تدبير المملكة . فعليه فى إمضائه حقّان : أحدهما أن يُراعِىَ [٣] أَوْلَى الأُمور فى آجتهاده ، وأصوبَها فى رأيه ، لأنه مندوبٌ لأصلحها ومأخوذٌ بأصوبها . والثانى أن يُطالِعَ الملك به إن جلّ ، ويجوز أن يَطْوِيَه إن قلّ ، ليخرُج عن الآستبداد المنفِّر ، ويسلَم من الحقد المؤثِّر . وقال حكيم الهند : الأحقاد مُؤَثِّرة حيث كانت ، وأخوفُها ما كان فى أنفس الملوك ، لأنهم يَدِينون بالآنتقام ويَرَوْنَ التطلُّب بالوِتْر مَكْرُمَةً وفخراً . فإن عارضه الملكُ فى رأيه بعد المطالعة به لم يَستوحِش من معارضته ، لأنه مالك مُستَنيب ، وظانٌّ مستريب ؛ وقابَلَ بين رأيه ومُعارضته ، وآستوضَح من الملك أسباب المعارضة بلطفٍ إن خَفِيت ، فإن وَضَح صوابُه توقّف عن رأيه وشَكَرَه على آستدراك زَلَله وتلافِى خَلَله وقد منّ عليه ولم يُؤَنِّب . وإن كان الصواب مع الوزير تلطّف فى إيضاح صوابه ، وكَشْفِ عِلله وأسبابه . فإن ساعده على إمضائه أمضاه ؛ وكان دَرْكُ تنفيذه عائداً على الوزير دون الملك . وإن لم يساعده عليه توقّف آنقياداً لطاعته ؛ وكان دَرْكُ وقوفه عائدا على الملك دون الوزير .

والقسم الثالث — تنفيذُ ما صدر عن خلفائه على الأعمال التى فوّضها إلى آرائهم ووَكَلَها إلى آجتهادهم . فإن تفردوا بتنفيذها أمضاها لهم ولم يتعقّبها عليهم ما لم

(١) زيادة عن قوانين الوزارة .

(٢) الدَّرْك : التبعة .

(٣) كذا فى قوانين الوزارة ، وفى الأصل : "أن يكون" .

يتحقق زَلَلَهم فيها ؛ وكان دَرَك تنفيذها عائدا على العمّال دون الوزير . و إن وقفوها على تنفيذ الوزير فعليه فى تنفيذها حقّان : أحدهما أن يستكشف عن أسبابها، ليعلم خطأها من صوابها . و الثانى تقوية أيديهم ونفى الآرتياب عنهم، فإن ظهور الآرتياب مجشّة (١) للقلوب . فإن نفّذها لهم حين لم يتحقّق زللهم فيها كان دركُ تنفيذها عائدا على الوزير دون العمّال .

والقسم الرابع — تنفيذُ أمور الرعايا على ما ألِفُوه من عادات ومُعاملات آختلفوا فيها حين آئتلفوا بها ، لأنّ الناس مجبولون على الحاجة إلى أنواع لا يقدر الواحد أن يقوم بجميعها، فخُولِف بين هممهم لينفردَ كلُّ قوم بنوع منها فيأتلفوا بها، فيقومَ الزرّاع بمزارعهم، ويتشاغلَ الصنّاع بصنائعهم، ويتوفّرُ التجّار على متاجرهم . وعليه فى تنفيذها لهم حقّان : أحدهما ألّا يُعارض صِنفًا منهم فى مَطْلبه ، والثانى ألّا يُشاركه فى مَكْسَبه . وربما كان للسلطان رأىٌ فى الآستكثار من أحد الأصناف فينَقُل إليه من لم يألفه فيختلّ النظام بهم فيما نُقلوا عنه وفيما نُقلوا إليه . وربما ضَنّ السلطانُ عليهم بمكاسبهم فتعرّض لها أو شارَكهم فيها فآتّجر مع التجار وزَرَع مع الزرّاع . وهذا وَهْنٌ فى حقوق السياسة وقَدْحٌ فى شروط الرياسة من وجهين : أحدهما أنه إذا تعرّض لأمر، قَصُرَتْ فيه يدُ مَن عداه ؛ فإن تُورِك عليه لم ينهَضْ به، وإن شُورِك فيه ضاق على أهله . وقد رُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "ما عدَل والٍ آتّجر فى رعيّته" . والثانى أن الملوك أشرفُ الناس مَنْصبا فخُصُّوا بموادّ السلطنه ، لأنها أشرف الموادّ مَكْسبا . فإن زاحموا العـامّةَ فى رَذْل (٢) مكاسبهم أَوْهَنُوا الرعايا ودنّسوا ٣٩

(١) كذا فى الأصل . والمجشة بكسر الميم : الرحا ، من جش الشىء : دقه وكسره ، وفى «قوانين الوزارة» : «فإن ظهور الآرتياب تلبية» .

(٢) فى قوانين الوزارة : « فى درك مكاسبهم » .

الممالك ؛ وعاد وَهْنُهم عليها فاختلّ نظامُها، وٱعتلّ مرامها. وقد رُوى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنه قال " إذا تَجَرَ الراعى هلَكَت الرعيّة ". وكتب حكيم الروم إلى الإسكندر : أيّ مَلِك تَطَنَّف[1] نفسُه إلى المُحقَّرات فالموت أكرم له .

فهذا ما ٱشتمل عليه الشرط الأوّل .

وأما الشرط الثانى من شروط وزارة التفويض، فهو الدفاع . وهو أُسّ السلطنة وقانونُ السياسة والأخصّ بكفاية السيف فى تدبير المُلْك وضروب المصالح. ويشتمل على أربعة أقسام : أحدها الدفاع عن المَلِك من الأولياء، والثانى الدفاع عن المملكة من الأعداء، والثالث دفاع الوزير عن نفسه من الأكفاء، والرابع دفاعه عن الرعية من خوف[2] وٱختلال .

فالقسم الأول فى دفاعه عن المَلِك من أوليائه — ويكون بثلاثة أسباب : أحدها أن يَقُودَهم إلى طاعته بالرغبة، ويَكُفَّهم عن معصيته بالرهبة ؛ فإن الرغبة والرهبة إذا تَوَاليا على النفس ذَلَّت لها وٱنقادت خَوْفا وطَمَعاً ، وبهما تَعَبَّد الله الخَلْق فى وعده ووعيده . والثانى أن يقوم بكفايتهم حتى لا يَنْفِروا بالقوة أو يتفرّقوا بالضعف ؛ وكلاهما قَدْحٌ فى الملك . والثالث أن يحفَظَهم من الإغواء، ويحرُسَهم من الإغراء؛ وذلك بأمرين : أحدهما البحث عن أخبارهم حتى يعلم سليمَهم من سقيمهم . والثانى بإبعاد المُفسدين عنهم حتى لا يتعدّى إليهم فسادُهم ؛ فإن الكَفّ بحسب الكشف .

---

(١) تطنفت نفسه الى الشىء : أشفت وأشرفت عليه . وفى قوانين الوزارة « تطلعت » بدل « تطنفت » .

(٢) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل : « من حزف ... » . وهو تحريف .

والقسم الثانى فى دفاعه عن المملكة من أعدائها — وأعداءُ الممالك(١) من انفرد بمُلك أو امتنع بقوة. وهم ثلاثة أصناف: أكفاء مماثلون، وعظماء متقدمون، وناجمة مُنافسون. فأما الأكفاء المماثلون فيُدفعون بالمقاربة والمسالمة. وأما العظماء المتقدمون فيُدَفَعُون بالمُلاطفة والمُلاينة. وأما الناجمة المنافسون فيُدفعون بالسوط والمخاشنة.

والقسم الثالث فى دفاع الوزير عن نفسه من أكفائه — ويكون بعد استصلاح الطرفين: الأعلى وهو المَلِك، والأدنى وهم الأعوان. وأكفاؤه ثلاثة: واترٌ، وموتورٌ، ومُنافس.

فأما الواتر — فقد بدأ بشرّه وجاهر بعداوته؛ وكلاهما بَغْيٌ مؤنسٌ(٢) بالنصر عليه. وللوزير فى تِرَته حقان: حقٌّ فى مقابلته على ما قدّم من تِرَته، وحق فى استدفاع ما جاهر به من عداوته. فأما حقه فى المقابلة، فإن عفا الوزير عنها كان بالفضل جديرا، وإن قابل كان فى المقابلة معذورا. وقد قيل: لذّةُ العفو أطيبُ من لذّة التشفى [لأن لذّةَ العفو يَتبعها الحمد ولذة التشفى يَعقبها الندم](٣). قال الشاعر:

فإنك تَلْقَى فاعلَ الشَّرِّ نادمًا * عليه ولم يَنْدَمْ على الخير فاعلُهْ

وأما حقه فى استدفاع شرّه، فقد أيقظته مجاهرته، وأَوْهَن كيدَه مُظاهَرتُه. وقد قيل فى منثور الحِكَم(٤): أوهنُ الأعداء كيدًا أظهرُهم بعداوته. فاحذر بادرته وادفع عداوته. ودَفْعُها مختلِفٌ باختلاف طِباعه فى انثنائه بالرغبة وتقويمه بالرهبة.

(١) كذا فى قوانين الوزارة، وهو ما يقتضيه السياق، فان الكلام فى أعداء المملكة. وفى الأصل: «وأعداء الملك». (٢) مؤنس: يوقع فى القلب أنسا وطمأنينة بالظفر به. (٣) زيادة عن قوانين الوزارة. (٤) كان ينبغى أن تكون الجملة «فليحذر... وليدفع...» لأن الكلام هنا لغائب هو الوزير. لكنها منقولة من قوانين الوزارة — والكلام فيه لمخاطب — من غير تغيير.

وأما الموتور — فقد بُودِئ بالإساءة فصَبَرَ عليها، وجُوهِرَ بالعداوة فأخفاها؛ فله تَرَةُ مظلوم وَوَثْبَةُ مُختلِس، فَتُوَقَّى تَرَةُ ظُلامته بالاستعطاف، ووَثْبَةُ مُخالسته بالاحتراز.

وأما المنافس — فهو طالب رتبةٍ إن نال منها سدادًا من عوزٍ يَاسَر، وإن ضُويِق فيها نافر. فلْيُرخِ[1] الوزيرُ له عِنان الأمل، ولْيَخْفِضْ[1] له جَناح منافسته بالاستنابة والعمل؛ ليندفعَ بالمُياسرة عن المنافرة. وليُغالِطْ[1] به الأيام، فإن الساعاتِ تَهدِم الأعمار، ولا يجعلْ له فَرَاغا يتشاغلُ فيه بمَساءته، ويجعلُه عُذْرا فى السعى على منزلته. فإن ساق القضاءُ إليه حَظًّا كان له مُصطَنِعا، يَرْعَى له حقوقَ الاصطناع. فقد قيل: [من][2] علامة الإقبال، اصطناعُ الرجال. فإن صدّه القضاءُ عن إرادته وعجّزه القدر عن طِلْبته كُفِيَ الوزيرُ منه ما خافه [وقد أحسن][3]، ووصل إلى ما أراده [وقد أجمَل][3]، وأوجب بإحسانه شُكرا، وأقام بإجماله عُذْرًا، اجتذب بهما قِيادَ مُنافسه إلى طاعته، وصَرَفه بهما عن التعرّض لمنافسته. فهنالك يجعله قِبْلَةَ رَجائه؛ إذ لم يَحْظَ بخير إلّا (٤٠) منه، ولم يَقْضِ من زمانٍ وَطَرًا إلّا به. وقد قيل فى منثور الحِكَم: مَن استصلح الأضدادَ، بلغ المراد.

---

(١) الفعل فى الأصل بصيغة الإخبار ووضعناه بصيغة الطلب للغائب لأن سياق الكلام يقتضى ذلك، ولأنه فى قوانين الوزارة المنقول عنه ماهنا بصيغة الطلب، الا أنه لمخاطب.

(٢) زيادة عن قوانين الوزارة.

(٣) زيادة عن "قوانين الوزارة" مع تغيير من الخطاب الى الغيبة لمناسبة السياق، أثبتناها هنا ليتضح بها الكلام. فان قوله: «وأوجب بإحسانه الخ» يزداد وضوحا بذكر هذه الزيادة.

وربما تعرّض لعداوة الوزير من قصّر عن رُتبة مُنافسته . فليُعطه[1] من رجائه طَرَفا، وليَقْبِضْ[1] من زِمامه طَرَفا، وليختبرْه[1] فيهما، فسيقفُ على صلاحه أو فساده . فإن صَلَحَ سُوعد، وإن فَسَد بُوعد . فقد قال أَرْدَشير بن بَابَك : إحذروا صولةَ الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شَبِع . وقد قيل فى منثور الحكم : عِلّةُ المُعاداة، قِلّةَ المبالاة .

والقسم الرابع فى الدفاع عن الرعية من خوفٍ[2] واختلال — فالخوف من نتائج الخرق، والاختلال من نتائج الإهمال[3]؛ وكلاهما من سوء السِّيرة وفساد السياسة، [لتردّدهما بين تفريط وإفراط، وخُروجِهما عن العَدْل إلى تقصير أو إسراف][4] . وهم قِوَام المُلْك المستَمَدّ، وذَخيرةُ المستعِدّ . وليس يستقيم ولن يَستقيمَ مُلْكٌ فسَدت فيه أحوالُ الرعايا، لأنّه منهم بمنزلة الرأس من الجسد لا يَنْهَض إلا بقوّته ولا يستقِلّ إلا بمعونته . وعلى الوزير لهم ثلاثة حقوق :

أحدها أن يُعينهم على صلاح معايشهم ووُفورِ مكاسبهم، لتتوفّرَ بهم موادُّه، وتَعْمُرَ بهم بلادُه .

والثانى أن يَقْتَصِر منهم على حقوقه، ويحملَهم فيها على إنصافه، ليكونوا على الاستكثار أحرص، وفى الطاعة أخلص، ولا يكلهم فى مقادير الحقوق الى غيره، ليكونوا له أَرْجَى وعليه أَحْنَى .

---

(١) فى الأصل : بصيغة المضارع من غير لام الطلب، وحسن السياق يقتضى الطلب كما هو فى قوانين الوزارة . (٢) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل : «من حزف ...» .

(٣) فى الأصل : « فالحزف من نتائج الخوف » . وبما أثبتناه يستقيم الكلام، فان الخرق يلزمه مجاوزة الحد والخروج عما يقضى به العدل، وهو بهذا المعنى إفراط وإسراف يقابله الاهمال الذى هو التفريط والتقصير . وفى الحق أن خوف الرعية نتيجة لازمة للخرق بهذا المعنى - على أن صورة ما أثبتناه أقرب شىء لصورة الأصل . (٤) زيادة عن قوانين الوزارة .

والثالث أن يَحُوطَهم بكفّ الأذى عنهم، ومنع الأيدى الغالبة منهم؛ ليكون لهم كالأب الرءوف ويكونوا له كالأولاد البَرَرة؛ فإنّه كافلٌ مُسترْعًى ومسئُولٌ مُؤاخَذ. ولله عليه فيهم حَقٌّ، وللسلطان عليه فيهم تَبِعة[1]. فليغتنم الوزيرُ بهم شكرَ إحسانه، ويُجَمِّلْ بعَدْله فيهم آثارَ سُلطانه.

وأما الشرط الثالث من شروط وزارة التفويض وهو الإقدام. فهو فى السياسة أَوْفَى شطريها[2]، وفى الوزارة أكفى نَظَرَيْها[3]؛ لظفر الإقدام، وخَيبة الإحجام. وقد قيل فى منثور الحكم: بالإقدام تثبت الأقدام. وإنما يجب الإقدام إذا ظهرت أسبابُه، وقُصِدت أبوابُه. قال الشاعر:

إذا ما أتيتَ الأمرَ من غير بابِه * ضَلَلْتَ وإن تقصِدْ إلى الباب تَهتدى

ثم يَجمع بعدهما بين حَزْمه وعَزْمه. فالحزمُ تدبير الأمور بموجب الرأى، والعزم تنفيذُها للوقت المقدَّر لها. فإذا تكاملت شروطُ الإقدام من هذه الوجوه الأربعة — وهى: ظهور أسبابه، وقصد أبوابه، والحزم، والعزم — لم يَمْنع من الظَّفَر، إلا عوائقُ القَدَر.

والإقدامُ ينقسم إلى قسمين: أحدهما الإقدام على ٱجتلاب المنافع، والثانى على دفع المضارّ. فأما الإقدامُ على ٱجتلاب المنافع فضربان: أحدُهما ٱستضافة مُلْك، والثانى ٱستزادة موَادّ. فأما ٱستضافة المُلك فتكون بالحزم والعزم إذا ٱقترنا برَغْبة أو رَهْبة. ولَأَن تكون بالٱغتيال والٱحتيال، أولى من أن تكون بالقتال. وأما ٱستزادةُ الموَادّ فتكون بالعدل والإحسان إذا ٱقترنا برِفْق ومُياسرة لتَكْثُر بهما العمارة وتتوفّر بهما الزراعة؛ فإنّ الأرض كُنوزُ الملك يستخرجها أعوانٌ متطوّعون يُقْنِعهم

(١) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل "منهم تبعة".

(٢) فى قوانين الوزارة: "أوفى شرطيها".

(٣) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الاصل "أوفى نظريها".

الكَفُّ عنهم ويَقْطعهم العَسْفُ بهم . وأما الإقدامُ على دفع المضارّ فضربان : أحدُهما . دفعُ ما آختلّ من المُلْك . وله سببان : إهمالٌ أو عَجْزٌ . والثانى دفع مانقَص من الموادّ . وله سببان : نُفورٌ أو جَوْرٌ . فيحتاج الوزير أن يَدفعَ ضَرر كلّ واحدٍ منهما بالضدّ [من سببه ، فإن علاج كل داء بضده](١) من الدواء . فإن كان آختلالُ المُلْك من الإهمال أيقظ له عَزْمَه ، وإن كان من العجز آستعمل فيه حزمَه . وإن كان نقصُ الموادّ من النفور آستنجد فيه رهبتَه ، وإن كان من الجَوْر أظهر فيه مَعْدلَتَه . فإن كان حدوثُ ذلك فى المُلْك صدَر عن الوزير كان مُؤاخَذًا بتفريطه فى الآبتداء ، ومستدرِكًا لتقصيره فى الآنتهاء ، فيَجْبُرُ إساءتَه بإحسانه ، ويمحو قبيحَه بجميله . وإن كان حدوثُه من غيره كانت جريرةُ الإساءة على مَن أحدثه ، وكان حمدُ الإحسان للوزير .

وأما الشرط الرابع من شروط وزارة التفويض وهو الحَذَرُ — فيتعيّن على الوزير أن يكون حَذِرا ، لأنّ الدهر ثائرٌ بطوارقه ، ومُنافر بنوائبه ، يَغدُر إن وَفَى ، ويَفتِك إن هفا . قال عبد الحميد : أصاب الدنيا مَن حَذِرَها ، وأصابت الدنيا مَنْ أمِنَها . وقال عبدُ الملك بن مروان : إحذَروا الجَديدَين ، فللأَقدار أوقاتٌ تُغضِى عنها الأبصار . فإذا صادفت طوارقُ الدهر غِرًّا مُستَرسِلا صار هَدَفا لسهامه الصوائب ، وغَرَضًا لمنافرة الحوادث والنوائب . وقد قال بعضُ الحكماء : من أعرض عن الحَذَر والآحتراس ، وبَنَى أمرَه على غير أساس ، زال عنه العِزّ وآستولى عليــه العجز ، وإن قدّم لطوارقه حَذَرَ المتيقِّظ ، وتلقّاها بعُــدّة المتحفِّظ ، ردّ بادِرتَهــا بعزمِ ذى حَزْمٍ قد حلَبَ أشطُرَ دهره ، وقام بواضح عُذْره . قال بعض الشعراء :

إنّ للدهرِ صَوْلةً فاحذَرَنْهَا * لا تَبِيتَنّ قد أَمِنْتَ الدُّهورَا

(١) التكملة عن "قوانين الوزارة" .

ثم هو بعد حَذَرِه مستسلِمٌ لقضاءٍ لا يُرَدّ، وقَدَرٍ لا يُصَدّ. وقد رُوِى عن أبى الدَّرْدَاء رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "احذَرُوا الدنيا فإنّها أسحرُ من هَارُوتَ ومَارُوتَ". وقيل لبعض الحكماء: مَن السعيدُ؟ قال: من اعتبرَ بأَمْسه، واستظهر لنفسه. قال بعض الشعراء:

وحَذِرْتُ من أمرٍ فمَرّ بجانبى ❊ لم يُبكِنِى ولَقِيتُ مالم أحْذَرِ

وللحذَر حدٌّ يقف عنده إن زاد [عليه](١) صار خَوَراً، كما أن للإقدام حدّاً إن زاد عليه صار تَهَوُّرا. والزيادة على الحدود، نَقْصٌ فى المحدود. ولهما زمان إن خرجا عنه صار الحذَرُ فَشَلاً، والإقدامُ خُرْقا. وعِيارُهما معتَبَرٌ بحزمِ العاقل ويَقَظَةِ الفَطِن. قال بعض الحكماء: لِيَعْرِفْكَ السلطان عند افتتاح التدبير بالحذر، وعند وقوع الأمر بالجِدّ.

والحذر يلزم من أربعة أوجه: أحدها الحذر من الله تعالى فيما فَرَض. والثانى [الحذر](١) من السلطان فيما فَوّض. والثالث الحذر من الزمان فيما اعترَض. والرابع الحذر من [غلبة](١) الأعداء ومكرِ الدُّهاة.

فأما الحذر من الله تعالى — فهو عمادُ الدِّين الباعثُ على الطاعة. والحذرُ منه هو الوقوف عند أوامره، والانتهاءُ عن زواجره؛ فيعمل بطاعته فيما أَمَر، وينتهى عن معصيته فيما حَظَر. فلن يُرَى قليلُ الحذر إلا متجوِّزا فى دينه طائحا فى غُلَوائه، لا يرَى رُشْدا فى العاجل، وهو على وعيدٍ فى الآجل؛ مع نفور النفوس منه وسراية الذّم فيه. وقد قيل فى بعض الصحف الأُولى: العِزّة والقوّةُ يعظِّمان القلب، وأفضل منهما خوفُ الله تعالى؛ لأن من لزم خشيةَ الله لم يَخَفِ الوضيعة ولم يَحْتَجْ إلى ناصر. وقال علىّ رضى الله عنه: من حاول أمرًا بمعصية الله كان أبعدَ لما رجا، وأقربَ لمجىء ما اتَّقَى.

(١) زيادة عن "قوانين الوزارة".

وأما الحذر من السلطان، فهو وثّاب بقدرته، متحكّم بسطوته، يميل به الهوى فيقطع بالظنّ ويؤاخذ بالارتياب؛ فالثقة به عجز، والاسترسال معه خطر. والحذر منه فى حالَتى السُّخط والرضا أسلم؛ لأنّه يستذنب إذا ملّ حتى يصير المحسن عنده كالمسىء. فيستخلص(١) رأيه بالنصح، ويستدفع تنكّره بالحذر. وقال بعض الحكماء: اصحب السلطان بثلاث: الحذر، ورفض الدولة، والاجتهاد فى النصح. والحذر منه يكون بثلاثة أمور: أحدها ألّا يعوّل على الثقة به فى الإدلال والاسترسال، فما جرّت الثقة إلا ندما. وقد قيل: الخُرْق الدالّة على السلطان، والوثبة قبل الإمكان. [فاقبض نفسك إذا قدّمك، وتواضع له إذا عظّمك، واحتشمه(٢) إذا آنسك، ولِنْ له إذا خاشنك، واصبر على تجنّيه [إذا غالظك](٣)؛ فهو على التجنّى أقدر، فكن على احتماله أصبر؛ فربّما كانت مجاملته لك مكرا، وتجنّيه عليك غدرا](٤). فقد قيل فى بعض الصحف الأولى: حبّ الملك وهواه يُشبه الطَّلّ على العشب. فلا تجعلْ له فى إظهار تنكّره عذرا؛ فربما اعترف بالحق فوفّى، ورقّ بالصبر فكفّ. وقد قيل فى أمثال كليلة ودمنة: صاحبُ السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أشدّ خوفا.

والثانى من حذره منه أن يساعده على مطالبه، ويوافقه على محابّه [ومآربه](٣)، ولا يصدّه عن غرض إذا لم يقدح فى دين ولا عرض، ولا يتوقّف عن إجابته

---

(١) فى الأصل: "فيستخلص ..." والسياق يقتضى الأمر كما فى "قوانين الوزارة".

(٢) ورد فى الأساس: «أنا أحتشمك واحتشم منك أى أستحيي» وفى اللسان وشرح القاموس أحتشم منه وعنه ولا يقال: أحتشمه. فعبارة الأصل هاهنا صحيحة على مافى الأساس.

(٣) زيادة عن "قوانين الوزارة". (٤) هذه الجملة التى بين القوسين المربعين نقلها صاحب الأصل عن قوانين الوزارة من غير تغيير فى العبارة، وعادته فى النقل عنه أن يغير الضمير من الخطاب إلى الغيبة، لأن قوانين الوزارة يوجه الكلام لمخاطب، والأصل هنا يوجهه لغائب، كما هو واضح.

وإن شغَلَه ما هو أهمُّ ؛ فإن المَلك لا يُقيم لوزيره عُذْرا إذا وجده فى أغراضه مُقَصِّرا، وإن كان على مصالح مُلْكه مُتوفِّرا؛ فإنه آتخذه لنفسه ثم لمُلْكه؛ وقد يُقدِّم حظَّ نفسه على مصلحة مُلْكه، لغَلَبة الهوى ونَازِع الشهوة . فليكنْ مُتوفِّرا على مُراده ليسلَم آعتقادُه له . فإن قدَحتْ أغراضُه فى دِين أو عِرض سَلَّ الوزيرُ نفسه من وِزْرها وتحفَّظ من شَيْنها (١) بالتلطُّف فى كَفِّه عنها بما يعتاضُه بدَلًا منها، ليَسْهُل عليه إقلاعُه عنها . فإن ساعده المَلك عليها سَلِم دِينُهما، وزال شَيْنُهما . فقد رُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "إن لله خزائنَ للخير والشرِّ مفاتيحُها الرجالُ فطُوبَى لمن (٤٢) جعله الله مِفْتاحًا للخير مِغْلاقًا للشرّ ووَيْلٌ لمن جعله اللهُ مِفْتاحًا للشر مِغْلاقًا للخير" .

وقال الشاعر :

سَتَلْقَى الذى قدّمتَ للشَّرّ مُحْضَرًا ☼ وأنتَ بما تأْتِى من الخير أَسْعَدُ

وإن أَصرّ المَلك عليها فليَلِن (٢) الوزيرُ فى متاركته، ويُحجِم عن مساعدته؛ وهو خِدَاعٌ يَتدلّس بالمغالطة ويَخْفَى بالحزم؛ فليستنجِد فيه عقلَه، ويستعمِلْ فيه حزمَه؛ ليسلم من تنكُّره، ويخلُص من وِزره . فقد رُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "إنّ من شِرَار الناس عند الله يومَ القيامة عبدًا أذهب آخرتَه بدُنْيا غيره" . والثالث من حذره منه أن يذُبَّ عن نفسه ومُلْكه بما آستطاع من مال ونَفْس؛ فإنه (٣) [عن نفسه] يذُبُّ، ولما يَرُبُّ (٤)؛ فإنه لا يصلُح حالُه مع فساد حال مَلِكه وهو فرع من أصله . وهو (٥) يسترسل لثقته به، ويستسلم لتعويله عليه؛ فليُقابِلْ ثقتَه بأمانته، وآستسلامَه بكفايته، ولا

---

(١) كذا فى «قوانين الوزارة» ويرجحه ما يأتى من قوله «سلم دينهما وزال شينهما» وفى الأصل «من شبهتا» .

(٢) كذا يؤخذ من «قوانين الوزارة»، وفى الأصل «فليكن ...» .

(٣) زيادة من قوانين الوزارة يقتضيها السياق .

(٤) يرب : يصلح .

(٥) الضمير فى «وهو يسترسل ...» يرجع الى الملك .

يُلجئه أن يُباشر دَفْع الخوف والحذر، فيُلجئه إلى ما هو أخوف وأحذر؛ لأن الوزير يخاف المَلِك ويخاف ما يَخافه، فيتوالى عليه خوفان، ويتـوالى عليه خَطَران. قال شاعر:

إنّ البلاءَ يُطاقُ غيرَ مُضَاعَفٍ * فإذا تضاعفَ صار غيرَ مُطاقِ

وأما حذره من زمانه، فلأنّه يتقلّب بألوانه، ويخشُنُ بعـد ليَانه، فيسلُب ما أعطى ويُفرِّق ما جمع. وقد رُوى عن أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "أنظروا دُورَ مَن تسكُنون وأرضَ من تَزْرَعُون وفى طُرُق مَن تَمْشُون". وقال بعض الحكماء: الدنيـا إن بَقِيتْ لك لم تَبْقَ لها. وقال بعض البلغاء: إن الدنيا تُقبِل إقبالَ الطالب، وتُدبِر إدبار الهارب؛ لا تَبْقى على حالة، ولا تخلُو من آستحالة؛ تُصلِح جانبا بإفساد جانب، وتسُرُّ صاحبا بمَسَاءَة صاحب؛ فالكونُ فيها على خَطَر، والثّقةُ بها على غَرَر. وقال قَيْس بن الخَطِيم:

ومن عادةِ الأيّامِ أنّ خُطوبَها * إذا سَرَّ منها جانبٌ ساء جانبُ

[والحَذَر][(١)] من الزمان يكون من أربعة أوجه:

أحدها: ألّا يثِق بمساعدته، ولا يركَن إلى مُياسرته، فيغفُلَ عن الحذر والآستعداد، فربّما آنعكس فافترس، وغَافَص[(٢)] فاختَلَس. وقد قيل: للدهر صُرُوف، لست عنها بمصروف. قال أبو العَتاهِيَة:

إنّ الزمانَ وإن ألا * نَ لأهْـلِه لَمُخاشِن
فخُطُوبُه[(٣)] المتحرّكا * تُ كأنّهنّ سواكِنُ

(١) فى الأصل بياض، والتكلة عن «قوانين الوزارة».

(٢) غافصه: فاجأه وأخذه على غِرّة منه.

(٣) كذا فى «قوانين الوزارة». وفى الأصل: «يخطوبه».

والثاني : أن ينتهز فُرصة مَكِنَتِه(١) بفعل الجميل، وغَرْس الصنائع، وإسداء العوارف؛ ليكون ذلك ذخيرةً له في النوائب، وخَلَفًا في العواقب؛ ولا يُلهِيَه آستكفاؤه عن الآستظهار، ولا يمنَعَه آستغناؤه عن الآستكثار . فقد قيل: المرء آبنُ يومه، فليتنبّه من نومه . وقد رُوى عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "اِغتنم خمسا قبل خمس شَبَابَك قبل هَرَمك وصِحّتَك قبل سَقَمك وغِنَاك قبل فَقْرك وفَرَاغَك قبل شُغْلك وحياتَك قبل موتِك" . قال سعيدُ بنُ سَلْم :

إنّما الدنيا هِبَاتٌ * وعَوارٍ مُستَرَدَّهْ
شِدّةٌ بعدَ رَخَاءٍ * ورَخَاءٌ بعد شِدَّهْ

والثالث: أن يَكُفّ نفسَه عن القبيح ويَقْبِضَ يدَه عن الإساءة، ليُكفَى رَصْدَ التِّرات، وغوائلَ الهَفَوات ؛ فيأمَنَ من وَجَلِه، ويسلَمَ من زَلَلِه ؛ ولا يتطاوَلَ بالقُدْرة فيغفُلَ وهو مطلوب، ويأمَنَ وهو مسلوب .

والرابع : أن يستَعِدّ لآخرته، ويَستظهِرَ لمَعَاده، ولا يغترّ بالأمل فيخُونَه الفَوْت، ولا تُلهِيَهُ الدنيا فتَصُدَّه عن الآخرة . فقلَّ من لابَسَها فَسلِمَ من تَبِعاتها؛ لهَفَوات غُرورها، [وعواقب شُرورها](٢) . رُوى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "يا عجبًا كلّ العَجَب للمُصَدِّق بدار الخُلُود وهو يسعى لدار الغُرور" . وقال في منثور الحِكَم: طلاقُ الدنيا مَهْرُ الجنّة .

وأما حذرُه من أهل الزمان — فلأن الإنسانَ محسود بالنعمة، مغبوط (٤٣)
بالسلامة . والناس على أربعة أطوار متباينة :

---

(١) المكنة بفتح فكسر : التمكن .

(٢) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

[أحدها](١) خيرٌ عاقل يُسالِم بخـيره ، ويُساعِد بعقله ؛ فالظَّفَرُ به سـعادةٌ ، والاستعانةُ به توفيقٌ . فَلْيَجتهِد ألّا يفُوتَه(٢) وإن كان قليـلَ الوجود ، ليَحْظَى بخـيره ويَسْعَدَ بعقله . وقلّ أن يكون الخـيِّرُ العاقلُ إلا متحلّيًا بالعلم متزيّنا بالأدب . فإذا أظفره الزمانُ بمن تكاملت فضائلُه ، وتهذّبت خصائلُه ، فليَتّخذه(٢) ذخيرةَ نوائبـه ، وعُدّةَ شدائده ، يَجِدْه كفيلَ صَلَاحِها ، وزعيمَ نَجَاحِها .

والطور الثانى : شرِّيرٌ جاهل يَضُرّ بشرّه ، ويُضِلّ بجهله . فليحذَر مخالطته ، فهى أضر من السّمّ ، وأنفذ من السهم . وشرُّه بجهله مُنتشِرٌ يَضعُفُ إن تُورِكَ ، ويَقوَى إن شُورِكَ ؛ فليَكْفُف شرَّه بالإبعاد ، ولا يُعزّه بالتقريب ، فيُلحِقه ضَرَرَىْ شرِّه وجهله . وضَرَرُ الجهل أعمّ من ضرر الشر ؛ لأن قانونَ الشر معلوم ، وقانونَ الجهل غيرُ معلوم .

والطور الثالث : خَيِّرٌ جاهلٌ يُسالِم بخيره ، ويُضِل بجهله ؛ فليُقارِبْه(٢) ، إن شاء ، لخيره ، ولا يَستعمِلْه لجهله ؛ ليكون بخيره موسوما ، ومن جهله سليما .

والطور الرابع : شِرِّيرٌ عاقل وهو الداهيةُ المَكِر ، يُستعمَل للخطوب إذا حَزَبَت(٣) . فليكن على حَذَرٍ من مَكْره ، ويُتارِكْه فى الدَّعَة على استدفاع لشره . وقد رُوِى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "إنّ الله يُؤيِّد هذا الدِّينَ بالرجل الفاجر" . ومِثْلُ هذا يُستكَفُّ بمعونةٍ تَمُدُّه ، ومُراعاةٍ تُرضيه ؛ فإنّه كالسَّبُع الضارى إن أجعتَه هاج ، وإن أشبعتَه سكن ؛ ليكون مذخورا للحاجة ؛ فإن للزمان خُطوبا لا تُدْفَع إلا بشرار أهله ؛ كما قال حُذَيفَةُ بن اليَمَان لرجل : أيَسُرّك أن تَغلِب شرَّ الناس ؟ قال : نعم ؛ قال :

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

(٢) السياق يقتضى صيغة الأمر كما فى «قوانين الوزارة» . والفعل فى الأصل مجرد من لام الأمر .

(٣) حزبه الأمر : نابه واشتدّ عليه .

إنك لن تغلبه حتى تكون شرًا منه . فيُعَدُّ لخطوب الشرِّ إن طَرَقَت ؛ فإنه بها أخبر ، وعلى دفعها أقدر ، ولأخلها أقهر ، فـ « إنّ الحديد بالحديد يُفْلَح » . فيُستكَفُّ إلى حينها بما يدفع عاديةَ شره ، ويقطعُ غائلةَ مكره ، وإن كانت ضَرَاوةُ الشر أجذب ، وطباعُ النفوس أغلب . فإن وجد الوزيرُ من هذا الداهيةِ فُتورا فى همّته ، وقصورا فى مُنّته[(١)] كانت سِرايةُ مكره أنزر ، وتأثيرُه فى الخطوب أيسر . وإن كان عالىَ الهمّة قوىَّ المُنّة يتطاول إلى معالى الأمور ، كانت سرايةُ مكره أوفر ، وتأثيرُه فى الخطوب أكثر . فَلْيُعْطِه[(٢)] فى كل حال من أمرَيه من الحَذَر والسكون بحسب ما تقتضيه هِمّتُه ، وتبعثُ عليــه مُنّته ؛ ليكون قانونُه معه مستقيما ، [ومن دهاء مكره سليما[(٣)]] ؛ لا ينالُه خَوَرُ من سَرَف ، ولا آسترسالٌ من تقصير ؛ فقــد جعل الله تعالى لكل شيء قَدْرًا .

فهذا تفصيلُ ما آشتمل عليه العَقْدُ والحلّ .

وأما التقليد والعزل ، وهو الشطر الثانى من شروط وزارة التفويض ،

فالتقليد على ضربين : تقليد تقرير ، وتقليد تدبير .

فأما تقليد التقرير ، فهو فيما يُستأنفُ إنشاءُ قواعده ، ويُبتدأ تقريرُ رسومه . وهو على ثلاثة أقسام :

أحدها : أن يكون فى حاضر يقدر الوزير على مباشرته ، فالوزير أخصّ بتقريره ، وأحقّ بتنفيذه ؛ لأنها أصول مُؤبّدة وهى من خواصّ نظره . فإن قلّد عليها وآستناب

---

(١) المنة : القوة .

(٢) السياق يقتضى صيغة الأمر كما فى « قوانين الوزارة » . والفعل فى الأصل مجرد من لام الأمر .

(٣) زيادة عن « قوانين الوزارة » .

فيها، كان تقصيرا منه إن جَلّ، ومعذورا فيه إن قلّ. ولم يكن لمن قَلَّده تنفيذُ تقريره إلا عن إذنه، وإلا كان عزلا خَفِيًّا؛ لأنه يصير مُلتزِمًا وقد كان مُلْزِما، ومُحكَمًا[(١)] وقد كان حاكِما.

والثـــانى: أن يكون التقليد فيما بَعُدَ عنه ويمكن آستئمارُه[(٢)] فيه، فيجوز أن يَستنيب فى تقريره، ويكون موقوفا على إمضاء الوزير وتنفيذه. ولا يجمع المستنابُ بين الأمرين، ليكونَ التقليدُ مقصورا على التقرير، والوزيرُ مختصا بالتنفيذ. فإن جَمَع المستنابُ بين التقرير والتنفيذ كان فيه مُتَجوِّزًا، إلا أن يُؤْمَر به فيصير الآمرُ مُتَجوِّزا، إلا أن يكونَ آضطرارا يزول معه حكمُ الآختيار.

والثالث: أن يكون التقليدُ فيما بَعُدَ عنه ويتعذّر[(٣)] آستئماره فيه، فيجوز أن [يَستَنيبَ فيــه مَن][(٤)] يَجمعُ بين تقريره وتنفيذه إذا تكاملت فى المُستناب ثلاثةُ شروط: أحدها الكفاية التى ينهَضُ بها فى التقرير. والثانى الهيبةُ التى يُطاع بها فى التنفيذ. والثالث الأمانةُ التى يَكُفُّ بها عن الآسترشاء والخيانة، بعد تكامُل الشروط المعتَبَرة فى جميع الولايات، وهى ثلاثة: العقل، والديانة، والمُرُوءَة. فلا فُسحةَ فى تقليد مَن أخَلّ ببعضها، لقصوره عن حقها، وخروجه من أهلها؛ وإنمــا يختلف ما سواها باختلاف الولايات، وإن كانت هذه مستَحَقّةً فى جميعها. وقد قال كسرى أبرويز: مَن آعتمد على كُفَاة السوء لم يَخْلُ مر رأيٍ فاسـدٍ وظنٍّ كاذبٍ وعدوٍّ غالب. وقد قال بعض الحكماء:

(١) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل: «لأنه ملزم وقد كان ملزما، ومحكم ... الخ».

(٢) الاستئمار: المشاورة.

(٣) كذا فى قوانين الوزارة، والتقليد هو موضوع الكلام؛ وفى الأصل: «التنفيذ ...».

(٤) التكملة عن «قوانين الوزارة».

لا تَسْتَكْفِيَنّ مخدوعا عن عقله ؛ والمخدوع[(١)] مَن بُلِـغ به قَدْرًا لايستحقه ، أو أُثِيب ثوابا لا يستوجِبُه .



وأما تقليدُ التدبير ، فهو النظر فيما ٱستقرّت رسومُه ، وتمهّدتْ قواعدُه . وهو مشتَرَكٌ بين الوزير و بين الناظر فيه ؛ لكن[(٢)] يختصُّ الوزير بمراعاته ، والناظرُ بمباشرته ؛ ليستَظْهِر[(٣)] الوزيرُ بالمراعاة ، ولا يَتَبَذَّل[(٤)] بالمباشرة . وهو ضربان : أحدهما تدبير الأجناد ، والثانى تدبيرُ الأموال .

فأما تدبير الأجناد ، فلا يَستغنِي الوزيرُ عن تقليد سفيرٍ فيه و إن كانوا يُلاقونه ؛ ليحفَظَ بالسفير حِشْمة وزارته ولا يَقِفَ أغراضَ أجنادِه ، وقد ٱنصان عن لَغَط كلامِهم ، وجَفْوة طِباعهم . والأغلبُ على تدبيرهم الرأىُ والسياسةُ . فيعتَبرُ فى هذا المختار لهذا التقليد ستةُ شروط :

أحدها : الهَيْبَةُ التى تَقودُهم إلى طاعتـه ، لأنه يقوم بتـدبيرِ ذَوِى سَطْوةٍ ، فيحتاج إلى قوّة الهيبة .

والثـانى : أن يكون من ذَوِى الرأى والسياسة ، ليقودَهُم برأيه إلى الصواب ويَقِفَهم بسياسته على الٱستقامة .

والثالث : أن يكون مُتوصِّلا إلى ٱستعطاف القلوب ، وٱجتماع الكلمة ، ليسلموا من ٱختلاف أو منافرة .

---

(١) كذا فى قوانين الوزارة ، وفى الأصـل : « فالمخـدوع ... » بالفاء ، وظاهر أن حسن السياق يقتضى الواو .

(٢) كذا فى «قوانين الوزارة» . وفى الأصل : « لكى يختص ... » .

(٣) يستظهر : يحتاط ويستوثق .

(٤) فى الأصل « يتبدّل » بالدال . والسياق يقتضى ما وضعناه .

والرابع : أن يكون بينه وبين الأجناد مناسبةٌ فى الطباع ومشاكَلَةٌ فى الأخلاق يمتزِجون [بها](١) فى الموافقة و[لا](١) يختلفون [فيها](١) فى المباينة(٢) .

والخامس : أن يكون سليم الباطن صحيحَ المُعتقَد، لأنه يصير أَخَصَّ بهم، ويصيرون أطوعَ له .

والسادس : ما آختلف بأختلاف الحال، فإن كان فى زمان السِّلم آعتُبِر فيه الأناةُ والسكونُ، وإن كان فى زمان الحرب آعتُبِر فيه الإقدامُ والسَّطْوَةُ، ليكون مطبوعا على ما يُضاهِى حالَ زمانه . فإذا ظَفِر بمَن آستكملها — وبعيدٌ أن يَظْفَرَ به إلا أن يُعَانَ بالتوفيق — وجب تقليدُه، ولَزِمت مُناصفَتُه فى الحقوق التى له وعليه، ليدُومَ ويَستقيمَ . فقد قيل فى منثور الحِكَم : مَن قَضَيتَ واجبَه، أَمِنتَ جانبَه .

وأما تدبيرُ الأموال، فالوزيرُ مَصُون عن مباشرتها، وإنما يَحْفَظُ دَخْلَها بالهيبة والآستظهار، ويَضْبُطُ خَرْجَها بالحاجة والآضطرار . وللتقليد على كل حال منهما(٣) شروط .

فشروط التقليد على مباشرة دَخْلِها خمسة :

أحدها : أن يكون مطبوعا على العدْل، لِيُنْصِفَ ويَنْتصِف .

والثانى : أن يكون متديِّنا بالأمانة، لِيَستوفىَ ويُوفِّىَ .

والثالث : أن يكون كافيا، لِيَضْبُطَ بكفايته، ولا يُضيعَ بعجزه .

والرابع : أن يكون خَبيرا بعمله يَعرِف وجوهَ موادّه، وأسبابَ زيادته .

---

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

(٢) فى «قوانين الوزارة» : «...فيها بالمباينة» .

(٣) فى قوانين الوزارة : "على كل واحد منهما" .

والخامس: أن يكون رَفِيقا بمُعامليه غيرَ عَسُوف ولا أَخْرَق . حُكِي أن الإسكندر كتب إلى مُعَلِّمه أرسطاطاليس ليستشيره فى عُمّاله ، فكَتَبَ إليه : إنّ مَن كان له عبيدٌ فأحسنَ فى سياستهم فوَلِّه الجُنْد ، ومن كان له ضَيْعةٌ فأحسنَ تدبيرَها فَوَلِّه الخَرَاج .

وأما شروط التقليد على مباشرة خَرْجها ، بعد الأمانة التى هى مشروطة فى كلّ ولاية ، فمعتَبَرةٌ بأحوال الخَرْج . وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

أحدها : ما كان راتبا عن رُسُوم مستقَرّة كأرزاق الجيوش والحواشى ، فالتقليد عليه شرطان : معرفةُ مقاديرها ، ومعرفة مُستحِقّيها .

والثانى : ما كان عارضا عن أوامرَ تقدّمتْها والناظرُ مأمورٌ بها كالصِّلات وحوادث النَّفَقات ، فالتقليد عليه شرطان : وقوفها على الأوامر ، ومعرفةُ أغراض الآمر[(١)] .

والثالث : ما كان عارضا فُوِّض إلى رأى الناظر ووُكِلَ إلى تقريره كالمصالح والنَّفَقات ، فالتقليد عليه أوْفَى شروطا لوقوفها على اجتهاده وتقديره ، فيحتاج مع الأمانة إلى ثلاثة شروط :

أحدها : معرفةُ وجود الخَرْج ، حتى لا يتصرف فى غير حقّ .

والثانى : الاقتصاد فيه ، حتى لا يُفْضِىَ إلى سَرف ولا تقصير .

والثالث : إستصلاح الأثمان والأجور من غير تَحَيُّف[(٢)] ولا غَبْن .

---

(١) كذا فى "قوانين الوزارة" . وفى الأصل : "ومعرفة أغراض الأوامر" .

(٢) التَّحَيُّف : التنقّص .

وأما العزل فضربان :

أحدهما : ما كان عن غير سبب فهو خارجٌ عن السياسة ؛ لأن للأفعال والأقوال أسبابا إذا تجردت عنها[(١)] صار الفعلُ عَبَثًا والكلامُ لَغْوًا لا يقتضيه رأيٌ حصيف، ولا تُوجِبه سياسةُ لبيب . وقد قيل : العزلُ أحدُ الطَّلاقَيْن . فكما أنه لا يَحْسُنُ الطلاقُ بغير سبب، كذلك لا يحسُن العزل بغير سبب . وإذا لم يَثِق الناظر باستدامة نَظَره مع الاستقامة، عَدَل عنها إلى النظر لنفسه ، فعاد الوَهْنُ على عمله . وما يكون هذا العزلُ إلا عن فَشَلٍ أو مَلَل .

والضرب الثانى : أن يكون العزلُ لسبب دعا إليه . وأسبابه تكون من ثمانية أوجه :

أحدها : أن يكون سببُه خِيانةً ظهرت منه، فالعزلُ لها من حقوق السياسة مع استرجاع الخِيانة والمقابلةِ عليها بالزواجر المُقوِّمة . ولا يُؤاخَذ فيها بالظنون والتُّهَم . فقد قيل : من يَخُنْ يَهُنْ .

والوجه الثانى : أن يكون سببُه عَجْزُه وقصورَ كفايته ، فالعمل بالعجز [مُضاع][(٢)]؛ وهو نقص فى العاجز وإن لم يكن ذنبا له ؛ فلا يجوز فى السياسة إقرارُه على العمل الذى عَجَز عنه . ثم رُوعِى عجزُه بعد عَزْله ؛ فإن كان لثِقَل ما تقلّده من العمل جاز أن يُقَلَّدَ ما هو أسهل ، وإن كان لقصور مُنَّته وضعف حَزْمه لم يكن أهلا لتقليدٍ ولا عمل .

---

(١) كذا فى الأصل . والذى يؤخذ من كتب اللغة أن «تجرد» يتعدى بـ «من» .

(٢) التكملة عن «قوانين الوزارة» .

والوجه الثالث : أن يكون سببُه آختلالَ العمل من عَسْفه أو خُرْقِه . فهذا السبب زائدٌ على الكفاية، وخارجٌ عن السياسة . والوزيرُ المُقلِّد فيه بين خيارين : إما أن يعزله بغيره، وإما أن يَكُفَّه عن عَسْفه وخُرْقه . ويجوز أن يكون مُرْصَدًا لتقليد ما تدعو السياسة فيه[1] الى العَسْف لمن شاقّ ونافر . فقد قيل : لكلّ بناء أساس، ولكلّ تُرْبة غِراس .

والوجه الرابع : أن يكون سببُه آنتشارَ العمل به من لِينه وقلّة هَيْبته . فهذا السببُ مُوهِنٌ للسياسة . والوزير فيه بين خيارين : إما أن يعزله بمن هو أقوى وأهيب، وإما أن يضُمّ إليه مَن تتكامل به القوّةُ والهيبةُ . وخيارُه فيه معتبَرٌ بالأصلح . ويجوز أن يُقلَّد بعد صَرْفه مالا يُستَضَرّ فيه بضعفه .

والوجه الخامس : أن يكون سببُه فَضْلَ كفايته وظهورَ الحاجة إليه فيما هو أكبرُ من عمله . فهذا أحدُ وجوه العزل وليس بعزل فى الحقيقة، وإنما هو نَقْلٌ من عمل إلى ما هو أجلّ منه، فصار بهذا العزل زائدَ الرتبة . وقد قال بعض البلغاء : الناسُ فى العمل رجلان : رجل يَجِلُّ به العملُ لفضله ورياسته، ورجل يَجِلُّ بالعمل لتقصيره ودناءته، فمَن جَلَّ به العملُ آزداد تواضُعًا وبِشْرًا، ومَن جَلَّ بالعمل آزداد تَرَفُّعًا وكِبْرًا .

والوجه السادس : أن يكون سببُه وجودَ مَن هو أكفأُ[2] منه . فيُراعَى حالُ الأكفأ، فإن كان فضلُ كفايته مؤثّرًا فى زيادة العمل به كان عزلُ الناظر به من لوازم

---

(١) كذا فى قوانين الوزارة . وفى الأصل : « ما تدعو إليه السياسة فيه ... الخ » وظاهر أن كلمة « إليه » مقحمة لغير حاجة . (٢) استعمال « أكفأ » بمعنى أكثر اضطلاعا بالأمر، من الخطأ المشهور، وكذلك كفء وأكفاء فى هذا المعنى، وإنما الصواب لغة فى كل هذا : أكفى، وكاف، وكفاة، من الكفاية التى هى الاضطلاع بالأمر وحسن القيام به .

السياسة ولم يَسُغْ فيها إقرارُه على عمله ؛ و إن لم يُؤَثِّر فى زيادة العمل كان عزلُ الناظر من طريق الأولى فى تقـديم الأكفاء وتخيُّر الأعوان ، و إن جاز فى السياسة إقرارُ الناظر على عمله لنهوضه به .

والوجه السابع : أن يكون سببُه أن يَخْطُب عَمَلَه من الكُفاة مَن يبذُل زيادةً فيه . فلا يجوز عزلُه ببذل الزيادة حتى يَكشِف عن سببها ، فربما تَخَرَّص(١) بها الباذلُ لرغبة فى العمل ، أو لعداوة فى العامل . فإن لم يَظْهَر لها بعدَ الكشفِ مُوجِبٌ لم يجُز فى السياسة عزلُه بهذا البذل الكاذب ، وكان الباذل جديرا بالإبعاد لآبتدائه بالإدغال(٢) . فإن ظَهَر مُوجِبُ الزيادة لم يَخْلُ من ثلاثة أقسام : أحدها أن يكون لتقصير الناظر ، فيجب عزلُه . والوزير بعـد عزله بين خِيارَين : إما أن يُقلِّد الباذلَ أو غيره من الكُفاة . والثانى أن يكون مُوجِبُها فضلَ كفاية الباذل ، فيَجِبُ عزلُه بالباذل دون غيره . والثالث أن يكون سببُها عَسْفَ الباذلِ وخُرْقَه ، فلا يجوز فى السياسـة عزلُ الناظر ولا تقريبُ الباذل ، فربما مال إلى الزيادة مَن تَغَاضَى عن العدل ، فعَزَل وقَلَّد فصار هو العاسفَ المُجازِف .

والوجه الثامن : أن يكون سببُه أن الناظر مُؤْتَمَن ، فيخْطُب عَمَلَه ضامنٌ . فتضمينُ الأعمال خارجٌ عن قوانين السياسة العادلة ، لأن المُؤْتَمَن عليها إذا كان كافيا آستوفَى ما وَجَبَ ، وكَفَّ عما لم يَجِب ؛ وهذا هو العدل . والضامنُ إن ضَمِنَها بمثل آرتفاعها لم يُؤْثَر ، و إن ضَمِنَها بأكثر منه تحكَّمَ فى عمله ، وكان بين عَسْفٍ أو هَرَب ، لأنه ضَمِن لِيَغْنَمَ لا لِيغرَمَ . وحُكِى أن المأمون عَزَم على تضمين السَّواد ، وعنـده عُبيدُ الله

(١) تخرص : افترى وكذب . وفى الأصل «فربما تحرص ... » ، وفى قوانين الوزارة « فربما يخرجه ... » . وما وضعناه يظهر أنه المناسب للسياق . فلعل ما فى الأصل يكون محرفا عنه .

(٢) الإدغال هنا : الوشاية والخيانة .

ابن الحسن العَنْبَرِىّ القاضى؛ فقال له : [يا أمير المؤمنين](1) إن الله قد دَفَعها إليك أمانة، فلا تُخْرِجْها من يدك قَبالة(2) . فعَدَل عن الضَّمان .

فهذا تفصيلُ ما تَعلّق بوزارة التفويض من عَقْدٍ وحَلٍ وتقليدٍ وعَزْلٍ . فلنذكر حُقُوقَ المَلِك على وزيره وحقوقَ الوزير على مَلِكه .

## ذِكر حقوق المَلِك على وزيره وحقوقِ الوزيرِ على مَلِكه

### فأما حقوق السلطان على وزيره فهى ثلاثة :

أحدها : قيامُه بمصالح مُلْكه، وهى أربع : عِمارةُ بلادِه، وتقويمُ أجناده، وتثميرُ أمواله، وحِياطةُ رعيّته . (٤٦)

والثانى : قيامُه بمصالح نَفسه، وهى أربع : إدرارُ(3) كِفايتِه، وتحمُّلُ عَوارِضه، وتهذيبُ حاشيته، وإعدادُ ما يستدفع به النوائب .

والثالث : قيامُه بمقاومة أعدائه، وذلك بأربعة أشياء : تحصين الثُّغور، واستكمال العُدّة، وترتيب العساكر، وتقدير الحدود . فيجب على الوزير أن يؤدِّىَ حقوقَ سلطانه، ويُوَفِّىَ شروط ائتمانه؛ ويحذَر بادِرةَ مُؤاخذَته إن قصَّر، وسَطْوةَ انتقامه إن فَرَّط؛ لأن بادِرَةَ الانتقام، أسرعُ من ظهور الإنعام؛ [لأن الانتقام يَصْدُر عن طَيْش الغضب، والإنعامَ يَصْدُر عن أَناةِ الكرم](1) . وقد قيل فى حِكَم الفُرس : ما أضعفَ طَمَعَ صاحبِ

---

(1) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

(2) القبالة : الكفالة . من قبل (من باب نصر وضرب وسمع) بمعنى كفل . ومعناها هنا : أن يعطى السلطان عاملا أو أن يقبل العامل عملا من أعمال السلطان يستغله فى مقابل مقدار معين من المال يتكفل أداءه إليه .

(3) كذا بالاصل، وفى قوانين الوزارة "إدراك" .

السلطان فى السلامة . وذلك أنّه إن عفّ جَنَى عليه العَفافُ عداوةَ الخاصة ، و إن بَسَطَ يدَه جنى عليه البَسْطُ أَلْسنة المُتَنَصِّحين. فلَزِم لذلك أن يكون حَذَرُهُ أغلب من رجائه، وخوفُه أكثَرَ من أَمْنه . ولئن تكدَّرَ بهما العيش فهما إلى السلامة أدعى .

وأما حقوقُ الوزير على السلطان فثلاثةٌ : أحدُها : معونتُهُ على نظره . وذلك بأربعة أشياء : تقوية يده، وتنفيذ أمره، و إطلاق كفايته، وألَّا يَجْعَل لغيره عليه أمرًا . وقد قال سَابُورُ بن أردَشيرَ فى عهده إلى ٱبنه هُرْمُزَ : ينبغى للوزير أن يكون قوِيَّ الأمر، مقبولَ القول، يمنَعُه مكانُه منك، من الضراعة لغيرك، وتبعثُه الثِّقةُ بك، على بَذْل النصيحة لك، ويُشجِّعه مَا يَعْرِف من رأيك، على مقاومة أعدائك، وأُحذِّرُك أن تُنْزِل بهذه المَنْزِلة مَن سواه من خَدَمك .

والثــانى : أن يَثِقَ منــه بأربعة أشياء : ألَّا يُؤَاخذَه بغير ذَنْب ، وألّا يَطْمعَ فى ماله من غير خيانة، وألّا يُقدِّم عليه مَن هو دونه ، وألّا يُمَكِّنَ منه عدُوًّا . وقد عَهِد مَلِكٌ إلى ٱبنه فقال : يا بُنَيّ ، إنّك لن تَصِل إلى إحكام ما تريده من تدبير مُلْكك إلا بمعونة وزرائك وأعوانك ، فأعِنْهـم على طاعتك بمُيَاسرتك ، وعلى معونتــك بمساعدتك .

والثالث : أن يحفَظَ منزلتَه من أربعة أشياء : [الأوّل](١) ألّا يَرْتابَ بباطنه وظاهرُه سليمٌ، فيُؤَاخذَ بالظن، ويَعْجِزَ عن دفعه باليقين ؛ فليس يُؤَاخذُ بضمائر القلوب، إلّا علّام الغيوب . قيل لكِسْرَى قُبَاذ : إنّ قوما من خواصّك قد فَسَدَت سرائرُهم ؛ فوقَّع : أنا أَمْلِكُ الأجسادَ دون النيّات، وأَحْكُمُ بالعدل لا بالرضا ، وأَفْحَصُ عن الأعمــال لا عن السرائر . والثــانى : ألّا يستبدل به ونظرُه مستقيم، فيقلّ نفعُه، ويضعُفَ

(١) زيادة يقتضيها السياق .

نشاطه، ولا يجهد نفسه فى النهوض بما كلفه؛ فإن داعى الطبع أبلغ من مصنوع التكلف. وقد اتخذه لاستقامة وجدها به. فإذا أضاع حقه بالاستبدال ظلم نفسه، وكان من غيره على خطر. وقد قال كسرى: الوزارة أبعد الأمور من أن تحتمل غير أهلها. لأن الوزير من الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه، لأنه مغلق الأبواب، مستور عن الأبصار؛ ليحفظه فى أمواله، ويستر خلله فى أفعاله؛ وحقيق بمن[1] كان بهذه المنزلة أن يكون محفوظا. والثالث: ألا يؤاخذه بدرك ما جره القضاء وساقه القدر، فيجعله غرضا فى معارضة خالقه. وهل الوزير فيه إلا كالملك! فأفعال الله عز وجل لا تكون ذنوبا لعباده. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ فيهم قضاؤه وقدره"[2]. والرابع: ألا يحمله ما ليس فى قدرته، ولا يكلفه ما ليس فى طاقته، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها. وما ذاك إلا من دواعى التجنى، ومبادئ التنكر.

فهذه حقوق الوزير على سلطانه. وهى مقابلة لحقوق السلطان على وزيره. لكن حقوق الوزير موضوعة على المسامحة فى أكثرها، وحقوق السلطان موضوعة على المؤاخذة بأقلها؛ لاستطالته عليه بالقدرة وقصوره عنه بالنيابة.

وحيث ذكرنا هذه الحقوق الداخلة فى وزارة التفويض فلنذكر وزارة التنفيذ.

---

(١) فى الأصل «وحقيق على من ...».

(٢) هكذا فى الأصل وفى قوانين الوزارة وفى مسند الفردوس للديلمى. وفى الجامع الصغير زيادة نصها: "فإذا مضى أمره رد إليهم عقولهم ووقعت الندامة".

## ذكر وزارة التنفيــذ

قال المـاوردىّ ما معناه : إنّ لوزارة التنفيذ أربعةَ قوانين :

فالأوّل من قوانينها : السِّفَارةُ بين المَلِك وأهــلِ مَمْلكته ، لأنّ المَلِك مُعَظَّمٌ بالحِجاب ، مَصُون عن المباشرة بالخِطَاب ؛ فاقتضى ذلك آختصاصَهُ بسَفِيرٍ مُحْتَشِمٍ ووزيرٍ معظَّم مُطاعٍ فيما يُورِده عنــه من الأوامر والنواهى ، ويُهاب فيما يتحمله إليه من المطالِب والمباغِى . ليكون للمَلِك لسانا ناطقا ، وأُذُنا واعِية . وهــذه السِّفارة مختصّة بخمسة أصناف : (٤٧)

أحدها : السِّفارة بين المَلِك وأجناده ، فيَحْمِلُهم على أوامره ونواهيه ، ويَتَنجَّز لهم من المَلِك[1] ما آستوجبوه أو سألوه . ويحتاج فى سِفَارته معهم أن يَجْمَع بين اللِّين والعُنف ، والخشونة واللُّطف ؛ ليقتادَهم[2] إلى طاعته بالرغبة والرهبة .

والثانى : السفارة بين المَلِك وعُمَّاله ، فيَستوفِى مُنَاظرةَ العُمّال ويتصفّح أحوالَ الأعمال ؛ ليَسْتَدرِك خَلَلًا إن كان ، ويَستدِيمَ صلاحا إن وُجد . ويحتاج فى هــذه السفارة إلى آستعمال الرَّهبة خاصّةً ؛ ليَكُفَّهم عن الخيانة ، ويَبعثَهم على الأمانة .

والثالث : السّفارة بين المَلِك ورعيّته ، ليَتَصَدَّى لإنصافهم ، ويُصغِىَ إلى ظُلاماتِهم ؛ فيُمضِى ما تيَسَّر له ، ويُنْهِى ما تعسّر عليه . ويحتاج فى هذه السفارة إلى آستعمال اللِّين واللُّطف ؛ ليصلوا إلى آستيفاء الظُّلامة ، ويَستدفعوا ذُلّ الاستضامة .

---

(١) فى الأصل « عن الملك » .

(٢) فى الأصل : « لايقتادهم ... » وظاهر أنه تحريف . وفى «قوانين الوزارة» لانقيادهم ... » وهذا أيضا لايتفق مع السياق .

والرابع : السفارة فى آستيفاء حقوق السلطنة التى للملك وعليه ، من غير مباشرة قبض ولا إقباض[1] . ويحتاج فى هذه السفارة إلى الرهبة فيما يستوفيه للملك ، وإلى اللطف فيما يتنجزه منه .

والخامس السفارة فى آختيار العمال ، ومشارفة الأعمال ؛ لينهى حال من يرى تقليده وعزله من غير أن يباشر تقليدا ولا عزلا ؛ لأن التقليد والعزل داخل فى وزارة التفويض خارج عن وزارة التنفيذ . وشروط هذه السفارة : أن يكون جيد الحدس ، صحيح الآختيار ، قليل الآغترار ، عارفا بكفاة[2] العمال ومقادير الأعمال ، ليحمد آختياره ، ويقل عثاره .

والثانى من قوانينها : أن يمد الملك برأيه ومشورته ؛ فإن الملك مع جزالة رأيه وصحة رويته محجوب الشخص عن مباشرة الأمور ، فصار محجوب الرأى عن الخبرة بها . فاحتاج إلى بارز الشخص بالمباشرة ، ليكون بارز الرأى بالخبرة ؛ فليس الشاهد كالغائب ، ولا المخبر كالمعاين . والوزير أحق بهذه المرتبة . وله فى المشورة حالتان :

إحداهما : أن يبتدئه الملك بالآستشارة ، فيلزمه أن يشير فيها برأيه سواء آختصت بملكه أو تعدت إلى غيره . وعلى الوزير فيها حقان : أحدهما : اجتهاد رأيه فى إيضاح الصواب . والثانى : إبانة صحته بتعليل الجواب ليكون مجيبا ومحتجا ؛ فيكفى توهم الزلل ويسلم من ظنة الآرتياب .

---

(١) قبض وإقباض : أى تسلم وتسليم . والموجود فى كتب اللغة التى بين أيدينا متعديا من هذه المادة «قبّض» بالتضعيف . ويصح «إقباض» على القول بأن تعدية الفعل بالهمزة قياسية .

(٢) كفاة : جمع كاف ، من الكفاية وهى الاضطلاع بالأمر .

والحالة الثانية : أن يبتدئ الوزيرُ بالمشورة على المَلِك، فله فيها حالتان :

إحداهما : ألّا يقع بمشورته اجتلابُ نفعٍ ولا استدفاعُ ضرر . فهذا تجوّز من الوزير، وتبسُّط على المَلِك؛ إن أنكره فبحقه، وإن احتمله فبفضله .

والثانية : أن يتعلّق بمشورته اجتلابُ نفعٍ، أو استدفاعُ ضرر . فإن اختصّ بالمملكة كان من حقوق الوزارة، وإن تجاوزها كان من نُصح الوزير. وعليه أن يذكُرَ سبب ابتدائه، ويُوضّح صوابَ رأيه . ويلزمه فيما يُؤدّى به من الاستشارة ويبدأ به من المشورة، أن يَكْتُمَه عن كل خاصّ وعامّ؛ لأمرين :

أحدهما : أن الرأى لا يجب أن يَظْهر إلا بالأفعال دون الأقوال؛ لأن ظهورَه بالفعل ظَفَر، وظهورَه بالقول خَطَر . وقد قيل : من وَهْنِ الأمرِ إعلانُه قبل إحكامه .

والثانى : أنه من أسرار المَلِك التى يجب أن تُكْتَمَ فى الصدور، وتُصانَ عن الظهور؛ ليَجْمعَ بين تأديةِ الأمانة وطلبِ السلامة؛ فإن فى إفشاء سرِّ المَلِك خطرا به وبمن أفشاه . وقلّما تعفو الملوكُ عن مُفشى أسرارِها؛ لتردُّده بين خيانة وجِناية .

والثالث من قوانينها : أن يكون عينا للمَلِك ناظرة، وأُذُنًا سامعة، يُنْهِى ما شاهد على حقّه، ويُخبِر بما سَمِع على صدقه؛ لأنه قد سُوهِم فى الملك ومُيِّز بالاختصاص، ونُدِب للصالح؛ فهو القائم مقام الملك فى مشاهدة ما غاب، وسماعِ ما بَعُـد . وعليه فى ذلك ثلاثة حقوق :

أحدها : أن يُديم الفحص عن أحوال المملكة حتى يَعْلَمَ ما غاب كعلمه بما حضر، وما خَفِى كعلمه بما ظهر؛ فلا يَتَدلّس عليه حقُّ أمرٍ[1] من باطله، ولا يَشْتبهُ

(١) كذا فى قوانين الوزاره . وفى الأصل : «حق امرئ ... » .

عليه صِدْقُ قوىٍ من كَذِبه. فإن قَصَّر فيها حتى خَفِيت، أو ٱسترسل فيها حتى تدلّست كان مُؤاخَذًا بجُرْم التقصيرِ، وجريرةِ الضرر .

والثانى: أن يُعَجِّلَ مطالعة المَلِك بها ولا يُؤَخِّرَهَا، وإن جاز تأخيرُ العمل بها؛ لأن عليه الإنهاءَ، وليس عليه العمل . وإذ كان من المَلِك بمنزلة عينـه وأُذُنه اللتين يتعجّل [العلم] (١) بهما، وجب أن يجرِىَ معه على حكمِهما؛ ليَستدْرك المَلِكُ ما يجب تعجيلُه، ويُقدِّم الرَّوِيَّة فيما يجوز تأخيره . فإن أخّر الوزيرُ إعلامَ المَلِك بها وقد حَسَم ضرَرَها، كان للنصيحة مؤدِّيا، ومن المَلِك على وَجَل .

والثالث: أن يُوَضِّح له حقائقَ الأمور، ويُساوِىَ فيهـا بين الصغير والكبير، فلا يُمـايِل (٢) قريبا، ولا يتحيّف بعيدا، ولا يُعظِّم من الأمور صغيرا، ولا يُصغِّر منها عظيما . فإن خاف من صِغار الأمور أن تصير كِبارا، أو كِبارها أن تَعُودَ صِغارا، أخبر بحقائقها فى المبادئ، وذكر ما تؤول إليه فى العواقب؛ ليكون بالمبادئ مُخْبِرا، وفى الغايات مُشيرا . فإن أخبر بالغايات وأعرض عن ذكر المبـادئ، كان تدليسا، (٤٨) وكان بالإنكار حقيقاو بالذمّ جديرا .

والرابع من قوانينها: أن يَفْتـدِىَ راحةَ الملك بتعبه، ويَقِىَ دَعَتَه بنَصَبِه؛ ولا يَغيب إذا أُريد، ولا يَسأَم إذا أُعيد؛ لأنه لِسانُ المَلِك إذا نَطَق، وعينُه إذا رَمَق، ويدُه إذا بَطَش؛ فلا يَبعُدُ عن دعائه، ولا يَضْجَر من ندائه؛ لأن عوارِضَ المَلِك من هواجِس أفكاره وتقلُّبِ خاطره. وقد يتجدّد مع الأوقات مالا تُعرف (٣) أسبابُه، ولا تتعين

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

(٢) مايله : مالأه وساعده .

(٣) كذا فى قوانين الوزارة . وهو الذى ينسجم به الكلام . وفى الأصل : مالم تعرف ... » .

أوقاته؛ فليكن هذا[1] الوزيرُ على رَصدٍ منها. وربما ملّ الوزير الملازمة فأعقبته أسفا إذا فارقها؛ لأن فى ملازمته للمَلِك نَصَبًا يقترن بعزٍّ، وفى متاركته راحة تؤول إلى ذُلّ. فليختر لنفسه ما وافقها من عزٍّ يجتذبه بالكدّ، أو ذلٍّ يؤول إليه بالدَّعَة. فإنه إن صَبَر على ما أراده المَلِك ظَفِر بإرادته من المَلِك، وهو على الضدّ إن خالفها. وقد قال أنوشروان: ما آستُنْجِحت الأمورُ بمثل الصبر، ولا آكتُسبت البغضاءُ بمثل الكِبر. وقيل: من خَدَمَ السلطانَ خدمه الإخوانُ. فيَطَّرِد على هذا التعليل أنّ من تنكّر له السلطان، تنكّر له الإخوان. هذه قوانينُ وزارة التنفيذ.

---

ذكر ما تتميز به وزارة التفويض على وزارة التنفيذ وما تختلف فيه.

وتتميز وزارة التفويض على وزارة التنفيذ وتختلف من ستة أوجه:

أحدها: أن المَلِك يُقلّد وزير التفويض فى حقوقه وحقوق رعيته، ويقلّد وزير التنفيذ فى حقوقه خاصة دون حقوق رعيته؛ لأنّ وزيرَ التفويض تُنَفَّذ الأمورُ برأيه، ووزيرَ التنفيذ يُمضيها بأمر المَلِك وعن رأيه.

والثانى: أن وزارة التفويض تَفتقِرُ إلى عَقد يصح به نُفوذُ أفعاله، ووزارة التنفيذ لا تفتقر إلى عقد؛ لأنه فيها مأمورٌ بتنفيذ ما صدر عن أمر المَلِك.

والثالث: أن وزيرَ التفويض مأخوذٌ بدَرْك ما أمضاه، ووزيرَ التنفيذ غيرُ مؤاخَذ بدركه.

والرابع: أن وزيرَ التفويض لا ينعزل إلا بالقول أو ما فى معناه دُونَ المتارَكة، [لأنه قد تَملَّك بها مباشرةَ الأمور][2]، ووزيرَ التنفيذ ينعزل بالمتارَكة لأنه مأمورٌ.

(١) ظاهر أن كلمة «هذا» هنا قلقة فى مكانها إلا إذا أريد الإشارة الى الوزير الذى سبق الكلام فيه وهو وزير التنفيذ دون وزير التقليد.

(٢) زيادة عن «قوانين الوزارة».

والخامس : أن وزير التفويض لا ينعزل إن كفّ وترك ، حتى يستعفى ويعفيه الملكُ منها ، لأنه مستودَع الأعمال فلزمه ردّها إلى مستحقّها ، ووزير التنفيذ يجوز أن يعزل نفسه بالكفّ والمتاركة ، لأنه لا شىء بيده فيؤخذ بردّه .

والسادس : أن وزيرَ التفويض يفتقرُ إلى كفاية بالسيف والقلم ، لنُهوضه بما أوجبهما ، ووزارة التنفيذ غير مفتقرة إليهما لقصورها عنهما .

ويُعتبر فى وزير التنفيذ ستة أوصاف : وهى الأنَفة والمُنّة والهمّة والعفّة والمروءة وجزالة الرأى . وهذه الأوصاف معتبرة فى كل مُدبّر ذى رياسة .

---

## ذكر حقوق الوزارة وعهودها ووصايا الوزراء

أما حقوق الوزارة — فهى أن تُقلَّد لمن آجتمعت فيه ثمانيةُ أوصاف ، وهى التى ذكرها الماوردى فى قوانين الوزارة ، وبيّنها بالنص والتعيين لا بالتعريض والإشارة :

فأحدها : أن يكون بأعباء الوزارة ناهضا ، وفى مصالح المملكة راكضا ، يقدّم حظّ الملك على حظ نفسه ويعلم أن صلاحه مقترن بصلاحه ؛ فلن تستقيم أحوال الوزير مع آختلال أحوال الملك ، لأن الفروع إنما تستمدّ من أصولها .

والثانى : أن يكون على الكدّ والتعب قادرا ، وفى السخط والرضا صابرا ، لا ينفر ان أوحش ، فإن نفوره عَطَب . وليعوصلْ إلى راحته بالتعب ، والى دَعته بالنصَب . وقد قيل : علّة الراحة قلّة الآستراحة . وقال عبد الحميد : أَتعِب قدمَك ، فكم تعب قدّمك ! . فإن تشاغل الوزير براحته ، ومال إلى لذّته ، سُلبهما بالتنكّر ، وعدِمهما بالتغيّر .

والثالث: أن يكون لإحسان الملك شاكرا، ولإساءته عاذرا ، يشكر على يسير الإحسان ، ويعذر على كثير الإساءة، ليستمدّ بالشكر إحسانَه، ويستدفع بالعذر إساءَته . فإن عدل عنهما، كان منه على ضدّهما . فقد قيل : أحق الناس بالمنع الكَفور، وبالصنيعة الشَّكور .

والرابع: أن يُظهر محاسنه إن خفيت، ويستر مساويه إن ظهرت ، لأنه بمحاسنه موسوم وبمساويه مقروف، يشاركه فى حمد محاسنه، ويُؤاخَذ بذمّ مساويه. (٤٩) وربما ٱسترسل الملك لثقته بالاحتجاب، فارتكب بالهوى ما يصان عن إذاعته، فكان الوزير أحقَّ بستره عليه، لأنه الباب المسلوكُ منه إليه .

والخامس: أن تخلُص نيّته فى طاعته، ويكونَ سرُّه كعلانيته ، فإن القلوب جاذبة تملك أعنّة الأجساد، فإن ٱتفقا، وإلا فالقلب أغْلب، وإلى مراده أجْذب . والقلوب تَنِمّ على الضمائر فتَهتِكُ أستارها وتُذيع أسرارها . وقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "فى ٱبن آدم مُضْغَةٌ[(١)] إذا صلَحتْ صلَح الجسدُ وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهى القلب" .

والسادس: ألّا يعارض الملك فيمن قرّب وٱستبطن، ولا يماريَه فيمن حطّ ورفَع؛ فإنه يتحكّم بقدرته ويأنف من معارضته . فربما ٱنقلب بسَطْوته إذا عورِض، ومال بانتقامه إذا خولِف . فبَوادر الملك تسبق تدبّرها، وتُدْحض أسيرها؛ فإن سلِم من الخطر لم يسلَم من الضجر .

---

(١) كذا فى الأصل وفى قوانين الوزارة . غير أن الأصل لم تذكر به كلمة "الجسد" فى الموضعين، ونصه فى البخارىّ من حديث طويل "ألا وإنّ فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب" وفى النهاية لابن الأثير "إنّ فى ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله" .

والسابع : أن يتقاصر عن مُشاكلة الملك فى رتبته ، ويقبض نفسه عن مثل هيئته ، فلا يلبَس مثل ملابسه ، ولا يركب مثل مراكبه ، ولا يستخدم مثل خدمه ؛ فإن الملك يأنف إن مُوثِل ، وينتقم إن شُوكل ، ويرى أن ذلك من أمواله المجتاحة ، وحشمته المستباحة . وليقتصر على نظافة لباسه وجسده من غير تصنّع ، فإن النظافة من المروءة ، والتصنع للنساء ؛ ليكون بالسلامة محفوظا ، وبالحشمة ملحوظا .

والثامن : أن يستوفىَ للملك ولا يستوفىَ عليه ، ويتأوّل له ولا يتأوّل عليه ؛ فإن الملك إذا أراد الإنصاف كان عليه أقدر ، وإن لم يرده فيدُ الوزير معه أقصر ؛ وإنما أراد الوزيرَ عونا لنفسه ولم يرده عونا عليها . فإن وجد إلى مساعدته سبيلا سارع إليها ، وإن خاف ضررها وآنتشارَ الفساد بها تلطّف فى كفّه عنها إن قَدَر . فإن تعذّر عليه تلطّف فى الخلاص منها ، ولا يجهر بالمخالفة . سئل بعض حكماء الروم عن أصلح ما عوشر به الملوكُ ، فقال : قلة الخلاف وتخفيف المئونة . والملوك لا يُصحَبون (١) إلا على آختيارهم ، ولا يتمسكون إلا بمن وافقهم على آرائهم . وإذا روعيت أحوالُ الناس وُجدوا لا يأتلفون إلا بالموافقة ، فكيف الملوكُ ! قال شاعر :

النـاس إن وافقتهم عذُبوا * أوْ لا فإنّ جناهم مُرّ
كم من رياض لا أنيسَ بها * تُرِكتْ لأنّ طريقها وَعْر

* * *

وأما عهودها ووصاياها — فلم أرَ فيما طالعتُه فى هذا المعنى أشملَ ولا أكمل ولا أنفع ولا أجمعَ من كلام لأبى الحسن الماوَرْدى ؛ فلذلك أوردتُه بقَصّه ، وأتيت على أكثر نصّه .

---

(١) فى الأصل : «لا تصحب» وهو وإن صح الا أنه لا يتناسب مع الضمائر التى بعده .

قال المــاوردى : فأما العهود الموقظة فسأقول، وأرجو أن يقترن بالقبول :

اجعل أيها الوزير لله تعالى على سرك رقيبا يلاحظك من زيغ فى حقه، واجعل لسلطانك على خلوتك رقيبا يكفك عن تقصير فى أمره؛ ليسلم دينك فى حقوق الله تعالى، وتسلم دنياك فى حقوق سلطانك، فتسعد فى عاجلتك وآجلتك. فإن تنافى اجتماعهما لك فقدم حق الله تعالى على حق الملك. فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه [1] [فآثروا ما يبقى على ما يفنى]" وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس".

قال: حق[2] عليك أيها الوزير أن تكون بأمور الناس خبيرا، وإلى أحوالهم متطلعا، وبهم على نفسك وعليهم مستظهرا، لأنهم من بين من تسوسه أو تستعين به، لتعلم ما فيهم من فضل ونقص وعلم وجهل وخير وشر، وتتحرز من غرور المتشبه[3] وتدليس المتصنع؛ فتعطى كل واحد حقه، ولا تقصر بذى فضل، ولا تعتمد على ذى جهل. فقد قيل: من الجهل صحبة ذوى الجهل، ومن المحال مجادلة ذوى المحال. وافرق بين الأخيار والأشرار، فإن ذا الخير يبنى، وذا الشر يهدم. واحذر الكذوب فلن ينصحك من غش نفسه، ولن ينفعك من ضرها. ولا تستكفين عاجزا فيضيع العمل، ولا شرها فيضرك باحتجانه[4]. ولا تعبأ بمن لا يحافظ على المروءة، فقلما تجد فيه خيرا؛ لزهده فى صيانة النفس وميله إلى خمول القدر. وبعيد ممن أسقط حق

(١) تتمة الحديث عن قوانين الوزارة وعن الجامع الصغير.

(٢) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل «حقيق» وهو غير ملائم لما هنا.

(٣) كذا فى قوانين الوزارة، ولعل المتشبه: من يظهر بغير ما فطر عليه من صفات ومواهب، بأن يظهر مظهر ذى الكفاية والفضل وليس به. وفى الأصل: «المشبه» وهو تحريف.

(٤) احتجن المال: ضمه لنفسه واحتواه.

نفســه أن يقوم بحق غيره، وصعبٌ على من أَلِف إسقاط التكلف أن يَحُول عنه.

وقد قيل فى حِكَم الهنـد : ذو المروءة يرتفع بها ، وتارِكها يهبِط ؛ والآرتقاء صعب (٥٠) والآنحطاط هين، كالحجر الثقيل الذى رفعُه عسير وحطُّه يسير.

وقال بعض البلغاء : أَحْسِنْ رِعايةَ ذوِى الحُرُمات، وأقبِل على أهل المُروءات؛ فإن رِعايةَ [ذوى](١) الحرمة تدلّ على كرم الشيمة، والإقبال على ذوى المروءة يُعرِب عن شرف الهِمة(٢). إختـبِر أحوال من آستكفيته لتعلم عجزه من كِفايته، وإحسانَه من إساءته؛ فتعملَ بما علِمت من إقرار الكافى وصرف العاجز، وحمدِ المحسن وذمّ المسىء. فقد قيل : من آستكفى الكُفاة، كُفِىَ العُداة. فإن آلتبست عليك [أمورهم](١) أوهنت الكافىَ وسلّطت العاجز، وأضعت المحسن وأغريت المسىء. ولأن يكون العمل خاليا فتصرِفَ إليه فِكرك أولى من أن يباشِره عاجز أو خائن فيقبُحَ بهما أثرك. فآحذر العاجز فإنه مضيِّع، وتوقَّ الخائن فإنه يكْدَح لنفسه. قال شاعر :

إذا أنت حَمّلت الخؤونَ أمانةً * فإنك قد أسندتها شرَّ مُسنِدِ

اِقتصِر فى أعوانك بحسب حاجتك إليهم. ولا تستكثِر منهم لتكثُّر بهم. فلن يخلو الآستكثارُ من تنافرٍ يقع به الخللُ، أو آتفاقٍ يُستأْكَلُ به العمل. وليكن أعوانُك وَفْقَ أعمـالِك، فإنه أنظم للشَّمْلِ وأجمعُ للعمل وأبلغُ فى الآجتهاد وأبعثُ على النصح. قال آبن الرومى :

عدوُّك من صـديقك مستفادٌ * فلا تَسْتكثِرنّ من الصِّحَابِ

فإنّ الداءَ أكثرُ ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب (٥١)

(١) التكملة عن قوانين الوزارة.

(٢) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل : «والإقبال على ذوى المروءة يعرف من شرف المروءة».

فدعْ عنك الكثيرَ فكم كثيرٍ * يعافُ وكم قليلٍ مُستطابِ
فما اللُّججُ المِلاحُ بمُروياتٍ * وتلقى الرِّىَّ فى النُّطَفِ العِذابِ

هذِّبْ نفسك من الدنَس تتهذبْ جميعُ أتباعك . ونزِّهْ نفسَك عن الطمع تتنزهْ جميع خلفائك . وتوقَّ الشرَهَ فلن يزيدَك إلا حرصا إن أجْديت، ونقصا إن أكْديت[1]، وهما معرّة ذى الفضل ومَضَرّة أولى الحزم . رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اقتربت الساعة[2] ولا يزدادُ الناسُ فى الدنيا إلا حرصا ولا تزداد منهم إلا بُعدا" .

رُضْ نفسك عن الطمع يتنزهْ جميعُ عمّالك، وتنتظِمْ بك جميع أعمالك[3] . ولا تَكِلْ إلى غيرك ما تختصّ[4] بمباشرته طلبا للدَّعة ، فتعزِلَ عنه نفسَك وتؤثِرَ به غيرَك ؛ فتكونَ من وفائه على غَدْر، ومن نفسك على تقصير . قال بُزُرْجِمْهر : إن يكن الشغل مَجْهَدَة، فإن الفراغ مَفْسَدَة . وقال عبد الحميد : ما زانَك ما أضاع زمانَك، ولا شانك ما أصلح شانك .

اِجعل زمان فراغك مصروفا إلى حالتين : إحداهما راحةُ جسدِك وإجمامُ خاطرك، ليكونا عونا لك على نظرك . والثانية أن تفكرَ بعد راحة جسدِك وإجمامِ خاطرِك فيما قدّمته من أفعالك ، وتصرّفت فيه من أعمالك : هل وافقتَ الصواب

---

(١) أجدى : أصاب الجدوى وظفر بما يريد . والجدوى : العطية . وأكدى : أخفق ولم يظفر بحاجته ؛ أى ان الشَرَه يزيد صاحبه مع الفوز حرصا ، ومع الإخفاق نقصا .

(٢) نصه فى الجامع الصغير : " اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصا ولا يزدادون من الله إلا بعدا " . وفى مسند الفردوس للديلمى كرواية الاصل إلا أنه يتفق مع رواية الجامع الصغير فى " على الدنيا " بدل " فى الدنيا " .

(٣) كذا فى الاصل والذى فى قوانين الوزارة : "رض نفسك بمشارفة الأعمال يرهبك جميع عمالك وينتظم به جميع أعمالك " .

(٤) فى قوانين الوزارة : « ما يختص بمباشرتك ... » .

فيه فتقوِّيَه وتجعلَه مثالا تحتذيه، أو نالك فيها زَلَلٌ فتستدركَ منه ما أمكن، وتنتهى عن مثله فى المستقبل . فقد قيل : من فكّر أبصر . وقال بعض البلغاء : من لم يكن له من نفسه واعظ، لم تنفعه المواعظ .

اخفِض جَناحك لمن علا، ووطِّئ كَنَفَك لمن دنا، وتجافَ [عن](١) الكِبر تملكْ من القلوب مودّتها، ومن النفوس مساعدتَها . فقد قيل لحكيم الروم : مَن أضيقُ الناس طريقا، وأقلُّهم صديقا؟ قال : مَن عاشر الناس بعُبوس وجهه، وآستطال عليهم بنفسه . ولذلك قيل : التواضع فى الشرف، أشرف من الشرف .

كُن شكورا فى النعمة، صبورا فى الشدّة، لاتُبطِرُك السراء، ولاتُدهِشُك الضراء؛ لتكافأَ أحوالك، وتعتدلَ خِصالك؛ فتسلمَ من طيش البطر وحيرة الدَّهَش . فقد قال بعض الحكماء : اشتغلْ بشكر النعمة عن البطر بها . وقيل فى أمثال الهند : العاقل لايَبْطَر بمنزلةٍ أصابها ولاشرفٍ و إن عظم، كالجبل الذى لا يتزلزل و إن آشتدّت الرياح، والسخيف تُبطِره أدنى منزلةٍ كالحشيش الذى تحرّكه أدنى ريح .

استدِمْ مودّةَ وليِّك بالإحسان [إليه](١)، وآستَلَّ سخيمة عدوّك بعد الآحتراز منه، وداهِن من يجاهِرك بعداوتك . فقد قيل لبعض الحكماء : ما الحزم ؟ قال : مُداجاة الأعداء، ومؤاخاة الأَكْفاء . ولا تعوّل على التهم والظنون [وآطّرح الشك باليقين](١) . فقد قيل : لا يُفسِدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . قال شاعر :

إذا أنت لم تبرح تَظنّ وتقتضِى * على الظن أَرْدَتْك الظنونُ الكواذبُ

(٥١) وآختبِر من آشتبهتْ حاله عليك، لتعلمَ معتقدَه فيك، فتدرىَ أين تضعه منك؛ فإن الألسن لا تَصْدُق عن القلوب؛ لما يتصنّعه المداجى و يتكلّفه المداهن . وشهادات

(١) زيادة عن «قوانين الوزارة» .

القلوب أصدق، ودلائل النفوس أوثق . فإن وقفتْ بك الحال على الآرتياب، آعتقدتَ المودّة فى ظاهره، وأخذت بالحزم فى باطنه . و إذا أقنعك الإغضاء عن الآختبار فلا تتخطّه، فأكثر الأمور تمشى على التغافل والإغضاء . فقد قال أكثم بن صَيْفِىّ : من تشدّد نفّر، ومن تراخى تألّف، والسَّرْوُ فى التغافل(١) . ولقلما جُوهِر المغضى وقُووِطع المتغافل، مع آنعطاف القلوب عليه، وميل النفوس إليه . وهذا من أسباب السعادة وحسن التوفيق .

شاوِرْ فى أمورك من تثق منه بثلاث خِصال : صواب الرأى، وخلوص النية، وكتمان السرّ . فلا عار عليك أن تستشير مَنْ هو دونك إذا كان بالشورى خبيرا، فإن لكل ذى عقل ذخيرةً من الرأى وحظًّا من الصواب، فتزدادَ برأى غيرك [ و إن كان رأيك ](٢) جَزْلا، كما يزداد البحر بموادّه من الأنهار و إن كان غزيرا . وقد يُفضَل المستشير على المشير، و يَظفَرُ المُشير بالرأى، لأنها ضالّة يظفَر بها من وجدها من فاضل ومفضول . وعوّلْ على آستشارة من جرّب الأمور وخبَرها، وتقلّب فيها و باشرها، حتى عرف مواردها ومصادرَها، فلن يخفى عليه خيرها وشرها، ما لم يوهنه ضعف الهَرم .

وآعدل عن آستشارة من قَصَد موافقتك متابعةً لهواك، أو آعتمد مخالفتك آنحرافا عنك، وعوّلْ على من توخّى الحق لك وعليك . فقد قيل فى قديم الحِكَم : من التمس الرُّخَص من الإخوان فى الرأى، ومن الأطبّاء فى المرض، ومن الفقهاء فى الشّبه، أخطأ الرأى، وزاد فى المرض، وآحتمل الوزر . ولا تؤاخذ من آستشرت بدَرْك(٣) الرأى

---

(١) فى الأصل « والسرور فى التغافل » وفى « كتاب التاج فى أخلاق الملوك » طبع المطبعة الأميرية ص ٥٧ و ١٠٣ : « السرو التغافل » فكلمة « السرور » فى الأصل محرفة عن السرو . والسرو : السخاء فى مروءة .

(٢) التكلة عن قوانين الوزارة .

(٣) الدرك : التبعة .

إن زَلّ، فما عليه إلا الاجتهاد وإن حجزته الأقدار عن الظَّفَر . فقد قيل فى منثور الحِكَم : من كَثُر صوابه لم يُطَّرَحْ لقليل الخطأ .

اِخْتَرْ لأسرارك من تثق بدينه وكِتمانه، وتسلم من إذاعته وإذْلاله، ولو قَدَرت ألّا تودِع سرك غيرَك، كان أولى بك وأسلَمَ لك؛ لأنك فيها بين خطر أو حَذَر . وقد قيل فى منثور الحكم : اِنفردْ بسرك ولا تودعْه حازما فيزلّ، ولا جاهلا فيخون .

تثبّتْ فيما لا تقدر على استدراكه؛ فقلّما تُعقب العَجلة إلا ندما . رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من تأنّى أصاب أو كاد ومن عَجِل أخطأ أو كاد" . وقيل فى حكمة آل داود : من كان ذا تُؤَدَة وصف بالحكمة .

وقدِّم ما قدرت عليه من المعروف، فقلما يُعقب الريْثُ إلا فواتا؛ فإن للقدرة غايةً، ولنفوذ الأمر نهاية[1]، فاغتنمها فى مَكنتك تسعَدْ بما قدّمته، ويسعدْ بك من أعَنْته . قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : اِنتهزوا الفرصة فإنها تمر مرّ السحاب . وقال بعض الحكماء : من أخّر الفرصة عن وقتها، فليكن على ثقة من فَوْتها .

واحذر قبول المدح من المتملّقين، فإن النِّفاق مركوز فى طِباعهم، ويداجونك بمَنٍّ عليهم[2]؛ فإن نَفَّقوا عليك غَشَشْتَ نفسك، وداهنْت حسّك؛ وأنت أعْرَف بنفسك من غيرك فيما تستحق به حمدا أو ذمّا . فناصِح نفسك بما فيها، فإنك أعلم بمحاسنها ومساويها . فقد قيل فيما أنزل الله تعالى من الكتب السالفة : «عَجَبٌ لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ! وعجب لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف

(١) كذا فى قوانين الوزارة، وفى الأصل : « ولنفوذ القدر...» .

(٢) كذا فى قوانين الوزارة . ولعل المراد بالمن عليهم : المدح الذى لا يكلفهم شيئا . وفى الأصل : «ويداخونك تهون عليهم» وهو ظاهر التحريف .

يغضب! » . وقال بعض البلغاء : من أظهر شكرك فيما لم تأت إليـه فاحذره أن يكفُر نعمك فيما أسديتَ إليه . ففوّضْ مدحك إلى أفعالك ، فإنها تمدحك بصدقٍ إن أحسنت ، وتذمُّك بحقٍّ إن أسأت . ولا تغترّ بمخادعة اللسانِ الكذوبِ . فقـد قيل : أبصَرُ الناس من أحاط بذنوبه ، ووقف على عيوبه . وكتب حكيم الروم إلى الإسكندر : لا ترغب فى الكرامة التى تنالها من الناس كَرها ، ولكن فى التى تستحقّها بحسن الأثر وصواب التدبير .

اعتمد بنظرك إحماد سلطانك وشكرَ رعيتك ، تكنْ أيّامُك سعيدة ، وأفعالُك محمودة ، والناس بك مسرورين ، ولك أعوانا مساعدين ؛ ويبقى بعدك [فى الدنيا][1] جميل أثرك ، وفى الآخرة جزيلُ أجرك . واستعذ بالله من ضدّها فتعدلَ بك إلى ضدّها ، فإن الولاياتِ كالمحكّ تُظهر جواهرَ أربابها ، فمنهم نازلٌ مرذول ومنهم صاعِد مقبول . فقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أحسنوا جوارَ نِعَم الله فقلما زالَتْ عن قوم فعادَتْ إليهم" . وتعرّض رجلٌ ليحيى بن خالد وهو على الجسر بكتاب وسأله أن يختمه ؛ فقال : ياغلام اختِم كتابه ما دام الطين رطبا ، ثم أنشد :

إذا هبّت رِياحُك فاغتنِمها ⁂ وجد فلكلِّ[2] خافقـةٍ سكون
ولا تغفُلْ عن الإحسان فيها ⁂ فما تدرى السكونُ متى يكون (٥٢)

إذا نلت من سلطانك حظًّا ، وأوجبت عليه بخدمتك حقا ، فلا تستوفه ، ودعْ لنفسك بقيّةً يدّخرُها لك ويراها حقا من حقوقك ، ويكون كفيلَ أدائها إليك . فإن استوفيتها برئ وصرت إلى غايةٍ ليس بعدها إلا النقصان . قال الشاعر :

إذا تمّ أمرٌ بدا نقصُهُ ⁂ توقّعْ زوالًا إذا قيل تمّ

(١) زيادة من قوانين الوزارة .
(٢) فى قوانين الوزارة : " فإن لكل... " .

وآعلم أنك مُرصَد لحوائج الناس، لأن بيدك أَزِمّةَ الأمور وإليك غايةَ الطلب، فكن عليها صبورا، تكنْ بقضائها مشكورا، ولا تضجَرْ على طالبها وقد أمّلك، ولا تنفِرْ عليه إذا راجعك، فما يجد الناس من سؤالك بُدّا. ولَخَيرُ دهرِك أن تُرى مرجُوّا. قال أبو بكر بن دُرَيْد :

لا تدخلنّك ضَجرةٌ من سائلٍ * فلَخيرُ دهرِك أن تُرى مسئولا
لا تَجْبَهَنْ بالردّ وجهَ مُؤمِّلٍ * فبقاءُ عِزِّك أن تُرى مأمولا
وآعلم بأنك عن قليلٍ صائرٌ * خَبَرًا فكن خبرا يَرُوق جميلا

وقد قيل فى الصحف الأولى : القلب الضيق لاتحسن به الرياسة، والرجل اللئيم لا يحسن به الغنَى. ولئن كانت الحوائج كالمغارم لمن آستثقلها فهى مغانم لمن وُفّق لها. رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما عظُمت نعمةُ الله على عبدٍ (١) إلا عظمت مئونةُ الناس عليه فمن لم يحتمل مئونة الناس عرّض تلك النعمةَ للزوال " .

واذا جَعلَتِ الوزارةُ غاياتِ الأمورِ إليك، وحوائجَ الناس واقفةً عليك، والقدرةُ لك مساعِدةً، لآنبساط يدك ونفوذ أمرك، صرت بالتوقّف والإعراض مُخِلًّا بحقوق نظرك، وآسفا على فوات مَكِنَتِك. فقد قال بَهْرام جُور فى عهده الى ملوك فارس : إنكم بمكانٍ لا مَصْرِف للناس عن حوائجهم إليكم، فلتتّسعْ صدوركم كآتّساع سلطانكم. قال علىّ بن الجهم :

إذا جـدّد الله لى نعـمةً * شـكرتُ ولم يرَنى جاحـدا

(١) كذا فى الأصل وقوانين الوزارة . ونصه فى الجامع الصغير : " ماعظمت نعمة الله على عبد إلا آشتدّت عليه مئونة الناس فمن لم يحتمل تلك المئونة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال "

ولم يزلِ الله بالعـــائدات * على من يَعُـــود[1] بها عائدا
أيا جامع المـالِ وَفَّـــرْتَه * لغــــيرك إذ لم تكن خالدا!
فإن قلت أَجمَعُـــه للبنـــين * فقــد يســـبِق الولدُ الوالِدا
و إن قلت أخشى صروف الزمانِ * فكن فى تصـاريفه واحدا

فاجعل يومك أسعدَ من أمسك، وصلاحَ الناس عندك كصلاح نفسك. ومِلْ إلى ٱجتذاب القلوب بالٱستعطاف، و إلى ٱستمالة النفوس بالإنصاف، تجِدْهم كنزا فى شدائدك، وحرزا فى نوائبك .

اِحذر دعوة المظلوم وتوقَّها، ورِقَّ لها إن واجهَك بها، ولا تبعثْك العزّة على البطش فتزدادَ ببطشك ظلما، وبعزتك بغيا . وحسبُك بمنصور عليك اللهُ ناصِرُه منك .

كن عن الشهوات عَزُوفًا[2] تنفكَّ من أسرها، فإنّ من قهرته الشهوة كان لها عبدا، ومن ٱستعبدتْه ذَلّ بها . وقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من ٱشتاقَ إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن أَشْفَق من النار لَهَا عن الشهوات". وقيل لبعض حكماء الروم : ما المُلك الأعظم؟ قال : أن يغلِبَ الإنسان شهوتَه .

وكن بالزمان خبيرا تسلَمْ من عثرته ؛ فإنّ الٱغترار به مُرْدٍ . وقدم لمعادك ليبقى عليك ما ذَخَرته، فلن تجِد إلا ما قدّمته ؛ و إنك لتُجازَى بما صنعتَ . وٱستقِلَّ الدنيا تجِدْ فى نفسك عِزّا، فترضى اذا سخِطتْ، وتُسرّ اذا حزِنت ؛ فلن يذِلَّ إلا طالبها، ولن يحزَن إلا صاحبها . فقد قال بعض الحكماء : ليكن طلبك الدنيا ٱضطرارا،

(١) فى قوانين الوزارة : "على من يجود بها عائدا" .

(٢) فى الأصل وقوانين الوزارة : « كن للشهوات عزوفا» وعزف وما اشتق منه يتعدى الى المعمول بالحرف « عن » .

وفكرُك فيها آعتبارا، وسعيُك لمعادِك آبتدارا . وقال عبد الحميد : طالب الدنيا عليل، ليس يُرْوَى له غليل .

اِجعل صالحَ عملِك ذُخْرا لك عند ربك، وجميلَ سيرتِك أثرا مشكورا فى الناس بعدَك، ليقتدىَ بك الأخيار، ويزدجرَ بك الأشرارُ، تكنْ بالثواب حقيقا، وبالحمد جديرا . فقد قيل : الآغترار بالأعمار من شيم الأغْمار . فلن يبق بعدك إلا ذكرُك فى الدنيا، وثوابُك فى الآخرة؛ فآظفرْ بهما تكنْ سعيدا فيهما؛ فإن الدنيا كأحلام النائم يستحليها فى غفْوته، ويلفظُها بعد يقظَته . وقد قيل فى بعض الصحف الأولى : (٤٣) اِحرِصْ على العمل الصالح لأنه لا يصحَبُك غيرُه .

اِنتهى كلام الماوردىّ . وقد بالغ — رحمه الله — فى عَهْده، وجاد بعظيم بِرّه وجزيل رِفْده؛ وأوضح ما إن آستمسك به الوزيرُ كفاه، وإن حَذا على مثاله كان ذخيرةً لدينه ومعونةً لدنياه . فليتمسَّكْ به من رَقَى من الوزارة فى حُلَلها، وآرتقى من الرياسة الى شواهقها المنيعة وقُلَلِها؛ وأفاضت عليه السياسة بُرودَها، وطوّقته السعادة عقودَها . وليأخذْ نفسه به ويَرُضْها عليه؛ وليجعلْه نُصْب عينِه فيما فُوِّض من أمور العالَم اليه؛ ليفوزَ بسعادة الدنيا وثوابِ الآخرة، ويلتحق غدا بذوى الوجوه الناضرة، التى هى إلى ربها ناظرة . وإن عَدَل عنه وعمِل بضدّه فوا خيبةَ مسعاه، وسوءَ مُنْقَلبِه ومثواه، (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَدَاهُ) .

## ذكر ما قيل فى وصايا أصحاب السلطان وصفاتهم

أما صفاتهم فقد ذكر «الحَمْدونىّ» فى «تَذْكِرته» ما لا بدّ منه لصاحب السلطان وجليسه، ومُحادثه وأنيسه؛ ولا يستغنى عنه وزراؤه وندماؤُه، وخواصّه وأولياؤه؛ فقال: من صحِب الملوكَ وقَرُب منهم فينبغى أن يكون جامعا للخلال المحمودة . فأوّلها العقل،

فإنه رأسُ الفضائل . والعلمُ، فإنه من ثمار العقلِ ولا تليق صحبةُ الملوكِ بأهل الجهل . والوُدُّ، فإنه خُلق من أخلاق الناس يولّده العقل فى الإنسان لذوى ودّه . والنصيحةُ، وهى تابعة للودّ وهو الذى يبعث عليها . والوفاءُ، فلا تتم الصحبةُ إلا به . وحفظُ السرّ، وهو من صدق الوفاء . والعفّةُ عن الشهوات والأموال . والصرامةُ، وهى شدّةُ القلب فإن الملوك لا يجوز أن يصحبهم أولو النُّكول، ولا ينال الجسيمَ من الأمور إلا الشجاعُ النَّدْبُ النجد[1] . والصدقُ، فإنه من لا يَصْدُق يكذب، ومضرّة الكذب لا تُتلافى . وحُسْنُ الزىّ والهيئة، فإن ذلك يَزيدُ فى بهاء الملك . والبِشرُ فى اللقاء، فإنه يتألّف به قلبَ من يلاقيه، وفى الكُلوح تنفيرٌ عن غير ريبة . والأمانةُ فيما يُستحفَظ . ورعايةُ الحق فيما يُستودَع . والعدلُ والإنصافُ، فإن العدل يُصلح السرائر ويُجمّل الظواهر، وبه يُخاصِم الإنسانُ نفسَه اذا دعته الى أمرٍ لا يَحسُن رُكوبُه . وينبغى له أن يجانبَ أضدادَ هذه الخلال؛ وألّا يكونَ حسودا فإن الحسد يُفسد ما بينه وبين الناس؛ وليفرّقْ بين الحسد والمُنافسة فإنهما يشتبهان على من لا يعقل؛ وأن يَخْلُوَ من اللَّجاج والمِحَال فإن ذلك يضرّ بالأفعال اذا وقع فيها آشتراك؛ وألّا يكون بذّاخا ولا متكبرا، فإن البَذَخ من دلائل سقوط النفس، والكِبْر من دواعى المقت؛ وألّا يكونَ حريصا، فإن الحرصَ من ضيق النفْس وشدّة البطش والبعد عن الصبر . وينبغى ألّا يكون فَدْما[2] وخِما[3] ولا ثقيل الروح، فإنها صفة لا تليق بمن يلاقى الملوك، وأبدًا تكون صفةً للمقت من غير جُرم . وينبغى لمن صحب السلطانَ أن يأخذ لعمله من جميع شغله، فيأخذَ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه، لا كما يفعل الأغمار الجُهّال بخدمة الملوك، فإن

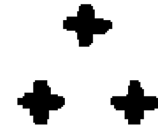
(١) الندب : الخفيف فى الحاجة . والنجد (بفتح أوله وتثليث ثانيه) الشجاع الماضى فيما يعجز غيره .

(٢) الفدم : العيّ عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم، أو الأحمق الجافى .

(٣) الوخم : الرجل الثقيل .

أحدَهم كلما ٱزداد عمــلًا نقَص من ساعات نَصَبه[1] وعمله فزادها فى ساعات شهوته وعيشــه .

فهذه الصفات، فلنذكر الوصايا .



وأما وصايا أصحاب السلطان — فهى متقاربة من وصايا الوزراء غيرُ متفاوتة . وفيها ما يُضطرّ الوزيرُ إليه، على ماتقف إن شاء الله تعالى عليه .

قالت الحكماء : إذا نَزَلْتَ من الملك بمنزلة الثقة فاعزِل عنــه كلامَ المَلَق، ولا تُكثِرْ من الدعاء له فى كلّ كلمة، فإن ذلك يُشبهُ حال الوَحْشة والغُربة، إلا أن تكلِّمه على رءوس الناس فلا تألُ عما وقّره وعظّمه . وإذا أردت أن يُقْبَل قولُك فصحِّحْ رأيَك ولا تَشوبَنّه بشىء من الهوى، فإن الرأى يقبلُه منك العدوُّ، والهوى يردّه عليك الصديقُ .

وتبصَّرْ ما فى الملِك من الأخلاق التى يُحبّ ويكْرَه، ثم لا تكابره بالتحــويل له عمــا يُحبّ ويكَره إلى ما تحب وتكره[2]، فإنها رياضة صعبةٌ قد تحمل على التأنى[3] والقِلى . فقلما تقدر على ردّ رجلٍ عن المكابرة والمناقضة وإن لم يكن جَمَحَ به عِزُّ السلطان، فكيف إذا جمح به ! ولكن تُعينُه على أحسن رأيِه وتزيِّنُه له وتُقوّيه عليه؛ فإذا قويت المحاسنُ كانت هى التى تكفيك المساوى . وإذا ٱستحكمتْ[4] منه ناحية من الصواب

---

(١) فى الأصل : «نصيبه» وما وضعناه هو المناسب للسياق . فلعل ما فى الأصل تحريف .

(٢) وردت هــذه الجملة فى الأصل هكذا : «وتبصر فان فى الملك من الأخلاق التى يحب و يكره، ثم لا تكاثره بالتحول عما ...» وفيها تحريف . وقد أثبتنا ما ترى استنادا الى ما فى الأدب الكبير .

(٣) كذا فى الأدب الكبير، وهو المناسب للسياق، وفى الأصل : « ... على الإباء ... » .

(٤) كذا فى الأدب الكبير، وفى الأصل «واذا استحكمت منه ما أحب من ... » .

كان ذلك الصوابُ هو الذى يُبَصِّره [مواقعَ الخطإ](١) بألطفَ من تبصيرِك وأعدلَ من حكمك فى نفسه ؛ فإنّ الصواب يؤيِّدُ بعضُه بعضا ويدعو بعضُه إلى بعض . وإذا كنتَ له مكابرا لحقك الخطرُ ولم تَبلُغْ ما تريد .

ولا يكوننّ طَلَبُك ما عنــد السلطانِ بالمسألة ! ولا تستبطِئْه وإن أبطأ ، ولكن آطلب ما عنده بالآستحقاق له والآستيناء به وإن طالت الأناة ؛ فإنك إذا آستحققته أتاك من غير طلب ، وإذا لم تستبطئْه كان أعجلَ له .

ولا تخــبرنّ الملك أنّ لك عليه حقا ، وأنك تعتدّ(٢) علــيه بلاء . وإن آستطعت ألّا ينسى حقك وبلاءك فآفعل . وليكن ما تذكِّره به تجديدَك له النصيحة والآجتهاد ، وألّا يزال ينظر منك إلى آخِرٍ يذكّره الأوّل ؛ فإنّ السلطان إذا آنقطع عنه الآخِر نسِى الأوّل ؛ فإنّ أرحامهم منقطعة وحِبالهم منصرمة إلا عمن رَضُوا عنه فى يومهم وساعتهم .

وآعلم أن أكثر الناسِ عدوّ لصاحب السلطانِ ووزيرِه وذوى المكانةِ عنــده ، لأنه منفوس عليه مكانه كما يُنفَس(٣) على الملِك ملكُه ، ومحسود كما يُحسَد عليه ؛ غير أنه يُجترأ علــيه ولا يُجترأ على الملِك ، لأن حسّاده أحباء(٤) الملِك الذين يشاركونه فى المنزلة والدخولِ ، وهم حضور ، وليسوا كعدوّ الملِك النائى عنه الكاتِم لعداوته ؛ فهم لا يغفُلون عن نصب الحبائلِ له . فآلبس لهؤلاء الاعداءِ كلهم سلاح الصحّةِ والآستقامةِ ولزومِ المحجّة(٥) فيما تُسِرّ وتُعلن . ثم روّح عن قلبِك حتى كأنك لاعدوّ لك ولا حاسد . جانِب

(١) زيادة عن الأدب الكبير .

(٢) كذا فى الأدب الكبير ، وفى الأصل : « وأن تعتدّ عليه بلاء » .

(٣) نفس عليه مكانه من باب «فرح» لم يره أهلا له .

(٤) أحباء (جمع حبأ كحبيب) : جلساء الملك وخاصته .

(٥) كذا فى بعض نسخ الأدب الكبير . والمحجة : جادّة الطريق أى معظمه ووسطه . وفى الأصل : « ولزوم الحجة » والسياق يعين ما اخترناه .

المسخوطَ عليه والمظنون به عند السلطان، ولا يجمعنك و إياه مجلس ولا منزل، ولا تُظهرنّ له عذرا ولا تُثنِينّ عليه خيرا . فإذا رأيته قد بلغ فى الإعتاب (١) مما سُخِط عليه [فيه] (٢) ما ترجو أن يلين له الملك ، وآستيقنت أن الملك قد تحقق مباعدتك إياه وشدّتك عليه، فضَعْ عند ذلك عذره عند الملك، وآعمل فى إرضائه بالرفق واللطف .

و إذا أصبت الجاه عند الملك وكانت لك خاصة منزلة، فلا يُحْدِثن لك ذلك تغيرًا على أهله وأعوانه وآستغناءً عنهم، فإنك لا تدرى متى (٣) ترى أدنى جفوةٍ فتذلّ لهم (٤) . و إن آستطعت أن يعرف صاحبك أنك تَنحَلُه صواب رأيك فضلا عن صوابه فتُسنِدَ ذلك إليه وتزينه به، فإن الذى أنت بذلك آخذٌ أفضلُ من الذى أنت به معطٍ .

(وآعلم أن السلطان يقبل من الوزراءِ التبخيل ويعدّه منهم شفقة ونظرا ويحمدهم عليه وإن كان جوادا . فإن كنت مُبخِّلا فقد غششت (٥) صاحبك بفساد مروءته، وإن كنت مُسَخِّيا لم تأمن إضرار ذلك بمنزلتك . فالرأىُ لك تصحيح النصيحةِ وآلتماسُ المخرج، بألا يعرف منك ميلا إلى شىء من هواك (٦)) .

فهذه نبذة من وصايا أصحاب السلطان يكتفى بها اللبيب، ويتمسك بها الأريب . وقد قدّمنا فى شروط الوزارة مايحتاج صاحب السلطان إلى آستعماله فى خدمته . فلنذكر ما يحتاج إليه نديم الملك ومؤاكله .

(١) كذا فى الأدب الكبير . والإعتاب : رجوع المعتوب عليه الى ما يرضى العاتب ؛ كالعتبى . وفى الأصل : « ... فى الإعتاب فيا ... » .

(٢) زيادة من الأدب الكبير .

(٣) كذا فى الأدب الكبير . وفى الأصل : « فانك لا تدرى حتى ترى ... » .

(٤) كذا فى الأدب الكبير ، وفى الأصل : «فتذل له» .

(٥) فى الأدب الكبير : « شنت صاحبك ... » .

(٦) وردت هذه الجملة التى بين القوسين فى صفحة ١١ من هذا الجزء بتغيير يسير عما هنا .

ذكر ما يحتاج إليه نديم الملك، وما يأخذ به نفسه، وما يلزمه .

قالوا : ممـا يزيد النديم فى المحلّ تقدما، وعند ملكه تمكّنا، أن يكون عالما بكل ما يتنافس الملوك ويتغالون فيه، من الرقيق المثمّن، وقيمة الجوهر النفيس، والآلات المحكمة، وأنواع الطيب والفُرُش، إلى غير ذلك من معرفة الخيل والسلاح . ولذلك قال الواصف نفسه (١) للفضل بن يحيى بن خالد يرغّبه فى آختصاصه بمنادمته فى شعر طويل :

لستُ بالناسك المشمّر ثوبيـ ـه ولا القاتك الخليع الوقاح
أبصر الناس بالجواهر (٢) والخيـ ـل وبالخُرَّد الحسان الملاح

قالوا : ومَنْ أبردُ من النديم مجلسا وأكسفُ منـه بالًا إذا عُرض على الملوك شىء من هذه الأعلاق فلم يُحِرْ جوابا ولا وجد عنده منه علما ! .

ويُستظرف من نديم السلطان أن يصف اللون الغريب من الطعام، والصوت البديع من الشعر، واللحن الشجىّ من الغناء . وقالوا : من لم يدرِ عشرة أصواتٍ من الغناء ويُحسن من غرائب الطبيخ عشرة ألوان، لم يكن عندهم ظريفا (٣) كاملا، ولا نديمـا (٤) جامعا .

* * *

وأما ما يأخذ به نفسه — فقد قالوا : ينبغى أن يكون نديم السلطان معتدل الأخلاق، سليم الجوارح، طيّب المفاكهة والمحادثة، عالمـا بأيام الناس ومكارم

(١) الواصف نفسه : هو أبان بن عبد الحميد اللاحقىّ .

(٢) فى ديوان أبى نواس (طبع المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٨ م) : «أبصر الناس بالجوارح...» .

(٣) فى الأصل : «ظرفا» .

(٤) فى الأصل «خائنا» وهو تحريف .

أخلاقهم، راوية للنادر من الشعر والمثل السائر، متصرِّفا فى كل فنّ، قد أخذ من الخير والشر بنصيب؛ فإن مالت شهوة الملك إلى ضرب مّا وجد عنده منه علما .

ويلزمه أيضا أن يحضر فى الزىّ الظاهر الذى يُعرف به، ويشهد فيه المجالس الحافلة من غير أن يتشهر[1]. فإن شاء الملك أن يغيّر حاله وزيّه ويكرِمه بشىء من ثيابه، حسُن أن يلبَس ذلك من وقته حتى ينقضىَ المجلس، ولم يحسن أن يجلس فيه ظاهرا فى مجلس ثان؛ لأنه شىء ٱختاره الملك فى ساعة بعينها لا فى كل أوقاته . وأما العِمامة والخُفّ فلا يخلو منهما . والغرض من ذلك إجلال السلطان عن مشاركته فيما ٱتسع له من التبذل والتخيّر فى الزىّ الذى لا يثقل عليه منه، والانفراد به عمن هو دونه . وهذه كانت عادة ملوك الأعاجم؛ لأنهم رسموا لكل طبقة من طبقات أهل مملكتهم برسم من الزىّ ليتميزوا به، ولا يتشبه سُوقة بملك، ولا مشروف بذى الشرف، ولا تابع برئيس[2] .

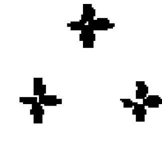
ومما يجب أن يأخذ به نفسه الإسراع فى الخطو إذا كان بحيث يراه الملك، ليكون مشيه إرقالا ولا يكون ٱختيالا .

ومما يلزمه أن يتحفّظ منه ويروض به نفسه ألّا يُصبّحه ولا يُمسّيه ولا يشمّته ولا يستخبره . وإنما تُرك ذلك كله لما فيه من تكلّف الجواب . وأوّل من سنّ ذلك وحمل الناس عليه الفضل بن الربيع .

---

(١) يتشهر : من الشهرة وهى ظهور الشىء فى شنعة . ولم نجد هذا الفعل الذى ورد بالأصل فى كتب اللغة التى بين أيدينا ، فلعله تحريف عن «يشتهر» أو «يشهر» .

(٢) الذى فى الأصل : « ولا يتشبه سوقة بملك ولا مشروف بذى الشرف ولا تابع بذى الشرف ولا تابع برئيس» والذى ظهر لنا أن «ولا تابع بذى الشرف» زيادة وقعت سهوا من الناسخ .



وأما الآداب فى محادثة السلطان — فقد قالوا : من حق الملك إذا حضر سُمّاره ومحدّثوه ألّا يبتدئه أحد حديثا . فإن بدأ هو بالحديث صرف مَنْ حضره ذهنه وفكره نحوه. فإن كان يعرف الحديثَ الذى حدّث به الملكُ آستمعه آستماع من لم يدره ولم يعرفه (١) ، وأظهر السرور بفائدة الملك والآستبشار بحديثه ؛ فإن فى ذلك أمرين : أحدهما ما يظهر من حسنِ أدبه . والآخر أن يعطىَ الملك حقه بحسن الآستماع . وإن كان لم يعرفه فالنفس إلى فوائد الملوك والحديث عنهم أتوق منها (٢) إلى فوائد السُّوقة ومن أشبهها . وقد كان رَوْح بن زِنْباع يقول : إذا أردت أن يُمكّنك الملك من أُذُنه فأمكِنْ أُذنك من الإصغاء إليــه إذا حدّث . وكان أسماء بن خارجة يقول : ما غلبنى أحد قطُّ غلبةَ رجلٍ يُصغى إلى حديثى .

ومن حق الملك إذا قرّب إنسانا أو أنس به حتى يهازله ويضاحكه ، ثم دخل عليه ، أن يدخل دخولَ من لم يجرِ بينهما أُنس قط ، وأن يُظْهر من الإجلالِ والتعظيم أكثر مما كان عليه ؛ فإن أخلاق الملوك ليست على نظام . ومجالستهم ومحادثتهم تحتاج إلى سياسةٍ وتحفُّظٍ من (٣) وضعِ الحديثِ والمثلِ والشعرِ فى موضعه . وإذا حدّث الملك بحديث وفرغ منه فنظر إلى بعض جلسائه ، فقد أذن له أن يحدّثه بنظير ذلك الجنس من الحديث ، وليس له أن يأخذ فى غير جنس حديثه . فإذا فرغ من ذلك الحديث فليس له أن يَصله بحديث آخر وإن كان شبيها للحديث الأوّل . فإن رأى الملكَ قد

---

(١) الذى فى التاج (طبعة المطبعة الأميرية ص ٥٣) : «استماع من لم يدر فى حاسة سمعه قط ولم يعرفه» .

(٢) فى «التاج» : «أترم وأشهى منها ...» .

(٣) من وضع الحديث ... الخ : « من » بيانيــة ، وليست متعلقة بـ « تحفظ » فان ذلك يؤدى الى خطأ فى المعنى .

أقبل عليه بوجهه وأصغى إلى حديثه فليَمْضِ فيه حتى يكمله و يأتي على آخره . وليس له — إن قطع الملكُ ٱستماعَ حديثه بشغل يَعْرِض له — أن يمرّ على كلامه ، ولكن يُنْصِت مطرقا . فإن ٱتصل شغل الملكِ ، ترك الحديث . فإن فرغ ونظر إليه ، فقد أذِن له في إتمامه و إعادته ، و إلّا فلا .

ومن حق الملك ألّا يُضْحَكَ بحضرته ، لأن الضحك جُرْأة عليه ، وألّا يعاد عليه الحديثُ مرتين و إن طال بينهما الدهر ، إلا أن يذكره الملك ، فإن ذكره فقد أذن له في إعادته . وكان رَوْح بن زِنْبَاع يقول : أقمتُ مع عبد الملكِ بنِ مروان سبع عشرة سنة من أيامه ما أعدتُ عليه حديثا . وكان الشَّعْبِيّ يقول : ما حدّثت بحديث مرتين لرجل بعينه قط . وكان أبو العبّاس السفّاح يقول : ما رأيت رجلا أغزر علما من أبي بكر الهُذَلِيّ لم يُعد عليّ حديثا قط . وكان أبو بكر الهذليّ يقول : حدّثت المنصور بأكثر من عشرة آلاف حديث ، فقال لي ليلة — وقد حدّثته عن يومِ ذي قارٍ وقد ٱضطررت إلى التكرار — : أتُعيد الحديث؟ فقلت : ما هذا مما مر يا أمير المؤمنين ؛ فقال : أما تذكر ليلة الرعدِ والأمطارِ وأنت تحدّث بحديث يومِ ذي قار فقلت لك : ما يومُ ذي قارٍ بأصعب من هذه الليلةِ ؟

ومن حق المحادثةِ وواجب المؤانسةِ تركُ المِراء ؛ هذا مع الأكفاء فكيف مع الملوك والرؤساء ! وقالوا : المماراة تُفْسد الصداقةَ القديمة ، وتحلّ العقدة الوثيقة (٥٦) وتكسب الإحْنَة والبغضاء . وقال الصاحب بن عبّاد : للمحدّث على السامع ثلاث : كتمان السر ، و إصغاء الذهن ، وترك التحفُّظ . هذا ما يلزم نديم الملك .

وأما مؤاكله ، فقد ٱصطلح الناس على إجلال رؤسائهم وملوكهم عن غسل أيديهم بحضورهم ، وٱستجازوا ذلك مع نُظَرائهم ومن يسقط التحفُّظ بينهم وبينهم .

وربمـا تجمّل الرئيس فقال لمؤاكله : اغْسِل يدك مكانك ولا تبرح . فالغبىّ يغتنم ذلك ويفعل، والفَطِن يأباه ويسلك سبيلَ الأدبِ، فيخفّ على القلبِ. هذا بعد الطعامِ . (٥٧) وأما قبـله فجائز أن يغسل اليد بحضرةِ الرئيس . وأما الخـلال فلا يستعمل بحضرته ألبتــة .

وأما آداب الأكل بين يدى الرئيس — ألّا يخلط طعاما بطعـام، ولا يغمس اللقمة بالخل ثم يضعها فى الطعام، ونحو ذلك . هذا ما يلزم نديم الملِك ومؤاكِلَه . وقد ذكرنا مما يجب للملِك على رعيتهِ من المناصحة والأدبِ والتوقيرِ والتعظيم فيما تقدّم ما يدخل فى هـذا البابِ، فلا فائدة فى تكراره . فلنذكر ماورد فى النهى عن صحبة الملوك .

---

## ذكر ماورد فى النهى عن صحبة الملوك والقرب منهم

قد نَهَت الحكماء عن صحبة الملوكِ وقالوا : إن الملوك إذا خدمتهم ملّوك، وإن لم تخدِمهم أذلّوك . وإنهم يستعظِمون فى الثواب ردّ الجوابِ، ويستقلّون فى العِقاب ضربَ الرقابِ . وإنهم ليعثُرون على العَثْرة اليسيرة من خَدَمِهم فيبنُون لهـا مَنارا، ثم يوقدون لهـا نارا، ويعتقدونها ثارا . وقال آبن المقفّع : إن وجدْتَ عن السلطان وصُحبته غِنًى فصُنْ عنه نفسك، وآعتزِله جهدك؛ فإنه من يأخُذه السلطان بحقه يَحُلْ بينه وبين لَذّةِ الدنيا وعملِ الآخرةِ . وقال العتّابىّ وقد قيـل له : لم لا تقصِد الأمير فتخدُمه ؟ فقال : لأنى أراه يعطى الواحد لغير حسنةٍ ولا يدٍ، ويقتل الآخر بلا سيئةٍ ولا ذنبٍ، ولستُ أدرى أىّ الرجلين أكون، ولستُ(١) أرجو منه مقـدار ما أُخاطِر به . وقال لآمرأته :

(١) فى الأصل : «وليس» .

أَسَرَّكِ أنى نِلْتُ ما نال جعفرٌ * من الملك أو ما نال يحيى بنُ خالدِ

فقالت : بلى والله! فقال :

وأنّ أميرَ المؤمنين أَغَصَّنِي * مَغَصَّهما بالمُرْهَفات البَـواردِ

فقالت : لا والله ! فقال :

ذَرِينى تَجِئْنى مِيتتى مطمئنّةً * ولم أتجشّمْ هولَ تلك المـواردِ
فإنّ جسِيماتِ الأمورِ منوطةٌ * بمستَوْدَعاتٍ فى بُطُونِ الأساودِ

---

# البـاب العـاشر

## من القسم الخامس من الفن الثـانى

فى قادة الجيوش، والجهاد، ومكايد الحـروب، ووصف الوقائع، والرباط، وما قيل فى أوصاف السلاح .

---

## ذكر ما قيل فى قادة الجيوش وشروطهم وأوصافهم ووصاياهم وما يلزمهم

قال الشيخ الإمام أبو عبـد الله الحسينُ بنُ الحسنِ بنِ محمدِ بنِ حليم الحَلِيمىّ الجُرجانىُّ الشافعىّ فى كتابه المُترجم بـ"المِنهاج" ما مختصرُه ومعناه: إذا أنفذ الإمامُ جيشًا أو سَرِيّةً فينبغى أن يؤمِّر عليهم رجلا صالحا أمينا مُحتسِبا، لأن القومَ إليه ينظرون. فإذا لم يكن خيِّرًا فى نفسه كانت أعمالُه بحسَب سريرته وكانت أعمـالُ القوم بحسبها مُضاهيةً لهـا ، فإن رَأَوْا منه كَسَلًا كَسِلوا ، وإن رأَوْا منه فَشَلًا فَشِلوا ، وإن ثبت ثبتوا، وإن رجع رَجَعُوا، وإن جَنَح إلى السِّلم جنحوا، وإن جَدّ جدّوا ؛ فهم

فى تَبَعِه كالمأموم مع الإمام. والعدوّ إنما يَفرَق من رئيس القوم، فإذا سَمِع بذى ذكر كان ذلك أَهْيَبَ له من أن يَسمع بخامل لا صِيتَ له . وإذا سمع بشُجاعٍ غير فَرّار كان آيَسَ من مقاومته، منه إذا سمع بفَشِلٍ جَبَان . وإذا سمع بلَيّنٍ يُطْمَع فى خداع مثله كان أجرأ(١) على آستقباله، منه إذا سمع بصُلْب فى الدِّين شديدٍ فى البأس . فيكون(٢) ما يكون من العدوّ من الإقدام والإحجام بحسب ما يبلغُه من حال رأس المسلمين. فلهذين السببين وجب أن يكون الرأسُ مستصلَحا جامعا لأسباب الغَناء والكِفَاية . والله تعالى أعلم .

وأما ما يلزم قائد الجيش — قال أبو الحسن المـاوردىّ فى كتابه المترجم بـ"الأحكام السلطانية" ما معناه : إن أمير الجيش يلزمه ستة أحكام :

الأوّل منها — مسيره بالجيش . وعليه فى السير بهم سبعةُ حقوق : أحدها الرِّفقُ بهم فى السير الذى يقدر عليه أضعفُهم وتُحفظ به قوّةُ أقواهم . ولا يجدّ السير فيُهلِكَ الضعيفَ ويستفرغَ جَلَد القوىّ . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن هذا الدينَ متين فأَوْغِلوا(٣) فيه برِفْق فإنّ المُنبتَّ لا أرْضًا قَطَع ولا ظَهْرا أَبْقَى" . والثانى أن يتفقّد خيلَهم التى يجاهدون عليها وظهورَهم التى يمتطونها، فلا يُدخِل فى خيل الجهاد قَحْما(٤) كبيرا، ولا ضَرِعا(٥) صغيرا، ولا حطِما(٦) كسيرا، ولا أَعْجَفَ رازحا(٧) هزيلا، لأنها لا تُغنى، وربما

(١) فى الأصل : «أحرى» والمعنى يقتضى ما أثبتنا .

(٢) فى الأصل : « ليكون » باللام ، ولكن الفاء هى المناسبة للسياق .

(٣) فى الجامع الصغير «فأوغل ... » وبقية الحديث كما هنا .

(٤) القحم (بالفتح) : الكبير السن جدا .

(٥) الضرع : المهر الذى لا يقوى على العدو .

(٦) الحطم : الفرس الذى تهدّم لطول عمره .

(٧) الرازح : الساقط من الإعياء .

كان ضعفُها وَهْنا . و يتفقد ظهورَ المطايا والركوب، فيُخرج منها ما لا يقدر على المسير ويَمنع من أن تُحمَّل زيادةً على طاقتها . والثالث أن يُراعِىَ من معه من المُقاتِلة . وهم صنفان: مُسترزِقة، وهم أصحابُ الديوانِ من أهل الفيء بحسب الغنَاء والحاجة؛ ومُتطوِّعة، وهم الخارجون عن الديوان من البوادى والأعراب وسكّان القُرى والأمصار الذين خرجوا فى النَّفير الذى نَدَبَ اللهُ اليه بقوله : (اِنْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالًا) قيل معناه : شبّانا وشيوخا ، وقيل أغنياءَ وفقراءَ ، وقيل رُكبانا ومُشاةً ، وقيل ذا عيال وغير [ذى] عيال . وهؤلاء يُعطَون من الصدقات دون الفَىْء . والرابع أن يُعرِّف على الفريقين العُرَفاء ويُنقِّب عليهم النقباءَ، ليَعرِف من عُرفائهم ونُقَبائهم أحوالَهم ويقربوا[1] عليه اذا دعاهم . وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فى مَغَازيه . والخامس أن يجعلَ لكل طائفة شِعارا يَتداعَون به ليصيروا به مُمَيَّزين . فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شِعارَ المهاجرين : "يابنى عبدِ الرحمن" وشعارَ الخزرج : "يابنى عبد الله" وشعارَ الأوس : "يابنى عُبيد الله" وسمّى خيلَه : "خيلَ الله". والسادس أن يتصفّح الجيشَ ومن فيه، فيُخرِجَ منهم من كان فيه تخذيلٌ للجاهدين وإرجافٌ بالمسلمين أو عَيْنًا عليهم للشركين . فقد ردّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبدَالله بن أُبَىّ بن سَلُول فى بعض غزواته لتخذيله المسلمين . قال الله تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) أى لا يَفتِن بعضُكم[3] بعضا . والسابع ألّا يُمايِل[4] من ناسبه

(١) التكلة عن الأحكام السلطانية .

(٢) فى الأصل والأحكام السلطانية «ويقربون» والظاهر أنه معطوف على «ليعرف ...» .

(٣) كذا فى الأحكام السلطانية، وهو المتعين، لأنه تفسير لقوله «وقاتلوا ...» وهو لمخاطب فيكون مفسره كذلك . وفى الأصل «بعضهم» .

(٤) يمايل : يمالئ .

أو وافق رأيه ومذهبه على من باينه فى النسب أو خالفه فى رأى ومذهب ، فيظهر من المباينة ما تفرق به الكلمة الجامعة تشاغلاً بالتقاطع والاختلاف . فقد أغضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين وهم أضدادٌ فى الدين ، وأجرى عليهم حكم الظاهر حتى قويتْ بهم الشوكةُ وكثُر بهم العددُ وتكاملت بهم العُدّة ، ووكَلَهم فيما أضمروه من النفاق إلى الله تعالى . قال الله تعالى : (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) قيل فيه : الدولةُ ، وقيل : القوّةُ .

والثانى — تدبير الحرب . قال الماوردى : والمشركون فى دار الحرب صنفان ، صنفٌ منهم بلغتهم دعوةُ الإسلام فامتنعوا منها وتَأَبّوا[(١)] عليها . فأمير الجيش مُخيّر فى قتالهم بين أن يُبيّتهم ليلا ونهارا بالقتل والتحريق ، وبين أن يُنذرهم الحربَ ويُصافّهم فى القتال . والصنفُ الثانى لم تبلغهم دعوةُ الإسلام وهم قليلٌ جدا ، إلا أن يكونوا وراءَ من يلى هذه البلادَ الإسلاميةَ من الترك والروم فى مَبادئ بلادِ المشرق وأقاصى المغرب ، فيحرُم عليه الإقدامُ على قتالهم غِرّةً وبَياتا ، وأن يبدأهم بالقتال قبل إظهار دعوة الإسلام لهم وإعلامهم من معجزات النبوّة وظهور الحجة ما يقودُهم إلى الإجابة . فإن أقاموا على الكفر بعد ظهورها لهم ، حاربهم وصاروا فيه كمن بلغتهم الدعوةُ . قال الله تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) معناه إلى دين ربّك بالنبوّة والقرآن . فإن بدأ بقتالهم قبل دعائهم إلى الإسلام وإنذارِهم بحُجَجه وقتَلهم غِرّةً وبَياتا ، ضمِنَ دِيَاتِ نفوسهم . وهى على الأصح (٥٨) من مذهب الشافعى كديات المسلمين . وقيل : بل تكون كديات الكفار على اختلافها . وإذا تقابلت الصفوفُ فى الحرب جاز لمن قاتَل من المسلمين أن يُعلِّم بما

(١) كذا فى الأحكام السلطانية ، وفى الأصل : «وقاتلوا عليها» .

يشتهرُ به فى الصفوف و يتميَّزُ به من بين الجيش، وأن يركبَ الأبلقَ إن كانت خيولُ النــاس دُهْما أو شُقْرا . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم بدر: "سَوِّمُوا فإنَّ الملائكةَ قَدْ سَوَّمَتْ"(١) . ويجوز أن يُجيبَ إلى البراز إذا دُعى إليه، فقد دعا أُبَىّ بنُ خَلَف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إلى البِراز يوم أُحُد فبرز اليــه فقتله النبي صلى الله عليه وسلم . ويجوز أيضا للقاتل من المسلمين أن يدعوَ إلى البراز(٢) لمـا فيه من إظهار القوّةِ فى دينِ الله تعالى بعد أن يَعـلمَ من نفسه أن لن يَعْجِزَ عن مقاومة خَصمِه و يقدرَ على دفعِ عدوّه . ولا يجوز ذلك لزعيمِ الجيش، فإنه إذا طَلَب البِرازَ وفُقِد، أثّر ذلك فى المسلمين، و ربما يُفضى بهم عدمُه إلى الهزيمة. و رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إنمـا برز لثقتِه بنصر الله و إنجازِ وعدِه، وليس ذلك لغيره. و يجوز لأمير الجيش إذا حضّ على الجهاد أن يُعرِّضَ للشهادة من الراغبين فيها من يعـلم أنّ قتلَه فى المعركة ممـا يحرّض المسلمين على القتال حميّةً له .

حكى موسى بنُ إسحاق أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم خرج من العَريش يوم بَدْر يحرّض النــاس على الجهاد ونَفّل كلَّ آمرئ [منهم](٣) ما أصاب ، وقال : "والذى نفسى بيده لا يُقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقتل صابرا محتسبا مُقبلا غير مُدبر إلا أدخلَه اللهُ الجنّةَ"، فقال عُمَيْرُ بنُ الحُمام من بنى سَلَمة وفى يده تمراتٌ يأكلهن : بَخٍ بَخٍ ! ما بقى

---

(١) إعملوا لكم علامة يعرف بها بعضكم بعضا . وفى الأصل «تسوّموا ...» وما أثبتناه رواية النهاية لابن الأثير واللسان .

(٢) كذا فى الأحكام السلطانية ، وفى الأصل : «إلى البراز يوم أحد لمـا فيه ... الخ » وظاهر أن كلمة «يوم أحد» زيدت ها هنا سهوا من الناسخ .

(٣) الزيادة عن الطبرى قسم أول ج ٥ ص ١٣٢١ طبع أوربا . ونفل الإمام الجند : جعل لهم ما غنموا .

بيني وبين أن أدخلَ الجنــةَ إلا أن يقتلَني هؤلاء القومُ، ثم قَذف التمــراتِ من يده وأخذ سيفَه وتقدّم وقاتلَ القومَ حتى قُتل ــ رحمه الله ــ وهو يقول :

رَكْضًا إلى الله بغــير زادِ * إلا التُّقَى[1] وعمــلَ المعادِ
والصبرَ فى الله على الجهادِ * وكلُّ زاد عرضــةُ النَّفَادِ
* غيرَ التُّقَى والبِرِّ والرشادِ *

ويجوز للسلم أن يقتــلَ من ظفِر به من مُقاتِلة المشركين مُحاربًا وغيرَ محارب. واختُلف فى قتــل شيوخهم ورُهبانِهم من سكان الصوامع والديارات. فمن منع من قتلهم قال : إنهم مُوادِعون. ومن قال بقتلهم وإن لم يقاتِلوا [قال][2] : لأنهم ربما أشاروا برأى يكون فيه إنكاءٌ للسلمين. وقد قُتِل دُرَيْدُ بن الصِّمَّةِ فى حرب هوازنَ ــ وهو يوم حُنَيْن ــ وقد جاوز مائةَ سنة، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يراه فلم يُنكِر قتلَه؛ وكان يقول حين قُتِل :

أمرتُهُــمُ أمرى بمُنعَــرَجِ اللِّوَى * فلم يستبينوا الرشدَ إلا ضُحَى الغــدِ
فلمّا عَصَوْنى كنتُ منهم وقد أرى * غَوايتَهم[3] لا أننى غـــيرُ مهتــدى

ولا يجوز قتل النساء والولدانِ فى حرب ولا غيرِها ما لم يُقاتِلوا؛ لنهى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم . وقد نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن قتل العُسَفاء والوُصَفاء ــ والعسفاء : المُستخدَمون، والوصفاء : المماليكُ ــ . فإن قاتل النساءُ والولدان قُوتِلوا مُقبلين ولم يُقتلوا مُدبرين. وإذا تترّسوا فى الحرب بنسائهم وأطفالهم عُمِدَ قتلُهم

(١) فى الأصل : «الى» والتصويب عن الأحكام السلطانية والطبرى .
(٢) زيادة يقتضيها سياق الكلام .
(٣) فى ديوان الحماسة لأبى تمام، شرح التبريزى طبع مدينة "بن" بأوربا : « ... وقد أرى * غوايتهم وأننى غير مهتدى» .

وتُوُقِّىَ قتلُ النساء والأطفال ، [فان لم يوصل إلى قتلهم إلا بقتل النّساء والأطفال][1] جاز ، ولو تترّسوا بأسرى المسلمين ولم يوصل إلى قتلهم إلا بقتل الأسارى لم يجز قتلُهم ، فإن أفضى الكفّ عنهم إلى الإحاطة بالمسلمين ، توصّلوا إلى الخلاص منهم كيف أمكنهم وتحرّزوا أن يعمِدوا قتلَ مسلم ؛ ويجوز عَقْرُ خيلهم من تحتهم إذا قاتلوا عليها ؛ ومنع بعض الفقهاء من عقرها . وليس لأحد من المسلمين أن يعقر فرس نفسه ؛ لأن الخيل من القوّة التى أمر الله تعالى بإعدادها فى جهاد عدوّه . قال الله تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ) . ولا احتجاجَ بعقر جعفر بن أبى طالب فرسه يوم مُؤْتَة ؛ فإنه اقتحم بفرس له شقراء حتى التحم القتال ثم نزل عنها وعقرها وقاتل حتى قُتل رضى الله عنه ، وهو أوّل رجل من المسلمين عقر فرسه فى الإسلام ، وهو إنما عقر فرسه بعد أن أُحيط به ، فعقرُه لها خشية أن يتقوى بها المشركون على المسلمين ، فصار عقرها كعقر خيولهم .

والثالث — ما يلزم أميرَ الجيش فى سياستهم . والذى يلزمه فيها عشرةُ أشياءَ : أحدها : حراستُهم من غِرّة يظفَر بها العدوّ منهم ، وذلك بأن يتتبّع المكامنَ فيحفَظها عليهم ويحُوط سوادهم بحرس يأمنون به على نفوسهم ورحالهم[2] ، ليسكنوا فى وقت الدّعة ويأمنوا ما وراءهم فى وقت المحاربة . والثانى : أن يتخيّر لهم موضعَ نزولهم لمحاربة العدوّ ، وذلك أن يكون أوطأ الأرض مكانا وأكثرها مرعى وماء[3] وأحرسها أكنافا وأطرافا ، ليكون أعونَ لهم على المنازلة وأقوى لهم على المرابَطة . والثالث : إعدادُ ما يحتاج الجيش [إليه][1] من زاد وعُلُوفة تُفرّق عليهم فى وقت الحاجة ، لتسكن نفوسهم (٥٩)

---

(١) التكملة من الأحكام السلطانية .

(٢) فى الأصل «رجالهم» والتصويب عن الأحكام السلطانية .

(٣) فى الأصل «ودماء» وهو تحريف ، والتصحيح عن الأحكام السلطانية .

إلى مادة يستغنون بها عن السعى فى تحصيلها، وتتوفّر دواعيهم على منازلة العدو. والرابع: أن يعرف أخبار عدوّه حتى يقف عليها، ويتصفّح أحوالهم [حتى يخبُرها](١) ليسلم من مكرهم ويلتمس الغِرّة فى الهجوم عليهم. والخامس: ترتيبُ الجيش فى مصافّ الحرب، والتعويلُ فى كل جهة على من يراه كفئا [لها، ويتفقدَ الصفوف من الخلل فيها، ويراعىَ كل جهة](٢) يميل العدو عليها بمدد يكون عونا لها. والسادس: أن يقوّى نفوسهم بما يُشعِرُهُم من الظفر ويُخيِّل إليهم من أسباب النصر، ليقلّ العدو فى أعينهم فيكونوا عليه أجرأ. قال الله عز وجل: (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ). والسابع: أن يعِدَ أهلَ الصبر والبلاء منهم بثواب الله إن كانوا من أهل الآخرة، وبالجزاء والنَّفَل من الغنيمة إن كانوا من أهل الدنيا. والثامن: أن يشاوِرَ ذوى الرأى فيما أعضَلَ، ويرجِعَ إلى أهل الحزم فيما أشْكَل؛ ليأمن الخطأ ويسلمَ من الزلل. وقد تقدم ذكر ما فى المَشُورة من البركة والخير. والتاسع: أن يأخذ جيشه بما أوجب الله تعالى من حقوقه وأمر به من حدوده، حتى لا يكون منهم تجوّز فى دين الله [ولا تحيُّف فى حق](٢)؛ فإن من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنْهَوْا جيوشكم عن الفساد فإنه ما فسد جيشٌ قطُّ إلا قذف الله فى قلوبهم الرُّعْبَ وانْهَوْا جيوشكم عن الزنا فإنه ما زنى جيش قط إلا سلّط الله عليهم المُوتَان(٣)

(١) الزيادة عن الأحكام السلطانية ص ٤١.

(٢) التكملة عن الأحكام السلطانية.

(٣) فى الأصل: « ... إلا سلط الله عليهم الوتان والموتان» ولعل كلمة «الوتان» زيدت سهوا من الناسخ، فإنها كلمة مهملة. وقد ورد الحديث فى الأحكام السلطانية خاليا منها كما أوردناه. والموتان (بالضم ويفتح): الموت الكثير الوقوع.

وآنهوا جيوشكم عن الغُلُول (١) فإنه ما غَلّ جيشٌ قطُّ إلا قذف الله الرعبَ فى قلوبهم". وقال أبو الدرداء : يأيها الناس، عَمَلٌ صالحٌ قبل الغزْو فإنما تُقاتلون بأعمالكم. والعاشر : ألّا يُمكّن أحدا من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة ليصرفه (٢) الآهتمام بها عن مصابرة العدوّ وصدقِ الجهاد . رُوى عن نبىّ من أنبياء الله تعالى أنه قال : "لا يغزونّ معى من بَنَى بناءً لم يكمله ولا رجلٌ تزوج آمرأةً لم يدخل بها ولا رجلٌ زرع زرعا لم يحصده (٣) ".

والرابع — ما يلزم المجاهدين معه من حقوق الجهاد . وهو ضربان : أحدهما ما يلزمهم فى حق الله تعالى ؛ والثانى ما يلزمهم فى حق الأمير عليهم .

فأما اللازم لهم فى حق الله تعالى فأربعة أشياء . أحدها : مصابرة العدوّ عند آلتقاء الجمعين بألّا ينهزم عنه مِنْ مثليْه فما دون ذلك . وقد كان الله عز وجل فرض فى أوّل الإسلام على كل مسلم أن يقاتِل عشرةً من المشركين ، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا). ثم خفّف الله عنهم عند قوّة الإسلام وكثرة أهله فأوجب على كل مسلم لاقى العدوّ أن يقاتِل رجلين منهم ، فقال تعالى : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) فحرّم على كل مسلم أن ينهزم من مثليه إلا لإحدى حالتين : إما أن يتحرّف لقتال فيولّى لآستراحة أو لمكيدة ويعود الى قتالهم ؛ وإما أن يتحيّز الى فئة أخرى يجتمع معها على قتالهم . قال الله تعالى :

(١) الغلول : الخيانة فى المغنم .

(٢) كذا بالأصل ، ويظهر أن سياق الكلام يقتضى "فيصرفه" بالفاء .

(٣) كذا فى الأحكام السلطانية ، وفى الأصل : «ولا رجل زرع زرعا ليحصده» .

(وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ) قال : وسواء قرُبت الفئة التى يتحيز إليها أو بعُدت . فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لِفَلِّ(١) القادسيّة حين انهزموا اليه : أنا فئةُ كل مسـلم . ويجوز اذا زادوا على مثليه ولم يجد الى المصابرة سبيلًا أن يُوَلِّىَ عنهم غيرَ متحرّف لقتال ولا متحيزٍ الى فئة. هـذا مذهب الإمام الشافعى رحمــه الله . واختلف أصحابه فيمن عجز عن مقاومة مثليه وأشرف على القتل هل يجوز انهزامه، فقالت طائفة: لا يجوز انهزامه عنهم وإن قتل، للنص . وقالت طائفة أخرى : يجوز أن يولّىَ ناويًا أن يتحرّف لقتالٍ أو يتحيز الى فئة ليسلم من القتل ومن إثم الخلاف ؛ فإنه إن عجز عن المصابرة فلا يعجز عن هذه النية . وقال أبو حنيفة: لا اعتبارَ بهذا التفصيل، والنصّ فيه منسوخ، وعليه أن يقاتل ما أمكنه و ينهزم إذا عجز وخاف القتل . والثانى من حقوق الله تعالى: أن يقصد بقتاله نصرة دين الله تعالى و إبطالَ ما خالفه من الأديان، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . فيكون بهذا الاعتقاد حائزا لثواب الله تعالى ومطيعا له فى أوامره ونصرةِ دينه ومستنصرا على عدوّه [ليستسهل ما يلاقى](٢) فيكون أكثر ثباتا وأبلغ نكاية . ولا يقصد بجهاده استفادة المغنم فيصير من المتكسّبين لا من المجاهدين . والثالث من حقوق الله تعالى : أن يؤدّى الأمانة فيما حازه من الغنائم ولا يغلّ منها شيئا حتى تُقسم بين جميع الغانمين ممن شهد الوقعة وكانوا على العدوّ يدا ، لأن لكل واحدٍ منهم فيها حقا . قال الله تعالى : (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) . والرابع من حقوق الله تعالى : ألّا (٦٠)
يمايل من المشركين ذا قربى ولا يحابى فى نصرة الله تعالى [ ذا مودّة ](٣)، فإن حق الله

(١) قوم فَلّ : منهزمون .

(٢) زيادة من الأحكام السلطانية .

(٣) فى الأصل فى مكان التكملة غير واضح ، وهى عن "الأحكام السلطانية" .

أوجب ونصرة دينه ألزم . قال الله تعالى : ( يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) . نزلت الآية فى حاطِبِ بنِ أبى بَلْتَعَةَ وقد كتب كتابا إلى أهل مكة حين همّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بغزوهم يُعلِمهم فيه بالخبر وأنفذه مع سارَةَ — مولاةٍ لبنى المطلب — فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك، فأنفذ علياً والزبير فى أثرها، فأدركاها وأخذا الكتاب من قرون رأسها، فدعا النبيّ صلى الله عليه وسلم حاطباً فقال : "ماحملك على ما صنعت"؛ فقال : والله يارسول الله إنى لمؤمن بالله ورسوله، ما كفرتُ ولا بدّلت ولكنى آمرؤ ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة وكان لى بين أظهُرِهم أهلٌ وولد فصانعتهم عليهم(1)؛ فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه . على مانذكر ذلك إن شاء الله تعالى مبيّنا فى أثناء السيرة النبوية عند ذكرنا لغزوة الفتح، فتأمله هناك تجده .

وأما مايلزمهم فى حق الأمير عليهم فأربعة أشياء . أحدها : التزام طاعتِه والدخول فى ولايته؛ لأن ولايته عليهم آنعقدت، وطاعته بالولاية وجبت . والثانى : أن يفوّضوا الأمر إلى رأيه ويَكِلوه إلى تدبيره، حتى لاتختلف آراؤهم فتختلف كلمتهم ويفترق جمعهم . قال الله تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) فجعل تفويض الأمر إلى وليّه سبباً إلى حصول العلم وسَداد الأمر . فإن ظهر لهم صوابٌ خَفِىَ عليه بيّنوه له وأشاروا به عليه . والثالث : أن يسارعوا إلى آمتثال أمرِه، والوقوف عند نهيه وزجره، لأنهما من لوازم طاعتِه . فإن توقّفوا عما أمرهم به أو أقدموا على ما نهاهم عنه ورأى تأديبَهم على المخالفة بحسب أفعالهم، فعل .

(١) فى الأصل «فطالعتهم بذلك» وما أثبتناه عن تاريخ الكامل لابن الأثير (ج ٣ ص ١٨٤ طبع مدينة " ليدن ") وعن الطبرى (القسم الأول ص ١٦٢٧ طبع أوربا) وعن السيرة النبوية لابن هشام (ص ٨١٠ طبع أوربا) وعن شرح القسطلانى فانه بعد أن شرح رواية البخارى لحديث فى كتاب الجهاد قال « وفى رواية ابن إسحاق : وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم » .

ولا يُغَلِّظ فينفِّر . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ). والرابع : أَلّا ينازعوه فى الغنائم إذا قسَمَها فيهم، ويتراضَوْا به بعد القسمة. والخامس من أحكامها : مصابرة الأمير على قتال العدوّ ما صَبَر و إن تطاولت به المدّة . ولا يولّى عنهم وفيه قوّة . قال الله تعالى : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . قيل فى تأويل هذه الآية : اصبروا على الجهاد، وصابِروا العدوّ، ورابِطوا بملازمة[1] الثغر. فإذا كانت مصابرة القتال من حقوق الجهاد فهى لازمة حتى يظفَرَ بخَصلة من أربع خصال :

إحداهن — أن يُسْلِموا فيصيرَ لهم بالإسلام ما لنا وعليهم ما علينا، ويُقَرّوا على ما ملكوا من بلاد وأموال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُمِرتُ أن أُقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إلهَ إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا منى دماءهم وأموالَهم إلا بحقِّها". وتصير بلادهم إذا أَسْلموا دار إسلام يجرى عليها حكم الإسلام . ولو أَسْلم منهم فى معركة الحرب طائفةٌ، قلّت أو كثرت، أحرزوا بالإسلام ما ملكوا فى دار الحرب من أرض ومال . فإن ظُهِر على دار الحرب لم تُغْنَم أموالُ من أسلم . وقال أبو حنيفة : يُغْنَم ما لا يُنْقَل من أرض ودار، ولا يُغْنَم ما ينقل من مال ومتاع .

والخصلة الثانية — أن يُظَفِّره[2] الله تعالى بهم مع مُقامِهم على شِرْكهم، فيسبي دراريهم ويغنم أموالهم ويقتل من لم يحصل فى الأسر[3] منهم . ويكون مخيَّراً فى الأَسْرَى

(١) كذا فى الأحكام السلطانية؛ وفى الأصل : «ورابطوا ملازمة الثغر» .

(٢) كذا فى الأحكام السلطانية؛ وهو الذى يستقيم به الكلام . وفى الأصل : «ان ظفره الله...» .

(٣) كذا فى الأحكام السلطانية؛ وهو الذى يلتئم مع ما بعده . وفى الأصل : «من لم يحصل فى القتل ...» .

فى ٱستعمال الأصلح من أربعة أمور . أحدها : أن يقتلهم صَبْراً بضرب العُنُق . والثانى : أن يسترقّهم ويُجْرِى عليهم أحكام الرِّقّ من بيع أو عتق . والثالث : أن يُفادِىَ بهم على مال أو أسرى . والرابع : أن يَمُنّ عليهم ويعفوَ عنهم . قال الله تعالى : ( فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ) معناه ٱلأسر(١) . ثم قال : ( فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ) .

والخصلة الثالثة — أن يبذُلوا مالًا على المسالمة والموادعة ، فيجوز أن يقبله منهم ويوادعَهم عليه . وهو على ضربين . أحدهما : أن يبذلوه لوقتهم ولا يجعلوه خَرَاجًا مستمرًا . فهذا المال غنيمة لأنه مأخوذ بإيجافِ خيلٍ ورِكَاب ، فيُقَسَّم بين الغانمين ، ويكون ذلك أماناً لهم فى ٱلآنكفاف(٢) عن قتالهم فى هذا الجهاد ، ولا يمنع من جهادهم فيما بعد . والضرب الثانى : أن يبذلوه فى كل عام ، فيكون خراجا مستمرا ، ويكون الأمان به مستقرا . والمأخوذ منهم فى العام الأوّل غنيمة تُقسم بين الغانمين ، وما يؤخذ فى الأعوام المستقبلة يُقسم فى أهل الفيء . ولا يجوز أن يعاود جهادهم ما كانوا مقيمين على بَذْل المال ، لاستقرار الموادَعة عليه . وإذا دخل أحدهم إلى دار الإسلام ، كان له بعقد الموادعة الأمان على نفسه وماله . فإن منعوا المال زالت الموادعة وآرتفع (٦٦) الأمان ولزم(٣) الجهاد كغيرهم من أهل الحرب . وقال أبو حنيفة : لا يكون منعهم من مال الجزية والصلح نقضا لأمانهم ، لأنه حق عليهم فلا ينتقض العهد بمنعهم منه كالديون .

---

(١) فى الأصل : «معناه بالأسر» بزيادة الباء .

(٢) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل : « فى الانكفاء ... » .

(٣) فى الأصل : « ولزوم الجهاد ... » وهو تحريف ، والتصويب عن الأحكام السلطانية .

والخصلة الرابعة — أن يسألوا الأمان والمهادنة؛ فيجوز اذا تعذّر الظفر بهم وأخذُ المـالِ منهم أن يهادنهم على المسالمة فى مدّة مقدّرة تعقد الهدنة [عليها اذا كان الامام قد أذن له فى الهدنة][1] أو فوّض اليه الأمر. فقـد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً عام الحُدَيْبِيَة عشرَ سنين. ويقتصر فى مدّة الهدنة على أقلّ ما يمكن، ولا يجاوز بأكثرها عشرَ سنين. فإن هادنهم أكثر منها بطلت الهدنة فيما زاد عليها، ولهم الأمان فيهـا الى انقضاء مدّتها لا يُجَاهَدون فيها من غير إنذار. [فإن نقضوه صاروا حَرْباً يُجَاهَدون من غير إنذار][1] فقد نقضت قريش صلح الحديبية، فسار اليهم رسول الله صلى الله عليـه وسلم عام الفتح محاربا. وإذا نقضوا عهدهم فلا يجوز قتل من فى أيدينـا من رهائنهم. وقد نقض الرومُ عهـدهم فى زمان مُعاوِيةَ وفى يده رهائن فامتنع المسلمون جميعا من قتلهم وخلّوا سبيلهم وقالوا: وَفَاءٌ بغَدْرٍ خيرٌ من غدر بغدر. وإذا لم يجز قتل الرهائن لم يجب إطلاقهم[2] ما لم يحاربوا. فإن حاربونا وجب إطلاقُ رهائنهم وإبلاغُ الرجلِ منهم مَأْمنهم وإيصالُ النساء والأطفال والذرارى الى أهليهم.

ويجوز أن يشترط لهم فى عقد الهدنة ردّ من أسلم من رجالهم اليهم. فإذا أسلم أحدهم رُدّ اليهم إن كانوا مأمونين على دمه، ولم يُرَدَّ اليهم[3] إن لم يؤمَنوا عليه. ولا يشترط ردُّ من أسلم من نسائهم، لأنهنّ ذوات فروج محرّمة. فإن شُرط ردّهن لم يجز أن يُرْدَدْنَ[4]؛ ودُفع الى أزواجِهنّ مهورُهنّ اذا طَلَبْنَ.

ولا تجوز المهادنة لغير ضرورة تدعو الى عقدها، وتجوز الموادعة أربعـة أشهر فمـا دونها ولا يزيد عليها.

---

(١) التكملة من الأحكام السلطانية.

(٢) فى الأحكام السلطانية «لم يجز إطلاقهم ...».

(٣) كذا فى الأحكام السلطانية. وفى الأصل: «ولم يردّ عليهم ...».

(٤) فى الأصل: «لم يجز أن يردوا» ومرجع الضمير مؤنث.

وأما الأمان الخاص فيصح أن يبذله كل مسلم من رجل وآمرأة وحر وعبد؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : "المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم" يعنى عبيدهم . وقال أبو حنيفة : لا يصح أمان العبد إلا أن يكون مأذونا له فى القتال .

والسادس من أحكامها — السيرة فى نزال العدو وقتاله . يجوز لأمير الجيش فى حصار العدو أن ينصب عليهم العرادات⁽¹⁾ والمجانيق . فقد نصب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الطائف منجنيقا . ويجوز أن يهدم عليهم منازلهم ، و يضع عليهم البيات والتحريق . واذا رأى فى قطع نخلهم وشجرهم صلاحا ليظفر بهم عنوة أو يدخلوا فى السلم صلحا لما ينالهم من الضعف ، فعل . ولا يفعل إن لم ير فيه صلاحا . فقد قطع النبي صلى الله عليه وسلم كروم أهل الطائف فكان سببا لإسلامهم ، وأمر فى حرب بنى النضير بقطع نوع من النخل يقال له الأصفر يرى نواه من وراء اللحاء ، وكانت النخلة منها أحب اليهم من الوصيف⁽²⁾ ، فحزنوا لقطعها ، وجاء المسلمون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله تعالى : (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ⁽³⁾ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) . ويجوز أن يعور⁽⁴⁾ عليهم المياه ويقطعها عنهم وإن كان فيهم النساء والأطفال ؛ لأنه من أقوى أسباب ضعفهم والظفر بهم . واذا آستسقى⁽⁵⁾ منهم عطشان فالأمير مخير فى سقيه أو منعه . ومن قتل منهم واراه عن الأبصار ولم يلزم تكفينه . ولا يجوز أن يحرق بالنار منهم حيا ولا ميتا . روى عن النبي صلى الله عليه

(١) العرادات : واحدها : عرادة وهى أصغر من المنجنيق ترمى بالحجارة المرمى البعيد .
(٢) الوصيف : العبد . (٣) اللينة : واحدة اللين وهو كل شىء من النخل سوى العجوة .
(٤) عور الماء : سده . (٥) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل « ولم يكره » .

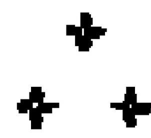
وسلم أنه قال : "لا تعذبوا عبادَ الله بعذابِ الله" وقد أحرق أبو بكر الصديق رضى الله عنه قوما من أهل الردّة . قال المـاوردى : ولعل ذلك كان منه والخبرُ لم يبلغه. ومَن قُتِل من شهداء المسلمين زُمّل فى ثيابه ودُفِنَ ولم يُغسَّل ولم يُصلَّ عليـه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهداء أُحُدٍ : "زمِّلوهم بكُلُومِهم فإنهم يُبعثون يوم القيامة وأوداجُهم تشخُبُ دمًا اللونُ لونُ الدَّمِ والريحُ رِيحُ المِسْكِ". وإنما فُعل ذلك بهم مكرُمَةً لهم وإجراءً لحكم الحياة عليهم . قال الله تعالى : ( وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ) . ولا يمنع الجيشَ فى دار الحربِ من أكل طعامِهم وعُلوفة دوابِّهم غيرَ محتَسِبٍ به عليهم . ولا يتعدَّوا القُوت والعُلوفة الى ما سواهما من ملبوس ومركوب . فإن دعتهم الضرورةُ الى ذلك، كان ما لَبِسوه أو ركِبوه أو استعملوه، مُسْتَرجَعًا منهم فى المَغْنم إن كان باقيا، ومُحتَسَباً عليهم من سهمهم إن كان مستهلَكا . ولا يجوز لأحد منهم أن يطأ جاريةً من السَّبْي إلا بعد أن يُعْطَاها بسهمه فيطأها بعد الاستبراء . فإن وطئها قبل القسمة عُزِّر ولا يُحدّ، لأن له فيها سهما؛ ووجب عليـه مهرُ مثلها يُضاف الى الغنيمة . فإن أحبلها لَحِق به ولدُها وصارتْ أمَّ وَلَدٍ له إن مَلَكها . وإن وَطِئ من لم تدخل فى السبى حُدّ، لأن وَطْأها زِنًا؛ ولم يَلْحق به ولدُها إن علِقتْ .

(٦٢)

وإذا عُقِدت هذه الإمارة على غَزَاة واحدة، لم يكن لأميرها أن يغزو غيرها سواء غَنِم فيها أو لم يغنَم . وإذا عُقِدت عموماً عاماً بعد عامٍ لزِمه معاودةُ الغزو فى كل وقت يقـدِر على الغزو فيه، ولا يفتُر عنه مع ارتفاع الموانع إلا قدرَ الاستراحة . و [ أقل ما يجزيه أن ] (١) لا يعطِّل عاماً من جهاد .

(١) زيادة من الأحكام السلطانية .

ولهذا الأمير، اذا فُوِّضتْ اليه الإمارة على المجاهدين، أن ينظر فى أحكامهم ويُقيم الحدودَ عليهم وسواء من آرتزق منهم أو تطوّع . ولا ينظر فى أحكام غيرهم ما كان سائرا الى ثغره . فإذا آستقرّ فى الثغر الذى تقلّده، جاز أن ينظر فى أحكام جميع أهله من مُقَاتِلة ورعيّة . وإن كانت إمارته خاصة أُجرِىَ عليها حكمُ الخصوص .



وأما وصايا أمير الجيش — قال الحليمىّ: ويُوصِى الإمامُ أميرَ السريّة والجند بتقوى الله وطاعته والآحتياط والتيقُّظ، ويحذِّرُهم الشَّتَاتَ والفُرقة والإهمال والغفلة. ويأخذ على الجند أن يسمعوا ويُطيعوا أميرهم ولا يختلفوا عليه وينصحوا له؛ ولا يخذل[(١)] بعضهم بعضا، وإن أظفرهم الله على العدوّ لا يَغُلُّوا ولا يخونوا، ولا يَعقِروا من دوابّ المشركين التى لا تكون تحتهم، ولا يقتلوا آمرأةً لا تقاتلهم ولا وليدا، وأنهم إن وصلوا إلى قرية لا يدرون حالها، أمسكوا عنها وعن أهلها ولا يُبيِّتونهم ولا يَشُنُّون الغارةَ عليهم حتى يَعلموا حالَهم؛ إلى غير ذلك من الآداب التى يحتاجون إلى معرفتها مما يلزم ويحلّ أو يحرُم من أمر القتل والأسر والمغنم والقَسْم وعزْل الخُمُس ومن يُسهَم له أولا يُسْهَم ومن يُرضَخ [له][(٢)]، والفرقِ بين الفارس والراجل ونحو ذلك .

وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الجرّاح أنه بلغنى أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشا أو سريّةً قال : "باسم الله وفى سبيل الله تقاتلون مَنْ كفر بالله لا تَغُلُّوا ولا تغدُروا ولا تُمَثِّلُوا ولا تقتُلوا آمرأةً ولا وليدا". فإذا بعثت جيشا أو سريّة فَمُرْهم بذلك .

(١) يخذل : يجوز أن يقرأ بتخفيف الذال فيكون من الخذلان، وبتشديدها فيكون من التخذيل . والخذلان : ترك النصرة . والتخذيل : التثبيط والحمل على ترك النصرة .

(٢) يقال : رضخ له من ماله اذا أعطاه عطية قليلة . فالزيادة التى وضعناها تقتضيها اللغة .

وقال أبو بكر الصّدّيق رضى الله عنه لخالد بن الوليد حين وجّهه لقتال أهل الرِّدّة : سِرْ على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدًا من الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، وآستظهر بالزاد ، وسر بالأدلّاء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، وآحترس من البَيَات فإن فى العرب غِرّة ، وأقلِلْ من الكلام فإنما لك ماوُعِىَ عنك ، واقبل من الناس عَلَانِيَتهم وكِلْهم إلى الله فى سريرتهم ؛ وأستودعُك الله الذى لا تضيع ودائعه .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عند عَقْد الألوية : باسم الله وبالله وعلى عون الله ، أُمضوا بتأييد الله والنصر ولزومِ الحق والصبرِ ، فقاتِلوا فى سبيل الله مَنْ كفر بالله ، ولا تعتدُوا إن الله لا يحبّ المعتدين . ولا تجبُنُوا عند اللّقاء ، ولا تُمَثِّلُوا عند القدرة ، ولا تُسْرِفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هَرِمًا ولا آمرأةً ولا وليدا ، وتَوَقَّوْا قتلَهم إذا آلتقى الزَّحْفان وعند شَنِّ الغارات .

وكتب عمر الى سعد بن أبى وَقَّاص ومن معه من الأجناد : أما بعد فإنى آمرُك ومَنْ معك بتقوى الله على كلِّ حال ، فإن تقوى الله أفضلُ العُدّة على العدو وأقوى المَكِيدة فى الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ آحتراسًا من المعاصى منكم من عدوّكم ؛ فإن ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم ، وإنما يُنْصَرُ المسلمون بمعصية عدوّهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا قوّةٌ بهم ؛ لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عُدّتُنا كعدّتهم . فإن آستَوَيْنا فى المعصية كان لهم الفضلُ علينا فى القوّة . وإلّا نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نغلبْهم بقوّتنا . وآعلموا أن عليكم فى مَسِيركم حَفَظَةً [من](١) الله يعلمون ماتفعلون ، فاستَحْيُوا منهم . ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله . ولا تقولوا إن عدوّنا شرٌّ منا فلن يُسَلَّطَ علينا وإن أسأنا ؛ فرب قومٌ قد سُلِّطَ عليهم شرٌّ منهم كما سُلِّطَ على بنى

(١) زيادة من العقد الفريد .

إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرةَ المجوس ( فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولا ) . واسألوا الله العونَ على أنفسكم كما تسألونه النصرَ على عدوّكم . أسألُ الله ذلك لنا ولكم . وترفّق بالمسلمين فى مسيرهم ، ولا تُجشّمهم مسيرًا يُتعبهم ، ولا تُقصّر بهم عن منزل يَرفُق بهم ، حتى يبلغوا عدوّهم والسفرُ لم يَنقُص قوّتَهم(١) ؛ فإنهم سائرون إلى عدوّ مُقيم حامى الأنفس والكُراع(٢) . وأقم بمن معك فى كل جمعة يومًا وليلة حتى تكون لهم راحة يُجِمّون(٣) فيها أنفسَهم ويَرُمّون(٤) أسلحتهم وأمتعتهم . ونَحِّ منازلَهم عن قُرَى أهل الصلح والذمّة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزأ(٥) أحدًا من أهلها شيئا ، فإن لهم حرمةً وذمّةً ابتُلِيتم بالوفاء بها كما ابتُلُوا بالصبر عليها ، فما صبَروا لكم فَفُوا لهم(٦) . ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطئتَ أدنى أرض العدوّ فأذكِ(٧) العيون بينك وبينهم ، ولا يَخفَ عليك أمرُهم . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكَذوبَ لا ينفعك خبره وإن صدق فى بعضه ، والغاشّ عينٌ عليك وليس عينًا لك . وليكن منك عند دنوّك من أرض العدوّ أن تُكثِر الطلائعَ وتُبثَّ السَّرايا بينك وبينهم [فتقطع السرايا أمدادَهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائعُ عوراتِهم](٨) . وانتقِ للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، (٦٣)

(١) كذا فى العقد الفريد ، وفى الأصل : «لا ينقص» . (٢) الكراع : الخيل .

(٣) يجمون أنفسهم : يتركونها لترتاح وتقوى . (٤) يرمون : يصلحون .

(٥) « ولا يرزأ » فى الأصل غير معجمة ، وأثبتناها بالياء طبقا لما فى العقد الفريد ، على أن تكون معطوفة على صلة الموصول قبلها . ويحتمل أن تكون بتاء الخطاب .

(٦) فى العقد الفريد : «فما صبروا لكم فتولوهم خيرا» .

(٧) إذكاء العيون والطلائع : بثها .

(٨) هذه الجملة التى بين القوسين وردت فى الأصل هكذا : « فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع بالطلائع عوراتهم » وفى بعض هذه الكلمات تحريف جعل الجملة غير مستقيمة ، فأثبتناها كما وردت فى العقد الفريد (ج ١ ص ٥٠) .

وتخيَّرْ لهم سوابقَ الخيل، فإنْ لقُوا[1] عدوّا كان أوّل ما تلقاهم القوّة من رأيك . وآجعل أمرَ السَّرَايا الى أهل الجهاد والصبرِ على الجلاد[2]، ولا تخُصَّ بها أحدًا بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر ممـا حابيت به أهـل خاصّتك . ولا تبعَثْ طليعةً ولا سريّةً فى وجهٍ تَخوّفُ عليها فيـه ضيعةً ونِكاية . فإذا عاينتَ العدوّ فاضمُمْ اليـك أقاصيَك وطلائعك وسراياك، وآجمـع إليك مَكِيدتك وقوّتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، مالم يستكرهك قتـال[3]، حتى تُبصِر عورةَ عدوّك ومَقَاتله، وتعـرِفَ الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنعَ بعدوّك كصنيعه بك . ثم أذكِ أحراسك على عسكرك، وتحفَّظْ من البيات جهدك . ولا تُؤْتَى بأسير ليس له عهدٌ إلا ضربت عنقه، لتُرْهِب بذلك عدوّك وعدوّ الله . والله وليّ أمرك ومن معك، ووليّ النصر لكم على عدوّكم؛ والله المستعان .

وأوصى عبد الملك بن مروان أميرًا سيَّره الى أرض الروم فقال : أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكَيِّس الذى إن وَجَد ربحا تَجَرَ، وإلّا تحفَّظ برأس المال؛ ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة؛ وكن من آحتيالك على عدوّك أشـد حذرا من آحتيال عدوّك عليك .

وكان زِيَاد بن أبيه يقول لقوّاده : تجنَّبُوا آثنتين لا تقاتلوا فيهما العدوّ : الشتاء، وبطون الأودية .

وكان قُتَيْبـة بن مسلم يقول لأصحابه : اذا غَزَوْتم فأطيلوا الأظفار، وقَصِّروا الشعور، وآلحَظُوا الناسَ شَزْرا، وكلِّموهم رَمْزا، وآطعَنُوهم وَخْزًا .

---

(١) كذا فى العقد الفريد، وفى الأصل : «وإن لقوا ...» .

(٢) فى الأصل : «أهل السرايا ...» والتصويب عن العقد الفريد

(٣) كذا فى العقد الفريد، وفى الأصل : «مالم يستكرهوك القتال»

وكان أبو مسلم الخُرَاسانىّ صاحبُ الدعوة يقول لقوّاده : أَشْعِروا قلوبَكم الجُرْأةَ فإنها من أسباب الظَّفَر، وأَكْثِرُوا ذكرَ الضغائن فإنهـا تبعث على الإقدام، وآلْزَموا الطاعةَ فإنها حِصْن المحارب .

وقالت الحكماء : لا تستصغِرَنّ أمرَ عدوّك اذا حاربتَـه، لأنك إن ظَفِرت به لم تُحْمَد وإن ظَفِر بك لم تُعْذَر، والضعيفُ المحترِس من العدوّ القوىّ أقربُ الى السلامة من القوىّ المغترّ بالضعيف .

## ذكر ما يقوله قائد الجيش وجنده
## من حين يُشاهدُ[1] العدوَّ الى آنفصال الحرب والظفر بعدوّهم

قال الشيخ أبو عبد الله الحسين الحَلِيمىّ فى منهاجه : اذا مضى الجيش باسم الله فلَقُوا العدوّ فليتعوّذوا بالله تعالى، وليقولوا : اللّٰهم إنا ندرأ[2] بك فى نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم . فإذا قاتلوا فليقولوا : اللهم بك نصول ونجول . وليقولوا : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) . وليقولوا : اللّٰهم مُنَزِّلَ الكتابِ وسريعَ الحساب هازمَ الأحزاب، اللهم آهزِمْهم وزلزلهم . وإن حَصَبُوهم فليقولوا : "شاهتِ الوُجُوه" . وإن رمَوْهم فليقولوا : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا) . وإن بيّتهم العدوّ فليكن شـعارُهم (حمٓ) لا يُنْصَرون (حمٓ عسٓقٓ) يفرّق أعداء الله، وبلغتْ حجة الله، ولا حَوْلَ ولا قوّةَ إلا بالله . وليقولوا إذا دخل العدوّ ديارَهم : (ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا) . وليقولوا اذا صافّوهم : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) . وليقولوا :

(١) فى الأصل : «من حيث» وظاهر أن السياق يقتضى ما أثبتنا .

(٢) فى الأصل «انا ندروك ...» وهو تحريف . ومنه الحديث — كما فى نهاية ابن الأثير فى مادة (درأ) — : «اللهم إنى أدرأ بك فى نحورهم» .

(فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين). وليقولوا: (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب). وليقولوا: (سيهزم الجمع ويولون الدبر). وليقولوا: (فكفروا به فسوف يعلمون) (إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون). وإن صبحوا دارهم فليقولوا: الله أكبر، هزم العسكر، إذا نزلنا ساحة قوم (فساء صباح المنذرين). وإن بيتوهم فليقولوا: (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون). وإن جاءوهم نهاراً فليقولوا: (أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون). وليقولوا فى عامة أحوالهم وأوقاتهم: (حسبنا الله ونعم الوكيل). وليقولوا: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً). (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً). وإن كان العدو يهوداً فليقل المسلمون فى وجوههم: (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا). وليقولوا:
(٦٢) (فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين). وليقرءوا المعوذتين غدوة وعشياً. وإن وقعت هزيمة فتبعهم العدو فليتحصنوا منهم بقراءة قوله تعالى: (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً). (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون). وإن هزموا العدو فليقولوا على آثارهم: (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين). وليقولوا: (ما لكم من ملجإ يومئذ وما لكم من نكير). وإن لج العدو وثبتوا فليقولوا: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار). وليقولوا: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار). وليقولوا: (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال

البعيد) . وليقولوا : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا). وليقولوا : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وليقولوا : (وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما) . وليقولوا : (ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون). وليقولوا : (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين). وليقولوا إذا حملوا على العدو : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) . (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين) . وليقولوا : (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) . وليقولوا : (أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) . وليقولوا : (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) . وليقولوا : (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا) . وليقولوا : (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) . وإن حمل العدو عليهم فليقولوا لأنفسهم : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة). وليقولوا : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون). وإذا دنوا منهم فليقولوا : (انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون). وليقولوا : (فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا) . وليقولوا : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب) . وليقولوا : (الله الذي جعل لكم الأرض قرارا). وإن لحق العدو مدد فليقل المسلمون : (لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون). وليقولوا :

(وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) . وإن لحق المسلمين مدد فليقولوا : (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) . وإذا تحصنوا من العدو بموضع فليقولوا إن قصدوهم : (فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) . وليقولوا : (فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) . وإن تحصن العدو منهم بموضع فليقولوا إن قصدوه : (فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا) . وليقولوا : (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) . وليقولوا إذا خافوهم : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) . وليقولوا : (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا) . وليقولوا : (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) . وليقولوا : (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار) . وليقولوا : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) . وليقولوا : (وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) . وإن حاصروا العدو وأحدقوا بهم فليقولوا : (إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا) . وليقولوا : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) . وإن حاصرهم العدو وأحاط بهم فليقولوا : (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) . وليقولوا : (ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين) . وليقولوا : (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني

كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) . وإن رماهم العدو بالنار فليقولوا : (يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم (٦٥) الأخسرين) . (فأنجاه الله من النار) . وليقولوا : الله أكبر ، الله ربنا ، ومحمد نبينا ، وأنت يا نار لغيرنا . وليقولوا : (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) . وإن رموا العدو بالنار فليقولوا معها : (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) . وليقولوا : (ذوقوا مس سقر) . وليقولوا : (فسحقا لأصحاب السعير) . (وذوقوا عذاب الحريق) . وليقولوا : (إنها لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى) . وليقولوا : (ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) . وإن رموا العدو بالمنجنيق فليقولوا : (جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد) . وإن رماهم العدو بالمنجنيق فليقولوا : (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) . وليقولوا : (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) . وليقولوا : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) . وإذا دخلوا أرض العدو فليقولوا : باسم الله (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) . (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما) . ويقولوا إذا كانت الريح تصفق في وجوه العدو : (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) . وإن كانت الريح تهب على وجوه المسلمين فليقولوا : (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) . (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته) ،

ويقولوا: "اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا"، ويقولوا: اللهم إنا نسألك من خير ما تأتى به الرياح، ونعوذ بك من شر المساء والصباح. وإن بارز مسلم مشركا فليقرأ عليه: (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ). وليقل: (فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ). وليقل: (فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا). وإذا التقى الصفّان فليدْعُ أميرُ السريّةِ ويسألِ اللهَ النصرَ والفتحَ ويؤمِّنِ الناسُ على دعائه؛ فإنها من ساعات الإجابة.

---

## ذكر ما قيل فى المكيدة والخداع فى الحروب وغيرها

رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الْحَرْبُ خَدْعَةٌ"(1). وكان صلى الله عليه وسلم إذا غزا أخذ طريقا وهو يريد أُخرى، ويقول: "الحرب خدعة".

وكان مالك بن عبد الله الخثعمىّ وهو على الصائفة(2) يقوم فى الناس، إذا أراد أن يرحل، فيحمَدُ الله ويُثنى عليه، ثم يقول: إنى داربٌ بالغداة دَرْبَ كذا؛ فتتفرّق الجواسيس عنه بذلك، فإذا أصبح سلك بالناس طريقا غيرها. فكانت الروم تسمّيه الثعلب.

وقال المُهلَّب لبنيه: عليكم فى الحرب بالمكيدة، فإنها أبلغ من النجدة.

وسئل بعضُ أهل التمرّس بالحروب: أىُّ المكايد فيها أحزم؟ فقال: إذكاءُ العيون(3)، وإفشاءُ الغَلَبة، واستطلاعُ الأخبار، وإظهارُ السرور، وإماتةُ الفَرَق،

---

(1) فى النهاية لابن الأثير «... يروى بفتح الخاء وضمها مع سكون الدال، وبضمها مع فتح الدال فالأول معناه أن الحرب ينقضى أمرها بخدعة واحدة من الخداع أى أن المقاتل اذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة، وهى أفصح الروايات وأصحها، ومعنى الثانى هو الاسم من الخداع، ومعنى الثالث أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تفى لهم كما يقال: فلان رجل لعبة وضحكة أى كثير اللعب والضحك».

(2) الصائفة: الجماعة تقام وتصف للحرب. (3) إذكاء العيون: بث الجواسيس.

والاحتراسُ من البِطانة، من غير إقصاءٍ لمستنصِحٍ ولا استنصاحٍ لمستغِشٍّ[1]، وإشغالُ[2] الناس عما هم فيه من الحرب بغيره .

وقال حكيم : اللُّطْفُ في الحيلة، أجدى للوسيلة . وقيل : من لم يتأمَّل الأمر بعين عقله لم يقع سيفُ حيلته إلا على مَقَاتله، والتَّثَبُّتُ يسهِّل طريق الرأى إلى الإصابة، والعجلة تضمن العَثْرة .

ويقال : إن سعيد بن العاص صالَحَ أهلَ حِصْن من حصون فارس على ألَّا يقتل منهم رجلًا واحدًا، فقتلهم كلَّهم إلا رجلًا واحدًا .

وقيل : لما أُتِى بالهُرْمُزَان أسيرًا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قيل له : يا أمير المؤمنين، هذا زعيم العجم وصاحب رُسْتُم[3]؛ فقال له عمر رضى الله عنه : أَعرِضُ عليك الإسلام نُصْحًا لك في عاجلك وآجلك؛ فقال : إنما أعتقد ما أنا عليه ولا أرغب في الإسلام رهبة؛ فدعا عمر بالسيف، فلما همّ بقتله، قال : يا أمير المؤمنين، شربةٌ من ماءٍ هى أفضل من قتلى على الظمأ؛ فأمر له بشربة من ماء؛ فلما أخذها الهرمزان قال : يا أمير المؤمنين، أنا آمنٌ حتى أشربها؟ قال : نعم؛ فرمى بها وقال : الوفاءُ يا أمير المؤمنين نورٌ أبلج؛ قال : صدقتَ، لك التوقُّف عنك والنظرُ فيك، ارفعا عنه السيف؛ فقال : يا أمير المؤمنين، الآن أشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وما جاء به حق من عنده؛ فقال عمر : أسلمت خير إسلام، فما أخّرك ؟ قال : كرِهت أن يُظَنَّ بى أنى إنما أسلمت خوفًا من السيف؛ فقال عمر : أَلَا إنّ لأهل فارس عقولًا استحقّوا بها ما كانوا فيه من الملك، ثم أمر ببرّه وإكرامه .

(١) فى الأصل : «من غير إقضاء ..» .   (٢) فى الأصل : «واشتغال الناس ...» .

(٣) هو رستم بن فرخزاد، كان من أعظم رجال فارس وقائد جيوش يزدجرد ملك ساسان فى وقعة القادسية التى انتصر فيها المسلمون حينا أرسل سعد بن أبى وقاص لفتح ايران فى خلافة عمر رضى الله عنه . وقد قتل رستم فى هذه الوقعة .

(٦٦) ونظير هذه القصة ما فعل الأسير الذى أُتى به الى مَعْن بن زائدة فى جملة الأَسْرَى فأمر بقتلهم، فقال : أتقتل الأسرى عِطاشًا يامعن؟ فأمر بهم فسُقُوا، فلما شربوا قال : أتقتل أضيافك يامعن؟ فخلّى عنهم .

ومن المكايد المشهورة حكاية قَصِيرٍ مع الزَّبَّاء، وسنذكرها إن شاء الله فى التاريخ فى أخبار ملوك العرب، وواقعةُ ملك الهياطلة مع فَيْرُوزَ بن يَزْدَجِرْد، ونذكرها أيضا فى أخبار ملوك الفرس .

ومن المكايد خبر عمرو بن العاص والمُغِيرة بن شُعْبة مع مُعَاوية بن أبى سُفْيان، وكان معاوية قد كتب اليهما واستقدم عمرًا من مصر والمغيرةَ من الكوفة، فقال عمرو للمغيرة : ما جمَعَنا إلا ليعزلنا، فإذا دخلتَ عليه فاشْكُ الضعفَ واستأذنه أن تأتى الطائف أو المدينــة، وأنا اذا دخلتُ عليه سأسأله ذلك فإنه يظن أنا نريد أن نُفسد عليــه. فدخل المغيرة على معاوية فسأله أن يُعفيه فأذن له، ودخل عليه عمرو وسأله ذلك، فقال معاوية : قد تواطأتما على أمر وإنكما لتريدان شرًّا، ارجعا الى عمليكما.

وكتب المغيرةُ بن شُعبة إلى معاوية حين كَبِر وخاف العزل : أما بعد، فإنه قد كَبِرت سِنِّى، ودَقَّ عظمى، وقرُب أجلى، وسفَّهنى رجالُ قُرَيش، فرأىُ أمير المؤمنين فى عمله مُوَفَّق . فكتب اليه معاويةُ : أمّا ما ذكرتَ من كِبَر سنّك، فإن سنّك أكلت عمرك . وأما اقترابُ أجلك، فإنى لو كنتُ أستطيع أن أدفع المنيَّةَ عن أحد لدفعتها عن آل أبى سُفيان . وأما ما ذكرتَ من العمل ف * ضَحِّ قليلًا يُدْرِكِ الهيجا حَمَلْ (١) * وأمّا ماذكرتَ من سفهاء قريش، فإنّ حلماء قريش أنزلوك هذا المنزل. فاستأذنَ معاويةَ

---

(١) وكذا فى اللسان . وضحِّ قليلا : تأنَّ قليلا ولا تعجل . وهو شطر بيت ورد فى شرح القاموس هكذا :

لبِّث قليــلا يلحق الهيجا حمــل * ما أحسن الموت اذا حان الأجل

وقائل البيت حمل بن بدر، وقيل حمل بن سعدانة الصحابى .

فى القدوم فأذن له ؛ فلما وصل اليه قال له معاوية : كَبِرت سنك، وآقترب أجلك، ولم يبق منك شىء، ولا أظنّنى إلا مستبدلًا بك. قال : فآنصرف والكآبة تُعْرف فى وجهه ؛ فقيل له : ما تريد أن تفعل ؟ فقال : ستعلمون ذلك . ثم أتى معاوية (١) فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الأنفس يُغْدَى عليها ويُرَاح ، ولستَ فى زمن أبى بكر ولا عمر، وقد آجترح الناس، ولو نصبتَ لنا علَمًا من بعدك نصير اليه! مع أنى كنت قد دعوتُ أهلَ العراق الى يزيد فركَنُوا اليه حتى جاءنى كتابك ؛ قال : يا أبا محمد، انصرف الى عملك فأحْكِمْ هذا الأمر لآبن أخيك، وأعاده على البريد يركُض .

وقيل : جاء بَازِيَارٌ (٢) لعبد الله بن طاهر فأعلمه أن بازيًا له آنحط على عُقَاب له فقتلها ؛ فقال : اِذْهَبْ فآقطف رأسه ، فإنى لا أُحبّ الشىء أن يجترئ على ما فوقه . وأراد أن يبلغ ذلك المأمون فيسكُنَ الى جانبه .

قال الشعبىّ : وجّهنى عبد الملك بن مَرْوان الى ملك الروم، فلما قَدِمتُ عليه ودفعت اليه كتاب عبد الملك ، جعل يسألنى عن أشياء فأُخبره بها، فأقمتُ عنده أياما، ثم كتب جواب كتابى ، فلما آنصرفتُ دفعتُه الى عبد الملك ، فجعل يقرؤه ويتغيّر لونه، ثم قال: ياشعبىّ ، علمتَ ما كتب به إلىّ الطاغية؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، كانت الكتب مختومة ما قرأتها وهى اليك ؛ فقال : إنه كتب إلىّ : إنّ العجب من قوم يكون فيهم مثلُ من أرسلتَ به إلىّ فيملّكون غيره ؛ فقال : قلت يا أمير المؤمنين لأنه لم يرك ؛ قال : فسُرِّىَ عنه ، ثم قال : إنه حسدنى عليك فأراد أن أقتلك .

قال : ولمّا ظَفِرَ الجُنَيْد بن عبد الرحمن — وهو يَلِى خُراسان فى أيام هشام — بصبيح الخارجىّ وبعدّة من أصحابه فقتلهم جميعا إلا رجلًا أعمى [قال هذا الرجل] (٣) أنا أدلّك

(١) تكررت فى الأصل جملة "فقيل له ما تريد أن تفعل" سهوا من الناسخ .
(٢) البازيار : القيم على البزاة أو المتجر بها .
(٣) زيادة يقتضيها السياق .

على أصحاب صبيح وأجازيك على ما صنعتَ ، وكتب له قوما ؛ فأمر الجنيد بقتلهم حتى قُتِـلَ مائة ؛ فقال الأعمى عند ذلك : لعنك الله ياجنيد ! أتزعم أنه يَحِلُّ لك دَمِي وأَنَّى ضالٌّ ثم تَقْبَـلُ قولى فى مائة قتلتَهم! لا! والله ما كتبتُ لك من أصحاب صبيح رجلا، وما هم إلا منكم . فقدّمه الجنيد وقتله .

وكان مُعاوية بن أبى سُفيان من الدُّهاة، وله أخبار فى الدَّهاء تَدُلّ على بُعْد غَوْره وحِدّة ذهنه . فمنها أن يزيد ٱبنه[1] سمع بجمال زينب بنت إسحاق زوج عبد الله بن سَلَّام القرشىّ ، وكانت من أجمل النساء فى وقتها وأحسنهنّ أدباً وأكثرهنّ مالا، فَفُتِنَ بها يزيد؛ فلما عِيلَ صبرهُ ذكر ذلك لبعض خِصْيان أبيه ، وكان ذلك الخَصِىّ خاصًّا بمعاوية وٱسمه رفيق، فذكر رفيق ذلك لمعاوية وقال له : إن يزيد قد ضاق ذَرْعه بها . فبعث معاوية الى يزيد فٱستفسره عن أمره؛ فبثّ له شأنه؛ فقال: مهلا يايزيد؛ فقال له : عَلَامَ تأمرنى بالمهل وقد ٱنقطع منها الأمل؟ فقال له معاوية : فأين مُرُوءتك وحِجَاك [وتُقَاك]؟ فقال: قد عِيلَ الصبرُ، ولو كان أحدٌ [ينتفع فيما يُبْتَلَى] به من الهوى [بتقاه، أو يَدْفَعُ ما أَقْصَدَه بحجاه] لكان أَوْلَى الناس به داود حين ٱبتُلى به؛ فقال : ٱكْتُمْ يابُنَىّ أمرك ، فإن البَوْح به غيرُ نافعك، والله بالغُ أمره فيك، ولا بدّ مما هو كائن .

وأخذ معاوية فى الاحتيال فى تبليغ يزيد مُنَاه، فكتب الى زوجها عبد الله بن سَلَّام، (٦٧) وكان قد ٱستعمله على العراق : أن أقبل حين تنظر كتابى لأمر[2] فيه حظّك إن شاء الله تعالى فلا تتأخر عنه . فأغَذَّ السيرَ وقَدِم، فأنزله مُعاوية منزلًا كان قد هُيِّئَ له وأُعِدّ فيه نُزُلُه ؛ وكان عند معاوية يومئذ بالشأم أبو هُرَيرة وأبو الدَّرْدَاء، فقال لهما معاوية : إن الله قد قَسَم بين عباده قِسَماً [ووهبهم نعما] أوجب عليهم فيها شكره وحتّم عليهم حفظَها، فحَبَانى

(١) أورد صاحب « كتاب الإمامة والسياسة» هذه القصة بزيادات كثيرة واختلاف فى العبارات عما هنا . وقد أثبتنا من هذه الزيادات ما يستقيم به الكلام، وهو ما وضعناه بين القوسين .

(٢) فى الأصل: « والأمر ... » وما أثبتناه عن كتاب الامامة والسياسة .

منها عز وجل بأتمّ الشرف وأفضل الذكر، وأوسع علىّ الرزق، وجعلنى راعىَ خلقه، وأمينَه فى بلاده، والحاكمَ فى أمر عباده، ليبلُوَنى أأشكر أم أكفر. وأول ما ينبغى للمرء أن يتفقّد وينظرَ من آسترعاه الله أمرَه، ومن لاغِنًى به عنه . وقد بلغت لى آبنة أريد إنكاحَها والنظرَ فى آختيار من يُبَاعلها، لعل مَنْ يكون بعدى يقتدى فيه بهَدْيِى ويتبع فيه أثرى؛ فإنه قد يَلِى هذا الملكَ بعدى مَن يغلب عليه الشيطان ويرقيه الى تعضيل (٢) بناتهم (١) فلا يرون لهم كُفُؤًا ولا نظيرا، وقد رَضيتُ لها آبنَ سَلّام القرشىّ، لدينه وشرفه وفضله ومروءته وأدبه؛ فقالا له : إن أَوْلى الناس برعاية نعم الله وشكرها وطَلَب مرضاته فيما آختصّه منها لأنت؛ فقال لهما معاوية : فاذكرا له ذلك عنى، وقد كنت جعلت لها فى نفسها شُورَى، غير أنى أرجو ألّا تخرج من رأيى إن شاء الله . فخرجا من عنده وأتَيَا عبد الله بن سَلّام وذكرا له القصة . ثم دخل معاوية على آبنته وقال لها : اذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرَضا عليك أمر عبد الله بن سَلّام وحَضَّاكِ على المسارعة الى آتباع رأيى فيه، فقولى لهما : إنه كفء كريم وقريب حميم، غير أنّ تحته زينبَ بنت إسحاق ، وأخاف أن يَعْرِضَ لى من الغَيْرة ما يعرِض للنساء فأتناول منه مايَسخَط اللهُ تعالى فيه فيعذّبنى عليه، ولستُ بفاعلةٍ حتى يفارقَها . فلما آجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله وأعلماه بقول مُعاوية، ردّهما اليه يخطُبان له منه، فأتياه؛ فقال: قد علمتما رِضائى به وحِرْصى عليه، وكنتُ قد أعلمتكما الذى جعلتُ لها فى نفسها من الشُّورَى، فادخلا عليها وآعرِضا عليها الذى رأيتُ لها . فدخلا عليها وأعلماها؛ فقالت لهما ما قاله معاوية لها . فرجعا الى آبن سَلّام وأعلماه بما قالته . فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا فراقُ زينب أشهدهما بطلاقها وأعادهما الى آبنة معاوية.

(١) عبارة الإمامة والسياسة : « فانى قد تخوّفت أن يدعو من يلى هذا الأمر من بعدى زهو السلطان وسرفه الى عضل نسائهم ... الخ » .

(٢) تعضيل البنات : حبسهنّ عن الزواج ظلما . وفى الأصل : «الى تعطيل بناتهم» .

فأتَيَا معاوية وأعلماه بمـا كان من فراق عبـد الله زوجتَه رغبةً فى الاتصال بابنته؛ فأظهر معاوية كراهةَ فعله وفراقه لزينب وقال : ما آستحسنتُ له طلاقَ آمرأته ولا أحببته، فانصرفَا فى عافية ثم عُودَا إليها وخُذَا رضاها . فقاما ثم عادا اليه، فأمرهمـا بالدخول على آبنته وسؤالها عن رضاها تَبَرِّيًا[1] من الأمر، وقال : لم يكن لى أن أُكرهها وقد جعلتُ لهـا الشورى فى نفسها . فدخلا عليها وأعلماها بطلاق عبد الله بن سَلَّام آمرأته ليسرّها ، وذكرا من فضـله وكمال مُروءته وكرم مَحْتِده؛ فقـالت لهما : إنه فى قريش لرفيع القَدْر، وقد تعرفان أن الأناة فى الأمور أرفقُ لمـا يخاف من المحذور، وإنى سائلةٌ عنـه حتى أعرف دَخْلة أمره وأُعلمكما بالذى يُزَيِّنــه الله لى، ولا قوة إلا بالله؛ فقالا : وفّقك الله وخَارَ لك . وآنصرفا عنها، وأعلما عبد الله بقولها؛ فأنشد :

فإن يَكُ صَدْرُ هذا اليوم وَلَّى ※ فإنّ غدًا لناظره قريبُ

وتحـدّث الناس بمـا كان من طلاق عبد الله زينبَ وخِطْبته آبنةَ معاوية، ولاموه على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه . ثم آستحثّ عبـدُ الله أبا هريرة وأبا الدرداء؛ فأتَيَاها وقالا لها : اِصنعى ما أنت صانعة وآستخيرى الله، فإنه يهدى من آستهداه؛ فقالت : أرجو، والحمدُ لله[2]، أن يكونَ الله قد خار [لى]، وقد آستبرأت[3] أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لمـا أريد لنفسى، ولقد آختلف من آستشرته فيه، فمنهم الناهى عنه و[منهم] الآمر به، وآختـلافهم أوّل ما كَرِهت . فلمـا بلّغاه كلامها علم أنه مخدوع ، وقال : ليس لأمر الله رادّ، ولا لمـا لا بدّ منه[4]

(١) فى الأصل : «... وسؤالها ... » . (٢) فى كتاب الامامة والسياسة : « الحمد لله أرجو أن يكون ... » . (٣) فى الأساس : « استبرأت الشىء : طلبت آخره لأقطع الشبهة عنى » . والمعنى هنا أنها استقصت جميع أموره حتى عرفته كل المعرفة . (٤) فى الأصل : «ولا لمـا لا يدنيه صاد » ولعله تحريف عما وضعناه، وأن الياء والدال من «يدنيه» محرّفتان عن «بد» وبقية الكلمة محرّفة عن « منه » . ويؤيد هذا أن عبارة «الامامة والسياسة» « ولا لمـا لا بد أن يكون منه صاد » .

صادّ؛ فإن المرء و إن كَمَل له حلمه واجتمع له عقله واستدّ رأيه ليس بدافع عن نفسه قَدَرًا برأى ولا كيد * ولعل ما سُرّوا به واستجذلوا [له] (١) لا يدوم لهم سروره، ولا يُصْرَف عنهم محذوره . وذاع أمره وفشا فى الناس، وقالوا : خَدَعه معاوية حتى طلّق امرأته، و إنما أرادها لابنه، وقبّحوا فعله . فتمّت مكيدته هذه؛ لكن المقادير أتت بخلاف تدبيره و بضدّ تقديره . وذلك أنه لما انقضت أقْراء زينب، وَجّه (٦٨) معاوية أبا الدرداء الى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد؛ فخرج حتى قَدِم الكوفة، وبها يومئذ الحسين بن علىّ رضى الله عنهما، فبدأ أبو الدرداء بزيارته، فسلم عليه الحسين وسأله عن سبب مَقْدَمه؛ فقال : وَجّهنى معاوية خاطباً على ابنه يزيد زينبَ بنت إسحاق؛ فقال له الحسين : لقد كنتُ أردتُ نكاحها وقصدت الإرسال اليها اذا انقضت أقراؤها، فلم يمنعنى من ذلك إلا تخيُّر (٢) مثلك، فقد أتى الله بك، فاخطُبْ — رحمك الله — علىّ وعليه، لتتخيّر من اختاره الله لها، وهى أمانةٌ فى عُنُقك حتى تؤدّيها اليها، وأَعْطِها من المهر مثل ما بَذَل معاوية عن ابنه؛ فقال : أفعلُ إن شاء الله . فلما دخل عليها أبو الدرداء قال : أيتها المرأة، إنّ الله خلق الأمور بقدرته، وكوّنها بعزته ، فجعل لكل أمر قَدَرا، ولكل قَدَر سببا، فليس لأحد عن قدر الله مُسْتَحاصٌ، ولا للخروج عن أمره مُستناص؛ فكان مما (٣) سبق لكِ وقُدِّر عليك الذى كان من فراق عبد الله بن سَلّام إياك، ولعل ذلك لا يضرّك و يجعلُ الله فيه خيرا كثيرا؛ وقد خطبك أميرُ هذه الأمة وابنُ مَلِكها وولىُّ عهده والخليفةُ من بعده

(١) كذا فى « كتاب الامامة والسياسة » وفى الأصل : «ما سوّلوا به واستخذلوا» .

(٢) فى الأصل وفى « كتاب الامامة والسياسة » : «فلم يمنعنى من ذلك الا تخيير مثلك...» وظاهر أن الذى يلتئم مع السياق انما هو التخير وهو الانتقاء، اذ المراد هنا انتقاء الرسول الذى يحسن القيام بهذه السفارة . (٣) كذا فى كتاب الامامة والسياسة . وفى الأصل : «فكان ماسبق لك ... » .

يزيد بن معاوية، والحسين آبن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة، وقد بلغك شأنهما وسناؤهما وفضلهما، وقد جئتك خاطباً عليهما، فآختاري أيهما شئت؛ فسكتت طويلا ثم قالت : يا أبا الدرداء، لو أن هـذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل إليك وآتبعت فيه رأيك ولم أقتطعه دونك . فأما إذ كنت أنت المرسل فقد فوضت أمري بعد الله إليك وجعلته في يديك ، فاختر لي أرضاهما لديك، والله شاهد عليك ؛ فآقض في أمري بالتحري ولا يصدنك عن ذلك آتباع هوى، فليس أمرهما عليك خفيا، ولا أنت عما طوقتك غبيا؛ فقال : أيتها المرأة، إنما علي إعلامك وعليك الآختيار لنفسك؛ قالت : عفا الله عنك! إنما أنا آبنة أخيك، ولا غنى لي عنك؛ فلا تمنعك رهبة أحد عن قول الحق فيما طوقتك ، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك؛ والله خير من روعي وخيف، إنه بنا خبير لطيف . فلما لم يجد بدا من القول والإشارة قال : أي بنية، إن آبن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي وأرضى عندي، والله أعلم بخيرهما لك، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وضع شفتيه على شفتي حسين، فضعي شفتيك حيث وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم شفتيه ؛ قالت : قد آخترته وأردته ورضيته . فتزوجها الحسين وساق لها مهرا عظيما . فبلغ ذلك معاوية فتعاظمه ولام أبا الدرداء شديدا، وقال: من يرسل ذا بله وعمى يركب خلاف ما يهوى . وأما عبدالله آبن سلام فإن معاوية آطرحه وقطع عنه جميع روافده، لسوء قوله فيه وتهمته أنه خدعه ، ولم يزل يجفوه حتى عيل صبره وقل ما في يديه . فرجع الى العراق، وكان قد آستودع زينب قبل طلاقه لها مالا عظيما ودرا كثيرا ، فظن أنها تجحده لسوء فعله بها وطلاقها من غير شيء كان منها، فلقي حسينا فسلم عليه، ثم قال : قد علمت ما كان من خبري وخبر زينب، وكنت قد آستودعتها مالا ولم أقبضه، وأثنى عليها وقال له :

ذاكَرَها أمرى وآحضُضْها على ردّ مالى . فلما آنصرف الحسين إليها قال لها : قد قَدِم عبـد الله بن سَلّام وهو يحسن الثناء عليك ويجمل النشرَ عنك فى حسن صُحْبتك وما آنسه قديمًا من أمانتك ، فسرّنى ذلك وأعجبنى ، وذكر أنه كان قد آستودعك مالا ، فأَدِّى إليه أمانته ورُدِّى عليه مالَه ، فإنه لم يقل إلا صدقا ولم يطلب إلا حقا ؛ فقالت : صدق ، استودعنى مالًا لا أدرى ما هو ، فادفَعْه اليه بطابَعه ؛ فأثنى عليها حسينٌ خيرًا وقال : أَلَا أُدْخله عليكِ حتى تتبرَّئى إليه منه كما دفعه اليك؟ ثم لَقِى عبد الله وقال : ما أنكرتْ مالَك ، وإنما زعمتْ أنه بطابعك ، فادخل اليها وتسلَّم مالك منها ؛ فقال : أَوَ ماتأمرُ من يدفعه إلىّ ؟ قال : لا ! بل تقبِضه منها كما دفعتَه إليها . ودخل عليها حسـين وقال : هذا عبد الله قد جاء يطلب وديعته ؛ فأخرجتْ اليه البِدَر فوضعتها بين يديه وقالت : هذا مالُك ؛ فشكر وأثنى . وخرج حسين عنهما ، وفَضّ عبد الله آبن سَلّام خواتم بَدْرة[(١)] وحَثَى لها من ذلك وقال : خُذِى فهو قليـل منى ؛ فاستعبرا جميعا حتى عَلَتْ أصواتهما بالبكاء أسفًا على ما آبتُلِيا به ؛ فدخل الحسين عليهما وقد رقّ لهما فقال : أُشهد اللهَ أنهـا طالقٌ ثلاثا ، آللهم قد تعـلَم أنى لم أستنكحها رغبةً فى مالها ولا جمالهـا ، ولكنى أردت إحلالها لبَعْلها . فسألها عبد الله أن تصرف الى حسين ما كان قد ساق إليها من مَهْر ؛ فأجابته الى ذلك ؛ فلم يقبله الحسين وقال : الذى أرجو إليـه من الثواب خيرٌ لى . فلمـا آنقضتْ أقراؤها تزوّجها عبـد الله ، وحَرَمها اللهُ تعالى يزيدَ بن معاوية .

ومن مكايد معاوية أن رجلًا من قريش أُسِر فحُمِل الى صاحب القسطنطينية ، (٦٩) فكلّمه ملك الروم ، فجاوبه القرشىّ بجواب لم يوافقه ؛ فقام اليه رجل من بطارقة صاحب القسطنطينية فوكَزه ، فقال القرشىّ : وَامُعاوِياهْ ! لقد أغفلتَ أمورنا وأضعتنا . فوصل

(١) كذا فى كتاب الامامة والسياسة . وفى الأصل : « ... خواتم برده ... » وهو تحريف من الناسخ .

الخبر الى معاوية فطوى عليه وآحتال فى فداء الرجل . فلما وصل اليه سأله عن أمره مع صاحب القسطنطينية وعن آسم البِطْريق الذى وكزه؛ فلما عرفه أرسل الى رجل من قوّاد صُور[1] الذين كانوا قوّاد البحر ممن عُرِف بالنَّجْدة وغزو الروم، وقال له : أَنْشِئْ مركبا يكون له مجاديف فى جوفه ، وآستعمل السفر الى بلاد الروم، وأَظْهِر أنك إنما تسافر لبلادهم على وجه السرّ والآستتار منا ، وتوصَّلْ إلى صاحب القسطنطينية ومَكِّنْه من المال وآحمِلْ إليه الهدايا والى جميع أصحابه ، ولا تَعْرِضْ لفلان ( يعنى الذى لطم الرجل القرشىّ ) وآعْمَل كأنك لا تعرفه ، فإذا كلّمك وقال لك : لأىّ معنًى تُهادى أصحابى وتتركنى ، فآعتذِرْ إليــه وقل له : أنا رجل أدخل الى هذه المواضع مستترا ولا أعرف [إلا][2] من عُرِّفْتُ به ، فلو عَرَفتُ أنك من وزراء الملك لهاديتُك كما هاديت أصحابك، ولكنى اذا آنصرفت إليكم مرةً أخرى سأعرف حقك . ففعل القائد ذلك . ولما آنصرف إليهم ثانية هاداه وألطفه[3] وأربى فى هديته على أصحابه، ولم يزل حتى آطمأن إليه العِلْج . فلما كان فى إحدى سَفَرَاته قال له البطريق : كنت أُحِبّ أن تجلب إلىّ من بلاد المسلمين وِطاء ديباج يكون على ألوان الزهر؛ قال : نعم . فلما آنصرف أخبر معاوية بما طلبه البطريق؛ فأمر له ببساط على ما وَصَف؛ وقال: اذا دخلت وادى القسطنطينية فأَخْرِجه وآبسُطه على ظهر المركب وتربّصْ فى الوادى حتى يصل الخبر الى ذلك العِلْج، وآبعَثْ له فى السرّ وتحيّنْ خروجه الى ضَيْعته التى له على ضَفّة وادى القسطنطينية ، فإذا وصلتَ الى حدّ ضيعته فآبتدئْ بها ، لعلّ يحمله الشره على الدخول إليك؛ فاذا حصل عندك فى المركب فَمُرِ الرجالَ بإشارة تكون بينك

(١) صور : مدينة عظيمة وكانت ثغرا من ثغور بحر الشام .

(٢) تكملة نرى أن استقامة الكلام تتوقف عليها .

(٣) يقال : ألطفه بكذا اذا برّه به .

وبينهم أن يستعملوا المجاديف التى فى جوف المركب، وكُرَّ به راجعا الى الشأم. ففعل ما أمره به معاوية. وصادف وصولُ ذلك القائد وجودَ البطريق[1] فى ضيعته، فبَسَط ذلك البساطَ على ظهر المركب ووصل الى عُرْض ضَيعة العلج، فلما عاين البساطَ حمَله الشَّرَهُ والحرص الى أن دخل المركب، فلما صار فى المركب أشار [القائد] الى رجاله فرجعوا بالمركب بعد أن أوثق البطريقَ ومن معه، وسار بهم حتى قَدِم على معاوية. فأحضر معاويةَ البطريق ووَقَفه بين يديه، وأحضر القرشىّ وقال : هذا صاحبك ؟ قال : نعم؛ قال : قم فاصنع به ما صنع بك ولا تزد؛ فقام القرشىّ فوكزه كما كان فعل به العلج. ثم قال معاوية للبطريق : إرجع الى مَلِكك وقل له : تركتُ ملك الإسلام يقتصّ من أصحاب بِساطك، وقال للذى ساقه : اِنصرف به الى أوّل أرض الروم وأخرجه، وآترك له البساط وكل ما سألك أن تحمله اليه من هديّة. فآنصرف به الى فم وادى القسطنطينية، فوجد ملكَ الروم قد صَنَع سلسلةً على فم الوادى ووكّل بها الرجال، فلا يدخل أحد الى الوادى إلا بإذنه؛ فأخرج العلج ومن معه وما معه. فلما وصل الى مَلِكه ووصف له ما صنع به معاوية قال : هذا ملك كبير الحِيلة. فعظُم معاوية فى أعينهم وفى نفوسهم فوق ما كان. وهذه الواقعة محاسنها تستُر مساوى ما تقدّمها.

وهذا الباب متّسع، ستقف إن شاء الله فى التاريخ الذى أوردناه فى كتابنا هذا [على][2] ما تكتفى به وتطّلع منه على المكايد.

وحيث آنتهينا الى هذه الغاية فى أوصاف قادة الجيوش، فلنذكر الآن فضيلة الجهاد ووصف الجيوش والوقائع.

(١) فى الأصل : «وصادف وصول ذلك القائد والبطريق ...».

(٢) زيادة يقتضيها الكلام.

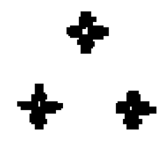
# ذكر ما ورد فى الجهاد وفضله

## وترتيب الجيوش وأسمائها فى القلة والكثرة، وأسماء مواضع القتال، وما قيل فى الحروب والوقائع، وما وُصِفت به

فأما ما ورد فى الجهاد وفضله . قال الله عز وجل : ( إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ) . وقال تعالى : ( أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللّٰهِ ) . وقال تعالى : ( إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ) . وأثنى (٧٠) الله تعالى على المجاهدين ووعدهم الجنة فى آيٍ كثير . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل جاءه فقال له يا رسول الله : دُلَّنى على عمل يعدل الجهاد قال : "لَا أَجِده" . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ فى طِوَله فيُكْتَبُ له حَسَنات(١) . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن فى الجنة مائةَ درجةٍ أعدّها الله للمجاهدين فى سبيل الله مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لَغَدْوَةٌ فى سبيل الله أو رَوْحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها" . وفى لفظة : "الرَّوْحةُ والغَدْوةُ فى سبيل الله أفضلُ من الدنيا وما فيها" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما من عبدٍ يموت له عند الله خيرٌ يسرّه أن يرجعَ الى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد لِمَا يَرَى من فضل الشهادة فإنه يَسُرُّه أن يرجعَ

(١) يستن : يعدو من المرح والنشاط من غير أن يكون عليه أحد . والطول : حبل طويل جدا تُشَدّ به قائمة الدابة و يمسك صاحبه بطرفه و يرسلها ترعى .

الى الدنيا فيُقتَل مرةً أخرى". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والذى نفسى بيده لولا أنّ رجالًا من المؤمنين لا تَطيبُ أنفسهم أن يتخلّفوا عنى ولا أجِدُ ما أحملُهم عليه ما تخلّفتُ عن سَرِيّةٍ تغزو فى سبيل الله والذى نفسى بيده لَوَدِدْتُ أنّى أُقْتَلُ فى سبيل الله ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما اغبرّتا(1) قدمَا عبدٍ فى سبيل الله فتمسّه النارُ". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الجنّة تحت ظِلال السيوف". والأحاديث الصحيحة متضافرة بفضيلة الجهاد وما أعدّ الله للجاهدين والشهداء. وقد ترجم على ذلك البخارىّ وغيره.



## وأما ما قيل فى أسماء العساكر فى القلّة والكثرة وأسماء مواضع القتال —

قالوا: الكَتيبة: ما جُمع فلم ينتشر. والحَضيرة: العشرة فمن دونهم. والمِقنَب والمَنْسِر من الثلاثين الى الأربعين. والهَيْضَلة: جماعة غير كثيرة. والرَّمّازة: التى تموج من نواحيها. والجَحْفَل: الجيش الكثير. والمَجْر: أكثر ما يكون.

وقال الثعالبىّ فى فقه اللغة عن أبى بكر الخُوارزمىّ عن ابن خالَوَيْهِ: أقلّ العساكر الجَرِيدة؛ ثم السريّة وهى من الأربعين الى الخمسين؛ ثم الكتيبة وهى من مائة الى ألف؛(2) ثم الجيش وهو من ألف إلى أربعة آلاف، وكذلك الفيلق والجحفل؛ ثم الخميس وهو من أربعة آلاف الى اثنى عشر ألفا؛ والعسكر يجمعها.

(1) كذا ورد بالأصل بعلامة التثنية فى الفعل وهى رواية أبى ذر عن الحموى والمستملى، وهى لغة. وفى صحيح البخارى: «ما اغبرت قدما عبد ...» بدون ألف التثنية فى الفعل وهى أفصح. انظر شرح البخارى للقسطلانى ج ٥ ص ٥٨ طبع بولاق سنة ١٢٩٣ هـ.

(2) الذى فى فقه اللغة طبع بيروت سنة ١٨٨٥: «وأقل العساكر الجريدة وهى قطعة جردت من سائرها لوجه. ثم السرية وهى من خمسين الى أربعمائة. ثم الكتيبة وهى من أربعمائة الى الألف ...».

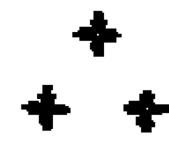
ولأسماء العساكر نعوت فى الكثرة وشدّة الشوكة .

فأما نعوتها فى الكثرة — فانه يقال : كتيبة رَجْرَاجة ؛ جيشٌ لَجِب ؛ عسكر جَرَّار ؛ جحفل لُهَام ؛ خميسٌ عَرَمْرَم .

وأما نعوتها فى شدّة الشوكة مع الكثرة — فإنه يقال : كتيبةٌ شهباءُ اذا كانت بيضاء من الحديد ؛ وخضراءُ إذا كانت سوداء من صَدَإ الحديد ؛ ومُلَمْلَمَة إذا كانت مجتمعة ؛ ورَمّازة إذا كانت تموج من نواحيها ؛ ورَجْرَاجة إذا كانت تتمخّض ولا تكاد تسير ؛ [وجَرَّارة إذا كانت لا تقدر على السير] إلا رُوَيْدًا من كثرتها[1] .

وأما أسماء مواضع القتال — فمنها : الحَوْمة ؛ والمَعْرَكة ؛ والمُعْتَرَك ؛ والمَأْقِط ؛ والمَأْزِم ؛ والمَأْزِق .

وأما أسماء غُبار الحرب — النَّقْع والعَكُوب : هو الغبار الذى يثور من حوافر الخيل وأخفاف الإبل . الرَّهَج والقَسْطَل : غبار الحرب . الخَيْضَعَة : غُبار المعركة .



وأما ماقيل فى الحروب والوقائع ، وشىء مما وُصِفت به — قالوا : أبلغ ما قيل فى صفة الحرب قول الأوّل :

كأنّ الأُفقَ محفوفٌ بنارٍ * وتحتَ النارِ آسادٌ تَزِيرُ

وقول الآخر :

ويوم كأنّ المُصْطلين بحرّه * وإن لم يكن جمرٌ قُوفٌ على جمرِ
صَبَرْنَا له حتّى تجلّى ، وإنما * تُفَرَّجُ أيامُ الكريهة بالصبرِ

(١) التكملة من فقه اللغة .

وقال البُحتُرِىّ يصف جيشا اتّبع مقدّمه :

حُمْرُ السيوفِ كأنما ضَرَبتْ لهم * أيدِى القُيُونِ صفائحاً من عَسْجَدِ
فى فِتْيــةٍ طلبوا غُبــارَكَ إنه * رَهَجٌ تَرَفَّعَ عن طريق السُّــودَدِ
كالرمح فيه بِضْــعَ عَشْرَةَ فِقْرةً * مُتَقادةً خلف السِّنانِ الأصْــيَدِ(١)

(٧١) وقول النابغة الجَعْدِىّ :

تبدُو كواكبُه والشمسُ طالعةٌ * لا النُّورُ نورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ

وقال أبو الفَرَج البَبَّغاء :

ومَوْشيّةٍ بالبِيضِ والزُّغْفِ والقَنَا * مُحبَّرةِ الأعطــافِ بالضُّمَّرِ القُبِّ
بعيدةِ ما بين الجَنَاحينِ فى السُّرَى * قريبةِ ما بين الكمِينَيْنِ(٢) فى الضربِ
من السالباتِ الشمسَ ثوبَ صيائها * بثوبٍ تَوَلَّى نَسْجَه عِثْيَرُ التُّرْبِ
يُعاتب نشوانُ القَنَا صاحِىَ الظُّبَا * إذا التقيا فيهــا على قِلَّة الشُّرْبِ
أعادتْ علينا الليلَ بالنَّقعِ فى الضُّحى * وردّتْ علينا الصبحَ فى الليلِ بالشهبِ
تَبَلَّجُ عن شمسَىْ نِزَارٍ ويَعْــرُبٍ * وتَفْتَرُ(٣) عن طَودَىْ عُلاً تَغْلِبَ الغُلْبِ
مُوَقَّــرةٍ يقتــاد ثِنْىَ زِمامهــا * بصــيرٌ بأدواء الكريهة فى الحرب
أَصَحّ اعتزامًا من خَؤُونٍ على قِلًى * وأنفذ حكما من غرامٍ على صَبِّ

وقال محمد بن أحمد بن عبد ربه :

ومعــتَرَكٍ تَهُــزُّ به المنــايا * ذكورَ الهنــد فى أيدى ذكورِ
لوامع يُبصر الأعمى ســناها * ويَعْمَى دونها طَرْفُ البصــيرِ

(١) فى الأصل : « فرقة ... خلف اللسان » وهو تحريف . والتصويب من ديوان البحترى .

(٢) فى يتيمة الدهر : «ما بين الكمين ...» .

(٣) فى الأصل : « تبلج ... ويفتر ... » .

وخافقـةِ الذوائبِ قد أنافتْ * على حمـراء ذاتِ شـبا طريرِ (١)
تحوم حولها عِقْبانُ موتٍ * تخطَّفَتِ القلوبَ من الصدورِ
بيومٍ راحَ فى سِرْبالِ ليـلٍ * فمـا عُرِفَ الأصيلُ من البُكورِ
وعينُ الشمسِ ترنُو فى قَتامٍ * رُنُوَّ البِكرِ من خلف السـتورِ
فكم قَصَرت من عمـرٍ طويلٍ * وكم طَوَّلت من عمـرٍ قصـيرِ

وقال أيضـا :

ومُعـتركٍ ضَنْكٍ تعاطتْ كُماتُه * كُؤوسَ دماءٍ من كُلًى ومَفاصلِ
يُديرونهـا رَاحًا من الرُّوحِ بينهمْ * ببِيضٍ رِقاقٍ أو بسُمْرٍ ذوابلِ
وتُسمعهم أمُّ المنيّـةِ وسطهـا * غِناءَ صَليلِ البِيضِ تحتَ المَناصلِ

وقال التَّنُوخىّ شاعر اليتيمة :

فى موقفٍ وقف الحِمامُ ولم يَزُغْ * عن ساحتيه وزاغتِ الأبصارُ
فَقَنًا تسـيل من الدماء على قَنًا (٢) * بِطَوالهن تُقَصَّـرُ الأعمـارُ
ورءوسُ أبطـالٍ تَطايَرُ بالظُّبَا * فكأنهـا تحت الغُبَـار غُبـارُ

وقال ابن الخَيَّاط الأندَلُسِىّ :

سيوفٌ اذا اعتَلَّتْ جِهات بغورة (٣) * فمنهنّ فى أعنـاقهن تمـائمُ
وكلُّ خميسٍ طَبَّقَ الجوَّ نَقعُه * وضَيَّقَ مَسْراه الجِيادُ الصلادمُ

(١) المراد بالحمراء : القناة . والشبا : جمع شباة، وشباة كل شىء : حده . والطرير : المحدّد .

(٢) القنا الأولى : حفائر الماء . والقنا الثانية : الرماح .

(٣) كذا بالأصل : وفى كلمـة « بغورة » تحريف لم نوفق الى تصحيحه . ولعله : جهات ثغوره، أو جهات بثورة، أو جهات بغارة .

كأنّ نهارَ النقع إثمدُ عينه ※ وأشفارَ عينيه الشِّفارُ الصوارمُ
تَعُدّ عليه الوحشُ والطيرُ قوتَها ※ اذا سار والتفّتْ عليه القشاعِمُ

والبيت الأوّل مأخوذ من قول المتنبي :

وكانَ بها مثلُ الجنونِ فأصبحتْ ※ ومن جُثَثِ القتْلى عليها تمائمُ

وقال الحِمّانيّ :

و إنا لَتُصبِحُ أسيافُنا ※ إذا ما آنتُضِينَ ليوم سَفُوكِ (٧٢)
منابِرُهُن بطونُ الأكُفّ ※ وأغمادُهن رءوسُ الملوكِ

وقال حسّان :

إذا ما غَضِبنا بأسيافنا ※ جعلنا الجماجِمَ أغمادَها

قال رجل من بنى تميم لرجل عِبَادىّ : لم يكن لآل نَصْر بن ربيعة صولةٌ فى الحرب . فقال : لقد قلتَ بُطْلًا ، ونطقت خَطَلا ، كانوا والله إذا أَطْلقوا[1] عُقُلَ الحرب رأيت فرسانا تَمُور كرِجْل الجَراد[2] ، وتَدَافَعُ كتدافع الأمداد ، فى فيلق حافَتاه الأَسَل ، يضطرب عليها الأجل ، إذا هاجت لم تتناهَ دون إرادتها[3] ، ومنتهى غايات طَلِباتها ، لا يدفعها دافع ، ولا يقوم لها جَمْعٌ جامع ، وقد وَثِقت بالظفر لعِزّ أنفسها ، وأيقنت بالغَلَبة لضراوة عادتها ، خُصَّتْ بذلك على العرب أجمعين .

قال جرير :

لَقَوْمِى أحْمى للحقيقة منكمُ ※ وأضربُ للجبّارِ والنقعُ ساطعُ
وأوثقُ عند المردَفاتِ عَشيّةً ※ لَحاقًا إذا ما جرّد السيفَ لامعُ[4]

(١) فى الأصل : « انطلقوا » . (٢) رجل الجراد : الجماعة منه .
(٣) فى الأصل : «دون إدارتها» وظاهر أنه تحريف .
(٤) لامع : من لمع بالسيف : أشار به ولوّح .

ومن رسالة[1] للفقيه الوزير أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني قال فيها : وكتابي على حالة يشيب[2] لشهودها مَفْـرِق الوليد ، كما تغـيّر[3] لورودها وجه الصعيد، بدؤها يَنْسِف الطريف والتالد ، ويستأصل الولد والوالد، تَذَرُ النساء أَيَامَى ، والأطفـالَ يَتَـامى؛ فلا أَيِّمَةَ إذ لم تبق أنثى، ولا يتيم والأطفالُ في قَيْد الأَسْرى؛ بل تَعمّ الجميع جَمًّا جَمًّـا فلا تَخُصّ، وتزدلف إليهم قُدُمًا قُدُمًا فلا تَنْكُص؛ طَمَتْ حتى خِيفَ على عُرْوة الإيمـان الأنفصاض، وطَمَّت حتى خُشِي على عمود الإسلام الأنقضاض ، وسَمَتْ حتى تُوُقّع بجَناح الدين الأنهياض .

وفي فصل منهـا : وكأن الجمعَ في رَقْـدة أهل الكهف ، أو على وعدٍ صادقٍ من الصَّرْف والكشف .

ومنها : وإن هـذا الأمرَ له ما بعده، إلا أن يُسَنِّي[4] الله على يديك دفعه وصـــدَّه .

وكم مثلِها شوهـاء نهنهتُ فأنثنتْ * وناظرُهـا من شـدّة النَّقْـع أرمدُ
فرّت تنادى : الويلُ للقادح الصَّفَا * لَبَعْضُ القلوب الصخرُ أو هي أجلدُ[5] !

(١) في الذخيرة لابن بسام ج ٢ ص ٤٨ (نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٨ أدب) : «هو أبو حفص عمر بن الحسن بن عبد الرحمن أبي سعيد الداخل بجزيرة الأندلس وهو كان صاحب صلاة الجماعة بقرطبة على عهد عبد الرحمن بن معاوية وهشام الرضى ابنـه ، وهوزن الذى نسب اليه وغلب اسمه عليه بطن من ذى الكلاع الأصغر» . وفي الأصل «الموني» وهو تحريف .

(٢) كذا في الذخيرة ، وفي الأصل شيب .

(٣) كذا في الأصل : وفي الذخيرة : «كما يقة» .

(٤) كذا في الذخيرة ، ويسنى : يسهل . وفي الأصل : «يمشي» .

(٥) في هامش الذخيرة «لعلها أصلد» .

وأبقتْ ثناءً كاللطائم نُشِّرتْ[1] ، * تَبيدُ الليالى وهو غَضٌّ يُجدَّدُ[2]

وفى فصل منها فى الحرب : والحربُ فى اجتلائها حسناءُ عروسٌ تَطَّبِي[3] الأعمارَ بِزَتِّها ، وفى بنائها شمطاءُ عَبُوسٌ تختلى الأعمارَ غِرَّتُها[4] ؛ فالأقلُّ لِلَهَبِها وارد، والأكثر عن شُهُبِها حائد ؛ فأخلِقْ بمحيدٍ عن مكانها، وعُزلةٍ فى ميدانها ؛ فوقودها شِكّةُ السلاح، وقُتارها متصاعد الأرواح ؛ فإن عسعس ليلها مرّةً لانصرام، أو انبجس وبلُها ساعةً لانسجام ؛ فيومُها غسق يردّ الطَّرْفَ كليلا ، ونَبْلُها صَيِّبٌ[5] يزيد الخوفَ غليلا .

وقال فيها :

أعَبّادُ ضاق الذَّرْعُ واتَّسع الخَرْقُ * ولا غربَ للدنيا إذا لم يكن شرقُ
ودُونَكَ قولًا طالَ وهو مقصِّرٌ * وللعين معنًى لا يُعبِّره النطقُ
إليك انتهت آمالنا فارم ما دهى[6] * بعزمك يَدْمَغْ هامةَ الباطل الحقُّ

وما أخطأ السبيل من أتى البيوت من أبوابها، ولا أرجأ الدليل من ناط الأمور بأربابها ؛ ولربّ أملٍ بين أثناء المحاذير مُدْمَج، ومحبوبٍ فى طَىِّ المكاره مُدْرَج ؛ فانتهز فُرصتها فقد بان من غيرك العجز، وطَبِّق مَضَارِبَها فكأنْ قد أمكنك الحَزّ ؛ ولا غرو أن يُسْتَمْطَرَ الغَمامُ فى الجَدْب، ويُستصحبَ الحُسامُ فى الحَرْب! .

(١) اللطائم : جمع لطيمة ، وهى وعاء المسك .

(٢) كذا فى الذخيرة، وفى الأصل : «وهو غض مجرّد» وهو تحريف .

(٣) تطبى الأعمار : تستميلهم .

(٤) تختلى : تقطع . والغرة : الغرور .

(٥) كذا فى الذخيرة ؛ وفى الأصل : «ونبلها صب»

(٦) كذا ورد هذا البيت فى الذخيرة ، وورد فى الأصل هكذا :

اليك انتهت أيامنا فارم ما دهى * بعزمك يدفع هامة الباطل الحق

ومن إنشاء القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى من جواب كتبه وصف فيه وقعة، كتب : ورد على المملوك كتابُ المولى يذكر الرَّجْفة التى سَرَى منها الى أسماع الأولياء قبله ما سرى الى عيون الأولياء بحضرته ؛ وتعاظمهم الفادحُ الذى هم راسبون فى غماره ساهون فى غَمْرته ؛ ووصف عِظَمَ أثرها وراثع مَنْظَرها ومطعن (٧٣) هدّتها[1]، ومزعج واقعتها وفظيع رَوْعتها ؛ واضطرابَ الجبال وخشوعها، وانشقاقَ الأبنية وصدوعَها، وسجودَ الحصون الشمّ، وخضوعَ الصخور الصمّ ؛ وجأرَ العباد إلى ربهم لما مسّهم من الضرّ، ولياذَهم بقصده لما دهاهم من الأمر ؛ فوصف عظيماً بعظيم، ومثّل مقاماً ما عليه صبرٌ مقيم ؛ وأنذرَ بانتقام قائمٍ إلا أنه كريم، وجبارٍ إلا أنه حليم ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون نقولها واضعين الخدود تذلّلا، وإنا فى سبيل الله وإنا إليه تائبون تخلّصا ونُضَمِّنها بالقلوب إخلاصا وتبتّلا ؛ وعرف المملوك ما وَسِعَ الخلق من معروفه وإرفاقه ؛ وجبر الحصونَ من عمارته منازلَ التوحيد وأوكاره، بأمواله التى وَقَفها فى سبيل الله وهانت عليه إذ كان على يد البرّ إخراجُها، وكرُمَتْ لديه إذ طالبت بها خطراتُ الشهوات واعتلاجُها ؛ واستقرضها من الأرض خراجًا ثم وفّاها ما اقترض بعُمْرانها، واستخرجها من بُطْنانها ثم أعادها الى ظُهْرانها ؛ وأرساها للإسلام بقواعد حُصُونها، وأسْناها فى يد المسلمين بوثائق رُهُونها ؛ ولم يزل الله يختصّه بكل حسنة متوضّحة، ويُوَفّقه لكل صالحة مُصلحة ؛ ويُنعم عليه بالنية الصادقة، ويُنعم منه بالموهبة السابغة السابقة ؛ فإن نزلت نازلةٌ من وقائع الأقدار، وإن عرضت عارضة من عوارض الأيام، تلقّاها حامداً[1]، وأسا جرحها جاهدا، وعوّل على ربه قاصدا، وأنفق فيما أصبح منه عادما ما أمسى له واجدا .

---

(١) كذا فى الأصل .

## ذكر ما ورد فى الغزو فى البحر

عن أَنَس بن مالك رضى الله عنه، قال: حدّثتنى أمُّ حَرَام أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قَالَ يومًا فى بيتها، فاستيقظ وهو يضحك، قالت: يارسول الله، ما يُضحكك؟ قال: "عَجِبتُ من قومٍ من أمتى يركَبُون البحرَ كالملوكِ على الأسِرَّة"، فقلت: يارسول الله، أُدْعُ الله أن يجعلنى منهم؛ قال: "أنتِ منهم"، ثم نام فاستيقظ وهو يَضْحك فقال مثـلَ ذلك مرتين أو ثلاثا، قالت: يا رسول الله، أُدع الله أن يجعلنى منهم، فيقول: "أنتِ من الأوّلين"، فتزوّج بها عُبَادةُ بن الصّامت فخرج بها الى الغزو، فلما رجعتْ قُرِّبَتْ دابةٌ لتركبها فوقعت فاندقّتْ عنقُها. و فى حديثٍ آخر: "يركبون البحرَ الأخضرَ فى سبيل الله مثلُهم كمثل الملوك على الأسِرَّة"، قالت: يا رسولَ الله، أُدع اللهَ أن يجعلنى منهم؛ فقال: "اللّهم اجْعَلْها منهم" وأنه قال مثل ذلك ثانيةً؛ فقالت: أدع الله أن يجعلنى منهم؛ قال: "أنتِ من الأوّلين ولستِ من الآخِرين". وساق نحـــوه.

ومما قيل فى القتال فى البحر — قال العسكرى فى ديوان المعانى: لم يصف أحدٌ من المتقدّمين والمتأخرين القتالَ فى المراكب إلا البُحتُرىّ، وعدُّوا قصيدته هذه من عيون قصائده وفضّلوها على كثير من الشعر، وهى:

غَدَوْتَ على "الميمونِ" صُبْحًا و إنما * غدا المركبُ الميمونُ تحت المظَفَّرِ
[أَطَـــلَّ بعِطْفَيْـــهِ ومرَّ كأنمــا * تشرّف من هادِى حصان مشهــر] (١)
إذا زَمْجَــرَ النّــوتِىّ فوق علاته * رأيتَ خطيبًا فى ذُؤابة مِنـــبَرِ

(١) زيادة من ديوان البحترى.

إذا عَصَفَتْ(١) فيه الجَنُوبُ اعتلى له * جَنَاحَا عُقَابٍ في السماء مُهَجِّرِ
إذا ما انكفا في هَبْوة الماء خِلْتَه * تَلَفَّعَ في أثناء بُرْدٍ مُحَبَّرِ
وحولك رَكَّابون للهول عاقَرُوا * كُؤوسَ الرَّدَى من دارعين وحُسَّرِ
تَميل المنايا حيث مالتْ أكُفُّهم * إذا أصلتوا حَدَّ الحديد المذكَّرِ
إذا رَشَقُوا بالنار لم يكُ رَشْقُهم * لِيُقْلِعَ إلا عن شِواء مُقَتَّرِ
صَدَمْتَ بهم صُهْبَ العثانين دونهم * ضِرابٌ كإيقاد اللَّظَى المتسعِّرِ
[يسوقون أُسطولًا كأنَّ سفينَه * سَحَائبُ صيفٍ من جَهَامٍ ومُمْطِرِ](٢)
كأنَّ ضَجيجَ البحر بين رِماحهم * إذ اختلفتْ ترجيعُ عَوْدٍ مُجَرْجِرِ
تقاربُ من زحفيهمُ فكأنما * تُؤلِّف من أعناق وحشٍ مُنَفَّرِ
فما رِمْتَ(٣) حتى أجلتِ الحربُ عن طُلًى * مُقَطَّعةٍ فيهم وهامٍ مُطَيَّرِ
(٧٤) على حين لا نقعٌ يُطَوِّحه الصَّبَا(٤) * ولا أرضَ تُلْفَى للصريع المقطَّرِ
وكنتَ ابنَ "كِسْرَى" قبل ذاك وبعده * مَلِيًّا(٥) بأن تُوهِي صَفَاةَ ابنِ "قَيْصَرِ"
جَدَحْتَ له الموتَ الذُّعافَ فعافه * وطارَ على ألواح شَطْبٍ مُسَمَّرِ(٦)
مَضَى وهو مَوْلَى الريح يَشكر فضلَها * عليه ومن يُولَ الصَّنيعةَ يَشْكُرِ

وحيث ذكرنا الجهاد وفضله والوقائع والحروب، فلنذكر ما قيل في المرابطة في سبيل الله.

---

(١) كذا في ديوان البحترى، وفي الأصل: «اذا ما علت».

(٢) زيادة من الديوان.

(٣) فما رمت: لم تبرح مكانك.

(٤) رواية الديوان: «... تطوحه الصبا».

(٥) الملىء بالأمر: المضطلع به القدير عليه.

(٦) كذا في الديوان. وفي الأصل: «مشمر» بالشين المعجمة وهو تحريف.

## ذكر ما ورد فى المرابطة

قال الله تعالى : ( يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ) . والمُرابطة فى سبيل الله تعالى تنزل من الجهاد والقتال منزلة الاعتكاف (١) فى المساجد من الصلاة، لأنّ المرابط يُقيم فى وجه العدوّ متأهّبا مستعدّا، حتى اذا أحسّ من العدوّ بحركة أو غفلة نَهَض فلا يفوته ولا يتعذّر عليه؛ كما أن المعتكف يكون فى موضع الصلاة مستعدّا، فإذا دخل الوقت وحضر الإمام قام الى الصلاة . قال الحَليمىّ : ولا شك أن المرابطة أشقّ من الاعتكاف . على أن صرف الهمة إلى انتظار الصلاة قد سُمِّىَ رِباطا لمـا جاء فى الحديث فيما يكفّر الخطايا "وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذٰلكم الرِّبَاطُ" . وقد ورد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أحاديثُ تَحُثّ على الرباط، فمنها أنه قال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ مات مُرَابِطاً فى سبيل الله أُومِنَ من عذاب القبر ونَمَـا له أجرُه الى يوم القيامة". وعنه صلى الله عليه وسلم: " رِبَاطُ يومٍ وليلةٍ فى سبيل الله خيرٌ من صِيامِ شهرٍ وقيامه فإن مات جَرَى عليه أجرُ المُرَابطة ويُؤْمَنُ من الفَتَّان ويُقْطَعُ له برزق الجنة". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من مات مرابطا فى سبيل الله مات شهيدًا وَوَقَاه الله فَتّانَ القبر وأُجْرِىَ عليه أحسنُ عمله وغُدِىَ عليه ورِيحَ برزقٍ من الجنة". وعنه صلى الله عليه وسلم : "إذا استشاط العدوّ فخير جهادكم الرباط" .

وسُنَّةُ المرابطة فى سبيل الله أن يُعَدّ من الخيل والسلاح ما يُحتاج إليه، إذا كان انتظار الوقعة من غير استعدادٍ لهـا يُعرِّض للهلاك . قال الله تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ). وجاء فى الحديث :

---

(١) فى الأصل «تنزل» .

" إن القوّة الحِصْن ومن رِباط الخيل الحُجُــورة[١] " الإناث. وروى عُقْبَة بن عامر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ألا هو الرمى"[٢] ؛ وقد يجوز أن يكون اللفظ جامعا للحِصْن والرمى لأن كليهما قوّة . والله تعالى أعلم .

## ذكر ما قيل فى السلاح وأوصافه

والسِّـــلاح ما قُوتِل به . والجُنَّة آسم لمـا آتُّقِىَ به، كالدِّرْع والتُّرْس ونحوهما . وقال العُتْبىّ : بعَث عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه الى عمرو بن مَعْدِيكَرِب أن يبعث إليه بسيفه المعروف "بالصَّمْصَامة" فبعث اليه به؛ فلما ضَرَب به وجده دون ما بلغه عنه، فكتب اليه فى ذلك؛ فأجابه يقول : إنما بعثتُ الى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث له بالساعد الذى يضرب به .

وسأله عمر يوما عن الســلاح فقال : ما تقول فى الرمح؟ قال : أخوك وربمـا خانك فانقصَفَ؛ قال : فمـا تقول فى التُّرس؟ قال : هو المِجَنّ وعليه تدور الدوائر؛ قال : فالنَّبْــل؟ قال : مَنَايَا تُخطِئ وتُصيب؛ قال : فمـا تقول فى الدِّرْع؟ قال : مَثْقَلَةٌ للراجل مَشْغَلَة للراكب وإنها لحِصْنٌ حَصِين؛ قال : فمـا تقول فى السيف؟

---

(١) الحجورة: جمع حجر بالكسر، وهى الأنثى من الخيل. فذكر «الإناث» تفسير من المؤلف أو ممن نقل عنه المؤلف .

(٢) كذا فى الأصل، وفى صحيح مسلم بإسناده الى عقبة بن عامر أنه كان يقول: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى» .

قال : هنالك قارعتك أمك عن الثُّكْل(١)؛ قال : [بل](٢) أمُّك! [قال :](٣) بل أمك يا أمير المؤمنين ! فعلاه أميرُ المؤمنين بالدِّرَّة . وقيل : بل قال له — لما قال عمر بل أمك — قال : أمي يا أمير المؤمنين « والحُمَّى أَضْرعتنى لك » أراد أن الإسلام قيدنى، ولو كنتُ فى الجاهلية لم تكلمنى بهذا الكلام . وهو مثل تضربه العرب إذا اضطُرّت للخضوع .

ومثل ذلك قول الأغرّ النهشلىّ لابنه لما بعثه لحضور ماوقع بين قومه فقال: يا بُنَىّ ، كن يدًا لأصحابك على من قاتلهم ، و إياك والسيفَ فإنه ظِلّ الموت ، واتّقِ الرمح فإنه رِشَاءُ المنيّة ، ولا تقرَب السهام فإنها رُسُل تَعْصِى وتُطيع . قال : فبمَ أقاتل؟ قال : بما قال الشاعر :

جلاميدُ أملاءُ الأكُفِّ(٤) كأنها ❊ رُءوسُ رجالٍ حُلِّقَتْ فى المواسم

فعليكَ بها وألصِقْها بالأعقاب والسُّوق .

---

(١) رواية عيون الأخبار (المجلد الأول ص ١٣٠) كرواية الأصل ، غير أن اسم الإشارة فيه «ثم» وفى الأغانى (ج ١٤ ص ١٢٧ طبع بولاق) : «قال : عنه قارعتك لأمك الهبل.. » . ولعله يريد — على رواية الأصل وعيون الأخبار — أن يصف السيف بأنه أفتك أنواع السلاح وأروعها ، فسلك الى هذا سبيل الكناية فعبر بجملة لازمها يدل على ما يريد أبلغ دلالة إذ يقول : هنالك ، أى اذا ذكر السيف أو تقارعت السيوف ، قارعته أمه ودافعته عن الثكل واذلك إشفاقا عليه ، فان الاشفاق أعظم ما يكون على المنازل اذا كان السلاح السيف ، لأن ضرباته صائبة وقاتلة .

(٢) زيادة عن عيون الأخبار طبع دار الكتب المصرية المجلد الأول ص ١٣٠

(٣) زيادة يقتضيها سياق الكلام .

(٤) فى الأصل : «جلاميد ملء للأكف ...» وفيه تحريف . وما أثبتناه عن الكامل للمبرد طبع أوربا ص ٢٣٣ وأساس البلاغة مادة « ملأ » وفيه يقال : « حجر ملء الكف وأحجار أملاء الأكف » ثم استشهد على ذلك بهذا البيت . وفى عيون الأخبار : «جلاميد يملأن الأكف ...» .

## ما قيل في السيف من الأسماء والنعوت والأوصاف

وقد أوردناها على حروف المعجم على ما أورده صاحب كتاب خزائن السلاح . من ذلك "إبريق" وهو الشديد البريق "أبيض". "أذود" وهو القاطع . "إصليت" وهو الصقيل . "أغلف" إذا كان في غلافه . "أنيث" وهو الذي يتخذ من حديد غير ذكر . "باتر" أى قاطع . "بتار" وهو آسم لسيف كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم . "بصروى"(١) منسوب لبصرى . قال الشاعر :

صفائح بصرى أخلصتها قيونها * ومطّردًا من نسج داود محكما

"بوادر"(٢) أى قواتل . "بارقة" وهى السيوف التى تبرق . "جنثى" ؛ قال الشاعر :

ولكنها سوق يكون بياعها * بجنثية قد أخلصتها الصياقل

"جراز" أى قاطع . "جماد" بمعناه ؛ وفيه يقول الأزهرى :

لسمعتم من حرّ وقع سيوفنا * ضربًا بكلّ مهنّد جمّاد

"حسام" أى قاطع . "جداد" من الحديد . "حداد" من الحداد كأنه أشار الى لونه . "خشيب" أى صقيل ، و [هو](٣) من أسماء الأضداد . "خشيف" أى ماض . "خذيم"(٤) أى قاطع . "خضعة" وهى السيوف القواطع . "ددان" أى لا يقطع . "ذالق" أى سلس الخروج من غمده . "ذلوق" مثله . "ذكر" أى ذو ماء . "ذو الكريهة" وهو الماضى فى الضريبة . "ذو الفقار" سيف رسول الله صلى الله

---

(١) يجوز فى النسبة لمثل « بصرى » قلب ألفها واوا ، كما ورد بالأصل ، وحذفها كما فى اللسان . ومن الحذف قول الشاعر : * يفلون بالقلع البصرىّ هامهم *

(٢) البوادر : جمع بادرة وهى شباة السيف .

(٣) زيادة يقتضيها حسن السياق .

(٤) و يطلق على القطاع أيضا .

عليه وسلم . "ذو هبّة" اى ذو هزّة ومضاء . "ذَرِب" أى محدَّد . "ذو النُّون" [سيف مالك بن زُهير] (١) . "ذو ذُكْرَة" وهو الصارم . "رَسُوب" وهو الذى يغيب فى الضّريبة "رِداء" (٢) . "سيف" وجمعه أسياف وسيوف وأسيُف . قال الشاعر :

كأنهم أسيُفٌ بِيضٌ يمانيةٌ ※ عَضْبٌ مَضَارِبُها باقٍ بها الأُثُرُ (٣)

"سُرَاط" و "سُرَاطِى" أى قاطع . "سَقَّاط" وهو الذى يسقط من وراء الضريبة . "سُرَيْجِى" منسوب الى قَيْن يقال له سُرَيْج . "شَلْحاء" . "صَقِيل" . "صَارِم" أى قاطع . "صَفِيحة" وهو العريض . "صَمْصَام" وهو الذى لا ينثنى . "صَمْصَامة" مثله ، وهو سيف عمرو بن مَعْدِيكَرِب ؛ وفيه يقول (٤) :

خَليلٌ لم أخنْــهُ ولم يَخُنِّى ※ على الصَّمصامة السيفِ السلامُ

وقال أيضا :

خليلٌ لم أهبه على قِلاه (٥) ※ ولكنّ المواهبَ للكرامِ

(١) الزيادة عن لسان العرب .

(٢) ومنه قول الشاعر :

لقد كفن المنهال تحت ردائه ※ فتى غير مبطان العشيات أروعا

(٣) كذا فى اللسان (مادة أثر) وغيره من كتب الأدب واللغة ، وفى الأصل :

※ بيض مضاربها يبق بها الأثر ※

(٤) فى الأصل «وفيه يقول الشاعر» ولعل كلمة «الشاعر» زيدت سهوا من الناسخ ، فان قائل هذا الشعر هو عمرو بن معديكرب الذى يرجع اليه الضمير فى « يقول » قاله حين وهب سيفه . قال فى اللسان مادة (صمم) بعد أن ذكر البيت الأول : قال ابن برى صواب إنشاده :

※ على الصمصامة أم سيفى سلامى ※

وبعده ... ثم ذكر البيتين . وعلى تصويب ابن برى لا يكون فى الشعر اقواء . والإقواء : اختلاف حركة الروى .

(٥) فى اللسان «لم أهبه من قلاه» وكتب بهامشه : «قوله من قلاه الذى فى التكملة عن قلاه ... » .

حبوتَ به كريماً من قريشٍ فسُرَّ به وصِينَ عن اللئام

"صنيع" [مجرّب مجلو](١): قال الشاعر(٢):

بأبيضَ من أُميّةَ مَضْرحيٍّ كأنّ جبينه سيفٌ صنيعُ

"طَبِعٌ" وهو الصَّدِئ قال جرير:

وإذا هُزِزْتَ قطعتَ كلَّ ضريبةٍ * وخرجتَ لا طبِعاً ولا مبهورا

"عَضْب" أى قاطع. "عَقيقة" أى صقيل: قال الشاعر(٣):

حُسامٌ كالعقيقة فهو كِمْعِي(٤) سلاحى لا أَفَلَّ ولا فُطارا

"عَجُوز". "عُرَاض" أى لَدْنُ المَهزّة "عِطَاف": قال الشاعر: (٧٦)

ولا مالَ لى إلا عِطافٌ ومِدْرعٌ * لكم طَرَفٌ منه حديدٌ ولى طَرَفُ

وجمعه عُطُف. "فُطَار" أى مشقّق. "فَلُوع" أى قاطع. "قَسْقَاس"(٥) أى كهام. "قَصّال" أى قطّاع. "قاطع". "قِرْن". "قضيب" أى قاطع وجمعه قُضُب. "قاضب" مثله. "قِرْضَاب" أى يقطع العظام. "قُرضُوب" مثله. "قَشِيب" قريب

---

(١) الزيادة عن لسان العرب.

(٢) هو عبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاصى يمدح معاوية؛ كما فى لسان العرب.

(٣) هو عنترة؛ كما فى اللسان.

(٤) الكمع: الضجيع. والعقيقة: شعاع البرق أو البرق اذا رأيته وسط السحاب كأنه سيف مسلول. وقد تطلق على السيف تشبيها له بالبرق أو شعاعه. أما العقيقة فى البيت فلا يمكن أن يراد بها السيف لأن السيف مشبه بها. والأفل: وصف مدح لما ضرب به كثيرا، وذمّ لما به من الخلل وهو المراد هنا. والفطار: المتشقق الذى لا يقطع.

(٥) ومثل القسقاس: القَسْقَاس.

عهد بالجلاء . "قَلَعِيّ" منسوب الى قَلَعة(١) موضع بالبادية . "قُسَاسِيّ" منسوب الى معدن بأرمينية يقال له قُسَاس . قال الشاعر :

إنّ القُسَاسِيّ الذى يعصى به(٢) * يختضمُ الدارعَ فى أثوابه

"قَضِمٌ" وهو الذى طال عليه الدهر فتكسّر حدّه . "كَهَام" أى كليل . "كَلِيل" أى كَلّ حدّه . "لَهْذَم" هو السيف الحادّ ، ويسمى به السنان أيضا . "لَخِيفٌ" وكان من أسياف رسول الله صلى الله عليه وسلم "لُجّ"(٣) . "مُرْهَف" أى محدود رقيق . "مُصَمِّم" وهو الذى يمرّ فى العظام . "مِقْطَع" . "مِخْذَم" أى قاطع "مِجْذَر" . "مأثور" وهو الذى له أُثْرٌ "مُذَكَّر" مثل ذَكَر . "مُخْتَفِد" سريع القطع . "مِخْصَل" . "مِخْضَل" أى مُصْلَت من غمده . "مِقْصَل" أى قاطع . "مِخْفَق" أى عريض . "مُدَجَّل" المطلىّ بالذهب . "مِهْذَم" قاطع . "مَعْلوب" وهو سيف الحارث بن ظالم ؛ وفيه يقول الكُميت :

وسيفُ الحارثِ المَعْلوبُ أَرْدَى * حُصَيْناً فى الجَبَابِرة الرَّدِينَا

"مِشْمَل" أى صغير . "مِغْوَل" سيف رقيق يكون غمده كالسوط وهو الذى يتّخذ كالعُكّاز . "مَهْو" . وهو الرقيق أيضا ؛ قال صخر الغىّ :

---

(١) فى المخصص : «ابن دريد : قلعىّ منسوب الى حديد أو معدن ، غيره : هو منسوب الى قلعة — وهو موضع» . وفى اللسان : «وفى الحديث وسيوفنا قلعية . قال ابن الأثير : منسوبة الى القلعة بفتح القاف واللام وهى موضع بالبادية تنسب السيوف إليه» . وقد ورد بالأصل «قلع» .

(٢) كذا فى اللسان فى مادتى «قسس» و «خضم» . وفى الأصل : « ... يقضى به» .

(٣) لم نجد فى مصدر آخر ما يؤيد ما هنا بل الذى فى البخارى وكتب اللغة أن «اللخيف» (كأمير وزبير) اسم فرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وعبارة ابن الأثير فى النهاية — ونقلها عنه صاحب اللسان وغيره — «كان اسم فرسه عليه الصلاة والسلام اللخيف ، كذا رواه البخارى ولم يتحققه والمعروف بالحاء المهملة وروى بالجيم» .

وصارمٌ أُخْلِصَتْ خَشِيبَتُه * أبيضُ مَهْوٌ فى مَتْنِــه رُبَدُ

"مُفَقَّر"[(1)] أى الذى فيه حزوز مطمئنة عن متنه . "مُهَنَّد" وهو الذى طُبِع من حديد الهند . "مَشْرَفِىّ" منسوب الى المشارف ، وهى قُرًى من أرض العرب تدنو من الرِّيف . "مُطَبِّق" الذى يقطع المفاصل؛ قال الشاعر :

* يُصَمِّم أحياناً وحِيناً يُطَبِّق *

"مُنْصُل" . "مُشَطَّب" أى الذى فى متنه طرائق . "مُصْلَت" المسلول من غمده . "مِفْلَع" أى قاطع . "مِعْضَد" هو المُمْتَهن فى قطع الشجر وغيره . "مِعْضاد" وهو الممتهن أيضا . "مَذَاهِب" سيوف تُمَوّه بالذهب . "نَصْل" . "نَهِيك" أى قاطع . "نُون" هو آسم سيف بعض العرب؛ قال الشاعر :

ساجعــلُه مكانَ النُّونِ منِّى * وما اعْطِيتُــه عَرَقَ الخِلالِ[(2)]

معناه : سأجعل هذا السيفَ الذى آستفدته مكان ذلك السيف ، وما أُعطيتُه عن مودّة بل أخذته عنوةً . "نَوَاحِل" السيوف التى رَقَّت ظُبَــاتها قُدُماً من كثرة المضاربة . "هُذَام" السيف القاطع . "هَزْهَاز" هو الكثير الآهتزاز . "هُنْدُوَانى" هو المطبوع من حديد الهند . "هِنْدِى" منسوب الى الهند . "وَقِيع" الذى شُحِذ بالحجر . "يَمَــانى" منسوب الى اليمن .

---

(1) كذا فى المخصص وغيره من كتب اللغة . وفى الأصل «مفقم» . وهو تحريف .

(2) الخلال : المصادقة والمودة مصدر خاله خلالا ومخالة . والعرق الجزاء . قال صاحب اللسان فى مادة (عرق) بعد كلام فى تفسير مفردات البيت ونسبته الى الحارث بن زهير : «والنون اسم سيف مالك بن زهير ، وكان حمل بن بدر أخذه من مالك يوم قتله ، وأخذه الحارث من حمل بن بدر يوم قتله ، وظاهر بيت الحارث يقضى بأنه أخذ من مالك سيفا غير «النون» بدلالة قوله : «سأجعله مكان النون» أى سأجعل هذا السيف الذى استفدته مكان النون . والصحيح فى إنشاده : «ويخبرهم مكان النون منى» لأن قبله :

سيخبر قومه حنش بن عمرو * اذا لاقاهم وآبنــا بلال

* * *

ومن أسماء صفات السيف — «أَثْر» أَثْره : إفرنده وما يُرى عليه مما يشبه الغُبار أو مدَب النمل؛ قال عيسى بن عمر (١) :

جلاها الصَّيقلون فأخلصوها * خفافاً كُلُّها يَتْـقِي بأَثْر

«إفْرِنْد» وَشْيُه وأثره . «جُرُبَّان» هو حدّه . «حَرْف» مثله . «ذُباب» حدّ طَرَفه وقيل : حدّه مطلقا . «رِئاس» قائمه؛ قال الشاعر :

* ومِرْفَقٍ كرِئاس السيف إذ شَسَفَا *

«رُبَد» ماتراه عليه شبه غُبار أو مَدَب نمل؛ قال الشاعر :

* أبيضُ مهوٌ فى متنه رُبَدُ *

«زِرّ» قال مُجَرِّس بن كليب (٢) فى بعض كلامه : أَمَا وسَيْفِى وزِرَّيْه ، ورُمْحِى ونَصْلَيْه . والزِرّ : الحدّ . «سِطام» : حدّه . «سِيلان» : هو مايدخل منه فى النِّصاب (٣) . (٣٧)

«سَفَن» : جِلْدة قائمه . «شُطَب» : طرائق فى إحدى مَتْنيه . «شَفْرة» : حدّه ، وشَفْرَتاه : حدّاه . «صُفْح» : عرضه . «ظُبَـة» : حدّه . وظُبَتاه : حدّاه . «عَجُوز» : نَصْل السيف؛ قال أبو المِقْدام :

وعجوز رأيتُ فى فم كَلْبٍ * جُعِلَ الكلبُ للأمير جَمالا

والكَلْب من أجزاء السيف وهو البرجق (٤) . «عَيْر» هو الناشز فى وسط السيف . «غِرَار» : مابين ظُبَتيه وبين العَيْر من وجهيِ السيف جميعا ، وجمعه : أغِرّة . وقيل :

(١) فى اللسان أن هـذا البيت لخفاف بن ندبة وأنشـده عيسى ، وفسره بقوله : أى كلها يستقبلك بفرنده . ويتق مخفف من يتقى أى اذا نظر الناظر اليها اتصل شعاعها بعينه فلم يتمكن من النظر اليها .

(٢) فى الأصل : «قال مجرى ...» وهو تحريف . والتصويب من اللسان مادة «زر» .

(٣) نصاب السيف : مقبضه .

(٤) كذا بالأصـل ، ولم نوفق الى تفسيره أو صحته . وفى المخصص : «الكلب : المسمار فى قائم السيف الذى فيه الذؤابة» . وفى اللسان : «والكلب : مسمار مقبض السيف ومعه آخر يقال له العجوز» .

الغراوان : شَفْرتا السيف . "غَرْبٌ" غربه : حدّه . "فِرِنْدٌ" : مثل "إفْرِند". "فُلُول" الفلول فى حدّه، والواحد منها فَلّ . "قَبِيعة" هى التى على طرف قائمه من حديد أو فضة . "مَضْرِب" : الذى يُضرب به منـه، وهو نحو شبر من طَرَفه . "مَقْبِض" المقبض : حيث تقبض عليه الأكف . "نون" والنونُ : شَفْرة السيف . قال الشاعر :

* بذى نُونَين قَصّالٍ مِقَطّ *

"وَشْى" وهو فرنده وأَثْره، وقد تقدّم بيانه .

*
* *

ومما يضاف الى السيف — فأما اذا احتاج الى الشَّحْذ — يقال : "إسْتَوْقَع" واذا ضُرب به فلم يعمل يقال : "أَحَاكَ" . واذا سُلّ من قِرَابه يقال: "أُسْتُلّ" . "أُصْلِتَ" . "أُمْتُشِن" . "أُمْتُعِط" . "أُمْتُحِط"(١) . "أُنْتُضِى" . "أُخْتُرِط" "جُلِط" . "جُرِّد" . "سُـلّ" . "شُهِر" "مُعِطَ" . "نُضِى" . "شِمْتُ" : اذا سَلَلْتَ وأغمدتَ(٢) . واذا خرج السيفُ من غير سَلّ يقال : "اِنْدَلَق" . واذا أُغْمِض السيفُ من غير سلّ يقال(٣) : "أغمدتُ" السيفَ . "أَقْرَبتُ" . "شِمْتُ" "قَرَبتُ" . وأما اذا تقلّده به الرجلُ يقال : اِعتُطِف، وفيه يقول الشاعر :

مَنْ يَعْتَطِفْهُ على مِئْزَرٍ * فنعمَ الرِّداءُ على المئزرِ

ويقال : "تَقَلّدَ" .

---

(١) ومثل «أمتحط» «امتخط» بالخاء المعجمة .

(٢) أى أنه يستعمل فى الضدّين .

(٣) كذا بالأصل، ويظهر أن فيه تحريفا وسهوا من الناسخ، ولعل صوابه : «وأما اذا أغمد السيف يقال ... الخ » فوقع تحريف فى «أغمد» وزيدت "من غير سل" سهوا .

*
* *

ومن أسماء قِرابه وآلته — يقال: "جَفْن". "جُرُبّان". "جُلُبّان" "خِلَلٌ" وهى بطائن كانت تُغَشَّى بها أجفانُ السيوف. "غِمْدٌ".

حمائله — يقال فيها "حمائل" واحدتها "حَمِيلة". "قِرابٌ" "مِحْمَل". "نِجَاد".

حِلْيَته — يقال "رَصَائع" وهى حَلَق مستديرات تُحَلَّى بها السيوفُ. "قَبيعة" وقد تقدّم ذكرها. "نَعْل" وهو ما يكون أسفلَ القِراب من فضّة أو حديد.(١) والنعل مؤنثة؛ قال الشاعر:

ترى سيفَه لا تَنْصُفُ الساقَ نعلُه * أَجَلْ لا وإن كانت طِوالًا محامِلُهْ

*
* *

وأما ما وصفته به الشعراء — فمن ذلك ما قاله أبو عُبَادة البُحْتُرِىّ:

يتناولُ الرُّوحَ(٢) البعيدَ مَنَالُه * عفوًا، ويفتحُ فى القضاء المُقْفَلِ
ماضٍ وإن لم تُمْضِه يدُ فارسٍ * بَطَلٍ، ومَصقولٌ وإن لم يُصْقَلِ
يَغْشَى الوَغَى(٣) فالتُّرسُ ليس بجُنَّةٍ * من حَدِّه والدِّرعُ ليس بمَعقِلِ
مُصْغٍ الى حُكْمِ الرَّدَى، فاذا مَضَى * لم يلتفت، واذا قَضَى لم يَعْدِلِ
متوقِّدٌ يَبْرِى(٤) بأوّلِ ضربةٍ * ما أدركتْ ولَوَ آنّها فى يَذْبُلِ

---

(١) فى الأصل: "من فضة أو حرير" وقد أثبتنا ما فى كتب اللغة.

(٢) كذا فى ديوان البحترى (طبع مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠هـ) وفى الأصل "تتناول الرمح ...".

(٣) كذا فى الديوان. وفى الأصل: "يغشى الورى ...".

(٤) فى الديوان: «متألق يفرى ...».

وإذا أصاب فكلُّ شيء مَقْتَـلٌ * وإذا أُصيب فما له من مقتلِ

وقال ابن الهول :

حُسَامٌ غداةَ الرَّوْعِ ماضٍ كأنه * من الله فى قَبْض النفوس رسولُ
كأنّ جنودَ الذَّرِّ كسَّرنَ فوقه * عيـون جرادٍ بينهنّ ذُحولُ
كأنّ على إفرِنْده موجَ لُجَّـةٍ * تَقَاصَرُ فى ضَحْضَاحه وتَطُولُ
اذا ما تَمَطَّى الموتُ فى يَقَظاته * فلا بدّ من نفسٍ هناك تسيلُ
وإنْ لاحَظَ الأبطالَ أو صافَحَ الطُّلَى * تَشَحَّطَ يوماً بينهن قتيـلُ

وقال عبد الله بن المعتز :

وَلِى صارمٌ فيه المنايا كَوَامِنٌ * فما يُنْتَضَى إلا لسَفْك دماءِ
تَرَى فوقَ متنيه الفِرِنْدَ كأنه * بقيّـةُ غَيْمٍ رَقَّ دون سمـاءِ

وقال أيضا :

وَسْطَ الخميس بكفّه ذَكَرٌ * عَضْبٌ كأنّ بمتنـه نَمَشَا
صَافِى الحديدِ كأنّ صَيْقَلَهُ * كَتَبَ الفِرِنْدَ عليه أو نَقَشَا

وقال ابن الرومىّ :

خيرُ ما استعصمَتْ به الكفُّ عَضْبٌ * ذَكَـرٌ هَزُّهُ أنيثُ المَهَـزِّ
ما تأمَّلْتَـهُ بعينـك إلّا * أُرعدتْ صَفْحتاه من غير هزِّ
مثلُه أفـزَعَ الشُّجاعَ الى الدّر * ع فغَالَى بها على كلّ بَزِّ
ما يُبَالِى أصمَّمتْ شَفْرتاهُ * فى مَحَـزٍّ أم حادتا عن مَحَـزِّ

وقال ابن المعتز :

ولقـد هززْتُ مُهَـنَّدًا * عَضْبَ المضاربِ مُرْهَفا

واذا تَوَلّج هامةَ الْـجبَّار سارَ فأَوْجفا
عَضْب المضارب كالغديـر فى القَذَى حتَّى صفَا

وقال أيضا :

فى كفّه عَضْبٌ اذا هزّهُ * حَسِبْتَه من خوفه يرتعِدْ

وقال آخر :

جرّدوها فألبسوها المنايا * عِوَضًا عُوِّضتْ من الأغمادِ
وكأنّ الآجالَ ممن أرادوا * وظُبَاها كانت على ميعادِ

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

وذى شُطَب تَقْضى المنايا بحكمه * وليس لما تَقْضى المنيّةُ دافعُ
فرِنْدٌ اذا ما اعتَنَّ(١) للعين رَاكدٌ * وبرقٌ اذا ما اهتزّ بالكفّ لامعُ
يُسلِّل أرواحَ الكُماة انسلالُه * ويرتاع منه الموتُ والموتُ رائعُ
اذا ما التقتْ أمثالُه(٢) فى وَقيعةٍ * هنالك ظَنّ النفس بالنفس واقعُ

وقال أيضا :

بكلِّ مأثورٍ على متنه * مثلُ مَدَبِّ النمل فى القاعِ
يرتدُّ طَرْفُ العين عن حَدّه * عن كوكبٍ للموت لمّاعِ

وقال أبو مروان بن أبى الخصال :

وصَقيلٍ مدارجُ النمل فيه * وهو مذ كان ما دَرَجْنَ عليه
أخلصَ القَيْنُ صقلَه فهو ماءٌ * يتلظَّى السعيرُ فى صَفْحتيه

(١) اعتن : ظهر .

(٢) كذا فى العقد الفريد (ج ١ ص ٦٨) وفى الأصل : «اذا ما التقت أرواحه ... » .

وقال أحمد بن الأعمى الأندلسي :

مَوْتَى فإن خلعتْ أكفانها علمتْ * أنّ الدروعَ على الأبطال أكفانُ
نفسي فداؤك لا كُفْئًا ولا ثَمَنًا * ولو غدا المُشْتَرِى منها وكِيوانُ
والتِّبرُ قد وَزَنُوه بالحـديد فما * ساوَى، ولكن مقاديرٌ وأوزان

وقال عبد العزيز بن يوسف شاعر اليتيمة :

بيضٌ تُصَافِحُ بالأيدى مَقَابِضُها * وحَدُّها صـافَحَ الأعناقَ والقِمَما
ضَحِكْنَ من خَلَلِ الأغماد مُصْلَتَةً * حتى إذا آختلفتْ ضَرْبًا بَكَيْنَ دما

وقال الشريف المُوسَوِىُّ شاعرها :

ونصلُ السيف تسلَمُ شَفْرتاهُ * ويُخْـلِقُ كلَّ أيام قِـرَابا

وقال مؤيّد الدين الطغرائى :

وأبيضَ طاغى الحَـدِّ يُرْعَدُ متنُـه * مخافةَ عزمٍ منك أمضَى من النَّصلِ
عليمٌ بأســرار المَنُون كأنما * على مَضْرَبيــه أُنْزِلَتْ آيةُ القتــل
تَفِيضُ نفوسُ الصِّيدِ دون غِرَاره * وتطفحُ(١) عن متنيه فى مدرج النمل
خَلعتَ عليــه نُورَ وجهك فارتدى * بنورٍ كَفَاه أن يُحَـادَثَ(٢) بالصَّـقْلِ

وقد أكثر الشعراء تشبيه الفِرِند بالنمل، وأصل ذلك من قول آمرئ القيس :

متوسِّدًا عَضْبًا مَضارِبُه * فى متنــه كمدبَّة النمـلِ

وقال الطغرائى :

وأبيضَ لولا المـاءُ فى جَنَباته * تَلَسَّنَ من حَدَّيه نارُ الحُبَاحِبِ
أَضَرَّ به حبُّ الجماجم والطُّـلَى * فغادره نِضْوًا نحيـلَ المضارب

---

(١) كذا فى ديوان الطغرائى (نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١٥٢٨ أدب) وفى الأصل : «وتصفح ...» . (٢) يحادث : يجلى .

وقال إسحاق بن خلف :

ألـقِى بجانبِ خَصْرِهِ * أمضى من الأجل المُتَاحِ
وكأنما ذَرُّ الهَبَا * ءِ عليه أنفاسُ الرياحِ

وقال آبن المعتز :

وجرَّدَ من أغماده كلَّ مُرْهَفٍ * اذا ما آنتضته الكفُّ كاد يسيلُ
ترى فوق متنيه الفِرِنْدَ كأنما * تَنَفَّسَ فيه القَيْنُ وهو صقيلُ

وقال منصور النمرى يصف سَيْفًا :

ذَكَرٌ بِرونقه الفرندُ كأنما * يعلو الرجالَ بأُرْجُوَانٍ ناقعِ
وترى مضاربَ شَفْرتيه كأنها * مِلْحٌ تناثَرَ من وراء الدارعِ

ولما صار الصَّمْصامة (سيفُ عمرو بن مَعْدِيكَرِب) الى موسى الهادى أذِن للشعراء أن يَصفوه، فبدأهم ابنُ يامين(1) فقال :

حاز صَمْصامةَ الزُّبَيْدِىِّ من دو * نِ جميع الأنام موسى الامينُ
سيفَ عمرو وكان فيما سمعنا * خيرَ ما أُغمدت عليه الجُفونُ
أخضر المتن بين حَدَّيه نورٌ * من فرندٍ تمتدُّ فيه العيونُ
أوقدتْ فوقه الصواعقُ نارًا * ثم شابتْ به الذُّعَافَ القُيونُ (٨٠)
فاذا ما سللته بهرَ الشمـ * ـسَ ضياءً فلم تكد تستبينُ
وكأنّ الفرندَ والرَّوْنَقَ الجا * رِىَ فى صَفْحتيه ماءٌ مَعِينُ
وكأنّ المَنونَ نِيطَتْ إليه * فهو من كل جانبيه مَنونُ
ما يبالى مَنِ آنتضاه لضربٍ * أشِمالٌ سطَتْ به أم يمينُ

فامر له ببَدْرة، وأخرج الشعراء .

(1) فى العقد الفريد : "ابن أنيس" .

ومن الإفراط فى وصف السيف قول النابغة :

يَقُدُّ السَّلُوقِىَّ المضاعَفَ نسجُه * ويُوقد بالصُّفَّاح نارَ الحُبَاحِب

فذكر أنه يقدّ الدرع المضاعف والفارسَ والفرسَ ويصل الى الأرض فيقدَح النــار .

وقال النَّمِر بن تَوْلَب :

تَظَلُّ تحفِرُ عنه إن ضربتَ به * بعدَ الذّراعين والقَيْدين والهادى

ومن رسالة لأبى محمد بن مالك القُرْطُبِى جاء منها فى وصف السيوف، قال :

وكأنما باضت على رءوسهم نعائم الدَّوّ، وبَرَقت فى أكُفّهم بوارق الجوّ؛ ولكنها اذا ما هُزَّتْ فبوارق ، واذا صُبَّت فصواعق؛ من كل ذى شُطَبٍ كأنما قُرَى نمل، عَلَوْن منه قَرَى نَصْل؛ فإذا أصاب فكلُّ شىء مقتَل، واذا حَزَّ فكلّ عُضْوٍ مَفْصِل؛ أمضى فى الأشباح، من الأجل المُتاح؛ عَضْب المتن صقيل، يكاد اذا انتُضِى يسيل؛ ويكاد مبصره يَغْنَى عن الوِرْد، اذا اخترِط من الغِمْد؛ ما لم يَخَلْه رَيعان سَرَاب، فى صَحْصَحان يَباب، لاشتباه فِرِنْدِه بحَبَاب فى شراب، أو حُبَابٍ[1] فى سَراب؛ فلما رأيت جفنه قد انطوى على جمر الغَضَى، وماء الأَضَى[2]؛ وانتظم على خَصْره الجُنح، ورَوْنق الصُّبح؛ قلت سبحان مكوِّر الليل على النهار، والجامع بين المــاء والنار .

وأما ما قيل فى الرمح، من الحديث، والأسماء، والنعوت، والأوصاف .

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "جُعِل رزقى تحت ظِلِّ رُمْحِى وجُعل الذِّلّةُ والصَّغَارُ على من خالَفَ أمرى" . هذا ما ورد فيه من الحديث .

(١) الحَباب (بالفتح) : الفقاقيع التى تعلو المــاء ، والحُباب (بالضم) جمع حُبابة ، وهى دويبة سوداء مائية .
(٢) الأضى : جمع لأضاة ، وهى مستنقع المــاء .

وأما الأسماء، والنعوت، والأوصاف — فمن ذلك: "أسمر" وهو الدقيق "ألّة" وهي أصغر من الحَرْبة، وفى سنانها عَرض . وجمعها الإلال . "أمّ اللواء". "أزَنيّ" منسوب الى ذى يَزَن . "أقْصَاد" وهو المكسر . "ثَلِبٌ" وهو المتثلّم . "جاسئ" أى غليظ . "حَرْبة" . "خرصانة"(١) . "خُرْص" . "خَطَّار" أى ذو اهتزاز "خَالٌ" أى لواء الجيش . "خَطِّيّ" هو ما يُنسب من الرماح الى الخطّ، وهو موضع باليمامة . "خَطِل" وهو المضطرب . "خَوّار" وهو الخفيف . "رُمْح" "رَعّاش" وهو الشديد الاضطراب . "رُدَيْنيّ" منسوب الى امرأة اسمها رُدَيْنة "رَاشٌ" أى خوّار . "زَاعِبيّ"(٢) وهو الذى اذا هُزّ تدافع كلُّه . "رَوَاعِف" . "زاعبيّة" منسوبة الى زاعب : رجل، وقيل بلد . "سَمْهَرِيّة" هى القنا الصُّلْبة منسوبة الى سَمْهَر، كان رجلا يُقوّم الرماح . "شِرَاعيّ" هو الرمح الطويل . "شَطَاط"(٣) القناة المعتدلة . "صَدْق" هو الصُّلب من الرماح . "صَعْدَة" وهى القناة المستوية من أصل نَبْتها التى لاتحتاج الى تثقيف، والجمع صِعَاد . "صُمْع" هى الصلبة اللطيفة العُقَد . "ضَابِع"(٤) هو الرمح المعوّج . "ضَلِيع" هو الرمح المائل . "ضَب" اعوجاج

(١) كذا بالأصل ؛ ولم نجد فى المصادر التى بأيدينا ما يؤيده وانما الموجود «خرصان» جمع «خرص» .

(٢) فى الأصل «راعبيّ» ومقتضى وضعه قبل «رواعف» يدل على أنه من حرف الراء . غير أنا لم نجد فى كتب اللغة ما يؤيده . وفى اللسان : «والزاعبيّ من الرماح الذى اذا هُزّ تدافع كله كأن آخره يجرى فى مقدّمه، والزاعبية رماح منسوبة الى زاعب : رجل أو بلد ... الى أن قال : وقال الأصمعىّ : الزاعبيّ الذى اذا هُزّ كأن كعوبه يجرى بعضها فى بعض للينه وهو من قولك : مرّ يزعب بحمله اذا مرّ مرًّا سهلا ...» وفى الأساس : «رمح زاعبيّ ورماح زاعبية نسبت الى رجل من الخزرج كان يعمل الأسنة، عن المبرد ؛ وقيل : هى العسالة التى اذا هزت تدافعت كالسيل الزاعب يزعب بعضه بعضا أى يدفعه، وياء النسبة للنسبة الى الزاعب لمعنى التشبيه به أو للتأكيد كياء الأحمرى» . كل هذا يدل على أن ما فى الأصل محرّف وأن موضعه بعد «رواعف» ليكون من حرف الزاى . (٣) شطاط (وزان سحاب وقتال) : الطول واعتدال القامة أو حسن القوام، ويقال : امرأة شطّة وشاطّة بينة الشطاط . أما ما ذكره المؤلف من اطلاق المصدر على القناة فلم نجد فى كتب اللغة التى بأيدينا ما يؤيده . (٤) كذا فى الأصل ولم نجد فى مصدر آخر ما يؤيده . والذى فى كتب اللغة «والطنب بفتحتين : اعوجاج فى الرمح» فلعل ما فى الأصل محرّف عنه .

فى الرمح . "عَنَزَة" وهى أطول من العصا وأقصر من الرمح وفيها زُجّ كزجّ الرمح . "عُكَّازَة" نحوها . "عَاسِل" هو الرمح الشديد الاضطراب . "عَسَّال" . "عَسُول" . "عَرَّات" : مثل عاسل . "عَشَوْزَنَة" القناة الصُّلبة . "عَرَّاص" هو الرمح المضطرب . "عُتُلّ" هو الرمح الغليظ . "قَنَاة" وجمعها قَنًى وقَنَوات وقُنِىّ وقِنَاء . "قَصِد" أى مكسّر . "لَدْن" اذا هو تدافع كله . "مُتَثَنِّى" كان من رماح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . "مِدْعَس"(١) . "مِطْرَد" أى صغير . "مِنْجَل" أى واسع الطعن . "مِزَجّ" هو صغير كالمزراق . "مِزْرَاق" هو أخف من العنزة . "مِتَلّ" رمح قوىّ يُصْرَعُ به ، قال لبيد :

* أَعْطِفُ الجَوْنَ بمَربوعٍ مِتَلّ *

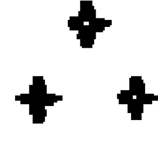
"مُسَمَّح" هو الذى ثُقِّف . "مَخْمُوس" هو الذى طوله خمسة أذرع ، قال عبيد [يذكر ناقته](٢) :

هاتيكَ تَحمِلُنِى وأبيضَ صارمًا * ومُذَرَّبًا فى مارنٍ مخمـوسِ

"مربوع" هو الذى طوله أربعة ، وقيل الذى ليس بطويل ولا قصير . "مُعَرَّن" هو الرمح المسمّر السنان بالعِران وهو المسمار . "مُرَّانة" . "مثقَّفة" وهى الرماح التى ثُقِّفت أى سُوِّيت . "مَدَرِيّة" وهى التى كانت تركب فيها القرون [المحدّدة](٢) مكان الأسنة ، وقيل : إنها نسبت الى قرية باليمن يقال لها مَدَر . "نَيْزَك" وهو رمح قصير ، يقال : إنه فارسىّ وعُرِّب . "هُزَع" أى مضطرب . "وَشِيج" وهى شجرة الرماح . وشيج(٣) نوع منه ينبت فى الأرض معترضا . "يَزَنِىّ" مثل "أَزَنِىّ" .

(١) السنان المدعس : الغليظ الشديد الذى لا ينثنى . (٢) الزيادة عن اللسان .

(٣) لعل أصل العبارة : وشيج وهو شجر الرماح ، أو الوشيج نوع منه ينبت فى الأرض معترضا . فوقع فيها حذف وتحريف ، وإلا فان مافى الأصل لايتفق مع شىء مما فى كتب اللغة . قال فى القاموس وشرحه : « ومن المجاز تطاعنوا بالوشيج أى بالرماح ، والوشيج شجر الرماح ، وقيل هو مانبت من القنا والقصب معترضا ... الخ » .



ومن أسماء السنان — "أَعْجَف" وهو الرقيق . "أشهب" إذا جُلى "أَذْلَق" وهو الحادّ . "حَرِب"(١) يقال حَرَبْت السنانَ اذا حددتَه . "خُرْص" وهو آسم للسنان وللرمح أيضا . "خرق"(٢) . و"خَازِق" يقال فى أمثال العرب : "أمضى من خازق" . "ذَرِبٌ" يقال: ذَرَبته أى حددته . "ذَلِقٌ" مثله . "رغب"(٣) . "زُرْقٌ" . "سَيَحَف" هى نصال قِصار عِراض؛ قال الشَّنْفَرَى :

لهـا وَفْضَـةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفاً * اذا آنست أُولَى العَدِىّ آقشعرّت(٤)

"سِنَان" وجمعه أَسِنَّة . "صُلَّبِيٌّ" سنان مَسْنون . "عامِلٌ" . "عِذَارٌ" وعذار السنان شَفْرتاه "عَيْرٌ" الناتئ فى وسطه . "قَارِبَةٌ" حَدّ السنان . "لَهْذَم" هو السنان الحادّ القاطع . "مُعَلَّبٌ" أى مسنون . و"مُطْحَر"(٥) و"مُحَدَّد" و"مَطْرُور" مثله . "مُذَرَّب" أى محدّد؛ قال كعب :

بمُذَرَّباتٍ بالأَكُفِّ نَوَاهِلٍ * و بكلِّ أبيضَ كالغديرِ مهنّدِ

"نَصْل" وجمعه نُصُول ونِصال . "نَحِيض"(٦) يقال : نحضتُه اذا رقّقته .

---

(١) كذا فى الأصل ولم نجد فى مصدر آخر «حربا» وصفا كما يقتضيه السياق هنا .

(٢) لم نجد فى كتب اللغة أسماء أو وصفا للرمح يقرب من هذه الصيغة ؛ وإنما الموجود : «خزقه اذا طعنه طعنا خفيفا» فلعله من اطلاق المصدر على آلته .

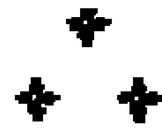
(٣) كذا بالأصل ، ولم نوفق اليه فى مصدر آخر .

(٤) كذا فى اللسان (مادة سحف) والمخصص ، وفى الأصل :

هى وصفة فيها ثمانون سيخف * اذا آنست أولى العدا اقشعرت

ويكاد التحريف ينال — كما هو ظاهر — كل كلمات البيت . الوفضة : الجعبة من الأدم . وفى اللسان : «أولى العدىّ : أوّل من يحمل من الرجالة» .

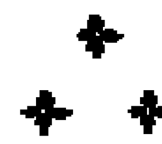
(٥) سياق الكلام هنا يدل على أن «مطحر» : مسنون . وفى القاموس : «ونصل مطحر كمكرم : مطوّل» . (٦) فى الأصل «نحض» وهو تحريف وإنما هو فعيل بمعنى مفعول ، كما فى القاموس .



ومن أسماء ما يعقد عليها — "أَمّ" الأمّ : العَلَمُ الذى يتبعه الجيش . "بَنْدٌ" هو العلم الكبير، وهو فارسىّ معرّب . "حَقِيقة" هى الراية ؛ قال عامر بن الطُّفَيل :

* أنا الفارسُ الحامِى حقيقةَ جعفرٍ *

"خفق"(١) خَفَقت الراية اذا اضطربت . "عَلَمٌ" الراية ، وقيل : الذى يُعقد على الرمح . "عُقَابٌ" العُقاب : العلم الضخم . "غَايَةٌ" وهى الراية . "لِواء" وهو دون الأعلام والبنود . "عَذَبةٌ" خِرْقَة تُعقد على رأس الرمح .



وأما اذا حمله الرجل وطَعَن به — يقال : "اِعتقلَ الرمحَ" اذا جعله بين رِكَابه وسَاقِه . "أَقْرن" اذا رفع رأس رُمْحه . "اِقتلع" اذا أخذ الرمح ليحملَ به . "اِمتعط" و"انترع" مثل اقتلع . "أشرع" اذا قابلَ به خَصْمَه "بوّأ" يقال : بوّأت الرمح اذا سَدَّدته "تَيَمَّمَ" تيممه اذا قَصَده دون غيره ؛ قال الخليل بن أحمد :

يَمّمتُه الرمحَ شَزْرًا ثم قلتُ له : * خُذْها حُذَيفُ فأنتَ السيّدُ الصمدُ(٢)

ومثل "تيمّ" "جَعَبَ" . "جَحَلَ" "جَحْدَلَ" . "جَعْفَلَ" ؛ قال الشاعر :

* جعفلتها لمـا أبتْ أن تخضعا *

"جَوّرَ" مثله "جَدَّلَ" يقال : طعنه فجدّله أى رماه الى الأرض . "جَرْجَمَ" يقال : جرجمه اذا صَرَعه . "حَفَزَ" أى طَعَنَ . "خَطّارٌ" هو الطعّان بالرمح ؛ قال الشاعر :

* مَصَالِيتُ خَطّارون بالرمح فى الوَغَى *

(١) لعله أراد أن يذكر الفعل ، فان الوصف منه «خفّاق» و «خافق» .

(٢) فى الأمالى لأبى على القالى و اللسان (مادة صمد) :

علوته بحسام ثم قلت له * ... ... ... الخ :

"خار" يقال طعنه نخَارَ، أى أصاب خَوْرَانَه وهو مجرى الرَّوْث. "دَعَسَ" اذا طعن . "دَسَرَ" أى طعن طعنة قوية . "رَامِح" أى ذو رمح، لا فعل له . "رَصَعَ" اذا طعن، "رَعَمَ" مثله . "رَكَزَ" اذا غرز رمحه فى الأرض . "زَجَّ" اذا طعن بالزُّجّ "سَلَقَ" اذا طعنه فوقع على ظهره . "سَرَّ" اذا طعنه فى سُرَّته؛ قال الشاعر :

نَسُرُّهُمُ إن هُمُو أقبلوا * وإن أدبرُوا فهمُو من نَسُبّ

أى نطعنهم فى سَبَّاتهم[(1)] . "شَجَرَ" اذا طعن . "شَكَّ" اذا طَعَنه فخرقه . "طَعَنَ" . "قَرْطَبَ" اذا طَعَن فصرع . "قَعَفَ" اذا طعنه فقعفه . "قَعَرَ" مثله . "قَطَّرَ" أى طعنه فألقاه على قُطْرَيْه وهما جانباه؛ قال الهُذَلىّ :

مُجَدَّلًا يَتَسَقَّى جلدُه دمَه * كما يُقَطَّرُ جِذْعُ الدَّوْمةِ القُطُلُ

والقطل المقطوع . "قدع" يقال : تقادعوا اذا تطاعنوا . "لَهَزَ" اذا طعنه فى صدره . "لَزَّه" اذا طعنه . "مُدَاعَسة" وهى المطاعَنة . "مُسَامحة" وهى الملاينة والمساهلة . "مُنَادَسة" المنادسة : المطاعنة . و "رماح نوادس"؛ قال الكميت :

ونحن صَبَحْنَا آلَ نَجْرَانَ غارةً * تميمَ بن مُرٍّ والرماحَ النَّوادِسَا

"مِدْعَس" أى طَعَّان . "مُدَاعِس" مثله . "مَزْجُوج" الذى طُعِنَ بالزُّجّ . "مَكْوُّر" هو الذى طُعِن بارمح؛ قال الفرزدق :

حَمَلْتُ عليه حملةً فطعنتُه * فغادرتُه فوق الفِرَاش مُكَوَّرا

"جائفة"[(2)] يقال طعنه طعنة جائفة اذا وصلت الى جوفه . "نَجْلاء" هى الطعنة الواسعة . "نَكَتَ" يقال : طعنه فنكته إذا وقع على رأسه . "هَرَّعَ" يقال : هَرَعَ

(1) السبات : جمع سبة ، وهى الدبر .

(2) كذا فى المخصص وسائر كتب اللغة التى بين أيدينا . وفى الأصل : « مجيفة » .

القومُ الرماحَ اذا شَرَعوها ومَضَوْا بها . "وَخَضَّ" يقال : وَخَضَه إذا طعنه طعنا لا ينفُذُ، قال الشاعر :

* وَخْضًا الى النِّصف وطَعْنًا أرصَعَا *

* * *

وأما ما وصفته به الشعراء — فن ذلك ما قاله أبو تمّـام حَبيب بن أَوْس الطـائيّ :

أَنْهبتَ أرواحَه الأرماحَ إذ شُرِعَتْ * فما تُرَدُّ لريب الدهر عنـــه يَدُ
كأنهـا وهى فى الأوداج(١) والغَـــةُ * وفى الكُلَى تجدُ الغيظَ الذى تجِـدُ
من كلِّ أزرقَ نظّـارٍ بلا نَظَرٍ * الى المَقَـاتِلِ ما فى متنـــه أَوَدُ
كأنه كان خِدْنَ الحُبِّ مذ زمنٍ * فليس يُعجِـزه قلبٌ ولا كَبِدُ

وقال مؤيِّد الدين الطغرائى :

وخفّـاقةٍ طـوعِ الرياح كأنها * كواسِرُ دَجْنٍ أَلْثَقتهـا(٢) الأهاضيبُ
تَميدُ بهـا نَشْوَى القدود كأنها * قدودُ العـذارى يزدهيهنّ تطريب
يُرَنِّحـــها سُقْيـا الدماء(٣) كأنها * مُدَامٌ وآثارُ الطِّعانِ أكاويبُ

(١) كذا فى ديوان أبى تمـام (طبع الآستانة) وفى الأصل : « فى الأرواح » .

(٢) ألثقتها : بلّلتهـا وندّتها . والأهاضيب : جمع أهضوبة وهى المطرة . قال الركاض الدبيرى يخاطب دارين :

ولا زال يجرى السيل فى عرصتيكما * اذا جف ندّته أهاضيب هيدب

والهيدب : السحاب المتدلى الذى يدنو مثل هدب القطيفة . يريد الطغرائى أن يشبه الرايات فى خفوقها واضطرابها بانتفاض الكواسر فى يوم دجن وقد بلّلها القطر .

(٣) كذا فى ديوان الطغرائى، نسـخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٢٨ أدب، وفى الأصل « سقيا الماء » وهو تحريف .

بها هِزّةٌ بين ارتياحٍ ورهبةٍ * وللنصر مُرتاحٌ وللهول مرهوب
لها العَذَباتُ الحمرُ تهفو كأنها * ضِرامٌ بمستَنّ العواصف مشبوب
اذا نُشِرتْ فى الرَّوع لاحتْ صحائفٌ * عليهن عُنوانٌ من النصر مكتوب
طوالعُ ، طرفُ الجوّ منهن خاسئٌ * حسيرٌ وقلبُ الأرض منهن مرعوبُ

وقال آخر :

ومُطَّرِدٍ لَدْنِ الكعوبِ كأنما * تَغَشّاهُ مُنباعٌ من الزيت سائلُ (١)
أَصَمَّ اذا ما هُزَّ مارتْ سَرَاتُه * كما مار ثُعبانُ الرمالِ المُوائلُ (٢)
له رائدٌ ماضِى الغِرارِ كأنه * هلالٌ بدَا فى ظُلمة الليل ناحِلُ (٨٣)

وقال حوية بن حُوَيّة (٣) يصف السنان :

فأعَدّ أزرقَ فى القَناةِ كأنه * فى طَخْيَة الظلماء ضوءُ شِهابِ

وقال دِعْبِل :

وأسْمَر فى رأسه أزرق * مثلُ لسان الحيّة الصادى

وقال آخر :

جمعتْ رُدَيْنيًّا كأنّ سِنانَه * سَنَا لَهَبٍ لم يَستَعِرْ بدُخانِ

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

بكلّ رُدَيْنِيّ كأنّ سِنانَه * شِهابٌ بدَا فى ظُلمة الليل ساطعُ

---

(١) منباع : سائل .

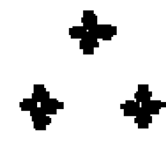
(٢) رمح أصم : مكتنز . ومارت سراته : اضطرب أعلاه . وفى الأصل : «مالت سراته» وهو غير مناسب للسياق ولا للتشبيه فى الشطر الثانى ؛ فلعله تحريف . الموائل : الطالب النجاة خشية أن يصيبه مكروه .

(٣) كذا بالأصل .

تَقَاصرتِ الآجالُ فى طُول متنــه * وعادت به الآمالُ وهى فجَـائع
وساءتْ ظنونُ الحرب فى حسن ظَنّه (١) * فهن لحبّات القــلوب قوارع

وقال أبو محمد بن مالك القرطبيّ من رسالة جاء منها فى وصف الرمح : ومِنْ كل مثقّف الكُعوب، أصمّ الأنبوب، كأنمـا سَلَبَ من الروم زُرْقتهـا، وآجتلب من العرب سُمْرتها، وأخذ من الذئب عَسَلانَه، ومن قلب الجبان خفقانَه ، ومن رَقْراق السّراب لمَعانه، وآستعار من العاشق نُحولَه ، ومن العليل ذُبولَه . قال أبو تمـام :

مُثَقَّفات سَلَبْنَ الرومَ زُرقَتَها * والعُربَ أُدْمَتَها والعاشقَ القضَفَا (٢)



واما ماقيل فى القوس العربية — رُوى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه دخل على النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو متقلّد قَوْسًا عربية، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "هكذا جاءنى جبريلُ اللهم مَنْ آستطعمك بهـا فأَطْعِمْه ومن آستنصرك بها فآنصُرْه ومن آسترزقك بها فآرزُقْه " . وقال : "مامَدّ الناسُ أيديَهم الى شىء من السلاح إلا وللقوس عليه فَضْل " .

والقوس مؤنثة . وتصغيرها قُوَيْس (٣) . وجمعها أَقْوُس وأقواس وقِيَاس وقِسِىّ . ولها أجزاء وأسماء .

فأما أجزاؤها — فكَبِدها : ما بين طَرَفى العِلاقة . ويليه الكُلْية . ويلى الكُلْية : الأَبْهر . ثم الطائف، وهما طائفان : الأعلى والأسفل . والسِّيَة : ماعُطِف من طَرَفيها .

(١) كذا فى العقد الفريد، وفى الأصل : « ... فى كل ظنة » .
(٢) القضف هنا : النحافة .
(٣) وقد تذكر، وسيأتى المؤلف ينص على هذا .

ويدُها : أعلاها . ورجلها : أسفلها . والعَجْسُ والمَعْجِسُ : مَقْبِضها . وإنسيّها : ما أَقْبل على الرامى . ووَحْشِيّها ما كان الى الصَّيْد . والفَرْض والفُرْضة : الحَزّة التى يقع فيها طرف الوَتَر المعقود وهو السية (١) . وما فوق الفُرْضة : الظُّفْر والكُظْر .

* * *

وأما أسماء القوس ونعوتها — فنها : "بَانِيَة" (٢) أى بانية على وترها اذا التصقت به . "جَشْوٌ" (٣) هى القوس الغليظة وقيل الخفيفة؛ قال أبو ذُؤيب :

وَنَمِيمَـةً من قانِصٍ مُتَلَبِّبٍ * فى كفه جَشْوٌ أَجَشّ وأَقْطَعُ

"جلهق" (٤) وجمعها جَلاهق، وهى قِسِيّ البُنْدُق . "حَنّانَةٌ" التى تحِن عند الإنباض؛ قال الشاعر :

وفى مَنْكِبِي حَنّانَةٌ عُودُ نَبْعَةٍ * تَخَيَّرَها لى سُوقَ بَكَّةَ بائعُ (٥)

"حَاشِكَة" وهى القوس البعيدة الرمى . "حَنِيرة" وهى القوس بغير وتر، وفى الحديث: "لو صَلّيتم حتى تكونوا كالحَنائر [ما نفعكم حتى تُحِبّوا آلَ رسول الله صلى الله عليه

---

(١) فى الأصل : «وهو السيرة» وهو تحريف . قال فى أساس البلاغة : «وأوقع الوتر فى فرض قوسك وفرضتها، وهو الحز فى سيتها» .

(٢) فى اللسان ( مادة بين ) : «الجوهرى : البائنــة القوس التى بانت عن وترها كثيرا، وأما التى قد قربت من وترها حتى كادت تلصق به فهى البانية بتقديم النون، قال : وكلاهما عيب ...» وظاهر من تفسير المؤلف هنا أن المراد «البانية» بتقديم النون . وفى الأصل : «بائنة» وهو تحريف .

(٣) الذى فى كتب اللغة «قوس جشء» بالهمز و «الجشو» بالواو لغة فيه .

(٤) ظاهر كلام المؤلف أن «جلهق» مفرد جمعه «جلاهق» والذى فى كتب اللغة : الجلاهق بضم الجيم : القوس، ولم يذكروا له هذا المفرد الذى ذكره .

(٥) ضبط هذا البيت فى اللسان (مادة حنن) باضافة «منكبى» الى حنانة على أنه تثنية منكب وعلى أن المراد بـ «عود نبعة» السهم . وإذ كنا لم نوفق الى القصيدة التى منها هذا البيت لنعرف موضعه من السياق، وإذ كان ضبطه على ما فى اللسان غير واضح . وإذ كان العود يطلق على القوس كما يطلق على السهم، رأينا أن نضبطه كما ترى، على أن يكون «عود نبعة» بدلا من حنانة .

وسلم ](١) . "حَدْلَاء" هي القوس التي تَطَامَنَتْ [سِيَتَها](٢) . "حَضُوبٌ" وهي التي اذا رُمِىَ عنها آنقلب وَتَرُها . "وَهِيشٌ" التي اذا رُمى عنها آهتزّت وضرب وترُها أبهرَها . "زَفَيَانٌ"(٣) هي السريعة بالإرسال للسهم . "زَوْرَاء" سُمِّيت بذلك لميلها . "شَسِيب" وهو من أسمائها . "شَرِيجَة" . "شَدْفَاء" سُمِّيت بذلك لأعوجاجها . "صَفْرَاء" . "صَرِيعٌ" "ضَرُوحٌ" وهي الشديدة الحفز والدفع للسهم . "طَحُورٌ" البعيدة الرمى . "طَرُوح" مثل ضروح . "طِلَاع الكف" اذا كان مَقْبِضها يملأ الكفّ . "عَاتِكٌ" هي القوس التي آحمرّت من القِدَم ، ومثله العاتكة . "عَاتِقٌ"(٤) هي التي تغيّر لونها . "عَطْوَى" هي المُؤَاتِية السهلة ؛ قال الشاعر : ٣٣ ب

له نَبْعَــةٌ عَطْوَى كأنّ رَنِينَهــا * بألْوى تَعَاطَتْه(٥) الأَكُفُّ المَوَاسِحُ

"عُرَاضَةٌ" وهي العَرِيضة . "عَبْهَرٌ" هي القوس الممتلئة العَجْس . "عِطَافَةٌ" "عَطِيفة" . "عَطْفَى" القوس المعطوفة ؛ قال أُسَامة الهُذَلِيّ :

فمــدّ ذِرَاعيه وأَجْنَأَ(٦) صُلْبَه * وفرّجها عَطْفَى مَرِيرٌ مُلَاكِدُ

---

(١) تمة الحديث من نهاية ابن الأثير .

(٢) تطامنت سيتها : انخفضت أى مع ارتفاع السية الأخرى . والزيادة التى وضعناها ضرورية وسيذكرها المصنف فى تفسير «حدلة» التى معناها معنى «حدلاء» . فلعل هذه الزيادة التى أثبتناها سقطت هنا سهوا من الناسخ . ومثل حدلة وحدلاء أيضا حدال كغراب .

(٣) كذا فى المخصص وكتب اللغة . وفى الأصل «زفنان» وهو تحريف .

(٤) ومثل عاتق : عاتقة .

(٥) كذا فى اللسان (مادة عطا) وفى الأصل : «تعاطيه» ولعله تحريف من الناسخ . قال فى اللسان : « وأراد بالألوى الوتر » . وتعاطته : تنازعته .

(٦) أجنأ صلبه : أحنى ظهره . ومرير : ذو مرة أى قوىّ . والملاكد : المعالج الملازم من قولهم : بات يلاكد الغل : أى يعالجه .

"عطوف" هي المعطوفة السيتين إحداهما على الأخرى . "عتلة"(١) والعتلة : القوس الفارسية، وجمعها عتل . "عوجاء" وهو من أسمائها . "عثوث" وهي القوس المرنة .

قال كثير :

هتوفا اذا ذاقها النازعون ... سمعت لها بعد حبض عثاثا(٢)

"عطل" هي التي لاوتر عليها . "غلفاء" التي في غلافها . "فرع" و "فرعة" وهما من جياد القسي . "بجاء" توصف بذلك اذا بان وترها عن كبدها . "بجواء" مثلها . "فلق" اذا كانت مشقوقة ولم تكن قضيبا(٣) . "فرج" اذا تفجت سيتاها(٤) . "قوس قعساء"(٥) والقعس هو نتوء باطن القوس من وسطها ودخول ظاهرها . "قؤود" وهي السلسة المنقادة . "كبداء"(٦) هي التي يملأ كبدها الكف . "كزة" هي القصيرة . "مسحنة" وهي الحسنة المنظر . "مطحر" التي ترمي بسهمها صعدا . "محدلة" التي تطامنت سيتها مثل الحدلاء . "مروح" وهي القوس الحسنة التي يمرح من رآها عجبا بها . ويقال مراح ومرح أي نشيط . "مهوك" القوس اللينة . "مسيحة"(٧) وهو من أسمائها . "معطفة" هي القوس المعطوفة السيتين . "مطعمة"، قال الشاعر :

(١) كذا في المخصص واللسان، ومنه قول أمية :

يرمون عن عتل كأنها غبط ... بزمخر يعجل المرمى إعجالا

وفي الأصل : «عكة» بالكاف . وهو تحريف .

(٢) ذاق القوس : جذب وترها لينظر ما شدتها . والنازعون : الرماة . والحبض : الصوت الضعيف وعثاث : مصدر عات في غنائه اذا رجع وترنم .

(٣) مشقوقة : أي أن تكون أحد شق قضيب .

(٤) تفجت سيتاها : ارتفعت . يريد سيتيها إذ ليس للقوس إلا سيتان .

(٥) في الأصل : «قوس قعس» .

(٦) في الأصل : «كبد» .

(٧) كذا في المخصص واللسان (مادة مسح) وفي الأصل : «مسيح» .

وفى الشِّمالِ من الشِّرْيانِ مُطْعِمَةٌ * كَبْدَاءُ فى عَجْسِها(١) عَطْفٌ وتقويمُ

وقيل سُمِّيت بذلك لأنها تُطْعِم . "مَعْطُوفة" . "ماسِخِيَّات" هى أقواس تُنْسَب الى مَاسِخَةَ(٢) رجلٍ من الأزد كان قوّاسا ؛ قال الشَّمّاخ بن ضِرار :

فَقَرَّبْتُ مُبراةً تخال ضُلوعَها * من الماسِخِيّاتِ القِسِىَّ المُوَتَّرا(٣)

"نَاتِرَة" وهى التى تقطع الوتر لصلابتها ، وجمعها نَوَاتِر . "نَفُوحٌ" هى الشديدة الدفع للسهم . "هَمِزَى(٤)" مثلها .

* * *

وأما الوتر — فمن أسمائه : "حِبَجْرٌ" وهو الوتر الغليظ ، وكل غليظ كذلك ؛ قال الشاعر :

أرمِى عليها وهى شىءٌ بُجُرٌ(٥) * والقوسُ فيهـا وَتَرٌ حِبَجْر
* وهى ثلاثُ أذرُعٍ وشِبْرٌ *

"سَرَعَان" وهو الوتر القوىّ ؛ قال الشاعر :

وعَطَّلْتُ قوسَ اللّهوِ من سَرَعَانِهـا * وعادتْ سِهامِى بين أَحْنَى وَنَاصِلِ(٦)

"شِرْعَةٌ" الشرعة : الوتر الرقيق ، وقيل مادام مشدودا . "فرو(٧)" . "هِجَار" . "وَتَرٌ" .

---

(١) قال فى اللسان ، بعد أن ذكر البيت وشرح «كبداء» ، : «وصواب إنشاده : فى عودها عطف يعنى موضع السيتين وسائره مقوّم» . يريد أن العطف والتقويم فى عود القوس لا فى عجسها ، وأن المعطوف من عودها هو موضع السيتين .

(٢) كذا فى اللسان والقاموس وأساس البلاغة . وفى الأصل «ماسخ» .

(٣) المبراة : الناقة فى أنفها برة ، وهى حلقة من فضة أو صفر تجعل فى أنفها . والموتر : المشدود الوتر .

(٤) كذا فى كتب اللغة . وفى الأصل : «همزاء» ، وهو تحريف .     (٥) بجر : عجب .

(٦) فى الأصل «بين أحنى وبواصل» وهو تحريف ، والتصويب عن لسان العرب مادة «سرع» . والأحنى : الأحدب . والناصل : السهم ذو النصل ، والذى خرج منه نصله ؛ وهذا هو المراد هنا .

(٧) كذا بالأصل . ولم نجد فى المصادر التى بأيدينا ما يؤيده .

* * *

وأما أصوات القوس — يقال : "أَرَنَّتْ" اذا رمى عنها فصوّتت . "أَنْبَضَ" . "أَنْضَبَ"(١) . "حُضُبٌ" وجمعه أَحْضاب . "رَجَعَتْ" . "زَجُومٌ" . الزَّجُوم التى ليست شديدةَ الإرْنان . "سَجَعَتْ" اذا مدّتْ حنينَها على جهة واحدة. "عَجّاجة" . "عَزَفَتْ" . "عِدَادٌ" هو صوت الوتر . "عَوَلَتْ"(٢) مثل أرنّت . "كَتُوم" وهى التى لا تُرِنّ "مِرْنَان" وهى التى اذا رمى عنها صوّتت؛ قال الشنفرى:

اذا زلّ عنها السهمُ رنّتْ كأنها * مُرَزَّأةٌ ثَكْلَى تَحِنُّ وتُعْوِلُ

"نَأَمَتْ" أى صوّتت، "هَتَفَى"، "هَتّافة" . "هَزِجٌ" و"هَزَّجَتْ" اذا صوّتت عند إنباض الرمى عنها؛ قال الكُمَيْت : (٨٥)

لم يَعِبْ ربُّها ولا الناسُ منها * غيرَ إنذارِها عليها الحَمِيرَا
بأهازيجَ من أغانيِّها الجُشِّ(٣) وإتباعِها النحيبَ(٤) الزفيرَا

وقال الشمّاخ :

اذا أنبض الرامُون عنها ترنّمتْ * ترنُّمَ ثَكْلَى أوجعتها الجَنائزُ

وقال آخر :

وَهْىَ اذا أنبضْتَ عنها تسجَعُ * ترنُّمَ الثَّكْلَى أبتْ لا تهجَعِ

وقال آخر :

تَسمَعُ عندالنَّزْعِ والتوتيرِ(٥) * فى سِيَتَيْها رَنّةَ الطُّنْبُورِ

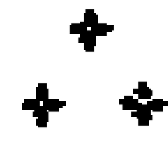
---

(١) أنبض القوس وأنضبها اذا جذبها لتصوت . (٢) فى الأصل : «عوّكت» وهو تحريف .

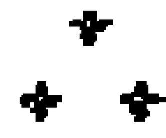
(٣) الجش : جمع جشاء من الجشة وهى غلظ الصوت .

(٤) فى أساس البلاغة : * وإتباعها الحنين الزفيرا *

(٥) النزع : رمى السهم عن القوس . والتوتير : شدّ وتر القوس . وفى الأصل : «عند النزع والوتير» .



**واذا وَتَّرَ القوسَ أو أخذ عنها وترها** — يقال : "حَظْرَبَ قوسه" اذا شدّ توتيرها . "طَحْمَرَ" اذا وتّرها . "مَتَّنَ" مثـله . "وَتَّرَ" . "عَطَّلَ" يقال : عطّل القوسَ اذا أخذَ عنها الوَتَر .



**وأما اذا حَمَل القوسَ أو ٱتّكأ عليها** — يقال : "تنكّب القوسَ" اذا ألقاها على مَنْكِبه . "تأَبَّطَ" يقـال : تأبّط قوســه اذا جعلها على ظهره . "مُتَقَوِّس" اذا كان معه قوس . "أنْكَبُ" والأنكب الذى لاقوس معه . "ارتكز" إذا وضعها بالأرض وٱعتمد عليها .

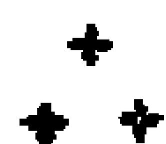
هذا ما قيــل فى القوس من الأسماء والصفات اللغوية، فلنذكر تركيب القوس ومبدأ عملها .

---

## ذكر ما قيل فى تركيب القوس، ومبدإ عملها

## ومَن رمى عنها، ومعنى الرمى

**أما تركيب القوس** — فقد أجمع الرُّماة أنها مبنية على طبائع الإنسان الأربع وهى : العظمُ، ونظيره فى القوس الخشب . واللحمُ، ونظيره فى القوس القرون، والعروق والعَصَب، ونظيرها فى القوس العَقَب . والدمُ، ونظيره فى القوس الغِرَاء.



**وأما مبدأ عملها ومن رمى بها** — اختلف الناس فى القوس ومبدإ عملها ومن رمى عنها، فقال بعض أهل العلم : إن القوس جاء بها جبريلُ الى آدم عليه السلام

وعلّمه الرمى عنها، وتوارثه ولده الى زمن نوح عليه السلام. وذكرت الفرس فى كتاب الطبقات الأربع : أن أوّل من رمى عنها جمشيد الملك الفارسى، وقيل إنه كان فى زمن نوح عليه السلام، وتوارثه بعده ولده طبقة بعد طبقة. وقال آخرون: إن أوّل من رمى عنها النّمرود، وخبره مشهور فى رميه نحو السماء وعَوْد سهمه اليه وقد غُمس من الدم . وسنذكر ذلك ان شاء الله تعالى مبيّنا فى قصة إبراهيم عليه السلام . ورمى عنها بعد النمرود سامن اليمانى ثم كند بن سامن ثم رستم من المجوس ثم اسفنديار وغيرهم . وقيل إن أوّل من وضعها بهرام جُور بن سابور ذى الأكتاف ، وهو من الملوك الساسانية، وإنه عملها من الحديد والنّحاس والذهب، ولم يكن رآها قبل ذلك، فلم تطاوعه فى المدّ فعملها من القرون والخشب والعَقَب(١) . وهذا القول مردود على قائله، لأن الفرس الأُوَل لم تزل تفتخر بالرمى فى الحروب والصيد، ولم يُنْقَلْ أن الرمى انقطع فى دولة ملك منهم . والله تعالى أعلم . (٨٦)

* * *

وأما معنى الرمى — ومعنى الرمى عند العرب هو القصد، وذلك أنهم يقولون: رميت ببصرى الشىء، أى قصدت اليه به، قال ابن الرومى :

نظرتْ فأقْصَدَتِ الفؤادَ بسهمها * ثم آنثنتْ عنه فكاد يَهيمُ
وَيْلاه إن نظرتْ و إن هى أعرضتْ! * وقعُ السّهامِ ونَزْعهن أليمُ

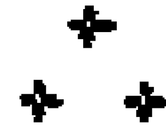
وقال العبّاس بن الأحنف :

قالت ظَلُومُ سَمِيّة الظلم * مالى رأيتُك ناحلَ الجسم
يامَنْ رَمى قلبى فأقصدَهُ * أنت العليمُ بموضع السهم

(١) العقب : عصب المتنين والساقين والوظيفين .

وأما معناه عند العجم، فقد حُكِى عن بَهْرام أنه قال : معنى رميتُ الشىءَ أى[١] رُمْتُه فوصلت اليه . وهو مقارب لمعناه عند العرب، لأنه إنما أراد بارامه القَصْدَ له .

هذا ما قيل فى القوس . فلنذكر ماقيل فى السهم، ثم نذكر بعد ذلك ما قيل فيهما من النظم والنثر .



وأما ماقيل فى السهم — رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله عز وجل لَيُدْخِلُ بالسهم الواحد ثلاثةَ [نفرٍ][٢] الجنة صانعَه يحتسب فى صَنْعته الخيرَ والرامىَ به والمدَّ به[٣]" . وقال صلى الله عليه وسلم : " اِرْمُوا وارْكَبُوا وأن تَرْمُوا أحبُّ إلىّ من أن تَركبوا" . وعنه صلى الله عليه وسلم وقد مرّ على نفر من أَسْلَمَ[٤] ينتضلون فقال: "اِرمُوا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا وأنا مع بنى فلان"، فأمسك أحدُ الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مالكم لا ترمُون"؛ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم! قال : "اِرموا وأنا معكم كلِّكم" . وعن حمزة بن أبى أُسَيْد عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بَدْرٍ حين صَفَفْنَا لقريش وصَفُّوا لنا : "اذا أَكْثَبوكم[٥] فعليكم بالنَّبْل". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ تعلَّمَ الرمىَ ثم تركه فهو نعمةٌ تَرَكها" .

---

(١) كذا بالأصل، وظاهر أن الكلمة «أى» التفسيرية هاهنا لامعنى لها بل وجودها مخل بالتركيب .

(٢) زيادة من هذا الجزء (صفحة ٢٣٨ من خطبة القاضى شهاب الدين محمود الحلبى) ومن الجامع الصغير .

(٣) المد به : من أمده بالشىء : أعطاه إياه . وفيما يأتى فى خطبة الحلبى وفى الجامع الصغير . «ومنبله» بدل «المدبه» والمنبل : من أنبله الشىء أعطاه إياه وناوله .

(٤) أسلم : قبيلة مشهورة .

(٥) أكثبوكم : قاربوكم ودنوا منكم فكنتم منهم .

ومما يدلّ على تعظيم قدر الرامى ما رُوِى عن عبد الله بن شَدَّاد قال : سمعت عليًّا يقول : ما رأيتُ النبى صلّى الله عليه وسلم يُفَدِّى رجلا بعد سَعْد، سمعتُه يقول : "إرمِ فِدَاكَ أبى وأمّى" . وسَعْد هذا هو سعد بن مالك . وكلامُ رسول الله صلى الله عليه وسلم له كان فى يوم أُحُدٍ .

وللسهم أسماء وصفات ونعوت نَطَقت بها العرب — منها : "أَقَذّ"، والأقذ : الذى لا ريش عليه . "أَهْزَعُ" وهو السهم الذى يبقى فى الكِنَانة وحده لأنه أردأ ما فيها، و يقال هو أجودُها وأفضلُها؛ و يقال : ما فى جَفيره أهزَعُ، قال العجّاج :

* لا تك كالرامى بغير أهزعَا[(١)] *

وقال آخر :

فأرسَلَ سهمًا له أهزعا * فشَكَّ نَوَاهِقَه[(٢)] والفما

"أَفْوَق" هو المكسور الفُوق[(٣)] . "أمرط" هو الذى سَقَط قُذَذُه . "أَغْضَفُ"[(٤)] وهو الغليظ [الريش][(٥)] . "أصمع" وهو الرقيق . "بُجُرٌ" وهى سِهَام غِلَاظ . "ثُلُثٌ" وهو سهم من ثلاثة، ومثله تَلِيثٌ وثَمِين وسَبِيع وسَدِيس وخَمِيس . "جُبَّاعٌ" وهو الذى بغير نصل . "جُمَّاع" سهم مدوّر الرأس يتعلم به الصبىّ الرمى . "حَشْرٌ" يقال : سهم حَشْرٌ، وسهام حَشْرٌ أى دِقاق . "حَابٍ" وهو الذى يزحف فى [الأرض ثم يُصيب][(٦)] الهدَف . "حَابضٌ" وهو الذى يقع بين يَدَىْ راميه . "خِظَاءٌ" هى سِهام صِغار، والواحدة : حُظْوَةٌ، وتُجمع على حَظَوَات، وتصغيرها : حُظَيَّات . "حُسْبَانٌ" سِهام

(١) فى المخصص : «يأيها الرامى بغير أهزعا» .

(٢) النواهق : مخارج النهاق من ذى الحافر، أو العظام الناتئة فى مجرى دمعه من الخد .

(٣) الفوق : موضع الوتر . (٤) فى الأصل : «أعضف» وهو تحريف .

(٥) زيادة عن القاموس . (٦) التكملة من كتب اللغة .

٨٧ صغار يُرْمى بها عن القسيّ الفارسيّة ، والواحدة حُسْبانة . "خَازِقٌ" وهو السهم الذى يُصيب القِرْطاس . "خَشِيبٌ" وهو حين يُبرَى البَرْىَ الأوّل . "خِلْطٌ" وهو السهم الذى ينبت عُوده على عِوَجٍ فلا يزال يتعوّج و إن قُوِّم . "دَالِفٌ" وهو الذى يصيب ما دون الغَرَض ثم ينبو عن موضعه ، والجمع دُلَّف . "دَابِرٌ" وهو الذى يخرج من الهدف . "رِقِّيَات" سهام تُنْسَب الى موضع بالمدينة . "زَالِجٌ" وهو الذى يتزلّج من القوس أى يُسرِع ، وكلّ سريع زالج . "زَاحِفٌ" وهو الذى يقع دون الغَرَض ثم يَزْحَف اليه . "زَمْخَرٌ" وهو النُّشَّاب واحدته زَمْخَرة ، و يقال : هو الطويل منه . "سهم سَنْدَرِىّ" نوع من السهام منسوب الى السَّنْدَرة وهى شجرة . "سِرْوة" سهم صغير ، والجمع سِرَاء . "شَارِفٌ" سهم طويل دقيق ، وقيل الذى طال عهده . "شَاخِص" أى جاز الغَرَض من أعلاه . "شَارِمٌ" وهو الذى يَشْرِم جانبَ الغرض . "صَادِرٌ" هو النافذ . "صَنِيعٌ" . "عَبِرٌ" هو الموفور الريش . "عَمَوَّجٌ" هو الذى يتلوّى فى ذَهَابه وهو الأعوجاج فى السير (١) . "عُصُلٌ" السهام المعوجّة . "عفر" . "عَائِرٌ" وهو السهم الذى لا يُدْرَى من أين أَقْبل . "غَرْبٌ" يقال : سهم غَرْبٍ (٢) ، وهو الذى يأتى ولا يعلم المصابُ به من أين يأتى . "فَالِجٌ" هو السهم الفائز . "قِطْعٌ" هو السهم العريض . "قِدْحٌ" قبل أن يُراش و يُركَّب نَصْلُه . "قُطْبَة" سهم صغير يُرْمى به . "قَطِيعٌ" قبل أن يُبْرَى حين يكون قضيبا ، والجمع قُطُعٌ . "قُتْرَة" سهم صغير لا حديدَ فيه . "كُتَّابٌ" سهم صغير مدوّر الرأس مثل "جُمَاح" . "كُتَّاب" سهم صغير ؛ قال الشاعر :

رَمَتْ عن كَثَبٍ قلبى ☆ ولم تَرْمِ بِكُتَّابِ

---

(١) كذا فى الأصل ، ولم نوفق اليه فى مصدر آخر .

(٢) يصح فى «سهم غرب» الإضافة والوصفية .

"لَأْم" وهو السهم . "مُعْبَر" وهو السهم الموفور الريش . "نَقْرَع" هو السهم مطلقا، ويقال : المِنْزَع : الذى يرمى أبعدَ ما يكون؛ قال الأعشى :

فهو كالمِنْزَعِ المَرِيشِ من الشَّوْ * حَطِ غالتْ به يمينُ المُغَالِى

"مَرِيش" ذو الريش . "مُخَلَّق" هو المُصلح . "مِصْرَاد" هو النافذ . "مُعَبَّل" هو الذى لم يُبْرَ بريًا جيدا؛ قال لَبِيد :

فرميتُ القومَ رِشْقًا صائبًا * ليس بالعُصْلِ ولا بالمُقْتَعِلْ

"مِطْحَر" هو البعيد الذَّهاب؛ قال أبو ذُؤَيب :

فرمَى فألحقَ(1) صاعِديًّا مِطْحَرًا * بالكَشْحِ فاشتملتْ عليه الأضلُعُ

"مِرْمَاة" سهم صغير . "مُنْجَاب" هو الذى لا ريش عليه ولا نَصْل . "مِغْلَق" اسم لكل سهم . "مِرِّيخ" سهم طويل له أربع قُذَذ . "مُنْجُوف" هو السهم العريض . "مِرَاط"(2) التى تمرّط ريشها . "مُقَزَّع" الذى رِيشَ بريش صغار . "مُرْتَدِع" الذى اذا أصاب الهدفَ انفضخ عُوده(3) . "مِعْرَاض" ذو ريش يمشى عَرْضًا، وقيل سهم طويل له أربع قُذَذ دِقاق فاذا رُمِىَ به اعترض . "مُتَصَمِّع" هو المنضمّ الريش من الدم، وقيل الملطَّخ بالدم . "مِشْقَص" سهم له نصل عريض . "مِعْقَص" الذى ينكسر نَصْلُه ويبقى سِنْخُه فى السهم . "نَكْس" هو الذى انكسر فوقه فجُعل أسفلُه أعلاه . "نواقر" هى السهام التى تُصيب . "نُشَّاب" . "نَجِيف" هو العريض النصل، والجمع نُجُف؛ قال الهذلى :

نُجُفٌ بذلتُ لها خَوافِيَ ناهضٍ * حَشْرِ القوادمِ كاللِّفاعِ الأطحلِ

"هِزَاع" هو الذى يبقى فى الكِنانة وحده مثل الأهزع .

(1) فى اللسان (مادة نحر) : "فأنفذ" . (2) هـذا على أن «مراط» جمع «مرط» بضمتين، و يقال أيضا : سهم مراط كما يقال : سهم مرط . (3) انفضخ عوده : انكسر .

* * *

وأما أسماء النصل — فمنها : "رَهْبٌ" وهو النصل الرقيق، والجمع رِهَابٌ . "رَهِيشٌ" مثله . "قِطْعٌ" هو النصل العريض، وجمعه أَقْطَاع ، وقيل : نصلٌ صغير، وقيل : السهم القصير . "قُطْبَة" نصل الهدف . "مِرْمَاة" هو النصل المدوَّر . "مِعْبَلَة" نصلٌ طويل عريض، وقيل حديدة مصفّحة لاعَيْرَ لها.(١) "نَضِيّ" هو نصل السهم . "وَقِيعٌ" هو النصل المحدَّد؛ قال عنترة :

وآخَرُ منهم أَجْرَرْتُ رُمْحِي ❊ وفى البَجْلِيِّ مِعْبَلَةٌ وَقِيـــعُ

فهذه أسماء السهم والنصل .

* * *

وإذا أصاب السهمُ يقال — "اِرْتَزَّ السهم" اذا ثبت فى القرطاس "أَصَابَ" . "أَقْصَدَ" اذا قتل مكانه؛ قال الأخطل :

فإن كنتِ قد أقصدْتِنى إذ رَمَيْتِنِى ❊ بسهمِكِ فالرامى يُصِيبُ ولا يَدْرِى(٢)

"بَصَّرَ" اذا طَلَى رأسه بالبَصِيرة وهى الدم . "تَازَّ" يقال : تَازَّ السهمُ اذا أصاب الرميّةَ فاهتزّ فيها . "خَزَقَ" اذا أصاب . "خَسَقَ" مثله . "خَصَلَ" اذا وقع بأزْقِ القِرْطاس، وقيل : [الخصل] الإصابة(٣)؛ ويقال : تخاصل القومُ اذا تراهنوا فى الرمى، وأحرز فلان خَصْـلَ فلان اذا غَلَبَ . "دَبَرَ" اذا خرج عن الهَدَف . "زَهَقَ" اذا جاوز الهدفَ . "شَطَفَ" اذا دخل بين الجلد واللحم . "صَرَدَ" يقال : صَرَدَ السهمُ

(١) العير فى النصل : الناتئ منه فى وسطه .

(٢) فى الأصل : « ... أقصدتنى فرميتنى ❊ بسهمك ... » . وقد أثبتنا ما فى اللسان مادة «قصد» . ومعنى لا يدرى : لا يختل . يقال : درى الظباء وادّراها وتدرّاها اذا ختلها أى تخفى لها .

(٣) فى المخصص : « ومن قال : الخصل : الإصابة فقد أخطأ » .

من الرميّــة اذا نَفَذ منها . "صَافَ" مثل "ضَافَ"[1] [و] "طاش" اذا لم يصب . "عَصَّل" اذا ٱلتوى فى الرمى . "عظعط"[2] اذا لم يقصد الرميّة . "خَزَقَ" اذا وقع بين يدى الرامى . "مَرَقَ" اذا نَفَـذَ من الرميّة . "نَصَلَ" اذا ثَبَت نصلُه فى الشىء فلم يخرج . "نَضَا" بمعنى ذَهَب . "نَفَذَ" أى من الرميّة .

* * *

وأما ما يضاف الى الرامى — يقال : "أَذْلَقَ" عبـارة عن سُرعة الرمى . "أَشْخَصَ" اذا مرّ سهمه برأس الغَرَض . "انْتَضَلَ" يقال : انتضل القومُ وتَنَاضَلُوا اذا تَرَامَوْا للسَّبَق . "تَيَمَّم" اذا قَصَدَ نحو جهةٍ بالسهم. "تَنْعِير" اذا أدار السهم على ظفره ليعرف قوامه من عَوَجه . "تَنْقِيز" مثله . "رمى" معروف. "رَشَقَ" اذا رمى القومُ بأجمعهم فى جهةٍ واحدة . "زَلَخَ" الزَّلْخ رفع اليد فى السهم الى أقصى ما يقدر عليه . "سَعَرَ" اذا رَمَى . "عَقَّ"[3] بالسهم اذا رَمَى به فى الهواء وٱرتفع فى طيرانه . "غَلَا" اذا رَمَى أقصى الغاية . "لَعَطَ" اذا رمى فأصاب. "لَتَأَ" يقال : لَتَأَ بالسهم اذا رمى به . "نَاشِبٌ" والناشب هو الرامى . "نَدَبَ" اذا رَمَى فى جهة واحدة . "نَجَفَ" اذا بَرَى السهمَ .

* * *

وأما أوعية السهام — "جَعْبَةٌ" وجمعها جِعَاب . "جَفِيرٌ" وهو أوسع من "الكِنَانة". "ظَفْرَة"[4] اذا كانت مثلثة. "عَيْبَةٌ" مثل جَعْبَة . "قَرَنٌ". "نَثْلٌ" يقال : نَثَلْتُ كِنَانَتِى اذا ٱستخرجتَ ما فيها .

(١) معنى «صاف» و «ضاف» لم يصب ، فزدنا الواو العاطفة ليشركا «طاش» فى تفسيره .

(٢) فى الأصل : «عطعط» وهو تحريف . (٣) ومثل عق : عقى .

(٤) كذا بالأصل ، ولم نوفق اليها أو الى ما يقرب منها فى مصدر آخر .

*
* *

وأما ما وُصِفَ به القوسُ والسهمُ من النظم والنثر — قال عتّاب بن وَرْقاء

وحَطَّ عن مَنْكِبِه شَرْيانةً ... مما اصطفى بارى القِسِىِّ وانتقى
أمّ بناتٍ عَدُّها صانعُها ... سِتّين فى كتابه مما برى
ذات رءُوسٍ كالمصابيح لها ... أسافلٌ مثلُ عراقيبِ القَطَا
إنْ حُرِّكَتْ حَنَّتْ الى أولادها ... كَحَنَّةِ الوالِهِ من فقدِ الطَّلا
حتى اذا ما قُرِنَتْ ببعضها ... لانتْ ومالَ طَرَفاها وانثنى

وقالوا : أجودُ ما شُبِّه به فُوقُ السهم قول الشاعر :

أفواقُها حَشْوُ الجَفير كأنها ... أفواهُ أفْرِخَةٍ من النُّغْرانِ (١)

ومن إنشاء المولى القاضى شهاب الدين محمود الحلبىّ الكاتب : خطبةٌ عَمِلها لرامى نُشّاب، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل سهمَ الجهادِ الى مَقاتِلِ أعداء دينه مُسَدَّدا، وحُكْمَ الجِلادِ بإصابةِ الغرضِ فى سبيله مؤيَّدا، وسيفَ الاجتهاد فى نِكايةِ مَنْ كفر به وبرسوله على الأمدِ مجرَّدا، وركْنَ الإيمان بإعداد القوّة — وهى الرمىُ فيما ورد عن نبيّه — على كرّ الجديدَيْن مجدَّدا، الذى أعاد رِداءَ الجهاد فى مواطنِ الصَّبْرِ بالنصرِ مُعْلَمًا، وأباد أهلَ الإلحاد بأن جعل لحُماة دينه فى أرواحهم أقساماً وفى مَقاتلهم أسْهُما، وأزال بأيدى الهدى من مَعاقِلِ أهلِ الكفر (٢) حكمَ كُماتِهم الذين آرتقوا منها خَشْيةَ الموت سُلَّما، وأنال أهلَ الإسلام من النصر ما فاء به كلُّ دينٍ له خاضعاً وآل اليه مُستسلِما، وأبان حكمَ الأدب فى تجرّد العبد من القوّة إلا به بقوله عزّ من قائل : (وما رميتَ

(١) النغران : طير كالعصافير حمر المناقير. (٢) فى الأصل « أهل الكفف » وهو تحريف.

إذ رميت ولكن الله رمى) . نحمده على نعمه التى لم يزل بها قدح الدين فائزا وسهمه مصيبا ، ومننه التى ما برح بها جد الكفر مدبرا(١) فلا يجد له فى إصابة نصل أو نصر نصيبا ، وآلائه التى لا تنفك بها سوام السهام ترد من وريد(٢) الشرك منهلا(٣) عذبا وترود من حب القلوب مرعى خصيبا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تدنى النصر وإن بعد مداه ، وتدمى النصل الذى على راميه إرساله الى المقاتل وعلى الله هداه ، وتسمى القدر لمن ناضل عليها فيفوز فى الدنيا والآخرة بما قدمت يداه ؛ ونشهد أن محمدا عبده الذى نصر بالرعب على من كفر ، ورسوله الذى رمى جيش الشرك بقبضة من تراب فكان فيها الظفر ، ونبيه الذى نفر الى أهل بدر بنفر من أصحابه جمع الله النصر والفخر لأولئك النفر ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آمنوا بما أنزل عليه وجاهدوا بين يديه ، واختصوا بالذب عنه بمزايا القرب حتى سعد سعد بما جمع له ، حين أمره بالرمى ، فى التفدية بين أبويه ، وخص بعموم الرضوان عمه العباس الذى أقر الله بإسلامه ناظريه ، وبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم باستخلاف بنيه فى الأرض فيما أسر به اليه .

وبعد ، فإن الرمى أفضل ما أعد للعدا ، وأكمل ما أفيض به على أهل الكفر رداء الردى ، وأبلغ ما يبعث الى المقاتل من رسل المنون ، وأنفع ما يقتضى به فى الوغى(٤) من أعداء الدين الديون ، وأسرع ما تبلغ به المقاصد فيما يرى قريبا وهو أبعد ما يكون ؛ وأنكى ما تقذف به عن الأهلة شهب الحتوف ، وأسبق ما تدرك به الأغراض قبل

---

(١) فى الأصل : « جد الفكر » وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : « رويد الشرك » .

(٣) فى الأصل : « منها ... » وهو تحريف .

(٤) فى الأصل « من الوغى » .

أن تعرف بها الرماح أو تشعر[(١)] بمكانها السيوف، ما طلع فى سماء النقع قوسه إلا سح وبل النبل، ولا استبقت الآجال وسهمه إلا كان له فى بلوغها السبق من بعد والسبق من قبل . ومن شرف قدره الذى دل عليه كلام النبوة، أن النبى صلى الله عليه وسلم نبه على أنه المراد بقوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .ومن أسباب فضله الذى أصبح بها قدره ساميا، ونخره ناميا، وقطره فى أفق النصر هاميا، ما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم لفتية ممن أسلم من أسلم : "ارموا يا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا" . ومما عظمت به على الأمة المنة، وغدت فيه نفوس أرباب الجهاد بالفوز فى الدنيا والآخرة مطمئنة، قوله صلى الله عليه وسلم : "تعلموا الرمى فإن ما بين الغرضين روضة من رياض الجنة".ومن فضل الرمى الذى لا يعرف[(٢)] التأويل، ما نقل من قوله صلى الله عليه وسلم : "من رمى بسهم فى سبيل الله أخطأ أو أصاب فكأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل" . ومما يرفع قدر السهم [ما روى[(٣)] عنه صلى الله عليه وسلم من قوله : "إن الله يدخل بالسهم] الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب فى صنعته الخير وراميه ومنبله" . ومما حضهم به على الرمى ليجتهدوا فيه ويدأبوا: قوله صلى الله عليه وسلم : "ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا" . ومن خصائص السهم أنه ذو خطوة فى الهواء وحكم نافذ فى الماء، وتصرف حتى فى الوحش السانح فى الأرض والطير المحلق فى السماء؛ يكلم بلسان من حديد، ويبطش عن باع مديد؛ إن رام غرضا طار إليه بأجنحة النسور، وإن حمى معلما أصاب الحدق وصان الثغور؛ يوجد بصره حيث فقد، وإذا انفصل عن أمه لم يسر من كبد إلا الى كبد؛ أنجز[(٤)] فعله على ما فيه من إخلاف الطباع، وشرفت

(١) فى الأصل : «أو ما تشعر ...» . (٢) فى الأصل : «الذى لا يصرف» .

(٣) تكملة للكلام فلعلها ، أو شيئا بمعناها ، سقطت سهوا من الناسخ. (٤) فى الأصل : «أنجد فعله» .

أجناسه بكونها ذات أجنحة مثنى وثلاث ورباع . ومن خصائص القوس أنها عقيم ذات بنين، صامتة وهى ظاهرة الأنين ؛ لها كبد وهى غير مجوفة، ويد لا تملك شيئا وهى فى الأرواح متصرفة ؛ ورجل ما نقلت قدما، وقبضة ما عرفت إثراء ولا عدما ؛ فهى نون ما ألف الماء، وهلال ما سكن السماء، وقاتلة ما باشرت الدماء .

ولما كان أهل هذه الفضيلة يتفاوتون فى مواهبها ، ويتباينون فى مذاهبها ؛ ويبلغ أحدهم بصنعته ما يبلغه الآخر بقواه، ويصل بإتقانه إلى ما لا يدركه من وجود (٩٠) التساوى سواه ؛ وكان فلان ممن له فى هذا الشأن الباع المديد والساعد الشديد، والإتقان الذى يتصرف به فى الرمى كيف يشاء ويضع به السهم حيث يريد ؛ كأنما سهمه بذرع الفضاء موكل ، أو لجمع بين طرفى الأرض مؤهل ، أو لسبق البروق معد إذا لمعت فى حواشى السحاب المفوفة وخطرت فى هذاب الدمقس المفتل . وله المواقف التى تشق سهامه فيها الشعر، وتبلغ بها من الأغراض المتباعدة ما يشق إدراكه على النظر؛ فمنها أنه لما كان فى اليوم الفلانى فعل كذا وكذا . ووصف ما فعله .

هذا شىء مما قيل فى السلاح فلنذكر الجنن .

## ذكر ما قيل فى الجنة

والجنة : ما اتقى بها كالترس، والبيضة، والدرع .

فأما الترس — فمن أسمائه : "بصيرة" . "ترس" . "جوب" . "جنة" . "حجفة" وهى الترس الصغير، وجمعها حجف . "درقة" وجمعها درق . "عنبر"[1] وهو الترس . "فرض" وهو الخفيف؛ قال الهذلى :

(١) فى الأصل : « عنتر » وهو تحريف .

أَرِقْتُ له مِثْـلَ لَمْعِ البشيرِ * يُقَلِّبُ بالكفِّ فَرْضًا خَفِيفًا

"قَفَعٌ" والقَفْعُ جُنَنٌ كالمَكَابِّ تُتخذ من الخشب يدخل الرجالُ تحتها إذا زحفوا على الحصون . ويسمونها فى زماننا الحنويات . "قَرَّاعٌ"(١) وهو الترس الصلب . "كَنِيفٌ" وهو الساتر لأنه مشتق من الاكتناف . "لاى"(٢) . "مِجَنٌّ" . "مِجْنَأٌ" . "مِجْوَلٌ" . "مُطْرَقٌ" . "مِجْنَبٌ" . "يَلَبٌ" . قال الشاعر :

عليهمْ كلُّ سابغةٍ دِلَاصٍ * وفى أيديهـمُ اليَلَبُ المُدَارُ

ويسمى مَقْبِض الترس صِنَارَةً .

* * *

وأما ما وُصِفَ به حاملُ الترس — يقال : "تَارِسٌ" و"تَرَّاسٌ" إذا كان معه الترس . "ومُحَاجِفٌ" وهو صاحب الحَجَفَة فى القتال .

* * *

وأما البيضة — فمن أسمائها : "بَيْضَةٌ" وهى واحدة البَيْض من الحديد . "جَمَّاءُ غَفِيرٌ" وهو البَيْضة من الحديد والجماعةُ من الناس . "خَيْضَعَةٌ" . قال لبيد :

* والضاربونَ الهـامَ تحت الخَيْضَعَه *

"دَوْمَصٌ"(٣) . "تَرِيكَةٌ" . "عَمَامَةٌ" وجمعها عمائم وعِمَامٌ . "عَرْمَةٌ" . "مِغْفَرٌ" وهو زَرَدٌ على قَدْر الرأس .

---

(١) فى الأصل « قراع » وهو تحريف .

(٢) كذا بالأصل ، ولم نهتد الى ما يؤيدها أو الى ما تكون محرفة عنه .

(٣) كذا فى كتب اللغة ، وفى الأصل : « دمص » .

\+
\+ +

ومن أسماء أجزائها — "سابغ" وهو الذى يستر العنق. "قونس" وهو أعلى البيضة من الحديد. قال حسين بن الضحاك[(١)]:

بمطرد لدن صحاح كعوبه * وذى رونق عضب[(٢)] يقد القوانسا

\+
\+ +

وأمّا ما يوصف به لابسها — يقال: "مقنع" والمقنع هو الذى يلبس بيضة ومغفرا. هذا ماقاله صاحب كتاب خزائن السلاح. وقال غيره: من أسمائها "التركة" وهى المستديرة، وجمعها الترك والترائك[(٣)].

\+
\+ +

وأما ما قيل فى الدرع — وهو يؤنث ويذكر. وله أسماء: منها "بصيرة"، "جارن" وجمعه جوارن. "جوشن". "حلقة" وهى الدروع. "خدباء" وهى الدرع اللينة؛ قال الأصمعى:

* خدباء يحفزها نجاد مهند *

"درع". "دلاص". "دلامص". وهو الدرع البراق. "دخاس" أى متقارب الحلق. "درمة". "ذائلة" وهى الطويلة الذيل، "زغفة". "سلوقية". "سابرية".

---

(١) فى شرح القاموس واللسان (مادة قنس) نسب هذا البيت إلى حصيل بن سجيح الضبى. وقد ذكر اللسان قبله:

وأرهبت أولى القوم حتى تنهنهوا * كما ذدت يوم الورد هيما خوامسا

(٢) كذا فى اللسان؛ وفى الأصل: «عذب».

(٣) ظاهر كلام المؤلف أن الترك والترائك جمعان لتركة؛ وليس الأمر كذلك بل الترائك جمع لتريكة، وهى من أسماء البيضة أيضا.

وجمعها سابِريّات . وهى الرقيقة النَّسْج . "سَابِغَةٌ" وهى الواسعة . "سُكٌّ" ضيّقة الحَلَق ، "سَرْدٌ" اسمٌ جامع للدروع . "سَنَوَّرٌ" ؛ قال لَبِيد يرثى قتلى هوازن :

وجاءُوا به فى هَوْدَجٍ ووراءه ‏ ٭ ‏ كتائبُ خُضْرٌ فى نَسِيجِ السَّنَوَّرِ

"صَمُوتٌ" التى إذا صُبَّت لم يُسمع لها صوت . "فَضْفَاضَة" أى واسعة . "قَضَّاء" أى خشنة المس ؛ قال النابغة :

٭ ونَسْجُ سُلَيْمٍ كلَّ قَضَّاءَ ذائلِ ٭

"لأمَةٌ" وجمعها لُؤَمٌ . "لَبُوسٌ" . "مَاذِيّة" . "مُضَاعَفَةٌ" وهى التى نُسِجَت حَلْقتين حَلْقتين . "مَوْضُونة" أى منسوجة . "مُسَرَّدَةٌ" و"مَسْرُودة" أى مثقوبة . "نَثْرة" وهى الواسعة . "نَثْلَة" . "يَلَبٌ" وهى الدرع اليمانية تُتّخذ من الجلود ؛ قال عَمْرو بن كُلْثوم :

٭ علينا البَيْضُ واليَلَبُ اليمانى ٭

٭ ٭ ٭

ومن أسماء أجزاء الدرع — "الحِرْباء" وهى مسامير الدروع ؛ قال لبيد :

أَحْكَمَ الجُنْثِىُّ من عَوْراتها ‏ ٭ ‏ كُلَّ حِرْباءٍ إذا أُكْرِهَ صَلّ

"رَيْعٌ" رَيْع الدرع : فُضُول كُمّيها على أطراف الأنامل ؛ قال قَيْس بن الخطيم الأنصارىّ :

مُضاعَفة يَغْشَى الأنامِلَ رَيْعُها ‏ ٭ ‏ كأنّ قَتِيرَها عُيونُ الجَنادِبِ

"قَتِير" : رءوس المسامير فى الدروع .

٭ ٭ ٭

وأمّا ما يُوصف به لابس الدرع — يقال : "خَشْخَاشٌ" : جماعة عليهم سِلاح ودروع ؛ قال الكميت :

فى حومة الفيلق الجأواء إذ ركبت (١) * قيس وهيضلها الخشخاش إذ نزلوا

"خرساء" يقال : كتيبة خرساء، التى لا يسمع لها صوت من وقارهم فى الحرب (٢). وقيل التى صمتت من كثرة الدروع . "دارع" هو لابس الدرع، "كافر"، يقال : قد كفر فوق درعه أى ستره إذا لبس فوقه [ثوبا] (٣). "مسبغ" يقال: رجل مسبغ: عليه درع سابغة .

* * *

وأمّا اذا لم يكن عليه درع ولا مغفر — "نثر" أى نثر درعه عنه إذا ألقاها، ولا يقال : "نثلها" . ويقال : "أحمر" أى لا سلاح معه . "أعزل" . "حرض" . "عطل" وجمعه أعطال .

* * *

وقد وصف الشعراء الدروع فى أشعارهم ، فمن ذلك ما قاله امرؤ القيس :

ومسرودة النسج موضونة * تضاءل فى الطى كالمبرد

تفيض على المرء أردانها * كفيض الأتى على الجدجد (٤)

قال ثعلب :

فنهنهته حتى لبست مفاضة * دلاصا كلون النهى ريح وأمطرا

وقال البحترى :

يمشون فى زرد (٥) كأن متونها * فى كل معركة متون نهاء (٦)

---

(١) الفيلق الجأواء : بينة الجأى ، وهى التى يعلوها لون السواد لكثرة ماعليها من الدروع . والهيضل : الجيش العظيم . (٢) ظاهر أن مرجع الضمير هاهنا الكتيبة مرادا بها الأفراد .

(٣) زيادة يقتضيها السياق . (٤) الأتى : السيل . والجدجد : الأرض الصلبة المستوية .

(٥) فى ديوان البحترى : «يمشون فى زغف ...» .

(٦) نهاء : جمع نهى ، والنهى : الغدير .

بَيْضٍ تَسِيلُ على الكُمَاة فُضُولُها * سَيْلَ السَّرَابِ بقَفْرةٍ بَيْـداءِ
وإذا الأسِنَّةُ خالطتْها خِلْتَهـا * فيهـا خَيَالَ كواكبٍ فى ماء

قال محمد بن عبد الله السلامىّ :

يا رُبَّ سابغــةٍ حَبَتْنِى نِعْمةً * كافأتُهـا بالسّــوء غيرَ مفنّدِ
أضحتْ تصونُ عن المنايا مُهْجتى * وظَلِلْتُ أبذُلُهـا لكلّ مُهنَّـدِ

وقال عبد الله بن المعتزّ :

كم بطـلٍ بارَزَنى فى الوَغى * عليــه درعٌ خلتُها تَطَّـرِدْ
كأنّهـا ماءٌ عليـــه جَرَى * حتى إذا ما غابَ فيـه جَمَـدْ

(٩٢) وقال آخر :

وأرعنَ[1] ملمومِ الكتائبِ خيلُه * مُضَرَّجةٌ أعْرافُها ونحورُها
عليها مُذَالاتُ[2] القُيُونِ كأنّها * عيونُ الأفاعِى سَرْدُها وقَتِيرُها

وقال آخر :

وَزَنَتْ كتائبُها الجبالَ وسُرْبِلَتْ * حَلَقَ الحديدِ فأظهرتْه عَتَادَها
فتخالُ موجَ البحرِ فى جَنَباتِها * والبرقَ لَمْـعَ قَتِيرِها وسَرادَها

وقال سَلْمٌ الخاسر :

كأنّ حَبَابَ الغُدْرِ مارَ عليهمُ[3] * وما هو إلّا السابغاتُ المَوائرُ

وقال ابن المعتزّ :

بجيشٍ لا غَوْثَ إلّا صارِمٌ ذَكَرٌ * وجُنّــةٌ كحَبَابِ المـاءِ تغشانى

---

(١) الأرعن : الجيش المضطرب لكثرته .

(٢) المذالات : الدروع الطويلة ، من أذال الرجل ثوبه أو درعه أطال ذيلها .

(٣) الغدر : جمع غدير . مار عليهم : ماج واضطرب .

وقال محمد بن عبد الملك :

نَبَهتُ أُولَاها بضَرْبٍ صادقٍ ∴ هَتِنٍ كما شُقَّ الرداءُ المُعْلَمُ

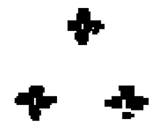
وعلى سابغــةُ الذيولِ كأنها * سِلخٌ كَسَانِيه الشجاعُ الأرقمُ

وقال المتنبّى :

تَخُطّ فيها العوالِى ليس تَنفُذُها ، كأنّ كلَّ سِنانٍ فوقها قَلَمُ

وقال كلثوم :

كأنّ سَنَا المَاذِىِّ فوقَ مُتُونِهِمْ ~ مَوَاقِدُ نارٍ لَمْ تُشَبْ بدُخَانِ



ومن الرسائل الشاملة لأوصاف السلاح — فمن ذلك ما أجابنى به المولى الفاضل تاج الدين بن عبد المجيد اليمانى ، وقد كتبتُ إليه ألتمس رسالة من كلامه فى أوصاف السلاح ، وذلك فى شهور سنة سبع وسبعمائة . كتب :

أمرتنى — أعزك الله ، وأعلى فى مراتب السعود جدودك — أن أبعث إليك بشىء من كلامى يتضمن وصف سلاحٍ متنوعِ الأجناس ، مرهوبٍ بالسطو[1] والبأس ؛ فامتثلت مرسومك وبادرت الى ذلك ، لما يتجه علىّ من حقوقك الواجبة ، ومن مفترضات خدمتك اللازبة ، وأنشأت لك هذه النُّبذة مرتجلا فيها ، ورتّبتها على التهيؤ لمراتب القتال ، وقدمتُ الدرع ، وتلوته بالقوس وأعقبته بالرمح ، وختمته بالسيف .

فمن ذلك فى وصف درع :

خليقٌ بمثله أن يُفاض عليه مثلُ هذه الفَضْفَاضه ، وأن يبلغ بها من نيل الأعداء أمانيه وأغراضه ، وأن يتخذها جُنَّةً تَقيه سوءَ المَزَارِيق فى حَوْمة القتال ، وأن

(1) فى الأصل : «مرهوب بالسطا» . ولم نجد فى كتب اللغة التى بأيدينا أن سطوة تجمع على سطا ، وإنما تجمع على سطوات .

يتدرّعها فتختال عليه غديرًا صافحت صفحته يد الشَّمال، إن نُشرت على الجسد غطّت الكعبين، وإن طُويت فكالبرد فى يد القَيْن؛ حميدة الملبس ميمونة المساعى، مسرودة النسج فى عيون الأفاعى؛ داودية النسب تبّعيّة المعزى؛ قد تقاربت فى الحلق وتناسبت فى الأجزا.

وأعددت للحرب فضفاضة ؞ تضاءل فى الطى كالمبرد

دلاص ولكن كظهر النون لا يستطيعها سنان، وموضونة ولكن يحيّر البصر فيها عند العيان: أموج بحر يتلاطم فى جوانبها أم حباب غدران. مشفوعة بقوس طلعت هلالا فى سماء المعارك، ومجرّة تنقض منها نجوم المهالك؛ ووكرا تسرح منه نسور المعاطب، وأمّا تفرّق أولادها لإحراز الغرض من كلّ جانب؛ تصرع بسهامها كلّ رامح ونابل، وتبكى ومن العجب أن يبكى القتيل القاتل؛ تطيعك فى أوّل النزع وتعصيك فى آخره، وترسل سهمًا فلا يقنع من العدوّ إلا بسواد ناظره؛

إذا أنبض الرامون عنها ترنّمت * ترنّم ثكلى قد أصيب وحيدها

تهابها الأقران، وتحاماها الشجعان، ويؤمن بمرسلها كلّ شيطان من الإنس والجان.

ووصف الرمح فقال: وإنّ أولى ما اعتقل مولانا من الخطّىّ ما سلب الروم زرقتها، والعرب سمرتها، وأشبه العاشق ذبولا واصفرارا، وخالط الضرغام فى غيله فهو يلقى من بأسه عند المطاعنة أخبارا، وهزّه الفارس فالتقى طرفاه، وخيّل لرائيه أنّ ثعلبه[1] قد فغر فاه؛ إن حمله الدارع قلت غصنا على غدير، وإن هزّه الفارس وألقاه قلت حيّة على وجه الأرض تسير؛ فهو كالرشاء لكن لا يرضى قليبا غير القلب، أو كالعدوّ الذى لا يهوى إلا إزالة ما فى شُغُف[2] القلوب من حبّ.

---

(١) الثعلب: طرف الرمح الداخل فى جبة السنان. والجبة: رأس الرمح فى أسفل السنان.

(٢) فى الأصل «شغوف القلوب» والشغاف، وهو سويداء القلب أو غشاؤه، انما يجمع على شغف.

له رائدٌ ماضي الغِرارِ كأنّه * هلالٌ بدَا فى ظُلمة الليل ناحلُ

طالما رجَعَ سوسَنُه عند المُطاعنة شَقيقا، ومزّق نجمُه(١) جلابيبَ ظُلمة القسطَل والعِثير تمزيقا؛ له النَّسَبُ العالى فى المَعالى والمُرّان، لأن سِنانَه سنَا لهَبٍ لم يتّصلْ بدُخَان؛ مقرونًا بسيف ماتأمّله الرائى إلا وأُرعِدَت صَفْحتاه من غير هَزّ، أو صَمّمت شفرتاه فى مَحَزّ فلا ينبو حتى يَفرِىَ ذلك المَحَزّ؛ يُرى فوق مَتْنِه بقيّةُ غيمٍ يُستَشَفّ منها لونُ السماء، وفى صَفْحة فِرِنْده نارٌ تتأجّج فى خَلال لُجّة من الماء؛ كأنّ صَيْقله كَتَب على فِرِنْده أو نَقَش، أو كأنّ ٱلقَيْن تَنَفّس فيه وهو صَقيلٌ فألبسه حُلّةً من نَمَش؛ حلّت بساحته المنايا فهى فيه كَوَامن، وتبوّأتْ مقاعدَه الأمانى فلإدراكها من فعله قرائن؛ إذا توغّل [فى] هامة الجبّار سارَ وأوْجَف، ومتى ٱستوطن جثّة الجرم(٢) أوهى مبانيها وأشرف.

ماضٍ وإن لم تُمضِه يدُ فارسٍ * بطَلٍ ومصقولٌ وإن لم يُصْقَلِ
يغشَى الوَغَى فالتُّرْسُ ليس بجُنّةٍ * من حدّه والدِّرْعُ ليس بمَعْقِلِ
مُتوقِّدٌ يَفرِى بأوّل ضَرْبةٍ * ما أدركتْ ولَوَ آنّها فى يذْبُلِ
وإذا أصابَ فكلُّ شيءٍ مَقْتَلٌ * وإذا أُصيبَ فماله من مقتلِ

(١) فى الأصل : «نجمه» .

(٢) كذا بالأصل . ولعلها جثة الجريم ، والجريم : ذو الجرم الضخم .

# الباب الحادى عشر

## من القسم الخامس من الفن الثانى

## فى القضاة والحكام

وحيث ذكرنا الإمام ومايجب له وعليه وقواعد المملكة، فلنذكر القُضاة والحكّام.

قال الله عز وجل : ( إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) ، وقال تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) . وقال تعالى : (فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ) . وقال : ( وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِٱلْقِسْطِ)، الى غير ذلك من الآى.

ولا يجوز أن يُقَلَّدَ القضاءَ إلا من ٱجتمع فيه ثمانية شروط، وهى : الذكوريّة، والبلوغ، والعقل، والحرّيّة، والإسلام، والعدالة، وسلامة السمع والبصر، والعلم بأحكام الشريعة . ولكل شرط من هـذه الشروط فوائد نشرح ما تلخّص منها إن شاء الله .

أما الذكورية — فلقوله عز وجل : (ٱلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى ٱلنِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) قيل : المراد بالتفضيل هنا العقلُ والرأى، ولما رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "النِّسَاءُ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ ودِينٍ"، ولنقص النساء عن [رتب][(١)] الولايات .

وقال أبو حنيفة : يجوز أن تقضىَ المرأةُ فيما تصحّ فيه شهادتُها دون ما لا تصحّ فيه. وجوّز الطبرىّ قضاءَها فى جميع الأحكام . والإجماعُ يردّ ذلك .

(١) الزيادة عن «الأحكام السلطانية» .

وأما البلوغ — فلأن غير البالغ لا يجرى عليه قلم، ولا يتعلق بقوله على نفسه حكم، فكان أولى ألا يتعلق به على غيره.

وأما العقل — [فهو مجمع على اعتباره، و](١) لا يكتفى فيه بالعقل الذى يصح معه التكليف من العلم بالمدركات الضرورية، حتى يكون صحيح التمييز جيد الفطنة (٩٦) بعيدًا من السهو والغفلة، ليتوصل بذكائه الى وضوح ما أشكل، وحل ما أبهم وأعضل.

وأما الحرية — فنقص العبد عن ولاية نفسه يمنع من انعقاد ولايته على غيره؛ ولأن الرق لما منع من قبول الشهادة كان أولى أن يمنع من نفوذ الحكم وانعقاد الولاية. وكذلك الحكم فيمن لم تكمل حريته كالمدبر والمكاتب(٢) ومن رق بعضه. ولا يمنع الرق من الفتيا والرواية.

وأما الإسلام — فلقوله عز وجل: (وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا). وهو شرط فى قبول الشهادة. ولا يجوز أن يقلد الكافر القضاء على المسلمين ولا على الكفار. ورأى أبو حنيفة جواز تقليده القضاء بين أهل دينه. وقد جرى العرف فى تقليد الكافر؛ وهو تقليد زعامة ورياسة لا تدخل تحته الأحكام والإلزام بقضائه، ولا يقبل الإمام قوله فيما حكم به بينهم. واذا امتنعوا من تحاكمهم إليه لم يجبروا عليه، وكان حكم الإسلام عليهم أنفذ.

وأما العدالة — فهى معتبرة فى كل ولاية. ومعناها أن يكون الرجل صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفًا عن المحارم، متوقيًا للمآثم، بعيدًا من الريب، مأمونًا

---

(١) لم يظهر الخط فى الأصل الفتوغرافى، وهذه التكملة من كتاب الأحكام السلطانية.

(٢) المدبر: العبد الذى يعلق سيده عتقه على موته بأن يقول له: أنت حر بعد موتى. والمكاتب: العبد الذى يكاتب على نفسه بثمنه فاذا أداه عتق.

فى حالتى الرضا والغضب، مستعملا لمروءة مثله فى دينه ودنياه . فإذا تكاملت هذه الأوصاف فيه، فهى العدالة التى تجوز بها شهادته وولايتـه . وإذا لم يكن كذلك فلا تسمع شهادته و[لا](١) تنفذ أحكامه .

وأما سلامة السمع والبصر — فليصح بها إثباتُ الحقوق، و يفرق بها بين الطالب والمطلوب، و يميز المقر من المنكر، ليظهر له الحق من الباطل، والمحق من المبطل .

وأما العلم بأحكام الشريعة — فالعلم بها يشتمل على معرفة أصولها وفروعها. وأصول الأحكام فى الشرع أربعة :

أحدها — علمه بكتاب الله عز وجل على الوجه الذى يصح به معرفة ما تضمنه من الأحكام ناسخا و منسوخا، ومحكما ومتشابها، وعموما وخصوصا، ومجملا ومفسرا .

والثانى — علمه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة من أقواله وأفعاله، وطرق مجيئها فى التواتر والآحاد، والصحة والفساد، وما كان على سبب أو إطلاق .

والثالث — علمه بأقاويل السلف فيما أجمعوا عليه واختلفوا فيه، ليتبع الإجماع ويجتهد رأيه مع الاختلاف .

والرابع — علمه بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها الى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها، حتى يجد طريقا الى العلم بأحكام النوازل وتمييز الحق من الباطل . فاذا أحاط علمه بهذه الأصول الأربعة فى أحكام الشريعة، صار بها من أهل الاجتهاد فى الدين، وجاز له أن يفتى ويقضى . وإن أخل بها أو بشىء منها، خرج من أن

(١) تكملة من الأحكام السلطانية .

يكون من أهــل الاجتهاد ، ولم يجز أن يفتى ولا أن يقضى . فان قُلّد القضاء فحكم بصواب أو خطإ كان تقليدُه باطلا ، وحكمُه وإن وافق الصوابَ مردودا ، وتوجّه الحَرَجُ عليه وعلى من قلّده . وجوّز أبو حنيفة تقليدَ القضاء من ليس من أهل الاجتهاد ، ويَستفتى فى أحكامه وقضاياه .

هذا معنى ما قاله أقضى القُضاة أبو الحسن على المــاوردىّ .

وقال الحسين الحَليمىّ فى كتابه المترجم بـ"المنهاج": وينبغى للإمام ألّا يُوَلّى الحكم بين الناس إلا من جمع إلى العلم السكينةَ والتثبُّت ، والى الفهم الصبرَ والحلمَ ، وكان عَدْلا أمينا نَزِهًا عن المَطَامع الدنيّة ، وَرِعًا عن المطامع الرديّة ، شديدًا قويًّا فى ذات الله ، متيقّظا متخوّفا من سخَط الله ، ليس بالنِّكْس الخَــوّار فلا يُهَاب ، ولا المتعظِّم الجَبَّار فلا يُنْتاب ، لكن وَسَطًا خِيارا . ولا يدع الإمام مع ذلك أن يُديم الفَحْص عن سيرته ، والتعرُّف بحالته وطريقته ، ويقابلَ منه ما يجب تغييرُه بعاجل التغيير ، وما يجب تقريرُه بأحسن التقرير ، ويرزقه من بيت المــال — إن لم يجدْ من يعملُ بغير رزق — ما يعلم أنه يكفيه ، ولا يُقصِّر به عن كِفَايته ، فيتطلَّع الى أموال الناس ويشتغل عن أمورهم بطَرَف من الاكتساب يجبُر به ما نَقَصه الإمام من كِفَايته ، فتختلّ بذلك القواعد . وإذا رزق [الإمامُ] القاضىَ فلا يُصيب وراء ذلك من رعيّته شيئا ، لقوله صــلى الله عليه وسلم : "مَنِ آستعملْناه على عَمَل من أعمالنا ورزَقْناه شيئا فمــا أصابَ بعد ذلك — أو ممــا سوى ذلك — فهو سُحْت" . وإن أُهْدِىَ إليه شىءٌ ، لم يكن له قبوله . فإن كان للمُهدِى قِبَلَه خصومةٌ فأهْدى ليَحكم له أو لئلّا يحكم عليه ، فهذا هو الرّشوة ، وهو سُحْت . وقد لَعَن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرَّاشِىَ والمُرتشِىَ والرائشَ ؛ وهو الذى يمشى بينهما . وإن أَهْدى اليه المحكوم له بعــد الحكم تشكّرا ، لا يقبلْه ؛ لأنّ ما فعل كان واجبا عليه .

(٩٥)

قال : ويقوّى الامامُ يده ويشُـدّ أَزْرَه، ويكُفّ العمال وغيرهم عن معارضه ومزاحمته. ويأمرهم جميعا بطاعته، ولا يُرَخص لأحد منهـم فى الامتناع عليه اذا دعاه. والخروج عن أحكامه إن أمره أو نهاه، فيما يتصل بالانقياد للحكم .

ويتوقى أن يُقال فى مجلسه : هذا حكم الله، وهذا حكم الديوان؛ فإن هـذا من قائله إشراك بالله؛ إذ لاحكم إلا لله. قال الله عز وجل : (فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)، وقال تعالى : (أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) . وقال تعالى : (وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) . وقال : (لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) .

قال : وإن سمـع بذلك واليه فأقره عليه كان مثله؛ قال الله عز وجل : (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّٰهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ) . فاذا كان هـذا فى القعود معهم فكيف بإقرارهم والاستحسان لهم .

---

## ذكر الألفاظ التى تنعقد بها ولاية القضاء، والشروط

قال الماوردى : وولايةُ القضاء تنعقد بما تنعقد به الولاياتُ : من انعقادها مع الحضور باللفظ مشافهةً، ومع الغيبة بمراسلة أو مكاتبة . لكن لابدّ مع المكاتبة أن يقترن بها من شواهد الحال مايدلّ عليها عند المُوَلَّى وأهل عمله .

والألفاظ التى تنعقد بها الولاية ضربان : صريح وكناية .

فالصريح أربعة ألفاظ وهى : قد ولّيتك، وقلّدتك، واستخلفتك، واستنبتك . فاذا أتى المُوَلِّى بأحد هـذه الألفاظ انعقدت الولاية بالقضاء وغيره من الولايات، ولا يحتاج مع هذا الصريح إلى قرينة أخرى، إلا أن يكون تأكيدا لا شرطا .

وأما الكناية فهى سبعة ألفاظ . وهى : قد آعتمدت عليك، وعوّلت عليك، ورددت إليك، وجعلت إليك، وفوضت إليك، ووكّلت إليك، وأسندت إليك. فهذه الألفاظ [ لما تضمنته من الاحتمال ] (١) تضعف عن حكم الصريح حتى يقترن بها فى عقد الولاية ما ينفى عنها الاحتمال (٢) وتصير فى حكم الصريح، مثل قوله : فانظر فيما وكّلته إليك، وآحكم فيما آعتمدتُ فيه عليك . فتصير الولاية بهذه القرينة مع ما تقدم من الكناية منعقدة . ثم تمامها موقوف على قبول المُوَلَّى. فإن كان التقليد مشافهةً فقبولُه على الفور لفظا، وإن كان بمراسلة أو مكاتبة جاز أن يكون على التراخى. وآختلف فى صحة القبول بالشروع فى النظر، فجوّزه بعضهم وجعله كالنطق، ومنعه آخرون حتى يكون نطقا، لأن الشروع فى النظر فرع لعقد الولاية، فلم ينعقد قبولها به .

فهذه الألفاظ التى تنعقد بها الولاية .

## وأما شروطها فأربعة

أحدها — معرفةُ المُوَلِّى للمولَّى أنه على الصفة التى [يجوز أن يولّى معها، فإن لم يعلم أنه على الصفة التى] (١) تجوز معها تلك الولاية لم يصحّ تقليده، فلو عرَفها بعد التقليد آستأنفها، ولا يعوّل على ما تقدمها .

والثانى — معرفة المولَّى بما عليه المُوَلِّى من آستحقاق تلك الولاية بصفاته التى يصير بها مستحقا لها ، وأنه قد تقلدها وصار مستحقا للاستنابة فيها . إلا أن هذا (٩٦) الشرط معتبر فى قبول المولَّى وجواز نظره، وليس بشرط فى عقد تقليده وولايته، بخلاف الشرط المتقدم . وليس يُراعى فى هذه المعرفة المشاهدةُ بالنظر، وإنما يراعى انتشارها بالخبر الشائع .

(١) التكملة من الأحكام السلطانية .

(٢) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل : «حتى يقترن بها عقد الولاية فينفى عنها الاحتمال» .

والثالث — ذكر ما تضمّنه التقليد من ولاية القضاء بصريح التسمية .

والرابع — ذكر تقليد البلد الذى عُقدت الولايةُ عليه ليُعْرَف به العملُ الذى يستحقّ النظرَ فيه، ولا تصحّ الولاية مع الجهل به .

فاذا ٱنعقد التقليد تمّت الولاية بهذه الشروط والألفاظ . وٱحتاج المولّى الى شرط زائد على شروط العقد، وهو إشاعة تقليده فى أهل عمله ليُذْعنوا بطاعته وينقادوا الى حكمه . وهو شرط فى لزوم الطاعة وليس بشرط فى نفوذ الحكم .

فاذا صحّت عقدًا ولزومًا بما وصفناه، صحّ فيها نظر المولِّى والمولَّى [كالوكالة، لأنهما معا ٱستنابة . ولم يلزَم المقامُ عليها من جهة المولِّى ولا من جهة المولَّى . وكان للمولِّى عزله] (١) عنها متى شاء، وللمولَّى عزلُ نفسه متى شاء؛ غير أن الأَوْلى بالمولِّى أَلَّا يعْزِلَه إلا بعُذْرٍ، وألّا يعتزل المولَّى إلا من عذر؛ لما فى الولاية من حقوق المسلمين. واذا عُزِلَ أو ٱعتزل وجب إظهارُ العزل كما وجب إظهار التقليد، حتى لا يُقْدِم على إنفاذ حكم ولا يغترّ بالترافُع اليه خَصْم . فإن حكم بعد العلم بعزله لم ينفُذْ حكمه، وإن حكم غيرَ عالم بعزله كان فى نفوذ حكمه وجهان، كاختلافهما فى عقود التوكيل .

وحيث ذكرنا ما تصح به الولاية وتنعقد به من الألفاظ والشروط ، فلنذكر مايشتمل عليه النظر فى الأحكام .

## ذكر ما يشتمل عليه نظر الحاكم المطلق التصرّف من الأحكام

قال الماوردىّ : اذا كانت ولاية القاضى عامّة وهو مطلق التصرّف فى جميع ما تضمّنته، فنظره يشتمل على عشرة أحكام :

---

(١) التكملة من الأحكام السلطانية .

أحدها — فصلُ المنازعات وقطع التشاجرُ والخصومات، إمّا صلحاً عن تَرَاضٍ يُرَاعَى فيه الجوازُ، أو إجباراً بحكم باتٍّ يُعتبر فيه الوجوب .

والثانى — استيفاء الحقوق ممن آمتنع من القيام بها و إيصالها الى مستحِقّها من أحد وجهين : إقرارٍ أو بينة . وآختُلف فى جواز حكمه فيها بعلمه، فجوّزه مالك والشافعىّ فى أصحّ قولَيْه؛ وقال أبو حنيفة : يجوز أن يحكم بعلمه فيما علمه فى ولايته، ولا يحكم بما علمه قبلها .

والثالث — ثبوتُ الولاية على من كان ممنوعَ التصرُّف بجنون أو صِغَر، والحجر على من يرى الحجرَ عليه لسَفَهٍ أو فَلَس، حفظًا للأموال على مستحِقّيها، وتصحيحاً لأحكام العقود فيها .

والرابع — النظر فى الوقوف بحفظ أصولها وتمير فروعها وقبض غَلّتها وصَرْفها فى سبلها . فإن كان عليها مستحِقٌّ للنظر فيها راعاه، و إن لم يكن تَوَلّاه .

والخامس — تنفيذُ الوَصَايا على شروط المُوصِى فيما أباحه الشرع ولم يحظُرْه . فان كانت لمعيَّنين كان تنفيذُها بالإقباض، و إن كانت فى موصوفين كان تنفيذُها أن يتعيّن مستحقّوها بالآجتهاد و يملكوا بالإقباض . فان كان فيها وَصِىّ راعاه، و إن لم يكن تولّاه .

والسادس — تزويج الأَيَامَى بالأكْفَاء اذا عُدِمَ الأولياءُ ودُعِينَ(١) الى النكاح . ولم يجعله أبو حنيفة — رحمه الله — من حقوق ولاية القاضى، لتجويزه تفرّدَ الأيِّم بعقد النكاح .

(١) كذا فى الأحكام السلطانية طبع مدينة « بن » وهو الذى يناسب المقام . وفى الأصل «ودعون ...» .

والسابع — إقامة الحدود على مستحقيها؛ فإن كان من حقوق الله تعالى تفرّد باستيفائه من غير طالب اذا ثبت بإقرار أو بيِّنـة ؛ وإن كان من حقوق الآدميين كان موقوفا على طلب مستحقّه . وقال أبو حنيفة : لا يستوفيهما معًا إلا بخصم مطالب .

والثامن — النظر في مصالح عمله من الكفّ عن التعدّى فى الطرقات والأفنية، وإخراج ما لا يستحق من الأجنحة والأبنية؛ وله أن يتفرّد بالنظر فيها وإن لم يحضره خصم . وقال أبو حنيفة : لا يجوز له النظر فيها إلا بحضور خصم مستعدٍ . وهى من حقوق الله تعالى التى يستوى فيها المستعدى والمستعدَى إليه، فكان تفرّد الوُلاة بها أخصّ .

التاسع — تصفّح شهوده وأمنائه، واختيار النائبين عنه من خلفائه فى إقرارهم والتعويل عليهم مع ظهور السلامة والاستقامة، وصرفهم والاستبدال بهم مع ظهور الجَرح والخيانة.[1] ومن ضَعُف منهم عمّا يُعانيه، كان مُولّيه بين خيارين يأتى أصلحهما: ٩١
إما أن يستبدل به مَنْ هو أقوى منه وأكفى، وإما أن يضمّ اليه من يكون اجتماعهما عليه أنفذ وأمضى .

والعاشر — التسويةُ فى الحكم بين القوىّ والضعيف، والعدلُ فى القضاء بين المشروف والشريف، ولا يتّبع هواه فى تقصير بحق أو ممايلةٍ لمُبْطِل . قال الله تعالى : (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) .

---

(١) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل : «والجناية» .

وقد آستوفى عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه فى عهده الى أبى موسى الأشعرى شروط القضاء وبيّن أحكام التقليد حين ولّاه القضاء، قال :

أما بعد، فإنّ القضاء فريضةٌ مُحْكَمَة وسُنّة مُتّبَعة. فافهم إذا أُدْلِىَ اليك. [وأَنْفِذْ اذا تبيّن لك][1] فإنه لا ينفع تكلّمٌ بحقٍّ لا نفاذَ له. وآسِ[2] بين الناس فى وجهك وعدْلك ومجلسك، حتى لا يطمعَ شريف فى حَيْفك، ولا ييأسَ ضعيف من عدلك. البيّنة على من آدّعى، واليمينُ على من أنكر. والصُّلْح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحلّ حرامًا أو حرّم حلالا. ولا يمنعك قضاءٌ قضيتَه أمسِ فراجعتَ اليومَ فيه عقلَك وهُديتَ فيه لرُشْدك أن ترجع الى الحق، فإنّ الحق قديم، ومراجعةُ الحقّ خيرٌ من التمادى فى الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتابٍ ولا سُنّة. ثم آعرِف الأمثال والأشباه، وقِسِ الأمور بنظائرها. وآجعل لمن آدّعى حقًّا غائبا أو بيّنةً أمدًا ينتهى اليه، فإنْ أحضر بيّنةً أخذتَ له بحقّه، وإلّا آستحلَلْتَ القضيّةَ عليه، فان ذلك أنْفى للشكّ وأجْلى للعمى. المسلمون عُدُولٌ بعضُهم على بعض، إلا مجلودًا فى حدّ، أو مجرَّبًا عليه شهادةُ زُور، أو ظَنِينًا فى وَلاءٍ أو نَسَب؛ فإن الله قد تولّى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان[3]، وإياك والغَلَقَ[4] والضَّجَرَ والتأفُّف بالخصوم، فإنّ آستقرار الحق فى مواطن الحق يُعظم اللهُ به الأجرَ ويحسن به الذكر. والسلام.

(١) التكملة من صبح الأعشى (ج ١٠ ص ١٩٣ طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة).

(٢) آس بين الناس : أى سوّ بينهم واجعل كل واحد منهم أسوة خصمه، أى حاله مثل حاله.

(٣) كذا فى صبح الأعشى. وفى الأصل «فإن الله سبحانه عفا عن الأيمان ورد البينات». وفيه تحريف. وورد فى المصدر الذى نقل عنه الأصل وهو الأحكام السلطانية : «فإن الله عفا عن الأيمان ودرأ بالبينات». وفى البيان والتبيين للجاحظ (ج ٢ ص ٢٤ طبع مطبعة الفتوح الأدبية بمصر): «فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات».

(٤) الغلق : ضيق الصدر وقلة الصبر.

## ذكر ما يأتيه القاضى ويذره فى حق نفسه

### اذا دُعى الى الولاية أو خطبها ، وما يلزم النـاس من آمتثال أمره وطاعته ، وما يعتمده فى أمر كاتبه و بطانته وأعوانه وجلوسه لفصل المحاكمات والأقضية

قال الحليمىُّ : واذا دعا الإمامُ رجلا الى القضاء ، فينبغى له أن ينظر فى حال نفسه وحال الناس الذين يُدْعَى الى النظر فى مظالمهم . فإن وَثِق من نفسه بالآستقلال والكِفَاية والاقتدار على أداء الأمانة ، وعَلِم أنه إن لم يقبَلْ صار الأمرُ الى من لا يكون للسلمين مثله ، فأولى به أن يجيب الى ما يُدْعَى اليه ويقبلَه ويحسنَ النية فى قبوله ، ليكون عمله لوجه الله تعالى . وإن وجد من يقوم مقامه ويسُدّ مَسَدّه فهو بالخيار ، والتمسّك أفضل . فأمّا إن لم يعلم من نفسه الآستقلال ، أو لم يأمَنْ أن يكون منه سوءُ التمسّك وقلة التمـالُك ، فلا ينبغى له أن يجيب . وهكذا إن كان هناك من هو خير منه علمـا وعقلًا وخُلُقًا . وإن عُرِض الأمر عليه فلا ينبغى له أن يتسارع الى ما يُدْعَى اليه ، لينظر ما الذى يكون من الآخر .

قال : واذا دعا الإمام رجلًا الى عمل من أعماله ، قضاءٍ أو غيره ، والرجلُ ممن يصلح له ، فأبى ، فإن وَجَد الإمامُ من يقوم مقامه فى ذلك أعفاه . وإن لم يجد من يقوم مقامه أجبره عليه آقتداءً بعُمَر بن الخطّاب رضى الله عنـه ، فإنه دعا سعيدَ بن عامر الجُمَحىَّ فقال : إنى مُستعملُكَ على أرض كذا وكذا ، فقال : لا تَفْتِنِّى ، فقال عمر : والله لا أدعُك ، قلّدتموها[1] عُنُقِى وتتركونى !

قال : واذا كان عند الرجل أنه يصلُح للقضاء فأراد أن يطلُبَه ، أو دعاه الإمامُ إليه فأراد أن يُجيبه ، فلا ينبغى له أن يُبادر بمـا فى نفسه من طَلَب أو إجابة حتى يسألَ

(١) فى الأصل : "تقلدتموها" .

أهلَ العلم والفَضْل والأمانة ممن خَبَرَه وعلم حاله، ويقول : إنى أُريد القضاء، فما ترون فى أمرى؟ وهل تعرِفون صَلَاحى لذلك أولا؟ فإن ذلك من المَشُورة التى أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بها، فقال تعالى : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) .

وقد قدَّمنا فى باب المشورة من فضيلتها مافيه غُنْيَةٌ عن تَكراره .

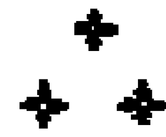
(٩٨) قال : وإذا سأل عن نفسه فينبغى للسئول أن يَنْصَح له ويَصْدُقَه، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَلَا إنّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ" قيل : لمن يا رسول الله؟ قال : "لله ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم" ولأن المستشارَ مُؤْتَمَنٌ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ غَشَّنا فليس مِنّا" .

واذا أراد تَقَلُّدَ القضاء فليستخِرِ الله تعالى ويسألْه التوفيقَ والتسديد . فإذا تقلّد فينبغى أن يُوَكِّل المتميِّزِين الثِّقات الأُمناء من إخوانه وأهل العناية بنفسه، ويسألَهم أن يتفقّدوا أحوالَه وأُموره، فإن رأَوا منه عَثْرةً نبّهوه عليها ليتداركها .

قال : وأيّما حاكم نُصِبَ بين ظَهْرَانَىْ قومٍ فينبغى لهم أن يسمَعُوا له ويُطيعوا، ويترافعوا اليه اذا آختلفوا وتنازعوا ؛ ليَفْصِلَ بينهم ؛ فإذا فَصَل آنقادوا لفَصْله وآستسلموا لحكمه . قال الله تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) . وقال تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) . وذمّ الله تعالى قوماً آمتنعوا من الحكم فقال : (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ

أَفِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ) .

قال : واذا ٱرتفع أحدُ الخصمين الى حاكم وسأله إحضارَ خَصْمِه فدعاه الحاكم فعليه أن يُجيبه؛ فإذا حَضَرَا فلا يخرُجَا عن أمر الحاكم؛ فأيُّهما خَرَج فهو عاصٍ؛ فإنما يقضى الحاكم بحكم الله . وللحاكم أن يؤدِّبه بما يؤدّيه ٱجتهاده . وأيُّما حاكمٍ أو والٍ دعا رجلًا من رعيّته ولم يعلم لِمَ يدعُوه، فعليه إجابتُه؛ وإن عَلِم أنه لدَعْوى رُفِعَتْ عليه من مدّعٍ، فإن كان ذلك المدّعى حضر مع رسول الحاكم فأرضاه، سَقَطَ عنه الذّهابُ الى الحاكم، وإن كان لم يحضر [هو] ولا وكيلٌ له، فليذهب ليجيب؛ ولا يَسَعُه التخلّف مع ترك الدّفع إلا فى حالة واحدة وهى أن يكون المدّعى كاذبا وقد أعدّ شهودا زُورًا لا يقدِر على دفع شهادتهم، نخشِىَ إن حضر أُقيمت الشّهادةُ عليه فحُبِس وأُخِذ منه المـال قهرا، أو يُفرَّق بينـه وبين ٱمرأته، فله أن يهرُبَ أو يتوارَى؛ فهذا موضع عُذْرٍ وضَرورةٍ فلا يُقاس عليه غيرُه . والله تعالى أعلم .



وأما كاتب القاضى وبطانته — قال الحَلِيمِىّ : وإذا ٱفتتح القاضى عَمَلَه وٱحتاج الى أعوانٍ يعملون له من كاتبٍ وأصحاب مسائل وقاسمٍ، فلا يتخذنّ إلا كاتبا مُسلما عَدْلًا أمينًا فَطِنًا متيقّظا؛ لأنه بِطانته ولا يغيب عنه من أمره وأمر المترافعين اليه شيء، وأمينُه وأمينُ المتخاصمين على ما يُثْبِته ويَخُطُّه . ولا يجوز أن يكون من غير أهل الدين، لقوله تعالى : ( يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) .

وكذلك القاسم ينبغى أن يكون أمينًا بصيرا بالفرائض والحساب، لأنّ القاسمَ شُعْبَةٌ

من شُعَب الحُكْم، فينبغى أن يكون من يَتَوَلّاه فى العَدَالة والأمانة والعلم الذى يحتاج اليه كمن يتولّى جميع شُعَبه . وكذلك أصحاب المسائل هم أُمَناء القاضى على الشهادات التى تَتَعَلّق بهـا حقوقُ المسلمين، فلا ينبغى أن يَأْمَن عليها إلا المستحِقَّ لأنْ يُؤْتَمَن، ولا يَثِق فيها إلا بمن يَسْتَوْجِبُ بحسن أحواله الثقةَ به .

وينبغى للقاضى أن يُنَزِّه نفسه ومَنْ حوله ويُشَدِّد عليهم ولا يُرَخِّص لهم فى أمر يَنْقِمُه منهم أو يخشى أن يَتَطَرَّقوا به الى غيره ويرتَقُوا الى ما فوقه . وقد كان عمر بن الخطّاب رضى الله عنه إذا صَعِدَ المِنْبَر فنَهَى النـاسَ عن شىء، جَمَعَ أهلَه فقال : إنى نَهَيْتُ الناسَ عن كذا وكذا، وإنّ الناسَ ينظرون اليكم نَظَرَ الطير الى اللحم النَّىء، وأُقسم بالله لا أَجِدُ أحدًا منكم فَعَلَه إلا أضعفتُ عليه العقوبةَ . (٩٩)

قال : ولا ينبغى للإمام ولا القاضى أن يُقَدِّم أقاربَه على عامّة المسلمين، ولا يُسَوِّغَهم مالا يسوِّغُ غيرَهم، ولا ينظُرَ لهم بمـا لا ينظُرُ به لغيرهم، ولا يَسْتَعمِلَهم ويُوَلِّيهم .

*
* *

وأما ما يعتمده فى جلوسه — فقد قال الحَلِيمىّ أيضا : واذا أراد الحاكم الجلوسَ للحُكم فليجلِسْ وهو فارغُ القلب لا يُهِمُّه إلا النظرُ فى أمور المتظلِّمين . وإن تغيّرت حالُه بغَضَب أو غَمٍّ أو سرورٍ مُفْرِط أو وَجَع أو مَلَالةٍ(١) أو اعتراء نومٍ أو جوعٍ فليَقُمْ الى أن يزولَ ما به ويتمكّن من رأيه وعقله ثم يجلس . فقد رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقضى القاضى بين اثنين وهو غَضْبانُ"(٢) ؛ وعنه

(١) فى الأصل : «أو ملامة» .

(٢) فى صحيح البخارى : «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان» .

صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يقضى القاضى إلا وهو شبعان ريان". هكذا نقل الحليمى فى "منهاجه"، وهذه سنة السلف.

قال: والقاضى فى جلوسه بالخيار: إن شاء أن يخرج بالغداة اذا طلعت الشمس فيقضى حوائج الناس أولا فأولا حتى لا يزدحموا على بابه، فعل، و إن شاء أقام[(1)] فى بيته يتأهب و يستعد بمطالعة بعض الكتب أو بالاجتهاد والتأمل الى أن يجتمع الخصوم ثم يخرج، فعل. و ينبغى أن يكون عند الحاكم من يحفظ نوب الناس فيقدم الأول فالأول، و يجلسهم مجالسهم.

و إن رأى القاضى أن يحضر مجلســه درة تطرح على أعين الناس لينتهوا بها فإن آستوجب أحد من الخصوم تعزيرا أقيم عليه بها، فعل. روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن درته كانت تكون معه، وكذلك جماعة من قضاة السلف رحمهم الله. وأما فى عصرنا هذا فقد كان شيخنا الإمام العلامة القدوة مفتى الفرق بقية المجتهدين تقى الدين أبو الفتح محمد آبن الشيخ الإمام مجد الدين أبى الحسين على بن وهب آبن مطيع القشيرى المعروف بآبن دقيق العيد — رحمــه الله — منع نوابه من أن يضربوا بالدرة فى أثناء ولايته قاضى القضاة بالديار المصرية، وقال: إنه عار يلحق ولد الولد. وكان سبب منعه — رحمه الله ورضى عنه — لذلك أن بعض نوابه بالأعمال عزر بعض أعيان البلاد التى هو ينوب بها بالدرة فى المسجد الجامع وقال له عقيب ضربه و إسقاطه: قد ألحقتك بأبيك وجدك، وكانت هذه الحادثة فى سنة سبع وتسعين وستمائة أو ما يقاربها. ففارق ذلك الرجل بلاده ووطنه، فلما آتصل الخبر بقاضى القضاة شق عليه ومنع نوابه من الضرب بها.

(1) كذا بالأصل، والمناسب «أن يقيم» بدل «أقام» فإن «أقام» ليست جواب الشرط بل هى متعلق المشيئة.

نعودُ الى حال القاضى . قال : و ينبغى للقاضى أن يَعْـدِلَ بين الخَصْمَيْنِ من حين يَقْدَمَانِ عليــه الى أن تنقضِىَ خُصُومَتُهما فى مَدْخَلِهما عليه وجلوسهما عنــده وقيامِهما بين يديه، سواء كانا فاضلين فى أنفسهما أو ناقصين ، أو أحدهما فاضلا والآخر ناقصا؛ لقوله عز وجل : (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا)؛ ولما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنِ ٱبْتُلِىَ بالقَضَاء بين المسلمين(١) فلْيَعْدِلْ بينهم فى لَحْظِه ولفظه و إشارته ومَقْعَدِه ولا يرفَعْ صوتَه على أحد الخَصْمين ما لا يرفَعُ على الآخر" . وفى رواية : "مَنْ وَلِىَ قضاءَ المسلمين فلْيَعْدِلْ بينهم فى مَجلِســه وكلامه ولَحْظه" . وفى رواية: "اذا ٱبتُلِى أحدُكم بالقضاء [بين المسلمين](٢) فلْيُسَوِّ بينهم فى المجلس والإشارة والنظرِ ولا يَرْفَعْ صــوته على أحد الخَصْمين أكثر من الآخر" . قال : واذا ٱختصم ٱثنان الى القاضى فينبغى أن يأمرَهما بالاصطلاح .

وشروط القضاء كثيرة يعرفها العلماء، فلا حاجةَ الى الزيادة والإسهاب فى ذلك؛ و إنمـا أوردنا ما قدّمناه فى هــذا الباب منها حتى لا يُخْلِىَ كتابنا منه . ولْنَخْتِمْ هــذا الباب بمـا ورد من التزهيد فى القضاء .

---

## ذكر شىء مما ورد من التزهيد فى تقلد القضاء والترغيب عنه

قد ورد فى تَقَلُّد القضاء أحاديثُ وآثار تُزَهِّد فيه؛ بل تكاد تُوجب الفِرَارَ منه : من ذلك ما رُوِى عن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم أنه قال : "مَنْ وَلِىَ القضاء (١٠٠) فقد ذُبِحَ بغير سكّين"؛ وعنه صلى الله عليه وسلم : "مَا مِنْ أحدٍ حَكَمَ بين النـاس إلا جِىءَ به يومَ القيامةِ ومَلَكٌ آخذٌ بقَفَاه حتى يقفَ به على شَفِير جهنّم فإنْ أُمِرَ به

---

(١) كذا فى الجامع الصغير . وفى الأصل : «من ابتلى بالقضاء المسلمين» .

(٢) سقطت هذه الكلمة فى الأصل سهوا من الناسخ .

هوى به فى النار سبعين خريفاً» . وعن أبى ذرّ قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أيام : «اعقل أبا ذرّ ما أقول لك» فلما كان اليوم السابع (١) قال : «أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيته واذا أسأت فأحسن ولا تسأل أحداً شيئا وإن سقط سوطك (٢) ولا تؤمن أمانة ولا تولين يتامى ولا تقضين بين اثنين» .

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لابن عمر : اذهب فكن قاضيا ؛ قال : أو يعفينى أمير المؤمنين؟ قال : فإنى أعزم عليك ؛ قال : لا تعجل علىّ ؛ [قال :] (٣) هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من عاذ بالله فقد عاذ معاذاً» . قال : نعم ؛ قال : فما تكره من ذلك وقد كان أبوك يقضى ؟ قال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من كان قاضياً يقضى بجور كان من أهل النار ومن كان قاضياً يقضى بجهل كان من أهل النار ومن كان قاضياً عالما يقضى بالعدل فبالحرى أن ينقلب كفافاً» فما أصنع بهذا !

وقال بعضهم : ذكرنا أمر القضاء عند عائشة رضى الله عنها، فقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «يجاء بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة قط» . وقال صعصعة بن صوحان : خطبنا علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بذى قار وعليه عمامة سوداء فقال : يأيها الناس ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ليس من وال ولا قاض إلا يؤتى به يوم القيامة حتى يوقف بين يدى الله تعالى على الصراط ثم ينشر الملك

---

(١) كذا «فى مسند أحمد» (ج ٥ ص ١٨١ طبعة المطبعة الميمنية بمصر) . وفى الأصل : «ثم كان فى اليوم ...» . (٢) فى الأصل «وان سقط سقوطك» والتصويب عن «مسند أحمد» . ورواية آخر الحديث هنا تختلف عن رواية «مسند أحمد» بزيادة ونقص وتغيير فى بعض الكلمات . غير أن ما هنا من زيادة أو تغيير وارد متفرقا فى أحاديث أخرى لأبى ذر فى مسند أحمد . (٣) زيادة نرى أن الكلام يتوقف عليها .

سيرته فيقرؤها على رءوس الأشهاد - الخلائق - فإن كان عادلا نجّاه الله بعدله، وإن كان غير ذلك انتفض به الصراط انتفاضة صار بين كل عضو من أعضائه مسيرة مائة سنة ثم يتخرق به الصراط فما يلتقى قعر جهنم إلا بوجهه وحرّ جبينه " . وجاء فى الآثار عن الصحابة رضى الله عنهم مثل ذلك .

وفيما ذكرنا مقنع وغنية عن بسط الكلام فيه . فلنذكر ولاية المظالم .

---

# الباب الثانى عشر من القسم الخامس

## من الفن الثانى

### فى ولاية المظالم وهى نيابة دار العدل

وللناظر فيها شروط ذكرها الماوردىّ فقال : من شروط الناظر فى المظالم أن يكون جليلَ القدر، نافذَ الأمر، عظيمَ الهيبة، ظاهرَ العفة، قليلَ الطمع، كثيرَ الورع؛ لأنه يحتاج فى نظره الى سطوة الحماة، وتثبّت القضاة، فاحتاج الى الجمع بين صفتى الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر نافذَ الأمر فى الجهتين . فان كان ممن يملك الأمور العامة، كالخلفاء أو ممن فوّض اليه الخلفاءُ النظرَ فى الأمور العامة كالوزراء والأمراء، لم يحتج للنظر فيها الى تقليد وتولية وكان له بعموم ولايته النظر فيها . وإن كان ممن لم يفوَّض اليه عمومُ النظر، احتاج الى تقليد وتولية اذا اجتمعت فيه الشروط المتقدّمة . وهذا إنما يصحّ فيمن يجوز أن يختار لولاية العهد، أو لوزارة التفويض اذا كان نظره فى المصالح عامّا . فإن اقتصر على تنفيذ ما عجز القضاة عن تنفيذه، وإمضاء ما قصرت يدهم عن إمضائه، جاز أن يكون دون هذه الرتبة فى القدر والخطر، بعد ألّا يأخذه فى الحق لومة لائم، ولا يستشفه الطمع الى الرشوة .

---

## ذكر من نظر فى المظالم فى الجاهليّة والإسلام

والنظر فى المظالم قديم، كان الفرس يرون ذلك من قواعد الملك وقوانين العدل الذى لا يعمّ الصّلاح إلا بمراعاته، ولا يتمّ التناصُف إلا بمباشرته؛ وكانوا ينتصبون لذلك بأنفسهم فى أيّام معلومة لا يُمنَع عنهم من يقصدهم فيها من ذوى الحاجات وأرباب الضرورات .

(١٠١) وسبب تمسكهم بذلك أنّ أصل قيام دولتهم ردّ المظالم . وذلك أن كيومرث أوّل ملوكهم — وقيل : إنه أوّل ملكٍ مُلِّكَ من بنى آدم — كان سببُ ملكه أنه لمّا كثر البغى فى الناس وأكل القوىّ الضعيفَ وفشا الظلمُ بينهم ، آجتمع أكابرهم ورأوا أنه لا يُقيم أمرهم إلا ملكٌ يرجعون إليه ، وملّكوه، على ما نورده — إن شاء الله — فى [فنّ] التاريخ فى أخبار ملوك الفرس .

وكانت قريش فى الجاهلية، حين كثُر فيهم الزعماء وآنتشرت الرياسات وشاهدوا من التغالُب والتجاذُب ما لم يكفّهم عنه سلطان قاهر، عقدوا بينهم حلفًا على ردّ المظالم، وإنصاف المظلوم من الظالم . وكان سببُ ذلك أنّ رجلًا من اليمن من بنى زبيد قدم مكة معتمرًا ومعه بضاعةٌ، فاشتراها منه رجلٌ من بنى سهم، قيل: إنه العاصُ بن وائل ، فلوَاه بحقّه؛ فسأله مالَه أو متاعَه، فامتنع عليه؛ فقام على الحِجْر وأنشد بأعلى صوته :

يالَ قُصَىٍّ لمظلوم بضاعتَــــه * ببطن مكةَ نائى الدار والنَّفَـــر
وأشعثٍ مُحْرِمٍ لم تُقْضَ حُرمتُه * بين المقام وبين الحِجْر[(١)] والحَجَــر
أقائمٌ من بنى سَهْمٍ بذمّتهم * أو ذاهبٌ فى ضَلَالٍ مالُ مُعتَمِرِ

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٦ ص ٦٤ طبع بولاق) وفى الأصل : «بين الاله ...» .

وأن قَيْس بن شيبة السلمى[1] باع متاعا من أُبَىّ[2] بن خَلَف فلَوَاه وذهب بحقه، فٱستجار برجل من بنى جُمَح فلم يُجِرْه؛ فقال قيس :

يالَ قُصَىٍّ كيف هٰذا فى الحَرَمْ * وحُرْمةِ البيت وأخلاقِ الكَرَمْ[3]
* أُظْلَمُ لا يُمنَعُ منّى مَنْ ظَلَمْ *

فأجابه العَبَّاس بن مِرْدَاس :

إن كان جارُك لم تنفعك ذِمّتُه[4] * وقد شَرِبْتَ بكأس الذُّلّ أنفاسا
فَأْتِ البيوتَ وكن من أهلها صَدَدًا[5] * لا تَلْقَ ناديَهم فُحْشًا ولا باسا
وثَمَّ كُنْ[6] بفِناء البيت مُعتصِماً * تلقَ ٱبنَ حَرْبٍ وتلقَ المرءَ عبّاسا
قَرْمَىْ قُرَيْشٍ وحَلّا فى ذَوائبها * بالمجد والحَزْم ما عاشا وما ساسا
سَاقِى الحَجيج، وهٰذا ياسرٌ فَلَجٌ[7] * والمجدُ يُورَثُ أخماسا وأسداسا

فقام العَبّاس وأبو سُفيان حتى رَدّا عليه مالَه . وٱجتمعت بطون قُرَيش فتحالفوا فى بيت عبد الله بن جُدْعان على رَدّ المظالم بمكة، وألّا يَظْلِمَ أحدٌ إلا منعوه وأخذوا للظلوم بحقه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ معهم قبل النبوّة وهو ابن خمسٍ وعشرين سنة، فعقدوا حِلْفَ الفضول؛ فقال رسول الله صلى الله عليه

(١) كذا فى الأغانى والأحكام السلطانية ، وفى الأصل . «قيس بن نشبة ...» .

(٢) فى الأصل : «على أبى ...» ولكن بقية الكلام تقتضى أن يكون كما أثبتناه نقلا عن الأغانى .

(٣) فى الأحكام السلطانية : «وأخلاق الكرم» .

(٤) فى الأغانى : «لم تنفك ذمته ...» .

(٥) صددا : قريبا .

(٦) كذا فى الأغانى وفى الأصل «ولا تكن ...» وهو لايستقيم به المعنى ، وفى الأحكام السلطانية : «ومن يكن ...» وآثرنا ما فى الأغانى ، لمناسبة تاء الخطاب فى «تلق» كما ورد فى الأصل .

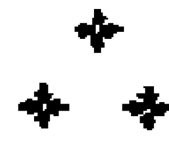
(٧) الفلج بالفتح كالفالج : الفائز ، ولعله حرك هاهنا للضرورة .

وسلم ذاكرا للحال : "لقد شهدتُ فى دار عبد الله بن جُدْعان حِلْفَ الفُضُول أمَا لو دُعِيتُ اليه [فى الإسلام](١) لأجبتُ وما أُحِبّ أنّ لى به حُمْرَ النَّعَم وأَنِّى نَقَضْتُه وما يزيده الإسلامُ إلا شدّة" .

وقال بعض قريش فى هذا الحِلْف :

تيم بن مرة إن سألت وهاشم * وزُهْرةُ الخير فى دار آبن جُدْعان
متحالفين على النّدى ما غرّدتْ * ورقاءُ فى فَنَنٍ من الأفنان(٢)

فهذا كان أصل ذلك وسببه فى الجاهلية .



وأمّا فى الإسلام — فقد نظر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى المظالم فى الشِّرْب الذى تنازعه الزُّبَيْرُ بنُ العَوّام ورجلٌ من الأنصار فى شِرَاج الحَرّة(٣) فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، وقال : "اِسْقِ يا زُبَيْرُ ثم أَرْسِلْ الى جارِك"، فقال له الأنصارى: أن كان آبنَ عمتك! فتلوّن وجهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "آسْقِ ثم آحبِس حتى يرجع الماء الى الجُدُر(٤)"، فقال الزُّبَيْر : والله إنّ هذه الآية

(١) زيادة من الكامل لابن الأثير ونهاية ابن الأثير وغيرهما ، وفى الأغانى وكتاب « ما يعوّل عليه فى المضاف والمضاف اليه » (نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٧٨ أدب م) : «اليوم» .

(٢) فى الأغانى : «ورقاء فى فنن من جزع كثبان» وسياق الأغانى للبيتين يدل على أنهما موضوعان من غير خبير بالشعر . قال : «قال وحدّثنى محمد بن الحسن عن عيسى بن يزيد بن دأب قال : أهل حلف الفضول : هاشم وزهرة وتيم ، قال فقيل له : فهل لذلك شاهد من الشعر؟ قال نعم ، قال أنشدنى بعض أهل العلم قول بعض الشعراء — ثم ذكر البيتين على ما ذكرنا من روايته فى البيت الثانى ، ثم قال — فقيل له وأين كثبان؟ فقال : واد بنجران . فجاء ببيتين مضطر بين مختلفى النصفين ...» .

(٣) الشراج : جمع شرج بالفتح ، وهو مسيل الماء من الحرة الى السهل .

(٤) فى اللسان (مادة شرج) : «... فقال يازبير آحبس الماء حتى يبلغ الجدر» .

أنزلت فى ذلك ( [illegible] ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ). وقد قيل فى هذا الحديث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب الزبير أولًا الى الاقتصار على بعض حقه على طريق التوسط والصلح، فلما لم يرض الأنصارى بذلك وقال ما قال، استوفى النبى صلى الله عليه وسلم للزبير حقه. ويصحح هذا القول ما جاء فى آخر الحديث: "فاستوعى له حقه"(١) يعنى للزبير.

ثم لم ينتدب للظالم من الخلفاء الأربعة رضى الله عنهم أحد، وإنما كانت المنازعات تجرى بين الناس فيفصلها حكم القضاء. فإن تجوز من جفاة الأعراب متجوز، ثناه الوعظ إن تدبر، وقاده العنف إن أبى وامتنع، فاقتصروا على حكم القضاء، لانقياد الناس اليه والتزامهم بأحكامه. ثم انتشر الأمر بعد ذلك وتجاهر (١٠٢) الناس بالظلم والتغالب، ولم يكفهم زواجر المواعظ، فاحتاجوا فى ردع(٢) المتغلبين وإنصاف المظلومين من الظالمين الى النظر فى المظالم؛ فكان أول من انفرد للظالم وجعل لها يومًا مخصوصا يجلس فيه للناس وينظر فى قصصهم ويتأملها عبد الملك ابن مروان، فكان اذا وقف فيها على مشكل رده الى قاضيه أبى إدريس الأودى فنفذ فيها أحكامه، فكان عبد الملك هو الآمر وأبو إدريس هو المباشر. ثم زاد جور الولاة وظلم العتاة واغتصاب الأموال فى دولة بنى أمية، الى أن أفضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز — رحمه الله — فانتصب بنفسه للنظر فى المظالم، وراعى السنن العادلة، ورد مظالم بنى أمية على أهلها؛ فقيل له — وقد شدد عليهم فيها وأغلظ — : إنا نخاف عليك، من ردها، العواقب؛ فقال: كل ما أتقيه وأخافه دون

---

(١) استوعى له حقه: استوفاه له كله.

(٢) كذا فى الأحكام السلطانية. وفى الأصل "الى رد المتغلبين".

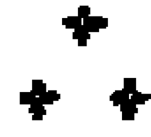
يوم القيامة لا وُقِيتَه . ثم جَلَس لها جماعةٌ من خُلفاء الدولة العبّاسيّة، فكان أوّل من جلس منهم المهدىّ، ثم الهادى، ثم الرشيد، ثم المأمون؛ وآخر من جَلَس لها منهم المهتدى. ثم آنتصب لذلك جماعةٌ من ملوك الإسلام أرباب الدول المشهورة بأنفسهم وأقاموا لها نوابًا. ومنهم من بَنَى لهـا مكانًا مخصوصًا بها سَمّاه "دارَ العَدْل" على ما نورد ذلك — إن شاء الله — فى فنّ التاريخ .

## ذكر مايحتاج اليه وُلاة المظالم فى جلوسهم لها

### ومن يجتمع عندهم ويحضر مجلسهم، وما يختص بنظرهم وتشمله ولايتهم

قال الماوردىّ : فإذا نظر فى المظالم من آنتُدِبَ لهـا جعل لنظره يومًا معروفا يقصِده فيه المتظلّمون، ويُراجعه فيه المتنازعون؛ ليكون ما سواه من الأيام لِمَـا هو موكولٌ اليـه من السياسة والتدبير؛ إلا أن يكون من عُمّال المظالم المتفرّدين بهـا ، فيكون مندوبًا للنظر فى جميع الأيام . وليكن سهلَ الحجاب، نَزِهَ الأصحاب .

ويستكمل مجلس نظره بحضور خمسة أصناف لا يستَغْنِى عنهم، ولا ينتظمُ أمرُه إلا بهم؛ وهم الحُمَاة والأعوان، لجذب القوىّ وتقويم الجرىء . والصنف الثانى : القُضاة والحُكّام، لآستعلام ما يثبُتُ عندهم من الحقوق، ومعرفةِ ما يَجْرِى فى مجالسهم بين الخُصُوم . والصنف الثالث : الفقهاء، ليرجعَ إليهـم فيما أَشْكَلَ، ويسألهم عما آشتبه وأَعْضل . والصنف الرابع : الكُتّاب، ليُثْبِتوا ما جَرَى بين الخصوم وما تَوَجّه لهم أو عليهم من الحقوق . والصنف الخامس : الشهود، ليُشْهِدَهم على ما أوجبه من حقٍّ وأمضاه من حكم . فإذا آستكمل مجلس المظالم بهذه الأصناف الخمسة، شرَعَ حينئذ فى نَظَرِه .



## وأما ما يختص بنظر متولى المظالم وتشتمل عليه ولايته فعشرة أقسام :

الأوّل — النظرُ فى تَعَدِّى الوُلاة على الرعيّة وأَخْذِهم بالعَسف فى السِّيرة، فهذا من لوازم النظر فى المظالم، فيكون لسَيْر الوُلاة متصفِّحا، وعن أحوالهم مُستكشفا، ليقوِيَهم إن أنصفوا، ويُكَفَّهم إن عَسَفوا .

والثانى — جورُ العمال فيما يجبُونه من الأموال؛ فيرجع فيه الى القوانين العادلة فى الدواوين، فيحمل الناسَ عليها ويأخذ العمال بها . وينظُرُ فيما آستزادُوه، فإن رَفَعوه الى بيت المال أمَر بردّه، وإن أخذُوه لأنفسهم آسترجعه منهم لأربابه .

والثالث — كُتَّاب الدواوين، لأنهم أمَناء المسلمين على ببوت أموالهم فيما يستوفونه ويوفونه منها؛ فيتَصَفَّح أحوال ما وُكِلَ اليهم، فإن عَدَلُوا عن حقّ فى دَخْلٍ أو خَرْجٍ الى زيادة أو نقصان، أعاده الى قوانينه، وقابَلَ على تجاوُزه . وهذه الأقسام الثلاثة لا يَحْتاجُ وَالِى المظالم فى تصفُّحها الى متظلِّمٍ .

والرابع — تظلُّم المُسْتَرزِقَة من نقص أرزاقهم أو تأخيرها عنهم وإجحاف النُّظَّار بهم؛ فيرجع الى ديوانه فى فرض العَطاء العادل فيُجْرِيهم عليه . وينظر فيما نَقَصُوه أو مَنَعُوه، فإن أخذه وُلاة أمورهم آسترجعه لهم، وإن لم يأخذوه قَضَاه من بيت المال .

كَتَبَ بعضُ وُلاةِ الأجناد الى المأمون أنّ الجند شَغَبُوا ونَهَبُوا . فكتب اليه : لو عَدَلْتَ لم يَشْغَبوا، ولو قَوِيتَ لم يَنْهَبُوا . وعَزَلَه عنهم وأَدَرّ عليهم أرزاقهم .

والخامس — ردّ الغصوبات . وهى على ضربين : أحدهما غُصُوبٌ سلطانية قد تَغَلَّب عليها وُلاة الجَوْر . كالأملاك المقبوضة عن أربابها، إما لرغبة فيها أو غير ذلك ، ويجوز أن يرجع فى ذلك عند تظلّمهم الى ديوان السلطنة ؛ فإذا وجد فيه ذِكْرُ قبضها عن مالكها عَمِلَ بمقتضاه وأمر بردّها اليه . ولم يحتجّ فيه الى بيّنة تشهدُ به ، وكان ما وجده فى الديوان كافيا ، كالذى حُكِى عن عُمَر بن عبد العزيز أنّه خرج ذات يوم الى الصلاة فصادفه رجلٌ وَرَدَ من اليمن متظلّما ، فقال :

تدعُون حَيْرانَ مظلومًا ببابكمُ * فقد أتاكم بعيدُ الدارِ مظلومُ

فقال له : وما ظُلَامتُك؟ قال : غَصَبَنِى الوليدُ بنُ عبد الملك ضَيْعَتِى ؛ فقال يامُزَاحِم ائتنى بدفتر الصَّوافى ؛ فوجد فيه : أَصْفَى عبدُ الله الوليدُ بنُ عبد الملك ضَيْعة فلان ؛ فقال : أَخرِجْها من الدفتر ، وليُكْتَبْ بردّ ضَيعته اليه ويُطْلَق له ضعفُ نفقته .

والضرب الثانى . ما تغلّب عليه ذوو الأيدى القويّة وتَصَرّفوا فيه تصرّفَ المُلّاك بالقهر والغَلَبة ؛ فهذا موقوف على تظلّم أربابه . ولا يُنتزَع من غُصّابه إلا بأحد أربعة أمور : إما باعتراف الغاصب وإقراره ؛ وإما بعلم وَالِى المَظالم ، فيجوز أن يحكم عليه بعلمه ؛ وإما ببينة تشهد على الغاصب بغَصبه أو تشهد للمغصوب منه بمِلْكه ؛ وإما بتظاهر الأخبار التى ينتفى عنها التواطؤ ولا تختلج فيها الشكوك ؛ لأنه لمّا جاز للشهود أن يشهدوا فى الأملاك بتظاهُر الأخبار ، كان حكم وُلاة المظالم بذلك أحقّ .

والسادس — مشارفة الوقوف . وهى ضربان : عامة وخاصة . فأما العامة فيبدأ بتصفّحها وإن لم يكن لها متظلّم ؛ ليُجْرِيَها على سُبُلها ويُمْضِيَها على شروط واقفها اذا عرفها من أحد ثلاثة أوجه : إمّا من دواوين الحُكّام المندوبين لحِرَاستها ، وإما من دواوين السّلطنة على ما جَرَى فيها من معاملة أو ثَبَتَ لها من ذكر وتسمية ،

وإما من كُتُبٍ قديمة تقع فى النفس صحّتُها وإن لم يشهد الشهودُ بها، لأنه ليس يتعيّنُ الخَصْم فيها، فكان الحكمُ فيها أوسعَ منه فى الوقوف الخاصّة .

وأما الوقوف الخاصة، فإنّ نظره فيها موقوف على تَظَلُّم أهلها عند التنازع فيها، لوقوفها على خصوم متعيِّنين . فيعمل عند التشاجر فيها على ما تثبت به الحقوق عند الحاكم، ولا يجوز أن يرجع فيها إلى ديوان السلطنة ولا إلى ما يثبت من ذكرها فى الكتب القديمة إذا لم يشهد بها شهودٌ معدَّلون .

والسابع — تنفيذ ما وُقِف من أحكام القُضاة، لضعفهم عن إنفاذه وعجزهم عن المحكوم عليه، لتعززه وقوة يده أو علوّ قدره وعظم خطره، لكون[1] ناظر المظالم أقوى يدًا وأنفذ أمرا، فينفّذ الحكم على ما يُوجبه عليه الحاكم[2] بانتزاع ما فى يده، أو بإلزامه الخروجَ ممـا فى ذمّته .

والثامن — النظر فيما عجز عنه الناظرون فى الحِسْبة من المصالح العامّة كالمجاهرة بمنكرٍ ضُعِف عن دفعه، والتعدّى فى طريق عُجِز عن منعه، [والتحيّف فى حقٍّ لم يُقدَر على ردّه][3]، فيأخذهم بحق الله تعالى فى ذلك، ويأمر بحملهم على موجبه[4] .

والتاسع — مراعاة العبادات الظاهرة كالجُمَع والأعياد والحجّ والجهاد من تقصير فيها أو إخلال بشروطها، فإنّ حقوقَ الله تعالى أَوْلى أن تُستوفى، وفروضه أحقّ أن تُؤدّى .

---

(١) فى الأصل : «ليكون ...» وفى الأحكام السلطانية : «فيكون ... »، والظاهر أن ما أثبتناه هو المناسب للسياق . (٢) فى الأحكام السلطانية : «فينفذ الحكم على من توجه اليه بانتزاع ...» .

(٣) زيادة عن الأحكام السلطانية .

(٤) كذا فى الأحكام السلطانية، وفى الأصل : «عن واجبه» .

والعاشر — النظر بين المتشاجرين، والحكم بين المتنازعين. ولا يخرج فى النظر بينهم عن مُوجَب الحق ومُقْتضاه، ولا يَسُوغ أن يحكم بينهم بما لا يحكم به الحكّام والقُضـاة .

## ذكر الفرق بين نظر ولاة المظالم ونظر القضاة

قال المـاوردىّ : والفرقُ بين نظر المظالم ونظر القضاة من عشرة أوجه :

أحدها — أنّ لناظر المظالم(١) من فَضْل الهَيْبة وقوّة اليد ما ليس للقُضاة بكفّ الخصوم عن التجاحُد ومَنْع الظَّلَمَة من التغالُب والتجاذب .

والثـانى — أنّ نَظَرَ المظالم يخرج من ضيق الوجوب الى سعة الجواز، فيكون الناظر فيه أفسحَ مجالًا وأوسعَ مقالا .

والثالث — أنه يَسْتعمل من فَضْل الإرهاب وكَشْف الأسباب، بالآثار الدالّة أو شواهد الحال اللائحة ما يَضِيق على الحُكّام، فيصلُ به الى ظهور الحقّ، ومعرفةِ المُبْطِل من المُحِقّ .

والرابع — أنه يُقابِلُ مَنْ ظهر ظُلْمُـه بالتأديب، ويأخُذُ مَن بَانَ عُدْوانُه(٢) بالتقويم والتهذيب .

والخامس — أنّ له من التأنّى فى تَرْداد الخصوم عند آشتباه أمورهم واستبهام حُقوقهم، ليُمعِنَ فى الكَشْف عن أسبابهم وأحوالهم، ما ليس للحكّام، اذا سألهم أحدُ الخَصمين فصلَ الحُكم، فلا يَسُوغ أن يؤخّره الحاكم، ويَسُوغ أن يؤخّره مُتَـوَلّى المظـالم .

(١) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل : «لنظر المظالم ...» .

(٢) فى الأصل : «من بان عداوته» وهو تحريف، والتصويب عن الأحكام السلطانية .

والسادس — أن له ردّ الخصوم اذا أعضلوا[1] الى وَساطة الأُمناء، ليَفْصلوا التنازُعَ بينهم صُلْحًا عن تَرَاضٍ، وليس للقاضى ذلك إلا عن رِضا الخَصْمين بالرّدّ .

والسابع — أنه يُفسح فى مُلازَمــة الخَصْمين اذا وَضَحت أَمارات التجاحُد، ويَأْذَن فى إلزام الكَفالة فيما يَسُوغ فيه التكفيل، لتَنْقاد الخصومُ الى التناصُف ويَعْدلوا عن التجاحُد والتكاذُب .

والثامن — أنه يَسْمَعُ من شهادات المستُورِين ما يخرُج عن عُرْف القُضاة فى شهادة المُعَدَّلين .

والتاسع — أنه يجوزُ له إحلافُ الشهودِ عند آرتيابه بهم اذا بَذَلُوا أَيْمانهم طوعًا، ويَسْتكثِرَ من عَدَدهم، لتزولَ عنه الشُّبْهةُ وينتفى الآرتيابُ، وليس ذلك للحاكم .

والعاشر — أنه يجوز له أن يبتدئ بآستدعاء الشهود ويسألَهم عما عندهم فى تنازُع الخصوم؛ وعادةُ القُضاةِ تكليفُ المدَّعِى إحضارَ بيّنةٍ ولا يسمعُونها إلا بعد مَسْألته .

فهذه عشرة أوجه يَقَعُ بهــا الفَرْق بيْنَ نَظَر المظالم ونَظَر القضاء فى التشاجُر والتنازُع؛ وهما فيما عداهما متساويان .

---

## ذكر ما ينبغى أن يعتمده ولاة المظالم عند رفعها إليهم، وما يسلكونه من الأحكام فيها، وما ورد فى مثل ذلك من أخبارهم وأحكامهم فيما سلف من الزمان

قال المــاوردىّ : لم تَخْلُ حالُ الدَّعْوَى عند الترافُع فيها إلى وَالِى المَظَالم من ثلاثة أحوال : إمّا أن يَقْترِن بها ما يُقَوِّيها ، أو يقترن بها ما يُضعفها، أو تَخْلُو من

---

(١) أعضلوا : ضاقت عليه الحيل فيهم .

الآخرين . فإن آقترن بها ما يُقوّيها، فلمَا يقترنُ بها من القُوّة ستّةُ أحوال تختلف بها قوّةَ الدّعوى على التدريج .

فأوّل أحوالها — أن يَظْهر معها كَتَابٌ فيه شهودٌ مُعدّلون حُضورٌ. والذى يختص به نظرُ المظالم فى مثل هذه الدعوى شيئان . أحدهما : أن يبتدئَ الناظرُ فيها بآستدعاء الشهود للشهادة . والثانى : الإنكار على الجاحد بحسب حاله وشَواهد أحواله . فاذا حَضَر الشهودُ، فإن كان الناظرُ فى المظالم ممن يَجِلّ قَدْرُه، كالخليفة أو وزيرِ التفويض أو أمير الإقليم، رَاعى من أحوال المتنازِعَيْنِ ما تقتضيه السياسةُ : من مباشرته النَّظَرَ بينهما إن جَلّ قدرُهما، أو ردّ ذلك الى قاضيه بمَشْهَدٍ منه إن كانا متوسّطَين، أو على بعدٍ منه إن كانا خاملين .

حُكِيَ أنّ المأمونَ كان يجلسُ للظالم فى يوم الأحد، فنَهَضَ ذاتَ يومٍ من مَجْلِسه فتلقّته آمرأةٌ فى ثيابٍ رَثّة، فقالت :

يا خيرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى له الرَّشَدُ * ويا إمامًا به قــد أَشْرَق البَــلَدُ
تشكُو إليك عميــدَ المُلْكِ[(١)] أرمــلةٌ * عَدَا عليها فمــا تَقْــوى به أســدُ
فآبْتَزّ منهــا ضِيــاعًا بعــد مَنْعَتِها * لمّــا تَفــرّقَ عنها الأهــلُ والوَلَدُ

فأطرق المأمونُ يسيرًا ثم رَفَع رأسه وقال :

مِنْ دونِ ما قُلتِ عِيلَ الصَّبْرُ والجَلَدُ * وأَقْرَحَ القلبَ هذا الحزنُ والكَمَدُ
هذا أَوَانُ صــلاةِ الظُّهر فآنصرِفِى * وأَحْضِرِى الخَصْمَ فى اليوم الذى أَعِدُ
المجلسُ السبتُ إن يُقْضَ الجُلوسُ لنا * أُنْصِــفْكِ منه وإلّا المجلسُ الأحدُ

(١) كذا فى الأحكام السلطانية و فى الأصل : «عقيد الملك» وورد هذا البيت فى العقد الفريد (ج ١ ص ١٢) هكذا :

تشكو اليك عميد القوم أرملة * عدا عليها فلم يُترك لها سبد

فانصرفتْ، وحضرت فى يوم الأحد أوّل الناس؛ فقال لها المأمون : مَنْ خَصْمُك ؟ فقالت : القائمُ على رأسك العبّاسُ بنُ أمير المؤمنين؛ فقال المأمون لقاضيه يحيى آبن أَكثَم، وقيل بل قال لوزيره أحمد بن أبى خالد : أَجْلِسْها معه وٱنْظُرْ بينهما؛ فأجلَسَها معه ونَظَرَ بينهما بحَضْرة المأمون، فجَعَلَ كلامُها يعلُو، فزجَرَها بعضُ حُجّابه؛ (١٠٥) فقال المأمون : دعها فإنّ الحَقَّ أَنطَقها والباطل أَخْرَسه . وأمر بردّ ضِياعها اليها .

والحال الثانية فى قوّة الدعوى — أن يقترن بها كتاب فيه من الشهود المُعَدَّلين من هو غائب، فالذى يختصّ بنظر المظالم فى مثل هذه الدَّعْوى أربعةُ أشياء[(١)]، أحدُها : إرهابُ المُدَّعَى عليه [ فربّما ][(٢)] يعجل من إقراره بقُوّة الهَيْبة ما يُغْنِى عن سَماع البيِّنة . والثانى : التقدُّمُ[(٣)] بإحضار الشُّهُود اذا عُرِفَ مكانُهم ولم يَدْخُل الضَّرَرُ الشاقّ عليهم . والثالث : التقدُّمُ بملازمة المدَّعَى عليه ثلاثاً، ويجتهد رأيَه فى الزيادة عليها بحسب الحال من قُوّة الأمارة ودلائل الصحّة . والرابع : أن ينظُرَ فى الدعْوى، فإن كانت مالاً فى الذمة كَلَّفَه إقامةَ كَفيل، وإن كانت عيْناً قائمةً كالعَقار، حَجَرَ عليه فيها حَجْرًا لا يرفع به حكمَ يده، ورَدَّ آستغلالها الى أمين[(٤)] يحفَظُه على مستحقّه منهما . فإن تَطَاوَلت المدّة ووقع اليأس من حُضور الشهود، جاز لمتولّى المظالم أن يسأل المدَّعَى عليه عن دخول يده مع تجديد إرهابه، فإن أجاب بما يَقْطَعُ التنازُعَ أمضاه، وإلّا فَصَلَ بينهما بمُوجب الشَّرْع ومُقْتضاه .

---

(١) وردت هذه الجملة فى الأصل هكذا : « فالدعوى تختص بنظر المظالم فى هذه الدعوى بأربعة أشياء » وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٢) التكملة عن الأحكام السلطانية . وتوجد من الأحكام السلطانية نسخة أخرى، يشير اليها هامش النسخة التى بين أيدينا، بها ما بالأصل، فلعل المؤلف نقل عنها . (٣) تقدم إليه بكذا : أمره به .

(٤) كذا فى الأحكام السلطانية، وفى الأصل وفى نسخة أخرى من الأحكام السلطانية يشير اليها هامش النسخة التى بأيدينا « الى أمين الشهود » .

والحال الثالثة فى قوة الدعوى — أن يكون فى الكتاب المقترن بها شهود حضور لكنهم غير معدّلين عند الحاكم. فيتقدّم ناظر المظالم بإحضارهم وسبر أحوالهم، فإن كانوا من ذوى الهيئات وأهل الصيانات، فالثقة بشهادتهم أقوى، و إن كانوا أرذالا فلا يعوّل عليهم لكن يقوّى إرهاب الخصم بهم، و إن كانوا أوساطا فيجوز له أن يستظهر بإحلافهم، إن رأى ذلك، قبل الشهادة أو بعدها . ثم هو فى سماع شهادة هذين الصنفين بين ثلاثة أمور : إما أن يسمعها بنفســه فيحكم بها، و إما أن يردّ [الى] القاضى سماعها و يؤدّيها القاضى اليه، و إما أن يردّ سماعها الى الشهود المعدّلين وهم يخبرونه بما وضح عندهم .

والحال الرابعة من قوة الدعوى — أن يكون فى الكتاب المقترن بها شهود موتى معدّلون، فالذى يختص بنظر المظالم فيها ثلاثة أشياء . أحدها : إرهاب المدّعى عليه بما يضطرّه الى الصدق والاعتراف [بالحق][1] . والثانى : سؤاله عن دخول يده، لجواز أن يكون من جوابه ما يتضح به الحق[2]. والثالث : أن يكشف عن الحال من جيران الملك ومن جيران المتنازعين فيه، ليتوصل بهم الى وضوح الحق ومعرفة المحق. فإن لم يصل اليه بواحد من هذه الثلاثة، ردّها الى وساطة محتشم مطاع، له بهما معرفة وبمــا يتنازعانه خبرة . فإن حصــل تصادقهما أو صلحهما بوساطته. و إلا فصل الحكم بينهما على ما يوجبه حكم القضاء .

والحال الخامسة فى قوة الدعوى — أن يكون مع المدّعى خط المدّعى عليــه [ بما تضمنته الدعوى، فنظر المظالم فيه يقتضى سؤال المدّعى عليه ][1] عن الخط وأن

(١) التكملة عن الأحكام السلطانية .

(٢) الجملة فى الأصل هكذا : «لجواز أن يكون جوابه بما يتضح به الحق» وعبارة الأحكام السلطانية التى أثبتناها أوضح .

يقال[1] له : هذا خطك؟ فإن اعترف به، سئل بعد اعترافه به عن صحة ما تضمنه ؛ فإن اعترف بصحته، صار مقرا وألزم حكم إقراره، وإن لم يعترف بصحته [ فمن ولاة المظالم من حكم عليه بخطه اذا اعترف به وإن لم يعترف بصحته[2] ]، وجعل ذلك من شواهد الحقوق اعتبارا بالعرف . والذى عليه محققوهم وما رآه الفقهاء أنه لا يجوز للناظر منهم أن يحكم بمجرد الخط حتى يعترف بصحة ما فيه؛ فإن قال: كتبته ليقرضنى وما أقرضنى، أو ليدفع إلى ثمن ما بعته وما دفع، فهذا مما قد يفعله الناس أحيانا . فنظر المظالم فى مثله أن يستعمل الإرهاب بحسب الحال ثم يرد الى الوساطة ؛ فإن أفضت الى الصلح، وإلا بت الحاكم[3] بينهما بالتحالف .

وإن أنكر الخط، فمن ولاة المظالم من يختبر الخط بخطوطه التى يكتبها ويكلفه من كثرة الكتابة ما يمنع من التصنع فيها، ثم يجمع بين الخطين، فإذا تشابها حكم به عليه . والذى عليه المحققون منهم أنهم لا يفعلون ذلك للحكم به ولكن للإرهاب. [وتكون الشبهة مع إنكاره للخط أضعف منها مع اعترافه به، وترتفع الشبهة إن كان الخط منافيا لخطه ويعود الإرهاب على المدعى، ثم يردان الى الوساطة[4]] فإن أفضت الى الصلح وإلا بت القاضى [الحكم][2]* بينهما بالأيمان .

والحال السادسة من قوة الدعوى — إظهار الحساب بما تضمنته الدعوى، وهذا يكون فى المعاملات . ولا يخلو حال الحساب من أحد أمرين :

(١) فى الأصل «يقول» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٢) التكملة عن الأحكام السلطانية .

(٣) فى الأحكام السلطانية : «وإلا بت القاضى الحكم بينهما بالتحالف» .

(٤) وردت هذه الجملة التى بين القوسين والتى نقلناها عن الأحكام السلطانية فى الأصل هكذا : «وترتفع الشبهة وإن كان منافيا فيعود الإرهاب على المدعى ثم يرد الى الوساطة» .

إما أن يكون حسابَ المدّعى أو المدّعى عليه . فإن كان حسابَ المدّعى فالشُّبهة فيه أضعف . ونَظَرُ الظالم فى مثله أن يراعى نَظْمَ الحساب ؛ فإن كان مختلًّا يحتمل فيه الإدغال(١) كان مُطَّرَحًا ، وهو بضعف الدعوى أشبهُ منه بقوّتها . وإن كان نَظْمه مُتَّسقا ونَقْلُه صحيحا ، فالثقةُ به أقوى ؛ فيقتضى من الإرهاب بحسب شواهده ؛ ثم يردّان الى الوَسَاطة ؛ ثم الى الحكم البات . وإن كان الحساب للمدّعى عليه ، كانت الدعوى به أقوى ؛ فلا يخلو أن يكون منسوبا الى خطه [ أو خط كاتبه ، فإن كان منسوبا الى خطه(٢) ] فلناظر المظالم أن يسأله عنه : أهو خطه؟ فإن اعترف به ، قيل : أتعلم ما هو؟ فإن أقرّ بمعرفته ، قيل : أتعلم صحته؟ فإن أقرّ بصحته ، صار بهذه الثلاثة مقرًّا بمضمون الحساب ، فيؤخذ بما فيه . وإن اعترف أنه خطه وأنه يعلم ما فيه ولم يعترف بصحته ، فمن حَكَم بالخطّ من ولاة المظالم ؛ حكم عليه بموجَب حسابه وإن لم يعترف بصحته ، وجعل الثقةَ بهذا أقوى من الثقة بالخط المُرْسَل ؛ لأن الحساب لا يُثْبِت فيه قبضٌ ما لم يقبض(٣) ، وقد تُكْتَبُ الخطوط المرْسَلة بقَبْض . والذى عليه المحققون منهم — وهو قول الفقهاء — أنه لا يحكم عليه بالحساب الذى لم يعترف بصحته ؛ لكن يقتضى من فضل الإرهاب به أكثر مما اقتضاه الخط المرسل ، ثم يُرَدّان الى الوَسَاطة ثم الى الحكم البات .

وإن كان الخط منسوبًا الى كاتبه ؛ سُئل المدّعى عليه قبل سؤال كاتبه ، فإن اعترف بما فيه أُخِذ به ، وإن لم يعترف ، سُئل عنه كاتبُه وأُرْهِب ، فإن أنكره ضَعُفت

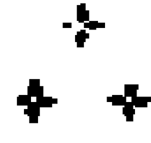
---

(١) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل «فإن كان ما يحل الإدغال ... » . والإدغال : من أدغل فى الأمر : أدخل فيه ما يفسده ويخالفه .

(٢) التكملة عن الأحكام السلطانية .

(٣) كذا فى الأحكام السلطانية ؛ وفى الأصل : «ولأن الحساب لا يكتب قبض ولم يقبض» .

الشبهة[(١)]، وإن اعترف بصحته صار شهادةً على المدّعى عليه. فيحكم عليه بشهادته إن كان عدلًا، ويقضى بالشاهد واليمين. فهذه حال الدعوى إذا اقترن بها ما يقوّيها.



وأما إن اقترن بالدعوى ما يُضعفها — فلما اقترن بها من الضعف ستةُ أحوال تنافى أحوال القوة، فينتقل الإرهابُ بها من جنبة المدَّعى عليه الى جنبة المدّعى.

فالحال الأولى — أن يُقابِل الدعوى بكتاب شهوده حضور معدّلون يشهدون بما يُوجب بُطلانَ الدعوى، وذلك من أربعة أوجه. أحدها: أن يشهدوا على المدّعى ببيع ما ادّعاه. والثانى: أن يشهدوا على إقرار الذى انتقل الملك عنه للمدّعى قبل إقراره له[(٢)]. والثالث: أن يشهدوا على المدّعى أنه لا حقّ له فيما ادّعاه[(٣)]. والرابع: أن يشهدوا للمدّعى عليه بأنه مالكٌ لما ادّعاه عليه. فتبطل دعواه بهذه الشهادة، ويؤدّبه متولّى المظالم بحسب حاله. فإن ذكر أن الشهادة عليه بابتياع كانت على سبيل الرهن؛ فهذا قد يفعله الناسُ أحيانًا ويسمّونه بينهم بيع الأمانة[(٤)]؛ ويقتضى ذلك الإرهابَ

(١) عبارة الأحكام السلطانية فى هذه المسألة وردت هكذا: «وان لم يعترف يسأل عنه كاتبه، فان أنكره ضعفت الشبهة بإنكاره، وأرهب إن كان متهما ولم يرهب إن كان مأمونا. وإن اعترف به وبصحته...».

(٢) ماذكره المؤلف هاهنا منقول عن نسخة من الأحكام السلطانية يشير اليها هامش النسخة المطبوعة فى مدينة "بن" وبين النسختين اختلاف فى الترتيب وبعض الكلمات. وقد ذكر الوجه الثانى هنا فى الأحكام السلطانية هكذا «والثالث أن يشهدوا على اقرار أبيه الذى ذكر انتقال الملك عنه أن لا حق له فيما ادعاه». (٣) فى الأحكام السلطانية: «أن يشهدوا على إقراره (المدعى) بأن لا حق له...».

(٤) اختصار المؤلف هنا جعل الكلام غير واضح الارتباط. وعبارة الأحكام السلطانية — على مافيها من مخالفة فى بعض الكلمات لما فى الأصل، وقد يكون مافى الأصل هو الصواب — وردت هكذا: «فان ذكر أن الشهادة عليه بالابتياع كانت على سبيل رهب وإلجاء، وهذا قد يفعله الناس أحيانا: فينظر فى كتاب الابتياع: فان ذكر فيه أنه من غير رهب ولا إلجاء ضعفت شبهة هذه الدعوى، وإن لم يذكر ذلك فيه قويت شبهة الدعوى، وكان الارهاب فى الجهتين يقتضى تساعد الحالين».

فى الجهتين . ويرجع الى الكَشْف من الجيرة ؛ فإن ظَهَر له ما يُوجِب العدولَ عن ظاهرِ الكتاب عَمِل بمقتضاه ، وإن لم يتَبَيَّن وأبهم الأمر أمضى الحكم بما شَهِد به شهودُ الابتياع . فإن سأل إحلافَ المدّعى عليـه(١) أن ابتياعه كان حقًّا ولم يكن على سبيل الرهن، فقد اختلف الفقهاءُ فى جواز إحلافه : فمنهم من أجازه ومنهم من منعه. ولوَالى المظالم أن يعملَ من القولين بمـا تقتضيه شواهد الحال . وكذلك لو كانت الدعوى بدَيْنٍ فى الذمة فأظهر المدّعَى [عليه] كتابَ براءة [منه، فذكر المدّعى أنه أشهد على نفسه](٢) قبل القبض ولم يقبض، كان إحلافُ المدّعى عليه على ما تقدّم ذكره .

والحال الثانيـة — أن يكون شهود الكتاب عدولا غُيَّبًا، فهذا على ضربين: أحدهما : أن يتضمّن إنكارُه اعترافا بالسبب كقوله : لاحقَّ له فى هذا الملك، لأنى ابتعتُه منه ودفعتُ اليه الثمن، وهذا كتاب عهدتى بالإشهاد عليه، فيصير المدّعَى عليه مدّعيا، وله [زيادة](٢) يدٍ وتصرّف، فتكون الأمارة أقوى وشاهدُ الحال أظهر، [فإن لم يثبُتْ بها الملك](٢) فيرهبهما وَالى المظالم بحسب ما تقتضيه شواهد أحوالهما ، ويأمُرُ بإحضار الشهود إن أمكن، ويضرب لحضورهم أجَلًا يردُّهما فيـه إلى الوَسَاطة ؛ فإن أفضَتْ الى صُلْح عن تَرَاضٍ، استقرّ به الحكم وعُدِلَ عن سَمَاع الشهادة إن حضَرتْ. وإن لم ينْبرِمْ بينهما الصلحُ، أمعن فى الكَشْف من جيرانهما وجيران الملك . وكان لمتولّى نَظَرِ المظالم رأيُه، فى زمن الكشف، فى خَصْلة من ثلاث، على ما يؤدّى اليه اجتهادُه بحسب الأمارات وشواهد الأحوال : إمّا أن يرى انتزاع الضَّيْعة من يد المدّعى عليه ويُسَلِّمَها الى المدّعى الى أن تقوم البيّنة عليه بالبيع ؛ وإما أن يسلّمها الى أمين تكون فى يده ويحفَظُ استغلالها على مستَحِقّه ؛ وإما أن يُقِرّها فى يد المدّعى عليه

(١) الظاهر أن مرجع الضمير هاهنا المدعى .
(٢) التكملة عن الأحكام السلطانية .

ويحجر عليه فيها وينصب أمينا لحفظ استغلالها . فإن وقع الإياس من حضور الشهود وظهور الحق بالكشف، فصل الحكم بينهما على ما تقتضيه أحكام القضاء . فلو سأل المدعى عليه إحلاف المدعى، أحلفه له، وكان ذلك بتًّا للحكم بينهما .

والضرب الثانى : أن [لا](1) يتضمن إنكاره اعترافا بالسبب ويقول : هذا الملك أو الضيعة لا حق له فيها . وتكون شهادة الكتّاب عن المدعى على أحد وجهين : إما على إقراره أنه لا حق له فيها، وإما على إقراره أنها ملك للمدعى عليه . فالضيعة مقرّة فى يد المدعى عليه لا يجوز انتزاعها منه . فأما الحجر عليه فيها وحفظ استغلالها مدة الكشف والوساطة فمعتبر بشواهد الحال واجتهاد والى المظالم فيما يراه بينهما، الى أن يثبت الحق لأحدهما .

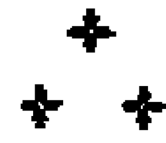
والحال الثالثة — أن شهود الكتاب المقابل لهذه الدعوى حضور غير معدّلين، فيراعى والى المظالم فيهم ما قدمناه فى جنبة المدعى من أحوالهم الثلاث، ويراعى حال إنكاره هل تضمن اعترافا بالسبب أم لا، فيعمل [والى المظالم فى ذلك ب](1)ما قدمناه، تعويلا على اجتهاد رأيه فى شواهد الأحوال .

والحال الرابعة — أن يكون شهود الكتّاب موتى معدّلين . فليس يتعلق به حكم إلا فى الإرهاب المجرد، ثم يعمل فى بتّ الحكم على ما تضمنه الإنكار من الاعتراف بالسبب أم لا .

والحال الخامسة — أن يقابل المدعى عليه بخط المدعى بما يوجب(2) إكذابه فى الدعوى، فيعمل فيه بما قدمناه فى ذلك . وكذلك أيضا فى الحال السادسة من إظهار الحساب، فالعمل فيه على ما قدمناه .

(1) زيادة من الأحكام السلطانية .

(2) فى الأصل «بما وجب ...» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .



وأما إن تجردت الدعوى من أسباب القوّة والضعف، فلم يقترن بها ما يُقوّيها ولا ما يُضعفها، فنظرُ والى المظالم فى ذلك أن يُراعىَ أحوال المتنازعين فى غلبة الظن. ولا يخلو حالُها فيه من ثلاثة أحوال. أحدها: أن تكون غلبتُه فى جَنَبة المدّعى. والثانى: أن تكون فى جَنَبة المدّعَى عليه. والثالث: أن يعتدلا فيه. فإن كانت غلبةُ الظن فى جَنَبة المدّعى وكانت الرِّيبة متوجّهةً الى المدّعى عليه، فقد تكون من ثلاثة أوجه. أحدها: أن يكون المدّعى مع خُلُوّه من حُجّة مضعوفَ اليد مستلانَ الجانب والمدّعَى عليه ذا بأسٍ وقُدْرة. فاذا ادّعى عليه غَصْبَ مِلْك أو ضَيْعة، غَلَبَ فى الظنّ أنّ مثلَه مع لِينه واستضعافه لا يتجوّز فى دعواه على مَنْ كان ذا بأسٍ وسَطْوة. والثانى: أن يكون ممن اشتهر بالصدق والأمانة والمدّعَى عليه ممن اشتهر بالكذب والخيانة، فيَغلِبُ [فى الظن] (١) صدقُ المدّعى فى دعواه. والثالث: أن تتساوى أحوالهما، غيرَ أنه عُرِف للمدّعى يد متقدّمة وليس يُعرَفُ لدخول يد المدّعَى عليه سببٌ، فالذى يقتضيه نظر المظالم فى هذه الأحوال شيئان. أحدهما: إرهابُ المدّعى عليه لتوجُّه الريبة. والثانى: سؤالُه عن سبب دخول يده وحدوث مِلْكه.

وأما إن كانت غَلَبة الظنّ فى جَنَبة المدّعى عليه بانعكاس ما قدّمناه وانتقاله من جانب المدّعى الى المدّعى عليه، فمذهب مالك — رحمه الله — أنه إن كانت دعواه فى مثل هذه الحال لعينٍ قائمة، لم يسمعها إلا بعد ذكر السبب الموجِب لها، وإن كانت فى مالٍ فى الذمة، لم يسمعها إلا أن تقوم البيّنة للمدّعى أنه كان بينه وبين المدّعى عليه معاملة. والشافعىّ وأبو حنيفة — رحمهما الله — لا يَرَيان (٢) ذلك. ونظر المظالم

(١) التكملة من الأحكام السلطانية.

(٢) فى الأحكام السلطانية «والشافعىّ وأبو حنيفة رضى الله عنهما لا يريان ذلك فى حكم القضاة، فاما نظر المظالم الموضوع على الأصلح فعلى الجائز دون الواجب فيسوغ فيه مثل ... ».

موضوعٌ على فعل الجائز دون الواجب، فيسوغ فيه مثل هـذا عند ظهور الريبة . فان وُقِفَ الأمرُ على التحالُف فهو غايةُ الحكم الباتّ الذى لا يجوز دَفْعُ طالبٍ عنه فى نَظَر القضاء ولا نظر المظالم . فإن فَرّق المدّعى دعاويَه وأراد أن يُحلف المدّعى عليه فى كل مَجْلس على بعضها قَصْدًا لإعناته وبذلته ، فالذى يُوجبه حكم القضاء ألّا يُمنع من تبعيض الدعاوى وتفريق الأيمان ، والذى يَنتجه نَظَرُ المظالم أن يُؤمَر المدّعى بجَمْع دعاويه عند ظهور الإعنات منه وإحلاف الخَصْم على جميعها يمينًا واحدة .

فأمّا اذا اعتـدلت حالةُ المتنازِعَيْن وتقابلتْ شُبهةُ المتشاجرين[(١)] ولم يترجّح أحدُهما بأمَارة ولا ظِنّـة ، فينبغى أن يُسَاوى بينهما فى العِظَة ، وهذا مما يتّفق عليه القُضَاة ووُلاة المظالم . ثم يختصّ وُلاة المظالم ، بعد العِظَة ، بالإرهاب لهما معًا لتساويهما ، ثم بالكشف عن أصل الدعوى وانتقال الملك . فإن ظَهَر بالكشف مايُعرَف به المحِقّ منهما من المبطِل عَمِل بمقتضاه ، وإن لم يظهر بالكشف ماينفصل به تنازُعهما ردّهما الى وَسَاطةِ من وُجوه الجيران وأكابر العشائر ، فان تحرّر[(٢)] ما بينهما ، وإلا كان فصلُ القضاء بينهما هو خاتمة أمرهما .

وربمـا ترافع[(٣)] الى وُلاة المظالم فى غوامض الأحكام ومُشْكلات الخصام ما يُرشده اليه الجلساءُ ويفتحه[(٤)] عليه العلماء ، فلا يُنْكِر عليهم الابتداءَ به ، ولا بأس بردّ الحكم فيه (١٠٨) الى من يعلمه منهم .

---

(١) فى الأحكام السلطانية : « بينة المتشاجرين ... » .

(٢) فى الأحكام السلطانية : « فإن تحجزيها ما بينهما » .

(٣) كذا فى الأصل والأحكام السلطانية ، ولعلها « رفع » .

(٤) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل ، « ويقبحه ... » وهو تحريف .

فقد حكى أنّ امرأةً أتتْ عمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه فقالت : ياأمير المؤمنين ، إن زوجي يصومُ النهارَ ويقوم الليلَ ، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله ، فقال لها عمر : نِعْمَ الزوجُ زوجُك ! فجعلت تكرّر عليه القول ، وهو يكرّر عليها الجواب ، فقال له كَعْبُ بنُ سُورٍ الأزديّ[1] : ياأمير المؤمنين ، هذه امرأة تشكو زوجها في مباعدته إياها عن فراشه ، فقال له عمر رضي الله عنه : كما فهمتَ كلامها فاقضِ بينهما ، فقال كعبٌ : عليّ بزوجها ، فأُتِيَ به ، فقال له : امرأتُك هذه تشكوك ، فقال الزوجُ : أفي طعام أو شراب؟ قال كعب : لا في واحد منهما ، فقالت المرأة :

يأيُّها القاضي الحكيمُ أرشَـدُهْ ... ألْهى خليلي عن فِراشي مَسْجِدُهْ
زَهَّـدَهُ في مَضْجَعي تعبُّـدُهْ ... نهـارَه وليـــلَه ما يرقُـــدُهْ
فلستُ من أمرِ النِّسَاء أحمَدُهْ ... فاقضِ القضَا يا كعبُ لا تُرَدِّدُهْ

فقال الزوج :

زَهَّدني في قُرْبِها وفي الحَجَـلْ ... أنّي امرؤٌ أذهلني ما قد نَزَلْ
في سُورةِ النَّحلِ وفي السَّبْعِ الطُّوَلْ ... وفي كتاب الله تخويفٌ جَلَلْ

فقال كعب :

إنّ لهـا حَقًّا عليـك يارَجُلْ ... نصيبَها في أربعٍ لمن عَقَـــلْ
فأعْطِها ذاك ودَعْ عنك العِلَلْ

ثم قال : إنّ الله سبحانه وتعالى قد أحَلّ لك من النساء مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ ، فلكَ ثلاثةُ أيام ولياليهنّ تعبُدُ فيهن ربَّك ، ولهـا يومٌ وليلةٌ . فقال عمر رضي الله عنه

(١) كذا في الكامل لابن الأثير (ج ٢ ص ٤٤٠ طبع مدينه ليدن) والطبرى في غير موضع (طبع ليدن أيضا) والكامل للمبرد (طبع ليبسج) . وفي الأصل : « كعب بن سور الأسدى » .

لكعب : ما أدرى من أى أمرَيْك أعجبُ ! أمِنْ فَهْمك أمرَهمـا ، أم من حُكمك بينهما ! [اذهب][1] فقـد ولَّيتك القضاءَ بالبصرة . وهذا القضاء من كَعْب والإمضاءُ من عمر إنمـا كان حكمًا بالجائز دون الواجب ؛ لأن الزوج لا يلزَمه أن يَقْسِم للزوجة الواحدة ولا يُجيبها الى الفراش اذا أصابَهـا دَفْعةً واحدة . فدَلَّ هـذا على أن لِوَالِى المَظَالم أن يحكُمَ بالجائز دون الواجب .

## ذكر توقيعات متولى المظالم وما يترتّب عليها من الأحكام

قال المـاوردىّ : اذا وقَّع ناظرُ المظالم فى قصص المتظلّمين اليه بالنظرِ بينهم ، لم يخلُ حالُ المُوَقَّع اليه من أحد أمرين : إما أن يكون واليًا على ماوُقِّع به اليه أو غير والٍ عليـه . فان كان واليًا عليه ، كتوقيعه الى القاضى بالنظر بينهما ، فلا يخلو حال ما تضمّنه التوقيـع من أحد أمرين : إمّا أن يكون إذنا بالحكم ، أو إذنا بالكشف والوَساطة . فإن كان إذنا بالحكم ، جاز له الحكم بينهما بأصل الولاية ، و يكون التوقيع تأكيدًا لا يؤثّر فيه قصورُ معانيه . و إن كان إذنا بالكشف للصُورة أو التوسّط بين الخَصمين [فإن كان فى التوقيع بذلك نَهْيُه عن الحكم فيه لم يكن له أن يحكم بينهما][2] وكان هذا النهى عزلا عن الحكم بينهما ، وكان على عموم ولايته فيمن عداهما[3] . و إن لم يَنْهَه فى التوقيع عن الحكم بينهما غيرَ أنّه أمره بالكشف ، فقد قيل : يكون نظره[4] على عمومه فى جواز حكمه بينهما ؛ لأن أمرَه ببعض ما اليه لا يكون منعا من غيره ؛

(١) زيادة عن الأحكام السلطانية .

(٢) وردت هـذه الجملة التى بين القوسين فى الأصل هكذا : «فقد نهاه عن الحكم فيه ولم يكن له أن يحكم بينهما» وهو لا يستقيم مع سياق الكلام . وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٣) فى الأصل : «فيما عداهما» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٤) فى الأصل : «يكون وطره ...» وهو تحريف . والتصويب عن الأحكام السلطانية .

وقيل بل يكون ممنوعا من الحكم بينهما مقصورا على ما تضمّنه التوقيع من الكشف والوَسَاطة؛ لأنّ فَحْوَى التّوقيع دليلٌ عليه. ثم ينظر، فإن كان التوقيع بالوَساطة، لم يلزمه إنهاء الحال اليه بعد الوَساطة، وإن كان بكشف الصورة، لزمه إنهاء حالها اليه؛ لأنه آستخبار منه فيلزمُه إجابته عنه. فهذا حكم توقيعه الى مَنْ اليه الوِلاية.

وأما إن وَقّع الى مَنْ لا وِلَايَةَ له، كتوقيعه الى فقيهٍ أو شاهد، فلا يخلو حال ١١٠ توقيعه من ثلاثة أحوال: أحدها أن [يكون بكشف الصورة، والثـاني أن يكون بالوَساطة، والثالث أن يكون بالحكم. فإن كان التوقيع](١) بكشف الصورة، فعليه أن يَكْشفها ويُنْهِي منها ما يصحّ أن يَشْهَدَ به، ليجوز لناظر المظالم الحكمُ به. فإن أنْهى ما يجوز أن يَشهد به، كان خَبَرًا لايجوز أن يُحَكَّم به، ولكن يجعله ناظر المظالم من الأمارات التي يُغَلَّب بها [حال](١) أحد الخَصْمين في الإرهاب وفَضْل الكَشْف.

فإن كان التوقيع بالوساطة، تَوَسَّطَ بينهما. فإن أفضت الوساطة الى صُلْح الخَصْمين لم يلزَمْه إنهاؤها، وكان شاهدًا فيها، مَتَى آستُدْعِيَ للشهادة أدّاها. وإن لم تُفْضِ الوَساطة الى صُلْحهما، كان شاهدًا عليهما فيما آعترفا به عنـده، يؤدّيه الى الناظر في المظالم اذا طُلِبَ للشّهادة.

وإن كان التوقيع بالحكم بينهما، فهـذه ولايةٌ يُراعى فيها معاني التوقيع، ليكون نظرُه محمولًا على مُوجَبه. واذا كان كذلك فللتوقيع حالتان:

إحداهمـا — أن يحالَ فيـه الى إجابة الخَصْم الى مُلْتَمسه؛ فيعتَبرُ حينئذ فيه ما سأل الخَصْمُ في قِصّته ويصير النظرُ مقصورًا عليه، فان سأل الوَساطةَ أو كشفَ الصورة، كان التوقيع [مُوجِبا له، وكان النظرُ مقصورًا عليه. وسواء خَرَجَ التوقيع](١)

---

(١) عن الأحكام السلطانية.

مَخْرَجَ الأمر كقوله : "أجبه الى ملتمسه"، أو خَرَجَ مخرج الحكاية كقوله : "رأيك في إجابته الى ملتمسه موفّقا"؛ لأنه لا يقتضي ولاية يلزم حكمها، فكان أمرها أخف.(١)

وإن سأل المتظلّم في قصته الحُكْمَ بينهما، فلا بدّ أن يكون الخصم في القصة مسمّى والخصومة مذكورة، لتصحّ الولاية عليها . فإن لم يسمّ الخصم ولم تُذكَر الخصومة، لم تصح [الولاية](٢)، لأنها ليست ولاية عامّة فيحمل على عمومها(٣)، ولا خاصة للجهل بها . وإن سمّى رافعُ القصة خصمه وذكر خصومته، نظر في التوقيع بإجابته الى ملتمسه : فإن خرج مخرج الأمر فوقع "أجبه الى ملتمسه وٱعمل بما ٱلتمسه" صحّت ولايته في الحكم بينهما ، وإن خرج مخرج الحكاية للحال فوقع "رأيك في إجابته الى ملتمسه موفّقا" ، فهذا التوقيع خارجٌ في الأعمال السلطانية مخرج الأمر، والعُرْفُ باستعماله فيها معتاد . وأمّا في الأحكام الدينيّة، فقد جوّزته طائفة من الفقهاء اعتبارا بٱلعُرْف، ومنعتْ طائفة أخرى من جوازه وٱنعقاد الولاية به حتى يقترن به أمرٌ تنعقد ولايته به(٤) ، اعتبارا بمعاني الألفاظ . فلو كان رافعُ القصة سأل التوقيع بالحكم بينهما فوُقّع بإجابته الى مُلتمسه ، فمن يعتبر العُرْفَ المعتاد؛ صحّت الولايةُ [عنده](٥) بهذا التوقيع، ومن ٱعتبر معاني الألفاظ لم تصحّ [عنده](٥) به .

والحالة الثانية من التوقيعات — ألّا(٦) يقتصر فيه على إجابة الخصم الى ماسأل، ويُستأنَف فيه الأمرُ بما تضمنه، فيصير ما تضمنه التوقيع هو المعتبر في الولاية .

(١) في الأصل : «وكان ...» ولكن حسن السياق يقتضي ماأثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٢) الزيادة عن الأحكام السلطانية .

(٣) في الأصل «فيحتمل عمومها» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٤) كذا في الأحكام السلطانية . وفي الأصل : «حتى يقترن به أمر ينعقد بولايته» .

(٥) زيادة وضعناها لٱستقامة الكلام .

(٦) في الأصل : «ان لم ...» .

وإذا كان كذلك، فله ثلاثةُ أحوال : حال كمالٍ، وحال جوازٍ، وحال يخـرُجُ عن الأمرين .

فأما الحال التى يكون التوقيع فيها كاملا فى صحة الولاية، فهو أن يتضمّن شيئين : أحدهما الأمرُ بالنظر، والثانى الأمرُ بالحُكم، فيذكر فيه : "أنظُرْ بين رافع هذه القصّة وبين خَصْمه، واحكم بينهما بالحقّ ومُوجَب الشرع" . [فاذا كانت كذلك][1] جاز، لأن الحكم لا يكون إلا بالحقّ الذى يُوجبه حكمُ الشرع . وإنما يُذْكَرُ ذلك فى التوقيعات وصفًا لا شرطًا . فإن كان التوقيع جامعا لهذين الأمرين من النظر والحكم، فهو النظر الكامل، ويَصِحُّ به التقليد والولاية .

وأمّا الحال التى يكون بها التوقيع جائزًا مع قُصُوره عن حال الكمال، فهو أن يتضمّن الأمرَ بالحُكم دون النّظَر، فيذْكُر فى توقيعه : "أحكُمْ بين رافع هذه [القصّة][1] وبين خَصْمه"، أو يقول : "اقض بينهما"، فتصِحّ الولاية بذلك، لأن الحكم بينهما لا يكون الا بعد تَقَدُّم النّظَر، فصار الأمرُ به مُتَضَمّنًا للنظر، لأنه لا يخلو منه .

وأمّا الحالُ التى يكون التوقيع بها خاليًا من كَمَالٍ وجَوَاز، فهو أن يَذكر فيه : "أُنظر بينهما"، فلا تنعقد بهذا التوقيع ولاية، لأن النظر بينهما قد يَحْتَمِلُ الوَسَاطةَ الجائزةَ ويحتمِلُ الحُكْمَ اللازمَ، وهما فى الاحتمال سواء، فلم تنعقد به مع الاحتمال وِلَاية . فإن ذكر فيه : "أُنظر بينهما بالحق" فقد قيل : إنّ الولايةَ به منعقدة، لأنّ الحق مالزم، وقيل لا تنعقد به، لأن الصلحَ والوَسَاطة حَقٌّ وإن لم يلزم .

فهـذه نُبْذَةٌ كافيةٌ فيما يتعلّق بنَظَر المظالم . وقد يَقَعُ لهم من الوَقَائع والمُخَاصَمات والقَرَائن مالم نَذْكُرْه، فيُجْرَى الحالُ فيها بحسب الوقائع والقرائن، وانمـا هذه أصول سـياسية وقواعد فقهيّة فيُحْمَلُ الأمرُ من أشباهها على مِنْوالها، ويُحْذَى فى أمثالها على مثَالها . والله المُوَفّق .

(١) التكملة عن الأحكام السلطانية .

# البـاب الثالث عشر

## من القسم الخامس من الفن الثانى فى نظر الحسبة وأحكامها (١١٠)

قال أبو الحسن المـاوردىّ — رحمه الله — : والحِسْبةُ هى أمرٌ بالمعروف اذا ظَهَر تَرْكُه ، ونَهْىٌ عن المنكر اذا ظهر فعلُه . قال الله عز وجل : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

ومن شروط ناظر الحسـبة أن يكونَ حُرًّا، عَدْلًا ، ذَا رَأْيٍ وصَرَامةٍ وخُشُونة فى الدِّين، وعِلْمٍ(١) بالْمُنكرات الظاهرة . وٱختَلَف الفقهاءُ [من](٢) أصحـاب الشافعىّ : هل يجوز له أن يحمِـلَ الناسَ ، فيما يُنكره من الأمور التى ٱختَلَف الفقهاءُ فيها، على رأيه وٱجتهادِه، أم لا ، على وجهين :

أحدُهما — وهو قولُ أبى سَعِيدٍ الإِصْطَخْرِىّ — أنّ له أن يحمِلَ ذلك(٣) على رايه وٱجتهادِه، فعلى هـذا يجب أن يكون المحتَسِبُ عالمـًا من أهل الٱجتهاد فى أحكام الدين، ليَجْتَهِدَ رأيَه فيما ٱخْتُلِفَ فيه .

والوجه الثانى — أنه ليس له أن يَحْمِلَ الناس على رأيه ولا يقودَهم الى مَذْهبه ، لتسويغ(٤) ٱجتهاد الكافّة فيما ٱختُلِفَ فيه . فعلى هذا يجوز أن يكون المحتسب من غير أهل الٱجتهاد اذا كان عارفًا بالْمُنكَرَات المتّفَق عليها .

---

(١) كذا فى الأحكام السلطانية ، وفى الأصل : «وعالم ...» .

(٢) زيادة عن الأحكام السلطانية .

(٣) المناسب أن يكون بدل «ذلك» «الناس» .

(٤) فى الأصل : «بتسويغ ...» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

## ذكر الفرق بين المحتسب والمتطوع

قال : والفرقُ بين المحتسب والمتطوِّع من تسعة أوجه :

أحدها — أنّ فَرْضَه متعيِّن على المحتسِب بحكم الوِلاية، وفَرْضه على غيره داخلٌ في فرض الكِفَاية .

والثـانى — أنّ قيام المحتسِب به من حُقوق تَصَرُّفه الذى لا يجوز أن يَتَشاغَلَ عنه بغيره؛ وقيام المتطوِّع به من نَوَافل عَمَله الذى يجوز أن يَتَشاغَلَ عنه بغيره .

والثـالث — أنه منسوبٌ الى الآستعداء اليه فيما يجب إنكارُه؛ وليس المتطوِّع منسوبًا الى الآستعداء .

والرابع — أنّ على المحتسب إجابةَ مَن آستعداه؛ وليس على المتطوّع إجابته .

والخامس — أنّ عليه أن يبحَثَ عن المنكَرَات الظاهرة لِيصِـلَ الى إنكارها، ويَفْحَصَ عما تُرِكَ من المعروف الظاهرِ ليأمُرَ بإقامته ؛ وليس على المتطوّع بحثٌ ولا فَحْص .

والسادس — أنّ له أنّ يتّخذ على الإنكار أعوانا ، لأنه عَمَلٌ هو له منصوب، واليه مندوب، ليكونَ له أقْهر، وعليه أَقْدَر؛ وليس للتطوِّع أن يَنْدُبَ لذلك عونا .

والسابع — أنّ له أن يُعزِّرَ فى المنكرات الظاهرة ولا يَتَجاوَز بها الحُدُودَ؛ وليس للتطوّع أن يُعزِّر عليها .

والثـامن — أنّ له أن يُرْزَقَ على حِسْبته من بيت المـال؛ ولا يجوز للتطوّع أن يُرْزَقَ على إنكار مُنْكَر .

والتاسع — أنّ له ٱجتهادَ رأيه فيما تعلّق بالعُرْف دون الشَّرْع، كالمَقَاعد فى الأسواق وإخراج الأجنحة، فيُقِرّ ويُنكِر من ذلك ما أدّاه اليه ٱجتهادُه؛ وليس هذا للمتطوّع.

فهذا هو الفرق بين متولّى الحِسْبة وبين المتطوّعة، وإن ٱتّفقا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

## ذكر أوضاع الحسبة وموافقتها للقضاء وقصورها عنه وزيادتها عليه، وموافقتها لنظر المظالم وقصورها عنه

قال: وٱعلم أنّ الحِسْبة واسطة بين أحكام القَضَاء وأحكام المَظَالم. فأمّا ما بينها وبين القضاء، فهى مُوافِقةٌ للقَضَاء من وجهين، ومُقَصِّرةٌ عنه من وجهين، وزائدةٌ عليه من وجهين.

أما الوجهان فى موافقتها أحكام القضاء — فأحدهُما جوازُ الٱستعداء اليه. وسَمَاعُه دَعْوَى المُسْتَعْدِى على المستعدَى عليه(١) من حُقوق الآدميين، وليس فى عموم الدعاوى. وإنما يختصّ بثلاثة أنواع من الدعوى:

أحدها: أن يكون فيما تَعَلَّق بِبَخْسٍ وتَطْفِيف فى كَيْلٍ أو وَزْن.

والثانى: فيما تعلّق بِغِشٍّ أو تَدْلِيس فى مَبِيع أو ثَمَن.

والثالث: فيما تعلّق بمَطْل وتأخيرٍ لدَيْنٍ مُسْتَحِقٍّ مع المَكِنَة. وإنما جاز نظرُه فى هذه الأنواع الثلاثة من الدعاوى دون ما عداها، لتعلّقها بمنكرٍ ظاهرٍ هو منصوبٌ لإزالته، وٱختصاصِها بمعروفٍ بيّنٍ هو مندوبٌ الى إقامته. وليس له أن يَتَجاوَزَ ذلك الى الحكم الناجز والفَصْل البات. فهذا أحدُ وَجْهَى الموافقة. (١١١)

(١) كذا فى الأحكام السلطانية. وفى الأصل: «وسماعه دعوى المستعدى عليه على المستعدى» وهو تحريف.

والوجه الثانى — أنّ له إلزامَ المُدَّعَى عليــه الخُرُوجَ من الحقّ الذى عليــه . وليس هذا على العموم فى كل الحُقوق، وإنما هو خاصٌّ فى الحقوق التى جازَ له سماعُ الدعوى فيهــا اذا وَجَبتْ باعتراف وإقرارٍ مع الإمكان واليَسَار، فيلْزِم المُقِرّ المُوسِرَ الخُرُوجَ منها ودَفْعَها الى مُستَحِقّها، لأنّ فى تأخيره لها مُنكَرًا هو منصوبٌ لإزالته .

وأما الوجهان فى قصورها عن أحكامه :

فأحدهما — قُصُورُها عن سَمَــاع الدعاوى الخارجةِ عن ظَوَاهر المُنْكَرات من الدعاوى فى العقود والمعاملات وسائر الحقوق والمطالبات، فلا يجوزُ أن يَتَنــدبَ لسَمَاع الدعوى ولا أن يَتَعَرَّض للحكم فيها لا فى كثير الحقوق ولا قليلها من درْهَمٍ فما دونه، إلا أن يُرَدّ ذلك اليــه بنَصٍّ صَريح [ يَزِيد على إطلاق الحِسْــبة ][1] فيجوزُ له . ويصــير بهذه الزيادة جامعًا بين القَضَاء والحِسْبة، فيُرَاعَى فيه أن يكون من أهــل الاجتهاد . وإن اقْتُصِرَ به على مُطْلَق الحِسْبة، فالقُضَاةُ والحُكّام أحقُّ بالنظر فى قليل ذلك وكثيره .

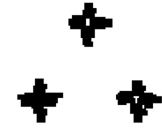
والوجه الثــانى — أنها مقصورةٌ على الحقوق المُعْتَرَف بها . فأمّا ما تَدَاخَلَه جَحْدٌ وإنكارٌ، فلا يجوز له النظرُ فيها، لأن الحكم فيها يَقِفُ على سَمَاع بيّنةٍ وإحلاف يمين، ولا يجوز للمحتَسِب أن يسمعَ بيّنةً على إثبــات حقٍّ ، ولا أن يُحْلِفَ يمينا على نَفْيه؛ والقُضاةُ والحُكّام لسماع البينات وإحلاف الخُصوم أحقُّ .

وأما الوجهان فى زيادتها على أحكام القضاء — فأحدهمــا : أنه يجوز للناظر فيها أن يتَعَرَّض لتَصفُّح ما يأمُرُ به من المعروف ويَنْهى عنه من المنكر، وإن لم يحضُرْه خَصمٌ مُستَعْدٍ؛ وليس للقــاضى أن يتعرض لذلك إلا بعــد حضور خَصْم

(١) التكملة من الأحكام السلطانية .

يجوز له سماعُ الدعوى منه. فإن تعرّض القاضى لذلك فقد خرج عن مَنْصِب وِلايته وصار متجوِّزًا فى قاعدة نَظَره .

والثانى — أنّ للناظر فى الحِسْبة من سَلاطة السَّلْطَنة وٱسْتِطَالة الحُمَاة فيما تعلّق بالمُنْكَرات ما ليس للقُضاة؛ لأنّ الحِسْبة موضوعةٌ على الرَّهْبة؛ فلا يكون خُروجُ المحتسب إليها بالسَّلاطة والغِلْظة تجوُّزًا فيها ولا خَرْقا. والقَضَاء موضوعٌ للمُنَاصَفة فهو بالأَناة والوَقَار أخصّ، وخُرُوجُه عنهما الى السَّلاطة تجوُّزٌ وخُرْق، لأنّ موضوعَ كلّ واحدٍ من المَنْصِبَين مختلفٌ، فالتجاوزُ فيه خُروجٌ عن حَدّه .



وأمّا ما بين الحسبة والمظالم — فبينهما شَبَهٌ مؤتَلِف، وفَرْقٌ مُختلِف . فأما الشَّبَه الجامع بينهما فمن وجهين :

أحدهما — أنّ موضوعَهما على الرَّهْبة المختصّة بسَلاطة السَّلْطنة وقُوّة الصَّرَامة .

والثانى — جوازُ التعرّض فيهما لأسباب المصالح والتطلّع الى إنكار العُدْوان الظّاهر .

وأمّا الفرق بينهما فمن وجهين :

أحدهما — أنّ النَّظَر فى المظالم موضوعٌ لما عَجَز عنه القُضاة، والنظرَ فى الحِسْبة موضوعٌ لما رُفّه عنه القُضاة؛ ولذلك كانت رتبةُ المظالم أعلى، ورتبةُ الحِسْبة أخفض، وجاز لِوَالِى المظالم أن يُوقِّع الى القُضاة والمُحْتَسِبة، ولم يَجُزْ للقاضى أن يوقِّعَ الى وَالِى المَظَالم وجاز له أن يُوقِّع الى المحتسِب، ولم يَجُزْ للمحتسِب أن يُوقِّعَ الى واحدٍ منهما . فهذا فرق .

والثانى — أنه يجوز لِوَالى المظالم أن يَحْكُم، ولا يجوزُ ذلك للمحتسِب .

وحيث قدّمنا هذه المقدّمة فى أوضاع الحِسبة، فلنذكر ما تشتمل عليه ولايتها.

## ذكر ما تشتمل عليـــه ولاية نظر الحســـبة
## وما يختص بها من الأحكام

(١) ونَظَرُ الحسبة يَشتمِلُ على فَصْلين : أحدهما أمرٌ بمعروف، والثـانى نَهىٌ عن منكر . فأمّا الأمرُ بالمعـروف فينقسم الى ثلاثة أقسام : أحدها ما تَعَلّق بحقوق الله عز وجل . والثانى ما تعلّق بحقوق الآدميّين . والثالث ما كان مشتركا بينهما ، على ما ستوضح ذلك .

فأما المتعلق بحقوق الله تعـالى فضربان :

أحدهما — ما يلزم الأمر به فى الجَمَاعة دون الانفراد ، كتَرْك الجمعة فى وَطَنٍ مسكون ، فإن كانوا عددًا قد اتُّفِقَ على انعقاد الجُمعة بهم كالأربعين فما زاد، فواجبٌ أن يأخُذَهم بإقامتها و يأمرَهم بفعْلها و يؤدّبَ على الإخلال بها . وإن كانوا عددًا قد اخْتُلِفَ فى انعقاد الجمعة بهم، فله ولهم أربعة أحوال :

إحداها — أنْ يَتَّفق رأيُه ورأْىُ القوم على انعقاد الجمعة بذلك العدد، فواجبٌ عليه أن يأْمُرَهم بإقامتها، وعليهم أن يُسارعوا الى أمره بها ، ويكون فى تأديبهم على تركها ألينَ منه فى تأديبهم على تَرْك ما انعقَدَ الإجماعُ عليه .

والحال الثانية — أنْ يَتّفق رأْيُه ورأْىُ القوم على أنّ الجمعـة لا تَنْعقد بهم، فلا يجوز أن يأْمُرَهم بإقامتها ولا بالنهى عنها لو أُقيمتْ .

والحال الثالثة — أنْ يرى القومُ انعقادَ الجمعة بهم ولا يراه المُحْتَسب، فلا يجوز له أن يُعارضهم فيها : فلا يأْمُرَ بإقامتها لأنه لا يراه، ولا يَنْهى عنها و يمنَعَهم مما يرونه فرضًا عليهم .

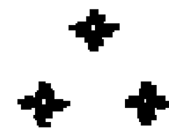
والحال الرابعة — أن يرى المحتسبُ انعقادَ الجمعة بهم ولا يراه القومُ، فهذا مما في استمرارِ تركه تعطيل الجمعة مع تطاوُل الزمان وبُعْده وكثرة العَدَد وزيادته، فهل للمحتسب أن يأمُرَهم بإقامتها اعتباراً بهذا المعنى، أم لا؟ فقد اختلف الفقهاء في ذلك على وجهين:

أحدهما — وهو قول أبي سعيد الإصْطَخْرِيّ — أنه يجوز له أن يأمُرَهم بإقامتها اعتباراً بالمصلحة، لئلا ينشأ الصغيرُ على تَرْكها فيَظُنَّ أنها تَسقُطُ مع زيادة العدد كما تَسقُطُ بنُقْصانه؛ فقد راعى زِيَادُ بن أبيه مثلَ هذا في صَلاة الناس في جامعَي البَصْرة والكُوفة، فإنهم كانوا اذا صلَّوا في صَحْنِه فرفعوا من السُّجود مَسَحُوا جِباهَهم من التُّراب، فأمَرَ بإلقاء الحَصَى في صَحْن المَسْجِد، وقال: لستُ آمَنُ أن يَطُولَ الزمانُ فيَظُنَّ الصغيرُ اذا نشأ أنَّ مَسْحَ الجَبْهَة من أثر السجود سُنَّةٌ في الصلاة.

والوجه الثاني — أنه لا يتعرّض لأمرهم بها، لأنه ليس له حَمْلُ الناس على اعتقاده[1]، ولا أن يأخُذَهم في الدين برأيه، مع تَسويغ الاجتهادِ فيه، وأنَّهم يعتقدون أنّ نُقْصانَ العدد يمنعُ من إجزاء الجمعة. فأمّا أمْرُهم بصلاة العيد فله أن يأمُرَهم بها. وهل يكون الأمرُ بها من الحقوق اللازمة أو من الحقوق الجائزة؟ على وجهين من اختلاف أصحاب الشافعي فيها: هل هي مسنونةٌ أو من فروض الكِفَاية. فإن قيل: إنها مسنونةٌ، كان الأمرُ بها نَدْباً؛ وإن قيل: إنها من فروض الكفاية، كان الأمر بها حتماً. فأمّا صَلاةُ الجَماعة في المساجد وإقامةُ الأذان فيها للصلوات، فمن شعائر الإسلام وعلامات مُتَعَبَّداته التي فرّق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين دار الإسلام ودار الشِّرْك. فإذا أجْمَع أهلُ مَحَلَّة أو بلد على تعطيل الجماعات في مساجدهم وترْكِ الأذان

(١) كذا في الأحكام السلطانية. وفي الأصل «على اعتقاده» وهو تحريف.

فى أوقات صلواتهم ، كان المحتسبُ مندوباً الى أمرِهم بالأذان والجماعة فى الصلوات . وهل ذلك واجبٌ عليــه يأثمُ بتركه ، أو مُستَحبٌّ له يُثابُ على فعله . فأمّا مَنْ ترك صلاةَ الجماعة من آحاد الناس أو تَرَكَ الأذان والإقامة لصلاة ، فلا آعتراضَ للمُحْتسب عليه اذا لم يجعله عادةً و إلفاً ، لأنها من النَّدْب الذى يسقُط بالأعذار ، إلا أن يَقْتَرِن به آسترابة أو يجعَله إلفاً وعادةً ، ويُخاف تَعَدِّى ذلك الى غيره فى الآقتداء به ، فيُراعى حكمَ المَصْلحة فى زَجْره عمّــا آستهان به من سُنَن عبادته . ويكونُ وعيدُه على تَرْكِ الجَمَــاعة معتَبَراً بشواهد حاله ، كالذى رُوِىَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لقد هَمَمْتُ أن آمُرَ أصحابى أن يجمَعُوا حَطَباً وآمُرَ بالصــلاة فيُؤَذَّنَ لهــا وتُقامَ ثم أُخالِفَ الى منَازل قومٍ لا يحضُرُون الصلاةَ فأُحَرِّقَها عليهم " .

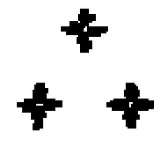


وأما ما يأمُرُ به آحادَ الناس وأفرادَهم ، فكتأخير الصــلاة حتى يخرُجَ وقتُها ، فيُذَكِّرُها ويؤمَرُ بفعلها . ويُراعِى جواب المأمور عنها ؛ فإن قال : تركتُها لنسيان ، حثّه على فعلها بعد ذكره ولم يؤدّبه . وإن تركها لتَوانٍ أدّبه زَجْراً وأخذه بفعلها جبْرا . ولا آعتراض على من أخّرها والوقتُ باقٍ ، لآختلاف الفقهاء فى فضل التأخير . ولكن لو آتفق أهلُ بلدٍ على تأخير صلاة الجماعات الى آخرِ وقتها والمحتسبُ يرى فضلَ تعجيلها ، فهل له أن يأمرَهم بالتعجيل أو لا . فمن رأى أنه يأمرُهم بذلك ، راعَى أنّ آعتياد تأخيرها وإطباقَ جميع الناس عليــه مُفْضٍ الى أن الصغير ينشأ وهو يعتقد أن هذا هو الوقت دون ما قبله ؛ ولو عجّلها بعضُهم ترك من أخّرها منهم وما يراه من التأخير .

---

(١) مرجع الضمير «الفرد» .

فأمّا الأذانُ والقُنُوت فى الصّلَوات اذا خالف فيه رأىَ المحتسب فلا آعتراض له فيه بأمرٍ ولا نهى و إن كان يرى خلافه، اذا كان ما يفعل مُسَوَّغًا فى الآجتهاد. وكذلك الطهارة اذا فَعَلها على وجه سائغ يُخالف فيه رأىَ المحتسب[1] : من إزالة النجاسة بالمائعات، والوضوء بماءٍ تَغيّرَ بالمذرورات الطاهرات، أو الآقتصارِ على مَسْح أقلّ الرأس، والعفوِ عن قَدْر الدرهم من النّجاسة، فلا آعتراضَ له فى شىء من ذلك بأمرٍ ولا نهى . وفى آعتراضه عليهم فى الوضوء بالنبيذ عند عدم الماء وجهان، لما فيه من الإفضاء الى آستباحته على كل الأحوال، وأنه ربما آل الى السكر من شربه . ثم على نظائر هذا المثال تكون أوامرُه بالعُرْف فى حقوق الله تعالى .



وأما الأمر بالمعروف فى حقوق الآدميين فضربان : عام وخاص .

فأمّا العام ــ فكالبلد اذا تعطّل شِرْبه، أو آستهدم سُوره، أو كان يَطْرُقُه بنو السبيل من ذوى الحاجات فكَفّوا عن معونتهم، فإن كان فى بيت المال مالٌ، لم يتوجّه عليهم فيه أمرٌ بإصلاح شِرْبهم وبناءِ سُورهم ولا بمعونة بنى السبيل فى الآجتياز بهم؛ لأنها حقوق تلزم بيتَ المال دونهم؛ وكذلك لو آستهدمتْ مساجدُهم وجَوامعُهم . فأما اذا أعوزَ بيتُ المال، كان الأمرُ ببناء سورهم، وإصلاح شِرْبهم، وعِمارة مساجدهم وجوامعهم، ومراعاةِ بنى السبيل فيهم متوجّهًا الى كافّة ذوى المُكْنَة منهم ولا يتعيّن أحدُهم فى الأمر به . فإن شَرَع ذوو المُكْنَة فى عمله ومُراعاة بنى السبيل، و باشروا القيامَ به، سَقَط عن المحتسب حقُّ الأمر به . ولا يلزمُهم الآستئذانُ فى مراعاة بنى السبيل، ولا فى بناء ما كان مهدوما . ولكن لو أرادوا هَدْم ما يريدون بناءه من

(١) فى الأصل : «على وجه سائغ يخالف فيه» وقد أثبتنا ما فى الأحكام السلطانية لوضوح استقامته .

المُسْتَرَمّ والمُسْتَهْدِم (١)، لم يكن لهم الإقدام على هدمه إلا باستئذان ولىّ الأمر دون المحتسب، ليأذنَ لهم فى هَدْمه بعد تضمينهم القيامَ بعمارته. هذا فى السُّور والجوامع. وأمّا المساجد المختصرة فلا يَسْتأذِنون فيها. وعلى المحتسب أن يأخذَهم ببناء ما هَدَموه، وليس له أن يأخذهم بإتمام ما آستأنفوه. فأمّا اذا كَفَّ ذَوُو المَكِنة عن بناء ما آستَهْدَم، فإن كان المُقام فى البـلد ممكنا وكان الشِّرْب وإن فَسَد مُقنعا، تاركَهم وإيّاه. وإن تعذّر المُقامُ فيه، لتعطُّل شِرْبه وآندحاض سُوره، نُظِرَ: فإن كان البلد ثغرا يَضُرّ بدار الإسلام تعطيلُه، لم يجز لولىّ الأمر أن يُفسِح فى الآنتقال عنه، [وكان حكمه حكم النوازل اذا حَدَثت: فى قيام كافّة ذوى المكنة به](٢)، وكان تأثيرُ المحتسب فى مثل هذا إعلامَ السلطانِ به وترغيب أهل المكنة فى عمله. وإن لم يكن البلد ثغرا مُضراً بدار الإسلام، كان أمره أيسر وحكمه أخفّ. ولم يكن للمحتسب أن يأخذ أهله جبرا بعمارته، لأن السـلطان أحقّ أن يقوم بعمارته. وإن أعوزه المـال، فيقول لهم المحتسب: ما دامَ عَجْزُ السلطان عنه أنتم مخيَّرون بين الآنتقال عنه أو آلتزام ماينصرف فى مصالحه التى يمكن معها دوام آستيطانه. فإن أجابوا الى آلتزام ذلك، كلَّف جماعتهم ماتَسْمَح به نفوسهم من غير إجبار، ويقول: ليُخْرِجْ كلّ واحد منكم مايسهُل عليه وتطيب به نفسه، ومن أعوزه المـالُ أعان بالعمل. حتى اذا اجتمعت كِفَاية المصلحة أو تعين آجتماعها (٣) بضَمَان كل واحد من أهل المَكِنة قَدْرًا طاب به نفسًا، شَرَعَ حينئذ فى عمل المصلحة وأَخَذَ كلَّ واحد من الجماعة بما آلْتَزَم به. وإن عَمّت هذه المصلحة،

(١) المسترم: ما دعا الى رمّه وإصلاحه من البناء. والمستهدم: ما يريد أن يتهدم وينقض.

(٢) وردت هذه الجملة التى بين القوسين فى الأصل هكذا: «وان كان حكمه حكم النوازل اذا حدثت فى قيامه وكافة ذوى المكنة به» وقد أثبتنا ما ورد فى الأحكام السلطانية لآستقامته.

(٣) فى الأحكام السلطانية: «أو يلوح ...».

لم يكن للمحتسب أن يتقدّم بالقيام بها حتى يستأذن السلطانَ فيها، لئلا يصير بالتفرّد مُفْتاتا [عليه](١)، اذ ليست هذه المصلحة من معهود حِسْبته. فإن قلّت وشَقّ آستئذان السلطان فيها أو خِيفَ زيادةُ الضّرَر لبعد آستئذانه، جاز شروعه فيها من غير آستئذان. هذا أمر العام. (١١٤)

فأمّا الخـــاص — فكالحقوق اذا مُطلتْ والديون اذا أُخِّرت، فللمحتسب أن يأمُرَ بالخروج منها مع المَكِنة اذا آستَعْداه أصحابُ الحقوق. وليس له أن يحْبِس عليها، لأن الحبس حكم. وله أن يُلازِم عليها، لأنّ لصاحب الحقّ أن يلازِم. وليس له الأخذُ بنفقات الأقارب، لافتقار ذلك الى آجتهاد شرعيّ فيمن يجب له وعليه، الا أن يكون الحاكم قد فَرَضها فيجوز أن يأْخُذَ بأدائها؛ وكذلك كَفَالة من تجب كَفَالته من الصغار لا آعتراض له فيها حتى يحكم بها الحاكم؛ ويجوز حينئذ للمحتسب أن يأمر بالقيام بها على الشروط المستحقّة فيها.

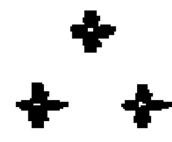
فأمّا قبول الوصايا والودائع، فليس له أن يأمرَ بها أعيانَ الناس وآحادَهم، ويجوز أن يأمر بها على العموم، حَثًّا على التعاوُن بالبِرّ والتقوى. ثم على هذا المثال تكون أوامره بالمعروف فى حقوق الآدميين.

* * *

وأما الأمر بالمعروف — فيما كان مشتركا بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين كأخذ الأولياء بإنكاح الأيامى من أكفائهن اذا طُلِبْن، وإلزام النساء أحكامَ العِـدّد اذا فُورِقْن. وله تأديب مَن خالَفَ فى العِدّة من النساء، وليس له تأديب من آمتنع من الأولياء. ومن نَفَى ولدًا قد ثبت فِراشُ أمّه ولُحُوق نَسَبه، أخَذَه بأحكام الآباء جبرا

(١) زيادة عن الأحكام السلطانية.

وعَزّره على النفي أدبا. ويأخذ السَّادةَ بحقوق العبيد والإماء، وألّا يُكلّفوا من الأعمال مالا يُطيقون. وكذلك أربابُ البهائم يأخذهم بعلُوفتها اذا قصَّروا فيها، وألا يستعملوها فيما لاتُطيق . ومن أخَذَ لقِيطًا فقصَّر فى كَفَالته، أمرَه أن يقوم بحقوق التقاطه: من التزام كفالته أو تسليمه الى من يلتزمها ويقوم بها . وكذلك واجدُ الضَّوالّ اذا قَصَّر فيها أخَذَه بمثل ذلك من القيام بها أو تسليمها الى من يقوم بها، ويكون ضامناً للضالّة بالتقصير ولا يكون به ضامنا للقيط . واذا سلّم الضالّةَ الى غيره ضَمِنها، ولا يَضْمَن اللقيطَ بالتسليم. ثم على نظائر هذا المثال يكون أمرُه بالمعروف فى الحقوق المشتركة.



وأما النهى عن المنكرات — فينقسم الى ثلاثة أقسام : أحدها ما كان من حقوق الله تعالى . والثانى ما كان من حقوق الآدميين . والثالث ما كان مشتركا بين الحقين .

فأما النهى عنها فى حقوق الله تعالى — فعلى ثلاثة أقسام : أحدها ما تعلّق بالعبادات . والثانى ما تعلّق بالمحظورات . والثالث ما تعلّق بالمعاملات .

فأما المتعلق بالعبادات — فكالقاصد مخالفةَ هيئتها المشروعة، والمتعمِّد تغييرَ أوصافها المسنونة، مثل من يقصد الجَهْرَ فى صلاة الإسرار والإسرارَ فى صلاة الجهر، أو يزيد فى الصلاة أو فى الأذان أذكاراً غيرَ مسنونة ، فللمحتسب إنكارُها وتأديبُ المعاند فيها اذا لم يقُل بما ارتكبه إمامٌ متبوع. وكذلك اذا أخَلّ بتطهير جَسَده أو ثَوْبه أو موضع صَلاته، أنكره عليه اذا تحقّق ذلك منه، ولا يُؤاخذه بالتُّهم والظنون. وكذلك لو ظَنّ برجل أنه يترُك الغُسْل من الجَنابة أو يترُك الصلاةَ والصيامَ، لم يؤاخذه بالتُّهم ولم يقابله بالإنكار . لكن يجوز له بالتهمة أن يَعِظَ ويُحذِّر من عذاب الله تعالى على

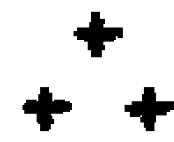
إسقاط حقوقه والإخلال بمفروضاته . فإن رآه يأكل فى شهر رمضان لم يُقْدِمْ على تأديبه إلا بعد سؤاله عن سبب أكله اذا ٱلتبست أحوالُه ؛ فربما كان مريضا أو مسافرًا . ويلزمه السؤالُ اذا ظَهرت منه أماراتُ الرِّيَب . فإن ذَكَر من الأعذار ما تحتمله حاله ، كَفّ عن زَجْره وأمره بإخفاء أكله ، لئلا يُعرِّض نفسَه للتُّهمة . ولا يلزمه إحلافه عند الآستِرابة بقوله ؛ لأنه موكول الى أمانته . وإن لم يذكر عذرًا ، جاهَرَ بالإنكار عليه وأدّبه أدَبَ زَجْر . واذا عَلِمَ عذرَه فى الأكل ، أنْكَرَ عليه المجاهرةَ به ، لتعريض نفسه للتُّهمة ولئلا يَقْتَدِىَ به من ذوى الجَهَالة مَنْ لا يميِّز حالَ عُذْره من غيره . (١١٥)

وأمّا الممتنع من إخراج زكاته ، فإن كان من الأموال الظاهرة ، فعامِلُ الصَّدَقة بأخذها منه جبرًا[1] أخَصّ من المُحتسِب . وإن كان من الأموال الباطنة ، فيُحْتَمَلُ أن يكون المحتسبُ أخَصَّ بالإنكار عليه من عامل الصدقة ، لأنه لا آعتراضَ للعامل[2] فى الأموال الباطنة ؛ ويُحتمل أن يكون العامل بالإنكار عليه أخَصّ ، لأنه لو دَفَعها اليه أجزأه . ويكون تأديبُه مُعتَبرًا بشواهد حاله فى الآمتناع من إخراج زكاته . وإن ذكر أنه يُخرِجها ، سِرًّا وُكِلَ الى أمانته فيها . وإن رأى رجلًا يتعرض لمسألة الناس وطَلَبِ الصَّدَقة وعلم أنه غنىّ إما بمال أو عَمَلٍ ، أنكره عليه وأدّبه . ولو رأى عليه آثارَ الغِنى وهو يسألُ الناسَ ، أعْلمه تحريمَها على المستَغْنِى عنها ، ولم يُنْكِرْ عليه ، لجواز أن يكون فى الباطن فقيرا . واذا تعرّض للمسألة ذُو جَلَدٍ وقُوّة على العمل ، زَجَرَه وأمره أن يتعرّض للآحتراف بعمله ؛ فإن أقام على المسألة عَزَّره حتى يُقْلِعَ عنها . واذا دَعَت

(١) كذا فى الأحكام السلطانية . وفى الأصل «وبأخذ منه» وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «فانه لااعتراض على العامل ...» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

الخلل، عند إلحاح من حرمت عليه [المسألة][1] بمال أو عمل، أن ينفق على ذى المال جزءًا من ماله، ويؤاجر ذا العمل وينفق عليه من أجرته، لم يكن للمحتسب أن يفعل ذلك بنفسه؛ لأن هذا حكم، والحكام به أحق، فيرفع أمره الى الحاكم ليتولى ذلك أو يأذن فيه . واذا وجد فيمن يتصدى للعلوم الشرعية من ليس من أهلها من فقيه أو واعظ ولم يأمن اغترار الناس به فى سوء تأويل أو تحريف، أنكر عليه التصدى لما ليس [هو][1] من أهله، وأظهر أمره لئلا يغتر به . وإن أشكل عليه أمره، لم يقدم عليه بالإنكار إلا بعد الاختبار . وكذلك لو ابتدع بعض المنتسبين الى العلم قولاً خرق به الإجماع وخالف النص ورد قوله علماء عصره،[2] أنكره عليه وزجره فإن أقلع وتاب، وإلا فالسلطان بتهذيب الدين أحق . وإذا تفرد[3] بعض المفسرين لكتاب الله عز وجل بتأويل عدل فيه عن ظاهر التنزيل الى باطن بدعة بتكلف له أغمض معانيه، أو انفرد بعض الرواة بأحاديث مناكير تنفر منها النفوس أو يفسد بها التأويل، كان على المحتسب إنكار ذلك والمنع منه . وهذا إنما يصح منه إنكاره اذا تميز عنده الصحيح من الفاسد والحق من الباطل . وذلك بأحد وجهين : إما أن يكون بقوته فى العلم واجتهاده فيه، فلا يخفى ذلك عليه؛ وإما باتفاق علماء الوقت على إنكاره وابتداعه، فيستعدونه فيه، فيعول فى الإنكار على أقاويلهم، وفى المنع منه على اتفاقهم.



وأما ما تعلق بالمحظورات — فهو أن يمنع الناس من مواقف الريب ومظان التهم . فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "دع ما يريبك الى

(١) زيادة عن الأحكام السلطانية .

(٢) فى الأصل : «وردة قول علماء عصره أنكر ...» وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٣) فى الأحكام السلطانية : «وإذا تعرض ...» .

مالا يُرِيبك". فيقدّم الإنكارَ، ولا يُعَجِّل بالتأديب قبل الإنذار. وإذا رأى وَقْفَةَ رجل مع آمرأة فى طريقٍ سابلٍ لم تَظْهَرْ منهما أماراتُ الرِّيَب، لم يعترض عليهما بزجرٍ ولا إنكار، فما يجد الناس بُدًّا من هذا . وإن كانت الوقفةُ فى طريقٍ خالٍ، فخُلُوّ المكان ريبةٌ، فينكرها، ولا يُعَجِّل فى التأديب عليهما حَذَراً من أن تكون ذاتَ مَحْرَم. وليَقُلْ : إن كانتْ ذاتَ محرم فَصُنْها عن مواقف الرِّيب، وإن كانت أجنبيةً فخَفِ الله تعالى من خَلْوةٍ تؤدِّيك الى مَعْصِيَة الله . وليكن زَجْرُه بحسب الأمارات . وليَسْتَخْبِر. فقد حُكِيَ أنّ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه بينا هو يَطُوف بالبيت اذ رأى رجلاً يطوفُ وعلى عُنُقه آمرأةٌ مثلُ المَهَاة حسناءُ جميلةٌ، وهو يقول :

عُدْتُ لهــذى جَمَلًا ذَلُولَا ＊ مُوَطَّأً أَتَّبِـعُ السُّهُـولَا
أَعْدِلُهـا بالكَفِّ أَنْ تَمِيلَا ＊ أحذَرُ أن تَسقُطَ أو تَزُولَا
＊ أرجو بذاك نائلًا جزيلا ＊

فقال له عمــر : يا عبد الله، مَنْ هذه التى وَهَبْتَ لهـا حَجَّك؟ فقال : امرأتى يا أمير المؤمنين! وإنها حَمْقاءُ مِرْغَامَة، أَكُولٌ قامَّة، لا يَبْقَى لهـا خَامَّة[(١)]؛ فقال له : مالَكَ لا تطلِّقها؟ فقال : إنها حسناءُ لا تُفْرَك، وأُمُّ صِبْيان فلا تُتْرَك، قال : فشأنَكَ بها . فلم يُقْدِمْ عمر رضى الله عنه بالإنكار حتى آستخبره، فلما آنتفت عنه الرِّيبــة أقرّه على فعله . (١١٦)

واذا جاهر رجل بإظهار الخمر، فإن كان من المسلمين، أراقها وأدّبه؛ وإن كان ذِمّيًّا أُدّب على إظهارها، وآختلف فى إراقتها عليــه، فذهب أبو حنيفة الى

---

(١) المرغامة : المغضبة لبعلها . وقامّة : من قمّ ما على الخوان اذا لم يدع عليه شيئا . وخامّة : من خمّ اللحم وغيره اذا تغيّر وفسد .

أنها [لا] تُراق عليه[1]، لأنها عنده من أموالهم المضمونة فى حقوقهم. وذهب الشافعىّ الى إراقتها عليهم، لأنها لا تُضمَن عنده فى حقّ المسلم ولا الكافر .

وأمّا المجاهرةُ بإظهار النبيذ، فعند أبى حنيفة أنه من الأموال التى يُقَرّ المسلمون عليها، فمُنِعَ[2] من إراقته ومن التأديب على إظهاره. وعند الشافعىّ أنه ليس بمال كالخمر وليس فى إراقته غُرم. فيعتبر ناظرُ الحِسْبة شواهدَ الحال فيه فينْهى[3] فيه عن المجاهرة، ويزجُرُ عليه إن كان لمعاقَرة، ولا يُرِيقه عليه، إلا أن يأمُرَ بإراقته حاكمٌ من أهل الاجتهاد، لئلا يتوجّه عليه غُرْمٌ إن حُوكِم فيه .

وأمّا السكران اذا تظاهر بسُكْره وتخَفّف بهُجْره، ادّبه على السكر والهجر تعزيراً لا حدًّا، لقلة مُراقبته وظهور تخفّفه .

وأما المجاهرة بإظهار المَلَاهى المحرّمة، فعلى المحتَسِب أن يَفْصِلَها حتى تصير خشباً لتخرُج[4] عن حكم الملاهى، ويؤدّب على المجاهرة بها؛ ولا يكسرها إن كان خشبها يصلُح لغير الملاهى .

وأمّا اللُّعَبُ فليس يُقصَد بها المَعاصى؛ وإنما يُقصَد بها إلْفُ البنات لتربية الأولاد، ففيها وجهٌ من وجوه التدبير [تقارنه معصية، بتصوير ذوات الأرواح ومشابهة الأصنام؛ فللتمكين منها وجهٌ، وللمنع منها وجهٌ][1]؛ وبحسب ما تقتضيه

---

(١) التكملة عن الأحكام السلطانية .

(٢) فى الأصل « اراقتها » .

(٣) فى الأصل : « فينهى منه » وما أثبتناه عن الأحكام السلطانية .

(٤) فى الأصل : « تخرج ... » من غير لام ؛ وقد أثبتناها استنادا على الأحكام السلطانية الذى فيه : « لتزول » بدل « تخرج » .

شواهد الأحوال يكون إنكاره وإقراره . وقد كانت عائشة رضى الله عنها فى صِغَرها تلعب بالبنات بمَشْهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يُنكره عليها .

وأمّا ما لم يظهر من المحظورات[1] ، فليس للمحتسب أن يبحث عنها ولا أن يَهتِكَ الأستار فيها ؛ فقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ أتى من هذه القاذورات شيئا فليَستَتِرْ بستر الله فإنه مَنْ يُبْدِ لنا صَفْحته نُقِمْ حَدّ الله عليه" . فإن آستتر أقوام لآرتكاب محظورٍ يُخْشَى فواتُه مثل أن يُخبِره من يثق بصِدْقه أن رجلا خَلا برجل ليقتلَه أو آمرأةٍ ليَزْنِيَ بها ، فيجوز له فى مثل هذه الحال أن يتجسّس ويُقْدِمَ على الكشف والبحث ، حذرًا من فوات ما لا يُسْتَدْرَك من آنتهاك المحارم وآرتكاب المحظورات . وهكذا لو عَرَف ذلك قومٌ من المتطوّعة جاز لهم الإقدامُ على الكشف والإنكار . وأمّا ما هو دون هذه الرتبة ، فلا يجوز التجسُّس عليه ولا كشفُ الأستار عنه . وإن سَمِعَ أصواتَ مَلاهٍ مُنكرة من دار تَظَاهَر أهلُها بأصواتهم ، أنكرها خارجَ الدار ولم يَهْجُم عليها بالدخول .

وأمّا ما تَعلَّق بالمعاملات المُنكرة ، كالرِّبا والبيوع الفاسدة وما مَنَع الشرعُ منه مع تَرَاضِى المتعاقدين به اذا كان مُتفقًا على حَظْره ، فعلى وَالِى الحِسْبة إنكارُه والمنعُ منه والزجر عليه . وامرُه بالتأديب مُختلِفٌ بحسب الأحوال وشدّة الحَظْر .

فأما ما آختلف الفقهاء فى حَظْره وإباحته ، فلا مَدْخَلَ له فى إنكاره ، إلا أن يكون مما يَضْعُفُ الخلافُ فيه وكان ذَرِيعةً إلى محظور مُتَفقٍ عليه — كرِبَا النَّقْدَين : الخلافُ فيه ضعيف ، وهو ذريعةٌ الى ربا النَّسَاء المتَفق على تحريمه — فهل يدخل فى إنكاره ، أم لا . وكذلك فى عقود الأنكحة يُنكر منها ما آتّفق الفقهاء على حَظْرها ،

(١) كذا فى الأحكام السلطانية ، وفى الأصل : « وأما مالم يظهر بالمحظورات » .

ولا يتعرض لمـا آختلف فيه، إلا أن يكون مما ضعف الخلاف فيه وكان ذريعة الى محظور متفق عليه، كالمتعة فربما صارت ذريعة الى آستباحة الزنا ، ففى إنكاره لهـا وجهان .

ومما يتعلق بالمعاملات غش المبيعات وتدليس الأثمان، فينكره ويمنع منه ويؤدب عليه بحسب الحال فيه؛ فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس منا من غش" وفى لفظ: "من غشنا فليس منا". فإن كان هذا الغش تدليسا على المشترى وهو مما يخفى عليه، فهو أغلظ الغشوش تحريما وأعظمها مأثما، والإنكار عليه أغلظ والتأديب أشد . وإن كان مما لا يخفى على المشترى، كان أخف مأثما وألين إنكارا . وينظر فى المشترى: فإن كان آشتراه ليبيعه من غيره[(١)]، توجه الإنكار على البائع لغشه، وعلى المشترى لآبتياعه ؛ لأنه قد يبيعه من لم يعلم بغشه[(٢)] ؛ وإن كان المشترى اشتراه ليستعمله، خرج من جملة الإنكار، وآختص الإنكار بالبائع وحده . وكذلك فى تدليس الأثمـان .

ويمنع من تصرية[(٣)] المواشى وتحفيل ضروعها عند البيع، للنهى عنه وأنه نوع من التدليس .

ومما هو عمدة نظره المنع من التطفيف والبخس فى المكاييل والموازين والصنجات[(٤)]، لوعيد الله تعالى عليه بقوله :(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ

---

(١) فى الأصل وفى نسخة من الأحكام السلطانية يشير اليها هامش التى بأيدينا : «ليبيعه على غيره» . وقد أثبتنا ما فى النسخة التى بأيدينا لأنه هو الذى يقتضيه المقام .

(٢) فى الأصل : « قد يبيعه على من ... » .

(٣) مصدر صرّى الناقة أو الشاة اذا حبس اللبن فى ضرعها ليكثر .

(٤) الصنجة والسنجة والسين أفصح : ما يوزن به كالأوقية والرطل ؛ وجمعها صنجات كما أثبتنا استنادا الى ما فى الأحكام السلطانية وهو الوارد فى كتب اللغة ، وفى الأصل : « الصنوج » .

يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) . ولكن الأدبُ عليه أظهر، والمعاقبة فيه أكثر . ويجوز له اذا آستراب بموازين السّوقة ومكاييلهم أن يختبرها ويعايرها.(١) ولو كان على ما عايَرد منها طابعٌ معروفٌ بين العامّة لا يتعاملون إلا به، كان أَحْوطَ وأسلم . فإن فعل ذلك وتعامل قومٌ بغير ما طُبع عليه طابعُه، توجّه الإنكار عليهم إن كان مبخوسًا، من وجهين : أحدهما مخالفتُه فى العدول عن مطبوعه، وإنكاره لذلك من الحقوق السلطانية . والثانى للبخس والتطفيف، وإنكاره من الحقوق الشرعية. وإن كان ما تعاملوا به من غير المطبوع سليماً من بَخْس ونَقْص، فإنكارُه لمجرّد حق السلطنة للمخالفة. وإن زوّر قومٌ على طابَعه، كالبَهْرَج على طابع الدنانير والدراهم، فإن قُرن التزويرُ بغش، كان التأديبُ مستحقًّا من الوجهين، وهو أغلظ وأشدّ، وإن سلم من الغش كان الإنكار لحق السلطنة خاصّة .

واذا آتّسع البلد حتى آحتاج أهله الى عِدّة من الكيّالين والوزّانين والنُّقّاد، تخيّرهم ناظر الحِسبة، ومنع أن ينتدب لذلك إلا من آرتضاه من الأُمناء الثّقات . وكانت أجورُهم من بيت المـال إن آتّسع لهـا، فإن ضاق عنها قدّرها لهم، حتى لا تجرى [بينهم فيها](٢) آستزادةٌ أو نقصان، فيكون ذلك ذريعةً الى المايلة أو التحيُّف فى مَكِيل أو موزون . فإن ظهر من أحدٍ ممن آختاره للكيل والوزن تحيُّفٌ فى تطفيف أو ممايلةٌ فى زيادة، أُدِّبَ وأُخْرِج منهم ومُنِـعَ من أن يتعرّض للوَساطة بين الناس. وكذلك القول فى آختيار الدلّالين، يُقَرّ منهم الأُمناء ويُمنع الخَوَنةُ .

واذا وقع فى تطفيف تخاصُمٌ، جاز أن ينظر المحتسبُ فيه إن لم يقترن به تجاحُدٌ وتناكُرٌ، فإن أفضى الى تجاحدٍ وتناكر، كان القضاة أحق بالنظر فيه من وُلاة الحِسْبة،

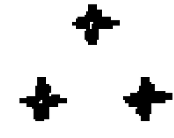
(١) فى الأصل : «ويعتبرها» ، والتصويب عن الأحكام السلطانية .

(٢) زيادة عن الأحكام السلطانية .

لأنهم أحق بالأحكام، وكان التأديبُ فيه الى المحتسب . فإن وَلّاه الحاكم جاز، لاتّصاله بحكمه .

ومما يُنكره المحتسب في العموم ولا ينكره في الخصوص والآحاد، التّبايُعُ بما لم يألفه أهـلُ البلد من المكاييل والأوزان التي لا تُعْرَف فيـه وإن كانت معروفة في غيره . فإن تَرَاضى بذلك اثنان، لم يعترض عليهما بالإنكار والمنْع، ويمنـع من عموم التعامل بها، لأنه قد يعاملهم فيها من لا يعرفها فيصير مغرورا .

هذا ما يتعلّق بالنهى فى حقوق الله تعالى .



وأما النهى فى حقوق الآدميين المحضة — مثل أن يتعدّى رجل فى حد لجاره، أو حريم لداره، أو وَضْع أجذاعٍ على جداره، فلا اعتراضَ للمحتسب فيه ما لم يَسْتَعْدِه الجار، لأنه حقٌّ يخُصّه يصحّ منه العفو عنه والمطالبةُ به؛ فإن خاصمه فيـه الى المحتسب، نظر فيـه، ما لم يكن بينهما تنازُعٌ وتناكر، وأخَذَ المتعـدّىَ بإزالة تعدّيه؛ وكان تأديبه عليه بحسب شواهد الحال . فإنْ تنازعا كان الحاكمُ بالنظر فيه أحقَّ . ولو أقرّ الجارُ جاره على تعدّيه وعفا عن مطالبته بهدم ما تَعَـدّى فيه ثم عاد وطالب بذلك، كان ذلك له، وأُخِذَ المتعدّى بعد العفو عنه بهدم ما بناه . وإن كان قد ابتدأ البناءَ ووَضَع الأجذاعَ بإذن الجار ثم رَجَع الجار فى إذنه، لم يؤخَذ البـانى بهدمه . وإن انتشرت أغصان شجرة الى دار جاره، كان للجار أن يَسْتعدىَ المحتسبَ حتى يُعـديه على صاحب الشجرة، ليأخذه بإزالة ما انتشر من أغصانها فى داره؛ ولا تأديبَ عليه لأن انتشارها ليس من فعله . ولو انتشرت عروق الشجرة تحت الارض حتى دخلت فى قرار أرض الجار، لم يُؤْخَذْ بقَلْعها ولم يُمْنَع الجارُ من التصرُّف

(١١٨) فى قرار أرضه وإن قطعها . وإذا نَصَب المالك تَنُّورًا فى داره فتأذّى الجارُ بدُخَانه، لم يُعتَرَض عليه ولم يُمنع منه . وكذلك لو نَصَب فى داره رحًى أو وَضَع فيها حَدَّادِين أو قَصَّارِين، لم يُمنع منه . وإذا تَعَدَّى مستأجر على أجير فى نُقْصان أجرة أو زيادة عمل، كَفّه عن تعدّيه؛ وكان الإنكار عليه معتبرا بشواهد حاله . ولو قَصَّر الأجير فى حق المستأجر فنَقَصَه من العمل أو آستزاده فى الأجرة، منعه منه وأنكره عليه اذا تخاصما اليه؛ فإن آختلفا وتناكرا، كان الحاكم بالنظر بينهما أحقّ .

ومما يُؤخذ وُلاةُ الحِسْبة بمراعاته من أهل الصنائع فى الأسواق ثلاثةُ أصناف: منهم من يُرَاعَى عمله فى الوُفور والتقصير، ومنهم من يُرَاعَى حاله فى الأمانة والخيانة، ومنهم من يُرَاعَى عملُه فى الجَوْدة والرَّداءة .

فأمّا من يُرَاعَى عمله فى الوفور والتقصير فكالطبّ والتعليم، لأن الطب إقدام على النفوس يُفضى التقصير فيه الى تَلَف أو سَقَم . وللعلمين من الطرائق التى يَنشأ الصغار عليها ما يكون نقلُهم عنه بعد الكِبَر عسيرا[(١)]، فيقرّ منهم من تَوَفَّر علمه وحَسُنت طريقته، ويمنع من قَصَّر وأساء من التَّصَدِّى لما تَفْسُد به النفوس وتَخْبُثُ به الآداب .

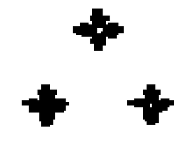
وأما من يُرَاعَى حاله فى الأمانة والخيانة، فمثل الصّاغَة والحاكَة والقَصّارين والصبّاغين، لأنهم ربما هَرَبوا بأموال الناس، فيُراعى أهلَ الثقة والأمانة منهم فيُقرّهم ويُبعد من ظهرت خيانته، ويُشهر أمره، لئلا يغترّ به من لا يعرفه . وقد قيل : إن الحُماةَ ووُلاة المَعاون أخصُّ بالنظر فى أحوال هؤلاء من وُلاة الحسبة؛ وهو الأشبه، لأن الخيانة تابعة للسّرقة .

---

(١) عبارة الأصل : « وللعلمين من الطرائق التى ينشأ الصغار عليها فيكون نقلهم عنه ... » وفيها تحريف واضح . والتصويب عن الأحكام السلطانية .

وأمّا من يراعى عمله فى الجودة والرداءة فهو مما ينفرد بالنظر فيه وُلاة الحسبة . ولهم أن يُنكروا عليهم فى العموم فسادَ العمل ورداءته وان لم يكن فيه مُستَعْدٍ؛ وأما فى عمل مخصوص آعتمد الصانع فيه الفسادَ والتدليسَ، فاذا آستعداه الخَصْم، قابَلَ عليه بالإنكار والزجر، وإن تَعَلَّق بذلك غُرْم رُوعِى حال الغرم، فإن آفتقر الى تقدير أو تقويم، لم يكن للمحتسب أن ينظر فيه، لآفتقاره الى آجتهاد حكمىّ؛ وكان القاضى بالنظر فيه أحقّ . وإن لم يفتقر الى تقـدير ولا تقويم وآستُحِقّ فيه المِثْلُ الذى لا آجتهاد فيـه ولا تنازع، فللمحتسب أن ينظر فيه بإلزام الغُرْم والتأديب .

ولا يجوز أن يُسعِّر على الناس الأقواتَ ولا غيرها فى رُخْصٍ ولا غَلاء؛ وأجازه مالك — رحمه الله — فى الأقوات مع الغلاء .



وأما النهى فى الحقوق المشتركة بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين، فكالمنع من الإشراف على منازل الناس . ولا يَلْزَم مَنْ عَلَّى بناءَه أن يَستُرَ سَطْحه، وإنما يلزمه ألّا يُشرف على غيره . ويُمنع أهلُ الذمة من تعلية أبنيتهم على أبنية المسلمين . فإن مَلَكوا أبنية عالية أُقِرُّوا عليها ومُنِعوا من الإشراف منها على المسلمين وأهل الذمة .

ويأخذ أهلَ الذمة بما شرط فى ذمتهم[(١)] من لُبْس الغِيَار والمُخالفة فى الهيئة وترك المجاهرة بقولهم فى عُزَير والمسيح . ويَمنع عنهم من تعرَّض لهم من المسلمين بسبٍّ أو أذى، ويؤدِّب عليه من خالف فيه .

(١) كذا فى الأحكام السلطانية، وفى الأصل : « من ذمتهم » .

وإذا كان فى أئمة المساجد السابلة والجوامع الحافلة (١) من يطيل الصلاة حتى يعجز الضعفاء وينقطع بها ذوو الحاجات، أنكر ذلك؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين أطال الصلاة بقومه: "أفتّانٌ أنت يا معاذ". فإن أقام على الإطالة ولم يمتنع منها، لم يجز أن يؤدّبه عليها، ولكن يستبدل به من يخففها.

وإذا كان فى القضاة من يحجب الخصوم اذا قصدوه، ويمتنع من النظر بينهم اذا تحاكموا اليه، حتى تقف الاحكام ويتضرر الخصوم، فللمحتسب أن يأخذه، مع آرتفاع الأعذار، بما ندب له من النظر بين المتحاكمين وفصل القضاء بين المتنازعين؛ ولا يمنع علوّ رتبته من إنكار ما قصّر فيه.

واذا كان فى سادة العبيد من يستعملهم فيما لا يطيقون الدوام عليه، كان منعهم والانكار عليهم موقوفا على آستعداء العبيد؛ فاذا آستعدوه منع حينئذ وزجر.

وإن كان فى أرباب المواشى من يستعملها فيما لا تطيق الدوام عليه، أنكره المحتسب عليهم ومنعهم منه وإن لم يكن فيه مستعد اليه. فإن آدّعى المالك آحتمال البهيمة لما يستعملها فيه، جاز للمحتسب أن ينظر فيه، لأنه وإن آفتقر الى آجتهاد فهو عرفى يرجع فيه الى عرف الناس، وليس باجتهاد شرعىّ. وللمحتسب الاجتهاد فى العرف. [١٦٩]

واذا استعداه العبد من آمتناع سيده من كسوته ونفقته (٢)، جاز له أن يأمره بهما ويأخذه بالتزامهما. ولو استعداه من تقصير سيده فيهما، لم يكن له فى ذلك نظر ولا إلزام؛ [لأنه يحتاج فى التقدير الى آجتهاد شرعىّ، ولا يحتاج فى التزام] (٣) الأصل الى آجتهاد شرعىّ، لأن التقدير غير منصوص عليه [ولزومه منصوص عليه] (٣).

(١) فى الأصل «والجوامع الحفلة». (٢) فى الأصل «بها» بضمير المفرد.
(٣) التكملة من الأحكام السلطانية.

وللمحتسب أن يمنع أربابَ السفن من حمل ما لا تَسَعه ويُخاف منه غَرَقُهـا . وكذلك يمنعهم من المسير عند اشتداد الريح . وإذا حُمِلَ فيها الرجالُ والنساء، حُجِزَ بينهم بحائل . وإذا ٱتّسعت السفن ، نُصِبَ للنساء مخارج للبَرَاز لئلا يتبرَّجْن عند الحاجة .

وإذا كان فى أهـل الأسواق من يختص بمعاملة النساء، رَاعَى المحتسبُ سِيرَته وأمانته ، فإذا تحقّقها منه ، أقرّه على معاملتهن . وإن ظهرت منه الرِّيبــة وبَانَ عليه الفجور، منعه من معاملتهن، وأدّبه على التعرّض لهن . وقد قيل : إن الحُمَاة وولاة المَعَاون أخصّ بإنكار هذا والمنع منه من وُلاة الحِسْبة، لأنه من توابع الزنا . وينظُر والى الحسبة فى مقاعد الأسواق، فيُقِرّ منها مالا ضَرَرَ على المارّة فيه، ويمنع ما ٱستَضَرُّوا به . ولا يقف منعُه على الاستعداء اليه .

وإذا بنى قوم فى طريقٍ سابل، مَنَعَ منه وإن ٱتّسع له الطريق، ويأخذُهم بهدم ما بَنَوْه ولو كان المبنىّ مسجدا؛ لأن مَرَافق الطُّرُق للسلوك لا للأبنية . وإذا وضع الناس الأمتعة وآلات الأبنية فى مسالك الشوارع والأسواق ٱرتفاقا لينقلُوه حالا بعد حال، مُكِّنوا منه إن لم يَستَضِرّ به المــارّة، ومُنِعُوا منه إن ٱستَضَرُّوا به . وكذلك القول فى إخراج الأجنحة والسوابيط(١) ومجارى المياه وآبار الحشوش(٢)، يقرّ مالم يضرّ، ويمنع ما ضرّ . ويجتهد المحتسب رأيَه فيما ضرّ ومالم يضر، لأنه من الاجتهاد العرفىّ [دون الشرعىّ . والفرق بين الاجتهادين أنّ الاجتهاد الشرعىّ ما رُوعى فيــه أصلٌ ثبتَ حكمه بالشرع، والاجتهاد العرفىّ ماروعى فيه أصل ثبت حكمه بالعرف . ويوضح الفرق بينهما بتميز مايسُوغ فيه ٱجتهاد المحتسب مما هو ممنوع من الاجتهاد فيه](٣) .

(١) السوابيط : جمع ساباط، والساباط : سقيفة بين دارين .

(٢) الحشوش : جمع حش مثلث الحاء، والحش : البستان . يطلق على بيت الخلاء كما هنا لما كان من عادتهم من التغوط فى البساتين .

(٣) زيادة عن الأحكام السلطانية .

ولناظر الحسبة أن يمنع من ينقل الموتى من قبورهم إذا دُفِنوا فى ملك أو مباح، إلا من أرض مغصوبة، فيكون لمالكها أن يأخذ من دفنهم فيها بنقلهم منها. وآختُلف فى جواز نقلهم من أرض قد لحقها سَيْلٌ أو نَدًى، فجوّزه الزُّبَيْرِىُّ وأباه غيره. ويمنع من خِصَاء الآدميين وغيرهم. ويؤدّب عليه؛ وإن آستُحِقّ فيه قَوَدٌ أو دِيَةٌ آستوفاه لمستحقّه ما لم يكن فيه تناكر وتنازع. ويمنع من خِضَاب الشَّيْب بالسواد إلا لمجاهد فى سبيل الله تعالى. ويؤدّب من يصبغ به[للنساء](٤). ولا يمنع من الخِضَاب بالحِنّاء والكَتَم(٥). ويمنع من التكسّب بالكِهَانة، ويؤدّب عليه الآخذ والمُعطى.

وهذا فصل يطول شرحُه، لأن المنكرات لا ينحصر عددها فتُستوفَى. وفيما تقدّم منها كفاية؛ والأحوال تؤخذ بنظائرها وأشباهها، فلا نطوّل بسردها.

وفقنا الله وإياك لصالح العمل، وجنّبنا مواردَ الخطأ ومصادر الزلل؛ وأعان كلَّ والٍ على ما ولّاه، وكلَّ راعٍ على ما آسترعاه، بمنّه وكرمه ولُطْفه.

---

(١) فى الأصل: «تصبغ به» وهو تحريف، والتصويب والزيادة عن الأحكام السلطانية.

(٢) الكتم بالتحريك: من نبات الجبال، ورقه كورق الآس يخضب به مدقوقا وله ثمر كنمر الفلفل.

---

كمل الجزء السادس من كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب"

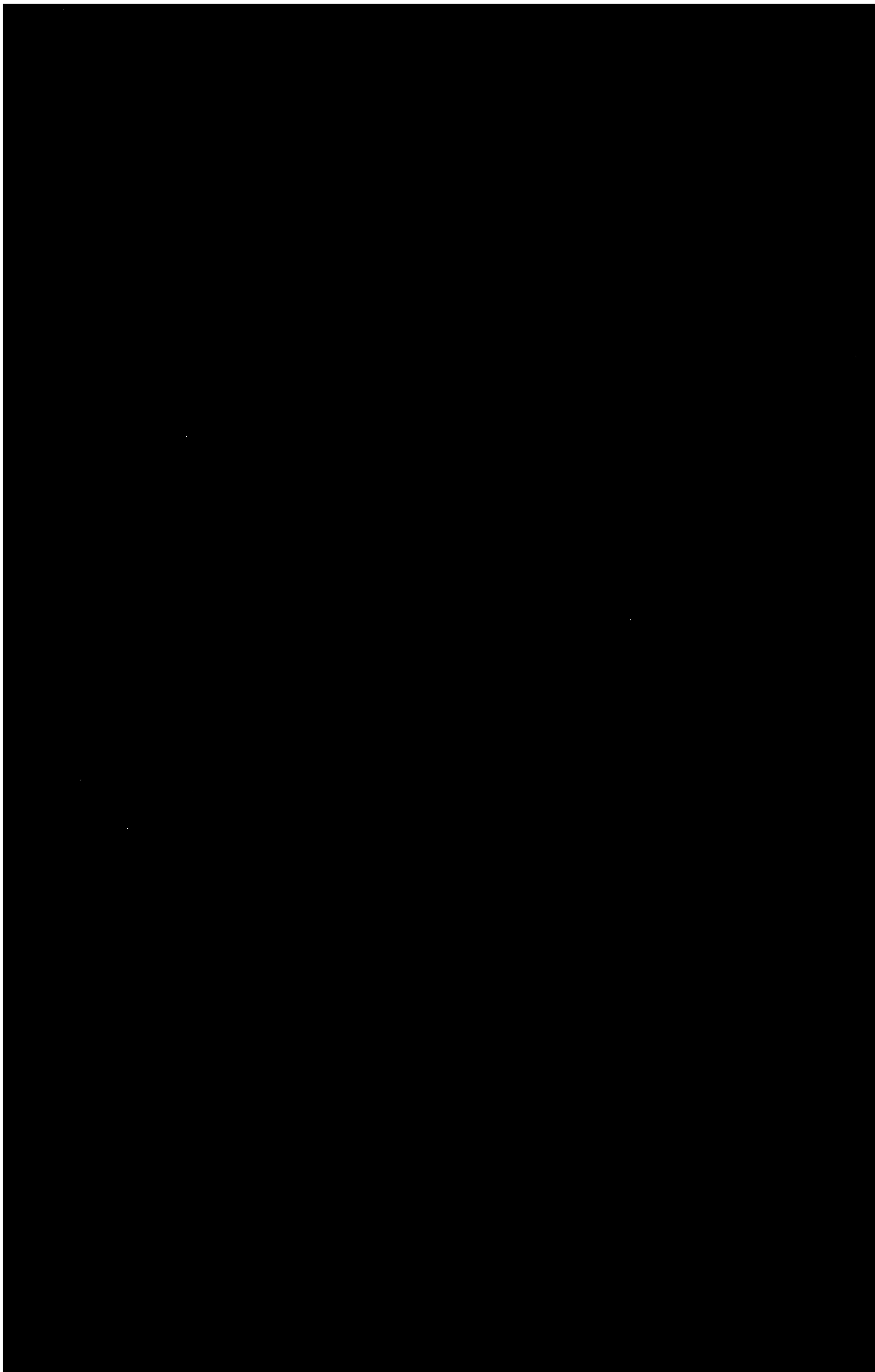
يتلوه — إن شاء الله تعالى — فى الجزء السابع الباب الرابع عشر من القسم

الخامس من الفنّ الثانى فى الكتابة وما تفرّع منها

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

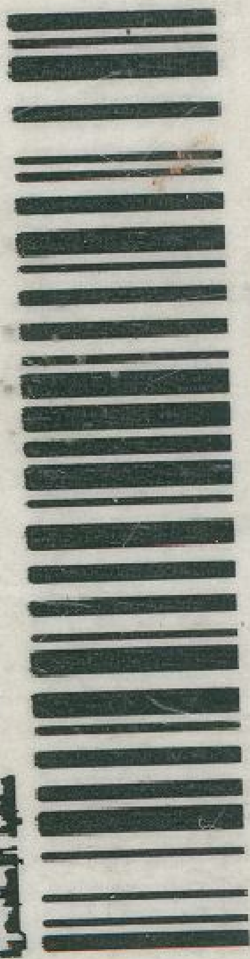
[illegible]

القاهرة








Bibliotheca Alexandrina
03827783
